

أول

دورية عربية إلكترونية مُحَكَّمة ربع سنوية
متخصصة في البحوث والدراسات التاريخية
تأسست غرة جمادى الأول ١٤٢٩ هـ
صدر العدد الأول سبتمبر ٢٠٠٨ م

العدد الرابعون السنة الحادية عشرة

يونيو ٢٠١٨ - رمضان ١٤٣٩

كل التاريخ

ISSN: 2090 - 0449

Universal Impact Factor **UIF**

Global Serials Directory **UlrichsWeb**

Impact Factor for Arabic Scientific Journals **AIF**

Arabic Index of Measuring the Quality of Scientific Journals **AIMSIQ**

www.kanhistorique.org



kanhistorique



ISSN 0209-004X

9 770209 004499

رقمية الموطن عربية الهوية عالمية الاله

دورية كان التاريخية- س ١١، ع ٤٠ (يونيو ٢٠١٨ / رمضان ١٤٣٩)

Dawriyyat Kān al-Tārīhiyyat
Iliktrūniyyat, muḥakkamat, rub' sanawiyyat
Vol. 11, no. 40 [June 2018]
Cairo – Arab Republic of Egypt.
<http://www.kanhistorique.org>
Information on this issue: www.kanhistorique.org/Archive/2018/Issue40

تصنيف ديوي العشري – مقالات ودراسات ع ٤٠ يونيو ٢٠١٨

٩٠٩,٠٧	الحروب الصليبية
٩٥٣	التاريخ العام للعرب والمسلمين
٩٥٣,٠٩	الدولة العثمانية في أقطار العالم العربي
٩٥٣,١	المملكة العربية السعودية
٩٥٣,٠٧١	تاريخ الأندلس
٩٥٣,٠٧٣٩	الدولة السلجوقية
٩٦٤,٠٩	تاريخ المغرب الحديث
٩٦٥	تاريخ الجزائر – الاحتلال والاستقلال

دورية كان التاريخية

إصدار مؤسسة كان للدراسات والترجمة والنشر- س ١، ع ١٤ (سبتمبر ٢٠٠٨). القاهرة: المؤسسة،
٢٠٠٨ – ٢٠١٨.

دورية إلكترونية مُحَكَّمة ربع سنوية
متخصصة في البحوث والدراسات التاريخية
رمد ٢٠٩٠ – ٤٤٩

١- تاريخ	٢- الآثار
٣- التراجم	٤- التراث

ديوي ٩٠٥

Historical Kan Periodical

Published by Historical Kan Organization.- Vol.1, no.1 [September 2008].- Cairo:
Organization, 2008 – 2018.

Peer-reviewed, open-access journal.

Indexed and abstracted in several international databases.

ISSN: 2090 – 0449 (Online)

Keywords: History, Heritage, Archaeology, Biographies.

© ٢٠١٨ دورية كان التاريخية – جميع الحقوق محفوظة

Copyright © 2018 Historical Kan Periodical

All rights reserved. No part of this publication may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted, in any form or by any means, electronic, mechanical, photocopying, microfilming, recording or otherwise, without written permission from the publisher.

- النتائج والتفسيرات والاستنتاجات الواردة في هذه الدورية هي للمؤلفين، ولا تمثل بالضرورة أعضاء هيئة التحرير أو أعضاء الهيئة العلمية، أو أعضاء الهيئة الاستشارية، ولا يترتب عليها أي مسؤولية.
- ليس في التسميات المستخدمة في هذه الدورية، ولا في طريقة عرض مادتها، ما يتضمن التعبير عن رأي كان من جانب أعضاء هيئة التحرير أو أعضاء الهيئة العلمية، أو أعضاء الهيئة الاستشارية، بشأن المركز القانوني لأي بلد أو إقليم أو مدينة أو منطقة أو سلطات أي منها، أو بشأن تعيين حدودها أو تخومها، كما أن الخرائط الواردة في المقالات والدراسات لا تعتبر مرجعاً للحدود الدولية.
- الهدف من الروابط الإلكترونية الموجودة في هذه الدورية تسهيل وصول القارئ إلى المعلومات، وهي صحيحة في وقت استخدامها، ولا تتحمل الدورية أي مسؤولية عن دقة هذه المعلومات مع مرور الوقت، أو عن مضمون أي من المواقع الإلكترونية الخارجية المشار إليها.
- لا يعني ذكر أسماء جهات أكاديمية، أو مؤسسات علمية، أو شركات تجارية أن دورية كان التاريخية تدعمها.

أول دورية عربية إلكترونية مُحَكَّمة ربع سنوية
متخصصة في الدراسات التاريخية
تأسست غرة جمادى الأول ١٤٢٩ هـ
صدر العدد الأول منها في سبتمبر ٢٠٠٨ م



ISSN: 2090 – 0449 Online

مسجلة ومفهرسة في قواعد البيانات الببليوجرافية العالمية

- Academic Journals Database
- Access to Mideast and Islamic Resources, AMIR
- CORE: Open Access repositories
- Directory of Abstract Indexing for Journals, DAIJ
- Directory of Open Access Scholarly Resources, ROAD
- Directory of Research Journals Indexing, DRJI
- Eurasian Scientific Journal Index
- Google Scholar
- Host Online Research Databases, EBSCO
- Journal Database – Zurich Open Repository and Archive
- JOURNAL FACTOR – forum for promoting research work
- Journal Guide- Research Square
- ROOT INDEXING – Journal abstracting and indexing
- The researchBib Journal database
- Ulrichsweb
- WorldCat

مدرجة في الأداة الرقمية لمكتبات الجامعات والمراكز البحثية العالمية

- Birmingham Public Library
- Max Planck Institute for the Physics of Complex Systems
- National Cheng Kung University Library
- National Taiwan Normal University Library
- NYPL (New York Public Library)
- OALib - Open Access Library
- OREGON Health & Science University
- San Francisco Public Library
- SAN JOSÉ STATE UNIVERSITY
- Stanford University Libraries & Academic Information Resources
- State Library of New South Wales
- State Library of Queensland (Australia)
- The J. Paul Getty Trust
- The University of Texas at El Paso Library
- Toronto Public Library
- UCDAVIS University Library
- University of California
- University of Michigan
- University of Rochester
- University of South Australia
- Villanova University

دراسات ومقالات الدورية مفهرسة وذات خلاصات

www.kanhistorique.org

أعداد الدورية متوفرة للقراءة عبر:

دار ناشري للنشر الإلكتروني

أول دار نشر إلكترونية عربية مجانية تأسست يوليو ٢٠٠٣ - الكويت

www.nashiri.net



أعداد الدورية متوفرة للقراءة عبر:

أرشيف الإنترنت الرقمي العالمي

منظمة غير ربحية - سان فرانسيسكو - الولايات المتحدة

www.archive.org



مقالات الدورية مفهرسة في:

قاعدة معلومات اللغة والأدب والعلوم الإنسانية

دار المنظومة "الرواد في قواعد المعلومات العربية" - السعودية

www.mandumah.com



مقالات الدورية مفهرسة في:

قاعدة بيانات المنهل

أول قاعدة بيانات عربية تأسست ٢٠١٠ - الإمارات

www.almanhal.com



مقالات الدورية مفهرسة في:

قاعدة البيانات العربية الرقمية "معرفة"

شركة عالم المعرفة للمحتوى الرقمي تأسست ٢٠٠٤ - الأردن

www.e-marefa.net



دورية كان التاريخية مدرجة في:

دليل الدوريات العربية المجانية

الدوريات العلمية الفَحَّكَّة الصادرة في الوطن العربي والمتاحة على شبكة الإنترنت مجاناً

www.dfaj.net



موقع دورية كان التاريخية مسجل لدى:

هيئة الإنترنت للأسماء والأرقام المخصصة

الآيكان منظمة غير ربحية تأسست ١٩٩٨ - كاليفورنيا

www.icann.org



433

كُتَاب الدورية

25

الدول العربية والأجنبية

134

الجامعات والمؤسسات الأكاديمية والعلمية

766

المقالات والدراسات المنشورة في الدورية



المنتترف العام

بهاء الدين ماجد

مدير إدارة الخرائط "السابق"
دار الكتب والوثائق القومية المصرية

تعتبر الدوريات شرياناً رئيساً من شرايين المعلومات في المكتبات ومراكز المعلومات وخاصةً المكتبات الأكاديمية التي تولي اهتماماً خاصاً للدوريات العلمية في مختلف مجالات المعرفة. ولقد ظلت الدوريات المطبوعة هي السائدة في مقتنيات المكتبات الأكاديمية حتى قبيل نهايات القرن العشرين وقبل التحول الجذري في وسائل نقل المعلومات إلى الوسيط الرقمي الذي يزداد يوماً بعد يوم.

تحددت مهام أعضاء الهيئة الاستشارية وفق مذكرة تأسيس دورية كان التاريخية في غرة جمادى الأول ١٤٢٩ هجرية، حيث تتكون الهيئة الاستشارية من خبراء ومتخصصين بهدف التعاون مع طاقم عمل الدورية لخدمة البحث العلمي، وتقديم الدعم الفني من خلال تبادل الآراء والمقترحات. والتواصل مع المؤسسات الأكاديمية العربية والأساتذة والباحثين بما يعزز مكانة الدورية في الأوساط العلمية. وتقديم المشورة والنصح في الموضوعات المطروحة من قبل هيئة التحرير. والتعريف بأهداف الدورية، وتشجيع الباحثين على النشر العلمي الرقمي. وتولي مهمة التوصية فيما يتعلق بتطوير الدورية من حيث الشكل والمضمون.

مدير التحرير

د. إسراء المنسي

عملت هيئة التحرير ومنذ اليوم الأول على بناء الأرضية الثقافية الرقمية من أجل المساعدة في استحداث وعي ثقافي تاريخي عند الجيل العربي الشاب، وخصوصاً فيما يتعلق بأهمية التاريخ والتراث وارتباطهما المباشر بالهوية العربية والإنتاج الإبداعي الثقافي المستدام



الهيئة الاستشارية

أ.د. بشار محمد خليف	سوريا
أ.د. خالد بلعربي	الجزائر
أ.د. خليف مصطفى غرايبة	الأردن
أ.د. الطاهر جبلي	الجزائر
أ.د. عارف محمد عبد الله الرعوي	اليمن
أ.د. عائشة محمود عبد العال	مصر
أ.د. عبد الرحمن محمد الحسن	السودان
أ.د. عبد العزيز غوردو	المغرب
أ.د. عبد الناصر محمد حسن يس	مصر
أ.د. عطاء الله أحمد فشار	الجزائر
أ.د. علي حسين الشطشاط	ليبيا
أ.د. فتحي عبد العزيز محمد	مصر
أ.د. كرفان محمد أحمد	العراق
أ.د. محمد الأمين ولد أن	موريتانيا
أ.د. محمد عبد الرحمن يونس	سوريا
أ.د. محمود أحمد درويش	مصر
أ.د. ناظم رشم معتوق الأمارة	العراق
أ.د. نهلة أنيس مصطفى	مصر

الهيئة العلمية

د. أنور محمود زناتي	مصر
د. غسان محمود وشاح	فلسطين
د. هدى المجاطي	المغرب

هيئة التحرير

د. الحسين عادل أبوزيد	مصر
د. عبد الرحمن محمد الإبراهيم	الكويت
د. محمد الصافي	المغرب

"كان التاريخية" أول مبادرة عربية مستقلة متخصصة، تدعم مبدأ "المعبر المفتوح" في تداول المعرفة على شبكة الإنترنت بتشجيع النشر الرقمي للدراسات التاريخية. "كان التاريخية" غير هادفة للربح وتتيح نصوصها كاملة على شبكة الإنترنت، وتسعى إلى استيعاب روافد كل الأفكار والثقافات ذات البعد التاريخي.



كان التاريخ

حاصلة على "معامل التأثير العالمي" (UIF) للمجلات العالمية والعلمية

حاصلة على "معامل التأثير العربي" (AIF) للدوريات العلمية العربية المَحَكَّمة

مسجلة في دليل أولريخ الدولي للدوريات (UlrichsWeb) تحت رقم ٦٨٨١٤

رئيس التحرير

د. أشرف صالح محمد

أستاذ مساعد تاريخ وراث العصور الوسطى
كلية الآداب والعلوم الإنسانية – جامعة ابن رشد



A MERCHANT AND HIS WARES

Painted in 1881.

Vicente March Marco (1859 – 1927)

المراسلات

توجه المراسلات والموضوعات المطلوبة للنشر باسم
رئيس تحرير دورية كان التاريخية على البريد الإلكتروني:

mr.ashraf.salih@gmail.com



historickan



groups/kanhistorique



kanhistorique



kanhistorique.blogspot.com



goodreads.com/kanhistorique



www.kan.nashiri.net

الإستعار القانوني

دورية كان التاريخية غير مدعومة من أية جهة داخلية أو خارجية أو حزب أو تيار سياسي، إنما هي منبر علمي ثقافي مستقل يعتمد على جهود المخلصين من أصحاب الفكر ومحبي الثقافة الذين يؤمنون بأهمية الدراسات التاريخية.

موضوعات الدورية

الدورية متخصصة في المقالات والدراسات العلمية والأكاديمية البحتة التي تخص أساتذة وطلاب الجامعات العربية، وأصحاب الدراسات العليا، والباحثين في الدراسات التاريخية، والمهتمين بالقراءات التاريخية، وتعتبر الموضوعات المنشورة في الدورية عن وجهة نظر كاتبها، ولا تعبر بالضرورة عن جهة نظر دورية كان التاريخية أو هيئة التحرير.

حقوق الملكية الفكرية

لا تتحمل دورية كان التاريخية أية مسؤولية عن الموضوعات التي يتم نشرها في الدورية. ويتحمل الكتاب بالتالي كامل المسؤولية عن كتاباتهم التي تخالف القوانين أو تنتهك حقوق الملكية أو حقوق الآخرين أو أي طرف آخر.

حقوق الطبع والنشر والترجمة

جميع حقوق الطبع والنشر الورقي والرقمي والترجمة محفوظة لدورية كان التاريخية، وبموجب الاعتماد والتسجيل الممنوح للدورية يحق لرئيس التحرير اتخاذ الإجراءات القانونية تجاه أي فرد أو مؤسسة أو موقع على شبكة الإنترنت يعيد استخدام محتويات الدورية بدون اتفاقية قانونية.

رخصة التشارك الإبداعي

دورية كان التاريخية مسجلة تحت التراخيص العامة غير التجارية لدى منظمة التشارك الإبداعي في سان فرانسيسكو استنادًا إلى موقعها الإلكتروني. "كان التاريخية" غير تجارية ولا تفرض رسوم على المراجعة والتحكيم والنشر.

إدارة المعرفة

كان التَّاريخية تعمل بنظام منظمات المعرفة، تدعم قيم التبادل المعرفي، يتعاون فيها الجميع بصفة تطوعية ولغايات غير ربحية، من أجل المحافظة على الهوية الثقافية العربية والإسلامية وخصوصًا اللغة العربية كونها الوسيط الرئيس للتواصل وتبادل الأبحاث التاريخية بين البلدان العربية.

علاقات تعاون

ترتبط دورية كان التاريخية بعلاقات تعاون مع عدة مؤسسات عربية ودولية بهدف تعزيز العمل العلمي في المجالات ذات الاختصاص المشترك، وتعظيم الفائدة من البحوث والدراسات التي تنشرها الدورية، وتوسيع حجم المشاركة لتشمل الفائدة كل أنحاء الوطن العربي.



الرجاء مراعاة البيئة قبل الطباعة، لا تطبع صفحات الدورية إلا إذا كنت في حاجة إليها بصورة ورقية.

ترحب دَّورِيَّةُ كَانِ التَّارِيخِيَّةِ بنشر البحوث الجيدة والجديدة المبتكرة في أي من حقول الدراسات التاريخية، أو العلوم المساعدة ذات العلاقة، ويشمل ذلك كل العلوم نظراً لطبيعة التَّارِيخِ كعلم يتناول النشاط الإنساني كافة. مع مراعاة عدم تعارض الأعمال العلمية المقدمة للنشر مع العقائد السماوية، وألا تتخذ أية صفة سياسية، وألا تتعارض مع الأعراف والأخلاق الحميدة، وأن تتسم بالجدَّة والأصالة والموضوعية، وتكتب بلغة عربية سليمة، وأسلوب واضح.

سياسات النشر

تسعى دَّورِيَّةُ كَانِ التَّارِيخِيَّةِ إلى استيعاب روافد كل الأفكار والثقافات ذات البعد التاريخي، ويسعدها أن تستقبل مساهمات أصحاب القلم من الأساتذة الأكاديميين والباحثين والكتَّاب المثقفين الأفاضل، ضمن أقسام الدورية: البحوث والدراسات، عروض الكتب، عروض الأطاريح الجامعية، تقارير اللقاءات العلمية.

هيئة التحرير:

- تُعطى الأولوية في النشر للبحوث والعروض والتقارير حسب الأسبقية الزمنية للورود إلى هيئة تحرير الدورية، وذلك بعد إجازتها من هيئة التحكيم، ووفقاً للاعتبارات العلمية والفنية التي تراها هيئة التحرير.
- تقوم هيئة التحرير بالقراءة الأولية للبحوث العلمية المقدمة للنشر بالدورية للتأكد من توافر مقومات البحث العلمي، وتخضع البحوث والدراسات والمقالات بعد ذلك للتحكيم العلمي والمراجعة اللغوية.
- يكتفي بالإجازة من قبل اثنين من أعضاء هيئة التحرير لنشر مراجعات الكتب، والأطاريح الجامعية، وتقارير اللقاءات العلمية.
- يحق لهيئة التحرير إجراء التعديلات الشكلية على المادة المقدمة للنشر لتكن وفق المعيار (IEEE) تنسيق النص في عمودين، مع مراعاة توافق حجم ونوع الخط مع نسخة المقال المعياري.
- تقوم هيئة التحرير باختيار ما تراه مناسباً للنشر من الجرائد والمجلات المطبوعة والإلكترونية مع عدم الإخلال بحقوق الدوريات والمواقع وذكر مصدر المادة المنشورة.

هيئة التحكيم:

- يعتمد قرار قبول البحوث المقدمة للنشر على توصية هيئة التحرير والمحكمين؛ حيث يتم تحكيم البحوث تحكيمياً سرياً بإرسال العمل العلمي إلى المحكمين بدون ذكر اسم الباحث أو ما يدل على شخصيته، ويفرق مع العمل العلمي المراد تحكيمه استمارة تقويم تضم قائمة بالمعايير التي على ضوءها يتم تقويم العمل العلمي.
- يستند المحكمون في قراراتهم في تحكيم البحث إلى مدى ارتباط البحث بحقل المعرفة، والقيمة العلمية لنتائجه، ومدى أصالة أفكار البحث وموضوعه، ودقة الأدبيات المرتبطة بموضوع البحث وشمولها، بالإضافة إلى سلامة المنهج العلمي المستخدم في الدراسة، ومدى ملاءمة البيانات والنتائج النهائية لفرضيات البحث، وسلامة تنظيم أسلوب العرض من حيث صياغة الأفكار، ولغة البحث، وجودة الجداول والأشكال والصور ووضوحها.
- البحوث والدراسات التي يقترح المحكمون إجراء تعديلات جذرية عليها تعاد إلى أصحابها لإجرائها في موعد أقصاه أسبوعين من تاريخ إرسال التعديلات المقترحة إلى المؤلف، أما إذا كانت التعديلات طفيفة فتقوم هيئة التحرير بإجرائها.
- تبذل هيئة التحرير الجهد اللازم لإتمام عملية التحكيم، من متابعة إجراءات التعديل، والتحقق من استيفاء التصويبات والتعديلات المطلوبة، حتى التوصل إلى قرار بشأن كل بحث مقدم قبل النشر، بحيث يتم اختصار الوقت اللازم لذلك إلى أدنى حد ممكن.
- في حالة عدم مناسبة البحث للنشر، تقوم الدورية بإخطار الباحث بذلك، أما بالنسبة للبحوث المقبولة والتي اجتازت التحكيم وفق الضوابط العلمية المتعارف عليها، واستوفت قواعد وشروط النشر بالدورية، فيُمنح كل باحث إفادة بقبول بحثه للنشر.
- تقوم الدورية بالتدقيق اللغوي للأبحاث المقبولة للنشر، وتقوم هيئة التحرير بعد ذلك بمهمة تنسيق البحث ليخرج في الشكل النهائي المتعارف عليه لإصدارات الدورية.

إرشادات المؤلفين [الاشتراطات الشكلية والمنهجية]

ينبغي ألا يزيد حجم البحث على ثلاثين (٣٠) صفحة، مع الالتزام بالقواعد المتعارف عليها عالميًا بشكل البحوث، بحيث يكون المحتوى حسب التسلسل: ملخص، مقدمة، موضوع البحث، خاتمة، ملاحق: (الأشكال / الجداول)، الهوامش، المراجع.

البحوث والدراسات العلمية

تقبل الأعمال العلمية المكتوبة باللغتين العربية والإنجليزية التي لم يسبق نشرها أو تقديمها للنشر في مجلة إلكترونية أو مطبوعة أخرى.

تقبل البحوث والدراسات المنشورة من قبل في صورة ورقية، ولا تقبل الأعمال التي سبق نشرها في صورة رقمية: مدونات/ منتديات/ مواقع/ مجلات إلكترونية، ويستثنى من ذلك المواضيع القيمة حسب تقييم رئيس التحرير.

يجب أن يتسم البحث العلمي بالجودة والأصالة في موضوعه ومنهجه وعرضه، متوافقاً مع عنوانه.

التزام الكاتب بالأمانة العلمية في نقل المعلومات واقتباس الأفكار وعزوها لأصحابها، وتوثيقها بالطرق العلمية المتعارف عليها.

اعتماد الأصول العلمية في إعداد وكتابة البحث من توثيق وهوامش ومصادر ومراجع، مع الالتزام بعلامات الترقيم المتنوعة.

عنوان البحث:

يجب ألا يتجاوز عنوان البحث عشرين (٢٠) كلمة، وأن يتناسب مع مضمون البحث، ويدل عليه، أو يتضمن الاستنتاج الرئيس.

نبذة عن المؤلف (المؤلفين):

يقدم مع البحث نبذة عن كل مؤلف في حدود (٥٠) كلمة تبين آخر درجة علمية حصل عليها، واسم الجامعة (القسم/ الكلية) التي حصل منها على الدرجة العلمية والسنة. والوظيفية الحالية، والمؤسسة أو الجهة أو الجامعة التي يعمل لديها، والمجالات الرئيسة لاهتماماته البحثية. مع توضيح عنوان المراسلة (العنوان البريدي)، وأرقام (التليفون- الموبايل / الجوال- الفاكس).

صورة شخصية:

ترسل صورة واضحة لشخص الكاتب لنشرها مع البحث، كما تستخدم بغرض إنشاء صفحة للكاتب في موقع الدورية على شبكة الإنترنت.

ملخص البحث:

يجب تقديم ملخص للبحوث والدراسات باللغة العربية في حدود (٣٥٠ - ٣٠٠) كلمة. البحوث والدراسات باللغة الإنجليزية، يرفق معها ملخص باللغة العربية في حدود (١٥٠ - ٢٠٠) كلمة.

الكلمات المفتاحية:

الكلمات التي تستخدم للفهرسة لا تتجاوز عشرة كلمات، يختارها الباحث بما يتواءم مع مضمون البحث، وفي حالة عدم ذكرها، تقوم هيئة التحرير باختيارها عند فهرسة المقال وإدراجه في قواعد البيانات بغرض ظهور البحث أثناء عملية البحث والاسترجاع على شبكة الإنترنت.

مجال البحث:

الإشارة إلى مجال تخصص البحث المرسل "العام والدقيق".

المقدمة:

تتضمن المقدمة بوضوح دواعي إجراء البحث (الهدف)، وتساؤلات وفرضيات البحث، مع ذكر الدراسات السابقة ذات العلاقة، وحدود البحث الزمانية والمكانية.

موضوع البحث:

يراعي أن تتم كتابة البحث بلغة عربية سليمة واضحة مركزة بأسلوب علمي حيادي. وينبغي أن تكون الطرق البحثية والمنهجية المستخدمة واضحة، وملائمة لتحقيق الهدف، وتتوفر فيها الدقة العلمية. مع مراعاة المناقشة والتحليل الموضوعي الهادف في ضوء المعلومات المتوفرة بعيداً عن الحشو (تكرار السرد).

الجدول والأشكال:

ينبغي ترقيم كل جدول (شكل) مع ذكر عنوان يدل على فحواه، والإشارة إليه في متن البحث على أن يدرج في الملاحق. ويمكن وضع الجداول والأشكال في متن البحث إذا دعت الضرورة إلى ذلك.

الصور التوضيحية:

في حالة وجود صور تدعم البحث، يجب إرسال الصور على البريد الإلكتروني في «ملف منفصل» على هيئة (JPEG)، حيث أن وضع الصور في ملف الكتابة (Word) يقلل من درجة وضوحها (Resolution).

خاتمة (خلاصة):

تحتوي على عرض موضوعي للنتائج والتوصيات الناتجة عن محتوى البحث، على أن تكون موجزة بشكل واضح، ولا تأتي مكررة لما سبق أن تناوله الباحث في أجزاء سابقة من موضوع البحث.

الهوامش:

يجب إدراج الهوامش في شكل أرقام متسلسلة في نهاية البحث، مع مراعاة أن يذكر اسم المصدر أو المرجع كاملاً عند الإشارة إليه لأول مرة، فإذا تكرر يستخدم الاسم المختصر، وعلى ذلك فسوف يتم فقط إدراج المستخدم فعلاً من المصادر والمراجع في الهوامش. يمكن للباحث إتباع أي أسلوب في توثيق الحواشي (الهوامش) بشرط التوحيد في مجمل الدراسة، وإمكان الباحث استخدام نمط "APA" American Psychological Association الشائع في توثيق الأبحاث العلمية والتطبيقية، حيث يُشار إلى المرجع في المتن بعد فقرة الاقتباس مباشرة وفق الترتيب التالي: (اسم عائلة المؤلف، سنة النشر، رقم الصفحة)، على أن تدون الإحالات المرجعية كاملة في نهاية البحث.

المراجع:

يجب أن تكون ذات علاقة فعلية بموضوع البحث، وتوضع في نهاية البحث، وتتضمن قائمة المراجع الأعمال التي تم الإشارة إليها فقط في الهوامش، أي يجب ألا تحتوي قائمة المراجع على أي مرجع لم تتم الإشارة إليه ضمن البحث. وترتب المراجع طبقاً للترتيب الهجائي، وتصنف في قائمة واحدة في نهاية البحث مهما كان نوعها: كتب، دوريات، مجلات، وثائق رسمية، ... الخ، ويمكن للباحث إتباع أي أسلوب في توثيق المراجع والمصادر بشرط التوحيد في مجمل الدراسة.

حقوق المؤلف

- المؤلف مسئول مسؤولية كاملة عما يقدمه للنشر بالدورية، وعن توافر الأمانة العلمية به، سواء لموضوعه أو لمحتواه ولكل ما يرد بنصه وفي الإشارة إلى المراجع ومصادر المعلومات.
- جميع الآراء والأفكار والمعلومات الواردة بالبحث تعبر عن رأي كاتبها وعلى مسئوليته هو وحده ولا تعبر عن رأي أحد غيره، وليس للدورية أو هيئة التحرير أية مسؤولية في ذلك.
- ترسل الدورية لكل صاحب بحث أُجيز للنشر، نسخة من العدد المنشور به البحث، ومستلة من البحث على البريد الإلكتروني.
- يحق للكاتب إعادة نشر البحث بصورة ورقية، أو إلكترونياً بعد نشره في الدورية دون الرجوع لهيئة التحرير، ويحق للدورية إعادة نشر المقالات والبحوث بصورة ورقية لغايات غير ربحية دون الرجوع للكاتب.
- يحق للدورية إعادة نشر البحث المقبول منفصلاً أو ضمن مجموعة من المساهمات العلمية الأخرى بلغتها الأصلية أو مترجمة إلى أية لغة أخرى، وذلك بصورة إلكترونية أو ورقية لغايات غير ربحية.
- لا تدفع المجلة أية مكافآت مالية عما تقبله للنشر فيها، ويعتبر ما ينشر فيها إسهاماً معنوياً من الكاتب في إثراء المحتوى الرقمي العربي.

تقارير اللقاءات العلمية

- ترحب الدورية بنشر التقارير العلمية عن الندوات، والمؤتمرات، والحلقات النقاشية (سيمنار) الحديثة الانعقاد في دول الوطن العربي، والتي تتصل بموضوعاتها بالدراسات التاريخية، بالإضافة إلى التقارير عن المدن والمواقع الأثرية، والمشروعات التراثية.
- يشترط أن يغطي التقرير فعاليات اللقاء (ندوة / مؤتمر / ورشة عمل / سيمينار) مركزاً على الأبحاث العلمية، وأوراق العمل المقدمة، ونتائجها، وأهم التوصيات التي يتوصل إليها اللقاء.
- ألا تزيد عدد صفحات التقرير عن (١٠) صفحات.

الإصدارات والتوزيع

- تصدر دورية كان التاريخية أربع مرات في السنة: (مارس - يونيو - سبتمبر - ديسمبر).
- الدورية متاحة للقراءة والتحميل عبر موقعها الإلكتروني على شبكة الإنترنت.
- ترسل الأعداد الجديدة إلى كُتّاب الدورية على بريدهم الإلكتروني الخاص.
- يتم الإعلان عن صدور الدورية عبر المواقع المتخصصة، والمجموعات البريدية، وشبكات التواصل الاجتماعي.

المراسلات

- تُرسل الاستفسارات والاقتراحات للبريد الإلكتروني: info@kanhistorique.org
- تُرسل الأعمال المطلوبة للنشر إلى رئيس التحرير: mr.ashraf.salih@gmail.com

قواعد عامة

تُرسل كافة الأعمال المطلوبة للنشر بصيغة برنامج مايكروسوفت وورد Word ولا يلتفت إلى أي صيغ أخرى.

المساهمون للمرة الأولى من أعضاء هيئة التدريس بالجامعات يرسلون أعمالهم مصحوبة بسيرهم الذاتية العلمية "أحدث نموذج" مع صورة شخصية واضحة (High Resolution).

ترتب الأبحاث عند نشرها في الدورية وفق اعتبارات فنية لا علاقة لها بمكانة الباحث أو قيمة البحث.

عروض الكتب

- تنشر الدورية المراجعات التقييمية للكتب "العربية والأجنبية" حديثة النشر. أما مراجعات الكتب القديمة فتكون حسب قيمة الكتاب وأهميته.
- يجب أن يعالج الكتاب إحدى القضايا أو المجالات التاريخية المتعددة، ويشتمل على إضافة علمية جديدة.
- يعرض الكاتب ملخصاً وافياً لمحتويات الكتاب، مع بيان أهم أوجه التميز وأوجه القصور، وإبراز بيانات الكتاب كاملة في أول العرض: (اسم المؤلف / المحقق / المترجم، الطبعة، الناشر، مكان النشر، سنة النشر، السلسلة، عدد الصفحات).
- ألا تزيد عدد صفحات العرض عن (١٢) صفحة.

عروض الأطاريح الجامعية

- تنشر الدورية عروض الأطاريح الجامعية (رسائل الدكتوراه والماجستير) التي تم إجازتها بالفعل، ويُراعى في الأطاريح (الرسائل) موضوع العرض أن تكون حديثة، وتمثل إضافة علمية جديدة في أحد حقول الدراسات التاريخية والعلوم ذات العلاقة.
- إبراز بيانات الأطروحة كاملة في أول العرض (اسم الباحث، اسم المشرف، الكلية، الجامعة، الدولة، سنة الإجازة).
- أن يشتمل العرض على مقدمة لبيان أهمية موضوع البحث، مع ملخص لمشكلة (موضوع) البحث وكيفية تحديدها.
- ملخص لمنهج البحث وفروضه وعينته وأدواته، وخاتمة لأهم ما توصل إليه الباحث من نتائج.
- ألا تزيد عدد صفحات العرض عن (١٥) صفحة.

الخَطّ العربي من اللَّحظة الأَنطولوجِيَّة إلى اللَّحظة الإستيتيقِيَّة	١٩ - ١٠
المستشرقون الألمان والتراث العربي الإسلامي المخطوط: بين التحقيق والتلفيق	٣٠ - ٢٠
سباق العربات في المغرب القديم ونماذج من منافساته	٣٩ - ٣١
صناعة الخشب في الجزائر خلال العهد العثماني	٤٨ - ٤٠
اقتصاد الوساطة في مغارب العصر الوسيط	٥٧ - ٤٩
علاقة الأشعرية بالسلطة في الدولة السلجوقية (١٠٥٥ - ١٠٩٢ م / ٤٤٧ - ٤٨٤ هـ)	٦٦ - ٥٨
التصوف في المغرب والأندلس من الفتح إلى عصر الدولة المرابطية	٨٧ - ٦٧
أسرة آل رشيد ودورها في تنشيط الحياة الفكرية في مدينة حائل (١٢٥٠ - ١٣٤٠ هـ / ١٨٣٥ - ١٩٢١ م)	٩٦ - ٨٨
جوانب من الإصلاحات الإدارية في المغرب خلال عهد مولاي الحسن (١٨٧٣ - ١٨٩٤ م)	١٠٥ - ٩٧
تهريب الكيف في المغرب خلال فترة الحماية ١٩١٢ - ١٩٥٦	١١٣ - ١٠٦
العلاقات الإيرانية - السوفيتية من استلام غوريانوشوف للسلطة حتى نهاية الحرب العراقية - الإيرانية	١٢٨ - ١١٤
صفحات من تاريخ الصراع الجزائري الإسباني خلال القرن الثامن عشر	١٣٨ - ١٢٩
دور إيالة الجزائر في ظهور المصالح التجارية الأمريكية بغرب البحر الأبيض المتوسط (١٧٩٥ - ١٨١٦ م)	١٤٨ - ١٣٩
الأزمات الداخلية لحزب الشعب الجزائري حركة انتصار الحريات الديمقراطية (١٩٤٥ - ١٩٥٤ م)	١٥٨ - ١٤٩
قضية التعريب في الجزائر المستقلة من خلال الصحافة الوطنية: جريدة الشعب أنموذجاً (١٩٦٢ - ١٩٦٥)	١٧١ - ١٥٩
العلاقات الجزائرية - التركية بين الإرث التاريخي والتحديات الراهنة	١٧٩ - ١٧٢
عرض كتاب: المدارس التاريخية: برلين، السوريون، استراسبورغ: من المنهج إلى التناهج	١٨٥ - ١٨٠
عرض أطروحة: سياسة المغرب الإفريقية: حصيلة التاريخ المشترك وإكراهات التدخل الإسباني خلال ق ١٥ م	١٩٢ - ١٨٦
ملف العدد: تدنيس المقدس في بلاد الشام عصر الحروب الصليبية: الدين والجنس	٢٠٢ - ١٩٣
دراسة باللغة الإنجليزية: المصادر التاريخية والرواية القرآنية المغيبة في تاريخ فلسطين والقدس	٢٢١ - ٢٠٣

العربي بنرمضان	كلية الآداب والعلوم الإنسانية - فاس	المغرب	عبد الرزاق السعيد	مركز الدراسات والأبحاث تافيلالت	المغرب
إمام الشافعي محمد حمودي	جامعة الأزهر	مصر	عولي الربيع	جامعة باتنة	الجزائر
أشرف صالح محمد سيد	جامعة ابن رشد	هولندا	غانم بون	جامعة ابن خلدون	الجزائر
بديع العابد	جامعة الإسراء	الأردن	غسان محمود وشاح	الجامعة الإسلامية (غزة)	فلسطين
تومي الطاهر	جامعة أكلي محند أولحاج	الجزائر	فرهاد محمد أحمد	جامعة دهوك	العراق
حنان رزايقية	جامعة الجزائر (٣)	الجزائر	محمد أبرهموش	وزارة التربية الوطنية	المغرب
خالد حسين محمود	جامعة حائل	السعودية	محمد أيت صالح	أستاذ التعليم الثانوي	المغرب
رضا بن علال	المدرسة العليا للأساتذة	الجزائر	محمد عبد المومن	أستاذ التعليم الثانوي التأهيلي	المغرب
سعاد يمينية شبوط	جامعة أبي بكر بلقايد	الجزائر	معمّر العايب	جامعة تلمسان	الجزائر
سميحة ديفل	جامعة قسنطينة (٢)	الجزائر	ناظم يونس عثمان	جامعة دهوك	العراق
عاطف عبد الستار	جامعة تونس	تونس	هشام البقالي	أستاذ التعليم الثانوي التأهيلي	المغرب

* حسب الترتيب الأبجدي

الخط العربي من اللحظة الأنطولوجية إلى اللحظة الإستيتيقية

قداسة تكاد تضاهي قداسة الصوتي ومجال للفن والممارسة الجمالية

عاطف عبد الستار

باحث دكتوراه في التراث الإسلامي

كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية

جامعة تونس - الجمهورية التونسية



ملخص

حظي الخط العربي عبر التاريخ باهتمام كبير لا باعتباره أداة تسجيل الأفكار والمعلومات وحسب، بل لكونه مرتبطا بالدول المتعاقبة في العالم الإسلامي، طالما أن الدولة كانت في حاجة ملحة إلى الخط لترتيب شؤونها ولتسيير أمورها، ومع تعاظم الدول تعاظم دور الخط وعلا شأنه وصار الخطاط مقربا من الحاكم أو الخليفة ملازما له، لذلك لم يقتصر على تصوير حروف الكلمات العربية وإعجامها وتشكيلها على وجه فني جذاب فحسب، بل حوت مباحثه - علاوة على ذلك - أصول الكتابة وقواعد الإملاء التي يفرض على الكاتب أن يراعيها في رسم المفردات والمركبات من الكلمات العربية. إن مقارنتنا للخط العربي في هذه الدراسة سوف تنطلق من قراءة تاريخية تتبّع بدقّة نشأة الأبجدية العربية في أشكالها الأولى المجردة وتطوّرها عبر العصور، ثم قراءة ثانية تشكّلية تبين كيفية استلهاهم الحرف العربي وتوظيفه كعنصر تشكيلي يقتحم فضاءات الحداثة وعوالمها الإبداعية، وسنعمل في هذه الدراسة على الالتزام بالمنهج التالي: في لحظة أولى سنعمل على تقصي أصول الخط العربي وتطوّره عبر التاريخ. في لحظة ثانية سنحاول التعرف على ظروف إرساء قواعد الخط العربي وتفرّعه إلى عدّة أنواع أو أنماط. وفي لحظة ثالثة وأخيرة سنسعى إلى بيان كيفية اقتحام الحرف العربي عالم الفنون التشكّلية ليصير عنصرا تشكّليا مؤثّرا للوحة ومفردة أساسية أكسبت العمل الفني قيما جمالية ورمزية معاصرة.

كلمات مفتاحية:

الخط العربي، خط المسند، الخط اللبني، الحضارة العربية الإسلامية، تاريخ الخطوط

بيانات المقال:

تاريخ استلام المقال: ٠٧ مايو ٢٠١٦
تاريخ قبول النشر: ٠٢ أغسطس ٢٠١٦

DOI 10.12816/0052951

معرف الوثيقة الرقمي:

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

عاطف عبد الستار، "الخط العربي من اللحظة الأنطولوجية إلى اللحظة الإستيتيقية: قداسة تكاد تضاهي قداسة الصوتي ومجال للفن والممارسة الجمالية"، دورية كان التاريخية، السنة الحادية عشرة - العدد الأربعون، يونيو ٢٠١٨، ص ١٠ - ١٩.

مقدمة

ولتسيير أمورها، ومع تعاظم الدول تعاظم دور الخط وعلا شأنه وصار الخطاط مقربا من الحاكم أو الخليفة ملازما له، لذلك لم يقتصر على تصوير حروف الكلمات العربية وإعجامها وتشكيلها على وجه فني جذاب فحسب، بل حوت مباحثه - علاوة على ذلك - أصول الكتابة وقواعد الإملاء التي يفرض على الكاتب أن يراعيها في رسم المفردات والمركبات من الكلمات العربية. وقد اختلف المؤرخون حول نشأة الخط العربي، فمنهم من يرى أن الأبجدية العربية اشتقت من الخط المسند الذي انتقل عن طريق القوافل إلى بلاد الشام ويعرف أيضا باسم الخط الحميري، ومنهم من يرجح أن أصول الخط العربي تتصل مباشرة بالأبجدية النبطية، وهذا ما تؤكده النقوش التي ترجع إلى ما قبل

ارتبط الخط العربي في الحضارة العربية الإسلامية بمجالات الثقافة والفنون والعمارة والصنائع والتعليم والإدارة، وتطوّر بشكل ملحوظ في علاقته بتلك المجالات، كيف لا وقد أضحت تعبيرا حيا عن هوية الأمة الإسلامية المرتبطة بالعلم والكتاب، بما يعكسه من عمق تاريخي وما ينطوي عليه من حسّ فني وما يُغذّيه من تذوّق جمالي، وقد حظي الخط العربي عبر التاريخ باهتمام كبير لا باعتباره أداة تسجيل الأفكار والمعلومات وحسب، بل لكونه مرتبطا بالدول المتعاقبة في العالم الإسلامي، طالما أن الدولة كانت في حاجة ملحة إلى الخط لترتيب شؤونها

لابن درستويه (أبو محمد عبد الله بن جعفر، ت ٣٤٧هـ)، و"متن الشافية، مجموع مهمات المتون"، لابن الحاجب (جمال الدين أبي عمرو عثمان بن عمر، ت ٦٨٦هـ)، و"صبح الأعشى- في صناعة الإنشاء" للقلقشندي (أحمد بن علي بن أبي اليمن، ت ٨٢٥هـ/١٤١٨م) وغيرهم الكثير...^(١)

ومن المعاصرين: غانم قدوري الحمد، علم الكتابة العربية، دار عمار للنشر- والتوزيع، الأردن، ٢٠٠٤، وأحمد صبري زايد، تاريخ الخط العربي وأعلام الخطاطين، دار الفضيلة، القاهرة، ١٩٩٨، وسهيلة الجبوري، الخط العربي وتطوره في العصور العباسية، مطبعة الزهراء، ١٩٦٢، وشربل داغر، مذاهب الحسن: قراءة معجمية تاريخية للفنون العربية، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، صلاح الدين المنجد، دراسات في تاريخ الخط العربي منذ بدايته إلى نهاية العصر الأموي، دار الكتاب الجديد، ١٩٧٢، وعبد العزيز الدالي، الخطاطة الكتابية العربية، مكتبة الخانجي، مصر، ١٩٧٩، وولفنسون إسرائيل، تاريخ اللغات السامية، مطبعة الاعتماد بمصر، ط ١، ١٩٢٧، محمد طاهر الكردي، الخط العربي تاريخه وآدابه، مكتبة الهلال، ط ١، ١٩٣٩، وحسن المسعودي، الخط العربي، دار فلاماريون، باريس، ١٩٨٠، وعبد الكبير الخطيبي ومحمد السجلماسي، ديوان الخط العربي، ترجمة محمد برادة، دار العودة، الدار البيضاء، ١٩٨٠. كامل بابا، روح الخط العربي، دار الملايين للنشر- بيروت، لبنان، ١٩٩٤. محمود الجبوري، نشأة الخط العربي وتطوره، مطبعة بيت الحكمة، بغداد، ١٩٨٤، وغيرهم.

٢- في معنى الخط والكتابة وتعدد مدلوليهما في الثقافة العربية الإسلامية

يُعتبر الخط كما هو معلوم فناً مبنياً على أسس زخرفية وقواعد هندسية سواء في الحروف الهجائية أو في الكتابة المختزلة أو في الأرقام العددية،^(٢) والخط والكتابة والرقم والسطر والزبر كلها تعني شيئاً واحداً، وقد استخدمها الإنسان منذ زمان طويل، ثم قام بإدخال التعديلات والتحسينات عليها، ومن معاني خط فكر يُقال: فلان يخط في الأرض، إذا كان يفكر في أمره ويُدبره،^(٣) وفي هذا يُصنّف الجاحظ في كتاب "الحيوان" الخطوط إلى خط الحازي والعرف والزاجر، وخطوط آخر تكون مستراحاً للأسير والمهموم والمفكر، كما يعتري المفكر من قرع السنّ، والغضب من تصفيق اليد وتجهيز العين.^(٤) والأخط الدقيق المحاسن، ورجل مخطط أي رجل جميل. وقد عرف الإمام جمال الدين عثمان بن عمرو المعروف بابن الحاجب (٥٧٠-٦٤٦ هـ) الخط قائلاً: "الخط تصوير اللفظ بحروف هجائه"،^(٥) واعتبر ابن خلدون أنّ الخط: "هو رسوم وأشكال حرفية تدلّ على الكلمات المسموعة الدالة على ما في النفس فهو ثاني رتبة عن الدلالة اللغوية"،^(٦) وهو "ما تعرف به صور الحروف المفردة، وأوضاعها، وكيفية تركيبها خطأ"،^(٧) وقال أبو دلف "الخط رياض العلوم"،^(٨)

الإسلام والقرن الهجري الأول ومنها نقش "أمّ الجبال" الذي يعود تاريخه إلى ٢٥٠م، ونقش شاهد قبر أمرؤ القيس الذي يعود تاريخه إلى ٣٢٨ م، وقد وجد في منطقة حوران إحدى ديار الأنباط، ثم انتقل إلى الأنبار والحيرة ومنها عن طريق (دومة الجندل) إلى الحجاز. وعلى هذا النحو انطلقت مقاربتنا للخط العربي في هذه الدراسة من قراءة تاريخية تتبّع بدقّة نشأة الأبجدية العربية في أشكالها الأولى المجردة وتطورها عبر العصور، ثم قراءة ثانية تشكيلية تبين كيفية استلهاهم الحرف العربي وتوظيفه كعنصر- تشكيلي يقترح فضاءات الحداثة وعواملها الإبداعية، وقسمنا هذا المقال إلى ثلاثة لحظات أساسية: في لحظة أولى سنحاول تعريف الكتابة والخط والوقوف على تعدّد مدلوليهما في الثقافة العربية الإسلامية، وفي لحظة ثانية سنعمل على تقصّي أصول الخط العربي وظروف نشأته وتفرّعه إلى عدّة أنواع أو أماط، ثم سنحاول في لحظة ثالثة وأخيرة بيان كيفية اقتحام الحرف العربي عالم الفنون التشكيلية ليصبح عنصراً تشكيليّاً مؤثلاً للوحة المسندية أو غيرها ممّا أكسب العمل الفني قيمة جمالية ورمزية تتخطى الرؤية البصرية ولا تتوقّف عندها.

١- مصادر ومراجع البحث

نودّ في البداية أن نُشير إلى بعض المصادر القيمة والتي لا غنى عنها في دراسة تاريخ الكتابة العربية (أي الإملاء) وتطورها عبر التاريخ فيها يجد الباحث ما يروي به عطشه ويُمّثّل ناظره ويُثمي معرفته حول علم لا يقلّ أهمية عن بقية العلوم التي ظهرت وترعرعت في ظلّ الحضارة الإسلامية، علم يقدم توضيحات عن أصل العلامات الكتابية ودلالاتها، ويمدّنا بتفسيرات لغوية وتاريخية لكلّ اختلاف بين المنطوق والمرسوم، وكلّ ذلك من شأنه أن يجعل الباحث يتعامل مع نظام واضح الأبعاد محدّد الدلالات فيمنحه ذلك معرفة بالبعد التاريخي للخط العربي ويمنعه من ارتكاب أخطاء كتابية كثيرة ثبت شيوعها وللأسف الشديد عند فئة لا بأس بها من الكتاب اليوم. ومن هذه المصادر نذكر: كتاب "المطالع النصري في الأصول الخطية" للهوريني، و"كتاب الهجاء" للكسائي (علي بن حمزة، ت ١٨٩هـ)، وللجستاني (أبو حاتم سهل بن محمد البصري، ت ٢٥٥هـ)، و"كتاب أدب الكاتب" لابن قتيبة الدينوري (أبو محمد عبد الله بن مسلم، ت ٢٧٦هـ)، و"كتاب الخط والهجاء" لابن يزيد المبرد (أبو العباس محمد، ت ٢٨٥هـ)، و"كتاب الهجاء" لابن كيسان (أبو الحسن محمد بن أحمد، ت ٢٩٩هـ)، و"كتاب الخط والقلم" لابن سلمة (أبو طالب المفضل، ت حوالي ٣٠٠هـ)، و"كتاب الخط" لابن السراج (أبو بكر محمد بن السري، ت ٣١٦هـ)، و"كتاب الهجاء" للجعد (أبو بكر محمد بن عثمان، ت بعد ٣٢٠هـ)، وللأنباري (أبو بكر محمد بن القاسم بن بشّار، ت ٣٢٨هـ)، و"كتاب أدب الكاتب" للصولي (أبو بكر محمد بن يحيى، ت ٣٣٦هـ)، و"كتاب الخط" للزجاجي (أبو القاسم عبد الرحمن بن إسحاق، ت ٣٣٧هـ على الأرجح)، و"كتاب الهجاء"

٣- ظهور الخط العربي وتطوره عبر التاريخ

ذهب علماء اللغة والمؤرخون أشواطاً بعيدة في البحث عن نشأة الخط والأبجدية في العالم، فدرسوا أيام الأمم القديمة وآثارهم ونقوشهم وأثبتوا بعد دقة الاستقراء أن أول من اخترع الأبجدية في العالم هم الفينيقيون الكنعانيون من نسل سام بن نوح عليه السلام في عصر "حiram" ملك بيلوس سنة ١٣٠٠ ق م، ثم تبنى اليونانيون تلك الأبجدية سنة ١٠٠٠-٨٠٠ ق م، وقد صارت أبجدية الكنعانيين مصدراً لكل الكتابات الأبجدية العالمية، فتأثرت بها جميع اللغات السامية من آرامية وسريانية وكلدانية وعبرانية وعربية، واللغات اللاتينية من يونانية وإيطالية وفرنسية وإسبانية وإنجليزية... وقد استخدم العرب كغيرهم من الأمم الكتابة في كل مجالات الحياة تقريباً فسجلوا أحداثهم اليومية،^(٣٦) وكتبوا العهود والمواثيق وثبتوا الأحلاف وخطوا الرسائل والصكوك، وسند ملكية الرقيق،^(٣٧) ومن بين الممدن والحواضر القديمة التي عرف أهلها الكتابة والقراءة في شبه الجزيرة العربية، المناذرة واللخميين بالحيرة والغساسنة بخموش الشام، والقرشيين بمكة،^(٣٨) والأوس والخزرج واليهود بالمدينة^(٣٩) وثقيف بالطائف، وهذا بالإضافة إلى بعض مدن شمال الجزيرة كدومة الجندل.

ظهرت بالتالي أنواع كثيرة من الخطوط كانت شائعة في ذلك العصر - مثل الخط التدمري،^(٤٠) والخط النبطي،^(٤١) والخط السرياني،^(٤٢) المشتقة جميعها من الخط الآرامي،^(٤٣) فأما أهل الحجاز فمنهم من استعمل الخط السرياني لفترات طويلة من الزمن وخاصة اليهود منهم الذين كانوا يحسنون قراءة هذا الخط وكتابته،^(٤٤) وهذا ما أكدته أيضاً المسعودي في "مروج الذهب"، وابن عبد ربّه في "العقد الفريد"، ومنهم من كتب بخط المسند الحميري وهو خط أهل اليمن وحافظ عليه إلى أيام النبي ﷺ^(٤٥) تماماً مثل عرب العراق الذين آثروا الخط الحميري على بقية الخطوط^(٤٦) لكثرة مبادلاتهم التجارية مع أهل اليمن مما يسهل المعاملات بينهم، كما عرف أهل الحجاز أيضاً الخط النبطي لاتصالهم الوثيق بالأنباط ببلاد الشام.

وعلى الرغم من تعدد الروايات وتباين المقاربات فيما بينها وإن معظمها يفتقر إلى الوثائق، بما في ذلك بعض المصادر العربية القديمة التي تعود إلى القرن الرابع الهجري (١٠م)^(٤٧) والتي تكشف بوضوح اضطراب الآراء وتباين الروايات بشكل يجعلنا أكثر حذراً في التعامل معها، وكذا الشأن بالنسبة للدراسات المعاصرة التي ذهبت أشواطاً بعيدة في تحديد الظرفية التاريخية التي شهدت بداية ظهور أولى معالم الحروف الأبجدية العربية بالنظر إلى كثرة الأمم المنتمة إلى الشعوب السامية والتي سكنت الجزيرة العربية وبلاد ما بين النهرين، ومنهم الأكاديون والآراميون والبابليون والفينيقيون والكنعانيون والعبرانيون والعرب.. إلّا أننا يمكن أن نرجع نشأة الخط العربي إلى نوعين من الخط منذ الجاهلية وقبل مجيء الإسلام وهما خط المسند

وقال النظام "الخط أصيل في الروح وإن ظهر بحواس البدن"،^(٤٨) وقال أفلاطون "الخط عقل العقل"، وقال إقليدس "هندسة روحانية وإن ظهرت بألة جسمانية"،^(٤٩) وهو "آلة جسمانية تضعف بالترك وتقوى بالإدمان"،^(٥٠) وهو "ملكة تنضبط بها حركة الأنامل بالقلم على قواعد مخصوصة".^(٥١) وأما كمال عبد جاسم الصالح الجميلي فقد عرّف الخط قائلاً "هو فن كتابة الحروف بقواعد خاصة تزيدها وضوحاً وجمالاً وجذباً"،^(٥٢) ومن العلماء من عدّ الخط أشرف العلوم منزلة وأعمّها نفعا بقوله "وجميع العلوم تُعرف بالدلالة عليها أو اللفظ أو الخط، فالإشارة تتوقف على المشاهد، واللفظ يتوقف على حضور المخاطب والسماع، أما الخط فلا يتوقف على شيء من ذلك، فهو أعمّها نفعا وأشرفها".^(٥٣)

وللكتابة لغة معان عديدة، منها الفرض^(٥٤) والحكم^(٥٥) والقدر،^(٥٦) وتأتي بمعنى الجمع، وذهب القلقشندي إلى اعتبار أن "أعظم شاهد لجليل قدرها (الكتابة)، وأقوى دليل على رفعة شأنها، أن الله تعالى نسب تعليمها إلى نفسه واعتده من وافر كرمه وأفضاله فقال عز اسمه ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿[العلق: ٣-٤]﴾".^(٥٧) فالكتابة هي الأداة الناقلة للعلوم والأفكار، بها يُطلب العلم ويتطور، وبها تُحفظ أصناف العلوم ومختلف إنتاجات البشر، وهي "حرفة يحترفها طائفة من الناس وكانت تتطلب معرفة بفنون مختلفة من العلوم وسعة في الإطلاع على النحو الذي ألف فيه صباح الأعشى - للقلقشندي، ونهاية الإرب للتوبري"،^(٥٨) و"الكتابة، والكتاب، والكتب، مصادر (كتب) إذا خط بالقلم، وجمع، وخط، وخرز. يُقال (كتب قرطاساً)، أي: خط فيه خروفاً وضماً إلى بعضها، و(كتب الكتاب)، أي جمعها..".^(٥٩) وقالوا "بُنيت الكتابة على خمس: قوة الأخماس، وحدة الألباس، وجودة القرطاس، ولمعان الأنفاس، وحبس الأنفاس".^(٦٠)

فالخط إذ يأخذ أهمية الكتابة ويفوقها لأنه بلاغتها وجمالها، وهو الصورة الناصعة لها. وفي هذا الإطار يُفرق بن خلدون بين الخط والكتابة وذلك لقوله "ودُرست معالم بغداد بدروس الخلافة فانتقل شأنها من الخط والكتابة والعلم إلى مصر والقاهرة"،^(٦١) كما قال في موطن آخر "ولما احتاجت الدولة إلى الكتابة استعملوا الخط وطلبوا صناعته"،^(٦٢) ولم يقل استعملوا بالعود على الكتابة وإنما خصّ الخط بالاستعمال لأنه يلحقه في ما بعد بالإتقان فيسترسل "فطلبوا صناعته وتعلموه وتداولوه فرقت فيه الإجابة"،^(٦٣) وهكذا يُفاضل ابن خلدون بين الخط والكتابة على الرغم من اجتماع كل منهما لديه وهذا ما يبدو واضحاً من عنوان الفصل الثلاثون "الخط والكتابة من عداد الصنائع الإنسانية" من الباب الخامس "في المعاش ووجوهه من الكسب والعلوم والصنائع" من المقدمة.

كالألف والذال والحاء والكاف والميم والسین والشین والراء والهاء، كما حوّرت أشكال بعضها الآخر نحو التبسيط كالواو والفاء والقاف، أمّا بقية الحروف كالجيم والطاء واللام والنون والياء واللام، فقد ظلت نبطية واستمر استعمالها حتى يومنا هذا. وذكر المؤرخون أنّ الخط النبطي جاء إلى مكة والطائف من العراق عن طريق التجارة التي كان قريش يمارسونها مع سكان تلك المدن، وجدير بالملاحظة أنّ الكتابة العربية الجاهلية كانت خالية من الحركات والنقط (التشكيل والتنقيط).^(٤٤)

ومن هنا نستنتج أنّ العرب القاتنين بشمال الجزيرة العربية كانوا يكتبون ما يريدون تدوينه بالأحرف الآرامية في بداية أمرهم ثمّ اشتقوا أبجديتهم النبطية من الآرامية، ومن أهمّ خصائص الخط النبطي نذكر أربعة منها:

- خلوه من التنقيط والتشكيل، ولم تكن للحركات علامات خاصة بها، إذ يشترك أكثر من حرف برمز كتابي واحد، فيما يُحدّد السياق الحرف المقصود.
- ثانياً تُحذف في الكتابة النبطية الألف المتوسطة التي ترمز إلى المدّ الصوتي، وكذا الياء والواو في بعض الحالات، وهو ما حافظت عليه الكتابة العربية إلى اليوم حيث يُنطق المدّ وتُحذف الألف التي ترمز إليه لتكتب الكلمة على النحو الآتي (لكن، هذا..).
- ثالثاً: تُرسم تاء التأنيث في آخر بعض الكلمات التي تتمّ بالهاء، بالتاء المفتوحة مثل كلمة "قريت" (قرية).
- رابعاً: زيادة واو في آخر أسماء الأعلام، واستمرّ ذلك في اللغة العربية مع بعض الأسماء مثل اسم "عمرو".

٤- نشأة الخطوط العربية وتفرّعها

كان للنهضة العلمية الإسلامية أساساً علم الرياضيات والهندسة تأثير كبير في ازدهار فنّ الخط العربي والفنون الإسلامية عموماً، حيث وقع ترجمة النظريات الهندسية والرياضية إلى علامات بصرية تجلّت أساساً من خلال الفنّ المعماري الذي أصبح بدوره شاهداً على تطوّر الهندسة العملية في ظلّ الحضارة الإسلامية. وفي هذا المناخ ظهرت أنواع مختلفة من الأقلام أو الخطوط وأخذت في التفرّع والانتشار فبدأت تتراءى لنا أولى المحاولات الجادة في إرساء قواعد الخط العربي الذي لم يكن في بداياته منقوطة ولا مُشكلاً كما هو الحال اليوم، ولكنّ ضرورة التمييز بين الحروف المتشابهة عندما تمّ تحويلها من الكوفي اليابس إلى مجموعة الخطوط جعل من الخطاطين يعتمدون إلى تنقيط الحروف وشكلها، ويُعدّ أبو الأسود الدؤلي أول من نقط الخط العربي في حين أنّ الخليل بن أحمد الفراهيدي هو أول من شكله.^(٤٥)

المشتقّ من الخط الكنعاني وريث الهيروغليفية، وهو القديم الواسع الانتشار في جنوب الجزيرة العربية وبعض أنحاء الشمالية، وكان قد زال من الاستخدام في الفترة القريبة من ظهور الإسلام، وقد تبثّى هذا الرأي كثير من الباحثين المعاصرين منهم محمّد طاهر الكردي، وحفني ناصف، ثمّ الخط النبطي الذي كان معروفاً في الحجاز والمناطق الواقعة في شمال الجزيرة العربية وشمالها الشرقي، وقد استعمل في ما بعد في تدوين القرآن الكريم وفي كتابة العهود والمواثيق وكلّ شؤون الدولة الإسلامية.

١/٣- خطّ المسند

فأما خطّ المسند فهو خطّ مشتقّ من الأبجديات السامية الشمالية، السينائية، أو الفينقية، أو الكنعانية، وهو "أقدم الأقلام التي عرفت في شبه جزيرة العرب حتى الآن، ويبدو أنّه كان معروفاً في كلّ شبه جزيرة العرب قبل الإسلام، وربّما كان القلم العام للعرب قبل المسيح، أي قبل ظهور أقلام أخرى ولدت على ما يظنّ بعد الميلاد، ومن ثمّ سمّاه بعض المحدثين بالقلم العربي الأول، أو القلم العربي القديم"،^(٣٨) وقال الدكتور غانم قدوري الحميد: "وتسمية (المسند) بخطّ حمير لا تدلّ إلا على أنّهم آخر من كتب به"^(٣٩) لا على أنّه حكرا عليهم طالما أنّ خطّ المسند ينقسم إلى خمسة خطوط فرعية أخرى وهي الخطّ الصفوي (نسبة إلى جبل الصفاة الموجودة في بادية الشام)، والثمودي، واللحياني (نسبة إلى قبائل ثمود ولحيان وهي قبائل عربية قديمة استوطنت شمالي الجزيرة العربية)، والسبئي، والمتصل.

ويتميّز خطّ المسند بالخصائص التالية: فهو خطّ خال من أية علامة للحركات أو حروف المدّ وتتكوّن أبجديته من تسع وعشرين حرفاً تماماً كالأبجدية العربية الشمالية، مع زيادة حرف واحد ينطق بين السّين والشّين، وتكتب حروفه منفصلة، ويفصل بين الكلمة والأخرى خطّ عمودي، ويندر وجود الفاصل في النقوش الشمالية المتحدّرة عن المسند، وأمّا الكتابة فتبدأ على غرار الكتابة العربية من اليمين نحو الشمال، يكتب الحرف المشدّد مرتين غالباً.

٢/٣- الخطّ النبطي

وأما الخطّ النبطي فأخذه العرب من أبناء عمومته من الأنباط،^(٤٠) الذين استخدموا الكتابة الآرامية التي كانت سائدة في الشام زمن قيام دولة الأنباط، وكان لهذا الاستخدام للكتابة الآرامية إيذاناً ببداية ظهور الخطّ العربي الشمالي، فعلى أيديهم تطوّرت أشكال الحروف الآرامية، ثمّ طوّر العرب أشكال بعض الحروف النبطية وابتكروا أشكالاً مغايرة في محاولة لفصل الحروف ووصلها،^(٤١) وما أن بزغ فجر القرن السادس للميلاد إلا وكان للعرب خطّ جديد أطلق عليه العلماء "الخطّ العربي" الذي تطوّر بين حوران وشمال الحجاز،^(٤٢) وهذا ما جعل العلماء يقتنعون بأنّ أصل الخطّ العربي من الخطّ النبطي.^(٤٣)

وإنّ المتأمل في عديد حروف الخطّ العربي يلاحظ أنّ لها شكل متميّز لا يتطابق مع النقوش المتبقية من الخطّ النبطي

ه- القيم الجمالية لفن الخط العربي

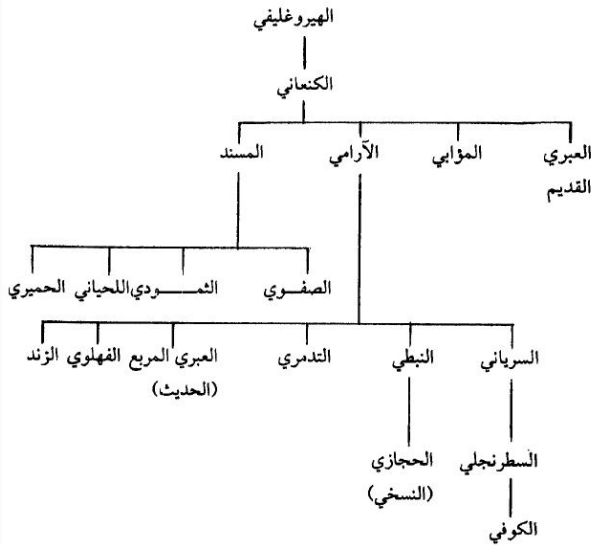
يُعدّ الخطّ العربي أكثر الخطوط تنوعاً ومرونة وجماليةً وقابليةً للتطور والتأقلم مع جميع الفضاءات وعلى كل الخامات تقريباً (رخام، حجارة، خزف، عاج، ذهب، فضة، قماش، ورق...)، ولئن اقتصر هذا الفنّ في اللّحظات الأولى على تلك التّنويعات التي تجمع بين الخطّ والزّخرفة، إلّا أنّه سرعان ما اندمج طيلة العصر الوسيط مع الرّسوم المنمنمة التي تحتوي على مخلوقات حيّة وبشرية في الكتب المختلفة، على سبيل الشّرح والتّوضيح، أو لوحات مرافقة للقصص والمقامات، فكان الخطّ مرافقاً ومكمّلاً لها. ولكنّ هذا الإحساس بالقيمة الفنيّة والجمالية للخطّ العربي قد ازداد لما اقتحم الحرف عالم الفنون التشكيلية ليصير عنصراً تشكيليّاً مؤثّراً للوحة المسندية أو غيرها أكسب العمل الفنيّ قيمة جمالية، رمزيّة وتأمليّة، وأبعداً روحيّة وحضاريّة، تتخطّى الرّؤية البصريّة ولا تتوقّف عندها، فنجد الفنّان العربي والمسلم بذلك في استنباط أسلوب تشكيلي فريد من نوعه يعتمد بالأساس على توظيف الحروف العربيّة كعناصر تشكيلية مستقلة بذاتها، تتفاعل مع بقية العناصر داخل الفضاء ولكن لا تضمحلّ أو تفقد دورها أو تُفَرِّغ من قيمتها الجمالية.. ومن هنا يخرج الخطّ من إطاره الوظيفي المحض ليكتسب بعداً جماليّاً ينتشله من الجمود والجفاف ليلج به عالماً جديداً ملؤه الأشكال والألوان، فيه تتحوّل الكتابة إلى عنصر تشكيلي ويندمج الشّكل بالمضمون ليُعبّر بوضوح عن قدرة الفنّان المسلم على صنع الجمال وأداء المعنى في كلّ عصر. وبذلك أصبح الخطّ العربي قاسماً مشتركاً لكلّ الفنون الإسلاميّة التي أعارها طابعه الجمالي القائم على التّناسب بين الخطّ والنقطة والزّخرفة بمختلف أشكالها، وتحوّلت كتابة الخطّ العربي إلى آثار فنيّة منحت للمكتوب قداسة تكاد تُضاهي قداسة الصّوتي.

خاتمة

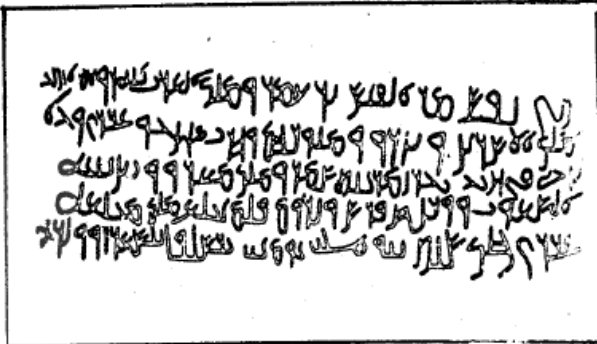
وهكذا نصل في آخر هذا البحث إلى القول بأنّ الخطّ قد خرج مع المسلمين من إطاره الوظيفي المحض ليكتسب بعداً جماليّاً ينتشله من الجمود والجفاف ليلج به عالماً جديداً ملؤه الأشكال والألوان، فيه تتحوّل الكتابة إلى عنصر تشكيلي ويندمج الشّكل بالمضمون ليُعبّر بوضوح عن قدرة الفنّان المسلم على صنع الجمال وأداء المعنى في كلّ عصر. وبذلك أصبح الخطّ العربي قاسماً مشتركاً لكلّ الفنون الإسلاميّة التي أعارها طابعه الجمالي القائم على التّناسب بين الخطّ والنقطة والزّخرفة بمختلف أشكالها، وتحوّلت كتابة الخطّ العربي إلى آثار فنيّة منحت "للمكتوب قداسة تكاد تُضاهي قداسة الصّوتي، إذ القرآن نزل خطاباً مسموعاً وظلّ إلى حدود فترة الخلفاء الراشدين يُتلى فحسب أو يُلقَى شفويّاً، لكن لما ظهرت الحاجة إلى تدوينه أخذت الكتابة تكتسب أهمية كبرى ذات طبيعة مُزدوجة فهي من ناحية سجّل النصّ القرآني ومحمّله، وهي من جهة أخرى مجال للفنّ والممارسة الجمالية".^(٤٧)

وينقسم الخطّ العربي إلى قسمين: الخطّ اليابس والخطّ اللين، فأما فاليايس فهو الخطّ الكوفي الذي اقتبسه الكوفيون من الخطوط القديمة المستخدمة في العصر الجاهلي وحتى العصر الأموي. وأما اللين فهو أنواع: وأبرزها النسخ والتلث والفارسي والديواني والرقعة والخطّ المغربي. وقد تفتّن الخطاطون في اشتقاقها في الأقطار التي فتحها المسلمون، فالنسخ والتلث ظهرا في العراق وظهر الخطّ الفارسي في إيران والهند، والرقعة والديواني في تركيا والخطّ المغربي في شمال أفريقيا والأندلس. وفيما يلي نماذج من هذه الخطوط عبر العصور:

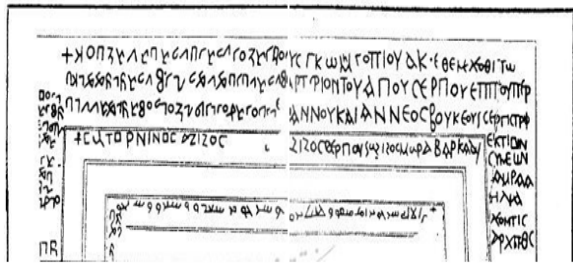
- ١- الخطّ الكوفي: نسبة إلى الكوفة، وذكر القلقشندي نقلاً عن الشاطبي أنّه يرجع إلى أصلين وهما التّقوير والبسط، أي اللين والمزوي، وجاء في "علم الكتابة" للتّوحيدي أنّ قواعد الخطّ الكوفي في زمنه اثنتا عشرة قاعدة: "الإسماعيلي والمكي، والمدني والأندلسي، والشامي والعراقي، والعباسي والبغدادي، والمشعب والريحاني، والمجرد والمصري".^(٤٦) وكلّ هذه التسميات إقليمية ليس بينها فروق وخصائص.
- ٢- الخطّ الفارسي: ظهر ببلاذ فارس بعد الفتح الإسلامي:
- ٣- خطّ الرقعة: نشأ هذا الخطّ في عهد السلطان محمد الفاتح، وهو يجمع بين حروف خطّ النسخ والديواني الدقيق القديم، وربّما كانت تسميته بالرقعة نسبة إلى قلم الرقعة الذي كان يكتب به هذا النوع من الخطوط.
- ٤- خطّ النسخ: وسُمّي بالنسخ لأنّ الكتاب كانوا ينسخون به المؤلّفات، وقد نشأ بالشّام:
- ٥- الخطّ الديواني: وهو الخطّ الذي يختصّ بالكتابات الرسميّة في ديوان الدولة العثمانيّة.
- ٦- خطّ التلث: من الخطوط الصّعبة إذ لا يعتبر الخطّاط خطّاطاً إلّا إذا أتقنه، ويعبّر عنه بأنّ الخطوط، وسُمّي بذلك لأنّ قلم الطومار وهو أجل الأقلام مساحة، عرضه أربع وعشرون شعرة، وقلم التلث منه بمقدار ثلثه وهو ثماني شعرات، ويستعمل لكتابة أسماء الكتب المؤلّفة، وأوائل سور القرآن الكريم، والحرف فيه يميل إلى التّقوير والإستدارة:
- ٧- الخطّ المغربي: هو سليل الخطّ الكوفي الديني اليابس المنقّط الذي ظهر في مبدأ أمره في القيروان في أواخر العصر الأموي ثمّ انتشر في أرجاء شمال أفريقيا والأندلس وغرب أفريقيا.
- ٨- الخطّ الحديث: هو مجموع الخطوط التي اشتقّها الخطاطون والمهتمون بالفنون التشكيلية واستعملوها في تكوين لوحاتهم الفنيّة وفي عناوين الكتب والصّحف والمجلّات والإعلانات:



شكل (٢) مراحل نشأة وتطور الخطّ العربي في جزيرة العرب



شكل رقم (٣) نقش النمارة النبطي والمؤرخ سنة ٣٢٨ م وهو عبارة عن شاهد قبر الملك العربي امرؤ القيس بن عمرو وربما يكون بن عدي ابن نصر أحد ملوك الحيرة. (ابن حبيب، المحبر، مطبعة جمعية دائرة المعارف العثمانية الدكن، ١٩٤٠، ص ٣٦٩).



شكل رقم (٤) نقش زبد مؤرخ سنة ٥١٢ ميلادي

وعلى الرغم من أنّ العرب الأول قد برعوا في كتابة الخطوط وشرحها وتأليف كتب مستقلة في بيان قواعد الكتابة وفي توضيح استخدام العلامات والحركات في تدعيم حضور الخطّ العربي في الحياة السياسية والثقافية والاجتماعية والاقتصادية للمجتمعات الإسلامية، إلا أنّ تطوير نماذج الخطّ العربي وتشكيلاته لم يعد منذ القرن الثاني الهجري (الثامن الميلادي) حكرًا على العرب وحدهم، بل هناك العديد من الشعوب الإسلامية أضافت الكثير إلى الحرف العربي وسجلت إبداعات رائدة وخطوات جبّارة، وساهمت بقدر كبير في انتشاره كالمغاربة والأتراك والفرس، كما أظهرت نماذج محلية للخطّ العربي عند الأفارقة ومسلمي الصين والقارة الهندية مرونة الخطّ العربي وقابليته غير المتناهية للتشكّل والتكيف مع مختلف الثقافات والبيئات الفنية، ولعبت هذه النماذج أيضًا دورًا حيويًا في تعزيز الإحساس بالقيمة الفنية والجمالية للخطّ باعتباره مشروعًا حضاريًا وأسلوبًا فنيًا قائمًا بذاته، وليس فقط مجرد كتابة وظيفية من ناحية، ثمّ في التأكيد على كونية الحضارة الإسلامية وانفتاحها على الإنسانية جمعاء من ناحية ثانية.

الملاحق (الأشكال)

عربي مسند				
متصل	سبائي	لحياني	ثمودي	صفوي
ح	ح	ح	ح	ح
م	م	م	م	م
خ	خ	خ	خ	خ
ع	ع	ع	ع	ع
و	و	و	و	و
ز	ز	ز	ز	ز
س	س	س	س	س
د	د	د	د	د
ر	ر	ر	ر	ر
ت	ت	ت	ت	ت
ث	ث	ث	ث	ث
ج	ج	ج	ج	ج
ب	ب	ب	ب	ب
ا	ا	ا	ا	ا
ي	ي	ي	ي	ي
ن	ن	ن	ن	ن
هـ	هـ	هـ	هـ	هـ
و	و	و	و	و
ز	ز	ز	ز	ز
س	س	س	س	س
د	د	د	د	د
ر	ر	ر	ر	ر
ت	ت	ت	ت	ت
ث	ث	ث	ث	ث
ج	ج	ج	ج	ج
ب	ب	ب	ب	ب
ا	ا	ا	ا	ا
ي	ي	ي	ي	ي
ن	ن	ن	ن	ن
هـ	هـ	هـ	هـ	هـ
و	و	و	و	و
ز	ز	ز	ز	ز
س	س	س	س	س
د	د	د	د	د
ر	ر	ر	ر	ر
ت	ت	ت	ت	ت
ث	ث	ث	ث	ث
ج	ج	ج	ج	ج
ب	ب	ب	ب	ب
ا	ا	ا	ا	ا
ي	ي	ي	ي	ي
ن	ن	ن	ن	ن
هـ	هـ	هـ	هـ	هـ
و	و	و	و	و
ز	ز	ز	ز	ز
س	س	س	س	س
د	د	د	د	د
ر	ر	ر	ر	ر
ت	ت	ت	ت	ت
ث	ث	ث	ث	ث
ج	ج	ج	ج	ج
ب	ب	ب	ب	ب
ا	ا	ا	ا	ا
ي	ي	ي	ي	ي
ن	ن	ن	ن	ن
هـ	هـ	هـ	هـ	هـ
و	و	و	و	و
ز	ز	ز	ز	ز
س	س	س	س	س
د	د	د	د	د
ر	ر	ر	ر	ر
ت	ت	ت	ت	ت
ث	ث	ث	ث	ث
ج	ج	ج	ج	ج
ب	ب	ب	ب	ب
ا	ا	ا	ا	ا
ي	ي	ي	ي	ي
ن	ن	ن	ن	ن
هـ	هـ	هـ	هـ	هـ
و	و	و	و	و
ز	ز	ز	ز	ز
س	س	س	س	س
د	د	د	د	د
ر	ر	ر	ر	ر
ت	ت	ت	ت	ت
ث	ث	ث	ث	ث
ج	ج	ج	ج	ج
ب	ب	ب	ب	ب
ا	ا	ا	ا	ا
ي	ي	ي	ي	ي
ن	ن	ن	ن	ن
هـ	هـ	هـ	هـ	هـ
و	و	و	و	و
ز	ز	ز	ز	ز
س	س	س	س	س
د	د	د	د	د
ر	ر	ر	ر	ر
ت	ت	ت	ت	ت
ث	ث	ث	ث	ث
ج	ج	ج	ج	ج
ب	ب	ب	ب	ب
ا	ا	ا	ا	ا
ي	ي	ي	ي	ي
ن	ن	ن	ن	ن
هـ	هـ	هـ	هـ	هـ
و	و	و	و	و
ز	ز	ز	ز	ز
س	س	س	س	س
د	د	د	د	د
ر	ر	ر	ر	ر
ت	ت	ت	ت	ت
ث	ث	ث	ث	ث
ج	ج	ج	ج	ج
ب	ب	ب	ب	ب
ا	ا	ا	ا	ا
ي	ي	ي	ي	ي
ن	ن	ن	ن	ن
هـ	هـ	هـ	هـ	هـ
و	و	و	و	و
ز	ز	ز	ز	ز
س	س	س	س	س
د	د	د	د	د
ر	ر	ر	ر	ر
ت	ت	ت	ت	ت
ث	ث	ث	ث	ث
ج	ج	ج	ج	ج
ب	ب	ب	ب	ب
ا	ا	ا	ا	ا
ي	ي	ي	ي	ي
ن	ن	ن	ن	ن
هـ	هـ	هـ	هـ	هـ
و	و	و	و	و
ز	ز	ز	ز	ز
س	س	س	س	س
د	د	د	د	د
ر	ر	ر	ر	ر
ت	ت	ت	ت	ت
ث	ث	ث	ث	ث
ج	ج	ج	ج	ج
ب	ب	ب	ب	ب
ا	ا	ا	ا	ا
ي	ي	ي	ي	ي
ن	ن	ن	ن	ن
هـ	هـ	هـ	هـ	هـ
و	و	و	و	و
ز	ز	ز	ز	ز
س	س	س	س	س
د	د	د	د	د
ر	ر	ر	ر	ر
ت	ت	ت	ت	ت
ث	ث	ث	ث	ث
ج	ج	ج	ج	ج
ب	ب	ب	ب	ب
ا	ا	ا	ا	ا
ي	ي	ي	ي	ي
ن	ن	ن	ن	ن
هـ	هـ	هـ	هـ	هـ
و	و	و	و	و
ز	ز	ز	ز	ز
س	س	س	س	س
د	د	د	د	د
ر	ر	ر	ر	ر
ت	ت	ت	ت	ت
ث	ث	ث	ث	ث
ج	ج	ج	ج	ج
ب	ب	ب	ب	ب
ا	ا	ا	ا	ا
ي	ي	ي	ي	ي
ن	ن	ن	ن	ن
هـ	هـ	هـ	هـ	هـ
و	و	و	و	و
ز	ز	ز	ز	ز
س	س	س	س	س
د	د	د	د	د
ر	ر	ر	ر	ر
ت	ت	ت	ت	ت
ث	ث	ث	ث	ث
ج	ج	ج	ج	ج
ب	ب	ب	ب	ب
ا	ا	ا	ا	ا
ي	ي	ي	ي	ي
ن	ن	ن	ن	ن
هـ	هـ	هـ	هـ	هـ
و	و	و	و	و
ز	ز	ز	ز	ز
س	س	س	س	س
د	د	د	د	د
ر	ر	ر	ر	ر
ت	ت	ت	ت	ت
ث	ث	ث	ث	ث
ج	ج	ج	ج	ج
ب	ب	ب	ب	ب
ا	ا	ا	ا	ا
ي	ي	ي	ي	ي
ن	ن	ن	ن	ن
هـ	هـ	هـ	هـ	هـ
و	و	و	و	و
ز	ز	ز	ز	ز
س	س	س	س	س
د	د	د	د	د
ر	ر	ر	ر	ر
ت	ت	ت	ت	ت
ث	ث	ث	ث	ث
ج	ج	ج	ج	ج
ب	ب	ب	ب	ب
ا	ا	ا	ا	ا
ي	ي	ي	ي	ي
ن	ن	ن	ن	ن
هـ	هـ	هـ	هـ	هـ
و	و	و	و	و
ز	ز	ز	ز	ز
س	س	س	س	س
د	د	د	د	د
ر	ر	ر	ر	ر
ت	ت	ت	ت	ت
ث	ث	ث	ث	ث
ج	ج	ج	ج	ج
ب	ب	ب	ب	ب
ا	ا	ا	ا	ا
ي	ي	ي	ي	ي
ن	ن	ن	ن	ن
هـ	هـ	هـ	هـ	هـ
و	و	و	و	و
ز	ز	ز	ز	ز
س	س	س	س	س
د	د	د	د	د
ر	ر	ر	ر	ر
ت	ت	ت	ت	ت
ث	ث	ث	ث	ث
ج	ج	ج	ج	ج
ب	ب	ب	ب	ب
ا	ا	ا	ا	ا
ي	ي	ي	ي	ي
ن	ن	ن	ن	ن
هـ	هـ	هـ	هـ	هـ
و	و	و	و	و
ز	ز	ز	ز	ز
س	س	س	س	س
د	د	د	د	د
ر	ر	ر	ر	ر
ت	ت	ت	ت	ت
ث	ث	ث	ث	ث
ج	ج	ج	ج	ج
ب	ب	ب	ب	ب
ا	ا	ا	ا	ا
ي	ي	ي	ي	ي
ن	ن	ن	ن	ن
هـ	هـ	هـ	هـ	هـ
و	و	و	و	و
ز	ز	ز	ز	ز
س	س	س	س	س
د	د	د	د	د
ر	ر	ر	ر	ر
ت	ت	ت	ت	ت
ث	ث	ث	ث	ث
ج	ج	ج	ج	ج
ب	ب	ب	ب	ب
ا	ا	ا	ا	ا
ي	ي	ي	ي	ي
ن	ن	ن	ن	ن
هـ	هـ	هـ	هـ	هـ
و	و	و	و	و
ز	ز	ز	ز	ز
س	س	س	س	س
د	د	د	د	د
ر	ر	ر	ر	ر
ت	ت	ت	ت	ت
ث	ث	ث	ث	ث
ج	ج	ج	ج	ج
ب	ب	ب	ب	ب
ا	ا	ا	ا	ا
ي	ي	ي	ي	ي
ن	ن	ن	ن	ن
هـ	هـ	هـ	هـ	هـ
و	و	و	و	و
ز	ز	ز	ز	ز
س	س	س	س	س
د	د	د	د	د
ر	ر	ر	ر	ر
ت	ت	ت	ت	ت
ث	ث	ث	ث	ث
ج	ج	ج	ج	ج
ب	ب	ب	ب	ب
ا	ا	ا	ا	ا
ي	ي	ي	ي	ي
ن	ن	ن	ن	ن
هـ	هـ	هـ	هـ	هـ
و	و	و	و	و
ز	ز	ز	ز	ز
س	س	س	س	س
د	د	د	د	د
ر	ر	ر	ر	ر
ت	ت	ت	ت	ت
ث	ث	ث	ث	ث
ج	ج	ج	ج	ج
ب	ب	ب	ب	ب
ا	ا	ا	ا	ا
ي	ي	ي	ي	ي
ن	ن	ن	ن	ن
هـ	هـ	هـ	هـ	هـ
و	و	و	و	و
ز	ز	ز	ز	ز
س	س	س	س	س
د	د	د	د	د
ر	ر	ر	ر	ر
ت	ت	ت	ت	ت
ث	ث	ث	ث	ث
ج	ج	ج	ج	ج
ب	ب	ب	ب	ب
ا	ا	ا	ا	ا
ي	ي	ي	ي	ي
ن	ن	ن	ن	ن
هـ	هـ	هـ	هـ	هـ
و	و	و	و	و
ز	ز	ز	ز	ز
س	س	س	س	س
د	د	د	د	د
ر	ر	ر	ر	ر
ت	ت	ت	ت	ت
ث	ث	ث	ث	ث
ج	ج	ج	ج	ج
ب	ب	ب	ب	ب
ا	ا	ا	ا	ا
ي	ي	ي	ي	ي
ن	ن	ن	ن	ن
هـ	هـ	هـ	هـ	هـ
و	و	و	و	و
ز	ز	ز	ز	ز
س	س	س	س	س
د	د	د	د	د
ر	ر	ر	ر	ر
ت	ت	ت	ت	ت
ث	ث	ث	ث	ث
ج	ج	ج	ج	ج
ب	ب	ب	ب	ب
ا	ا	ا	ا	ا
ي	ي	ي	ي	ي
ن	ن	ن	ن	ن
هـ	هـ	هـ	هـ	هـ
و	و	و	و	و
ز	ز	ز	ز	ز
س	س	س	س	س
د	د	د	د	د
ر	ر	ر	ر	ر
ت	ت	ت	ت	ت
ث	ث	ث	ث	ث
ج	ج	ج	ج	ج
ب	ب	ب	ب	ب
ا	ا	ا	ا	ا
ي	ي	ي	ي	ي
ن	ن	ن	ن	ن
هـ	هـ	هـ	هـ	هـ
و	و	و	و	و
ز	ز	ز	ز	ز
س	س	س	س	س
د	د	د	د	د
ر	ر	ر	ر	ر
ت	ت	ت	ت	ت
ث	ث	ث	ث	ث
ج	ج	ج	ج	ج
ب	ب	ب	ب	ب
ا	ا	ا	ا	ا
ي	ي	ي	ي	ي
ن	ن	ن	ن	ن
هـ	هـ	هـ	هـ	هـ
و	و	و	و	و
ز	ز	ز	ز	ز
س	س	س	س	س
د	د	د		



صورة (٢)

صفحة من مصحف بالكوفي المشرقي
بخط عثمان بن الحسين الوراق الغزنوي، إيران ٤٨٤هـ/١٠٩٢م،
مكتبة طوب قايي بإسطنبول

نبطي	ض	N/A
Ⲱ	ط	N/A
ⲱ	ظ	N/A
Ⲳ	ع	Y
ⲳ	غ	N/A
Ⲵ	ف	Ⲳ
ⲵ	ق	P
Ⲷ	ك	ⲱ
ⲷ	ل	Ⲳ
Ⲹ	م	ⲱ
ⲹ	ن	Ⲳ
Ⲻ	ه	ⲱ
ⲻ	و	Ⲳ
Ⲽ	ي	ⲱ

شكل (٥) تطابق بعض حروف الخط العربي
مع حروف الخط النبطي

الملاحق (الصور)



صورة رقم (٣)

نماذج من الخط الفارسي



صورة رقم (١)

نقوش مختلفة بخط المسند الحميري



صورة (٦)

مصحف مذهب بخط الثلث (٨٦٤هـ) للخطاط عبد الله الطباخ الهروي، محفوظ في مكتبة تشستر بيتي برقم ١٤٩٩



صورة رقم (٤)

مصحف مزخرف ومذهب بخط النسخ (٩٨٢هـ) للخطاط الفارسي محمد بن مطهر (تقي الدين)، محفوظ في مكتبة تشستر بيتي برقم ١٥٣٤



صورة (٥)

فرمان عثماني بالخط الديواني ومزين بطغراء السلطان سليم الثاني

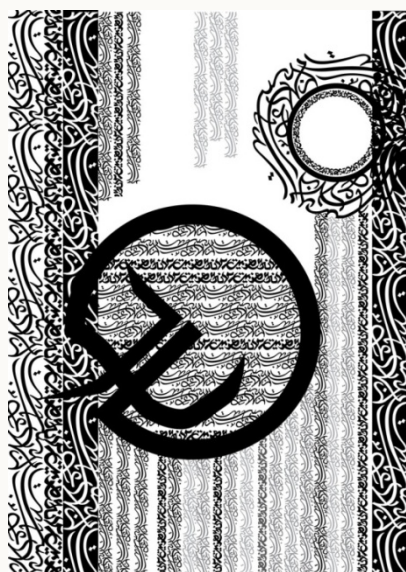


صورة (٧)

صفحة قرآنية بالخط المغربي من الأندلس ١٤هـ/١٤



صورة رقم (١١) نموذج من أعمال حسن شاكر آل سعيد



صورة (١٢)
بعض أعمال نجا المهداوي



صورة (٨)

مصحف مذهب بالخط المغربي المضبوط للخطاط المصري محمد
بن أحمد جموع (١٠٤٤هـ)، محفوظ
في المكتبة المركزية للمخطوطات الإسلامية في القاهرة



صورة رقم (٩) مثال من الخط الحديث



صورة رقم (١٠)

لوحة خطية للفنان العراقي ضياء عزاوي

الهوامش:

- (٢٩) عبد العزيز الدالي، الخطاطة الكتابية العربية، مكتبة الخانجي، مصر، ١٩٧٩، ص ٤٢.
- (٣٠) تعود أقدم الكتابات التدمرية إلى القرن الأول قبل الميلاد ويمتد تاريخها إلى القرن الثالث الميلادي، لمزيد من التفصيل يُمكن العودة إلى ولفنسون إسرائيل، تاريخ اللغات السامية، مطبعة الاعتماد بمصر، ط١، ١٩٢٧، ص ١٢٨.
- (٣١) اشتق الأنباط الخط النبطي من الخط الآرامي، وعلى الرغم من تطوره التسبي منذ أواخر القرن الثاني قبل الميلاد، إلا أنه لم يأخذ طابعه المميز إلا في القرن الأول قبل الميلاد.
- Diringer (D), op. cit, pp 136-140.
- (٣٢) علي جواد، تاريخ العرب قبل الإسلام، دار العلم للملايين، بيروت، مكتبة النهضة، بغداد، ط١، ١٩٦٩، ص ١٥.
- (٣٣) الخط الآرامي وهو أحد الفروع الرئيسية للخط السامي الشمالي، وقد انحدر عنه في أواخر القرن العاشر أو أوائل القرن التاسع قبل الميلاد. يُمكن العودة إلى:
- Diringer (D), The Alphabet, London, 1968, VOL I, p 198
- (٣٤) بن هشام (أبو محمد عبد الملك)، سيرة النبي ﷺ، مراجعة وضبط وتعليق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الطلائع للنشر والتوزيع والتصدير، القاهرة، ج١، ص ٢٠٧. المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، مطبعة السعادة، مصر، ١٩٤٩، ج١، ص ٢٠٧ ابن ربه، العقد الفريد، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٤٧، ج٤، ص ١٥٦.
- (٣٥) علي جواد، تاريخ العرب قبل الإسلام، ج٧، ص ٥٥.
- (٣٦) القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، نفسه، ج٣، ص ١٤.
- (٣٧) ابن النديم، الفهرست، نفسه، ص ٦.
- (٣٨) غانم قدوري الحمد، علم الكتابة العربية، دار عمار للنشر والتوزيع، الأردن، ٢٠٠٤.
- (٣٩) غانم قدوري الحمد، الكتابة العربية، نفسه.
- (٤٠) إبراهيم جمعة، دراسة في تطوّر الكتابات الكوفية، دار الفكر العربي، ص ١٧.
- (٤١) سهيلة الجبوري، أصل الخط العربي وتطوره حتى نهاية العصر الأموي، مطبعة الأديب، بغداد، ١٩٧٠، ص ٤٨.
- (42) Abbott Nabia, The Rise of the North Arabic Script and its kuranic Development with a full Discription of the Kuran Manuscripts in the Srialent Institute, Chicago, 1938, p 8-9.
- (٤٣) علي جواد، تاريخ العرب قبل الإسلام، نفسه، ص ٦٧-٦٨ / نيلسن وداتليف وآخرون، التاريخ العربي القديم، ترجمة حسين علي وزكي محمد حسن، مطبعة النهضة المصرية، ١٩٥٨، ص ٣٨.
- (٤٤) لم يكن الخط العربي في بداياته منقوطة ولا مُشكلا كما هو الحال اليوم، ولكن ضرورة التمييز بين الحروف المتشابهة عندما تم تحويلها من الكوفي اليابس إلى مجموعة الخطوط جعل من الخطاطين يعمدون إلى تنقيط الحروف وشكلها، ويُعدّ أبو الأسود الدؤلي أول من نقط الخط العربي في حين أنّ الخليل بن أحمد الفراهيدي هو أول من شكله. فخري النجار، الخليل بن أحمد الفراهيدي، آراء وإنجازات لغوية، دار صفا للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ٢٠٠٨ / أحمد مختار عمر وعبد العال سالم مكرم، معجم القراءات القرآنية، مطبعة جامعة الكويت، ١٩٨٨، ص ٥١.
- (٤٥) أحمد مختار عمر وعبد العال سالم مكرم، معجم القراءات القرآنية، مطبعة جامعة الكويت، ١٩٨٨، ص ٥١.
- (٤٦) ناجي زين الدين المصرف، بدائع الخط العربي، مؤسسة رمزي للطباعة والفنون، بغداد، ١٩٨٢، ص ٣٣.
- (٤٧) فريد الزاهي، الجسد والصورة والمقدس في الإسلام، نفسه، ص ١٣٣.

- (١) الهوريني (أبو الوفا نصر الوفاي، ت ١٢٩١هـ/١٨٧٤م)، المطالع النصرية للمطالع المصرية في الأصول الخطية، تحقيق عبد الوهاب محمود الكحلة، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط١، ٢٠٠١ / بن قتيبة الذبوري (أبو محمد عبد الله بن مسلم، ت ٢٧٦هـ)، كتاب أدب الكاتب، تحقيق محمد الدالي، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط١، ١٩٨٢.
- (2) Abdul Kabir Khatibi and Mohammad Sejelmasi, the Splendour of Islamic Calligraphy, Thomas and Hudson: London, 1976, 20.
- (٣) ابن منظور، لسان العرب، نفسه، مادة خطط، ج٢، ص ١١٩٨.
- (٤) الجاحظ، الحيوان، نفسه، ج١، ص ٦٣.
- (٥) ابن الحاجب (جمال الدين أبي عمرو عثمان بن عمر)، متن الشافية، مجموع مهمات المتون، ط١، ١٩٤٩، ص ٥٥١.
- (٦) ابن خلدون، المقدمة، تحقيق حامد أحمد الطاهر، دار الفجر للتراث، القاهرة، ٢٠٠٤، ص ١٠٥.
- (٧) القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، المؤسسة المصرية العامة، نسخة مصورة عن الطبعة الأميركية، مصر، د.ت، ج٣، ص ٨.
- (٨) ابن النديم، الفهرست، ص ١٦.
- (٩) نفسه، نفس الصفحة.
- (١٠) نفسه، ص ١٣.
- (١١) محمد طاهر الكردي، الخط العربي تاريخه وآدابه، مكتبة الهلال، ط١، ١٩٣٩، ص ٧-٨.
- (١٢) نفسه، ص ٨.
- (١٣) كمال عبد جاسم الصالح الجميلي، أثر القرآن الكريم في الخط العربي، مجلة البحوث والدراسات القرآنية، بغداد، العدد التاسع، ص ٣٠٣.
- (١٤) الشيخ شمس الدين الأصفهاني وهو طبيب باحث بالحكمة والرياضيات توفي بالقاهرة في ٧٤٩هـ. أنظر القلقشندي، صبح الأعشى، نفسه، ج٣، ص ٧.
- (١٥) ابن منظور، لسان العرب، دار صادر بيروت، ١٩٩٩، ج٥، مادة "كَنَب"، ص ٣٨٦١.
- (١٦) الراغب الأصفهاني (أبي القاسم الحسين بن محمد)، مفردات ألفاظ القرآن، دار القلم، دمشق والدار الشامية بيروت، ط١، ١٩٩١، ص ٦٩٩.
- (١٧) ن.م. ن.ص.
- (١٨) القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، نفسه، ج١، ص ٣٥.
- (١٩) ابن النديم، الفهرست، نفسه، مقدمة المحقق.
- (٢٠) الهوريني (أبو الوفا نصر الوفاي، ت ١٢٩١هـ/١٨٧٤م)، المطالع النصرية للمطالع المصرية في الأصول الخطية، ص ١٣.
- (٢١) شربل داغر، مذاهب الحسن: قراءة معجمية تاريخية للفنون العربية، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، ص ٣٣٧.
- (٢٢) ابن خلدون، المقدمة، دار القلم، بيروت، ١٨٩١، ط٤، ص ٤٢٠.
- (٢٣) نفسه، نفس الصفحة.
- (٢٤) انظر أيضاً محمد الهادي دحمان، الخط العربي في السياق الخلدوني، مقال في مؤلف جماعي بعنوان "الخط العربي بين العبارة التشكيلية والمنظومات التواصلية"، نفسه، ص ٢٥.
- (٢٥) فريد نان توتل، المنجد في الأدب والأعلام، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، ١٩٥٦، ص ٤٠٠.
- (٢٦) ناصر الدين الأسد، مصادر الشعر الجاهلي، ص ٦٧.
- (٢٧) نفسه، ص ٦٦-٦٧-٦٩-٧٣.
- (٢٨) صلاح الدين المنجد، دراسات في تاريخ الخط العربي منذ بدايته إلى نهاية العصر الأموي، دار الكتاب الجديد، ١٩٧٢، ص ٢٣.

المستشرقون الألمان والتراث العربي الإسلامي المخطوط بين التحقيق والتلفيق

د. عولمي الربيع

أستاذ مساعد التاريخ القديم والآثار
قسم التاريخ وعلم الآثار
جامعة باتنة - الجمهورية الجزائرية



ملخص

يكتسي موضوع الاستشراق والمستشرقين في الوقت الراهن أهمية بالغة في الوطن العربي والإسلامي، وقد احتد النقاش حول هذا الموضوع بين الباحثين والمهتمين واتخذ أحياناً طابعاً انفعالياً ومازال يكتنفه الكثير من الغموض حتى الآن، وعندما نتكلم عن الاستشراق والمستشرقين فإننا نتكلم عن مدرسة أكاديمية تقوم على دراسة ثقافة وحضارة أخرى، بمعنى أننا نتكلم عن الغرب ودراساته للشرق. والاستشراق Orientalism تعبير يدل على الاتجاه نحو الشرق، ويطلق على كل من يبحث في أمور الشرق بمفهومه الجغرافي والحضاري وثقافته وتاريخه، ويقصد به ذلك التيار الفكري الذي يهتم بالدراسات المختلفة عن الشرق الإسلامي، التي تشمل حضارته وأديانه وآدابه ولغاته وثقافته، وقد أسهم هذا التيار في صياغة التصورات الغربية عن الشرق عامة، وعن العالم الإسلامي بصورة خاصة، معبراً عن الخلفية الفكرية للصراع الحضاري المحتدم بين الشرق والغرب.

بيانات المقال:

تاريخ استلام المقال:	٢٧ فبراير	٢٠١٦
تاريخ قبول النشر:	١٩ مايو	٢٠١٦
الكلمات مفتاحية:	الاستشراق، المخطوطات، التراث العربي، تحقيق المخطوطات، المستشرقون الألمان	
معرف الوثيقة الرقمي:	DOI 10.12816/0052954	

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

عولمي الربيع، "المستشرقون الألمان والتراث العربي الإسلامي المخطوط: بين التحقيق والتلفيق"، - دورية كان التاريخية -، السنة الحادية عشرة - العدد الأربعون، يونيو ٢٠١٨، ص ٢٠ - ٣٠.

مقدمة

كنموذج للمستشرقين في معرفة أعمال المستشرقين الألمان، وجهودهم في خدمة التراث العربي الإسلامي المخطوط.

أولاً: بداية ظهور الاستشراق

يتصدى الباحث في الاستشراق والمستشرقين إلى مدرسة أكاديمية تقوم على دراسة ثقافة وحضارة أخرى، بمعنى اهتمام الغرب بدراسة الشرق. والاستشراق (Orientalism) مصطلح يدل على الاتجاه نحو الشرق، ويطلق على كل من يبحث في أمور الشرق بمفهومه الجغرافي والحضاري وثقافته وتاريخه. ويقصد به ذلك التيار الفكري الذي يهتم بالدراسات المختلفة عن الشرق الإسلامي، التي تشمل حضارته وأديانه وآدابه ولغاته وثقافته. وقد أسهم هذا التيار في صياغة التصورات الغربية عن الشرق عامة، وعن العالم الإسلامي بصورة خاصة، معبراً عن الخلفية الفكرية للصراع الحضاري المحتدم بين الشرق والغرب.^(١)

تتميز مكانة المخطوطات من كونها جزءاً هاماً من التراث العربي الإسلامي الذي قامت عليه الحضارة العربية الإسلامية، ودراساتها تدفع إلى التعرف على أسباب النهوض وعوامله والتطور والإبداع عند العرب المسلمين، وتلمس الطريق الذي سلكه الأقدمون في مسيرة البناء الحضاري. لقد أصبحت المخطوطات محل اهتمام عدد كبير من المستشرقين، نظراً لقيمتها العلمية والفنية، فضلاً عن كونها جزءاً مهماً من التراث العربي الإسلامي العريق. إن الاطلاع على الاستشراق ومناهج المستشرقين وأعمالهم يعد ضرورة ملحة لكل باحث متخصص، يطلعه على الساحة الثقافية التي يتعامل معها، وبالخلفية الفكرية للصراع الحضاري مع الآخر، كما أن أعمال المستشرقين تنبع من بيئات مختلفة، وثقافات متعدّدة، ولذا يظهر التباين جلياً بين تلك الأعمال. وانطلاقاً من هذا المفهوم وقع اختيارنا على المدرسة الألمانية

وبوصفه مؤسسة فكرية فقد تأسس الاستشراق بعد أن فشلت الحروب الصليبية، وتعززت قناعة رجال السياسة والكنيسة في الغرب، بأن العالم الإسلامي لا يمكن إخضاعه بالقوة. فلجأوا إلى أسلوب دراسة أحوال المسلمين، لتسهيل السيطرة عليهم، واحتواء الإسلام بوصفه ديناً وعقيدة. ومن ثم يمكن اختراق العالم الإسلامي وإحكام السيطرة عليه. فكان المشروع الاستشراقي نابعاً من العلاقة بين الكنيسة والسلطة في الغرب، فتأسست المعاهد، ومراكز الدراسات والبحوث لتشكل خلايا تخدم غرضاً واحداً هو ضمان استمرار سيطرة الغرب على الشرق.⁽¹⁵⁾

والحقيقة أن دور المستشرقين جاء من هنا- وهم بوابة المنصرين-، ومع هذا تظل دراسات المستشرقين يحكمها الدافع التنصيري، أو الاستشراقي، وهذه الدوافع كلها لا قيمة لها إذا ما قورنت بدافع العقيدة الذي يربط المسلم بتراثه، حتى ولو كان مفرطاً في حقه. وسجل المستشرق الإيطالي الأمير "ليون كياتاني"⁽¹⁶⁾ (Leone Caetani) اعترافاً صريحاً حيث كان يبحث عن سر "المصيبة الإسلامية" التي انتزعت من الدين المسيحي الملايين من الأتباع في شتى أنحاء المعمورة.

وقد توجهت هجمات المستشرقين إلى المخطوط العربي، فقد ذكر محمود المقداد الهدف من جمعهم المخطوطات قائلاً: «وهكذا حاول الفرنسيون أن يتعرفوا على أخلاق العرب، والشرقيين، وعاداتهم، وتقاليدهم، وما لهم من معارف وثقافات. لهذا اتجه الغربيون عامة، والفرنسيون خاصة إلى جمع أعداد من المخطوطات. وقد جُند لهذا الغرض رهبان، ومبشرون، وتجار، وجواسيس، ودبلوماسيون، وسفراء في العالم العربي والإسلامي، ورخالة، وسواح، ومستعربون، كُلُّوا خصيصاً بهذا العمل».⁽¹⁷⁾

ويؤكد جون مول (John Mole) في سنة ١٨٤١م هدف المستشرقين قائلاً: "مهما كررنا وأعدنا فإننا لا نكرر بما فيه الكفاية أن طبع المخطوطات الشرقية الأهم هو الحاجة الأكبر، والأكثر ضغطاً وإلحاحاً بالنسبة لدراساتنا، وبعد أن يكون العمل النقدي للعلماء قد مرَّ على الأدبيات الشرقية، وبعد أن تكون الطباعة قد سهلت عملية تداول الكتب، بعد ذلك فقط يمكن للعقل الأوروبي أن ينفذ فعلاً إلى أعماق الشرق." ومن جهته يؤكد المستشرق الروسي⁽¹⁸⁾ (Kratchkovsky) أهداف المستشرقين من تلك البعثات قائلاً: "يتاح للمستعرب القيام باكتشافات كثيرة، ولعله يلقي منها على طريقه أكثر مما يلقي الباحثون في المجالات العلمية الأخرى التي هي أعمق تنقيباً، وتستدعي عدداً أكبر من الباحثين ولا داعي للتفكير في أن هذه الاكتشافات لا ترتبط إلا بالمخطوطات".⁽¹⁹⁾

ثانياً: المستشرقون الألمان

١/٢- الاستشراق الألماني

برز الاستشراق الألماني إلى الوجود في أوائل القرن الثامن عشر الميلادي عندما اتجه عدد من الألمان إلى هولندا، فتعلموا اللغات

وإذا كان المستشرقون (Orientalists) هم جماعة من علماء الغرب، تخصصوا في لغات الشرق وعنوا بالبحث فيها، وتخصصوا في دراسة اللغة العربية، والحضارة العربية وبقضايا العالم العربي وبالدين الإسلامي.⁽²⁾ فإن رؤيتنا للاستشراق مغايرة لمقولة "كراتشكوفسكي" (Kratchkovsky) الشهيرة: «الشرق أم روما».⁽³⁾ ومناقضة لمبدأ "روديارد كيبينغ" (Rudyard Kipling)⁽⁴⁾ «الشرق شرق والغرب غرب وهيهات أن يلتقيا» ولا تنسجم مع مفهوم الاستشراق الذي طرحه د. "إدوارد سعيد" في كتابه الشهير "الاستشراق" إذ اعتبر أن الاستشراق: «أسلوب غربي للسيطرة على الشرق وامتلاك السيادة عليه. وبأن الاستشراق قد شكل الحضارة الشرقية في كوكبة من الأفكار "الشرقية" كالاضطهاد، والأبهة الشرقية، القسوة الشرقية، والحواسية الشرقية».⁽⁵⁾

لقد تباينت آراء الباحثين والمؤرخين حول تحديد بداية الاستشراق، فالبعض يرجعه إلى القرن العاشر أي إلى عصر- الراهب الفرنسي "جربير دي أوريك" (de Aurillac)⁽⁶⁾ المعروف بابابا سلفستر الثاني، وهو البابا الوحيد الذي تعلم العربية وأتقن العلوم عند العرب وعلى أيدي العرب في إسبانيا.⁽⁷⁾ وبعض الآخر أرجعه إلى القرن الثاني عشر. وقد ظهر مفهوم الاستشراق في أوروبا في نهاية القرن الثامن عشر، بدءاً بإنجلترا سنة ١٧٧٩م، ثم فرنسا سنة ١٧٩٥م.⁽⁸⁾ وفي سنة ١٨٣٨م أدرج الاستشراق في قاموس الأكاديمية الفرنسية.⁽⁹⁾ ويُعدُّ القرنان التاسع عشر- الميلاي والعشرين عصراً ازدهار الحقيقي للحركة الاستشراقية.

وفي هذا السياق قام المستشرقون بإنشاء جمعيات للدراسات الاستشراقية في مختلف بلدان أوروبا وأمريكا خلال القرن التاسع عشر- الميلاي، فتأسست الجمعية الآسيوية في باريس سنة ١٨٢٢م، ثم الجمعية الملكية الآسيوية في بريطانيا، وإيرلندا سنة ١٨٢٣م، والجمعية الشرقية الأمريكية سنة ١٨٤٢م، والجمعية الشرقية الألمانية سنة ١٨٤٥م.⁽¹⁰⁾ وكان المستشرق النمساوي "فون هامر بـرغشتال" (Von Hammer Purgstall)⁽¹¹⁾ غزير الإنتاج فأصدر أول مجلة استشرافية باسم "كنوز الشرق" Fundgruben des Orients في فيينا خلال الفترة (١٨٠٨- ١٨١٨م)، في ستة مجلدات وجعل شعارها الآية ١٤٢ من سورة البقرة: «قل لله المشرق والمغرب»⁽¹²⁾ وفي سنة ١٨٩٥م ظهرت في باريس "مجلة الإسلام" الاستشرافية. وأصدرت البعثة العلمية الفرنسية في المغرب "مجلة العالم الإسلامي" في سنة ١٩٠٦م، ثم تحولت هذه المجلة إلى "مجلة الدراسات الإسلامية". وفي سنة ١٩١٠م ظهرت "مجلة الإسلام" الألمانية. وظهرت "مجلة العالم الإسلامي" الأمريكية برئاسة القس زيمر⁽¹³⁾ (S. Zwemer) رئيس المبشرين في الشرق الأوسط في سنة ١٩١١م. وظهرت "مجلة عالم الإسلام" الروسية في سنة ١٩١٢م. وشهد القرن التاسع عشر- انعقاد عدة مؤتمرات دولية استشرافية. حيث عقد في باريس أول مؤتمر دولي استشراقي في سنة ١٨٧٣م، ثم توالى عقد عديد المؤتمرات الاستشرافية في أواخر القرن ١٩م.⁽¹⁴⁾

٥-مجلة "إسلاميكا" (إسلاميات)، أنشأها"أ. فيشر"⁽²⁴⁾ A.Fischer بمدينة لايبزغ Leipzig في ١٩٢٠م.

إن أهم ما يميز الاستشراق الألماني عدم ارتباطه بالاستعمار- كما هو الحال في إنجلترا وفرنسا هولندا- أو يرتبط بأهداف دينية تنصيرية كسواه، لذلك امتاز بالموضوعية والعقم، والمتتبع لحركة هذا الاستشراق يلاحظ أنه اختص بميزات واضحة وهي:

١- أنه لم يخضع لغايات سياسية أو استعمارية أو دينية كالاستشراق في بلدان أوربية أخرى. فألمانيا لم يتح لها أن تستعمر البلاد العربية أو الإسلامية، ولم تهتم بنشر- الدين المسيحي في الشرق. لذلك لم تؤثر هذه الأهداف في دراسات المستشرقين الألمان، وظلت محافظة في الأغلب على التجرد غالباً والروح العلمية على وجه الخصوص. وإذا ظهر في بعض الدراسات الإستشراقية الألمانية بعض الانحراف في الرأي أو الخطأ فهذا أمر لا يمكن تعميمه في الدراسات كلها.

٢- لم تتصف دراسات المستشرقين الألمان عن العرب والإسلام والحضارة الإسلامية - العربية في الغالب بروح عدائية بالرغم من وجود بعض المستشرقين الألمان الذين أتوا بآراء لا توافق العرب والمسلمين أو بآراء خاطئة تماماً كـ بعض آراء تيودور نولدكه T.Noeldeke شيخ المستشرقين الألمان عن الشعر الجاهلي والقرآن الكريم، أو آراء جوهان فولرز^(٢٥) J.Vullers عن القرآن الكريم وتهذيبه، لكن نلاحظ أن هذه الآراء كانت معدودة ، فالاستشراق الألماني لم يعرف مستشرقين ناصبوا الإسلام العداء وتعمدوا الدس والتشويه في دراساتهم، بل اتسمت تلك الدراسات بروح الإعجاب والإنصاف، ونجد هذه الروح عند "جاكوب ريسكه" J.Reiske الذي سمي نفسه "شهيد الأدب العربي". ونجدها أيضاً عند "جورج جاكوب" George Jacob (١٨٦٢-١٩٣٧م) في كتابه "أثر الشرق في العصر الوسيط".

٣- كانت للمستشرقين الألمان علاقات طيبة مع الدولة العثمانية وهذا ما نستشفه من خلال دراسة تاريخ ألمانيا وعلاقتها بالعالم الإسلامي.

والباحث في الإستشراق الألماني يستنتج أن المستشرقين الألمان اتسمت أنشطتهم الإستشراقية بالعلمية والموضوعية، وهذا لا يعني أن الأمر ينطبق على كل المستشرقين وأن الإستشراق الألماني خال من الطعن والتلفيق والإفتراء على الإسلام. فقد ورد في كتاب "تاريخ الشعوب الإسلامية" لكارل بروكلمان Brockelmann Carl الكثير من المغالطات والإفتراءات على الإسلام وعلى نبوة النبي محمد (ص)، مقارنة بكتابه "تاريخ الأدب العربي" الذي نال شهرة كبيرة.

صفوة القول إن الاستشراق الألماني لم يخضع لأهداف سياسية ودينية استعمارية بسبب عدم تورط ألمانيا بالاستعمار، وقد عكف الألمان على الاهتمام بالآثار والآداب والفنون، واتسمت دراساتهم بالروح العلمية والموضوعية، ولعل مرد ذلك إلى خصال الألمان الذين جبلوا على الدقة والصبر والأمانة العلمية.

الشرقية، ولما عادوا إلى بلادهم، علموها في جامعاتهم، وأخرجوها من نطاق التوراة إلى ميدان الثقافة العامة. وكان العلماء الألمان قد شاركوا في الدراسات العربية اشتراكاً فعلياً بعد أن توغل الأتراك في قلب أوروبا، وبدأت أوروبا تهتم بدراسة لغات العالم الإسلامي لأسباب سياسية، واهتم أمراء العالم المسيحي بشراء المخطوطات الشرقية لبناء دعامه في دراسة تلك اللغات، وقد قام المستشرق "كريستمان جاكوب"⁽²⁰⁾ Christmann Jakob (١٥٥٤-١٦١٣م) بأول محاولة في ألمانيا لتدريس اللغة العربية ونشرها، ووضع فهرساً مختصراً لمجموعة من المخطوطات اقتناها أحد النبلاء الألمان. وألف أيضاً كتباً لتعليم الحروف العربية، وجمع بعض آيات الإنجيل المترجمة إلى العربية للتمرن على القراءة، بل إنه أعد بنفسه الحروف العربية في قوالب من الخشب للمطبعة.

وتشير المصادر على أن بداية علاقة الألمان بالعالم الشرقي كانت في بداية سنة 1633م حين أرسل "الدوق فريدريك الثالث" Frederick III دوق شليفينج هولشتاين وجوتروب أثناء حرب الثلاثين مجموعة تتكون من أربعة وثلاثين رجلاً إلى فارس وروسيا كي تتحالف مع الإمبراطور بفارس ضد الأتراك ودامت الرحلة خمسة أعوام، ولكنها لم تحقق الغرض المرجو منها. وإن كانت أدت إلى إقامة جسر ثقافي عبرت عليه أوروبا والألمان بخاصة إلى الحضارة الشرقية. وقد ساعدت النهضة الفكرية في أوروبا خلال القرنين السابع عشر- المئلاي والثامن عشر- المئلاي في تحرير دراسة اللغة العربية من كل قيد، وفي مقدمتهم في هذا المجال "جاكوب ريسكه" J.Reiske (١٧١٦-١٧٧٤م) أول مستشرق ألماني وقف حياته على دراسة اللغة العربية في جامعة لايبزغ Leipzig، و"غرهارت تيشسن" O.G.Tychsen⁽²¹⁾ (١٧٣٤-١٨١٥م) في جامعة روستوك Rostock. ولما اتصلت ألمانيا بالشرق سياسياً وتجارياً تشبهت بالنمسا وفرنسا، وأنشأت على غرارهما مدرسة للغات الشرقية في برلين سنة ١٨٨٧م وجمعت مخطوطاتها في مكباتها. وفضلاً عن ذلك فقد قام المستشرقين الألمان بتأسيس الجمعيات والمكبات، وإصدار المجلات، فمن الجمعيات والمجلات نذكر:

١-الجمعية الألمانية للدراسات الإسلامية، التي أسسها "مارتن هارتمان" Martin Hartmann⁽²²⁾ (١٨٥١-١٩١٨م)، وأصدر لها مجلة "عالم الإسلام" سنة ١٩١٣م.

2-الجمعية الشرقية الألمانية التي أسسها "فلايشر" Heinrich leberecht Fleischer (١٨٠١-١٨٨٨م) في مدينة هاله سنة ١٨٤٥م.

٣-المجلة الشرقية الألمانية وكان تأسيسها في مدينة فيسبادن Fesbaden سنة ١٨٤٧م.

٤-مجلة الإسلام، وقد أنشأها الوزير "كارل هينريك بيكر"⁽²³⁾ Karl Heinrich Bekker (١٨٧٦-١٩٣٣م) لصالح الجمعية الشرقية الألمانية سنة ١٩٢٠م.

٢/٢- أبرز المستشرقين الألمان في مجال المخطوطات

لمعت أسماء عديدة من المستشرقين الألمان الذين اهتموا بالمخطوطات، حتى صاروا مراجع لكثير من الباحثين في الشرق والغرب، ونظرا لكثرتهم فقد اقتصرنا على ذكر البعض منهم:

١- "يوهان جاكوب ريسكه" ^(٢٦) *Johann Jakob Reiske* (١٧١٦-١٧٧٤م): مستشرق ألماني من الرعييل الأول وعالم باليونانيات، يعد مؤسس الدراسات العربية في ألمانيا حيث بدأ بتعلم العربية، درس في جامعة لايبزغ *Leipzig* وانتقل إلى جامعة ليدن *Leyde* لدراسة اللغة العربية، ثم عُني بدراسة المخطوطات العربية والحضارة الإسلامية، ومن أقواله المشهورة عن المخطوطات قوله: "ليس عندي أولاد، ولكن أولادي يتامى بدون أب، وأعني بهم المخطوطات". ويُعد أول من نشر معلقة طرفة بن العبد مع ترجمتها إلى اللغة اللاتينية سنة ١٧٤٢م. كما نشر بالعربية بالاشتراك مع أدلر ^(٢٧) تاريخ أبي الفداء "المختصر- في أخبار البشر" مع ترجمة إلى اللاتينية. ^(٢٨)

٢- "هنري فرديناند وستنفلد" ^(٢٩) *H.F. Wustenfled* (١٨٠٨-١٨٩٩م): ولد وستنفلد في مندن (*Munden*) بمقاطعة هانوفر وتعلم بها ثم في برلين. عُيّن أستاذاً للعربية في غوطا (*Gotha*) يعتبر من أبرز المستشرقين الألمان الذين اهتموا بدراسة اللغات الشرقية، حتى أصبح أستاذاً للغة العربية، ومؤلفاته باللغة العربية شكلت مكتبة واسعة تزيد عن مائتي مؤلف. وقد أدى للعلوم الشرقية خدمة ذات قيمة علمية كبيرة بما نشره من المصنفات القديمة، ومن أهمها: "آثار البلاد" للفرزوني، و"أخبار قط مصر" للمقرئزي. و«معجم ما استعجم» للبكري، و«تهذيب الأسماء واللغات» للنووي، و«تواريخ مكة المشرفة» للأزرقي والفاكهي والفاسي وابن ظهيرة وغيرهم، و«السيرة» لابن هشام، و«تاريخ مدينة الرسول» للسهمودي، و«اللباب في تهذيب الأنساب»، و«طبقات الحفاظ» للذهبي، و«الاشتقاق» لابن دريد، و«مختلف القبائل ومؤتلفها» لابن حبيب، و«المعارف» لابن قتيبة، و«المشترك وضعاً» و«معجم البلدان» لياقوت الحموي، وكف بصره في أواخر أعوامه ومات في هانوفر. ^(٣٠)

٣- تيودور نولدكه ^(٣١) *Theodore Noldeke* (١٨٣٦-١٩٣٠م): شيخ المستشرقين الألمان، درس اللغة العربية في هامبورغ، كما درس في جامعة لايبزغ وفيينا وليدن وبرلين. انصرف إلى اللغات السامية والتاريخ الإسلامي فعُيّن أستاذاً لهما في جامعة جوتنجن *Göttingen* (سنة ١٨٦١م) فجامعة كييل (١٨٦٤م) ثم في جامعة ستراسبورغ (١٨٧٢م) ومات في كارلسروه (*Karlsruhe*)، ومن أهم مؤلفاته: «حياة النبي محمد» و«تاريخ القرآن» نشره سنة ١٨٦٠م وهو رسالة دكتوراه، تناول فيها ترتيب سور القرآن الكريم، وحاول أن يجعل لها ترتيباً ابتدعه. له كتب بالألمانية عن العرب وتاريخهم، واهتم بالشعر الجاهلي وبقواعد اللغة العربية وأصدر كتاباً بعنوان «مختارات من الشعر العربي»، و«النحو العربي» و«خمس معلقات» ترجمها إلى الألمانية وشرحها. ونشر- في مجلات الغرب وموسوعاته بحوثاً كثيرة، منها رسالة في «أمراء

غسان» ترجمها إلى العربية بندلي جوزي وقسطنطين زريق. واشترك في الإشراف على طبع «تاريخ الطبري» وترجمته إلى الألمانية. قال الأب أنستاس الكرمل: لم نجد بين حملة العلم المعاصرين من بلغ تحقيقه. كان يحسن اللغات الشرقية كلها كالعربية والأرامية والعبرية والصابئية والحشبية وغيرها. وله تصحيحات وتحقيقات في هذه الألسنة فضلاً عن معرفته بلغات الغرب كال يونانية واللاتينية والفرنسية والإنكليزية والإيطالية والإسبانية ولغته الألمانية.

٤- يوليوس ولهوسن ^(٣٢) *Jullius Wellhausen* (١٨٤٤-١٩١٨م): ولد في "هاملن" *Hamelin* (وستفاليا)، درس علم اللاهوت في جامعة غوتنغن، وبحلول عام ١٨٧٠م مارس تأديراً عميقاً على الدراسة الفقهية للعهد القديم (التوراة). مؤسس مدرسة النقد الجذري للكتاب المقدس. تخصص في دراسة التاريخ الإسلامي والفرق الإسلامية، فألف الكتاب الشهير "المملكة العربية وسقوطها"، الذي أثر على الكتابة التاريخية العربية تأثيراً كبيراً في مسائل عدة، الأولى: اعتبار الصراع الأبرز في الدولة العربية الأولى صراعاً قومياً بين العرب والعجم، وتحديد الحقب الميكرية أو العصر العربي للدولة الإسلامية ما بين ٦٣٢م و٧٥٠م، تاريخ سقوط الدولة الأموية. والأمر الثاني: منهجي وهو استناده إلى تاريخ الطبري ونصوصه المنقولة عن مصادر أقدم، ويركز الكاتب على أهمية المسألة المنهجية. فتاريخ الطبري نشره "دي غويه" وزملاؤه وتلامذته في الثلث الأخير من القرن التاسع عشر، وقد اطلع ولهوسن على بعض أجزاء النص مخطوط، لأنه استخدمه في دراسات سابقة. وكان المؤرخون من بين المستشرقين اعتادوا الرجوع إلى مصادر متأخرة مثل ابن الأثير وابن كثير لأنها عُرفت أولاً. لذلك كان مهمّاً من جانب ولهوسن الاهتمام بقديم المصدر ثم بتحليل تركيبه الكتابي.

٥- كارل بروكلمان ^(٣٣) *Carl Brockelmann* (١٨٦٨-١٩٥٦م): بدأ دراسة اللغة العربية وهو في المرحلة الثانوية، ودرس في الجامعة فضلاً عن اللغات الشرقية اللغات الكلاسيكية (اليونانية واللاتينية)، ودرس على يدي المستشرق نولدكه *Noldeke*. نال شهادة الدكتوراه في الفلسفة واللاهوت، عُني بدراسة التاريخ الإسلامي، من أشهر مؤلفاته: "تاريخ الشعوب الإسلامية"، لكنه مليء بالمغالطات والافتراءات على الإسلام، و«تاريخ الأدب العربي» الذي ترجم في ستة مجلدات، وفيه رصد لما كتب في اللغة العربية في العلوم المختلفة من مخطوطات، ووصفها وبين مكان وجودها. وحقق المجلد الثامن من طبقات ابن سعد، وصنف فهرس المخطوطات الشرقية في هامبورغ.

وإن نحن ألقينا نظرة متفحصة على فهرس المخطوطات العربية التي أحصاها المستشرق الألماني كارل بروكلمان *C. Brockelmann*، في مطلع الجزء الأول من كتابه الضخم الهام "تاريخ الأدب العربي" فإننا سنقف مذهوشين إزاء اتساع دائرة انتشار المخطوطات العربية في الغالبية العظمى من كبريات المكتبات المعروفة في العالم المتحضر- بالإضافة إلى غزارتها

أن الشافعي لعب دوراً محورياً في ذلك لأنه كان في مواجهة أهل الرأي من جهة وأهل الأثر من جهة ثانية. ومن هنا يعتبر شاخت أن الحاجة لإعطاء سلطة مطلقة غير قابلة للنقض أدت إلى إرجاع جميع الأحاديث إلى النبي محمد (ص). وفي عام ١٩٥٤ وضع شاخت كتابه "مقدمة للفقه الإسلامي" الذي مثل خلاصة فكره.^(٣٧)

ثالثاً: إسهامات المستشرقين الألمان في خدمة المخطوط العربي الإسلامي

تعرضت العديد من المخطوطات العربية الإسلامية للضياع، بسبب ما تعرضت له الدولة العربية الإسلامية من حروب وفتن وغزوات، أشهرها احتلال هولاءو بغداد سنة 656 هـ - ١٢٥٨م، إذ ألقيت مئات الآلاف من المخطوطات في نهر دجلة، كذلك حين سقطت غرناطة على يد الأسبان سنة 892 هـ - ١٤٩٢م، إذ أحرقت عشرات الآلاف من المخطوطات، أما الذي سلم من هذه الكوارث والنكبات فقد نقل معظمه إلى دور المخطوطات، والأديرة والمتاحف الأجنبية خلال الحروب الصليبية، ثم خلال الاستعمار الحديث للبلاد العربية، ويقدرها معهد المخطوطات العربية بما يقرب من ثلاثة ملايين مخطوط، وخير ما عبر عن ضياع المخطوطات "أسامة بن منقذ" عندما استولى الصليبيون على أسرته قائلاً: «فهون علي سلامة أولادي وأولاد أخي، وحرمتنا ذهاب ما ذهب من المال إلا ما ذهب لي من الكتب، فإنها كانت أربعة آلاف مجلد من الكتب الفاخرة، فإن ذهابها حزازة في قلبي ما عشت».

وإذا ما أردنا تقييم جهود المستشرقين يجب علينا طرح العديد من الأسئلة والتساؤلات: هل كانت تحقيقاتهم مبنية على أسس علمية؟ وما المخطوطات التي قاموا بتحقيقها؟ وهل عنوا بتحقيق ما يظهر تفوق المسلمين ونبوغهم، أم أنهم حققوا منها ما يخدم أهدافهم لا غير؟

لقد تمكن الأوروبيون من السيطرة على مصادر التراث العربي الإسلامي، عن طريق الاستشراق والمستشرقين بواسطة تحقيق وطبع ونشر مجموعة من أكبر وأهم المصادر التراثية. وعلى الرغم من أن بعض الدراسات كانت تقترب من النزاهة والحياد، إلا أنها في النهاية وبكل المقاييس تبقى مظهرًا من مظاهر الاحتواء الثقافي، وقد نجحت أيضا في فرض نموذج من التحقيق والتقييم والنقد. ويمكن القول إن معظم الكتابات العربية المعالجة للتراث قد سارت على هذا النهج، ولم تتجاوزه إلا في القليل النادر، إلى درجة إيجاد ركائز ثقافية عربية معبرة ومتبينة لوجهة نظرها، ومدافعة عن المواقع الثقافية التي شغلها وحتى في الجامعات والمؤسسات العلمية لايزال الخضوع والاحتكام للقولاء الفكرية التي اكتسبها المثقفون المسلمون من الجامعات الأوروبية. ونستطيع القول إن آثار الاستشراق وإنتاج المستشرقين لايزال

الملحوظة لدى المتتبعين. ويدل هذا العدد الكبير من الفهارس في ثبوت بروكلمان-وقد أصبح اليوم قديما نوعا ما بالنسبة إلى ما استجد من فهارس المكتبات أو المخطوطات لم يدرکہا بروكلمان نفسه ولم يطلع عليها-على ضخامة التراث العربي المخطوط الذي يقف وراءها.^(٣٨)

٦- هلموت ريتير ^(٣٩) Hellmut Ritter (١٨٩٢-١٩٧١م): ولد في 27 فيفري ١٨٩٢م، درس على يد المستشرق الألماني هينريتش بيكر، عمل في الجيش الألماني وعاش في إسطنبول بتركيا في الفترة (١٩٢٧-١٩٤٩م) مما أتاح له الفرصة للاطلاع على ما في مكتبات تركيا من كنوز المخطوطات الإسلامية. وله تحقيقات مهمة من أبرزها: "مقالات الإسلاميين لأبي الحسن الأشعري"، الوافي بالوفيات، فرق الشيعة للحسن بن موسى النوبختي، أسرار البلاغة للجرجاني، أسس المكتبة الإسلامية بألمانيا سنة ١٩١٨م للعناية بحفظ ونشر المخطوطات الإسلامية، كما أسس مجلة أوريانس "الشرق" (Oriens) سنة ١٩٤٨م.

٧- جوسيف شاخت ^(٤٠) Josef Schacht (١٩٠٢-١٩٦٩م): ولد شاخت في مدينة راتيبور الواقعة في ألمانيا (حالياً بولندا) في 15 مارس ١٩٠٢م، حاز على شهادة الدكتوراه من جامعة بريسلو وانتقل بعدها للعمل في جامعة لايبزغ ثم في جامعة فرايبورغ الشهيرة. درس اللغات الشرقية في جامعة بريسلو، انتدب للعمل في جامعة القاهرة كأستاذ زائر في ١٩٣٩م لتدريس مادة فقه اللغة العربية واللغة السريانية. شارك في هيئة تحرير دائرة المعارف الإسلامية في طبعتها الثانية. يعتبر شاخت من أكثر الوجوه الإشكالية في مجال الدراسات الإسلامية. رغم إتقانه اللغة العربية وسفره إلى عدد كبير من العواصم والمدن العربية والإسلامية كالقاهرة والجزائر وفاس وتونس وإسطنبول، فإن البعض يعتبره مستشرقاً بامتياز بسبب مواقفه المشككة بركاثر الفقه الإسلامي. أما البعض الآخر فيعتبر أن معرفته الواسعة بالتاريخ الإسلامي سحت له بتقديم مقاربة جديدة ونقدية لنشأة الإسلام. بدأ شاخت حياته الأكاديمية بالعمل على عدد من المخطوطات العربية لا سيما تلك الموجودة في القاهرة. وفي هذا الإطار قام بتحقيق مخطوطة كتاب "الحيل والمخارج" للخصاف في الفقه الإسلامي عام ١٩٢٣م. وفي منتصف العشرينات بدأ اهتمام شاخت بالفقه الإسلامي حيث استغل موقعه في جامعة فرايبورغ وعمل على تطوير معرفته بالقانون ومصطلحاته التقنية. وفي مطلع الثلاثينيات كتب شاخت مقالات أكاديمية عدة في الفقه وعالج مسائل معاصرة في مقالاته "الشريعة والقانون في مصر المعاصرة" سنة ١٩٣٦م. غير أن اهتمام شاخت عاد لتركز على نشوء الفقه حيث قام بدراسة مستفيضة حول محمد الشافعي تضمنها كتابه "أصول الفقه المحمدي". ويعتبر شاخت في هذا الكتاب أن معظم الأحاديث النبوية تم "تأليفها" أو وضعها مع نهاية القرن الثاني هجري وبداية القرن الثالث. ويشكك بصحة عدد كبير من الأحاديث النبوية ويقول إنها وضعت لدعم حجج وآراء الفقهاء في ذلك الوقت. ويرى شاخت

فهارس المخطوطات العربية من طرف المستشرق كريستيان فريديخ سيبولد Seybold^(٤٢).

٢/٣- ترجمة المخطوطات العربية إلى اللغة الألمانية ونشرها

أولى المستشرقون الألمان عناية خاصة بترجمة المخطوطات العربية إلى اللغة الألمانية ونشرها، فقد ترجمت العديد من المخطوطات في مجالات عديدة منها: كتاب (الأدب الصغير) لابن المقفع، وترجم ريشير Rescher (أحسن ما سمعت) للثعالبي، والذي طبع في لايبزغ سنة ١٩١٦م. ترجمت (مختارات من يتيمة الدهر) للثعالبي، و(المزهر) للسيوطي، وترجم ريشير أيضًا الكتب اللغوية منها: (المعجم في بقية الأشياء) لأبي هلال العسكري وطبعت الترجمة سنة ١٩١٥م. وترجم "غوستاف فايل" Gustav fwell (١٨٠٨-١٨٨٩م) عدد من المخطوطات منها: (السيرة النبوية) لابن هشام وطبع سنة ١٨٦٤م، وكتاب (أطواق الذهب) للزمخشري، وألف ليلة وليلة، وترجم ادوارد سخاو E. Sachau (أحاديث منتخبة) من مغازي موسى بن عقبة، وترجم إ. فيدمان Eilhard wiedemann (١٨٥٢-١٩٢٨م) رسالة في الفيزياء (رسالة في استخراج الأبعاد بذات الشعبتين) ونشرت سنة ١٩١٠م. وترجم ماكس مايرهوف Max Meyerhof 1945- (١٨٧٤م) مقدمة كتاب (الصيدنة) للبيروني. ثم ترجمها مرة أخرى المستشرق كرينك إلى الإنجليزية، واهتم الألمان أيضًا بترجمة المخطوطات الجغرافية. فقد ترجم كرينكو Kerenko نصًا عن مخطوط (المسالك والممالك) بعنوان كتاب في تحديد نهايات الأماكن وتصحيح مسافات المساكن.^(٤٣)

٣/٣- تحقيق المخطوطات

عند المستشرقون الألمان علاوة على حفظ المخطوطات، إلى فهرستها وتحقيقها تحقيقًا علميًا، وتُعدُّ فهرسة المخطوطات العربية الموجودة في فيينا من أبرز المؤلفات التي يعتمد عليها المحققون العرب. وقد حقق المستشرقون الألمان عددًا كبيرًا من أمهات كتب التراث العربي. يعتبر "ريسكه" (J.Reiske) أول من نشر معلقة طرفة بن العبد بشرح ابن النحاس مع ترجمتها إلى اللاتينية سنة ١٧٤٢م. وترجم ونشر- العديد من كتب التراث العربي، منها المقامة السادسة والعشرين من الحريري. وترجم الجزء الأول من المختصر في أخبار البشر لأبي الفداء سنة ١٧٥٤م، والرسالة الجدية لابن زيدون بشرح الصفدي لايبزغ ١٧٥٥م، ولامية "الطغرائي" لايبزغ 1756م، وسبعة أمثال للميداني لايبزغ 1758م، ومقالة أكنم بن صفى، ورسالة الوليدي ومنتخبات من أشعار المتنبي ١٧٦٥م، ثم ازدهرت نشر النصوص في القرن التاسع عشر- ونشر- المئات من النصوص في اللغة والشعر والأدب والتاريخ والجغرافيا والفلسفة والفرق والجبر والحساب والفلك والطب، وأن مجموع ما نشره الألمان وحدهم يفوق ما نشره المستشرقون الفرنسيون والإنجليز معًا.^(٤٤)

لقد نشر- "ماكس فون" Max Von (الكامل) للمبرد، و(تأريخ الرسل والملوك) للطبري الذي استمر في تحقيقه مدة 19 عامًا من العمل المتواصل، ومؤلفات البيروني، وعكف "إيفالد

يشغل الكثير من مواقعنا الثقافية، وسوف لن نفيدنا في المواجهة مواقف الرفض والإدانة أو الهروب من المشكلة.

وقد وقع اختيارنا للمدرسة الألمانية الاستشرافية كنموذج للتعامل مع المخطوطات العربية الإسلامية، ويمكن تلخيص جهود المستشرقين الألمان نحو التراث العربي الإسلامي المخطوط فيما يأتي:

١/٣- جمع التراث المخطوط

عكف المستشرقون الألمان على جمع المخطوطات العربية من كل مكان في بلاد المشرق، وكان عملهم يقوم على وعي تام بقيمة هذه المخطوطات التي تحمل تراثًا غنيًا في شتى مجالات العلوم والمعرفة.

لقد تميز الألمان عن باقي المستشرقين الأوروبيين أنهم جمعوا المخطوطات من خلال طريق واحد هو الإهداء والشراء، بعكس المستشرقين الإنكليز والفرنسيين، الذين تعددت طرقهم للجمع منها الاعتداء والسرقة. وهذا ما لم يثبت عن الألمان، حيث كان عدد المخطوطات حتى مطلع القرن الثامن عشر قليلًا، وبعد ذلك دخلت كميات هائلة من المخطوطات الشرقية النفيسة، لا يحصى عددها، في حوزة المكتبات الألمانية حتى منتصف القرن العشرين من خلال الإهداء والشراء، ومن الأمثلة على ذلك أن المستشرق الفرنسي غيوم بوستل^(٣٨) Guillaume postel (١٥١٠-١٥٨١م) قد دفعته الضائقة المالية لبيع المخطوطات التي جمعها أثناء أسفاره في الشرق إلى مكتبة هايدلبرغ. ثم صارت تلك المخطوطات نواة في دراسة المستشرقين بألمانيا، وشراء مكتبة برلين من ه. بيترمان^(٣٩) J. Heinrich Petermann (١٨٠١-١٨٧٦م) التي كانت تحوي حوالي ألف مخطوط، وجلب القنصل الروسي في دمشق لتلك المكتبة ألفين ومائة مخطوطة، وترك المستشرق لمكتبة برلين ألفا ومائة مجلد مكتبة. وفي أوائل القرن الثامن عشر- الميلادي، اقتنى يوهان كريستوف Johann Christoph مكتبة للمخطوطات العربية.

أسهم المستشرقون الألمان أكثر من سواهم بجمع المخطوطات العربية ونشرها وفهرستها، لا سيما كتب المراجع والأصول المهمة. وحفظت في مكتباتها حيث وجد في ألمانيا سبعة آلاف مكتبة ملحقة بالبلديات وأحدى عشر ألفًا تابعة للكنائس، وتعد مكتبة برلين الوطنية ومكتبات جامعات توبنجن، وهايدلبرغ، وماينس من أغنى المكتبات بالمخطوطات الشرقية ولاسيما العربية، والتي بلغت حوالي 14 ألف مخطوطة، يعود نصفها إلى ملكية مكتبة الدولة البروسية في برلين، وكانت 5066 مخطوطة محفوظة إبان الحرب العالمية الثانية^(٤٠) وهي موزعة على المدن الألمانية.^(٤١) (أنظر الجدول-ملحق ١)

والملاحظ أن مكتبة الدولة البافارية في ميونخ تأتي في المرتبة الأولى من حيث عدد مجلداتها التي بلغت سنة ١٩٧٤م مئة وخمسة وعشرين (١٢٥ ألف) مجلد، منها عدد يتراوح بين 70 و 80 ألف كتاب تختص بالثقافة والأدب في العربية، وقد صنفت

- ٤- بالنسبة للتصحيح فإنه لا يصحح في النص ويصحح في المتن، ويصحح حتى في تشكيل الكلمة، ويستخدم عدة صيغ في التصحيح.
- ٥- تعليقات على النص مثل [5]: الفاء غير موجود في (ب) وهو مكتوب على الهامش في (أ) ولعله ليس من أصل الكتاب.
- ٦- بالنسبة للسقط يستخدم الصيغ التالية في المقابلة بين النسخ والنص مثل: [1] أبو: غير موجود في (أ)
- [15] ... لابد من أن تكون قد سقطت عبارة مثل (حلقيا).
- ٧- لم يخرج الآيات القرآنية أو الأحاديث النبوية أو الأشعار.
- ٨- لم يترجم للأعلام حيث ورد العديد من الأسماء والأعلام غير المعروفة، ولم يوضح المعاني الغامضة.
- ٩ - لم نجد له مقدمة لعمله في التحقيق كما نجدها عند المحققين العرب من أهمية الكتاب المراد تحقيقه وأسباب اختياره للتحقيق ومنهجه في التحقيق ودراسة المخطوط... لكن وجدنا تقديم لآثر جفري في مقدمة كتابه يهدف لبرجسترا سبب عمله في اختيار هذا الكتاب، وقدم نبذة وجيزة عن ذلك.^(٤٦)
- من خلال ما تقدم نستنتج أن منهجه كان يركز على المقابلة الدقيقة بين النسخ، ويعلق على الاختلافات بين النص والنسخ حتى في اختلافهم في تشكيل الكلمة.

خاتمة

- بعد هذه الدراسة التي تناولت المستشرقون الألمان والتراث الإسلامي المخطوط (بين التحقيق والتلفيق) فقد توصلت إلى جملة من النتائج يمكن إيجازها فيما يأتي:
- ١- إن أهم ما يميز الاستشراق الألماني عدم ارتباطه بالاستعمار- كما هو الحال في إنجلترا وفرنسا وهولندا- أو يرتبط بأهداف دينية تصيرية كسواه، لذلك امتاز بالموضوعية والعمق.
- ٢- استفاد المستشرقون الألمان عند تحقيقهم للمخطوطات العربية من منهج نشر النصوص اللاتينية، ومنهج المسلمين الأوائل في التوثيق، ووضعوا القواعد في التحقيق وفي مقدمتهم المستشرق الألماني "برغستراسر" Bergstraesser (١٨٨٦-١٩٣٣م) الذي وضع أول مؤلف في هذا المجال وصار مرجعا للباحثين العرب، ولذا سبقوا العرب في هذا الميدان، فعرفوا قيمة تلك النصوص، وسعوا إلى نشرها وتحقيقها.
- ٣- عُنِيَ المستشرقون الألمان عناية جلية بحفظ المخطوطات وصيانتها وترميمها وفهرستها وترجمتها وتحقيقها ثم نشرها، وفاقوا العرب في تلك المرحلة.
- ٤- تميز منهج المستشرقون الألمان في ضبط نصوص التحقيق بالدقة والموضوعية، وكانوا غالباً ما يستعينون بالعرب المسلمين من شيوخ وعلماء وأساتذة في ضبط النص، بعكس المستشرقين الأوربيين الذين لم يستعينوا بالعرب المسلمين.
- ٥- يسجل للمستشرقين الألمان السعي الحثيث والجدة في خدمة المخطوطات العربية الإسلامية، مما يدفعنا إلى ضرورة العناية بتلك المخطوطات وحمايتها وصيانتها وتحقيقها ونشرها إذ تشكل تراثنا الأصيل.

فاغنر "Ewald Wagner على ديوان أبي فراس نحو عشرين عاماً حتى أكمله تحقيقاً، ولا يمكن لأي دارس في الأدب والنقد العربيين أن يتجاهل أعمال مستشرقين ألمان كبار مثل كارل بروكلمان، وكتابه "تاريخ الأدب العربي" الذي له فضل السبق في التعريف بالتراث العربي الإسلامي المخطوط في مكتبات العالم جميعها. وعنوا بعلم البيبليوغرافيا وفهرسة المخطوطات وتصنيف المعاجم العربية.^(٤٥) وحقق أوغست مولر^(٤٦) August Muller "عيون الأنباء" لابن أبي أصيبعة، وحقق "فلوجل" Flugel كتاب "الفهرست" لابن النديم في سنة ١٨٧٢م.^(٤٧)

كان للمستشرقين دور بارز في تحقيق المخطوطات ونشر- النصوص العربية القديمة في مختلف مجالات العلوم وميادين المعرفة. لقد قَدَّمَ المستشرقون جهوداً معتبرة في تحقيق المخطوطات، إلا أن أعمالهم هذه لا تعدّ كاملة حتى توزن بميزان المنهج العلمي الصحيح، فمن خلال ما قدمنا نجد أن أعمالهم متفاوتة. ولقد أكد هذا الكلام الأب أنستاس ماري الكرملي إذ قال: «إن علم المستشرقين عرضة للنقد والتحقيق، كسائر الناس، ولا بد أن ينتقدوا الانتقاد الصحيح ليظهر الغثاء وينبذ، ويبلغ إلى صميم الحق فيتبع، ولقد وجدنا هفوات لا تغتفر لهؤلاء المستشرقين من جميع الأمم وفي جميع التصانيف وما نشره من الكتب ولا يمكننا أن نتعرض لجميع هفواتهم فهذا يدعونا إلى وضع سفر ضخم.» ولهذا نجدهم عُرضة لسوء النقل، وسوء الاقتباس، وسوء الاستشهاد ضارين صفحاً عن ضوابط علمية كالأمانة والدقة والتجرد والموضوعية، وهم بهذا يلجؤون إلى المعلومات الغربية غير الموثقة في أمهات الكتب العربية.^(٤٨)

٤/٣- المنهج المتبعة في تحقيق المخطوطات

عني الألمان بتحقيق كتب التراث الإسلامي المخطوط وخاصة في فن "القراءات القرآنية" مثل "أسرار التأويل وأنوار التنزيل" للبيضاوي، تحقيق المستشرق الألماني "فرايتاغ"، و"القراءات الشاذة في القرآن" لابن خالويه، و"المصاحف" لابن أبي داود، و"إبراز الروايات الشاذة في كتاب الإتقان" للسيوطي تحقيق المستشرق الألماني "برغستراسر" Bergstraesser (١٨٨٦-١٩٣٣م) ولعل أهم ما تميز عملهم هو اهتمامهم بالدقة والضبط في التحقيق، واستعانوا بعلماء وأساتذة عرب ومسلمين كشيوخ الأزهر، في مقدمتهم الشيخ محمد عبده (ت ١٣٢٣هـ - ١٩٠٥م)، ولمعرفة مناهجهم في تحقيق النصوص فقد اخترنا "برغستراسر" الذي ألف أول كتاب في أصول تحقيق النصوص، ويمكن متابعة منهجه من خلال تحقيقه كتاب "مختصر في شواذ القرآن" لابن خالويه:

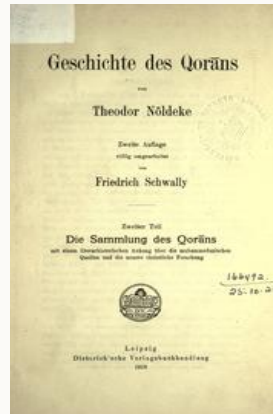
- ١- اهتم بضبط ما يحتاج إلى ضبط من كلمات وقراءات.
- ٢- قسم المتن إلى فقرات، كل فقرة تتكون من خمسة أسطر.
- ٣- يذكر في الهامش رقم السطر بين معقوفتين، ثم يذكر الكلمة التي أثبتتها، ثم نقطتين فوق بعضهما، ثم الكلمة الخاطئة ويتبعها رمز النسخة التي وردت فيها.

ملحق رقم (٢) صورة تيودور نولدكه وكتابه تاريخ القرآن



المصدر:

Theodor Noldeke. (2016). In *Encyclopædia Britannica*. Retrieved from: <http://www.britannica.com/biography/Theodor-Noldeke>.



المصدر:

Atelier d'initiation à l'islamologie: Histoire du Coran, Ifpo, Damas, atelier 2 février 2011, p.16.

الملاحق

ملحق رقم (١) المخطوطات العربية موزعة على المدن الألمانية

عدد المخطوطات	المدينة
٨١٤ مخطوطة	برلين Berlin
١٣٦ مخطوطة	بون Bonn
٢ مخطوطة	بريمن Bremen
٧١ مخطوطة	دارمشتات Darmstadt
٦ مخطوطات	دساو Dessau
١١ مخطوطة	دوناوشينجن Donauschingen
مخطوطة واحدة	ودرسدن Dresden
مخطوطتان	ديسلدورف Düsseldorf
١٧٧ مخطوطة	أرفورت Erfurt
٢٤ مخطوطة	فرايبورغ Freiburg
٢٥ مخطوطة	فولدا Fulda
مخطوطتان	غيسن Giessen
١٨٧ مخطوطة	غوتنغن Göttingen
٣٧ مخطوطة	غرايسفالد Greiswald
٤٧٩ مخطوطة	هالة / ساله Halle / Saale
٦٤٥ مخطوطة	هامبورغ Hamburg
مخطوطة واحدة	هانوفر Hannover
٣٢ مخطوطة	هاربورغ Harburg
٣١١ مخطوطة	هايدلبرغ Heidelberg
٦٦ مخطوطة	يينا Jena
١٢ مخطوطة	كارلسروي Karlsruhe
٣١ مخطوطة	كاسل - وكيل Kassel - Kiel
٥٧ مخطوطة	لايبزغ Leipzig
٥ مخطوطات	ليبك Lübeck
٩ مخطوطات	ماينز Mainz
٢٨ مخطوطة	مانهايم Mannheim
٣ مخطوطات	ماربورغ و لان Marburg - Lahn
٥٨٤ مخطوطة	ميونيخ München
٤٠٢ مخطوطة	بافاريا Bavaria
٦ مخطوطات	أولدنبرغ Oldenburg
١٥٠ مخطوطة	بادربورن Paderborn وروستوك Rostock
١ مخطوطة	شفرين Schwerin
٤ مخطوطات	سيغمارينغن Sigmaringen
١٨٨ مخطوطة	شتوتغارت Stuttgart
١٤٦ مخطوطة	تريير Trier
٩٥ مخطوطة	فايمار Weimar
١ مخطوطة	فيسادن Wiesbaden
٤٧ مخطوطة	فولفن بittel Wolfenbüttel
	وتسفيكاو Zwickau
٧٦٤ مخطوطة	توبنغن Tübingen

المصدر: سماء زكي المحاسني، المرجع السابق، ص ٦٦-٧٠.

الهوامش:

(١٣) Zwemer, Samuel Marinus (1867-1٩٥٢م)، أمريكي الجنسية، أطلق عليه اسم الرسول إلى الإسلام. تخرج من كلية الأمل (Hope Collège) سنة ١٨٨٧م في ميشيغان، وفي عام 1890 تخرج من المدرسة اللاهوتية في نيو برونزويك. سافر على نطاق واسع في آسيا الصغرى، وانتخب زميلاً للجمعية الجغرافية الملكية من لندن. في عام ١٩٢٩م عين أستاذ البعثات وأستاذ تاريخ الأديان في جامعة برنستون اللاهوتية المدرسة التي درس بها حتى عام 1951، رئيس جمعيات التنصير في الشرق الأوسط، يعد من أكبر أعمدة التنصير في العصر الحديث، أسس معهداً باسمه في أمريكا لتنصير المسلمين. من أهم أعماله جزيرة العرب، مهد الإسلام ١٩٠٠م، ومحمد أو المسيح؟ ١٩١٦م.

<http://answering-islam.org/Books/Zwemer/>

(١٤) مصطفى السباعي، الاستشراق والمستشرقون، دار الوراق، دت، ص ٣٧-٣٨.

(١٥) الكيلاني، رعد شمس الدين، الإسلام والاستشراق، مركز البحوث والدراسات الإسلامية، بغداد، ٢٠٠٦م.

(١٦) Leone Caetani (١٨٦٩-١٩٣٥م)، أمير ومستشرق إيطالي، اشتهر بدراسة التاريخ الإسلامي، نشر "تجارب الأمم" لابن مسكويه، وألف "تاريخ الإسلام" (١٠ أجزاء)، و"دراسات في تاريخ الشرق" (٣ أجزاء)، وشارك في تحرير المواد الإسلامية في الموسوعة الإيطالية.

Bouillet (M.N.), Op.cit., p. 831.

(١٧) محمود المقداد، تاريخ الدراسات العربية في فرنسا، عالم المعرفة، عدد ١٦٧، ١٩٩٢، ص ٤٥.

(١٨) كراتشكوفسكي "J. Kratchkovsky"، أ. (١٨٨٣-١٩٥١م)، هو إغناطيوس يوليوفيتش، من كبار المستشرقين الروس، ولد في فيلنا Vilna عاصمة ليتوانيا القديمة، بعد الثورة البلشفية ١٩١٧م وما أصاب الاستشراق من تغيير جذري صار مدرسا بجامعة ليننغراد، ترجم كتاب "الاعتبار" للأمير أسامة بن منقذ. عبد الرحمن بدوي، موسوعة المستشرقين، ص ٤٦٥-٤٧١.

(١٩) طارق سري، المستشرقون ومنهج التزوير والتلفيق في التراث الإسلامي، ط ١، مكتبة النافذة، مصر، ٢٠٠٦م، ص ٣٦.

(٢٠) كريستمان جاكوب، (١٥٥٤-١٦١٣م)، مستشرق وفلكي ألماني، ولد في هايدلبرغ، من أصل يهودي، اعتنق المسيحية سنة ١٥٧٨م، أهدى لزملائه في سنة ١٥٨٢م كتاب "قواعد اللغة العربية"، درس بجامعة هايدلبرغ وتخرج منها أستاذاً في اللغة العبرية سنة ١٥٨٤م، نشر في عام ١٥٩٠م ترجمة لاتينية لكتاب "دراسات في علم الفلك" للفرغاني.

Jakob Christmann. Wikipédia, l'encyclopédie libre.

Consultée le 9 février, 2016

de http://fr.wikipedia.org/w/index.php?title=Jakob_Christmann.

(٢١) أولوف غرهارد تيخسن، (١٧٣٤-١٨١٥م)، مستشرق ألماني، عالم باللغة والدراسات العربية، يعتبر من المؤسسين الأوائل لعلم المسكوكات الإسلامية. درس اللغات الشرقية (العربية، العبرية، التامول، الهندوستاني) بجامعة هال Halle، عين أستاذاً في جامعة روستوك Rostock في سنة ١٧٧٨م. توفي في ٣٠ ديسمبر ١٨١٥م بمدينة روستوك.

Oluf Gerhard Tychsen. (2016, février 09). Wikipédia, l'encyclopédie libre. Page consultée le 09 février 2016 à partir

de http://fr.wikipedia.org/w/index.php?title=Oluf_Gerhard_Tychsen.

(١) الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة، إشراق ومراجعة مانع بن حماد الجهني، ط ٣، دار الندوة العالمية للطباعة، الرياض، ١٤٢٠هـ، ص ٣٣.

(٢) عبد المجيد دياب، تحقيق التراث العربي منهجه وتطوره، دار المعارف، القاهرة، دت، ص ١٧٦.

(3) Strzygowski (J), Orient order Ronn., Lpz, 1900.

(٤) روديارد كيبلنج (١٨٦٥- ١٩٣٦) "Rudyard Kipling" كاتب وشاعر وقاص بريطاني ولد في الهند البريطانية. من أهم أعماله "The Jungle Book" "كتاب الأدغال" ١٨٩٤. كان كيبلنج من أعظم الروائيين في الأدب الإنجليزي حصل على جائزة نوبل في الأدب سنة ١٩٠٧ وبذلك يكون أصغر حائز على جائزة نوبل، وأول كاتب باللغة الإنجليزية يحصل عليها. تغيرت سمعة كيبلنج مع مرور الوقت مع تبدل الأحوال السياسية والاجتماعية ونتيجة لذلك تفاوتت الآراء من حوله في القرن العشرين. أطلق عليه جورج أوريل اسم "نبي الإمبراطورية البريطانية".

"Rudyard Kipling", Encyclopædia Britannica Online, 2016. Web, 26 févr. 2016,

<http://www.britannica.com/biography/Rudyard-Kipling>

(٥) إدوارد سعيد، الاستشراق، المعرفة، السلطة، الإنشاء، ط ١، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، ١٩٨٠، ص ٣٩.

(٦) Gerbert de Aurillac (٩٣٠-١٠٠٣م) راهب فرنسي ولد في أورياك بمقاطعة أوفارني (Auvergne) في فرنسا من عائلة مجهولة النسب، انتقل من بلدته إلى أسبانيا ودخل في صف الرهبان البندكتيين Benedictins، ثم ارتبط بالإمبراطور "أوتون الأول" Othon I الذي كلفه بتربية ابنه "أوتون الثاني". عينه الإمبراطور "أوتون الثالث" بابا سنة ٩٩٩م باسم "سلفستر الثاني" Sylvester II فكان أول بابا فرنسي. كانت له معارف في الهندسة والميكانيك وعلم الفلك، لذلك اتهم بالسحر. وكان له الفضل في إدخال الأرقام العربية والساعة إلى أوروبا.

Bouillet (M.), Dictionnaire Universel d'Histoire et de Géographie, Paris, librairie hachette, 1878, p. 1827.

(٧) عبد الرحمن بدوي، موسوعة المستشرقين، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٩٣م، ص ١٧٨.

(٨) في سنة ١٧٩٥م افتتح معهد اللغات الشرقية في فرنسا واعترف بالاستشراق علماً قائماً بذاته.

(٩) الموسوعة الميسرة في الأديان، ص ٣٣.

(١٠) محمود حمدي زقزوق، الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، دار المعارف، القاهرة، ١٩٩٧م، ص ٤٣.

(١١) Joseph Freiherr Von Hammer : de Purgstall (١٧٧٤- ١٨٥٦م) مستشرق نمساوي، بارون بيرغشتال، ولد في غراتز Graetz، برع في عدة لغات منها العربية والفارسية والتركية، صنف بالألمانية عدداً من الكتب: تاريخ الدولة العثمانية وتاريخ الآداب العربية، عين سكرتيراً في وزارة الخارجية ١٧٩٦م، ثم مترجماً في إسطنبول ومصر (١٧٩٩-١٨٠٠م) حيث جمع أشياء ثمينة منها: موميا ومخطوطات وأحجار مكتوبة بالهيريغليفيك، وأهداها إلى المكتبة الإمبراطورية فيينا. أصبح بارونا ورئيس أكاديمية فيينا سنة ١٨٣٥م.

Bouillet (M.N.), Op.cit., p. 831.

(١٢) عبد الرحمن بدوي، موسوعة المستشرقين، ص ٦١٣.

مدينة موندون Munden (هانوفر)، من آثاره: نشر "سيرة ابن هشام". المرجع نفسه، ص ٣٩٩-٤٠٢.

(٣٠) المرجع نفسه، ص ٣٩٩-٤٠٢.

(٣١) تيودور نولدكه، Theodore Noldeke (١٨٣٦-١٩٣٠م)، ولد في هامبورغ في ٢ مارس ١٨٣٦م، مستشرق ألماني، من أكابر المستشرقين الألمان، له كتب بالألمانية عن العرب وتاريخهم، منها «تاريخ القرآن» و«حياة النبي محمد» ترجمها إلى الألمانية وشرحها. ونشر في مجلات الغرب وموسوعاته بحوثاً كثيرة، منها رسالة في «أمراء غسان» ترجمها إلى العربية بندلي جوزي وقسطنطين زريق. وله بالعربية «منتخبات الأشعار العربية» واشترك في الإشراف على طبع «تاريخ الطبري» وترجمته إلى الألمانية. كان يحسن اللغات الشرقية كلها كالعربية والأرامية والعبرية والصائبية والحشية وغيرها، فضلاً عن معرفته بلغات الغرب كالإيونانية واللاتينية والفرنسية والإنكليزية والإيطالية والإسبانية ولغته الألمانية. المرجع نفسه، ص ٥٩٥-٥٩٩.

(٣٢) يوليوسن، Jullius Wellhausen (١٨٤٤-١٩١٨م)، مستشرق ألماني وباحث توراني، من أبرز مؤلفاته "تحقيق تاريخ الطبري"، و "الإمبراطورية العربية وسقوطها"، ومن اهتماماته بالفرق الإسلامية تأليف كتابيه "الأحزاب المعارضة في الإسلام" و "الخوارج والشيعة" وكتب عن الرسول صلى الله عليه وسلم في كتابه "تنظيم محمد للجماعة في المدينة" وكتابه "محمد والسفارات التي وجهت إليه". نفسه، ص ٤٠٨-٤٠٩.

(٣٣) كارل بروكلمان، (١٨٦٨-١٩٥٦م)، ولد في مدينة روستوك في ١٧ سبتمبر ١٨٦٨م، مستشرق وعالم لغوي ألماني، أستاذ بجامعة برلين، مختص في اللغات الشرقية واللغات الكلاسيكية (اليونانية واللاتينية)، كلفه المستشرق نولدكه Noldeke بدراسة العلاقة بين كتاب "الكمال في التاريخ" لابن الأثير وكتاب "أخبار الرسل والملوك" للطبري، تحصل على شهادة الدكتوراه سنة ١٨٩٠م. نفسه، ص ٩٨-١٠٥.

(٣٤) محمود المقداد، المرجع السابق، ص ٤٥-٤٦.

(٣٥) Hellmut Ritter (١٨٩٢-١٩٧١م)، مستشرق ألماني، ابن قس بروتستانت، تلقى تعليمه في مدينة هال اشتهر بتحقيق المخطوطات الإسلامية، متخصص في اللغات العربية والفارسية والتركية. خدم كمتبرع عسكري خلال الحرب العالمية الأولى في العراق وفلسطين وإيران. في ١٩١٩م عين أستاذاً مساعداً بجامعة هامبورغ. من آثاره: الدليل الموسوعي حول الطقوس والمعتقدات الصوفية الإسلامية، (Das Meer der Seele, 1955)، في ١٩٢٦ نفى إلى إسطنبول واطلع على الكنوز الأدبية في مكتبات المدينة القديمة وعكف على دراسة المخطوطات ونشر المقالات العلمية في سلسلة (Philologika).

Josef Van Ess, Im Halbschatten Der orientaliste Hellmut Ritter, (1892-1971), Harrassowitz Verlag, 2013.

(٣٦) جوسيف شاخت (١٩٠٢-١٩٦٩م)، مستشرق ألماني، باحث في الدراسات العربية والإسلامية له مؤلفات عدة أبرزها "أصول الفقه المحمدي" الذي يتناول فيه نشوء الحديث والسنن. أثار شاخت حفيظة العلماء المسلمين لأنه يشكك في صحة الأحاديث النبوية ويرى أنها وضعت أو "لفقت" خلال الفترة الممتدة بين نهاية القرن الثاني وبداية القرن الثالث هجري.

Lewis, Bernard. Obituary, «Joseph Schacht», Bulletin of the School of Oriental and African Studies, University of London, Vol. 33, No. 2 (1970), pp. 378-381.

(٣٧) خير الدين الزركلي، الأعلام، "الدكتور شاخت"، ٢٠٠٢م.

(٢٢) مارتن هارتمان Hartmann Martin (1851-١٩١٩م): مستشرق ألماني. ولد في برسلاو Breslau وتعلم في جامعتها ثم في جامعة لايبزغ Leipzig. تحصل على الدكتوراه في ١٨٧٤م، وعين في القنصلية الألمانية ببروت، فتعلم العربية وطالت إقامته فكان يتكلم بها بعض أبنائها. وعين مدرساً لها في جامعة برلين سنة ١٨٨٧م وقام برحلات إلى الشرق فوضع عن كل رحلة كتاباً. له بالعربية «الصرف والنحو الألمان» وكُتب بالإنجليزية رسالة عن «الصحافة العربية بمصر من عهد ظهورها إلى سنة ١٨٩٩م» توفي ببرلين. عبد الرحمن بدوي، موسوعة المستشرقين، ص ١١٣-١١٦.

(٢٣) كارل هينريك بيكر، Karl Heinrich Bekker (١٨٧٦-١٩٣٣م)، مستشرق ألماني ورجل سياسي بروسي، تلقى دراساته في جامعات لوزان وهيدلبرغ وبرلين، زار إسبانيا والسودان واليونان وتركيا قبل أن يتحصل على الدكتوراه في ١٨٩٩م. شغل منصب وزير الثقافة في بروسيا (١٩٢١م) ثم (١٩٢٥-١٩٣٠م)، أحد مؤسسي الدراسات الإسلامية الحديثة في ألمانيا، شجع دراسة اللغات الأجنبية والتاريخ والثقافة واعتبرها وسيلة لتجنب الصراعات. عبد الرحمن بدوي، موسوعة المستشرقين، ص ١١٣-١١٦.

(٢٤) أوغست فيشر، August Fischer (١٨٦٥-١٩٤٩م)، مستشرق ألماني، من أهل لايبزغ كان أستاذاً في جامعة هالة وعضو مجمع فؤاد الأول للغة العربية. من أشهر آثاره: "معجم فيشر" قضى أربعين في جمعه وترتيبه وإعداده للطبع. الزركلي، الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، ٢٠٠٢م، ج ١، ص ٢٦.

(٢٥) جوهان فولرز، Johann August Vullers (١٨٠٣-١٨٨٠م)، مستشرق ألماني، ولد وتوفي في مدينة بون، درس علم اللاهوت في جامعة بون، واصل دراسته بالسوربون (فرنسا) ١٨٣٠م، عاد إلى ألمانيا في ١٨٣١م واشتغل بجامعة بون كأستاذ خاص. في ١٨٣٣م ذاع صيته نتيجة أبحاثه ودراساته عن المشرق العربي. من أبرز آثاره: معلقة الحارث بن حلزة بشرح الزوزني، (بون، ١٨٢٧م)، معلقة طرفة ابن العبد، مع إضافة مختارات من تعليقات ريسكه، (بون، ١٨٢٧م)، شذرات عن ديانة زرادشت مترجمة عن الفارسية (بون، ١٨٣١)، مبادئ النحو العربي، على هيئة جداول (بون، ١٨٣٢). عبد الرحمن بدوي، موسوعة المستشرقين، ص ٤١٩-٤٢٠.

(٢٦) جاكوب ريسكه، (١٧١٦-١٧٧٤م)، فقيه لغوي Philologue ومستشرق ألماني، ولد في ٢٥ / ١٢ / ١٧١٦م في "زوربيك" (ساكس)، تلقى دراساته في العربية في لايبزغ وليدن، ثم درس العلوم الطبية وتخرج طبيباً سنة ١٧٤٦م، ثم أستاذاً في الفلسفة سنة ١٧٤٧م، فأستاذاً في العربية سنة ١٧٤٨م، عرف بكتاباته عن تاريخ الآداب الشرقية.

Bouillet (M.N.), Op.cit., pp. 1594-1595.

(٢٧) جاكوب جورج كريستيان أدلر (١٧٥٦-١٨٣٤م) J.G.C. Adler: مستشرق داغماري، عني بالكتابات الكوفية، وأعد تاريخ أبي الفداء (المختصر في أخبار البشر) للطبع مع ترجمة لاتينية، فنشره المستشرق ريسكه (Reiske) واشتهر أدلر بما كتبه بلغته عن النقود العربية وتاريخها. وله بحث في «تاريخ الدروز» وكانت إقامته على الأكثر في كوبنهاغن (عاصمة الدانمرك). عبد الرحمن بدوي، موسوعة المستشرقين، ص ٥٩.

(٢٨) المرجع نفسه، ص ٢٩٨-٣٠٣.

(٢٩) فرديناند وستنفلد، (١٨٠٨-١٨٩٩م)، مستشرق ألماني، تخرج من جامعة جوتينجن Gottingen ثم درس في جامعات ألمانيا، توفي في

(٤٨) إياد خالد الطباع، **منهج تحقيق المخطوطات**، دار الفكر، دمشق، ٢٠٠٨، ص ١٥.

(٤٩) يوهان فوك، المرجع السابق، ص ٣٤٢.

(٣٨) غيوم بوستل (١٥١٠-١٥٨١م)، مستشرق وفلكي ونحوي ودبلوماسي فرنسي، كانت أسرته في غاية الفقر ومع ذلك تعلم اللغات الكلاسيكية كاللاتينية واليونانية والعبرية في باريس، فضلاً عن معرفته بلغات الغرب الحديثة كالإيطالية والإسبانية والبرتغالية. زار بلدان الشرق لاقتناء المخطوطات مثل مصر وإسطنبول، وبها تعلم اللغة العربية والتركية. من أهم آثاره كتاب في النحو العربي صدر عام ١٥٣٩م و«جمهورية التُّرك»، وفيه يرسم صورة مثالية للمجتمع العثماني، وكتاب "الوفاق بين الناس على ظهر الكرة الأرضية" De orbis terrarum concordia الذي ظهر سنة ١٥٤٣م. عبد الرحمن بدوي، **موسوعة المستشرقين**، ص ١٣٥-١٣٨.

Desbillons, nouveaux éclaircissements sur la vie et les ouvrages de Guillaume Postel, liège, 1771, in 8.

(٣٩) هينريخ بيترمان (١٨٠١-١٨٧٦م)، Julius Heinrich Petermann مستشرق ألماني، زار بلاد الشرق الأدنى وإيران واقتنى الكثير من المخطوطات. كان قنصلاً لألمانيا في القدس (فلسطين). من آثاره: «نحو اللغة الأرمنية» (برلين ١٨٣٧). «باب اللغات الشرقية» Porta Linguarum Orientalium وهو نحو موجز لأهم اللغات الشرقية (برلين ١٨٤٠). «رحلات في الشرق» Reisen in Orient (لايبزغ ١٨٦٠-١٨٦١، في مجلدين). بدأ في نشر «التوراة السامرية» Pentateuchus Samaritanus (برلين ١٨٧٢ وما يتلوها) لكنه توفي قبل إنجازها فقام بإتمامها فولرز Vullers. عبد الرحمن بدوي، **موسوعة المستشرقين**، ص ١٤٩.

Hartmut Bobzin , (2001), "Petermann, Julius Heinrich", Neue Deutsche Biographie Vol.20, p.238.

(٤٠) خير الدين الزركلي، **الأعلام**، "الدكتور شاخت"، ٢٠٠٢م.

(٤١) سماء زكي المحاسني، **دراسات في المخطوطات العربية**، مكتبة الملك فهد، الرياض، ١٩٩٩، ص ٦٦-٧٠.

(٤٢) كريستيان فريدريخ سيبولد Christian Friedrich Seybold (١٨٥٩-١٩٢١م) مستشرق ألماني، تعلم في جامعة توبنجن واختاره ملك البرازيل «بدر الثاني» لتعليمه اللغات الشرقية. وكان يحسن منها العربية والعبرية والسريانية والفارسية. ونشر كتباً عربية منها «النقط والدوائر» من كتب الدروز الدينية و«أسرار العربية» لابن الأنباري و«المنى في الكنى» لابن = الأنباري و«الشماريخ في علم التاريخ» للسيوطي و«تاريخ بطارقة الإسكندرية» للأنبا ساويرس ابن المقفع. توفي بمدينة توبنجن. خير الدين الزركلي، **الأعلام**، "سيبولد"، ٢٠٠٢م. wikipedia.org/wiki/Christian_Friedrich_Seybold

(٤٣) يوهان فوك، **تاريخ حركة الاستشراق، الدراسات العربية والإسلامية في أوروبا حتى بداية القرن العشرين**، تر. عمر لطفي العالم، ط ٢، دار المدار الإسلامي، ليبيا، ٢٠٠٠م، ص ٣٤٢.

(٤٤) نجيب العقيلي، **المستشرقون**، ط ٤، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٠م، ٤٠٤/٢.

(٤٥) إميل كرومر، **رعاية الدراسات العربية في مكتبة توبنغن**، الاستشراق الألماني، ص ٢٨-٣٠.

(٤٦) أوغست مولر (١٨٤٨- ١٨٩٢م) August Muller مستشرق ألماني، كان يسمي نفسه امرأ القيس ابن الطحان، نشر "عيون الأنباء في طبقات الأطباء" لابن أبي أصيبعة، و"معلقة امرئ القيس" مع شروح ألمانية، و"الفهرست" لابن النديم سنة ١٨٧٢م بمساعدة "فلوجل" Flugel وروديجر. خير الدين الزركلي، **الأعلام**، ص ٢٦، عبد الرحمن بدوي، **موسوعة المستشرقين**، ص ٣٩٠-٣٩١.

(٤٧) نجيب العقيلي، **المستشرقون**، ٤٤٧/2.

سباق العربات في المغرب القديم ونماذج من منافساته

د. رضا بن علال

أستاذ التاريخ القديم

المدرسة العليا للأساتذة

بوزريعة - الجمهورية الجزائرية



ملخص

تفيدنا الرسومات والنقوش الصخرية في الصحراء الكبرى بمعرفة المغاربة القدماء للعربات الخفيفة منذ منتصف الألف الثانية قبل الميلاد، والظاهر أن استعمالهم لها في هذه الفترة المبكرة من تاريخهم إنما انحصر في الصيد والمباهاة وبعض السباقات التي كانوا يمارسونها في العراء. وباحتلال الرومان للمغرب القديم، اعتنق المغاربة القدماء ثقافة العروض الرومانية التي من ضمنها سباق العربات لمعرفتهم المسبقة بها. ولقد برع الرياضيون الأفارقة في سباق العربات حتى صارت هذه الرياضة من بين سمات الرقي الحضاري للمغرب القديم، وهو ما تشهد عليه مشاهد الفسيفساء ومجموعة كبيرة من النقوش والنصوص الأدبية الإغريقية واللاتينية التي عرفتنا بأسماء الوجهاء وأعيان المغرب القديم ممن وهبوا ألعاباً ارتبطت بعبادة الإمبراطور وبالعالم الآلهة، في حين احتفلوا ببعضها الآخر على شكل هبات وهبوا لسكان المدن والبلدات التي سكنوها وزاولوا فيها مختلف أنشطتهم الاقتصادية والاجتماعية. وبذلك تكون النقوش ولوحات الفسيفساء والنصوص القديمة قد أفادتنا بالتعرف على إسهامات الوجهاء والأثرياء الخواص من خلال تنظيمهم لسباق العربات. وعادة ما كانت هذه العروض تبدو بسيطة مقارنة بالمنافسات التي كانت تنظمها السلطة الرومانية الحاكمة في عواصم المقاطعات وفي المدن والبلدات التي كانت تتمتع بصفة المواطنة، قبل أن يعم آل سفيروس هذا الحق على كافة سكان الإمبراطورية الرومانية.

بيانات المقال:

روما، سباق العربات، الخيول الإفريقية، المغرب القديم، المغاربة القدماء

تاريخ استلام المقال: ٢٤ نوفمبر ٢٠١٦
تاريخ قبول النشر: ١٨ فبراير ٢٠١٦

كلمات مفتاحية:

DOI 10.12816/0052961

معرف الوثيقة الرقمي:

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

رضا بن علال، "سباق العربات في المغرب القديم ونماذج من منافساته"، دورية كان التاريخية، السنة الحادية عشرة- العدد الأربعون، يونيو ٢٠١٨، ص ٣١ - ٣٩.

مقدمة

القدماء قد شغفوا بمتابعة كل ما له علاقة بهذه الرياضة التي تعود جذورها في المغرب القديم إلى نهاية العصر- الحجري الحديث وبداية فجر التاريخ، أي الفترة التي ظهرت فيها العربات والخيول في الفن الصخري للصحراء الكبرى^(١). وليس في استطاعتنا أن نقول ما إذا كانت الخيول الإفريقية، التي كثر تمثيلها في مشاهد الفسيفساء في المغرب القديم أثناء الاحتلال الروماني أكثر شهرة من أبطال سباق العربات أنفسهم، أم أن الأمر يتعلق بشخ المادة الأثرية المتمثلة في النقوش ولوحات الفسيفساء وقلة المصادر الأدبية، لكن ما هو مؤكد أن الجمهور ارتبط بمختلف أطيافه بفرق السباق المتنافسة ضمن عروض السيرك.

مارس المغاربة القدماء سباق العربات وبرعوا فيه وهو ما تشهد عليه مشاهد الفسيفساء ومجموعة كبيرة من النقوش والنصوص الأدبية الإغريقية واللاتينية، فهذا سوفوكليس (Sophocles) يشير في القرن الخامس قبل الميلاد إلى اشتراك الليبيين بكدين في سباق للعربات أقيم بدلفي^(٢). كما أوكل بعض أعيان ووجهاء مقاطعات المغرب القديم خلال الاحتلال الروماني للفنانين والحرفيين تجسيد مشاهد السباق على لوحات فنية تخلد بطولات فرق السباق على أراضي البيوت والحمامات وقاعات المجالس البلدية وغيرها. واللافت للانتباه أن المغاربة

١- أبطال سباق العربات في المغرب القديم

تألق قواد عربات السباق خلال الاحتفالات التي كانت تقام في مدن المغرب القديم خلال العهد الإمبراطوري، نذكر من بينهم كريسكانس (Crescens) الموريطني الذي ذاع صيته على عهد الإمبراطور نيرفا (Nerva)، إذ شارك هذا الرياضي البطل في ٦٨٦ سباقا للعربات. أحرز خلال هذه التظاهرات سبعة وأربعين مرة على الجائزة الأولى ومائة وثلاثين مرة الجائزة الثانية، كما حاز على المرتبة الثالثة إحدى عشر مرة. وقد حقق هذا الحوذي الذي لم يتجاوز عمره ٢٢ سنة ثروة قدرت بمليون وست مائة ألف سستر^(٣).

ونعرف من بقايا النقوش التي تغطي شواهد القبور، سعادة قواد عربات السباق بممارسة هذه الرياضة التي أدّرت المال على الكثير منهم وأدخلتهم إلى عالم الشهرة. غير أن هذه الرياضة تسببت في أحيان كثيرة في حوادث لا يحمد عقباها، أفضت إلى مقتل الرياضيين وهم في مقتبل العمر، نذكر من بينهم أوريليوس موليكوس (M.Aurelius Mollicius) الذي أحرز على ١٢٥ نصر، وتوفي عن عمر لم يتجاوز العشرين. أما كريسكانس فقد توفي عن عمر يناهز ٢٢ عامًا^(٤).

ويمكننا أن نتتبع المشوار المهني لقواد عربات السباق، الذين كانوا يدخلون حلبات السباق، على ما يبدو، في سن الثالثة عشر. ويفيدنا الرجوع إلى تلك الألفاظ والألقاب المرافقة لأسماء هؤلاء الرياضيين في النقوش للتعرف على هذا التطور، بحيث يعرف حوذي عربة السباق في مرحلة أولى باسم (aurigae) أو (bigarii)، كما تعرفه كتابات أخرى على أنه الحوذي المبتدئ (rudis auriga)، ثم سرعان ما يتحول هذا اللقب إلى (agitator) بعد اكتساب الحوذي للخبرة المهنية. وكان هؤلاء الرياضيون المبتدئين يتدربون في بدايات مشوارهم الرياضي على قيادة العربات المقرونة إلى ثلاثة خيول (trigarium). ثم ينتقلون، بعد اكتساب الخبرة، إلى قيادة العربات المقرونة إلى أربعة خيول (quadrigium)^(٥).

ولم يكن من الغريب أن يصلنا صدى أبطال سباق العربات من خلال النقوش، إذ يفهم من إحداها التي تم العثور عليها في مدينة تبسة (Theveste) بالشرق الجزائري، إلى ممارسة المدعو يوليوس كاماروس (C. Julius Cammarus) تدريب خيول السباق، ويعود ذلك إلى الخبرة التي اكتسبها هذا الرياضي من خلال ممارسته للسباق وتحكمه في قيادة العربات المقرونة إلى ثلاثة خيول^(٦). ورغم وقع الألم على نفسية أقارب هذا الرياضي، إلا أنهم قاموا بحفر كلمات معبرة على لوحة حجرية تدل على حب وسعادة هذا الأخير بممارسة رياضة سباق العربات التي كانت سببا في وفاته^(٧).

وكلما أشدنا ببطولات من سبق ذكرهم من قواد عربات السباق، إلا ونجد أنفسنا أمام مجموعة أخرى من أبطال هذه الرياضة، الذين اهتزت ميادين سباق العربات لوقع هتافات

أسمائهم، من بينهم بطل مدينة دوقة في تونس الذي أطلق عليه اسم إيروس (Eros) تيمناً بإله الحب عند الرومان، وربما أطلقت عليه هذه التسمية لما كان يحدثه في نفسية أنصار فريقه ومحبيه وتعلقهم بإنجازاته الرياضية^(٨). وتظهر لنا إحدى المشاهد الفنية هذا البطل الشاب بعد انتصاره في السباق (الشكل ١)، ترافقه عبارات: "يا حب، أنت تأتي بكل شيء" (Eros, omnia per te)^(٩).

وتمثل فسيفساء عودة الحظ (Fortuna redux) المحفوظة بمتحف مدينة تبسة، سفينة شحن تجارية تشق عباب البحر تتمثل حمولتها في كمية كبيرة من الجرار. وربما كانت هذه الصفة التجارية الراجعة سببا في إقامة عروض صيد الحيوانات وسباق العربات^(١٠). ويجسد المشهد إعلان الحكم لنتيجة السباق، واستلام المدعو مارككوس (Marcellus) جائزة الانتصار المتمثلة في سعة نخيل (الشكل ٢). وفي الحين الذي تعرفنا فيه إحدى لوحات الفسيفساء من مدينة قيسرية في مقاطعة موريطانيا، ببطل محلي يدعى كيزوريوس (Cesorius). تحيلنا مشاهد أخرى من قرطاجة، تعود إلى بداية القرن الرابع للميلاد، إلى أسماء أربعة حوذين هم: أوفوميوس (Euphymios) من الفريق الأزرق ودومينيوس (Domninos) حامي الألوان البيضاء وأوثيميس (Euthymis) التابع للفريق الأخضر وكيفالون (Kephalon) المدافع عن الألوان الحمراء^(١١). ونعرف كذلك من لوحة تعود إلى نهاية القرن الخامس وبداية القرن السادس، اكتشفها علماء الآثار في ضواحي قرطاجة، تخليد أحد الأثرياء المعجبين بهذه الرياضة لأسماء مشاهير سباق العربات في زمانه، منهم بنيناتوس (Benenatus) وكرياكوس (Quiriacus) وكليوريوس (Celerius) وكبريانوس (Ciprianus)^(١٢).

وكان للحافز المادي دوره في الارتقاء بهذه الرياضة إلى مصاف المنافسات التي أقبلت جماهير المغرب القديم على متابعة فعالياتاتها. وغالبا ما كانت مكافآت هؤلاء الأبطال تمثل في مشاهد الفسيفساء على أنها تيجان نصر وسعف نخل (الشكل ٣). بالإضافة إلى ذلك، فقد صرفت أموال طائلة على فرق السباق المتنافسة في ميادين سباق العربات، وهي التي مكنت البطل سكوريانوس (Scorpius) صاحب سبعمئة انتصار من بناء بيت فاخر في ضواحي قرطاجة على عهد الإمبراطور هدرينوس (Hadrianus)، زينه بلوحات الفسيفساء المكلفة^(١٣). وفي الحقيقة، فلقد تمكن بعض هؤلاء الرياضيين من جمع ثروات في روما بلغت أرقاما يعجز الحرفيون والتجار على تكوينها، بحيث قدرّت ثروة ديوكليس على سبيل المثال، بنحو ٣٥ مليون سستر^(١٤).

وغالبا ما كانت تحدث المناوشات بين أنصار الفرق المتنافسة في ميادين سباق العربات، فكان يقدم هؤلاء على الاشتباك والتشاجر بسبب إخفاق نجومهم في الظفر بالمراتب الأولى، أما في حالة ما إذا كان الحظ حليف هؤلاء الأخيرين فإنهم يرفعون من

٣- الخيول الإفريقية

إذا أردنا البحث عن تفسير عملي معقول لاهتمام الرومان باستيراد الخيول الإفريقية، فإننا سنتوقف عند وصف هذه الحيوانات من طرف الجغرافي سترابون (Strabon) الذي يشير إلى أنها كانت خيولا صغيرة، ومع كونها وديعة وشديدة اليقظة فإنها كانت تنقاد بسهولة وهي تتبع صاحبها دون حاجة هذا الأخير إلى حبل ليتحكم فيها^(٢٤). أما تيتوس ليفيوس (Tite Live) فهو يرى أن هذه الخيول كانت قبيحة المظهر وسريعة الركض^(٢٥). ونعرف من نصوص المصادر الأدبية اللاتينية أن ملوك نوميديا كانوا يعتمدون بشكل كبير على الفرسان الذين كانوا يمتطون صهوة خيولهم دون لجام^(٢٦).

ويبدو أن أهم ما يمكن الإشارة إليه بخصوص العلاقات التجارية التي تتعلق باستيراد الرومان للخيول الإفريقية يلخصها لنا بوليبيوس (Polybius) الذي لم يتصور وجود بقعة من الأرض تحوي ما بالمغرب القديم من الخيول والأبقار والأغنام^(٢٧). ومن ناحية أخرى يتعرض ليفيوس إلى صفقات الملك ماسينيسا التجارية، التي نستشف من خلالها إقدام هذا الأخير على تزويد حلفائه الرومان بعدد معتبر من الخيول ما بين سنوات ٢٠٠ ق.م- ١٧٠ ق.م، يقدر بنحو ٣٩٠٠ فرس^(٢٨).

ويعرف من النصوص الأدبية اللاتينية وبقياء النقوش التي خلفها لنا أسلافنا أن الخيول الإفريقية كانت تروض في الثالثة من عمرها وتدخل حلبات السباق في سن الخامسة^(٢٩). وتحتفظ لنا هذه النقوش ومشاهد الفسيفساء بأسماء هذه الحيوانات التي اشتهرت هي بدورها، حتى أصبحت مطلوبة من طرف فرق السباق في روما وبقية مقاطعات الإمبراطورية. ولسنا ندري ما إذا كان تدريب هذه الخيول يتم على أيدي مربّي هذه الحيوانات، أم أنه كان يتم بالتنسيق مع محترفي فرق السباق، إلا أن الأكيد هو ما أشرنا إليه من قبل^(٣٠) من حيث ابتكار المغاربة القدماء لتقنية ذكية تدعى بقرن قضيب الجبر الغرض منها ترويض الخيول. وتمثل هذه التقنية في وضع الحيوان بين عريشين وربطه من زمامه إلى قضيب خشبي لجعله يمشي- بطريقة منتظمة. ومن ناحية تقنية فإن الخيول التي كانت تربط من زمامها في خط مستقيم بواسطة قضيب خشبي كانت مجبرة على السير والتوقف على وتيرة واحدة، وكانت تمشي وتركض بالتوازي نظرا لوجود عريش يتوسطها^(٣١).

وعموماً لم يكن انتشار استعمال الخيول الإفريقية يقتصر- على روما فقط، بل تعداه إلى باقي الإمبراطورية الرومانية التي كانت تمتد حدودها عبر قارات أوروبا وإفريقيا وآسيا. ويعود سبب هذه الشهرة إلى مجموعة الخصال التي سبق ذكرها، على أن أغلب الخيول الإفريقية المستوردة من طرف الرومان في القرن الثاني والقرن الثالث للميلاد كان مصدرها مقاطعتي البروقنصلية ونوميديا^(٣٢)، والتي تبين من خلالها الأدلة المادية

طرف محبيهم إلى مصاف الخالدين^(٣٥). ويبدو أن الذين صنعوا المجد في حلبات السباق كانوا أول من مسهم الضرب- بحيث تعرضوا لأعمال السحر والشعوذة^(٣٦)، ومات معظمهم في مقتبل العمر، في حين نكل الحكام بخصوم الفرق التي كانوا يشجعونها^(٣٧).

٢- علاقات فرق سباق العربات بالجهاز

السياسي في روما

وما وصف كليغولا (Caligula) ونيرون (Néron) ولوكيوس فيروس (Lucius Verus) وكمودوس (Commode) بالديمقراطيين إلا لكونهم كانوا يميلون إلى الفريق الأخضر، إذ كان أنصار هذا الفريق من بين جماهير الشعب^(٣٨). أما أعضاء مجلس الشيوخ الروماني والأرستقراطيون فقد كانوا من مناصري الفريق الأزرق. ولأن الإمبراطور كراكلا (Caracalla) كان من مناصري الفريق الأزرق فقد أصدر حكماً بالإعدام ضد قواد عربات الفريق الأخضر. بل وصل الحدّ ببعض الأباطرة إلى البطش بأنصار ومشجعي فرق السباق على ما يبدو، فقد نكل فيتيليوس (Vitellius) بأنصار الفريق الأخضر- لسبهم للفريق الذي كان يشجعه هذا الإمبراطور، وهو الفريق الأزرق^(٣٩).

ومما يلفت النظر في النقوش اللاتينية للمغرب القديم التي تعود إلى القرن الثالث الميلادي، أنها توحى إلى لجوء مسيري فرق السباق الأربعة إلى التحالف، وذلك ربما بغرض الدفاع عن المصالح المشتركة لفرق الحلف^(٤٠). فمن هذه الناحية نجد أنفسنا أمام حلف فريقين قوين، الأول بزعامة الألوان الزرقاء، والثاني بزعامة الألوان الخضراء. فقد تحالف كل من الفريق الأزرق والفريق الأحمر، واتحد الفريقان الأخضر والأبيض^(٤١).

ولعل هذا ما يدفعنا إلى طرح إشكالية إعادة بناء الهيكل الداخلي لكل فريق، حيث دفعت الأزمة المالية، التي فقدت بموجبها العملة الرومانية قيمتها خلال القرن الثالث الميلادي، بهذه الفرق إلى إعادة تنظيم تسييرها الداخلي في المغرب القديم، وإعادة النظر في علاقات كل حلف بالنظام البلدي، على اعتبار هذا الأخير الراعي الرسمي لسباق العربات. والتي لا نعرف عنها الكثير في المغرب القديم، سوى ارتقاء مسيري فرق السباق من أهالي المغرب الروماني إلى موظفين في روما، أوكلت لهم مهمة تنظيم سباق العربات خلال القرن الثالث الميلادي^(٤٢).

من خلال ما تقدم من الأدلة الأثرية، لم يكن في مقدورنا إثبات المدى الواسع لانتشار فرق السباق، ولا مدى ديمومة سباق العربات في المغرب القديم أثناء الاحتلال الروماني إلى غاية القرن السادس الميلادي، إلا أنه يمكن القول إن الخيول التي كان يستوردها الرومان من المغرب القديم حققت النصر لعدد معتبر من قواد عربات السباق^(٤٣).

بوليدوكسوس^(٤٠). أما الحصان بولستيفانوس (Polystefanus)، فقد فاز عدة مرات بإكليل النصر^(٤١). ونحتكم على نقش عثر عليه في روما ينسب إلى فترة حكم الإمبراطور دومتيانوس (Domitianus)، يشير إلى مشاركة عشرين حصانا إفريقيًا وحصان موريطاني في سباق أقيم آنذاك^(٤٢).

وخلال القرنين الثاني والثالث وحتى القرن الرابع أصبحت الخيول الإفريقية مطلوبة بكثرة، فسارعت فرق سباق العربات إلى اقتنائها، وأحبها مرتادي ميادين سباق العربات في المغرب القديم وخارجه، وبإمكاننا أن نتتبع شغف الجمهور بمتابعة المشوار الرياضي لهذه الحيوانات النبيلة من خلال مشاهد الفسيفساء التي حفظت لنا أسماء وصفات هذه الخيول، نذكر من ضمنها الحصان بولستيفانوس والحصان أركيوس (Archeus) الذين يصورهما مشهد فسيفسائي يضعان تاجا على رأس الربة فينوس^(٤٣). ويبدو أن معظم هذه الخيول كانت تحمل أسماء أبطال الميثولوجيا مثل إكاروس (Icarus)^(٤٤) وديوميديس (Diomedes)، أو أسماء بعض الآلهة مثل إله البحر نبتونيوس (Neptunius) وإله الحب كوبيدو (Cupido)، بالإضافة إلى بعض الأسماء الأسطورية مثل الحصان المجنح (Pegasus) والمضيء أو المشعّ (Faiton) والرسول (Viator)^(٤٥).

وعلى أي حال فإن إغداق المال على أبطال سباق العربات كان يصاحبه حصول الخيول المقرونة إلى العربات على جوائز قيمة غالبا ما تمثلها لنا مشاهد الفسيفساء على شكل سعف النخيل أو أسطوانات مزخرفة (الشكل ٥). وهنا يجدر بنا أن نقف لتتساءل عن مصير هذه الخيول بعد انسحابها من حلبات السباق؟

نعرف من بقايا النقوش أن الخيول والأفراس الإفريقية كانت تنعم بحياة الأبطال بعد انسحابها من حلبات السباق، نذكر من ضمنها ما ورد عن الفرس سبايدوزه (Speudusa) التي عاشت حياة هادئة بعد انسحابها من ميادين السباق أين كانت "أسرع من الريح"^(٤٦). كما أننا نستفيد من الرجوع إلى قانون ثيودوزيوس (Theodosius) الذي يشير في أحد فصوله (X, 6, 1) إلى منح منحة تقاعد للخيول التي تنسحب من حلبات السباق بعد مشوار حافل بالانتصارات^(٤٧).

والظاهر أن انسحاب الخيول من ميادين السباق، سواء كان ذلك في المغرب القديم أو في روما، واستفادة هذه الحيوانات من رعاية مالكيها لكونها أدّرت عليهم المال والشهرة، وعدم وجود أي دليل مادي أو أدبي يتعلّق بأكل الرومان للحم الخيل وأفراس السباق بعد تقاعدها، كلّها تدلّ دلالة واضحة على احترام وتبجيل الشعب الروماني لهذه الحيوانات النبيلة.

ولم يكن الشعب في روما وشعوب مقاطعات الإمبراطورية الرومانية في حقيقة الأمر مولعون بمتابعة فعاليات سباق العربات فحسب، وإنما تعدى ولعهم بهذه الرياضة حدّ الهستيريا. وما تعبير جوفينال (Juvenal) من أن الرومان إنّما

وجود مزارع متخصصة في تربية خيول السباق، مع وجود مجموعة من الأفارقة يمتنون حرفة تربية الخيول^(٣٣).

وكانت تشحن أعداد كبيرة من الخيول الإفريقية عن طريق البحر إلى ميادين السباق في روما وإلى مقاطعات جنوب غرب أوروبا وبلاد اليونان، ونستطيع تأكيد ذلك من خلال فسيفساء مدينة مديانة (Althiburos) في تونس، التي تصوّر مشهد شحن مجموعة من الخيول يمثّلها فيروكس (Ferox) وإكاروس (Icarus) وكوبيدو (Cupido) على باخرة تحمل اسم (Hippago). وما تباهي الحوذي ديوكليس (Dioclès) بأنه الأفضل في قيادة الخيول الإفريقية، وتفضيل الحوذي جوتا كلبورنيانوس (Gutta Calpurnianus) لهذه الحيوانات دون سواها، وإسهام الحصان الإفريقي للحوذي أولوس تيريس (Aulus Teres) الملقب هيلاروس (Hilarus) في جعل صاحبه يظفر بألف انتصار، سوى أدلة على ما وصلت إليه هذه الحيوانات من مكانة مرموقة في مجتمع المغرب القديم خلال القرنين الأول والثاني للميلاد^(٣٤).

ولا يمكن للباحث أن يشير إلى الخيول الإفريقية، دون الإشارة إلى مربيها. فقد اشتهر اسم أحد مموني الخيول في المغرب القديم يدعى سوروتوس (Sorothus)، هو من أثرياء مدينة حزموت (Hadrumentum) في تونس، فكان هذا الرجل الثري يملك مزرعة متخصصة في تربية الخيول الموجهة لسباق العربات (Saltus Sorothenensis) تقع في ضواحي سوق أهراس (Thagaste) في شرق الجزائر (الشكل ٤). ولعله من الأهمية يمكن أن نلاحظ وجود مثل هذه المزارع في مدينة يول، عاصمة مقاطعة موريطانيا، إذ يفهم من إحدى لوحات الفسيفساء المكتشفة فيها قيام المدعو كلاوديوس سابينوس (Claudius Sabinus) ببيع أو استئجار إلى الفريق الأخضر^(٣٥) حصانا يعرف باسم موكوزوس (Muccosus)^(٣٦).

وليس في استطاعتنا أن نقول بأن الحصان دستروايكوس (Destroiugus) الذي كان ملكا للمدعو غلاوكوس (Glaucus) هو حيوان اشتهر وذاع صيته من بين مئات الخيول التي كان يسهر هذا الأخير على تربيتها، ولا أن تكون مجموعة الخيول المعروفة باسم داورياتي (Daouriati) تنتمي إلى مزارع خاصة بتربية الخيول (stabula equorum)^(٣٧). غير أن وجود الضيعة الملاحظة في واد العثمانية بضواحي مدينة كيرتا^(٣٨)، ومزارع مماثلة في ضواحي قرطاجة^(٣٩)، تبين لنا ممارسة هذا النشاط بشكل واسع من طرف مجموعات من مربي الخيول الإفريقية.

ولعله من الأهمية يمكن أن نلاحظ هنا ما وصلت إليه هذه الحيوانات النبيلة من خلال شهادات أصحابها ومحبيها الذين خلّدوا ذكراها في النقوش ولوحات الفسيفساء، نذكر من بينها على سبيل المثال الحصان بوليدوكسوس (Polydorus) من مدينة كويكول (Cuicul)، الذي كتب فيه صاحبه بومبيانوس (Pompeianus) مخاطبا: "غالب أو مغلوب أحبك يا

ويظهر المشهد تنافس أربع عربات، كل واحدة منها مقرونة إلى أربعة خيول، يقودها رياضيون تزيّتهم ألوان فرق سباق العربات. ويبدو أن المشهد يمثل فترتين زمنيتين متباينتين، ففضلا عن تسابق ثلاث عربات هي في دوران حول حلبة السيرك، تتجه العربة الرابعة في الاتجاه المعاكس، ويلاحظ إمساك حوذي هذا القرن الأخير بسعفة نخل، هي دليل انتصاره في السباق. ونحن نعرف من المشهد أن القرن الأخير في دورة شرفية حول حلبة ميدان السباق، ويتقدم العربة المنتصرة فارس (hortator) يمتطي صهوة حصانه فاتحا الطريق للحوذي المنتصر^(٥٣).

ومن بين ما يمكن ملاحظته في هذه اللوحة من تلك التفاصيل التي تضي عليها طابعاً محلياً خاصاً، وجود تمثال المعبودة كيبال (Cybèle) ممتطية أسداً، وقد وضع التمثال منفرداً في وسط حاجز فصل ميدان السباق. ونحن نعرف من حفريات ميدان السباق الكبير في روما وجود تمثال هذه المعبودة بالقرب من مسألة تتوسط حاجز الفصل^(٥٤). ففي الوقت الذي اعتمد فيه الحرفيون والفنانون في روما وفي باقي مقاطعات الإمبراطورية الرومانية على نموذج ميدان السباق الكبير في إنجاز لوحات فسيفساء سباق العربات، خالف فيه المغاربة القدماء هذا النموذج، فمثلوا مشاهد سباق العربات معتمدين على النماذج المحلية التي من ضمنها ميدان سباق مدينة قرطاجة^(٥٥). ومما يلفت النظر في لوحة ميدان سباق قرطاجة وجود شخص يبدو أنه من موظفي الملعب يعرف باسم (Sparsor). إذ يبدو هذا الموظف قريباً من خط الوصول ويحمل سوطاً بيد بينما يمسك جرّة مملوءة بالماء باليد الأخرى، ومن الظاهر أن هذا الموظف كانت مهمته إلقاء الماء على الخيول وعرائش العربات لتبريدها^(٥٦).

ولا يمكن أن يذكر الباحث فسيفساء ميدان سباق مدينة قرطاجة إلا ويجد نفسه مضطراً لذكر فسيفساء بيت سيلين في ليبيا، فنحن لا نعرف الكثير عن هذه اللوحة، سوى أنها اكتشفت بالقرب من مدينة لبدّة، وهي تعود إلى نهاية القرن الثاني وبداية القرن الثالث للميلاد، وهكذا فإن هذه اللوحة معاصرة للوحة ميدان سباق مدينة قرطاجة في تونس. وفي الحقيقة، فإن اللوحتين هما أقدم ما نعرفه عن مشاهد سباق العربات الممثلة على لوحات الفسيفساء^(٥٧).

وتمثل مشاهد لوحة بيت سيلين تنافس مجموعة من العربات المقرونة بأربعة خيول، وتتشترك مع لوحة ميدان سباق مدينة قرطاجة في كونها تمثل الحوذي المنتصر يمسك بسعفة نخل هي رمز انتصاره في السباق. وفي حين كان يتقدم عربة الحوذي المنتصر فارس يرافقه في دورته الشرفية، يلاحظ توسط تمثال كيبال حاجز فصل ميدان السباق. كما نتعرف من خلال اللوحة على الشخص الذي هو قريب من خط الوصول وهو الموظف الممثل بنفس الوضعية في فسيفساء ميدان سباق قرطاجة، إذ يحمل سوطاً بيد ويمسك جرّة مملوءة بالماء باليد الأخرى^(٥٨).

انحصر همهم في زمانه بمطالبة السلطة الإمبراطورية في روما بتوفير الخبز وألعاب السيرك، ونصرة الأباطرة للفرق المتنافسة من أجل تحقيق مأرب سياسية، سوى أدلة لواقع معيشي أضحي جزء لا يتجزأ من الحياة اليومية للشعب الروماني^(٥٩).

٤- ميادين سباق العربات

في حدود المجال الشامل الممتد ضمن ما يعرف بالليمس الروماني، يصادفنا النطاق الجغرافي للمغرب القديم الذي يمتد من حدود مصر الغربية إلى سواحل المحيط الأطلسي- أين تركزت مرافق الألعاب الرومانية التي نذكر من ضمنها ميادين سباق العربات. وما يلفت النظر بخصوص سباق العربات في المغرب القديم هو تلك الوفرة في المعطيات الخاصة بهذه الرياضة، وهي وفرة نستشعرها من خلال الأدلة المادية التي جادت بها علينا الأبحاث الأثرية والمتمثلة في لوحات الفسيفساء، التي حفظت لنا صدى تلك المنافسات التي اهتزت لها ميادين السباق على وقع هتافات المشجعين ومناصري مختلف فرق السباق.

ونحن نحتكم في هذا الصدد إلى مجموعة من لوحات الفسيفساء التي تنتشر عبر مقاطعات المغرب القديم، نذكر من ضمنها فسيفساء ميدان السباق في قرطاجة المحفوظة حالياً بمتحف البارود في تونس والتي تعود إلى نهاية القرن الثاني وبداية القرن الثالث الميلادي^(٤٩)، فهي تمثل مشهداً تنافسياً لأربعة فرق يمثل كل فريق منها عربة مقرونة إلى أربعة خيول هي قريبة من خط الوصول (الشكل ٦)^(٥٠).

وفي حدود ما نعرف عن هذه اللوحة أنها أنجزت من طرف الفنانين الذين أبدعوا ما يعرف بالمدرسة الإفريقية في فن الفسيفساء. ويبدو أن هؤلاء الأخيرين لم يقوموا بنقل أعمال فنان الفسيفساء في روما فحسب وإنما أضفوا على تلك الأعمال طابعاً محلياً وجعلوا من مشاهد لوحات الفسيفساء صوراً صادقة للحياة اليومية في المغرب القديم أثناء الاحتلال الروماني. ولعل أهم ما يمكن الإشارة إليه في هذا الصدد يكمن في خصوصية مشاهد فسيفساء ميدان سباق العربات في قرطاجة فهي الوحيدة التي يظهر فيها ميدان سباق روماني من زاويتين مختلفتين. إذ تصور لنا مشاهد اللوحة الحلبة ومنصات الجمهور من جهة، والبناء الخارجي لهذا الصرح من جهة أخرى، وهي مع هذا تصور لنا منافسة سباق العربات كاملة^(٥١).

وفي واقع الأمر نجد أن النطاق الخارجي للصرح لا يظهر منه إلا إحدى واجهاته وهي تتشكل من قاعدة متينة تعلوها طوابق مزينة بأقواس عديدة. وعلى النقيض من ذلك، فقد مثل الفنان صورة متكاملة لداخل ميدان السباق. وإذا ما يلاحظ تغطية شراع (velum) ثلاث واجهات من واجهات المبنى الداخلي، كان الغرض منه حماية الجمهور من تقلبات الطقس، فإن واجهته الرابعة المقابلة للواجهة الخارجية تبدو غير محمية ومنصاتها خالية من الجمهور^(٥٢).

خاتمة

رغم عدم امتلاكنا للأدلة الأثرية والنصوص التي يمكن لنا بواسطتها تحديد الوضعية الاجتماعية التي تمتع بها قواد عربات السباق، إلا أن تألق هؤلاء الرياضيين خلال الاحتفالات التي كانت تقام في المغرب القديم خلال العهد الإمبراطوري، قد جلبت لهم حب الجمهور ومناصرتهم لهم. وهكذا فإننا لن نكون من المبالغين في حالة ما إذا أكدنا أن النصوص التي وصلت إلينا من الأدباء والمثقفين الوثنيين من أمثال بترونيوس (Petronius)^(٦٥) ومارتيال (Martial)^(٦٦) وبلينوس الشاب (Pline le jeune)^(٦٧)، ومن منظري النصرانية من أمثال ترتوليانوس (Tertullien)^(٦٨)، هي صور منقولة عن مشاهد سباق العربات التي تمثلها لنا لوحات الفسيفساء. وبأن هذه الصور ليست مجرد سرد أدبي لمجموعة من المثقفين الذين كانوا يمتنون هذه الاحتفالات، وإنما هي انعكاس للثقافة الرومانية التي جسدت عروضا سباق العربات وعروض المصارعة، والتي تبنها مجتمع المغرب القديم بمختلف أطيافه.

الملاحق



شكل (١)

فسيفساء الحوذي المنتصر (Eros)، مدينة دوقسنة (تونس)
Yakoub (M.), Splendeurs des mosaïques de
Tunisie, p 313.

والمرجح أن سباق العربات كان خلال القرن الخامس والقرن السادس لا يزال قائماً، وأن ممارسة هذه الرياضة كانت مزدهرة، إذ يفيدنا الرجوع إلى لوحة فسيفساء (الشكل ٧) اكتشفها فريق من علماء الآثار بالقرب من مدينة قفصة في تونس^(٥٩)، تعود إلى بداية القرن السادس الميلادي، في التعرف على منافسات سباق العربات أثناء إجرائها^(٦٠).

وما يمكن قوله بخصوص هذه اللوحة الفنية أنها أنجزت من طرف فنانين لم يراعوا الجانب الجمالي في تشكيلها، وهم الذين أبدع أسلافهم مدرسة فنية خلال القرن الثاني والقرن الثالث الميلاديين، أنجز فنانوها لوحات فنية أظهرها أدق التفاصيل. فضلا عن ذلك، فاللوحة تنتمي بنمطها التجريدي إلى الإنتاج الفني المتأخر في المغرب القديم فهي تصور لنا شخصيات المشهد متصلبة ومتصنعة، توحى ملامحها الجسمانية إلى جهل الفنان التام بتمثيل مورفولوجية الإنسان. ومن المهم أن نلاحظ هنا تمثيل الجمهور المتابع لفعاليات السباق، فهو على النقيض من لوحات القرنين الثاني والثالث التي تظهر حركية الجمهور وتجاوب المناصرين مع تألق أبطال فرق السباق، إذ يبدو هذا الجمهور بلامح جاثمة وخالية من أي مشاعر تمثلها وجوه متراسة في صفوف^(٦١).

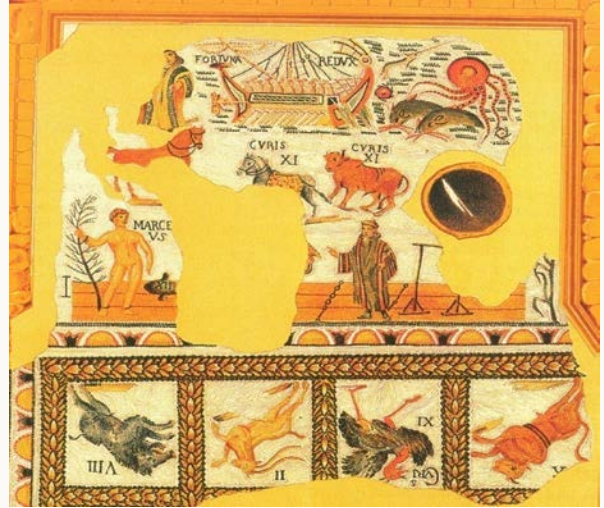
وعموماً، فإن ميدان سباق مدينة قفصة يوضح لنا النموذج الذي اعتمده الفنان في إنجاز هذه الفسيفساء وهو ميدان السباق الكبير في روما. فلم يحدث أن عثر علماء الآثار على بقايا مبنى ميدان سباق يعود إلى هذه الفترة في مدينة قفصة أو ما جاورها من الأراضي المحيطة. وربما أقيمت فعاليات سباق العربات الذي تجسده اللوحة في فضاء قريب من المدينة، إذ كان بإمكان المغاربة القدماء تهيئة سهل يحلّ موضع ميدان السباق وبناء نوع من السائر التراي يمثل حاجز فصل الميدان^(٦٢). وقد ترك الوجه أو الثري للفنان حرية التصرف في بقية التفاصيل المتعلقة بالمنافسة، فقام الحرفي بتضخيم الهبة لإظهار سخاء الوجه^(٦٣). وتظهر مشاهد الفسيفساء تنافس أربع عربات قرنت كل منها إلى أربعة خيول، اثنتان منها في حالة متقدمة من التلف بفعل العوامل الطبيعية التي قضت على جزء كبير من اللوحة، بينما يقود قرن الاثنتين المتبقيتين حوذيان يرتدي كل منهما سترة زرقاء. وفي حين يظهر الفنان تقدم قائد العربة الأولى الممسك بأعنة قرنه، يحاول المتنافس الثاني التقدم على غريمه حاثاً خيوله على الإسراع بضربات سوطه المتتالية^(٦٤).



شكل (٤)

فسيفساء منزل سورتوس في سوسة
(تونس، القرن الثالث الميلادي)

Yakoub (M.), Splendeurs des mosaïques de Tunisie., p 203.



شكل (٢)

فسيفساء عودة الحظ (Fortuna redux)، تبسة (الجزائر)
Blas de Roblès (J.-M) et Sintes (C.), Sites et monuments antiques de l'Algérie, p 232.



شكل (٥)

فسيفساء خيول السباق المنتصرة، متحف البارود (تونس)
Fantar (M.-H.), La Mosaïque en Tunisie, p 193.



شكل (٦)

ميدان سباق العربات في قرطاجة

Yakoub (M.), Splendeurs des mosaïques de Tunisie, p 302.



شكل (٣)

حوزي منتصر يقود عربة مقرونة بأربعة خيول
Yakoub (M.), Splendeurs des mosaïques de Tunisie, p 312.

- Rome-Byzance, Edité par Christian Landes, Lattes : Imago, 1990, p 160.
- (9) Fantar (M.-H.), La Mosaïque en Tunisie, Tunis: Ed. de la Méditerranée, 1994, p 199.
- (10) Heron de Villefosse (M.), «Les mosaïques de Tébessa (Théveste)», RSAC, 24, 1886-1887, p 241.
- (11) Ennaifer (M.), «Le thème des chevaux vainqueurs à travers la série des mosaïques Africaines», MEFRA, 95, 2, 1983, 821.
- (12) Ladjimi-Sebai (L.) et Ennaifer (M.), «Le gout du cirque en Afrique», Op.cit., pp 160-161.
- (13) Picard (G.-Ch.), La civilisation de l'Afrique Romaine, Paris : Plon, 1959, p 261.
- (14) Thuillier (J.-P.), Op.cit., p 130.
- (15) Hamman (A.-G.), La vie quotidienne en Afrique du nord au temps de Saint Augustin, Paris : Hachette, 1979, p 159.
- (16) Hugoniot (Ch.), Les spectacles de l'Afrique Romaine..., T.1, Op.cit., p 639.
- (17) بن علال رضا، "عربات الألعاب في المغرب القديم أثناء الاحتلال الروماني"، المرجع السابق، ص ٦٣.
- (18) Mahdjoubi (A.), Les cités romaines de Tunisie, Tunis : S.T.D, S.D, pp 86-87.
- (19) Sablayrolles (R.), «La passion du cirque sous le Haut Empire», dans Le cirque et les courses de chars : Rome-Byzance, Edité par Christian Landes, Lattes : Imago, 1990, p 127.
- (20) Yakoub (M.), Splendeurs des Mosaïques de Tunisie, Tunis : Agence Nationale du Patrimoine, 1995, p 301.
- (21) Mahdjoubi (A.), Op.cit., p 84.
- (22) Hugoniot (Ch.), Op.cit., pp 625-626.
- (23) Tran (N.), «Les grandes productions africaines dans les échanges méditerranéens de la fin du Ier s. au début du Ve s. ap. J.-C.», dans L'Afrique Romaine de 69 à 439, Op.cit., p 175.
- (24) Strabon, Géographie, XVII, 3, 7.
- (25) Tite Live, Histoire Romaine, XXX, 11, 7-11.
- (26) Ibid., XXX, 6, 9.
- (27) Polybe, Histoire, XII, 3, 3-4.
- (28) Tite Live, Histoire Romaine, XXXI, 19, 14 ; XXXII, 27,8 ; XXXVI, 4,8 ; XLII, 62 ; XLIII, 6.
- (29) Bourdy (F.), «Les chevaux de courses de chars à Rome», dans Le cirque et les courses de chars : Rome-Byzance, Op.cit., pp 147-148.
- (30) بن علال رضا، "دراسة تحليلية حول أصول ودور العربات القتالية في المغرب القديم"، الحكمة، ٣، ٢٠١٠، ص ٨٢-٨٣.
- (31) Spruytte (J.), Attelages antiques Libyens, Paris : Maison des sciences de l'homme, 1996, pp 27-31.
- (32) Thuillier (J.-P.), Le sport dans la Rome antique, Op.cit., p 134.
- (33) Ladjimi-Sebai (L.) et Ennaifer (M.), «Le gout du cirque en Afrique», Op.cit., p 159.



شكل (٧)

فسيفساء سباق العربات، قفصه (تونس)، الفترة البيزنطية
Yakoub (M.), Splendeurs des mosaïques de
Tunisie, P.306.

الهوامش:

- (1) Sophocle, *Electre* : 698-756.
- (2) بن علال رضا، "العربات القتالية في المغرب القديم"، حوليات المتحف الوطني للآثار القديمة، ١٥، ٢٠٠٥، ص ٨.
- (3) CIL, VI, 10050.
- (4) بن علال رضا، "عربات الألعاب في المغرب القديم أثناء الاحتلال الروماني"، حولية المؤرخ، ٤-٣، ٢٠٠٥، ص ٦٣.
- (5) Thuillier (J.-P.), Le sport dans la Rome antique, Paris : Errance, 1996, pp 125-130.
- (6) Hugoniot (Ch.), Les spectacles de l'Afrique Romaine. Une culture officielle municipale sous l'empire romain, Lille: Atelier National de reproduction des thèses, 1996, T.1, p 621 ; Lassere (J.M.), «Choix d'inscriptions relatives à l'histoire de l'Afrique. Traductions avec éléments de commentaire», dans L'Afrique Romaine de 69 à 439, Romanisation et christianisation, ouvrage collectif coordonné par Bernadette Cabouret, Paris : Editions du Temps, 2005, pp 67-68.
- (7) CIL, VIII, 16566.
- (8) Ladjimi-Sebai (L.) et Ennaifer (M.), «Le gout du cirque en Afrique», dans Le cirque et les courses de chars :

- (59) Fantar (M.-H.), La Mosaïque en Tunisie, Op.cit., p 181.
- (60) Yakoub (M.), « Les aspects particuliers de la scène de courses dans la mosaïque de cirque de Gafsa », Op.cit., p 495.
- (61) Fantar (M.-H.), La Mosaïque en Tunisie, Op.cit., p 180-181.
- (62) Hugoniot (Ch.), Les spectacles de l'Afrique Romaine..., T.1, Op.cit., pp 619-620.
- (63) Fantar (M.-H.), Op.cit., p 181-182.
- (64) Fantar (M.-H.), Op.cit., p 181.
- (65) Pétrone, Satiricon, LXX, 13.
- (66) Martial, Epigrammes, XI, 1.
- (67) Pline le jeune, *Lettres*, IX, 6.
- (68) Tertullien, Contre les spectacles, 16.
- (34) Thuillier (J.-P.), Op.cit., p 134.
- (35) Hugoniot (Ch.), Les spectacles de l'Afrique Romaine..., T.1, Op.cit., p 633-634.
- (36) Ennaifer (M.), « Le thème des chevaux vainqueurs à travers la série des mosaïques Africaines », Op.cit., p 830 ; fig. 16.
- (37) Hugoniot (Ch.), Op.cit., p 634; 637.
- (38) Duval (N.), « Les prix du cirque dans l'antiquité tardive », dans Le cirque et les courses de chars : Rome-Byzance, Op.cit., p 137.
- (39) Ladjimi-Sebai (L.) et Ennaifer (M.), « Le gout du cirque en Afrique », Op.cit., p 159.
- (40) Bourdy (F.), « les chevaux des courses de chars à Rome », Op.cit., p 147.
- (41) Beschouch (A.), « Encore la mosaïque des chevaux de Carthage : A propos de Polystefanus le coursier aux multiples victoires », CRAI, 1996, pp 1315-1320.
- (٤٢) بن علل رضا، "الحصان الليبي من خلال بعض نصوص المصادر الأدبية الإغريقية واللاتينية"، الباحث، ١، ٢٠٠٩، ص ١٩٥-١٩٦.
- (43) Picard (G.-Ch.), La civilisation de l'Afrique Romaine, Op.cit., p 262
- (44) Fantar (M.-H.), La Mosaïque en Tunisie, Op.cit., p 195.
- (45) Ennaifer (M.), « La Mosaïque aux chevaux d'El Mahrine (Près de Thuburbo Minus. L'actuel Tébourba) », MEFRA, 106, 1, 1994, pp14 303-318 ; Hugoniot (Ch.), Les spectacles de l'Afrique Romaine..., T.1, Op.cit., p 633.
- (46) Thuillier (J.-P.), Le sport dans la Rome antique, Op.cit., p 135.
- (47) Bourdy (F.), « les chevaux des courses de chars à Rome », Op.cit., p 148.
- (48) Veyne (P.), Le pain et le cirque, Op.cit., p 84 et pp 701-714.
- (49) Yakoub (M.), Op.cit., p 302.
- (50) Ling (R.), Ancient Mosaics, London: British Museum Press, 1998, p 91
- (51) Fantar (M.-H.), Op.cit., p 179.
- (52) Golvin (J.-C.) et Fauquet (F.), « Les images du cirque de Carthage et son architecture. Essai de restitution », dans Mélanges offerts à Louis Maurin, Bordeaux, 2003, p 284.
- (53) Fantar (M.-H.), La Mosaïque en Tunisie, Op.cit., p 180.
- (54) Golvin (J.-C.) et Fauquet (F.), Op.cit., p 289.
- (55) Yakoub (M.), « Les aspects particuliers de la scène de courses dans la mosaïque de cirque de Gafsa », Les Cahiers de Tunisie, 29, 1981, pp 495-497.
- (56) Ladjimi-Sebai (L.) et Ennaifer (M.), « Le gout du cirque en Afrique », Op.cit., p 159.
- (57) Yakoub (M.), Splendeurs des Mosaïques de Tunisie, Op.cit., p 302.
- (58) Picard (G.), « La villa du taureau à Silin (Tripolitaine) », CRAI, 129(e) année, 1, 1985, fig. 2, p 231.

صناعة الخشب في الجزائر خلال العهد العثماني

د. سميحة ديفل

أستاذة محاضرة (ب) آثار إسلامية
قسم التاريخ والآثار - جامعة قسنطينة (٢)
عبد الحميد مهري - الجمهورية الجزائرية



ملخص

لقد نشطت الحرف الخشبية في الجزائر خلال العهد العثماني فمارسها النشارون الذين اشتغلوا بقطع أو نشر الخشب، وهي حرفة أولية لصناعات خشبية أخرى كالخرط حيث يتم تهيئة قطع الخشب ليحكم بريها وتشكيلها، وقد ساهمت أعمال الحرفيين من خراط ونجار ونشار في تزويد البنايات بالمشربيات والأبواب والأسقف أو تحفًا منقولة مثل المناير والمحاريب والكراسي والصناديق، والرحال والتوابيت، وذلك راجع إلى ما تميزت به الجزائر من التنوع الكبير في الخشب المتوفر بالساحل والهضاب العليا ومرتفعات الأطلس الصحراوي.

بيانات المقال:

تاريخ استلام المقال: ١١ فبراير ٢٠١٦
تاريخ قبول النشر: ٢٧ مايو ٢٠١٦

كلمات مفتاحية:

تقنية الصناعة، مراكز الصناعة، أدوات الصناعة والزخرفة، المناير، الكراسي

DOI 10.12816/0052963

معرف الوثيقة الرقمي:

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

سميحة ديفل "صناعة الخشب في الجزائر خلال العهد العثماني". - دورية كان التاريخية. - السنة الحادية عشرة - العدد الأربعون: يونيو ٢٠١٨، ص ٤٠ - ٤٨.

مقدمة

وسميت المحلات أو المشاغل التي مورست فيها هذه الحرفة بالمناشير، والتي تموضعت وتواجدت بالمداخل الرئيسية للمدينة. وبما أن الصناعات عرفت قفزة نوعية في العهد العثماني أردنا من خلال هذه المقالة إبراز مكانة الصناعة الخشبية خلال العهد العثماني وأهميتها بالمساهمة في الاقتصاد الجزائري مركزين على أهم المنتجات التي كانت تصنع بالجزائر خلال العهد العثماني مع تبيان طريقة صناعتها وزخرفتها وهل كانت تتماشى وخصوصيات المنطقة.

١- تعريف الخشب

يعرف باللاتينية بوسكوس (BOSCOUS) وهو عبارة عن مادة صلبة متلاحمة ليفية تتكون عموما من الساق والجذر والفرع،^(١) والخشب ما غلظ من العيدان والجمع خشب،^(٢) وإذا أخذنا قطاعا في جذع الشجرة وجدناها تتكون من: القلب: وهو المركز تتكون حوله الحلقات السنوية ويحتوي على جزء من العصارة المستعملة في نمو الشجرة ومع مرور السنين يجف هذا الجزء نتيجة تبخر العصارة التي تمتصها الفروع

تعتبر صناعة الخشب رافداً من روافد الربط بين الحضارات المختلفة، ومادتها الخشب من المواد التي لا غنى للإنسان عنها بل عدت من دعائم بقائه،^(١) والصناعة المتكفلة بذلك المحصلة بكل واحد بين صورها على اختلاف رواتبها هي النجارة،^(٢) وتعتبر من أهم فروع تحويل الخشب، وشهدت تقدما في العالم الإسلامي أكبر من الذي شهدته البلدان التي تنتج كميات كبيرة من الخشب، فبرع المهندسون الصناع المهرة في صناعتها حتى طارت شهرتهم وجابت أنحاء العالم، إذ لا بد لهم من السقف لبيوتهم، والإغلاق لأبوابهم والكراسي لجلوسهم والرماح والسهام لسلحهم وكل هذه الأمور تحتاج إلى مادة الخشب، ولا تصير إلى الصورة الخاصة بها إلا بالصناعة، والصناعة المتكفلة بذلك المحصلة لكل واحد من صورها هي النجارة على اختلاف رتبها،^(٣) وعرف صاحب هذه الحرفة بالنجار كما عرف النجر بأنه نحت الخشب،^(٤) كما يسمى إلى جانب النجار، النشار والخشاب.

جدًا يستعمل كمادة تسخين، وفي صناعة أدوات النجارة، يأخذ مع الوقت لونا جميلاً جدًّا يتراوح ما بين الأسمر والأسود، وقشرته مطلوبة جدا لدباغة الجلود.^(١١)



شجرة البلوط



لب شجرة البلوط

٢/٢- الصنوبر

تنمو معظم أشجار الصنوبر بسرعة كبيرة وتكون جذوعا طويلة ومستقيمة، وهو خشب صمغي له أنواع تميل إلى الأحمر، يسمح للفنان بالإبداع في زخرفة التحف، يستعمل في البناء والنحت.^(١٢) وتكثر أشجار الصنوبر في مدينة بونة،^(١٣) على الشريط الساحلي الممتد من القالة إلى بجاية،^(١٤) ومن مميزاته التعريق، ويقطع بصورة جيدة تسمح للفنان بالإبداع في زخرفته، ويستعمل في البناء والنجارة والنحت، وهو من أكثر الأنواع انتشارًا في الجزائر إلى جانب البلوط الأخضر.^(١٥)



شجرة الصنوبر

٣/٢- خشب الأرز

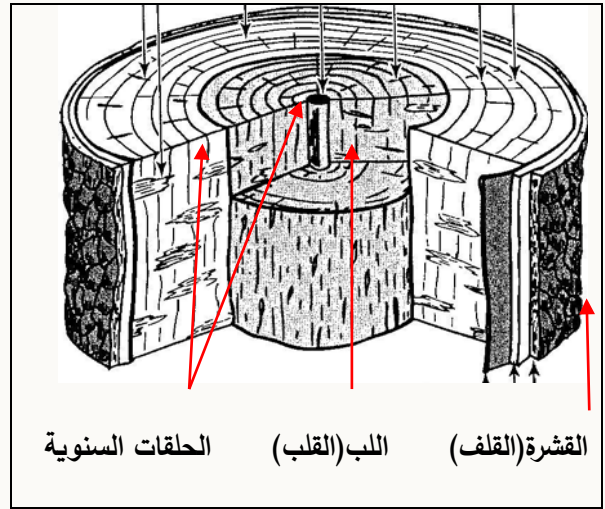
استخدمه الحرفيون بشكل كبير في تسقيف مبانيهم، وكان خشب الأرز مفضلاً في ذلك لمقاومته للتسوس،^(١٦) ويأتي في المرتبة الأولى من بين الأخشاب التي تزرع بها الجزائر، فهي أشجار قوية ذات لون أصفر، يتمركز في أعالي الجبال التي يزيد علوها عن ١٥٠٠م كجبال الونشريس، والبابور، والأوراس، والأطلس البليدي، وجرجرة. وثنية الحد، التي توجد بها أجمل غابة أرز تكون لنا

والأوراق، وعدد الحلقات هو الذي يحدد لنا عمر الشجرة حسب نوعها.

الأشعة النخاعية: هي تلك المستويات العمودية الواقعة بين مركز الشجرة وخارجها، تعمل على تحويل جزء من العصارة لداخل الشجرة أثناء نزولها، وهي الفترة التي يحبذ فيها قطع الشجرة.^(٧)

القلب (القشرة): هو الغطاء الخارجي للشجرة ويستعمل كمادة فلين.

الحلقات السنوية: تعمل الخارجية منها على تغذية الشجرة سنويا خلال نموها.^(٨)



مقطع لجذع شجرة

عن: الإدارة العامة لتصميم وتطوير المناهج

٢-أنواع الأخشاب المستعملة في الجزائر

١/٢-البلوط

هناك أنواع مختلفة ومتعددة من خشب البلوط، وأفضل أنواعه الذي ينمو في الجبل، ومن الأفضل تركه على لونه أثناء الحفر حيث يكون ذهبيا وبه تأثيرات تجازيع حسنة المنظر، ولا يعني ذلك أنه غير قابل للتلوين أو الصباغة ولكن حتى لا نسد مسام الخشب لجعله كالحجارة أو المعدن.^(٩) يتواجد في أغلب غابات الساحل، وضواحي مدينة قسنطينة، وهو يعتبر من أجمل الأشجار، وأكثرها استغلالاً لشدة الإقبال على استخدام خشبها، يصل قطرها إلى ٦م، وهو صلب جدًّا ويتميز بعروق منتظمة وثقيلة الوزن، ولكي يبقى متماسكًا من الأفضل تجفيف القطعة الخشبية معزل بعد غطسها في الماء، وهو جيد الاستعمال في النجارة الداخلية والخارجية لأنه يصقل بصورة جميلة.^(١٠)

أما البلوط الأخضر فنجدّه إما مستقلاً أو مختلطاً بالصنوبر الحلبي في جبال الونشريس والأطلس البليدي وقمم بني سليمان ومن مميزاته أنه سريع النمو في فترته الأولى، وهو خشب صلب

٥/٢- خشب العرعر

ينتمي إلى فصيلة الأشجار الصنوبرية على الرغم من عدم إفرازه لمادة الراتنج، يتميز بالنمو البطيء والجذع ذي العقد الكثيرة، مما جعل استخدامه مقتصرًا على المصنوعات ذات الحجم الصغير، يوجد في الهضاب العليا وينتهي عند جبال الظهرة بالجنوب.^(٢٢)



شجر العرعر



خشب العرعر

٦/٢- شجرة العفصية

يوجد في التل الوهراني والعاصمي، وهو يغطي مساحات معتبرة يوجد إما مستقلاً أو مختلطاً بأشجار الصنوبر الحلبي، وهو نادر الوجود بمقاطعة قسنطينة، سمعته في مجال الأعمال الفنية للنجارة كبيرة جداً واستعماله موغل في القدم فأستغل في صناعة الأثاث الرفيع وكان يشتري بأثمان باهضة.^(٢٣)



شجرة العفصية

٣- أماكن تواجد الخشب في الجزائر خلال العهد العثماني

يخضع توزيع الغابات في الجزائر وكثافتها لنفس الظروف المناخية التي تخضع لها الغابات في جميع أنحاء العالم، إذ تعتبر الغابة التعبير الحقيقي للمناخ، فالخريطة الغابية للجزائر تتطابق

حظيرة جميلة.^(١٧) وأستعمل في جل الأعمال الفنية الزخرفية لخصائصه المتمثلة في القوة والرسوخ والمتانة تجعله يتحمل التقلبات الجوية أكثر من غيره، كما أن شكله لا يحتوي على العقد والالتواءات، لا تتمكن منه الحشرات إلى جانب رائحته الزكية.^(١٨) كما أستخدم خشب الأرز في التدفئة وبناء السفن وصناعة الأثاث.^(١٩)



شجرة الأرز



مقطع في جذع شجر الأرز

٤/٢- خشب الجوز

يتميز بالصلابة وجمال أليافه، وهو أثنى الأخشاب وأصلحها في الحفر الدقيق لاندماج أليافه وتراكبها ومن الأفضل أن يترك خشب الجوز على طبيعته اللونية،^(٢٠) وأهم المناطق التي انتشر فيها هي مدينة مليانة ومدينة تبسة التي تحدث عنها الكثير من الرحالة الذين وصفوا غاباتها التي تغطي كل المنطقة، والثروة الكبيرة التي تتمتع بها لا سيما أشجار الجوز العالية.^(٢١)



شجرة الجوز



لب شجرة الجوز

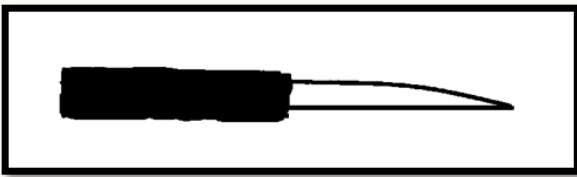
المطارق: تستعمل في دق المسامير لتلحيم فواصل الخشب، منها دائرية الرأس والمدمبة.



المسطرة: يستعملها النجار في قياس الأطوال والزوايا وتكون من الخشب أو المعدن



سكاكين الكشط والنحت: ينبغي أن تكون من أجود الفولاذ وأحده وأعتقه في الجودة، وتكون هذه السكاكين أحد ما تقدر عليه وأجود سقيا.^(٢٦)



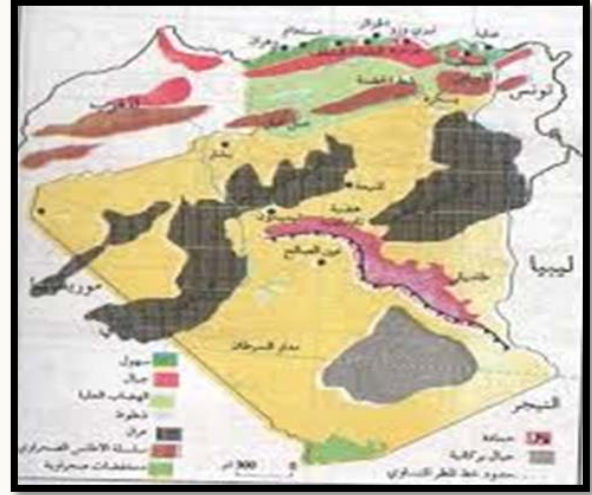
سكين للكشط

أدوات الزخرفة:

تمثلت في أداة المحك والرقامة، والأزاميل باختلاف رؤوسها.



تمامًا وخريطة معدلات تساقط الأمطار، لأن الماء يُعدّ عاملاً مهماً في نمو الغابات في الجزائر وتوزيعها عبر مناطق مختلفة في الساحل والتل، وفي الصحراء.



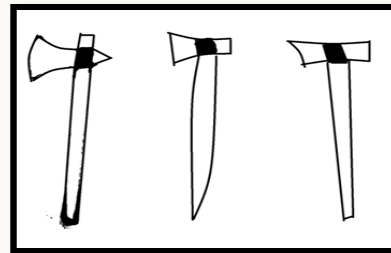
الخريطة الطبيعية للجزائر

وخلال العهد العثماني اتسمت الثروة الغابية بالشساعة وتركز تواجدها بالمناطق التلية والهضاب العليا ومرتفعات الأطلس الصحراوي، في حين تقلصت مساحتها أواخر العهد العثماني لاستغلال الأخشاب في إقامة المساكن، وصنع الأثاث والتدفئة، مما تطلب قطع واقتلاع عدد كبير من الأشجار، وإتلاف غابات نواحي بجاية وجيجل فشحت أخشابها إلى ترسانة السفن بالجزائر، بأمر من شيوخ القبائل المتعاونين مع الحكام الأتراك مقابل نيل الامتيازات وقد عرف هذا النوع من التعاون بين العائلات الإقطاعية ورجال البايك بنظام الكراسته.^(٢٤)

٤- أدوات الصناعة والزخرفة

اعتمد النشارون في حرفتهم على الطاقة العضلية، وعلى أدوات متعددة الأحجام والأشكال التي أستخدمت في قطع ونشر الخشب. ولا يخف أن لهذه الصناعة أدوات كثيرة لا يمكننا ذكرها جميعا ونذكر منها:

الفأس: ويقال لها الصاقور، وهي الفأس الكبيرة التي لها رأس واحد دقيق، والفأس الصغيرة تسمى القدوم، ونصابها خشبتها، وغرابها حدها.^(٢٥)



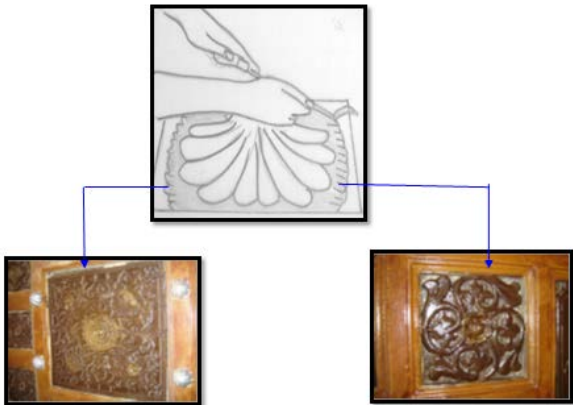
أنواع الفأس

العلام مباشرة، أو بالقرب منه تفاديا لاختفائه أثناء عملية النشر.^(٣١)

طريقة التمليس: إن الطريقة المتبعة في هذه العملية تتمثل في وضع القطعة فوق الدعامة على ارتفاع مناسب، ويشرع في تهيئة الأسطح الخشنة باستعمال المسحاج الكشط ذي السلاح المحذب، وللحصول على سطح مستو أملس يستخدم مسحاج التمليس أو المسحاج المزدوج الذي يقوم بنزع كشاطات رقيقة من جهة ويمنع تطاير شطايا الخشب من جهة أخرى، مع الانتباه دائما إلى اتجاه الألياف، وإذا تعلق الأمر بجذع شجرة مستديرة يجب إتباع المحور الطولي للجذع بعد تهذيب الأسطح الخارجية ويجب استعمال الزوايا القائمة أو العين المجردة لمراقبة سير العملية باتجاه صحيح.^(٣٢)

طريقة الحفر والحز:

ويتم الحفر على الخشب بواسطة أزامل مختلفة الأحجام والأشكال حيث يستخدم نحات الخشب أزملا منحرفا ذو حافة قاطعة مائلة لقطع مخطط الزخرفة المطلوبة لجعل السطح أملس، ويستخدم أزملا مقعرا ذو حافة قاطعة لقطع الخشب القريب من الحافة (ويقوم بتعميق الخطوط على الشكل الزخرفي، أما الجهة الخلفية فيمكن قطعها باستخدام ازميل مستقيم، وتنفذ الزخارف المحفورة بطريقة تسمح بحفظها وتماسكها، وذلك بترك أجزاء كافية تفصل بين العناصر المحفورة، فتصبح الزخارف محفورة والأرضيات تبقى بارزة، وهذا ما يطلق عليه الحفر ذي الزخارف الغائرة ويمكن الحصول على الزخارف المائلة بحفر الزخارف حفرًا مائلا تتقابل حوافها ببعضها البعض مشكلة زاوية منفرجة وحادة وهذا النوع يعتبر ابتكارا إسلاميا خالصا،^(٣٣) فأعطى ذلك لمحة جمالية في المصنوعات الخشبية وذلك بالحفر فيه،^(٣٤) فأقبل الفنانون المشتغلون بالحفر على الخشب في إنتاج التحف الدقيقة لا سيما المنابر والأبواب والكراسي،^(٣٥) وهو ما نجده على التحف التي تحتفظ بها المساجد والقصور بالجزائر خلال العهد العثماني.



زخارف نفذت بواسطة الحفر البارز بمنبر جامع الباي بعنابة (عن بن بلة خيرة)

ه- طريقة التصنيع

القطع: إن الفترة المناسبة لقطع الخشب هي بداية فصل الخريف في الفترة التي تسبق هبوب الرياح،^(٣٧) ويستعمل في قطع الأشجار البلطة والمنشار الذي يحمله شخص أو شخصان، وبعد القطع تلمق الشجرة إما في الموقع أو بعد نقلها.^(٣٨)



عملية التجفيف:

توجد طريقتان لتجفيف الخشب هما:

التجفيف الطبيعي: يتلخص في شق جذوع الأشجار إلى ألواح أو كتل متساوية العرض والسمك، بعد إزالة اللحاء الخارجي للشجرة بواسطة سكاكين القشط، وتوضع هذه الأخشاب معرضة للجو، وتترك مدة تتراوح بين ستة أشهر وعامين حسب نوع الخشب، فكلما كان الخشب صلبا احتاج إلى مدة أطول في عملية التجفيف، وذلك حتى يتعرض إلى كافة أنواع الظروف الجوية خلال السنة، وللتجفيف الطبيعي مميزات أهمها ضمان الحصول على أخشاب جيدة الجفاف خالية من المواد الغذائية التي تعرضها للأمراض، كما أنه لا يؤثر على اللون الطبيعي للخشب. أما عيوبه فهي البطء الشديد في عملية التجفيف، ويحتاج إلى مساحات واسعة لوضع الخشب وتعريضه للجو.

التجفيف الصناعي: وهو أسرع من الأول يجري على الأخشاب بعد شقها إلى ألواح داخل أحواض من الماء الجاري بسرعة حتى تتخلص هذه الأخشاب من المواد التي تعرضها للأمراض، لكن عيوبها أن سطح الخشب يصاب بالاحتراق والتفحم.^(٣٩)

٦- العمل في الورشة

القياس: تعد عملية القياس والعلام مرحلة ضرورية في جميع أشغال التجارة، وقد يتسبب عدم القياس في إفساد العمل، مع مراعاة المراجعة الدقيقة قبل الشروع في الخطوات الأخرى، وحين يهتم النجار في قياس الأطوال والزوايا يجب أن يقوم برسمها ثم يعلمها بطريقة واضحة على القطعة المراد تصنيعها بواسطة إحدى الأدوات المذكورة.^(٤٠)

النشر والقطع: بسبب تباين شكل الخشب ومقاسات حجمه الطبيعي صعوبة لعملية القطع، مع الأخذ بعين الاعتبار نوعية المادة التي تتميز باحتوائها على ألياف مما يستوجب احترام اتجاه العروق، وأثناء النشر لا بد من وضع سلاح المنشار فوق



حشوات نفذت بأسلوب الخرط بمنبر جامع سيدي لخضر
(عن بن بلة خيرة)

طريقة التجميع أو التعشيق:

وهي عبارة عن صناعة الأداة الخشبية من قطع صغيرة أو حشوات من الخشب^(٤٢) بواسطة ضلوع خشبية، وهي طريقة تستعمل للحصول على تركيب زخرفي يقوم على ضم مجموعة كبيرة من القطع ذات الأشكال الهندسية مع بعضها البعض،^(٤٣) ابتكره المسلمون في العصور الوسطى نتيجة عامل المناخ، وقلة الأخشاب الثمينة وندرتها أحياناً، ونظراً للرغبة في سرعة الإنجاز إبان عصر - ازدهار الحضارة في الجزائر، بحيث يصعب ترك الخشب للجفاف الوقت الكافي، فكانت طريقة الحشوات بما يترك معها من فراغات بين الجزيئات تساعد في التغلب على مشكلة المناخ، إضافة إلى استخدام الحشوات والفواصل كان يساعد على مزيد من الاقتصاد في أنواع الخشب الجيد والتمينة اللازمة للتحف والأثاث رفيع المستوى، كما أنه في نفس الوقت يعمل على الاستفادة من كل جزء من الخشب الثمين مهما صغر حجمه، ونرى ذلك في مواقع كثيرة وذلك بأقسام من الأسقف الخشبية وبداية الدرابزين والزوايا والأركان المعشقة.^(٤٤)

طريقة التخریم: ترتكز هذه العملية على قطع الخشب وتفرغ المساحات التي تفصل بين العناصر الزخرفية بواسطة منشار خاص وأزمل بطريقة يتم بها الحصول على زخارف مخرمة غير أن الفنانين الأتراك لم يفضلوا هذا النوع وهذا الأسلوب في الزخرفة بسبب ما ينتج عنه من كسور تحدث في التحف، وفي كثير من الأحيان إذا كان اتجاه ألياف الخشب معاكساً لاتجاه القطع، لذا يفضل استعمال هذا الأسلوب على مواد شديدة الصلابة.^(٤٥)

طريقة التلوين: وظهرت هذه الطريقة في بلاد الصين منذ ٣٠٠٠ سنة حين أستغل عصير شجرة السماق في استخراج مادة اللاكية، وكانت تدهن به الأثاث أو غيرها من التحف الخشبية، ميزتها أنها تجف بسرعة، لذلك يمكن دهن القطعة عدة مرات متتالية، فيصبح السطح ناعماً،^(٤٦) وهي عملية دهن الخشب بألوان متعددة المواضع الزخرفية المختلفة وغالباً ما نجدها في السطوح التي تزين الغرف،^(٤٧) أما الأداة المستعملة في الدهن

طريقة الثقب: يشرع في إحداث خطين متقاطعين لتحديد مركز الثقب بواسطة المخرز اليدوي ويتم اختيار قطر الثقب وفقاً لقطر المسمار الخاص به من جهة وصلابة الخشب من جهة أخرى، فالخشب الصلب يستلزم إحداث ثقب بقطر مساو لقطر المسمار، أما إذا كان الخشب ليناً فيقلل من قطر الثقب حتى يثبت جيداً، علماً أنه لكل نوع من الثقوب أداة مناسبة وذلك لتحاشي الضغط على الخشب الذي يتسبب في تفلقه.^(٣٦)

التجميع: وفيه طريقتين:

النقر واللسان: وهو التجميع الأكثر استعمالاً في تثبيت هياكل الأطر والمصنوعات، ولرسم النقر واللسان يستخدم مخط التجميع وهي أداة تحتوي على مسمار ثابت وآخر متحرك يسمح بعملية الضبط لكل أنواع المناقر، كما يمكن تنفيذ النقر على المنضدة باستعمال منقار يكون في حالة جيدة من الشحذ. أما اللسان فيجب أن يقطع من الزاوية الأمامية أولاً مع العودة من حين لآخر للزاوية الخلفية، مع اتجاه نحو الأسفل بطريقة عمودية حتى يتم الحصول على اتجاه غير منحرف منذ بداية النشر لأنه إذا كانت البداية خاطئة فمن الصعب تدارك الخطأ. وتتم هذه العملية عموماً برسم التعاشيق على الخشب بالزاوية والشنكار، يليها النشر والنقر، ثم التجميع بعد التعرية.

التوصيل بالمسامير: غالباً ما يتم تجميع القطع الخشبية باستعمال المسامير، ولنوع المسمار علاقة بالغرض المستعمل من أجله غير أنه يراعى عند العمل اختيار المسامير التي يكون طولها أقل من سمك الخشب، وللحصول على متانة التوصيل، يفضل ترتيب المسامير خلافاً في صفين أو أكثر مع مراعاة غوص رؤوسها، وفي حالة الوصلات قليلة السمك فطرق المسمار يكون مميل مناسب ليزيد من متانة التوصيل.^(٣٧)

طريقة الخرط:

وكان سبب ابتكارها أن الشجر قليل في أكثر البلاد الإسلامية، ونقل جذوعه الكبيرة على اليابسة بوسائل بدائية، ومحدودة على الماء كان أمراً في غاية الصعوبة، لأن الغابات ليست دائماً قريبة من مجاري الأنهار فكان على النجارين أن يتدبروا أمرهم بالكميات المقننة التي تأتاهم وبالقياسات التي بين أيديهم وعليهم أن يستغلوا قطع تلك المادة الثمينة مهما صغرت،^(٣٨) وهي طريقة استخدموها خاصة في عمل المشربيات أو الشبكيات والدرازين،^(٣٩) وهي تعتبر أهم الزخارف الخشبية، وقد صنعت بفضل الخراطين، وذكر ابن خلدون أن صناعة الخرط تتمثل في تهيئة قطع الخشب ليحكم بربها وتشكيلها، ثم تؤلف على نسب مقدرة وتلحم بالداستار، فتبدو لمراً العين ملتحم،^(٤٠) لكن عمل الخراطين يحتاج إلى إتمام صناعته من لدن النجارين الذين كانوا يلحمون المخروطات، ويضمونها إلى بعضها حتى تتحول إلى شبائيك، وساهمت أعمالهما في تزويد البنائين بالمشربيات بعد دهنها، وإنهاء الأشغال عليها فيتم تركيبها من طرف البنائين.^(٤١)



مدخل بيت الصلاة جامع الباشا (عن بن بلة خيرة)



مدخل رئيس الجامع الجديد (عن بن بلة خيرة)

المنابر



منبر الجامع الجديد



جامع سوق الغزل

فهي الفرشاة، يصنعها الفنان بنفسه والألوان المستعملة هي الأصفر، الأحمر، الأسمر، الأسود.



طريقة التلوين على منبر جامع الباشا بوهرا

(عن بن بلة خيرة)

المواد اللاصقة: تمثلت في مادة الصمغ الطبيعية التي يستعين بها النجار في لصق منتجاته، وهي تتكون من مواد طبيعية متوفرة كالجن الذي يمزج مع القليل من الماء، ويوضع في هاون ويقوم الصانع بعملية الدق حتى يخرج كل الحليب الرائب منه، بعدها يضيف قليلا من الكلس الرقيق ثم يدق هذا الخليط جيدا، بعد إتمام هذه العملية يأخذ هذا الخليط فتدهن به اللوحات الخشبية المراد إلصاقها، ثم تتم العملية بخفة كبيرة وبسرعة فائقة كي لا يجف الخليط، ويمتاز هذا الصمغ الطبيعي بالصلابة الشديدة، وصموده للتأثيرات الخارجية حتى أن الماء لا يمكن من ابتلاله.^(٤٨)

٧- نماذج من المصنوعات الخشبية

لقد تنوعت التحف الخشبية في الجزائر وعرفت تطورا ملحوظا بعد مجيء العثمانيين إلى الجزائر، فأدخلوا عليها تأثيرات متنوعة مستمدة من بيئتهم الأصلية بالإضافة إلى تمازجها مع الصناعة المحلية الجزائرية فأعطت نماذج في غاية الدقة والجمال تعبر عن تطور هذه الصناعة في ذلك العصر. وما أبدعته يد النجارين، فتنوعت المنتجات طاولات وموائد صغيرة وخزائن جدارية ورفوف، وصناديق كبيرة وصغيرة مطعمة بالعاج وكراسي وأواني للأكل، والأبواب والنوافذ المزدانة بالمشربيات والمنابر الخشبية.

الأبواب



مدخل بيت الصلاة بجامع سيدي الكتاني (عن بن بلة خيرة)

الصناديق



الطاولات



الطوايع



الرفوف



جامع الباي بعنابة
النوافذ



نافذة بالجامع الجديد

الدكات



دكة المبلغ جامع الباشا



دكة المبلغ جامع صفر



دكة المبلغ جامع سيدي الكتاني
الدكات

خاتمة

أعطى التواجد العثماني للجزائر ذوقاً رفيعاً في شكل المنتجات الخشبية والاهتمام بتطوير الكماليات، إلى جانب العناصر المعمارية، وذلك يرجع إلى توفر المواد الأولية واستغلالها من طرف الحكام في صنع الأثاث والأساطيل البحرية، فزادتها قوة عسكرية إلى جانب قوتها الاقتصادية. واستمدت طرائق صنعها ومواصفاتها من تقاليد الماضي، ومزجها بثقافات متنوعة، فزاجت بين التأثير المحلي، والشرقي والأندلسي- والأوروبي، من خراط ونقش وصبغ، والتلوين، الذين تحكموا في تقنيات استخلاصه من النباتات. فتخصصت كل مدينة بإنتاج نوع من الأثاث كقسنطينة التي اشتهرت بالزخرفة المسماة، وبلاذ القبائل التي اشتهرت بصنع طوابع الخبز الدائرية. وتنوعت المنتجات منها الكبيرة والصغيرة ذات الاستخدام المنزلي أو المعماري وتفنن الحرفيون في تجميلها وتزيينها.

الهوامش:

- (١) نعمان أبو بكر، "الخشب"، الفن العربي الإسلامي، ج ٣، المنظمة العربية للثقافة والعلوم، تونس، ١٩٩٧، ص ٣١٦.
- (٢) ابن خلدون عبد الرحمان، مقدمة العلامة ابن خلدون، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، لبنان، د.ت، ص ٤٤٤.
- (٣) الألوسي البغدادي السيد محمود شكري، بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، شرحه وضبطه وصححه محمد بهجة الأثري، ج ٣، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت، ص ٣٩٥.
- (٤) الخلافي عبد اللطيف، الحرف والصنائع وأدوارها الاقتصادية والاجتماعية بمدينة فاس خلال العصرين المريني والوطاسي، أطروحة لنيل دكتوراه وطنية في التاريخ، جامعة سيدي محمد بن عبد الله، فاس، ٢٠٠٨/٢٠٠٧، ص ١٥٧.
- (٥) ديفل سميحة، الصناعات التطبيقية الحمادية من خلال مجموعة المتاحف الوطنية سيرا - سطيف - القلعة، مذكرة تخرج لنيل شهادة الماجستير في الآثار الإسلامية، إشراف الأستاذ الدكتور: بن قربة صالح يوسف، جامعة الجزائر، ٢٠٠٩، ص ٣٦.
- (٦) ابن منظور أبو الفضل جمال الدين بن مكرم، لسان العرب، مج ٢، دار المعارف، القاهرة، د.ت، ص ٨٣٢.
- (٧) بن بلة علي، "لمحات عن الخشب واستعمالاته عبر العصور"، دراسات تراثية، مجلة علمية سنوية محكمة تعنى بنشر الدراسات والأبحاث في التاريخ والآثار والفنون، يصدرها مخبر البناء الحضري للمغرب الأوسط، جامعة الجزائر ٢، مطبعة دار هومة، بوزريعة، الجزائر، العدد ٤، ص ٣٣٨-٣٣٩.
- (٨) نفسه، ص ٣٤٠.
- (٩) الزبيدي مانع خلود، موسوعة الديكور وفنون الخشب واستعمالاته، دار دجلة، عمان، المملكة الأردنية الهاشمية، ط ١، ٢٠٠٧، ص ٣٣.
- (١٠) بن بلة خيرة، المنشآت الدينية بالجزائر خلال العهد العثماني، رسالة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه في الآثار الإسلامية، إشراف الأستاذ الدكتور لعرج عبد العزيز، معهد الآثار، جامعة الجزائر، ٢٠٠٧/٢٠٠٨، ص ٣٥٢.
- (١١) نفسه، ص ٣٥٢.
- (١٢) ديفل سميحة، المرجع السابق، ص ٣٦.
- (١٣) البكري أبو عبيد الله، المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، وهو جزء من المسالك والممالك، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، د.ت، ص ٨٣.

- (١٤) راجعي زكية، مساكن الفحص بمدينة الجزائر في العهد العثماني، دراسة أثرية وفنية معمارية، رسالة لنيل درجة دكتوراه دولة في الآثار الإسلامية، إشراف أ.د: لعرج عبد العزيز، معهد الآثار، جامعة الجزائر، ٢٠٠٧، ص ٢١٨.
- (١٥) بن بلة خيرة، المرجع السابق، ص ٣٨٧.
- (١٦) الخلافي عبد اللطيف، المرجع السابق، ص ٢٣٣.
- (١٧) بن بلة خيرة، المرجع السابق، ص ٣٥٣.
- (١٨) البستاني أحمد فرام، "شجرة الأرز"، دائرة المعارف، مج ٩، بيروت، ١٩٦٢، ص ٣٧٢.
- (١٩) راجعي زكية، المرجع السابق، ص ٢١٨.
- (٢٠) الزبيدي مانع خلود، والمرجع السابق، ص ٣١.
- (٢١) طيان شريفة، الفنون التطبيقية الجزائرية في العهد العثماني، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه في الآثار الإسلامية، ج ١، إشراف: أ.د. بن قربة صالح يوسف، معهد الآثار، جامعة الجزائر ٢٠٠٧/٢٠٠٨، ص ١٤٤.
- (٢٢) بن بلة خيرة، المرجع السابق، ص ٣٥.
- (٢٣) نفسه، ص ٣٥٣.
- (٢٤) نفسه، ص ٣٥١-٣٥٢.
- (٢٥) الألوسي البغدادي السيد محمود شكري، المصدر السابق، ص ٣٩٨-٣٩٩.
- (٢٦) التميمي الصنهاجي المعز بن باديس، عمدة الكتاب وعدة ذوي الألباب، حققه وقدم له نجيب مايل الهروي، عصام مكية، مجمع البحوث الإسلامية، مشهد، إيران، ط ١، ١٤٠٩هـ، ص ٣٠-٣١.
- (٢٧) ديفل سميحة، المرجع السابق، ص ٣٧.
- (٢٨) وارنر هيرت، أشغال التجارة العامة، الأسس التكنولوجية، ترجمة المهندس عبد المنعم عاكف، دار الأهرام، دار النشر الشعبية للتأليف، ١٩٧٠، ص ١١.
- (٢٩) نعمان أبو بكر، المرجع السابق، ص ٣٢١-٣٢٢.
- (٣٠) بن بلة خيرة، المرجع السابق، ص ٣٥٤.
- (٣١) نفسه، ص ٣٥٤.
- (٣٢) نفسه، ص ٣٥٤-٣٥٥.
- (٣٣) ديجاند م.س، الفنون الإسلامية، دائرة المعارف، ١٩٥٨، ص ١٥٧.
- (34) Golvin (L), L'architecture Religieuse Muslumane, Tom4, 1979, P234.
- (٣٥) الحسيني حسن العباس، دستور المهن في الإسلام، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٠، ص ٣٨٧.
- (٣٦) بن بلة خيرة، المرجع السابق، ص ٣٥٥.
- (٣٧) نفسه، ص ٣٥٦.
- (٣٨) بن بلة علي، المرجع السابق، ص ٣٤٨-٣٤٩.
- المشريات: وهي الحواجز التي توضع على النوافذ، تسمح للنساء المشاهدة بما يجري في الخارج دون أن تتعرض لنظرات الفضوليين.
- (٣٩) الباشا حسن، مدخل إلى الآثار الإسلامية، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٩٠، ص ٢٧٧.
- (٤٠) ابن خلدون عبد الرحمان، المصدر السابق، ٢٠٠٦، ص ٤٤٤.
- (٤١) الخلافي عبد اللطيف، المرجع السابق، ص ١٦٩.
- (٤٢) الباشا حسن، المرجع السابق، ص ٢٧٦-٢٧٧.
- (٤٣) نعمان أبو بكر، المرجع السابق، ص ٣٣٠.
- (٤٤) عثمان عثمان إسماعيل، تاريخ العمارة الإسلامية والفنون التطبيقية في المغرب الأقصى، عصر دولة المرابطين، ج ٤، دار المعارف الجديدة، الرباط، ط ١، ١٩٩٣، ص ٣١٣.
- (٤٥) بن بلة خيرة، المرجع السابق، ص ٣٥٩.
- (٤٦) راجعي زكية، المرجع السابق، ص ٢٢٢.
- (٤٧) غالب عبد الرحيم، المرجع السابق، ص ١٠١.
- (٤٨) طيان شريفة، المرجع السابق، ص ١٥٠. أ، ب، ج، د بن بلة خيرة، ملحق. هـ، و، ز، ح طيان شريفة ج ٢.

اقتصاد الوساطة في مغارب العصر الوسيط

مساهمة في تفكيك المنظومة الاقتصادية للغرب الإسلامي خلال العصرين المرابطي والموحدي أواخر القرن الرابع الهجري وبداية القرن السادس الهجري

د. عبد الرزاق السعيد

أستاذ التعليم الثانوي التأهيلي

مدير مركز الدراسات والأبحاث - تافيلالت

المملكة المغربية



ملخص

إن التجارة البعيدة المدى كانت لها يد طويلة في الصراعات السياسية وظهور أي كيان سياسي، وبالتالي فهو محكوم بمنطق اقتصادي تجاري، بل الأكثر من ذلك أن متانته - الكيان السياسي - وطول تعميره على امتداد المجال المغربي يقتزن بمدى حرصه وحفاظه على جريان مسالك التجارة في ظروف عادية وآمنة، كجزء من مشروع اقتصادي متكامل للمجال الإسلامي، في إطار منافسته وصراعه مع القوى الأخرى "الأوربية" الفاعلة في العلاقات الدولية، كما أن تحويل تلك الطرق التجارية الممتدة في هذا المجال قد يكون من أهم العوامل المؤدية لإسقاطها وإجهادها عليها. ويظهر أن التجارة البعيدة المدى كان لها إسهاماً واضحاً في بنية المجال المغربي اقتصادياً، حتى أنه أصبح بإمكاننا الحديث عن نمط اقتصادي آخر مبني على اقتصاد وتجارة الوساطة، كان له دور أساسي وحاسم في كل الصراعات والنزاعات التي دارت رحاها على امتداد المجال المغربي، والأكثر من ذلك فقد كان لهذا النمط الاقتصادي دور كبير في دخول هذا المجال برمته في التاريخ الحديث. ليس جديداً الحديث عن هذا النوع من الاقتصاد (اقتصاد وتجارة الوساطة) الذي ساد المجال المغربي تحديداً خلال فترته الوسيطة، وحتى بداية تاريخه الحديث. ولا نريد الحديث عن إيجابيات هذا النمط التجاري الاقتصادي في بناء وقوة الدول التي تعاقبت على حكم هذا المجال، وذلك دُرءً للتكرار واجترار المعطيات التي دافع عنها العديد من الدارسين، بل الجديد قد يتمثل في محاولتنا توضيح مجموعة من الجوانب ضمن هذا الاقتصاد ومساهمته في إنكفاء الصراع بالمجال المدروس وفشله في تحقيق التراكم المادي المنشود. يتضح أن قوة المجال المغربي على المستوى الاقتصادي طيلة العصر الوسيط، جاءت من المكانة التي يحتلها في الشبكة التجارية العالمية وازدهاره وإشاعته ناتج عن دوره التجاري في إطار ما أسميناه باقتصاد وتجارة الوساطة أكثر مما نتج عن ارتفاع مستوى الإنتاج الفلاحي أو حتى الحرفي. والأرباح التي تجنى من تجارة العبور تسمح "لأرستقراطية" بعدم الاهتمام بتلك القطاعات إلا بما يخدم النمط الاقتصادي السائد وبالتالي خدمة السلطة المركزية، ومن أجل ذلك فقد عملت الدولة الموحدية على إدخال تغييرات جذرية على العملة والنقد عمومًا.

كلمات مفتاحية:

الغرب الإسلامي، العصر الوسيط، تجارة الوساطة، الدولة المرابطية، الدولة الموحدية

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث: ١٥ نوفمبر ٢٠١٥
تاريخ قبول النشر: ٢٠ فبراير ٢٠١٦

DOI 10.12816/0052948

معرّف الوثيقة الرقمي:

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

عبد الرزاق السعيد، "اقتصاد الوساطة في مغارب العصر الوسيط: مساهمة في تفكيك المنظومة الاقتصادية للغرب الإسلامي خلال العصرين المرابطي والموحدي أواخر القرن الرابع الهجري وبداية القرن السادس الهجري"، دورية كان التاريخية، السنة الحادية عشرة - العدد الأربعون، يونيو ٢٠١٨، ص ٤٩ - ٥٧.

مقدمة

لها دور هام في الصراعات السياسية وظهور أي كيان سياسي، وبالتالي فهو محكوم بمنطق اقتصادي تجاري، بل الأكثر من ذلك أن متانته - الكيان السياسي - وطول تعميره على امتداد الغرب الإسلامي، يقتزن بمدى حرصه وحفاظه على جريان مسالك التجارة في ظروف عادية وآمنة، كجزء من مشروع اقتصادي

يتضح أن أهم الإشكالات التي يطرحها الباحث والدارس لتاريخ الدول المغربية خلال التاريخ الوسيط، هي الإشكالية الاقتصادية وما يرتبط بها من التجارة البعيدة المدى التي كانت

عن البيان في كل الأعمال التي تناولت الموضوع (التأليف الأجنبي أو المحلي)؟

وضعية الأرض وأساليب الإنتاج الفلاحي والحرفي

يُظهر التعامل مع الأرض في الغرب الإسلامي، أن الدول التي سادت الفترة الوسيطة بشكل خاص، وحتى بداية التاريخ الحديث، لم تخرج بحكم طبيعتها عن سياسة تنظيم وضعية الأرض وإعادة ترتيب المجال بالشكل الذي يسير قوتها ويعبر عن سلطة الدولة ومطامحها. ويتضح من خلال بعض المصادر التاريخية^(٥) أنه منذ دخول الإسلام إلى هذا المجال، واجه عند بعض المزارعين المستقرين في السلاسل الجبلية المقاومة نفسها التي قد واجهها من سبقهم، ولذلك في اعتقادنا اكتفوا بالإحاطة بهذه المناطق وبتشبيد المدن الجديدة في السهول، وخاصة عند المحاور الأساسية لتجارة العبور^(٦)، على اعتبار عدم مقدرتها أن تزدهر وتستمر إذا لم تعتمد على التجارة البعيدة المدى، والتي كان من الصعب اقتطاعها من المزارعين، اللهم عن طريق الغزو والمصادرة^(٧) في بعض الأحيان.

وبناءً عليه، فإن جهود الدول الوسيطة عمومًا والتي سادت الغرب الإسلامي في تنمية الزراعة كانت تتسم بالضعف، بسبب الصراعات والنزاعات الشبه دائمة، بل وعدم الاكتراث في كثير من الأحيان لأنهم وجهوا اهتمامهم بشكل كبير للضرائب وكيفية جبايتها، ولذلك لم يجر تطوير وسائل الإنتاج في مجال الزراعة، والأكثر من ذلك فكل التنظيمات السابقة لم يتأتى لها تحقيق مشروعها السياسي، إلا بالسيطرة على طرق التجارة البعيدة المدى، وليس صدفة أن تولد الدولة الفاطمية بالاستيلاء على مدينة تاهرت ومدينة سجلماسة التي كاد المهدي عبيد الله أن يؤسر فيها، ولعل هذا الحادث يؤكد بالفعل تركيز الدولة الفاطمية على المراكز الرئيسة لتجارة القوافل^(٨).

ونجد الوضع ماثلاً عند الدولة المرابطية (ق ٤-٥٥ / ١٠م) والدولة الموحدية (ق ٥-٦ / ١١-١٢م)، وحتى الدولة المرينية (ق ٦-١٢ / ١٢-١٣م) فيما بعد، فقبل الانطلاق نحو الغرب الإسلامي والأندلس، كانوا يركزون قوتهم في إفريقيا جنوب الصحراء، وذلك بمحاولتهم الاستيلاء على "أوداغشت" بل والتوسع نحو غانا مراقبين بذلك قسماً كبيراً من تجارة الذهب ومحاورها الأساسية^(٩)، ولقد ورد عند الإدريسي^(١٠) هذا الدور الاقتصادي المبني على الوساطة التجارية أساساً من خلال ما ذكره حول مجموعة من مدن الغرب الإسلامي، كمدينة سلا في المغرب الأقصى- والتي عرفت بتجارها الهامة وأسواقها النافقة، كما تحدث عن ميزة مدينة سبته في إنتاج وتصنيع مادة المرجان البالغ الجودة لعرضه على التجار المتوجهون نحو أوروبا فيقول: "يصاد بها شجر المرجان المستخرج بجميع أقطار البحار، وبها سوق لتفصيله وحكمه وصنعه..."^(١١)

والأكثر من ذلك يصف الإدريسي النشاط الاقتصادي في مراكز الغرب الإسلامي الأخرى ويحاول مقارنتها بالمناطق التي سبق ذكرها، فلمسان مثلاً التي ينعته "بقفل بلاد المغرب" تأتي في المرتبة الثالثة بعد مدينة أغمات ومدينة فاس في الغنى وفي

متكامل للمجال الإسلامي، في إطار منافسته وصراعه مع القوى الأخرى "الأوربية" الفاعلة في الغرب الإسلامي والمجال المتوسطي عامة، كما أن تحويل تلك الطرق التجارية الممتدة في هذا المجال قد يكون من أهم العوامل المؤدية لإسقاطها والإجهاد عليها^(١٢). ولعل التناقضات المرتبطة بالنمط الاقتصادي السائد بالمجال المغاربي طيلة التاريخ الوسيط، قد أثرت بشكل مباشر على الحياة الاجتماعية والسياسية، بل والتشويش عليها وجعلها غير معقولة، لأنها تستجيب لمتطلبات المركز الأساسي في العلاقات الدولية (الخلافة الإسلامية بالمشرق)^(١٣)، فضمن الكيان السياسي الواحد توجد كيانات سياسية مختلفة ومتناقضة معه بشكل جذري، ونحن في غنى عن الإسهاب في الدخول في تفاصيلها من المغرب الأقصى حتى حدود الدولة المرابطية، ثم المغرب الأوسط مع بنو عبد الواد، وصولاً إلى المغرب الأدنى مع الفاطميون والنتيجة هي انعدام استقرار سياسي كبير، تمثل في قيام عشر- أسر في ظرف عشرة قرون في المغرب الأوسط، وتوسع في المغرب الأقصى- وست في إفريقيا.

ويظهر أن التجارة البعيدة المدى كان لها إسهاماً واضحاً في بنية الغرب الإسلامي اقتصادياً، حتى أنه أصبح بإمكاننا الحديث عن نمط اقتصادي آخر مبني على اقتصاد وتجارة الوساطة، كان له دور أساسي وحاسم في كل الصراعات والنزاعات التي دارت رحاها على امتداد الغرب الإسلامي^(١٤)، والأكثر من ذلك فقد كان لهذا النمط الاقتصادي دور كبير في دخول هذا المجال برمته في التاريخ الحديث.

اقتصاد وتجارة الوساطة

ليس جديداً الحديث عن هذا النوع من الاقتصاد الذي ساد الغرب الإسلامي تحديداً خلال فترته الوسيطة، وحتى بداية تاريخه الحديث. ولا نريد الحديث عن إيجابيات هذا النمط الاقتصادي في بناء وقوة الدول التي تعاقبت على حكم هذا المجال، وذلك تجاوزاً للتكرار واجترار المعطيات التي دافع عنها العديد من الدارسين^(١٥)، بل الجديد قد يتمثل في محاولتنا توضيح مجموعة من الجوانب ضمن هذا الاقتصاد ومساهمته في إذكاء الصراع بالمجال المدروس وفشله في تحقيق التراكم المادي المنشود، ونجملها فيما يلي:

- هل بإمكاننا في ضوء المعطيات المتوفرة، أن نطلق تسمية نمط اقتصادي (أي أن الاقتصاد المغاربي برمته خلال هذه الفترة قائم على التجارة البعيدة المدى)، وما يرافق ذلك بما يسمى "باقتصاد وتجارة الوساطة"، وهو النمط الذي تم ترسيخه بهذا المجال في إطار تقسيم العمل كما تم التخطيط له في مركز الخلافة الإسلامية (الخلافة الأموية ٤١-١٣٢هـ / ٦٦٢-٧٥٠م، أو الدولة العباسية ٧٥٠م / إلى ١٥١٧م)، كفاعل أساسي في العلاقات الدولية؟

- إلى أي حد ساهم هذا الشكل الاقتصادي التجاري (اقتصاد الوساطة)^(١٦) في إدخال هذا المجال إلى الفترة الحديثة، في حالة من الضعف والوهن لصالح العالم الأوربي، كما هو غني

ومنطقة الشمال بداية من مدينة مراكش عاصمة الدولة المرابطية، وبالتالي تمثل منطقتهم نقطة حيوية للدولة، فهي معبر القوافل الآتية من الصحراء والذاهبة صوب البحر والمحيط الأطلسي- بمعنى أن كل "الفجاج" والممرات الجغرافية التي تعبرها القوافل تسيطر عليها قبائل مصمودة، وهذا يعني أن هذه القبائل كانت تنظر إلى المرابطين على أنهم المستفيدون وحدهم، وما دور المصامدة إلا دور الحرس الذي يحمي الخيرات ويقدمها لخصمه^(١٧).

ولعل ربط المضمون الاجتماعي للتنظيم التومرتي لأنصار الدعوة بالظروف الدولية والاقتصادية يفسر- انتفاضة القبائل المصمودية المناصرة لثورة ابن تومرت. وعلى الرغم من أن الموحدون قد أدخلوا إلى منطقة الغرب الإسلامي خلال منتصف السادس الهجري/ الثاني عشر- الميلادي، نظامًا نقدياً جديدة مخالفة للنظم والتقاليد السابقة تعكس تواجدهم كطرف أساسي في الصراع الدولي القائم حول منطقة البحر الأبيض المتوسط، فإلى جانب ابتداعهم للشكل الهندسي المتميز، أي المربع الذي كان يتوسط محيط الدينار، وكتابتهم النقدية المنقوشة بالخط النسخي بدل الخط الكوفي السائد، ابتدع الموحدون كذلك أوزاناً نقدية مخالفة للأوزان التي شهدتها المجال المغاربي برمته خلال العصر الوسيط كما أشار إلى ذلك أحد الدارسين.^(١٨)

تشجيع النشاط الحربي المغاربي في سياق الوساطة الاقتصادية

يظهر أن التطور الذي شهده القرن (٦هـ/ ١٢م) عمومًا في الميدان - الحربي-، جاء نتيجة لكثرة الطلب على المواد الاستهلاكية والحاجة إلى المعدات والأدوات الحربية لتمطيط المجال الجغرافي للدولة، واتساع مجال البناء المعماري، فبعد نجاح الثورة الموحدية حرص الخلفاء الأوائل على حماية الصانع ومن ذلك نجد حركة الخليفة أبي يعقوب إلى بلاد السوس لحماية المعادن، حيث استعد لتحصينه غاية الاستعداد، فبنى عليه الأسوار وأسكنه بالأجناد^(١٩). كما أن الخليفة عبد المؤمن قد نهى المصامدة عن قتل العامة في مراكش ساعة فتحها، لأنهم الصانع الذين ينتفع بهم، بالإضافة إلى أنه "أعمل السيف في مكانة تأديبًا وعقابًا لما قتل أهلها الفحامين في جبلهم"^(٢٠). وقد أسقط جميع القبلات على الصناعات فسار خلفاءه على نهجه، حيث اهتم السلطان يوسف بن عبد المؤمن (١١٦٣م/ ١١٨٤م) اهتمامًا كبيرًا بعمليات التعدين وأخذ الخمس على إنتاج المعادن.

هذا ومن الراجح أن الخلفاء عينوا قضاة في مراكز التعدين ليؤكدوا على تحصيل حقهم في المعادن^(٢١). وفي هذا الصدد بنى الخليفة يوسف حصنًا على مقربة من مكان التعدين في زجندر من السوس لسكنى الصانع^(٢٢). هكذا إذن انتشرت الحرف في جل مدن الغرب الإسلامي، بل قد بلغت بعض المدن أوجها في هذا النشاط أيام الموحدين^(٢٣)، كفاس التي أحصيت بها دور الحرف زمن يعقوب المنصور، فكانت بها اثنا عشر- مصنعًا للمعادن وثلاثة آلاف وأربعة وتسعين نولًا للنسيج، وسبع وأربعين معمل

الأسعار والتجارة المربحة، كما يؤكد أن مدن وهران والمسيلى وتاهرت بالمغرب الأوسط مشهورة في المواد الفلاحية، كالقمح والشعير والقطن والأغنام والأبقار، لكنه يقف بشيء من التفصيل عند أهمية مدينة بجاية مركز بلاد بني حماد، ليؤكد أنها نشطة في استقطاب القوافل والبضائع المختلفة برًا وبحرًا، وتميزت باحتضانها للعديد من الصناعات، والأكثر من ذلك يعتبرها قطب العلاقات التجارية إذ يلتقي فيها "تجار المغرب الأقصى- وتجار الصحراء وتجار المشرق، وبها تحل الشدود وتباع البضائع بالأموال المقنطرة.."^(٢٤) أما مدن قفصة وقابس والمهدية فمراكز نشطة حسب الإدريسي- في المواد الفلاحية التجارية بالدرجة الأولى كالجلود والزيتون والقطن..^(٢٥)، ويضيف أن المهدية قاعدة بلاد إفريقية كانت قبل عصره مركزًا تحج إليه السفن الحجازية من المشرق والمغرب وبلاد الروم، وبالنسبة لمدينة طرابلس يذكر الإدريسي أنها كانت تنتج التين والنخل وغيرها.

ويظهر إذن أن الإنتاج الحربي في الغرب الإسلامي كان مزدهرًا في المراكز الحضارية التي تطرقنا لها من قبل، إلا أن هذا الإنتاج في معظمه كان موجهًا لخدمة الطبقة الميسورة والحاكمة، واستجابة لتجارة العبور، وبشكل عرضي في خدمة زعماء القبائل القوية المنضوية في خدمة الدولة المركزية، والتي هي بدورها في خدمة المركز الأساسي (دار الخلافة بالمشرق - الدولة الأموية والعباسية فيما بعد)، بشكل مباشر أو غير مباشر. وفي هذا الصدد، يميز ابن خلدون بين نوعين من الإنتاج الحربي "سكافة تنتج المواد الضرورية التي نجدها في كل متمدن حضري (كالخياطة والحدادة والنجارة وأمثالها)، وسكافة تنتج مواد للترف، وهي لا يمكن أن تسود إلا في الحواضر الرئيسة"^(٢٦)، ويرتبط نمو هذه السكافة بنمو الدولة ولا يتأتى ذلك إلا بسيطرتها على أكبر مجال من المحاور الطرقية، والعكس صحيح في حالة تراجع الدولة وانهارها، ".. حيث يتراجع عمرانها شيئًا فشيئًا إلى أن يندثر (يتفرق) ساكنها وتخرّب، كما وقع بمصر- وبغداد والكوفة بالمشرق، والقبروان والمهدية وقلعة بني حماد بالمغرب وأمثالها فتفهمه"^(٢٧).

الإطار الاقتصادي للمشروع المغاربي الموحد وعلاقته بالوساطة التجارية

إن المهتم بالمجال الاقتصادي والتجاري خلال العصر الوسيط وارتباطًا بموضوعنا يلاحظ غلبة التحول والتغير والرصد غير الكافي والمعلومات الهزيلة والأخبار الشحيحة والمبعثرة في بعض المصادر التاريخية، وبناءً على ذلك فهذا المحور سيتناول الحالة الاقتصادية للدولة الموحدية، وهو محاولة في إظهار العلاقة التي تربط بين الجغرافية والاقتصاد والمشروع السياسي والاجتماعي لهذا الكيان. وحسبنا في ذلك أن حركة المهدي بن تومرت قد نشأت في منظومة "قبيلة جبلية" وقد صدق أحد الدارسين^(٢٨) عندما ذهب إلى أن تركيبها الاقتصادية تنتمي لنظام تعايشي بين الاستقرار والارتحال المحدود وفي تجمعات بشرية محدودة، تكاد تكون حرسًا لحركة الاتصال التجاري بين جنوب الأطلس الكبير

وبعضها يتعلق بالظروف الدولية التي تكونت فيها السلطة المرابطية، وبسطت نفوذها على المنطقة الممتدة من شمال نهر السينغال جنوباً إلى غرب الجزائر شرقاً وإلى الأندلس شمالاً.

لكن مجيء الموحدين وحتى قبل استتباب أقدامهم في السلطة وإتمام سيطرتهم على الغرب الإسلامي، أخبرتنا المصادر التاريخية بنصوص وإحصائيات عن وجود قوة بحرية موحدية مبكرة^(٣٣)، ففي عهد الخليفة عبد المؤمن ومباشرة بعد دخول مراكش نجده يتخذ قراراتين مهمين في هذا الاتجاه حسب الأستاذ محمد حجاج الطويل: (٣٤) أولهما إحداث قوة بحرية موحدية بإصدار أوامر بإنشاء المراكب والسفن، وتكوين الأساطيل البحرية، ويهتم الثاني بتكوين البحارة والأطر العسكرية والإدارية اللازمة لهذه القوة تحت الإشراف المباشر للخليفة. لتكتمل هذه القوة الناشئة في عهد ابنه يوسف وحفيده يعقوب المنصور. ويبدو إذن أن تلك القوة البحرية الموحدية المفاجئة هي أصل الإشكالية وجوهرها.

لماذا لم تتكون للمغارب قوة بحرية قبل الموحدين وبعدهم؟ مع العلم أن الظروف الطبيعية والبشرية لم يتغير بشكل جذري، اللهم على مستوى المجال الجغرافي والمتمثل في الامتداد نحو الشرق. ولناخذ بعين الاعتبار أن المرابطين أخضعوا لسلطتهم مناطق جغرافية متنوعة النشاط ومنها مناطق معروفة بنشاطها البحري مثل مراكز في ساحل البحر الرومي، مليبية، سبتة، ومراكز في ساحل المحيط مثل "طنجة- أصيلة" وغيرهما^(٣٥)، بل ومناطق غنية بالأخشاب الصالحة لإنشاء المراكب إلى غير ذلك من المراكز المناطق التي كانت لها تقاليد بحرية ولم يتم استغلالها بشكل أكثر فاعلية. ومن الغريب جداً أن المرابطين لم يقوموا بأية محاولة في اتجاه تكوين قوة بحرية، بل الاعتماد كان بشكل كلي على البحرية الأندلسية كما تخبرنا النصوص التاريخية المتاحة حتى الآن.^(٣٦)

وعلى كل حال فقد كانت حصيلة الدولة الموحدية كبيرة من مختلف مراسي المغرب وكذا الأندلس، وأبلغ دليل على ذلك ما ذكره الناصري^(٣٧) نقلاً عن مصادر أخرى لم يذكرها، أن السلطان تاشفين ابن علي بن يوسف رحل إلى وهران عام (٥٣٩هـ/ ١١٤٥م)، في إطار صراعه ضد عبد المؤمن الموحدي، (فأقام عليها شهراً ينتظر قائد أسطوله محمد بن ميمون إلى أن وصل إليه من المرية بعشرة أساطيل...). وهذا ما يدل على مهارة الصانع وتوفير مختلف المواد الضرورية لمثل تلك الصناعة. ولعمق دلالة وقوة البحرية الموحدية الضاربة والمتفردة في العالم الإسلامي خلال العصر الوسيط، فإن ابن خلدون^(٣٨) يخبرنا باستنجد السلطان الأيوبي صلاح الدين (٥٦٧هـ - ٥٨٩هـ / ١١٧٤م - ١١٩٣م)، مع يعقوب المنصور قصد التصدي ومواجهة الأساطيل البحرية الأوربية، ومنعها من التوجه نحو ساحل الشام. بل أنه قد أنصف كثيراً الدولة الموحدية، وجعلها أعظم قوة بحرية عرفها العالم الإسلامي في تلك المرحلة التاريخية.^(٣٩)

والحاصل أن هذا التفوق الموحدي لم يأت من فراغ ولم يكن مجرد مصادفة، بل هو تفوق مؤسس له ولعوامله، فهو أولاً انعكاس أمين لشروط بيئية جغرافية مرتبطة بهذا المجال، وثانياً:

لصابون وست وثمانين مصنعاً للدباغة، وثمان مائة وستة عشر- "مصنعاً" للصباغة، وإحدى عشر مصنعاً للزجاج، ومائة وخمسة وثلاثين مصنعاً للجير وأربعمائة مصنع للكاغد^(٤٠)، وخمسمائة وعشرون طاحونة^(٤١)، بالإضافة إلى المعاصر ودور الحرف اليدوية "التقليدية".

النشاط التجاري في إطار الوساطة الاقتصادية

لاحظ بعض الدارسين^(٤٢) أن الأمن والاستقرار والاستقلال النسبي، كان لها بعيد الغور في التقدم الاقتصادي الموحد نسبياً، ورغبت حكامها الأوائل الجامعة في التخلي عن نهج الوساطة الاقتصادية والانصراف إلى اقتصاد منتج، ويتأكد لنا هذا الارتباط، حيث شدد عبد المؤمن في أمر قطاع الطرق، ودليلنا في ذلك ما رواه ابن شداد فيما نقله عنه النويري أن عبد المؤمن قتل حفاظ محلة قرب بجاية سرق فيها أمتعة أحد تجار المهديّة^(٤٣)، ويقول ابن صاحب الصلاة عن أيام يوسف: "يسير الراكب حيث شاء من بلاد العدو في طرقها من جبلها وسهلها أمناً في نفسه وماله لا يخاف إلا الله"^(٤٤)، هذا ويذكر صاحب روض القرطاس عن عهد المنصور مثل هذا القول: "ونتيجة للأمن والاستقرار اتسعت الزراعة، وراجت التجارة ونهضت الصناعة وكثرت الجبايات وبلغت الدولة في ازدهارها الاقتصادي حالة لم ير أهل المغرب أياماً قط مثلاً"^(٤٥).

هذا إضافة إلى الاستفادة من المجال الشاسع وتنوعه، في تنوع المصنوعات الزراعية (السكر، الزيت...) وتوسيع أراضي الدولة، وحث الناس على الأعمال الزراعية بكل أنواعها^(٤٦). بكلمة واحدة، لا يمكن تفسير كل هذه التحولات إلا لكون الدولة الموحدية ومعها الغرب الإسلامي لم يعد ينفذ مشاريع خارجية احتكرته في اقتصاد قائم على الوساطة التجارية، وأهملت قواه المنتجة فلاحياً وحرقيّاً، بل صار المجال مع هذه الدولة فاعلاً في المنظومة الدولية، ولذلك طور بنياته التحتية والتي شملت حتى المجال البحري، أي الانفتاح على العالم.

النشاط البحري في سياق الوساطة التجارية

لم تحظ البحرية خلال العصر الوسيط عموماً سوى بمعلومات هزيلة، وأخباراً شحيحة مبعثرة في المصادر التاريخية، على الرغم من دورها المتميز في الخدمات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية، وأطرح إشكالية* تتعلق بالتفوق البحري في المجال المغاربي وسيطرة القوة البحرية المغاربية على غرب البحر الأبيض المتوسط في عهد الدولة الموحدية إبان قوتها، أي في فترة الخلفاء الثلاثة الأوائل، يتضح لنا، أن هذا المجال لم يعرف تفوقاً لبحريته قط، لا قبل هذا التاريخ ولا بعده. ولعل أفضل معبر على ذلك، كون الدولة المرابطية لم تستطع-وهي توحد جزءاً من المجال المغاربي تحت سلطتها-على حد علمنا أن تصبح قوة بحرية في المنطقة، بل إنها لم تستكمل توحيد هذا المجال وتهدد لنجدة المسلمين في الأندلس إلا بمساعدة القوة البحرية الأندلسية^(٤٧). ويعود هذا العجز ولا شك حسب أحد الدارسين^(٤٨) إلى عوامل كثيرة، بعضها يتعلق بأصول المرابطين الجغرافية، أي الصحراء،

ويتحكم في هذا التآرجح ميزان القوى السياسي والعسكري في المنطقة وحتى خارجها، ولعل إزالة الدولة المرابطية الكثير من الضرائب التي كانت مفروضة على السكان^(٤٦)، هي مرتبطة باعتماد مواردها المالية على التجارة الخارجية في الغالب الأعم. وبالمثل، فقد تخلت عن مبادئها الثورية تلك، فعادت لتركيز سياستها المالية على الميدان الفلاحي والمبادلات الداخلية، لا شيء حسب أحد الدارسين^(٤٧)، إلا لتحول الطرق التجارية نحو الشرق وعجزها عن السيطرة السياسية على المغربين الأوسط والأدنى، وبالتالي عدم مقدرتها على احتواء مختلف المسالك التجارية وتشعباتها في المنطقة، بل إن الضائقة المالية قد أوصلت الدولة المرابطية إلى حد فرض سياسية ضرائبية حتى على الأشياء الثانوية أو العابرة، بل وإحداث ضرائب جديدة على المواد المستهلكة، وهنا تفيد إشارة الإدريسي^(٤٨) أن ضريبة "القبالات" شملت حتى على الجراد الذي كان يباع في أسواق مراكش.

وعلى العكس من ذلك، يبدو أن الدولة الموحدية في بدايتها ظهرت مستفيدة من أخطاء الدولة المرابطية في تغليب إدارة وقوة الدولة على أساس التجارة البعيدة المدى، بل شجع الموحدون العمل الفلاحي إلى درجة أمكن فيها لبعض الباحثين الحديث عن "ثورة فلاحية"^(٤٩)، وتجلى ذلك في توسيع المساحات الزراعية. بل وانتشار العديد من المزروعات التي كانت مقتصرمة على المناطق الشمالية، وكذلك تعميم استعمال التقنيات الفلاحية المتداولة حينئذ. ولعل ما يؤكد ذلك هو اهتمام الخلفاء والسادة والأشياخ وكبار التجار بالنشاط الفلاحي التسويقي، ويبدو أنها ظاهرة جديدة لم تعرف من قبل لدى حكام هذا المجال برمته^(٥٠).

لكن وحتى لا نبالغ كثيراً في هذا الأمر، فمن بين السلبيات التي رافقت هذا التوجه الفلاحي تحديداً، هي اعتبار أراضي القبائل غير الموحدية ملكاً لهم، بل وصل الأمر إلى أن فرضوا على الفلاحين تقديم القسط الكبير من محاصيلهم، مما أفضى إلى انصراف الناس عن الإنتاج الفلاحي، وفي بعض المناطق تخلى الفلاحون عن أراضيهم كما تؤكد بعض المصادر التاريخية^(٥١)، وأدى كذلك إلى ثورات وانتفاضات في مختلف الجهات، مما فرض على الدولة الموحدية تعديل سياسته وإتباع نوع من المرونة تتجاوب واختلاف الإنتاج وكذا اختلاف المناطق والجهات. ونتيجة لهذه السياسة تحسنت أحوال الناس^(٥٢)، مع الإقرار بالتفاوت الاجتماعي بين الفئات والجهات، خاصة ما بين الجهات الرطبة والجافة وشبه الجافة بمنطق جغرافي، فإن التحسن المعيشي كان هو السمة العامة والذي مس حسب بعض الدارسين حتى القبائل الرحل من صنهاجة وزناتة المتزدين على المدن الواقعة جنوب وشرق جبل درن، وشرق نهر ملوية^(٥٣).

ولا شك أن الدولة الموحدية "المغاربية" قد استطاعت في طور قوتها، أن تضرب على أيدي المتلاعبين والمتواطئين معهم من كبار الموظفين ورجال الدولة، بسبب ما أحدثوه من تخريب للاقتصاد الموحد، وخاصة عهد الخليفة أبي يعقوب يوسف كما أكد ذلك ابن صاحب الصلاة^(٥٤)، حتى أمكن الحديث على نوع

ناتج عن تراكم معرفي وعلمي و"تقني" في الميدان الملاحي، وكذلك عن سياسة يظهر أنها مبرمجة، ومحكمة والدليل على ذلك أن أول خليفة موحد-كما أشرنا إلى ذلك سابقاً-عمل على تكوين الأطر الإدارية، وجمع الحفاظ من كل جهات الإمبراطورية في العاصمة مراكش، ليتلقوا تكويناً متنوعاً ومتعدد الاختصاصات^(٥٥). وبناءً على ذلك، أمكن للموحدين الحصول على أربعمئة قطعة بحرية، مائة منها في الأندلس ومائتان في المغرب الأقصى، ومائة في المغرب الأوسط والأدنى^(٥٦).

الحصيلة أن البحر ظل حاضراً، على الدوام، في مجمل التطور الحضاري الذي عرفته المجتمعات الإنسانية، وضمنها الغرب الإسلامي، ولم يقتصر دور البحر في المساهمة في النشاط الاقتصادي، بل كانت له أدواراً أساسية أخرى نذكر منها مساهمته في نقل التيارات الحضارية والثقافية من فضاء إلى آخر ومن قارة إلى أخرى، وينبغي الاعتراف بأن البحر كان له حضوره الوازن في ترجيح كفة الدول خلال فترات الحروب والصراعات السياسية والعسكرية، ومن هنا كان الاهتمام بتطوير الأساطيل خلال الفترة موضوع الدرس، وقد أصاب الباحث الفرنسي "فيران بروديل" (f.Broudel)^(٥٧)، حينما أشار إلى أن المتحكم في البحر يكون هو المتحكم دوماً في الثروة، وأن البحر لا يقبل إلا سيدياً واحداً.

الشروط الاقتصادية

يسجل الأستاذ عبد الله العروي^(٥٨)، في أبحاثه مفارقة في غاية الأهمية فقد بدا له حسب شهادة الكتاب والرحالة الذين اعتمد عليهم أن المجال المغاربي طيلة عهد الموحدين كان يعيش فترة انكماش اقتصادي، في الوقت الذي كان يتوحد فيه سياسياً ويعرف تقدماً عمرانياً باهراً. لكن اللافت للنظر في هذا السياق، هو أن أحد المتخصصين الاقتصاديين المعاصرين^(٥٩) يظهر التفاعل الحتمي وعبر كل الأزمنة بين السياسة والاقتصاد والاستراتيجية، وبين ضرورة الثروة والقدرة العسكرية، حيث تدعم كل واحدة منهما الأخرى، بل ويستحيل في نظره الحديث عن تطور اقتصادي إلا في ظل رؤية سياسية ناجعة. وفي السياق نفسه، فقد وقف أحد الدارسين للتاريخ الإسلامي^(٦٠)، على البنية الاجتماعية والسياسية والفكرية كذلك، والتي ساهمت كلها كإطار عام وبشكل غير مباشر ومتوسط في "تقدم الإنتاج البضائعي وتعظيم دور النقد، وتطور الرأسمال الصناعي والرأسمال التجاري خلال الأطوار الأولى للدولة المغاربية الموحدية". ولا غرو، فالدولة الموحدية التي نتناول في هذا المحور يلاحظ أن بعض العوامل الداخلية والخارجية التي أدت إلى تطورها، قامت على أسس اقتصادية متنوعة: فلاحية وتجارية والتي لا تخدم طبعاً إلا التجارة البعيدة المدى وبالتالي اقتصاد الوساطة، ولعله سر انهيار كل التراكمات التي يتم تحقيقها على المستوى الاقتصادي.

وهنا لا سبيل لإنكار أن الدولة المرابطية مثلاً ظهرت قوتها السياسية والاقتصادية، انطلاقاً من تملكهم للمحاور التجارية الكبرى، علماً أن هذا الأساس لم يكن قاراً، فالطرق التجارية تتأرجح بين الغرب والشرق (غرب شمال إفريقيا وشرقها)،

ذلك أن المرحلة التاريخية التي تم النبش في بعض جوانبها، عرفت فترات زاهية ومتقدمة على امتداد هذا المجال وخاصة في المراحل الأولى، وعرفت حركة سياسية وثقافية مبنية على أسس اقتصادية، لكنه - الاقتصاد - كان "عهدياً" بمعنى أنه كان يتغير حسب العهود قوة وضعفاً، ولم تسلم فيه السلطات المركزية لفائدة قواعد الاجتماعية الأساسية، لتتمكن من إنجاز أدوارها التاريخية، وتفيد من هذا الاقتصاد التجاري لتطوير مجتمعاتها، خاصة وأن العصر الوسيط في هذا المجال عرف بإجماع ثلة من الدارسين المتخصصين، قدامى ومحدثين، من أبرز القرون "الذهبية" في هذا المجال. غير أن هذه الصورة المشرقة سرعان ما توارت منذ مشارف القرن الرابع عشر - الميلادي، وخاصة في أواخره، تحت سطح كثيف من الظروف الإقليمية للمجال المغربي، وكثير من التوظيفات السياسية والنزاعات العسكرية على امتداد هذا المجال والتي عادت إلى الظهور مع المرحلة المدروسة، مدشنة بالتالي مرحلة تميزت بغلبة التجزئة على حساب الوحدة، ولعله التراكم الذي دخل به المجال المغربي على مشارف التاريخ الحديث. ولا غرو، فمع نهاية القرن الرابع عشر - تقدم البرتغاليون والإسبان في عرض الشواطئ الإفريقية، بل وتمكنوا من اجتذاب قسم كبير من تجارة الذهب نحو خليج غينيا. وهكذا بدأ المجال المغربي يفقد دوره كوسيط تجاري مما أدى إلى تغير البنيات الاجتماعية والاقتصادية تغيراً عميقاً بل ودائماً.

كيف نفهم سليات هذا التوجه الاقتصادي بالمجال المغربي أواخر العصر الوسيط على المستوى الاقتصادي والاجتماعي

يتضح أن قوة المجال المغربي على المستوى الاقتصادي طيلة العصر - الوسيط، جاءت من المكانة التي يحتلها في الشبكة التجارية العالمية وازدهاره وإشعاعه ناتج عن دوره التجاري في إطار ما أسميناه باقتصاد الوساطة أكثر مما نتج عن ارتفاع مستوى الإنتاج الفلاحي أو حتى الحرفي^(١٠). والأرباح التي تجنى من تجارة العبور تسمح "لأرستقراطية" بعدم الاهتمام بتك القطاعات إلا بما يخدم النمط الاقتصادي السائد وبالتالي خدمة السلطة المركزية. واللافت للنظر داخل المجال المغربي أن التجارة الكبرى لا تهدم التنظيم القبلي ولا تهدم أشكال الملكية والإنتاج به، فمستوى تطور القوى المنتجة المحلية ضعيف ولا يسمح باقتطاع فائض كاف لسيادة الطبقة التجارية التي بمقدورها الشروع في التوحيد المجالي للمغرب، كما كاد أن يحصل مع التجربة الموحدية بكثير من الصعوبات والمشاكل، ليبقى مصير هذه الطبقة التجارية "الدولة" متعلق بقدرتها، عن طريق وساطتها التجارية، على حيازة فائض ذي أصول خارجية، أي مشروط بظروف خارجة عن سيطرة المجتمع. فالفائض المحلي الضئيل لا يتطلب التوحيد الاقتصادي، لأن التنافس لا يقوم على الإنتاج بل على القيام بدور الوساطة الاقتصادية خدمة "الأجندات" الأجنبية.

من العدالة الاجتماعية^(١١). لكن ومع تولية السلطان محمد الناصر على قمة الهرم السياسي الموحد (١١٩٩م)، قد عادت تلك الفئة التي تحدثنا عنها (المتلاعبين...) لنشاطها وبشراصة أكثر، فأضحت تحتكر مواد استراتيجية كالحبوب وزيت الزيتون، وتحكم الحكام "وليس الدولة" في العملية الاقتصادية، بل وتم التعاطي "للربي" وترويج النقود المزيفة، ونهج سياسة المضاربة والاحتكار بغية التحكم في الأسواق^(١٢) وبلغ الجشع بهذه الفئة الاجتماعية أن تناولت على أموال المخزن(*)، وقضت على احتياطه وخلخلت موازينه الداخلية والخارجية، ودليلنا في ذلك أن الخليفة الناصر ذهب إلى حرب العقاب يوم ١٦ يوليو ١٢١٢م/ ١٩ صفر ٦٠٩هـ، بجهة داخلية متصدعة: انقسام على المستوى القمة، وتدهور وبؤس على مستوى القاعدة، وعندما اشتبك مع العدو في معركة العقاب، وقفت جيوش الموحدين وجيوش الأندلس موقف المتفرج، كما أكد ذلك الناصري^(١٣).

وبالتالي يبدو أن الوضعية السياسية للدول الوسيطة في الغرب الإسلامي، هي انعكاس لتطور المجتمع اقتصادياً واجتماعياً وفكرياً كذلك، والعكس في حالة تراجع وتخلفه الاقتصادي وللإشارة فإن أحد الدارسين أكد خلافاً لما سبق أن التجارة المتوسطة عموماً وخلال الفترة موضوع البحث، تميزت بطابعها الكمالي، لأنها قامت لتلبية حاجة الأثرياء والأقوياء، كالأمرء، والمقامات الدينية والحكام "التجار"، وظلت خارج نطاقها الرئيسي للنشاط الاقتصادي، لأنها لم تكن ذات أثر يذكر على العامة، أو حتى على الاقتصاد الوسيط عموماً، ولم تكن تستدعي بذل الجهد أو إنفاق الموارد الأخرى على نطاق واسع، بما يكفي لفرض الضغط على العمليات الاقتصادية والاجتماعية، حيث لم يواكب المجتمع تلك التحولات بإرادة من الحكام، بغية الانتقال إلى المرحلة المتقدمة^(١٤)، وهو ما قد يفسر - الاعتماد الشبه كلي على اقتصاد الوساطة، وهي الوظيفة الاقتصادية التي أوكلت للمنطقة منذ فترات سابقة - كما أشرنا - ووجد فيها الحكام في معظمهم تعبيرا عن طموحهم المحدود.

أما سياسة الحكم الموحد فرغم تشدها "المذهبي" وبنيتها التنظيمية المتطورة نسبياً، فقد ظلت تعاني من تناقضات على المستوى الضرائبي والعسكري، وكذا على مستوى سياستها الخارجية، الشيء الذي فسره الباحث "بنمليح" بما يلي: "إن هشاشة الدولة الموحدية يكمن في ثلاثة عوامل، مضمون المشروع السياسي، وطبيعة القوة الاجتماعية الذي اعتمد عليها وأهمية العامل الخارجي^(١٥). وأضيف المشروع الاقتصادي الذي لم يخرج عن دور الوسيط التجاري. ومن جهة أخرى يظهر أن الحكم الموحد أحكم تنظيم دعوته ووظف كل الوسائل والأساليب الاقتصادية والسياسية والعسكرية وكذلك الثقافية والمذهبية وحتى النفسية، وتمكنوا في غضون العقود الثلاثة الأولى من القرن السادس الهجري من نشر - دعوتهم أي مشروعهم السياسي في معظم الجناح الغربي من "دار الإسلام"، لكن المرحلة الموالية من حكم الموحدين ستكون فترة التراجعات والإحباط، ولا يفسر ذلك إلا بضعف الوساطة التجارية للدولة وبحكم الاعتماد عليه بشكل كبير، وكذا للتناقضات القبلية وغيرها.

الفضاءات الجغرافية لهذا المجال. وقد لعب التاريخ والجغرافيا أدواراً فعالة في توجيه المجال المغربي، في اتجاه أشكال محددة من الاقتصاد القائم على الوساطة التجارية بين بلاد السودان وأوروبا والمشرق العربي، إضافة إلى توزيع وتنويع الإنتاج الفلاحي والحرفي والمعدني على امتداد هذا المجال، وتوظيفه لخدمة اقتصاد الوساطة. ولا ننفي المحاولات الجادة من طرف بعض الحكام الأوائل في استثمار هذا التوجه أمثل استثمار، وكان بالتالي تعبيراً وانعكاساً لواقع متكامل في الأصل والامتداد.

هذا وقد تمخضت الدراسة إلى حد الآن عن عدة نتائج نوجزها فيما يلي:

أن دراسة الغرب الإسلامي خلال العصر الوسيط من منظار اقتصادي واجتماعي وجيو سياسي، في إطار التاريخ المقارن قادرة على استيعاب كل الإشكاليات التي لازالت في حاجة ماسة للدراسة والتمحيص. بل وبإمكانها تحديد الخطوات المنهجية والأكثر اتساق مع الواقع عرضاً ونقداً. فضلاً عن استثمارها- الدراسات الاقتصادية والجيوسياسية- في رصد كل الأزمنة والحقب التاريخية على اختلافها، بل وتفسيرها كذلك.

أن التطور الاقتصادي والسياسي للمجال الجغرافي المغربي المشهود خلال الفترات الأولى للدولة المرابطية وبعدها الدولة الموحدية، نجم عن استثمار أمثل للقوى الطبيعية والاجتماعية المتوفرة، وقد تبين لنا التطور الملحوظ الذي عرفه الميدان التجاري والصناعي، بفعل مركزية النظام السياسي الهادف إلى تأمين الطرق وتشديد الرقابة، والحد من الصراعات وتوفير المواد الخام لإنجاح الصناعات.

أن الإشكالات التي رافقت قيام الدولة المرينية في المغرب الأقصى، وبني عبد الواد بالمغرب الأوسط وبني حفص في المغرب الأدنى، كانت مرتبطة بالنمط الاقتصادي الموجه - اقتصاد وتجارة الوساطة- وبتغيرات عميقة طرأت على الفضاء المتوسطي برتمته، وما كانت لتفضي إلا لتلك النتائج القائمة على التفكك والتجزئة على امتداد المجال الجغرافي المغربي، وتعطيل وعرقلة إقلاعه السياسي والاقتصادي والاجتماعي. وهذا ما سيتضح بجلاء أكثر من خلال دراسة وضعية هذا المجال في نهاية تاريخه الوسيط، وبداية التاريخ الحديث، ومن زوايا عديدة.

هذا ويظل التساؤل مطروحاً حول مدى استيعاب وفهم إمكانات وقدرات المجال الجغرافي المغربي في حالة تكامله وانسجامه وابتعاده عن التبعية التي تخلق أمماتاً اقتصادية لا تكون إلا في خدمة الآخر، وإذكاء الصراعات السياسية، أم أن الأمر يستظل في طي الكتمان. وفي الأخير يمكننا أن نطرح سؤالاً واضحاً، وهو: إذا كان هذا النمط الاقتصادي الذي ساد الغرب الإسلامي قادر على بناء اقتصاد قوي، وبالتالي بناء دولة سياسية مركزية على امتداد هذا المجال؟ فكيف دخل هذا المجال على عتبة التاريخ الحديث؟ وبالضبط كيف صارت أحواله على جميع المستويات بعد افتقاده لدور الوسيط الاقتصادي، على إثر تحويل الطرق التجارية إلى المحيط الأطلسي؟ وإلى أي حد ساهمت المعطيات الاقتصادية والجيوسياسية للمغرب الوسيط في تحديد ورسم ملامح التاريخ الحديث والمعاصر؟ ذلك موضوع آخر للبحث والتنقيب، سنوجه عملنا في الأعمال الموالية إلى محاولة ملامسته وتوضيحه.

إضافة إلى البعد القبلي، فقد كانت النتيجة هي مجال مغربي يتوفر على كل مكونات الوحدة، لكنه ظل عبارة عن تجمع مناطق ليست مندمجة ببعضها البعض على الأقل في المستوى الاقتصادي، بل ويسودها الصراع والنزاع على احتكار هذا الدور، خاصة وأن الدول التي قامت على أمر هذا المجال عملت جاهدة على احتكار العملية التجارية برمتها - كما رأينا ذلك- لخدمة أطراف خارجية، وبالتالي عدم إمكانية توظيف الفائض في خدمة القطاعات الإنتاجية، كما وقع في أوروبا خلال القرن الخامس عشر والسادس عشر، حيث كانت التجارة البعيدة تضخم حجم الفائض بما تضيف إليه من تحويلات ذات مصدر خارجي، أما الريع الطبيعي بدأ يترك مكانه للريع النقدي، وهذا الريع أخذ يغذي الإنتاج التجاري البسيط الحرفي المزدهر الذي كان يعيش على هذه التجارة، بل تطور هذا الاقتصاد إلى درجة عالية من التمرکز الاقتصادي، وهو الأمر الذي يدفع بالتحرك الدائم للمجتمع بقيادة الطبقة التجارية، إلى الاندماج المجالي الكبير وكذلك عن طريق الشكل السلعي الذي يأخذه رأس المال نفسه ويدفع بذلك أيضاً إلى اندماج السوق. وبالتالي، كان دور التاجر هو ربط الإقطاعات المختلفة ببعضها البعض والمدن بالأرياف، وصار التجار يشترون من الأسياذ أو الفلاحين الفائض الزراعي ويبيعونهم المنتوجات والحرفية المحلية والفاخرة الآتية من الشرق.

بعد كل هذا يمكن أن نسجل الارتباط بين التجارة البعيدة المدى والبنية القبلية في النظام المغربي استمر بالتطور، ولكن بشكل سلبي، فعجزت "الأرستقراطية التجارية - السلطة المركزية" عن إخضاع البادية بصورة دائمة، وعن إعادة توزيع الثروات بين البادية والحاضرة والتي أصبحت تأخذ أشكالاً متباينة، والذي شمل كل المجال المغربي - كما أوضحنا ذلك خلال المرحلة الموحدية - وهو ما أدى بشكل مباشر إلى ضعف الحياة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، لكن في المقابل ساعد على صلابة وتعزيز البنية القبلية، وزاد من التجزئة السياسية للمجال ليتم تهيئته للاستعمار الأوربي. فالتجار إذن مرتبطون عمومًا بالطبقة الحاكمة في الحالة التي لا يكونون هم أنفسهم في السلطة، ويستخلصون فوائدهم من دور الوسيط التجاري الذي يلعبونه على مستوى السوق العالمية.

خاتمة

الحصيلة أن دراسة تاريخ المجال المغربي خلال العصر الوسيط، من زاوية الصراع البنات الاقتصادية والاجتماعية، هي لإبراز أدوارها الفاعلة في تحديد وتشكيل بنية هذا المجال كمًا ونوعًا. فقد أبانت المحاولة التي انصبت على هذا الحقل، بعد مراجعة عدد لا بأس به من المصادر التاريخية والجغرافية والدراسات الاقتصادية والأبحاث المتوفرة أن وحدة الغرب الإسلامي والتي برزت بشكل واضح منذ الفترة القديمة، وتم تأكيدها خلال التاريخ الوسيط، لم تكن إلا تعبيراً واضحاً عن عمق تفكير هؤلاء في إفادتهم البالغة وعلى جميع المستويات، والتي لا يمكن بأي حال تحقيقها إلا بفضل التكامل بين

Duby (g); L'Economie rurale et la vie des campagnes dans L'occident médiéval; paris; Ed Aubier 1962. (2:T).

(١٤) ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، مراجعة سهيل زكار، ضبط المتن والحواشي والفهارس، بيروت، ١٩٨١، ص ٥٨٣.

(١٥) ابن خلدون: "العبر..." نفسه، ص ٦١٨.

(١٦) هاشم العلوي القاسمي: "حركة المهدوية في الغرب الإسلامي": مرجع سابق، ص: ١٨٢.

(17) Charles Andre Julien: L'Afrique Du Nord En marche/ Volume 1 – 2, julliard. 1972, Editions, 2001 Tunis.

(١٨) عبد الرحيم شعبان: "الإصلاح النقدي الموحد" مجلة كلية الآداب الرباط العدد الثالث والعشرون، السنة ١٩٩٩، ص: ١٣٩ وما بعدها، ونشير إلى أن هذه الدراسة ولأهميتها البالغة فقد قدمها باسم بنك المغرب.

(١٩) ابن عذاري المراكشي: "البيان المغرب..."، م.س، ص: ٢٦٤.

(٢٠) عز الدين أحمد موسى: "الموحدون في الغرب الإسلامي"، دار الغرب الإسلامي بيروت لبنان، ط ١٩٩١، ص: ٢١٠.

(٢١) عز الدين أحمد موسى: "الموحدون..." مرجع سابق، ص: ٢٨٢.

(٢٢) نفسه، ص: ٢١٠.

(٢٣) الحسين بولقطيب: "حفريات في تاريخ المغرب الوسيط" - دراسة تاريخية - منشورات الزمن، الطبعة الأولى ٢٠٠٤، ص ١٤ وما بعدها.

(٢٤) عبد الله علي علام: "الدولة الموحدية بالمغرب في عهد عبد المومن بن علي" مطابع دار المعارف ١٩٧١، ص: ٢٥٢. وكذلك. محمد ناصح، «بعض عوامل التطور التجاري في المغرب خلال ق ٦ هـ / ١٢م» مجلة أمل العدد السادس، السنة الثانية ١٩٩٥ ص ٥ وما بعدها.

(٢٥) الحسن الوزان: وصف إفريقيا: ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، الرباط ١٩٦٧ و ١٩٨٠ ج ١، ص: ٢٣٣.

(٢٦) عز الدين أحمد موسى: المرجع السابق، ص ٢١٨.

(٢٧) نهاية الأرب... مصدر سابق، ص ٢١٥.

(٢٨) ابن صاحب الصلاة، عبد الملك، المن بالإمامة على المستضعفين بأن جعلهم الله أئمة وجعلهم الوارثين، تحقيق عبد الهادي التازي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٧، ص: ٢٨٦، وكذلك ابن عذاري المراكشي، "البيان المغرب..."، ج ٣، ص: ٦٥.

(٢٩) ابن أبي زرع الفاسي "الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس: "دار المنصور للطباعة والنشر، الرباط ١٩٧٢، ص: ١٠٣.

(٣٠) نفسه، ص: ٢٢٥.

(*) نشير إلى أن هناك دراسة مهمة استفدنا منها لمحمد حجاج الطويل: البحرية المغربية في عهد الدولة الموحدية - جذور القوة وأسباب الضعف - ندوة البحر في تاريخ المغرب، جامعة الحسن الثاني المحمدية، سلسلة الندوات رقم ٧، السنة ١٩٩٩.

(٣١) ابن بسم السنتيني: "الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة" بيروت. ١٩٨٠ ج ٢، ص: ٢٦٢. الناصري: "الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق جعفر ومحمد الناصري، الدار البيضاء، ١٩٥٤، ج ٢، ص: ٣١-٣٠.

(٣٢) محمد حجاج الطويل: "البحرية المغربية..." م س ص: ٦٣.

(٣٣) البكري: "المغرب..." مصدر سابق، ص: ٩٠ إلى ١٠٦. وكذلك، الشريف الإدريسي "نزهة المشتاق..." م.س. ج ٣، ص: ٢٣٩.

(٣٤) نفسه، ص: ٥٢٧.

(٣٥) الحسين بولقطيب: "حفريات..." مرجع سابق، ص ١٥ وما بعدها.

(٣٦) أبو العباس أحمد بن خالد الناصري: "الاستقصا..."، مصدر سابق، ج ٢، ص: ٣٠-٣١.

(١) ماجدة كرمي: "تجارة القوافل: آثار وبصمات على تاريخ دول المغرب الوسيط" دار الجسور وجدة المغرب، الطبعة الأولى ١٩٩٦ ص: ٢٣.

(2) Alaoui Abdelaziz Le Maghreb ET la Commerce Transaharien du x1e au XIV siècle – this de doctorat de 3ème cycle, Bordeaux, 1983.

(3) Braudel Fernand: Ecrits sur l'histoire. Flammarion, Paris 1969.

(٤) فقد أشار سمير أمين وفق مرجعيته الماركسية إلى هذه التشكيلة الاقتصادية، لكنها لا ترقى في نظره لأن تكون نمط إنتاج وفق النظرية الماركسية القائمة على اللوحة الخماسية: يمكننا التمييز بين ثلاث وحدات سياسية واقتصادية متميزة عن بعضها: -المشرق العربي، والذي يضم شبه الجزيرة العربية ومنطقة الهلال الخصيب (سوريا، لبنان، الأردن والعراق). - بلدان النيل، (مصر والسودان).- المجال المغاربي، والذي يمتد من ليبيا شرقا وحتى المحيط الأطلسي غربا وتضم (ليبيا، تونس، الجزائر، المغرب الأقصى). أما الفائض الذي يمكن اقتطاعه من المزارعين بقي ضئيل الأهمية في أغلب فترات التاريخ الوسيط، كما ظلت التقنية الإنتاجية في الزراعة ضعيفة التطور، وظلت إنتاجية العمل الزراعي خفيفة. والأكثر من ذلك فمستوى حياة المزارعين قريبا من مستوى الكفاف، ذلك أن أغلب الإنتاج الفلاحي وحتى الحرثي لم يكن موجها لسوق داخلية أو خارجية مضبوطة، بقدر ما كان موجها لخدمة تجارة العبور-اقتصاد الوساطة - وبالتالي فإن أشكال التنظيم ظلت مطبوعة بالجماعية القبلية، كما سنوضح ذلك. فلا يوجد هنا على ما يبدو قاعدة كافية لاقتطاع فائض يسمح بتشكيل بنية إقطاعية. والغريب في الأمر، أن المجال المغاربي بالتحديد كان مسرح حضارات غنية، بل ومدنية بشكل ملحوظ، انظر دراسة في التشكيلات الاجتماعية للرأسمالية المحيطة، ترجمة برهان غيلون، بيروت دار الطليعة، ط ٤، ١٩٨٥.

(٥) على سبيل المثال: انظر البلاذري: "فتوح البلدان" بدون تاريخ. وابن عذاري المراكشي "البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب" تحقيق ج س كولان، وبرفنسال، بيروت ١٩٩٥م العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، مراجعة سهيل زكار، ضبط المتن والحواشي والفهارس، بيروت، ١٩٨١.

(٦) ماجدة كرمي: "حواضر مغرب العصر الوسيط: إشعاع داخلي ودولي" ص: ٨٨.

(٧) وهو ما سماه أستاذي إبراهيم القادري بوتشيش: "باقتصاد المغازي" بكثير من التفصيل، انظر: "تاريخ الغرب الإسلامي" قراءات جديدة في بعض قضايا المجتمع والحضارة، دار الطليعة، بيروت، ط ١، ١٩٩٤.

(٨) عبد القادر دقلول، مقدمات في تاريخ المغرب العربي القديم والوسيط، ترجمة فضيلة حكيم، دار الحداثة للطباعة والنشر، بيروت، ط ١، ١٩٨٢، ص ٧٦.

(٩) على سبيل المثال: انظر البلاذري: "فتوح البلدان" بدون تاريخ. وابن عذاري المراكشي "البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب" تحقيق ج س كولان، وبرفنسال، بيروت ١٩٩٥م. وابن خلدون.

(١٠) الإدريسي، أبو عبد الله، نزهة المشتاق في اختراق الأفاق، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة مجلدان، بدون تاريخ، ص ٥١٥.

(١١) نفسه: ج ٢/ ص ٥٢٩.

(١٢) الإدريسي، نزهة المشتاق: مصدر سابق، ص ٢٦٠.

(١٣) للمزيد من التفصيل حول هذه المراكز، يمكن الرجوع إلى الدراسات التي اعتمدت على مصادر الفترة، ومنها:

- (٣٧) الناصري: نفسه، ص: ٧١.
- (٣٨) "العبر...": ج ١، ص/ ٢٥٣.
- (٣٩) ابن خلدون: "العبر...": م، س: ص ٢٥٣.
- (٤٠) عن علامات الاهتمام بالبحر خلال الفترة الوسيطة هو إنشاء ما يُسمى "بالديوانية" وهي دليل على ارتفاع حجم العائدات المالية من طرف المعاملات التجارية بين المسلمين والتجار المسيحيين، ففي عهد الدولة الموحدية إرتقى المشرق على الديوانية إلى درجة والي، ولا يختار الموحدون لهذه المهمة إلى المعروفين بولائهم التام للدولة. بن الآبار أبو عبد الله، "الحلة السيرا"، تحقيق حسين مؤنس، القاهرة ١٩٦٣ ج ٢ ص: ٢٩٣.
- (٤١) ابن صاحب الصلاة: "المُن بالإمامة..." م.س. ص: ٢١٨. ولعله أول من أورد هذه الأرقام.
- (٤٢) «البحر المتوسط»: نقله إلى اللغة العربية عمر بن سالم. تونس. ١٩٩٠ ص: ١٢٣. وقد أدى هذا إلى تنوع في الإنتاج وتوافره، وبالتالي لم يشعر الإنسان المغاربي باحتياجه إلى البحر، خصوصاً وأن النمط الاقتصادي والاجتماعي الذي كان سائداً خلال العصر الوسيط، كما جاء عند عبد المجيد قدوري، كان مبنياً على تجارة القوافل وما صاحب ذلك من إنتاج فلاحي وصناعي... أما الطرق البحرية فكانت مكملّة للطرق البرية في الشرق وفي الغرب الإسلامي، حيث شكلت هذه المناطق صلة الوصل بين مناطق التبر والعاج والعبيد بالسودان، ومناطق الحرير والتوابل بالشرق الأقصى وأوروبا. «المغرب وأوروبا ما بين القرنين الخامس عشر والثامن عشر (مسألة التجاوز)" الطبعة (١) السنة ٢٠٠٠. البيضاء. إنتاج المركز الثقافي العربي، ص: ٢٣٦-٢٣٧.
- (٤٣) "مجلد تاريخ المغرب"، منشورات المركز الثقافي العربي، الطبعة الخامسة ١٩٩٦، البيضاء المغرب، ص ١٦٤. ويضف أن الحركة التجارية خلال هذه المرحلة انحصرت في الجزء الشمالي وخاصة في سبتة وكنامة وطنجة فقط، أما المنطقة الوسطى فكانت تعيش في عزلة طويلة وقليلة التمدن، أما المنطقة الشرقية كانت تمر بفترة ركود وخاصة مدينة تازة.
- (٤٤) موسى الزغبى: "البداية والنهاية. نشوء القوى العظمى وانحطاطها: دار النشر الشادي سورية الطبعة ١- ١٩٩١، ص: ٨-٩.
- (٤٥) طيب تيزيني: "مشروع رؤية جديدة للفكر العربي في العصر الوسيط " دار دمشق للطبع، ط ٢، بدون تاريخ، ص: ٣٥٨.
- (٤٦) ابن أبي زرع: "روض القرطاس ..." مصدر سابق ص: ١٣٧-١٦٧. ويؤكد أنه بالفعل تم إلغاء مجموعة من الضرائب التي كانت مفروضة على الناس قبل قيام الدولة المرابطية.
- (٤٧) محمد حجاج الطويل: "التجارة الداخلية وأثرها على ضعف الدولة الموحدية" أعمال ندوة التجارة في علاقتها بالمجتمع والدولة عبر تاريخ المغرب. الجزء (٢). جامعة الحسن الثاني عين الشق كلية الآداب. البيضاء ١٩٩٢ ص: ١٤٦.
- (٤٨) الشريف الإدريسي: "نزهة المشتاق في اختراق الآفاق"، نابولي، الجزء الثالث، ص: ٢٣٥.
- (٤٩) محمد حجاج الطويل، "التجارة الداخلية..."، المرجع السابق، ص: ١٤٦.
- (٥٠) مجهول: "الاستبصار في عجائب الأمصار.."، ق ٦ هجري، نشر وتعليق الدكتور سعد زغلول عبد الحميد، ص: ٢٠٩.
- (٥١) ابن غازي: "الروض الهتون في أخبار مكناسة الزيتون". ابن غازي، محمد بن أحمد بن محمد العثماني المكناسي، الروض الهتون في أخبار مكناسة الزيتون، الرباط، بدون تاريخ. ص: ١٩٤ وما بعدها. وابن عذاري المراكشي: "البيان المغرب..". مصدر سابق، وابن خلدون: "المقدمة"، مصدر سابق، ج ٣، ص ٩١١.
- (٥٢) الحسين بولقطيب "حفريات..." المرجع السابق، ص: ٣٢ وما بعدها.
- (٥٣) محمد حجاج الطويل: المرجع السابق، ص: ١٤٨.
- (٥٤) المُن بالإمامة: "مصدر سابق، ص: ٤٣٧ و ٤٤٤.
- (٥٥) ابن عذاري: "البيان المغرب"، مصدر سابق، ص ١٣١-١٤٤-٢٣٧.
- (٥٦) محمد حجاج الطويل: "التجارة الداخلية"، مرجع سابق، ص: ١٤٩-١٥٠.
- (*) للإشارة فالمخزن هو نسق وأداة للدولة من نمط إرثي يقوم على علاقات نسبية وعلى نظام من المراتب الإدارية المنظمة والهادفة إلى تمركز الحكم، وتكوين عساكر ناجعة، وضبط الرعية، وجبي الضرائب. راجع للمزيد من التفصيل: الهادي: "القبيلة الإقطاع والمخزن": مقارنة سوسيولوجية للمجتمع المغربي الحديث ١٨٤٤-١٩٣٩، إفريقيا الشرق ٢٠٠٥، ص ٢٤٣ وما بعدها.
- (٥٧) "الاستقصا..."، مصدر سابق، ج ٢، ص: ٢٢٣.
- (٥٨) موسى الزغبى: "البداية والنهاية..."، مرجع سابق، ص: ١٨-١٩.
- (59) Ben Mlih A : "structures politique du maroc colonial" Op. Cit. P: 42.
- (٦٠) هناك دراسة تاريخية مهمة في هذا السياق للأستاذ إبراهيم القادري بوتشيش: "تاريخ الغرب الإسلامي..". مرجع سابق.

علاقة الأشعرية بالسلطة في الدولة السلجوقية

(١٠٥٥ – ١٠٩٢ م / ٤٤٧ – ٤٨٤ هـ)

أ.م. د. غسان محمود وشام

أستاذ مساعد التاريخ الإسلامي

رئيس قسم التاريخ والآثار

الجامعة الإسلامية (غزة) - فلسطين



ملخص

تُعَدُّ علاقة الأشعرية بالسلطة في الدولة السلجوقية من الظواهر الجديرة بالدراسة، لما فيها من عبر وعظات، فالروايات التاريخية تفيد بأن علاقة الدولة الأشعرية بالدولة السلجوقية في عهد طغرلبيك كانت علاقة عداً وصدام، ولكن العلاقة تحولت بين الطرفين في عهد ألب أرسلان وملكشاه من بعده من حالة العدا إلى حالة التحالف، وهذا يسجل للدولة السلجوقية في عهد ألب أرسلان عندما واجهت نشاط الفكر المتطرف للفرق المنتشرة في العالم الإسلامي والتي هدّدت الوحدة الإسلامية مثل المعتزلة والباطنية والقرامطة والإسماعيلية بالأشعرية، فكانت الأشعرية السلاح الأنسب لمواجهة التطرف. وقد استخدم الباحث المنهج التاريخي في هذه الدراسة وتم تقسيمها إلى مقدمة وثلاثة مباحث ثم خاتمة، وثبت لأهم المصادر والمراجع. أما المقدمة فقد احتوت على نبذة مختصرة عن الموضوع وأهميته ومنهج الدراسة وتقسيماتها. والمبحث الأول فقد كان بعنوان "تعريف بالسلاجقة والأشعرية، وأما المبحث الثاني تناول "العلاقة بين الدولة السلجوقية والأشاعرة في عهد طغرلبيك"، أما المبحث الثالث فقد ناقش "علاقة الأشاعرة مع السلاجقة في عهد ألب أرسلان وابنه ملكشاه". وختتمت الدراسة بخاتمة اشتملت على أهم لنتائج الدراسة، ثم قائمة المصادر والمراجع.

كلمات مفتاحية:

الأشعرية، السلاجقة، ألب أرسلان، ملكشاه، الفرق الدينية

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث: ١٤ أبريل ٢٠١٨
تاريخ قبول النشر: ٢١ أبريل ٢٠١٨

DOI 10.12816/0052965

معرف الوثيقة الرقمي:

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

غسان محمود وشام. "علاقة الأشعرية بالسلطة في الدولة السلجوقية (١٠٥٥ - ١٠٩٢ م / ٤٤٧ - ٤٨٤ هـ)". - دورية كان التاريخية. - السنة الحادية عشرة - العدد الأربعون، يونيو ٢٠١٨. ص ٥٨ - ٦٦.

مقدمة

عسكريًا، وأمنيًا، للعالم الإسلامي، والذي يسجل للسلاجقة نجاحهم في هذه المواجهة.

ترجع أهمية الدراسة إلى ندرة الدراسات الأكاديمية الجادة التي تناولت الموضوع على الرغم من أهميته، ورصد أسباب العدا بين السلاجقة والأشعرية في عهد طغرلبيك، والتركيز على تجربة السلاجقة الناجحة في مواجهة الفرق الضالة التي شكلت تهديدًا وجوديًا للإسلام، بالإضافة إلى إظهار دور الأشعرية في المعركة الفكرية التي شهدتها العالم الإسلامي في العصر - السلجوقي مع الفرق الضالة.

تُعَدُّ العلاقة بين الأشعرية والدولة السلجوقية من الظواهر التاريخية الجديرة بالدراسة والتحليل، لما فيها من عبر ودروس وعظات؛ فمع بداية قيام دولة السلاجقة كانت العلاقة بين الطرفين علاقة عدا، وصدام، ولكن في عهد السلطان ألب أرسلان حدث انقلاب إيجابي على هذه العلاقة، فبدأت الدولة السلجوقية تقرب علماء الأشعرية، وتغدق عليهم، وتجري عليهم الأرزاق والمنح وتفتح لهم أبواب المدارس النظامية للعمل فيها، ويرجع سبب هذا التحول إلى استخدام الدولة السلجوقية؛ متمثلة بالوزير نظام الملك الطوسي للأشعرية سلاحًا؛ لمواجهة الفرق المنحرفة التي انتشرت في العالم الإسلامي، وشكلت تهديدًا

المبحث الأول: تعريف بالسلاجقة والأشعرية

أولاً: أصل السلاجقة وتأسيس دولتهم

تعود أصول السلاجقة إلى أسرة تركية كبيرة، كانت تقيم في بلاد ما وراء النهر، وتنسب إلى زعيمها سلجوق بن ثقاق، الذي اشتهر بكفاءته الحربية، وكثرة أتباعه^(١)، وهاجر السلاجقة بزعامه طغرل بك في الربع الأول من القرن الخامس الهجري إلى خراسان الخاضعة لنفوذ الغزنويين، وبعد سلسلة من الصراع بين الغزنويين والسلاجقة، استطاع السلاجقة السيطرة على خراسان بعد هزيمة الغزنويين بقيادة سنة (٤٣١هـ / ١٠٤٠م)^(٢). واستطاع السلاجقة توطيد سلطانهم عبر انتمائهم إلى المذهب السني، وإعلانهم الولاء والتبعية للخليفة العباسي القائم بأمر الله، الذي عين طغرل بك نائباً عنه في خراسان وبلاد ما وراء النهر وفي كل ما يتم فتحه من البلاد، وقد استطاع السلاجقة توسيع حدود مملكتهم بسرعة هائلة. وبدأ طغرل بك يتطلع للسيطرة على بغداد، وقد هبأت له الأوضاع السائدة في العراق تحقيق هذا الهدف سنة (٤٤٧هـ / ١٠٥٥م)، وأسقط دولة البويهيين، وأصبح أول سلاطين السلاجقة في بغداد، وقد استقبله الخليفة القائم بأمر الله بكل مظاهر الحفاوة والترحاب، رأى السلاجقة في الخلافة السنية رمزاً دينياً يعبر عن وحدة الأمة الإسلامية وعزتها، ونظروا إلى الخليفة على أنه تجسيد حي لهذا الرمز، فأحاطوه بهالة من التقدير والإكبار^(٣).

كان طغرل بك حريصاً على إبداء كل مظاهر الإجلال والتوقير للخليفة، وقد اقتدى به خلفاؤه؛ فعاملوا الخلفاء العباسيين بكل ما يليق بمكانتهم من احترام وتعظيم، وقد أراد طغرل بك أن يمنح نفسه وأسرته شرفاً فريداً متميزاً، وأن يضيفي على سلطانه السياسي صبغة روحية، فخطب ابنة الخليفة القائم بأمر الله وتزوجها سنة (٤٥٥هـ / ١٠٦٣م)^(٤). عين طغرل بك عميد الملك الكندري وزيراً له، فكان ساعده الأيمن ويعتبر عميد الملك أحد العوامل المهمة في ازدهار الدولة السلجوقية في عهد طغرل بك بفضل ما كان يتمتع به من حنكة وكفاءة، كما كان سبباً مكن السلاجقة من السيطرة على العراق ودار الخلافة، وإدخال الخليفة ووزرائه وحاشيته في طاعة السلاجقة دون إراقة دماء^(٥).

١/١- وفاة طغرل بك وتولي ألب أرسلان:

في سنة (٤٥٥هـ / ١٠٦٣م) طغرل بك بمدينة الري وعمره نحو سبعين عاماً، وتولى ألب أرسلان سلطنة السلاجقة^(٦)، وعين نظام الملك وزيراً له، وكان وزيره أثناء إمارته على خراسان قبل توليه السلطنة، ويُعدُّ نظام الملك أشهر وزراء السلاجقة وقد ظل نظام الملك وزيراً للسلطان ألب أرسلان ثم لخليفته ملكشاه ما يقرب من ثلاثين عاماً^(٧). واستطاع خلال حكم ألب أرسلان (٤٥٥ - ٤٦٥هـ / ١٠٦٣-١٠٧٣م) أن يوسع حدود مملكة السلاجقة التي ورثها عن عمه طغرل، وأن يسجل انتصارات رائعة ضد أعدائه في الداخل والخارج، فنجح في القضاء على حركات العصيان في خراسان وأذربيجان، واستولى على حلب وقضى- على النفوذ الفاطمي بها^(٨).

لكن أشهر ما حدث خلال فترة حكمه هو معركة ملاذكرد حيث عزم الإمبراطور البيزنطي رومانوس الرابع على طرد السلاجقة من أرمينيا وضمها إلى النفوذ البيزنطي، فأعد جيشاً كبيراً سنة (٤٦٣هـ / ١٠٧١م) يتكون من مائتي ألف مقاتل، وتولى قيادته بنفسه، وزحف به إلى أرمينيا، وعندما علم السلطان ألب أرسلان بذلك وهو بأذربيجان لم يستطع أن يجمع من المقاتلين إلا خمسة عشر- ألف فارس، فتقدم بهم إلى لقاء الإمبراطور البيزنطي وجحافل، والتقى جيش السلطان وجيش الإمبراطور في مدينة ملاذكرد بأرمينيا، وحمل المسلمون على الروم حملة رجل واحد، وأنزل الله نصره عليهم فانهزم الروم وامتلت الأرض بجثثهم، وتمكن المسلمون من أسر إمبراطور الروم رومانوس، فأحسن السلطان ألب أرسلان معاملته، وأعفاه من القتل مقابل فدية مقدارها مليون ونصف مليون دينار، وعقد معه صلحاً مدته خمسون عاماً، وأطلق سراحه وقد أنهت معركة ملاذكرد النفوذ البيزنطي في أرمينيا بصورة مطلقة، وفتحت المجال لامتداد النفوذ الإسلامي السلجوقي إلى آسيا الصغرى، وتهديده العاصمة البيزنطية وما وراءها في أوروبا^(٩).

٢/١- مقتل ألب أرسلان وانتقال السلطة إلى ابنه ملكشاه:

في أوائل عام (٤٦٥هـ / ١٠٧٣م) توجه ألب أرسلان إلى بلاد ما وراء النهر لتأديب أمير بخارى الثائر وبينما هو في طريقه، قتل على يد يوسف الخوارزمي أمير إحدى القلاع الشائرة بعد أن طعنه بخنجر كان معه، فمات السلطان ألب أرسلان بعد أيام متأثراً بجراحه وعمره أربعون أو خمس وأربعون سنة^(١٠)، وعقب وفاة ألب أرسلان تولى السلطنة ابنه ملكشاه بعهد من أبيه، وتولى نظام الملك أخذ البيعة له، وأقره الخليفة القائم بأمر الله على السلطنة^(١١).

وبلغت الدولة السلجوقية ذروة مجدها وعظمتها على يد ملكشاه الذي استمر في السلطنة عشرين عاماً تقريباً؛ حيث استطاع أن يستثمر ما حققه طغرل بك وألب أرسلان على أحسن وجه، فحقق إنجازات عظيمة بمعاونة وزيره نظام الملك، وقد اتسعت حدود الدولة في عهد ملكشاه اتساعاً غير مسبوق، من حدود الصين إلى آخر الشام، ومن أقاصي بلاد الإسلام في الشمال إلى آخر بلاد اليمن، وحمل إليه ملوك الروم الجزية^(١٢).

وترجع عظمة الدولة السلجوقية في عهد ملكشاه إلى اتساع حدودها وازدهار الحركة الثقافية فيها بصورة جديدة بالإعجاب، وكان لنظام الملك أثر متميز وجهد خلاق في ذلك، على المستوى الإداري والعسكري، والثقافي، فاهتم بإنشاء العديد من المدارس التي نسبت إليه في أنحاء الدولة، فسميت بالمدارس النظامية، وقد أسهمت هذه المدارس النظامية في تثبيت قواعد المذهب السني والدفاع عنه ضد مختلف البدع والأهواء والمذاهب المنحرفة التي انتشرت في ذلك الوقت^(١٣).

٣/١- مقتل نظام الملك ووفاته ملكشاه:

قتل نظام الملك في سنة (٤٨٥هـ / ١٠٩٢م)، حين تقدم إليه أحد غلمان الباطنية وهو في ركب السلطان في صورة سائل أو مستغيث، فلما اقترب منه أخرج سكيناً كان يخفيها في طيات ملابسه فطعنه بها طعنات قاتلة، وقد توفي ملكشاه بعد خمسة

بدع الصوفية والطرق الشريكية.^(١٧) وقد تفرعت من هذه الأصول الكبار مسائل متعددة متفرقة، كانوا في كل واحدة منها سالكين ومتابعين لأقوال طائفة أو فرقة من الفقه المنحرف عن منهج أهل السنة.

٣/٢- منهج الأشاعرة في العقيدة:

يمثل الأشاعرة منهجاً مستقلاً في كيانه الفكري، فالأشاعرة فرقة كلامية انشقت عن أصلها (المعتزلة)، ووافقت السلف في بعض القضايا، وتأثرت بمنهج الوحي ولذلك يعد الأشاعرة العقل مصدر التلقي، فهم يجعلون العقل هو الأساس والنقل تبعاً له وقد استعانوا بقضايا فلسفية ومسائل عقلية خاض فيها الفلاسفة، وسلكتها المناطق، قال الفخر الرازي: "ولو جوزنا القدر في الدلائل النقلية عن كونها مفيدة، فثبت أن القدر لتصحيح النقل يفضي إلى القدر في العقل والنقل معاً، إنه باطل، فالدلائل النقلية بمقتضى الدلائل العقلية القاطعة إما أن تكون غير صحيحة، إلا أن المراد منها غير ظواهرها، وهذا أمر نقطع به"^(١٨). فهذه الانحرافات، وهذا الابتداء في الشرع ما ليس منه لدى أصحاب الأهواء والبدع نتج بسبب فساد دينهم بالاعتقاد الباطل، ومن شرح الله صدره إلى الإسلام، وحبب إليه طريق الإيمان، ووقفه لسلك طريق الهدى، وتردك الردى لا يسلك في طلب معرفة الله طريق أهل المرء والجدال؛ حتى يقول: لا أنظر في المعجزة أو الأدلة السمعية حتى اعلم صدق صاحبها ولا أعلم صدقه حتى أنظر فيها، وتحول ذلك من مدفعة الحق، ودعاة من ليس بموفق، واصطلاح من ليس فيه صلاح، ولا لاح عليه فلاح؛ بل يبادر إلى النظر فيها، لاحتمال صدقها المترتب على التصديق به السعادة الكبرى، وعلى التكذيب به الشقاوة العظمى، فإذا علم صدقها سارع إلى التصديق بها، والعلم النافع والعمل ولم يشتغل بعلم المغالطات، والتشدد بالجدل، كاشتغال الخالين عن الخوف والوجل، الناسين لذكر الله^(١٩).

٤/٢- أبي الحسن الأشعري مؤسس فرقة الأشاعرة:

هو الشيخ أبو الحسن علي بن إسماعيل بن أبي بشر، إسحاق بن سالم بن إسماعيل بن عبد الله بن موسى بن أمير البصرة بلال بن أبي بردة ابن صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم أبي موسى عبد الله بن قيس بن حضار، الأشعري اليماني البصري^(٢٠)، والأشعري: بفتح الهمزة وسكون الشين المعجمة وفتح العين المهملة وبعدها راء، هذه النسبة إلى أشعر، وإنما قيل له أشعر، لأن أمه ولدته والشعر على بدنه^(٢١)، والإمام الأشعري بصري سكن بغداد إلى أن توفي بها^(٢٢)، ولد -رحمه الله- سنة ستين ومائتين هجرية بالبصرة، وقيل سنة سبعين ومائتين^(٢٣).

مارس الأشعري علم الكلام على مذهب الاعتزال مدة مديدة وبرع فيه إلى أوائل العقد الخامس من عمره، وعند ذاك السن تكون عقيدة الاعتزال صورة راسخة وملكمة متأصلة في نفسه، فمن المشكل جداً أن ينخلع الرجل دفعة واحدة عن كل ما تعلم وعلم، وناظر وغلب أو غلب، وينخرط في مسلك يضاد ذلك ويغيّره بالكلية. نعم، نتيجة بروز الشك والتدبّر هو عدوله عن بعض المسائل وبقاؤه على مسائل أخرى، وأما العدول دفعة واحدة عن جميع ما مارسه وبرع فيه، والبراءة من كل ما يمتُّ إلى منهج

وثلاثين يوماً، فانطوت صفحة من أكثر صفحات التاريخ السلجوقي تألقاً وعظمة^(٢٤). بدأت مظاهر الضعف تنتشر في جسم الدولة السلجوقية عقب وفاة ملكشاه، فظهر الانقسام والتمزق والفتن، وانقسمت الدولة السلجوقية إلى عدة أقسام^(٢٥) وهي:

سلاجقة العراق: ويطلق هذا المصطلح على أمراء السلاجقة الذين سيطروا على العراق والري وكردستان، واستمر نفوذهم من سنة (٥١١-٥٩٠ هـ / ١١١٧-١١٩٤ م)، حين تمكن الخوارزميون من القضاء على "طغرل الثالث" آخر سلاطينهم.

سلاجقة كرمان: وقد بدأ نفوذهم في الجنوب الشرقي لفارس وفي بعض مناطق الوسط سنة (٤٣٣ هـ / ١٠٤٢ م)، قبل دخول طغرل بك بغداد واستمر حتى سنة (٥٨٣ هـ / ١١٨٧ م)، حين قضى التركمان الغز على سلطتهم هناك.

سلاجقة الشام: وكان نفوذهم في المناطق التي استولى عليها السلاجقة من الفاطميين أو الروم في الشام، وقد بدأ نفوذهم في هذه المناطق سنة (٤٨٧ هـ / ١٠٩٤ م)، وانتهى سنة (٥١١ هـ / ١١١٧ م) على يد أتابكة الشام.

سلاجقة الروم: وكان نفوذهم في الأراضي التي استطاع السلاجقة الاستيلاء عليها من الروم في آسيا الصغرى، وكانت إمارتهم أطول إمارات السلاجقة عمراً؛ حيث بدأت سنة (٤٧٠ هـ / ١٠٧٨ م)، واستمرت حتى سنة (٧٠٠ هـ / ١٣٠٠ م) حين استطاع الأتراك العثمانيون القضاء عليها.

ثانياً: نبذة تعريفية عن الأشاعرة

١/٢- الأشاعرة:

هي فرقة كلامية إسلامية، تنسب لأبي الحسن الأشعري الذي خرج على المعتزلة، وقد اتخذت الأشاعرة البراهين والدلائل العقلية والكلامية وسيلة في محاجة خصومها من المعتزلة والفلاسفة وغيرهم، لإثبات حقائق الدين، وقد ظهرت في القرن الثالث الهجري، فأصبح الانتساب إلى الأشعري هو ما عليه أكثر الناس في البلدان الإسلامية، وما يجدر أن مؤسسها أبو حسن الأشعري لم يدم فيها إذ رجع إلى مذهب السلف، فصار أتباعه على أقسام، فبعضهم على معرفته بمذهبه الصحيح وآرائه التي استمر عليها أخيراً، وبعضهم على جهل تام بذلك وبعضهم يتجاهل ويصر على مخالفته، مع انتساب إليه^(٢٦).

٢/٢- مجمل أصول الاعتقاد عند الأشاعرة:

الأشاعرة يبتون لله سبع صفات يسمونها: صفات المعاني وهي: العلم، والقدرة والإرادة، والحياة، والسمع، والبصر والكلام، يؤولون بقية الصفات، أما في القرآن فقالوا: المعاني مسموعة حقيقة، والألفاظ مخلوقة، وفي القدر: أردوا التوفيق بين الجبرية والقدرية، فجاءوا بنظرية الكسب، وهي في مآلها جبرية خالصة، لأنها تنفي أي قدرة للعبد أو تأثير، وفي أخبار الأحاد قالوا: لا تفيد العلم، فلا يحتاج بها في العقائد، والأشاعرة يجعلون اهتمامهم كله في إثبات انفراد الله بالخلق والاختراع (إثبات الربوبية)، ولا يهتمون بتوحيد الألوهية الذي هو أصل بعثة الرسل، وقلما يذكرونه في كتبهم؛ لذا انخرط كثير منهم في

(٥/٢) ٤-أبو إسحاق الإسفراييني: (ت. ٤١٨هـ/ ١٠٢٧م)

وهو إبراهيم بن محمد بن إبراهيم بن مهران، أبو إسحاق عالم بالفقه والأصول وكان يلقب بركن الدين وهو أول من لقب به من الفقهاء، نشأ في إسفرايين ثم خرج إلى نيسابور وبنيت له مدرسة عظيمة فدرس فيها، ورحل إلى خراسان وبعض أنحاء العراق، فاشتهر في العالم الإسلامي، أُلّف في علم الكلام كتابه الكبير، الذي سماه الجامع في أصول الدين والرد على الملحدين، قال ابن خلكان: رأيته في خمسة مجلدات، توفي أبو إسحاق الإسفراييني في يوم عاشوراء سنة (٤١٠هـ/ ١٠١٩م) بنيسابور ثم نقل إلى إسفرايين ودفن بها.^(٣٠)

(٥/٢) ٥-إمام الحرمين أبو المعالي الجويني: (ت. ٤٧٨هـ/ ١٠٨٥م)

وهو عبد الملك بن عبد الله بن يوسف بن محمد الجويني، الفقيه الشافعي ولد في بلد جوين (من نواحي نيسابور) ثم رحل إلى بغداد، ثم مكة فمكث فيها أربع سنوات، وذهب إلى المدينة المنورة فعمل بالفتوى ودرّس فيها، ثم عاد إلى نيسابور فبنى له فيها الوزير نظام الملك المدرسة النظامية، وكان يحضر دروسه أكابر العلماء، وبقي على ذلك حوالي ثلاثين سنة غير مزاحم ولا مدافع، ودافع فيها عن الأشعرية فشاخ ذكره في الآفاق، إلا أنه في نهاية حياته رجع إلى مذهب السلف، توفي رحمه الله بنيسابور وكان عدد تلامذته نحو أربعمائة وكان له من مؤلفاته: العقيدة النظامية في الأركان الإسلامية، البرهان في أصول الفقه، ونهاية المطلب في دراية المذهب في فقه الشافعية، والشامل في أصول الدين.^(٣١)

(٥/٢) ٦-الفخر الرازي: (ت. ٦٠٦هـ/ ١٢١٠م)

هو أبو عبد الله محمد بن عمر الحسن بن الحسين التيمي الطبرستاني الرازي المولود، الملقب فخر الدين المعروف بابن الخطيب الفقيه الشافعي قال عنه صاحب وفيات الأعيان "إنه فريد عصره ونسيج وحده، فاق أهل زمانه في علم الكلام، والمعقولات" وهو المعبر عن المذهب الأشعري في مرحلته الأخيرة حيث خلط الكلام بالفلسفة، بالإضافة إلى أنه صاحب القاعدة الكلية التي انتصر فيها للعقل وقدمه على الأدلة الشرعية.^(٣٢)

المبحث الثاني: العلاقة بين الدولة السلجوقية

والأشاعرة في عهد طغرل بك (اضطهاد الأشاعرة)

كانت علاقة سلطان السلاجقة الأول طغرل بك مع علماء الأشعرية وأنصارها علاقة عداوة، حيث شهدت فترة حكمه حالات اضطهاد وملاحقة لمشايخ وعلماء الأشعرية، ابتدأت عام (٤٥٥هـ/ ١٠٦٣م) عندما أمر طغرل بك بلعن كل الطوائف المخالفة "للسنة" على المنابر، ومنها المعتزلة والأشعرية، بعدما نقل إليه أن الشيخ أبا الحسن الأشعري يقول بشيء من الأمور التي لا تليق بالدين والسنة فأمر بلعنه وصرح أهل نيسابور بتكفير من يقول ذلك.^(٣٣)

الاعتزال بصله، فلا يُمكن أن يكون أمراً حقيقياً جدياً من جميع الجهات، فالنتيجة أن تركه لمذهب الاعتزال ما هو إلا نتاج للرياح السياسية الضاغطة في ذلك الوقت ويكفي في بيان فضل أبي الحسن الأشعري ثناء الحافظ البيهقي عليه وهو محدث زمانه وشيخ أهل السنة في وقته، قال البيهقي: إلى أن بلغت النوبة إلى شيخنا أبي الحسن الأشعري فلم يحدث في دين الله حدثاً ولم يأت فيه بدعة، بل أخذ أقاويل الصحابة والتابعين ومن بعدهم من الأئمة في أصول الدين فنصرها بزيادة شرح وتبيين.^(٣٤)

كان الشيخ الأشعري سيداً في التصوف واعتبار القلوب، كما هو سيد في علم الكلام وأصناف العلوم، كما نقل ابن السبكي في طبقاته وقال: وذكر من صحبه أنه مكث عشرين سنة يصلي الصبح بوضوء العتمة^(٣٥)، وتوفي - رحمه الله - سنة (٣٢٤هـ/ ٩٣٦م) في بغداد.^(٣٦)

٥/٢ أبرز أئمة الأشاعرة وعلمائهم:

(٥/٢) ١-القاضي أبو بكر الباقلاني: (ت. ٤٠٢هـ/ ١٠١٢م)

هو محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر، من كبار علماء الكلام، هُدب بحوث الأشعري، وتكلم في مقدمات البراهين العقلية للتوحيد وغالى فيها كثيراً إذ لم ترد هذه المقدمات في كتاب ولا سنة، ثم انتهى إلى مذهب السلف وأثبت جميع الصفات كالوجه واليد على الحقيقة وأبطل أصناف التأويلات التي يستعملها المؤولة وذلك في كتابه: تمهيد الأوائل وتلخيص الدلائل، ولد في البصرة وسكن بغداد وتوفي فيها، وجهه عضد الدولة سفيراً عنه إلى ملك الروم، من كتبه: إعجاز القرآن، الإنصاف، مناقب الأئمة، دقائق الكلام، الملل والنحل، الاستبصار، تمهيد الأوائل، كشف أسرار الباطنية.^(٣٧)

(٥/٢) ٢-أبو إسحاق الشيرازي: (ت. ٤٧٦هـ/ ١٠٨٣م)

وهو إبراهيم بن علي بن يوسف الفيروز أبادي الشيرازي، العلامة المناظر، ولد في فيروز أباد بفارس وانتقل إلى شيراز، ثم البصرة ومنها إلى بغداد سنة (٤١٥هـ/ ١٠٢٤م)، وظهر نبوغه في الفقه الشافعي وعلم الكلام، فكان مرجعاً للطلاب ومفتياً للأمة في عصره، وقد اشتهر بقوة الحجة في الجدل والمناظرة، بنى له الوزير نظام الملك: المدرسة النظامية على شاطئ دجلة، فكان يدرس فيها ويديرها.^(٣٨)

(٥/٢) ٣-أبو حامد الغزالي: (ت. ٥٠٥هـ/ ١١١٢م):

وهو محمد بن محمد بن محمد الغزالي الطوسي، ولد في قسبة طوس خراسان وتوفي بها، رحل إلى نيسابور ثم إلى بغداد، فالحجاز، فبلاد الشام، فمصر ثم عاد إلى بلده، لم يسلك الغزالي مسلك الباقلاني، بل خالف الأشعري في بعض الآراء وخاصة فيما يتعلق بالمقدمات العقلية في الاستدلال، وذم علم الكلام وبيّن أن أدلته لا تفيد اليقين كما في كتبه المنتقد من الضلال، وكتاب التفرقة بين الإيمان والزندقة، وحرّم الخوض فيه فقال: "لو تركنا المداينة لصرحنا بأن الخوض في هذا العلم حرام". اتجه نحو التصوف، واعتقد أنه الطريق الوحيد للمعرفة، وعاد في آخر حياته إلى السنة من خلال دراسة صحيح البخاري.^(٣٩)

من شهر، إلى أن تحرك أبو سهل بن الموفق من ناحية باخرز وجمع من أعوانه رجالا عارفين بالحرب، وأتى باب البلد، وطلب إخراج الفراقي والقشيري، فما أجيب بل هدد بالقبض عليه، بمقتضى ما تقدم من مرسوم السلطان، فلم يلتفت وعزم على دخول البلد ليلاً، وإخراجهما مجاهرة، وتم له ذلك فعلاً وتم إخراج المسجونين عنوة، ولكن لما انتصر أبو سهل، وتم له ما ابتغى تشاور هو وأصحابه فيما بينهم، وعلموا أن مخالفة السلطان لها تبعة، وأن الخصوم لا ينأمنون، فاتفقوا على الهجرة إلى ناحية استواء، ثم يذهبون إلى الملك، وبقي بعض الأصحاب مفرقين بالنواحي، وذهب أبو سهل إلى المعسكر، وكان على مدينة الري، وخرج خصمه من الجانب الآخر، فتوفيا بالري، وانتهى إلى السلطان ما جرى، وسعى بأصحاب الشافعي، وبالإمام أبي سهل خصوصاً، فقبض على أبي سهل، وحبس في بعض القلاع، وأخذت أمواله، وبيعت ضياعه، ثم أفرج عنه وخرج، وذهب للحج كما فعل كثير من العلماء هرباً من هذه الفتنة.^(٤٠)

يتضح من ذلك أن عدة أمور أثرت في سير العلاقة بين السلاجقة والأشاعرة في عهد السلطان طغرل بك كان أهمها حالة الصراع بين الفرق والمذاهب الدينية السائدة في ذلك الوقت، فكان عادة ما يستغل أعداء الأشاعرة ذلك في الربط بين الأشعرية والمعتزلة ويلفقوا لهم الأقوال وينقلوها إلى السلطان، كما كان انتماء السلطان ووزيره للمذهب الحنفي دور بارز في تغذية اتجاه اضطهاد الأشاعرة، وطبعاً دور بطانة السلطان وخاصة وزير الكندري الذي تصدر الإساءة وإعلان الحرب على علماء مشايخ الأشعرية كان محورياً في تشكيل موقف السلطان من الأشاعرة.

المبحث الثالث: علاقة الأشاعرة مع السلاجقة في عهدي ألب أرسلان وملكشاه.

في عام (٤٥٦هـ / ١٠٦٤م) توفي السلطان طغرل بك وقد أوصى لولد أخيه سليمان بن داود، وكان طغرل بك قد نص عليه وأوصى إليه، لأنه كان قد تزوج بأمه، واتفقت الكلمة عليه، ولم يبق عليه خوف إلا من جهة عضد الدولة ألب أرسلان، محمد بن داود، فكان الجيش يميل إليه، وقد خطب له أهل الجبل ومعه نظام الملك أبو علي الحسن بن علي بن إسحاق وزيره، واستطاع ألب أرسلان القبض على وزير طغرل بك الكندري الذي بايع لسليمان، فسجنه ثم أمر بقتله^(٤١)، وبذلك انتهى أمر عدو الأشاعرة الأول وأصبحت السلطنة لألب أرسلان.

ب وفاة السلطان طغرل بك ووزيره الكندري انتهت مرحلة من مراحل علاقة الدولة السلجوقية بالأشاعرة، وبدأت مرحلة جديدة مغايرة تماماً، ويمكن القول إنه حدث انقلاب في تلك العلاقة، فبدأ ألب أرسلان سياسة جديدة مع الأشعرية فأسقط سياسة نظام السلطان السابق جميعه وأعاد العلماء المهجرين، كأبو القاسم القشيري والإمام أبو المعالي الجويني إلى أوطانهم وأكرمهم، وأمر بوقف سب الأشعرية على المنابر ووقف كل

فصح من ذلك الشيخ الأشعري أبو القاسم القشيري، وصنف رسالة شكاية السنة لما نالهم من المحنة، وكان قد رفع إلى السلطان طغرل بك شيء من مقالات الأشعري فقال أصحاب الأشعري: هذا محال وليس هذا مذهبه فقال السلطان: إنما نأمر بلعن الأشعري الذي قال هذه المقالة فإن لم تدينوا بها ولم يقل الأشعري شيئاً منها فلا عليكم مما نقول، قال القشيري: فأخذنا في الاستعطاف، فلم تسمع لنا حجة، ولم تقض لنا حاجة، وأحلنا على بعض العلماء، فحضرنا وظننا أنه يصلح الحال، فقال: الأشعري عندي مبتدع يزيد على المعتزلة.^(٤٢)

ويرجع سبب عداوة السلطان طغرل بك للأشعرية في ذلك الوقت إلى وزيره عميد المالك منصور بن محمد الكندري، الذي يتأسر حملة الكيد والاضطهاد ضد الأشاعرة فتحدث عنه المصادر التاريخية أنه معتزلياً رافضياً^(٤٣) خبيث العقيدة كان يقول بخلق الأفعال وغيره من قبائح القدريّة وسب الشيخان وسائر الصحابة، وغير ذلك من قبائح شر الروافض وتشبيهه الله بخلقه وكان له مع ذلك تعصب عظيم، فحسّن للسلطان لعن المبتدعة على المنابر فعند ذلك أمر السلطان أن تلعن المبتدعة على المنابر فاتخذ الكندري ذلك ذريعة إلى ذكر الأشاعرة وصار يقصدهم بالإهانة والأذى، وعزلهم عن خطابة الجامع واستعان بطائفة من المعتزلة الذين زعموا أنهم يقلدون مذهب أبي حنيفة، واتخذوا التمدّج بالمذهب الحنفي سياجاً عليهم، فحببوا إلى السلطان (والذي رجلاً صالحاً صاحب عقيدة، حنفي المذهب)^(٤٤) الإزراء بمذهب الشافعي عمومًا والأشعرية خصوصاً.^(٤٥)

وهناك سبب آخر دفع الكندري للحقد على الأشاعرة والدس عليهم عند السلطان طغرل بك هو منافسة رئيس نيسابور أبا سهل بن الموفق، ذا الأموال الكثيرة، والصدقات الدارة، وكان مرموقاً بالوزارة، وداره مجتمع العلماء، ملتقى الأئمة من الفريقين: الحنفية والشافعية، في داره يتناظرون، وكان عارفاً بأصول الدين على مذهب الأشعري، قائماً في ذلك مناضلاً في الذب عنه، فعظم ذلك على الكندري؛ بما في نفسه من المذهب، ومن بغض ابن الموفق بخصوصه، وخشيته منه أن يثب على الوزارة.^(٤٦) نتج عن ذلك فتنة وأحداث ذكرها السبكي بالتفاصيل في طبقات الشافعية فقال: "هي الفتنة التي طار شرها فملاً الآفاق وطال ضررها فشمل خراسان والشام والحجاز والعراق وعظم خطبها وبلاؤها وقام في سب أهل السنة خطيبها وشفهاؤها إذ أدى هذا الأمر إلى التصريح بلعن أهل السنة في الجمع وتوظيف سبهم على المنابر".^(٤٧)

وتبع ذلك أمر من قبل السلطان طغرل بك بالقبض على مجموعة من علماء الأشعرية منهم الرئيس الفراقي، والأستاذ أبي القاسم القشيري، والجويني إمام الحرمين، وأبي سهل بن الموفق، ونفيهم ومنعهم عن المحافل، وكان أبو سهل غائباً، ولما قرأ الكتاب بنفيهم أغرى بهم الغاغة والأوباش، فأخذوا بالأستاذ أبي القاسم القشيري والفراقي يجرونهما ويستخفون بهما، وحبسهما، وأما إمام الحرمين، فإنه كان أحس بالأمر واختفى، وخرج على طريق كرمان إلى الحجاز، وبقي القشيري والفراقي مسجونين أكثر

أيام التدريس للعلماء^(٥٣)، إذا نظرت إلى أبرز العلماء العاملين في المدارس النظامية لوجدتهم من قامات الأشعرية مثال أبو إسحاق الشيرازي، وإمام الحرمين الجويني، وأبو حامد الغزالي^(٥٤)، وأبي إسحاق الإسفرايني وغيرهم^(٥٥). واهتم نظام الملك بهذه المدارس اشد الاهتمام وخصص للطلاب السكن وبدل المعيش وكان من الطبيعي أن تؤدي هذه الجهود التي بذلها نظام الملك في تشييد هذه المدارس وتيسير سبل العلم فيها، وتوفير الحياة الكريمة بداخلها أن تروج سوق العلم بها^(٥٦)، فكان في نظامية نيسابور لوحدها فكان يقعد بين يدي إمام الحرمين: كل يوم نحو من ثلاثمائة رجل من الأئمة ومن الطلبة^(٥٧).

وأيضاً دفع هذا الأمر إلى تطلع الأساتذة إلى التدريس بالنظامية حتى وصل الأمر بعضهم إلى أن يضحي في سبيل هذه الغاية بالتخلي عن مذهبه في عصر كان التعصب المذهبي سمة من سماته البارزة، ومن هؤلاء: أبو الفتح أحمد بن علي بن تركان المعروف بابن الحمامي وكان حنبلياً، فانتقل إلى مذهب الشافعي، وتفقّه إلى المذهب الشافعي وتفقّه على أبي بكر الشاشي والغزالي، فجعله أصحاب الشافعي مدرساً، بالنظامية^(٥٨)، ويبدو أن انتقال الحنابلة إلى مذهب الشافعي في هذه الفترة كان أمراً كثير الحدوث بدرجة أزعت أحد أئمتهم حيث ينقل عنه قوله: إن أكثر أعمال الناس لا يقع إلا للناس إلا من عصم الله وإمّا يحاولون التقرب بها إلى ذوي النفوذ والجاه طمعاً في متاع الدنيا، ويحدث بما حدث عندما جاءت دولة نظام الملك، وعظم شأن الأشعرية والشافعية، فوجد كثيراً من أصحاب المذاهب انتقلوا عن مذاهبهم، وتوثقوا بمذهب الأشعري والشافعي طمعاً في العز والجرايات^(٥٩).

يمكن القول إن موقف دولة السلجوقية من الأشاعرة في عهدي ألب أرسلان وملكشاه كان واضحاً وثابتاً والفضل ويرجع بذلك إلى وزير سلطانهم نظام الملك، فلم يتغير موقفهم بعيد رحيل ألب أرسلان وتولية ملكشاه، وبقي الوزير نظام الملك على رأس عمله، ويظهر جلياً دور علماء الأشعرية في خدمة الحركة العلمية ونشر المذهب السني على حساب المذاهب الأخرى.

ثانياً: مهابة السلاطين من علماء الأشاعرة وتقديرهم

واحترامهم

كان نظام الملك إذا دخل عليه الإمام أبو القاسم القشيري والإمام أبو المعالي الجويني يقوم لهما ويجلس في مسنده ويجلس هو بين يديه فقبل له في ذلك فقال: "إن هذين وأمثالهما إذا دخلوا علي يقولون لي أنت كذا وكذا يثنون علي بما ليس بي فيزيدي كلامهم عجباً وتبه، وهذا الشيخ يذكر لي عيوب نفسي وأما أنا فيه من الظلم فتتكسر -نفسي- لذلك وأرجع عن كثير مما أنا فيه"^(٦٠)، ويقول السبكي عنه: "لم يتفق لغيره ما اتفق له من ازدحام العلماء عليه وتردادهم إلى بابه وثنائهم على عدله وتأليفهم الكتب باسمه يحضر سباطه مثل أبي القاسم القشيري وأبي إسحاق الشيرازي وإمام الحرمين وغيرهم"^(٦١)، وكان يتواضع

حملات التحريض والاضطهاد بحقهم، وأظهر حب واحترام كبيرين لعلماء الشافعية والأشعرية^(٦٢).

ويمكن القول إن السبب في هذا التغير السريع في موقف دولة السلجوقية يعود للحسن بن علي بن إسحاق الطوسي الملقب "بنظام الملك" فقد عينه السلطان وزيراً له، فكان رجلاً قديراً وقوياً والرجل الأول في دولة السلجوقية، استمر في وزارته حتى عهد ملكشاه^(٦٣)، وكان سنياً متحمساً فحفظه أبوه القرآن وشغله في التفقه على مذهب الشافعي^(٦٤) وكان نصيراً للأشعرية^(٦٥)، فكان له دور إرجاع علماء الأشعرية من الحجاز ومنع سبهم على المنابر.

أولاً: السلجوقية وانتشار الأشعرية

لم يكتفي نظام الملك برفع الظلم عن الأشعرية بل بدأ بسياسة جديدة أفضت إلى انتشار المذهب الأشعري في مناطق الدولة السلجوقية، وكذلك أصبحت العقيدة الأشعرية عقيدة شبه رسمية تتمتع بحماية الدولة وكانت أولى خطوات هذه السياسة بناء المدارس النظامية، وبدأ نظام الملك في بناء المدارس النظامية في عام (٤٥٧هـ / ١٠٦٥م) أي بعد عام واحد من توليته منصب الوزارة^(٦٦)، فبنى مدرسة ببغداد ومدرسة ببلخ ومدرسة بنيسابور ومدرسة بهراة ومدرسة بأصبهان ومدرسة بالبصرة ومدرسة مبرو ومدرسة بأمل طبرستان ومدرسة بالموصل^(٦٧).

وكانت أشهر وأول تلك المدارس مدرسة النظامية في بغداد، التي انتهت من بنائها سنة (٤٥٩هـ / ١٠٦٧م)، وكان أول من درس بها الأشعري أبي إسحاق الشيرازي، وقيل عنها أنها أول مدرسة نظامية رسمية بنيت للفقهاء على الطريقة الشافعية^(٦٨)، وكانت معقل للشافعية، ولهذا كان في مقدور المدرسين والوعاظ الشافعيين أن يتخذوها منبراً لبث آرائهم^(٦٩).

وتجدر الإشارة هنا؛ أن هناك انسجام وتقارب بين الشافعية والأشعرية وكان جمع لا بأس به من علماء الشافعية يميلون إلى الأشعرية، ولو نظرنا إلى مجمل علماء الأشعرية لوجدناهم من الشافعية، وقد بين ابن الجوزي استغرابه من أن يكون الحنفي اشعري أورد ذلك في ترجمته لمحمد بن أحمد السمناني فقال: "وكان أشعرياً وهذا مما يستعظف أن يكون الحنفي أشعرياً"^(٧٠)، وقد عاب أحد فقهاء الحنابلة على الشافعية كثرة تعلقهم بمقولات الأشعرية بقوله "الشافعي لم يكن أشعرياً وأنتم اشعريون"^(٧١) مما يوضح حالة التقارب بين المذهبين.

وتوضح الشروط التي وضعت للتدريس أو الدراسة في المدرسة النظامية كيف أنها وجدت لخدمة مشايخ وعلماء الشافعية والأشعرية، فيقول ابن الجوزي: "أنها وقف على أصحاب الشافعي أصلاً وفرعاً، وكذلك الأملاك الموقوفة عليها شرط فيها أن يكون على أصحاب الشافعي أصلاً وفرعاً، وكذلك شرط في المدرس الذي يكون بها الواعظ الذي يعظ بها ومتولى الكتب وشرط أن يكون فيها مقرر يقرأ القرآن ونحوي يدرس العربية وفرض لكل قسماً من الوقف"^(٧٢)، وأيضاً كان لابد لكل من يريد أن يدرس بالنظامية الحصول على منشور أو موافقة مكتوبة من الوزير نظام الملك الذي كان يتدخل أيضاً في تحديد

وكان الغزالي فساد الملوك والأمراء إلى ضعف العلماء وإهمالهم لواجبهم في قول كلمة الحق عند السلاطين فكان يقول: "إنما فسدت الرعية بفساد الملوك وفساد الملوك بفساد العلماء فلولا القضاة السوء والعلماء السوء لقل فساد الملوك خوفاً من إنكارهم"^(٦٦).

وفي خلاصة الأمر يبقى التساؤل هنا ما الذي دفع دولة السلاجقة إلى التمسك بعلماء الأشاعرة وتقريبهم من الدولة؟ وبمل تمييزهم في الدولة وبناء المدارس لنشر أقوالهم ومذاهبهم؟ وللإجابة على ذلك يجب التنويه إلى أن دولة السلاجقة عاصرت أفكار وفرق متباينة مختلفة كانت منتشرة في العالم الإسلامي كالمعتزلة، والباطنية، وبقايا القرامطة وغيرهم من أصحاب الملل والنحل، كذلك المد الشيعي والإسماعيلي الرافضي- الذين كانوا يشكلون خطراً عسكرياً وفكرياً على الدولة الإسلامية ووجودها، فكان لابد من الاستعانة بمجموعة من العلماء الأقوياء للوقوف في وجهه هذه الأخطار.

وفعلاً لو نظرنا إلى جهود علماء الأشاعرة فسنجد أن لهم الدور البارز في الحد من هذه الأخطار ومحاربتها، فكان للأشعري السبق في مجابهة المعتزلة ومجابهتهم، فقد حارب الأشعري المعتزلة بأسلحتهم فاستعان بالمنطق والفلسفة في محاجتهم والرد على أقوالهم، وأكمل من بعده الغزالي الذي ألف كتاب تهافت الفلاسفة. كذلك صنف علماء النظاميات مؤلفات علمية ناقشت أفكار الباطنية، ووضحت موقف أهل السنة منها: ومن هذه المؤلفات كتاب "فضائح الباطنية" لأبي حامد الغزالي، الذي فند وأظهر الباطنية وضلالاتهم وفنون مكرهم.

وبدأ التفكير الفعلي في إنشاء هذه المدارس النظامية للوقوف أمام المد الشيعي الإمامي والإسماعيلي الرافضي- فأن الاقتصار على مقاومة الشيعة الإمامية والإسماعيلية الباطنية سياسياً لن يكتب له النجاح على المدى البعيد؛ إلا إذا وازى هذه المقاومة السياسية مقاومة فكرية، ذلك أن الشيعة، إمامية كانوا أو إسماعيلية نشطوا في هذه الفترة وما قبلها إلى الدعوة لمذهبهم بوسائل فكرية متعددة وهذا النشاط الفكري ما كان ينجح في مقاومته إلا نشاط سني مماثل يتصدى له بالحجة والبرهان.

في حضرة العلماء ويتضاءل بين العلماء ويتنازل وإن كان منزله أعلى من نجم السماء^(٦٧).

ثالثاً: موقف علماء الأشعرية من السلاجقة

كتب الإمام الجويني رسالة متحدثاً عن فضل السلاجقة وأعمالهم العظيمة في محاربة أعداء الأمة الداخليين والخارجيين، ومبيهاً دورهم في حماية دولة الإسلام ورفعته فكتب يقول " فأقول ما تشبث به الطاعنون من هنات وعثرات صدرها عن معرة الأجناد المنحرفين عن سنن الاقتصاد في أطراف الممالك والبلاد لو سلم لهم كما يدعون توبعوا فيما يأتون ويذرون ويدعون وغض عنهم طرف الانتقاد فيما يتدعون ويخترعون فأين يقع ما يقولون مما يدفع الله بهم من معضلات الأمور ويدراً بسببهم من فنون الدواهي على كرور الدهور أليس بهم انحصار الكفار في أقاصي الديار وبهم يخفق بنود الدين على الخافقين وبهم أقيمت دعوة الحق في الحرمين وأثبتت كئائب الملة في المشرقين والمغربين وارتدت منازم الكفار منكوسة ومعالمهم معكوسة وبذل عظيم الروم الجزية والدية وصارت المسالمة والمشاركة له قصارى الأمانة وانبسطت هبة الإسلام على الأصقاع القصبة، واطلبت على قمم الماردان رايته العلية وأضحت ثغر صدورهم لأسنة عساكر الإسلام دريئة"^(٦٨). مما لا شك فيه؛ أنه هذه الرسالة تبين مدى دفاع علماء الأشاعرة عن السلاجقة ودولتهم ودورهم في إبراز أعمالهم وتذكير الناس بفضلهم على المسلمين، هذا يوضح مدى عمق العلاقة بين الطرفين.

رابعاً: نصح الأشاعرة لسلاطين الدولة السلجوقية

أبدى علماء الأشعرية النصيحة إلى سلاطين الدولة السلجوقية وأمروهم بالمعروف، ونهوههم عن المنكر، وذكرهم ببقاء الله، فهذا العالم أبو إسحاق الشيرازي قام بالإنكار على المفسدين، والذين يبيعون الخمور، وفي إبطال المواجهات وهن البغايا، وكتبوا إلى السلطان في ذلك فجاءت كتبه في الإنكار^(٦٩)، وأيضاً أبو حامد الغزالي صنف كتاب "التبر المسبوك في نصيحة الملوك" وهو عبارة عن نصائح وتوجيهات للسلطان محمد بن ملكشاه، والذي قال له فيه "اعلم يا سلطان العالم أن الدنيا منزلة وليست بدار قرار، والإنسان مسافر فأول منازل بطن أمه وآخر منازل له حد قبره، وإنما وطنه وقراره ومكثه واستقراره بعدها، فكل سنة تنقضي من الإنسان كالمحلة، وكل شهر ينقضي- منه كاستراحة المسافر في طريقه، وكل أسبوع كقرية تلقاه، وكل يوم كفر سوف يقطعه، وكل نفس كخطوة يخطوها، وبقدر كل نفس يتنفسه يقرب من الآخرة، وهذه الدنيا قنطرة فمن عمر القنطرة واستعجل بعمارتها فني فيها زمانه، ونسى المنزلة التي هي مصيره ومكانه، وكان جاهلاً غير عاقل، وإنما العاقل الذي لا يشتغل في دنياه إلا لاستعداده لمعاده، ويكتفي منها بقدر الحاجة ومهما جمعه فوق كفايته كان سماً نافعا"^(٦٥).

خاتمة

الهوامش:

- (١) ابن الأثير، عز الدين أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني الجزري. (٦٣٠هـ). **الكامل في التاريخ**. (١٠ج). (تحقيق عمر عبد السلام تدمري). (١ط). بيروت - لبنان: دار الكتاب العربي، ١٤١٧هـ / ١٩٩٧م. ج ٥، ص ٨؛ الذهبي: **تاريخ الإسلام**، ج ٤٢، ص ٢٩.
- (٢) الذهبي: **تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام**. (١٥ج). (١ط). (تحقيق بشار عواد معروف). (د. م). دار الغرب الإسلامي، ٢٠٠٣م. ج ٣٠، ص ٣٨٠.
- (٣) انظر: ابن الأثير: **الكامل في التاريخ**، ج ٨، ص ١٦٢؛ الأصفهاني، عماد الدين الكاتب محمد بن محمد صفي الدين بن نفيس الدين حامد بن أله، أبو عبد الله. (٥٩٧هـ). **تاريخ دولة آل سلجوق**. (١ج). (تحقيق يحيى مراد). (١ط). بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٢٤هـ / ٢٠٠٤م، ص ١٥، ١٤.
- (٤) الأصفهاني: **تاريخ دولة آل سلجوق**، ص ١٨.
- (٥) المصدر السابق، ص ٢١.
- (٦) الحسيني، صدر الدين. أخبار الدولة السلجوقية. (١ج). (١ط). دار الأفاق الجديدة. ١٩٨٤م، ص ٢١؛ ابن الأثير، **الكامل**، ج ٨، ص ١٨٥.
- (٧) الذهبي، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز. (٧٤٨هـ). **سير أعلام النبلاء**. (١٨ج). (د. ط). القاهرة: دار الحديث، ١٤٢٧هـ / ٢٠٠٦م، ج ١٩، ص ٩٦.
- (٨) ابن الأثير: **الكامل في التاريخ**، ج ٨، ص ١٩٤-٢٠٠.
- (٩) ابن الأثير: **الكامل في التاريخ**، ج ٨، ص ٢٢٦؛ الأصفهاني، أخبار دولة آل سلجوق، ص ٣٧.
- (١٠) الذهبي: **سير أعلام النبلاء**، ج ١٤، ص ٤٩٦؛ ابن الأثير: **الكامل في التاريخ**، ج ٨، ص ٢٣١.
- (١١) ابن الأثير: **الكامل في التاريخ**، ج ٨، ص ٢٣٣.
- (١٢) المصدر السابق، ص ٢٩٦؛ ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر البرمكي الإربلي. (٦٨١هـ). **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**. (٧ج). (تحقيق إحسان عباس). (د. ط). بيروت: دار صادر، ١٩٩٠م-١٩٩٤م، ج ٥، ص ٢٨٤.
- (١٣) ابن الأثير: **الكامل في التاريخ**، ج ٨، ص ٢٥٥.
- (١٤) الذهبي: **سير أعلام النبلاء**، ج ١٤، ص ١٢٦؛ ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر القرشي البصري الدمشقي. (٧٧٤هـ). **البداية والنهاية**. (١٥ج). (١ط). (تحقيق علي شيري). (د. م). دار إحياء التراث العربي، ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م، ج ١٢، ص ١٧٦.
- (١٥) ابن تغري بردي، أبو المحاسن يوسف بن تغري بردي بن عبد الله الظاهري الحنفي. (٨٧٤هـ). **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة**. (١٦ج). (د. ط). مصر: وزارة الثقافة والإرشاد القومي-دار الكتب، (د. ت)، ج ٥، ص ١٣٨؛ ابن الأثير، ج ٨، ص ٤٨٣؛ أبو النصر، محمد عبد العظيم يوسف. **السلاجقة تاريخهم السياسي والعسكري**. (١ط). ٢٠٠١م، ص ١١١.
- (١٦) الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة. (٢ج). (٤ط). دار الندوة العالمية للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤٢٠هـ، ج ١، ص ٨٣.
- (١٧) حمودة، عبد الفتاح: **التحولات المذهبية العقائدية**، ص ٢٤.
- (١٨) الرازي: **أساس التقديس في علم الكلام**، ص ١٣٠.

مرت علاقة الأشاعرة بسلطين السلاجقة العظام بمرحلتين أولها في عهد طغرلبيك عانى خلالها الأشاعرة من الملاحقة والاضطهاد، ولكن بمجيء ألب أرسلان ووزيرة نظام الملك بدأت مرحلة جديدة ساد فيها الأشاعرة وانتشر مذهبهم. كان للوزراء وتوجهاتهم الفكرية والمذهبية دور بارز في تحديد وتوجيه العلاقة بين السلطين السلاجقة وعلماء الأشعرية. وجود المذاهب والفرق الدينية المنحرفة ساهم في تقارب العلاقة بين الأشاعرة والدولة السلجوقية، فكان لكل طرف في حاجة للآخر لمواجهة تلك الفرق. انتمى للمذهب الأشعري أقوى أشهر علماء ذاك الزمن كالجويني، والغزالي، والشيرازي وغيرهم ولازت علومهم تدرس وتناقش إلى يومنا هذا، وكان هذا سبب في تقرب السلاجقة إليهم.

يمكن اعتبار أن الوزير نظام الملك الشخصية الأبرز التي ساهمت في توجيههم العلاقة بين الأشاعرة والدولة السلجوقية. بنهاية مرحلة السلاجقة العظام نجد أن الدولة السلجوقية حققت نتائج عظيمة من وراء علاقتها بالأشاعرة فقد مكّنوا حكمهم وساعدوهم في نشر المذهب السني، ومحاربة المذاهب والفرق الأخرى.

استفاد أيضاً الأشاعرة من الدولة السلجوقية، فقد أصبحت مقدرات الدولة تصرف عليهم وبنّت المدارس النظامية لنشر مذهبهم في ربوع الدولة السلجوقية، وفعلاً انتشر مذهبهم بعدما كانوا أقلية مذمومة.

- (٤٤) السبكي: طبقات الشافعية الكبرى، ج ٤، ص ٣١٣.
- (٤٥) الذهبي: تاريخ الإسلام، ج ٣٠، ص ٢٨٤.
- (٤٦) ابن تغري: النجوم الزاهرة، ج ٥، ص ٨٤؛ ابن الجوزي، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد. (٥٩٧هـ). المنتظم في تاريخ الأمم والملوك. (١٩ج). (ط١). (تحقيق محمد عبد القادر عطا، مصطفى عبد القادر عطا). بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م، ج ٨، ص ٢٤٦.
- (٤٧) السبكي: طبقات الشافعية الكبرى، ج ٤، ص ٣١٣.
- (٤٨) ابن الجوزي: المنتظم، ج ٨، ص ٢٤٦؛ السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر. (٩١١هـ). تاريخ الخلفاء. (١٩ج). (ط١). (تحقيق حمدي الدمرداش). (د. م). مكتبة نزار مصطفى الباز، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م، ج ١، ص ١١٣.
- (٤٩) الشيرازي، أبو إسحاق إبراهيم بن علي. (٤٧٦هـ). طبقات الفقهاء. (ط١). (تحقيق إحسان عباس). لبنان-بيروت: دار الرائد العربي. ١٩٧٠م، ج ١، ص ٥.
- (٥٠) المنتظم، ج ٨، ص ٢٨٧.
- (٥١) المصدر السابق، ج ٩، ص ٥٨.
- (٥٢) المصدر السابق، ج ٦٦.
- (٥٣) الذهبي: تاريخ الإسلام، ج ٣٣، ص ١٣.
- (٥٤) ابن الوردي، ج ٢، ص ٢٠.
- (٥٥) السبكي: طبقات الشافعية الكبرى، ج ٤، ص ٣١٤.
- (٥٦) المصدر السابق، ص ٣١٤.
- (٥٧) الذهبي: تاريخ الإسلام، ج ٣٢، ص ٢٣١؛ السبكي: طبقات الشافعية الكبرى، ج ٥، ص ١٧١.
- (٥٨) ابن الجوزي: المنتظم، ج ٩، ص ٩٣.
- (٥٩) المصدر السابق، ص ٢٥١.
- (٦٠) ابن كثير: الكامل في التاريخ، ج ٨، ص ٤٨١.
- (٦١) طبقات الشافعية الكبرى، ج ٤، ص ٣١٣.
- (٦٢) السبكي: طبقات الشافعية الكبرى، ج ٤، ص ٣١٠.
- (٦٣) الجويني، إمام الحرمين أبو المعالي. غياث الأمم في التياث الظلم. (١م). (د. ط). دار الدعوة للطبع والنشر، ج ١، ص ٢٥٠.
- (٦٤) ابن كثير: البداية والنهاية، ج ١٢، ص ١٢٨.
- (٦٥) الغزالي، محمد بن محمد بن محمد. التبر المسبوك في نصيحة الملوك. (١ج). (ط١). (تحقيق أحمد شمس الدين). دار الكتب العلمية، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٨م، ج ١، ص ١٤.
- (٦٦) الغزالي: إحياء علوم الدين، ج ٢، ص ١٥٠.
- (١٩) ابن تيمية، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي (٧٢٨هـ). اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم. (٢ج). (تحقيق ناصر عبد الكريم العقل). (ط٧). بيروت-لبنان: دار عالم الكتب. (١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م)، ج ١، ص ١١٩.
- (٢٠) الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج ١٥، ص ٨٥-٩٠.
- (٢١) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٣، ص ٢٨٥.
- (٢٢) البغدادي، أحمد بن علي بن ثابت الخطيب. تاريخ مدينة السلام (تاريخ بغداد) وذيله والمستفاد. (٢١م). (تحقيق بشار عواد معروف). (ط١). دار الغرب الإسلامي، ١٤٥٥هـ/ ٢٠٠١م، ج ١٣، ص ٢٦٠.
- (٢٣) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٣، ص ٢٨٤.
- (٢٤) طبقات الشافعية، ج ٣، ص ٣٤٧.
- (٢٥) المصدر السابق، ص ٣٥١.
- (٢٦) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٣، ص ٢٨٤.
- (٢٧) الذهبي: تاريخ الإسلام، ج ٢٨، ص ٨٨؛ ابن العماد، أبو الفلاح عبد الحي بن أحمد بن محمد العسكري الحنبلي. (١٠٨٩هـ). شذرات الذهب في أخبار من ذهب. (١١ج). (ط١). (تحقيق محمود الأرناؤوط). دمشق، بيروت: دار ابن كثير، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م، ج ٣، ص ٧٥.
- (٢٨) ابن كثير: البداية والنهاية، ج ١٢، ص ١٥٣.
- (٢٩) ابن كثير: المصدر السابق، ص ١١٤؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، ج ٣٥، ص ١١٥.
- (٣٠) ابن كثير: المصدر السابق، ص ٣٠؛ الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك بن عبد الله. (٧٦٤هـ). الوافي بالوفيات. (٢٩ج). (تحقيق أحمد الأرناؤوط، تركي مصطفى). (د. ط). بيروت: دار إحياء التراث، ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م، ج ٦، ص ٦٩.
- (٣١) ابن كثير: البداية والنهاية، ج ١٢، ص ١٥٧؛ ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج ٩، ص ٢٤.
- (٣٢) ابن خلكان: ج ٤، ص ٢٤٩.
- (٣٣) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج ٨، ص ٤٨١؛ السبكي، تاج الدين عبد الوهاب بن تقي الدين. (٧٧١هـ). طبقات الشافعية الكبرى. (١٠ج). (ط٢). (تحقيق محمود محمد الطناحي، عبد الفتاح محمد الحلو). (د. م). هجر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤١٣هـ، ج ٣، ص ٣٩٠.
- (٣٤) الذهبي: تاريخ الإسلام، ج ٣٠، ص ١٣؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج ١٢، ص ٨١.
- (٣٥) السبكي: طبقات الشافعية الكبرى، ج ٣، ص ٣٩٠؛ الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج ١٨، ص ١١٤؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج ١٢، ص ٨٦.
- (٣٦) السبكي: طبقات الشافعية الكبرى، ج ٣، ص ٣٨٩.
- (٣٧) الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج ١٨، ص ١١٤؛ ابن الوردي، أبو حفص زين الدين عمر بن مظفر بن عمر بن محمد ابن أبي الفوارس المعري الكندي. (٧٤٩هـ). تاريخ ابن الوردي "تتممة المختصر". (٢ج). (ط١). بيروت-لبنان: دار الكتب العلمية، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م، ج ١، ص ٣٥٨.
- (٣٨) السبكي: طبقات الشافعية الكبرى، ج ٣، ص ٣٩٠.
- (٣٩) ج ٣، ص ٢٩١.
- (٤٠) السبكي: طبقات الشافعية الكبرى، ج ٣، ص ٣٩١-٣٩٢.
- (٤١) ابن الوردي: تاريخ ابن الوردي، ج ١، ص ٣٥٨؛ ابن الأثير: البداية والنهاية، ج ١٢، ص ١١٠.
- (٤٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج ٨، ص ٤٨١؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، ج ٣٠، ص ٢٨٤.
- (٤٣) ابن كثير: البداية والنهاية، ج ١٢، ص ١٧٦.

التصوف في المغرب والأندلس من الفتح إلى عصر الدولة المرابطية

هشام البقالي

أستاذ التعليم الثانوي التأهيلي
ماجستير في تاريخ الأندلس
طنجة - المملكة المغربية



ملخص

مما لا مشاحة فيه؛ أن موضوع التصوف ما يزال في حاجة إلى نقض الغبار عليه، وتعميق البحث فيه بعد أن غشيه حجب النسيان والإهمال ردحاً من الزمن في الجامعات المغربية والمؤسسات الأكاديمية. لكن مع هذا، يجب الإقرار بأن هذا الأمر بدأ بالتغير تدريجياً، إذ أضحي موضوع التصوف اليوم من بين الموضوعات التي تثير كثيراً من النقاشات الفكرية، سواء داخل أروقة الجامعات أو المؤسسات الأكاديمية، بل وتقام له الندوات الدولية. وقد ظهرت في السنوات الأخيرة مجموعة من الدراسات التي اهتمت بموضوع التصوف سواء على شكل أطاريح جامعية أو دراسات قطاعية، وذلك في مختلف عصور التاريخ المغربي والأندلسي. لكن الذي يثير انتباه الباحث أن الدراسات المتعلقة بالمرحلة المبكرة للتصوف في هذين القرنين تبقى قليلة جداً. وفي هذه الدراسة سنحاول التعرف على المراحل المبكرة للتصوف في المغرب والأندلس منذ الفتح إلى عصر الدولة المرابطية.

كلمات مفتاحية:

التصوف، المغرب، الأندلس، صقلية، الدولة المرابطية

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث: ٠٤ ديسمبر ٢٠١٥
تاريخ قبول النشر: ١٣ مارس ٢٠١٦

DOI 10.12816/0052950

معرف الوثيقة الرقمي:

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

هشام البقالي، "التصوف في المغرب والأندلس من الفتح إلى عصر الدولة المرابطية"، - دورية كان التاريخية، - السنة الحادية عشرة - العدد الأربعون، يونيو ٢٠١٨، ص ٦٧ - ٨٧.

مقدمة

الظاهرة، وعليه قسمت هذا المقال إلى مبحثين اثنين رصدت في الأول "جذور التصوف الأندلسي" وأهم القنوات التي نهل منها، فتبين أن نشأته كانت نشأة إسلامية خالصة، عكس ما تدعيه العديد من الدراسات الأجنبية، خاصة منها تلك التي ألقت في فترة الاستعمار. وخلال عرضي لأهم هذه القنوات قمت بتفنيدي الرأي القائل بأن التصوف الأندلسي قد يكون أسبق نسبياً على التصوف بالشرق. بينما في المبحث الثاني والمعنون بـ "جذور التصوف المغربي" فحاولت على غرار سابقه التذكير بأهم القنوات التي أثرت في التصوف المغربي سواء منها المشرقية أو الأندلسية... مناقشاً ومفنداً الرأي القائل بأن التصوف المغربي ارتبط بالمرحلة الأخيرة من العصر المرابطي، بل وارتباطه أشد الارتباط بالأزمات. إذ تبين أن التصوف لم يكن أبداً مرتبطاً بالأزمات.

جذور التصوف الأندلسي والمغربي

في البداية لابد من ذكر ملاحظة أساسية، وهي فكرة متواترة في الدراسات التاريخية سواء المغربية منها أو العربية أو

من نافلة القول إن التصوف بالمغرب والأندلس لا يزال في حاجة إلى نقض الغبار عليه، وتعميق البحث فيه بعد أن غشيه حجب النسيان والإهمال ردحاً من الزمن في الجامعات المغربية والمؤسسات الأكاديمية. لكن مع هذا، يجب الإقرار بأن هذا الأمر بدأ بالتغير تدريجياً، إذ أضحي موضوع التصوف اليوم من بين المواضيع التي تثير كثيراً من النقاشات الفكرية، سواء داخل أروقة الجامعات أو المؤسسات الأكاديمية، بل وتقام له الندوات الدولية. وقد ظهرت في السنوات الأخيرة مجموعة من الدراسات التي اهتمت بموضوع التصوف سواء على شكل أطاريح جامعية أو دراسات قطاعية، وذلك في مختلف عصور التاريخ المغربي. لكن المتعلقة منها بدولة المرابطين تبقى قليلة جداً.

يحاول هذا المقال الكشف عن جذور التصوف الأندلسي- والمغربي، حيث عملت على التعريف بأهم القنوات التي أثرت في التصوف سواء بالأندلس أو المغرب منذ العهود المبكرة لهذه

بوظيفة الحسبة^(١٠)، وهذا المتصوف ابن قسي- الذي اشتغل بالأعمال المخزنية^(١١). وهناك أمثلة أخرى كثيرة لرجال الدولة المرابطية ممن كانوا يشغلون مناصب مهمة فتخلوا عنها وانضموا لركب التصوف. فهل كان هؤلاء وهم من الطبقة العليا من أمراء وعمال وولاة... يعانون من أزمة اقتصادية حتى انضموا لركب التصوف؟ وعليه فإن هذا الطرح لا ينسجم في نظرنا مع العديد من رجال الدولة المرابطية. ونعتقد أن الأمثلة التي أوردناها تنهض حجة على ما ادعاه الدكتور الحسين بولقطيب. والغريب في الأمر أن هناك من الباحثين من يؤكد بصفة نهائية على أنه "من الثابت عموماً أن التصوف يترسخ ويشد عوده إبان الأزمات"^(١٢)

من جهتنا نعتقد أن الأمر على غير ما ذهب إليه الحسين بولقطيب وغيره. لأن التصوف كان قد ضرب له جذوراً عميقة في أرض المغرب والأندلس أيام الدولة المرابطية. وإذا كانت الأزمة هي السبب الرئيس في انتشار التصوف؛ أو بفضلها انتشر- التصوف في أواخر الدولة المرابطية حسب هؤلاء، فمن حقنا أن نتساءل: لماذا لم ينتشر- التصوف في عصر- ملوك الطوائف في الأندلس مثلاً؟ وهي الفترة التي عرفت انتشاراً للأزمة على أكثر من صعيد، سواء على الصعيد السياسي والاقتصادي والاجتماعي والأخلاقي. بل ولماذا لم ينتشر- التصوف قبيل قيام الدولة المرابطية في المغرب حينما كانت هذه البقعة من الغرب الإسلامي تتخبط في مشاكل لا حصر لها، إن على المستوى الاقتصادي أو السياسي أو العقدي، بل وحتى على المستوى الأخلاقي^(١٣)؟ فإذا كان التصوف ينتشر في ظل الأزمة، ألم يكن من الأجدر ومن المنطقي أن ينتشر- هذا التصوف في عصر- ملوك الطوائف وقبيل قيام الدولة المرابطية على الأقل، لا أن ينتظر المرحلة الأخيرة من عصر الدولة المرابطية؟ وهذا ما فطن إليه أحد الباحثين عندما رأى بأن التصوف ليس نتيجة معاكسة لحياة مادية باذخة، وإنما نتيجة آلية لغياها. بمعنى أنه يزدهر في التربة التي لا تعرف إغراءات مادية ولا أحابيل شهوانية^(١٤).

وإذا ما نحن سلمنا بصحة وجهة النظر هذه والقائلة بأن التصوف نتاج أزمة، فبالتالي ألا يُمكن القول بأن تاريخ المغرب كله سيصبح عبارة عن أزمت. حجتنا على هذا أننا نجد هذه الظاهرة متأصلة عبر تاريخ المغرب. صحيح أن التصوف يستند إلى المحددات المادية، وهذه الأخيرة تجعله يتكيف مع الظروف الجغرافية والتاريخية لكل مرحلة مع هذا؛ يجب الإقرار بأن الاقتصار على الربط بين التصوف وبين الأزمة من شأنه أن يحوله إلى معطى ظرفي لا يظهر إلا مع حلولها ويختفي بزوالها. وهذا معطى تنفيه الصيرورة التاريخية للتصوف في الغرب الإسلامي برمته والمغرب والأندلس بصفة خاصة. في حين نزع أن التصوف هو أحد ثوابت الفكر والتاريخ المغربيين وبنياتهما، أما الأزمت فهي في نظرنا تعمل على تنشيط حيوية التصوف ولا تأسسها، وإلا كيف يمكن أن نفسر حضور الأولياء في غير أوقات الأزمت؟ سوى إذا اعتبرنا أن تاريخ المغرب برمته تاريخ أزمة! وهذا افتراض بعيد كل البعد عن جادة الصواب، لأن تاريخ المغرب ينهض حجة ضد هذا الزعم. وبالتالي فإننا نؤكد ما ذهب إليه

الأجنبية؛ مفادها أن الباحث في التصوف المغربي، ليستري انتباهه أن كثيراً إن لم نجزم القول بأن كل الدراسات سواء منها المتخصصة أو المهتمة بالتصوف- من قريب أو من بعيد- تميل إلى ربط انتشار ظاهرة الأولياء والمتصوفة بالمرحلة الأخيرة من العصر المرابطي. وفي الوقت نفسه تربط ذلك بتجذر الأزمة في مختلف شرايين الحياة العامة^(١٥). هذا؛ ويرى الدكتور الحسين بولقطيب أن "الأزمة دعت قطاعات عريضة من المجتمع المغربي والأندلسي إلى الالتفاف حول الأولياء والمتصوفة باعتبارهم الأقدر على تغيير الواقع المتأزم"^(١٦).

وإذا جارينا هذا الطرح والباحث هنا يتحدث عن أزمة اقتصادية، فكيف سنفسر أن العديد من رجالات الدولة المرابطية قد تخلوا عن مناصبهم وانضموا تحت لواء التصوف. حجتنا فيما نذهب إليه أن المصادر التي بين أيدينا تذكر أن من بين الذين اعتنقوا التصوف شريحة مهمة من أمراء الدولة المرابطية. ونذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر: الأمير مزدي والأمير ميمون بن ياسين^(١٧). ومما تورده المصادر أن تاشفين بن علي كان ممن يحب مجالس المريدين وكتبهم. هذا، وقد دخل الأمير المرابطي أبو إسحاق باران بن يحيى المسوفي في سلك الصوفية (ت. ٥٧٠هـ/ ١١٧٦م)، حتى أن الشيخ طلب منه أن يزيل اللثام ويذهب إلى السوق ويأتي وعلى رأسه طبق من الطرف، حتى يتأكد من صدقه للانخراط في الجماعة فامتثل وعمل بما قاله شيخ الصوفية^(١٨). وقال له: قد لحقت بأهل الطريق وزال عنك الكبر، فنهض إلى سجلماصة. وهذا المتصوف ابن حزمه نجاه قد تمكن من التأثير على أحد الأمراء حين جاء لتدريسه، فجعله يسلك طريقه حتى "بلغ بركته النهائية في مقام الورع"^(١٩).

ومن الأمراء أيضاً نذكر أبو زكرياء بن يوغان الصنهاجي (ت ٥٣٧هـ/ ١١٤٤م) تلميذ أبي محمد عبد السلام التونسي- الذي أقبل على العبادة إلى أن لحق بالله عز وجل. وكان أبو محمد عبد السلام التونسي يقول إذا أتاه من يستوهد منه الدعاء، يقول له: اذهب إلى ابن يوغان واستوهد منه الدعاء، فإنه ملك زهد في الدنيا، وأما أنا فكنت فقيراً وبقيت فقيراً وما زدت شيئاً وكان ينشد^(٢٠):

وكان فؤادي خالياً من هواكم *** وكان بذكر الحق يلهو ويمرح.

ويذكر ابن الزيات أن مروان بن عبد الملك المرابطي استدعي إلى مراکش لتولي خطة الحسبة، فلما وصل رأى أحد المتصوفة تحفه جموع كبيرة من الناس يزدحمون عليه ويقبلون رأسه ويده، فما كان منه إلا أن تعجب كيف أن هذا الولي يقابل بهذا التعظيم والإجلال رغم أنه أمي! في حين أنه لم ينفعه أي شيء مما تعلمه، فأقسم أن ينقطع إلى الله ويدخل عالم التصوف^(٢١). ولا غرو في ذلك، فأمرأ الدولة المرابطية على العموم كانوا أقرب إلى الزهاد والمتصوفة، فلا غرابة إذا وجدنا منهم من اعتنق طريق التصوف، فطبيعة وسلوك أمراء المرابطين كان يميل إلى السلوك الصوفي^(٢٢).

ومن بين الولاة نذكر أبو محمد بن عبد الله بن عبد الملك^(٢٣). وممن اشتغل بوظائف أخرى نذكر ابن العريف الذي اشتغل

الإسلامي"^(٢٣)، وفي موضع آخر يرى "أن بداية التصوف في بلاد المغرب الإسلامي كانت في النصف الأول من القرن الثالث الهجري"^(٢٤)، بينما ترى إحدى الباحثات أن التصوف وُجد "في دولة المرابطين بوصفه ظاهرة اجتماعية، وجدت قبولاً لدى الناس في المغرب العربي والأندلس منذ القرن الرابع الهجري"^(٢٥). فهل يمكننا أن نجاري أصحاب هذه الدراسات ونقر بأن التصوف في المغرب فعلاً قد وُجد في القرن الثالث كأبعد تقدير أو في القرن الرابع على أقل تقدير؟ مع العلم أن هذه الدراسات لا تفرق بين التصوف كفكر، والتصوف كممارسة وسلوك يعتنقه الشخص^(٢٦). وهذا الخلط بين الاتجاهين المذكورين هو الذي يجعل هذه الدراسات لا تصل إلى رأي محدد لتحديد بداية التصوف في المغرب، أضف إلى هذا وذاك أن بعض الدراسات لا تفرق بين بداية التصوف في المغرب وبداية التصوف في الأندلس، بل تجعل انطلاقتها وبدايتها في وقت واحد!

من جهتنا نزعّم بأن عدم الحسم في تحديد بداية معينة للتصوف في المغرب ترجع إلى عدة عوامل، منها اختلاط المتصوفة بالزهاد اختلاطاً كبيراً في بلاد المغرب في الوقت الذي ظهر فيه التصوف، ناهيك عن استمرار الزهاد بعد ظهور التصوف، وهذا الأمر نجده حتى في القرن السادس الهجري، حيث يزعم كثير من الباحثين أنه البداية الحقيقية للتصوف المغربي. هذا، بالإضافة إلى تشابه كثير من أنشطة الزهاد والمتصوفة الأمر الذي يجعل من العسير التمييز بين الزاهد والمتصوف، خاصة إذا علمنا أن المغاربة- كانوا ولا يزالون- يستخدمون مسميات واحدة للدلالة على كل من الزهاد والمتصوفة.

ومما يزيد في صعوبة تحديد بداية محددة لظهور التصوف في المغرب في القرون الهجرية الأولى والتفريق بين الزاهد والمتصوف، أن المصادر المغربية التي بين أيدينا- كتب الطبقات، المناقب، التراجم...- قلما تشير في تناولها لتلك الفترة إلى مصطلح صوفي.

ويبقى أهم عائق في نظرنا في وجه المحاولات الجدية في الكشف عن البداية الحقيقية لظهور التصوف في المغرب، أن البحث التاريخي لم يسمح بعد بوضع اليد على مزيد من الوثائق والمضام التي تسعف في إعطاء فرص للإجابة على السؤال المطروح: متى بدأ التصوف في بلاد المغرب؟ ومتى انتقل من طور الزهد إلى طور التصوف؟ خاصة وأن الكثير من أمهات كتب التصوف التي ألفت في عصر- المرابطين أو قبله قد عفى عنها الزمن، أو تعرضت للاندثار بسبب الخصوم السياسيين أو المعارضين للتصوف في هذه المرحلة، بل إن الناجي منها- على قلته- ما يزال مخطوطاً. بل إننا نزعّم أن النصوص التي وصلتنا ضئيلة علينا بما من شأنه أن يثبت في الأمر ويحسم الموقف.

صحيح أن القرنين الخامس والسادس الهجريين قد عرفا ازدهاراً كبيراً للتصوف، واكتسح هذا الأخير النسيج الاجتماعي الأندلسي والمغربي، لكن ذلك لا يعني على أية حال، بأن الغرب الإسلامي لم يعرف ظاهرة التصوف حتى انتهى القرن الخامس الهجري كما ادعى البعض. وإذا صدقنا وجهة النظر هذه، ألسنا بذلك نتغاضى عن الرصيد التاريخي الذي سبق هذه الفترة منذ

أحد الباحثين حينما اعتبر بأن "التصوف ثابت والأزمة ظرفية، ومن ثم لا بد من إخضاع الثانية للأول"^(١٥).

في حين نجد الدكتور جمعة شيخة يكتب: "قد يتم الزهد في الحياة نتيجة لعدم انسجام الشخص مع المحيط الذي يعيش فيه، أو نتيجة لأزمات وجودية أو ما وراثية تنتاب المرء من حين لآخر، ولكن الزهاد يكونون عند ذلك أفراداً يُعَدُّونَ على الأصابع. أما إذا أصبح الزهد ظاهرة اجتماعية ينضوي تحت لوائها الجم الغفير وفي أماكن مختلفة، فإن هذا دليل على أن هناك ضرباً من الاختلال في المجتمع الذي ينتمون إليه. وهذا ينطبق على المجتمع الأندلسي- فقد انتشرت الفرق الصوفية المعروفة بالمريدين في شرقي البلد ووسطها وغربها"^(١٦). مع العلم أن النماذج التي يستشهد بها الباحث في مقاله كلها لكبار المتصوفة في العصر- المرابطي، وليست لزهاد عاديين. فالباحث هنا لا يفرق بين "الزاهد" و "المتصوف"! فهل ابن العريف وابن بَرَجَان وابن قسي وأبو بكر الميوقري... وغيرهم من كبار متصوفة عصر- المرابطين في الأندلس مجرد زُهَّاد عاديين كما يستشف ذلك من كلام الدكتور جمعة شيخة؟ بينما يذهب أحد الدارسين إلى القول بأن الغرب الإسلامي لم يعرف هذه الظاهرة حتى انقضى- القرن الخامس الهجري/ الثاني عشر للميلاد^(١٧). نفس الرأي نجده يرد على لسان الدكتور منال عبد المنعم السيد جاد الله حيث تقول: "وعلى الرغم من ظهور التصوف في القرن الثاني الهجري وانتشاره في الشرق العربي إلا أن المجتمع المغربي كان بمعزل عنه ولم يعرفه أهله كما عرفه إخوانهم المشاركة حتى أوائل القرن الخامس الهجري أو قبله بقليل، وذلك في عهد المرابطين"^(١٨). بينما نجد الدكتور الحسين بولقطيب يكتب: "إن التصوف بدأ يشق طريقه إلى المغرب في القرن السادس الهجري"^(١٩). أما الأستاذ محمد زوزيو، فيرى بأن المغرب لم يعرف هذه الظاهرة إلا في عهد الدولة الموحدية^(٢٠)، بينما يرى بعض الباحثين سواء كانوا مغاربة مشاركة أو أجانب أن التصوف بالمغرب قد بدأ في القرنين الخامس والسادس الهجريين^(٢١). ومن أغرب الفرضيات ما ذكرها الباحث علي الجاوي الذي أرجع سبب انتشار التصوف في المغرب عصر الدولة المرابطية ومن بعدها الدولة الموحدية إلى أن المذاهب الرسمية سواء منها المذهب المالكي أو المذهب التومرتي كانت معقدة على عامة المسلمين "الذين وجدوا في التصوف ما يشفي غليلهم ويلبي حاجتهم إلى حياة دينية بسيطة وحية ملتصقة بظروف عيشهم وبعيدة عن التجريد المفرط. ولذلك اعتنقوا ما وصلهم من مدارس التصوف المشرقية مثل أفكار الغزالي على يد المتصوفة المغاربة والأندلسيين"^(٢٢).

ومن جهتي أتفق مع الدكتور محمد بركات البيلي الذي يرى "أن بداية التصوف في بلاد المغرب الإسلامي لم تتأخر كثيراً عن مثيلاتها في المشرق الإسلامي. إذ اتسعت ماهية الزهد في المغرب تدريجياً نتيجة التصاعد الذي ألم بالظروف والعوامل التي نشأ عنها الزهد في تلك النواحي، ومن ثم تصاعد الزهد بدوره مؤدياً إلى التصوف في بلاد المغرب على نحو كبير الشبه بما حدث في المشرق الإسلامي. ويلوح هذا التصاعد التدريجي في الأفق المغربي منذ نهاية القرن الثاني الهجري مواكباً مثيله في المشرق

الصلاة طوال الليل، وهو الذي بنى مسجد سرقسطة في الثغر الأعلى. ومما تجدر الإشارة إليه هنا أن أهل الثغر كانوا يتبركون بقربه بعد ذلك زمناً طويلاً^(٣٦). مما ينهض قرينة أنه منذ هذه الفترة قد بدأ الناس فيها يعتقدون في بركة الأولياء، هذا من جهة؛ ومن جهة ثانية يمكن القول بأن هذه الإشارة تنهض حجة على بداية التغلغل الصوفي في الأندلس. وعلي بن رباح (ت ١١٤هـ) الذي عُرف بورعه وابتعاده عن الترف، وهو من التابعين الذين وفدوا مع عبد الله الصنعاني. كما كان اجتهد بعض التابعين ممن دخل الأندلس في العبادات يزرع بذور اتجاه أهل الزهد والانقطاع بها.

وفي أواسط القرن الثاني، نجد أن هناك زهاداً استقطبوا أنظار الناس بل وما لبثوا أن أشاعوا طريقهم، فصار لهم مريدون وأتباع^(٣٧). وفي مقدمتهم نجد الزاهد داوود بن ميمون بن سعد الذي كان يوصف بالصلاح، وقد كان موضع تقدير حتى من قبل القوطي أمير النصارى^(٣٨). وقد أعقب ميمون هذا ابنًا يدعى داوود يصفه ابن الأبار بأنه كان "أوحد عصره نسكا وزهدا"^(٣٩)، ناهيك عن أبي الفتح الصدفوري^(٤٠)، بالإضافة إلى فرقد السرقسطي الذي يوصف بأنه (عالم الحدتان)^(٤١). وكنا هذين الأخيرين صديقين متلازمين اشتغلا بالجهاد، فكانا يرابطان بالثغر الأعلى شطرا من العام ثم يسيران فيقضيان الشطر الآخر من العام في قلنزية (البرتغال)^(٤٢). ومن الطبيعي لهذا الزهد الذي انتشر في هذه الفترة المبكرة من تاريخ الأندلس أن يتجه أصحابه إلى الجهاد في سبيل الله ضد النصارى وفتح البلاد. لأن هذه المرحلة كانت تتطلب ذلك.

بالإضافة إلى الأسماء التي مرت معنا فالباحث لا يعدم أسماء أخرى لزهاد وعُباد في الأندلس خلال هذه الفترة. وهكذا نجد زياد بن عبد الرحمن الملقب بشبظون والذي كان من الزهاد، وهو تلميذ الإمام مالك^(٤٣). وهناك زاهد آخر تذكره المصادر، ويتعلق الأمر بالزاهد أبو الأجنس (ت ١٨٠هـ) الذي كان يتناول ثلاث وجبات فقط كل سبعة أيام في شهر رمضان^(٤٤). يتضح مما سبق؛ أن الزهد في هذه الفترة كان فردياً، يقتنع فيه السالك بالعبادة. بل إننا لن بالغ إذا ما نحن قلنا بأن هذه الفترة تُعد بمثابة فترة انتقال من الزهد إلى التصوف. فالتصوف في هذه المرحلة لم يكن يعدو كونه سلوكاً فردياً لم يبلغ بعد أن يكون تياراً عاماً، إذ كان الزهد لا يزال الأكثر قبولا وانتشاراً على الساحة الأندلسية. وبالتالي يمكن القول بأن التصوف لم يكن بعد قد كَوَّن رصيдаً كبيراً بين أهل الأندلس، وبالتالي ظل مجرد نزعة فردية ينزع إليها نفر قليل من الأندلسيين.

أما إذا انتقلنا إلى بداية القرن الثالث الهجري فإننا نرى أن معالم الزهد الأندلسي بدأت تتضح وتتحدد مقتربة مما اتسمت به الحياة الروحية في المشرق^(٤٥). فالأندلسيون اتجهوا بكثير من التعظيم لهؤلاء الرجال الصالحين، ومن بينهم الزاهد: أيوب البلوطي الذي كان مجاب الدعوة، ويحيى بن قاسم بن هلال (ت ٢٧٢هـ أو ٢٩٧هـ) الذي لم يكن يغادر المسجد سوى للنوم في بيته^(٤٦)، وإبراهيم بن محمد بن باز (ت ٢٧٤هـ)^(٤٧). والملاحظ

دخول الإسلام إلى منطقة الغرب الإسلامي ومهد لها، والمتمثل في تيار الزهد الذي كان يدعو إلى الانعزال عن الملذات الدنيوية والاعتكاف على العبادة. وإذا ما نحن قمنا بإلقاء نظرة على كتب التصوف والمناقب والتراجم الأندلسية والمغربية، فإننا نجد أنها تحفل بأسماء رجالات من القرون الهجرية الأولى من هذا النوع. إذا كان الأمر والحالة هذه، فما هي إذن جذور التصوف بمنطقة الغرب الإسلامي؛ خاصة على ضفتي الزقاق؟ ومن أين تسرب التصوف الذي سيكتسح النسيج المغربي والأندلسي مُرَكَّبِيهِ الحضري والقروي، والذي سيصبح قوة اجتماعية وسياسية فاعلة، خصوصاً في القرن السادس الهجري/ الثاني عشر للميلاد^(٣٧)؟ وهل فعلاً لم تعرف منطقة الغرب الإسلامي ظاهرة التصوف حتى انقضى القرن الخامس الهجري كما ادعى البعض؟ تلك إشكالات ضمن أخرى سنحاول الإجابة عنها في هذا الفصل.

أولاً: جذور التصوف الأندلسي

ترجع البدايات الأولى للتصوف في الأندلس إلى أواخر القرن الثالث الهجري، حيث تحدثنا كتب التراجم الأندلسية عن ممارسات بسيطة لعدد من النساك والمتعبدين في إطار نوع من الزهد^(٣٨)، وذلك على نحو ما حدث في المشرق. وإن كانت هذه البدايات متأخرة عن مثيلاتها هناك^(٣٩). وقد جانب الباحث المعاصر عمر فروخ الصواب عندما زعم بأن الغرب الإسلامي لم يعرف ظاهرة التصوف حتى انقضى القرن الخامس الهجري، مدعياً من جهة أخرى بأن التصوف نتاج مشرقى لم ينبت في التربة المغربية إلا متأخراً^(٤٠). وإذا افترضنا صحة هذا الرأي فأين سنضع "المدرسة المسرية" كبرهان على الممارسة الصوفية بالأندلس^(٤١). بل وقبل ذلك بكثير حينما تحدثنا المصادر عن بعض الزهاد الذين قدموا مع الفتح الإسلامي لهذه المنطقة وعلى رأسهم التابعي حنش بن عبد الله الصنعاني^(٤٢)، الذي كان من زهده أنه إذا فرغ من عشاءه وحوائجه، قَرَّبَ إناء ماء فكان إذا وجد النعاس استنشق الماء حتى يظل يتلو من آي القرآن بقية ليله^(٤٣). ونعمان بن عبد الله الحضرمي الذي كان أزهده الناس، وكان يتصدق بعطائه كله حتى لا يبقى شيء له ولا لأهله، ولم يكن يلبس إلا لباساً خفيفاً، وقد استشهد في دفاعه عن ثغور الأندلس. وبالنظر إلى المعلومات المتوفرة فيما يخص الفترة المبكرة، يمكننا القول بأن التصوف قد دخل إلى العدو الأندلسية عبر ثلاث محطات: المشرق، إفريقية وصقلية، فكيف ذلك؟

١/١-المشرق:

من الطبيعي أن تكون القناة المشرقية هي مصدر التأثير المباشر، وذلك باعتبار أن المشرق الإسلامي مجال التصوف ومنطلقه^(٤٤)، خاصة إذا علمنا أن الفتح الإسلامي للأندلس قد تزامن مع تبلور المنحى الصوفي في الإسلام بالمشرق^(٤٥).

وقد كانت العساكر الإسلامية التي قدمت إلى إقليم الأندلس تتكون من بعض الكتائب التي قدمت من المشرق، والبعض منهم كان يميل للزهد. ولعل أبرزهم حنش بن عبد الله الصنعاني المتوفى في أول القرن الثاني للهجرة. ويُذكر عنه أنه كان يُديم

٢/١- إفريقية:

إذا كانت الأندلس قد استقلت سياسيا في القرن (الثاني للهجرة/ الثامن للميلاد)، وقامت بها دولة أموية ذات سيادة، فإنها من الناحية الثقافية والفكرية بقيت مرتبطة بالشرق الإسلامي، تتابع خطاه وتردد أصداؤه ما يجري فيه. وبالنسبة للفترة- موضوع البحث- كان هذا التفاعل يتم زمانا في مواسم الحج بالخصوص، ويتم بمكة المكرمة والمدينة المنورة. ولكن مراحل الطريق سواء البرية منها أو البحرية كانت أيضا تلعب دورًا هامًا في نقل التأثير إلى الأندلس^(٦٠).

ولعل أهم اتصال ثقافي تم بين الأندلس والعدوة الإفريقية كان يتم بالقيروان، إذ أن هذه الحاضرة كانت يومئذ مركزا مهما لأهل العلم. وقد ساعدت هذه المدينة أهل الأندلس بعلمائها، كما أثرت بصلحائها في عبادها ونسائها. وكانت القيروان مستقر بعض الصحابة وكثير من التابعين، إذ إنه منذ البدايات الأولى للقرن الهجري الثاني/ الثامن الميلادي، كانت آثار العباد واضحة بها. وكان إسماعيل بن عبيد الأنصاري من خيرة الفضلاء التابعين بها^(٦١). وبعد هذا الجيل اشتهر بالقيروان كثير من الزهاد الصالحاء الفضلاء ومن أمثلة ذلك: الفقيه سحنون بن سعيد الذي كان يبدو جامعا لأوصاف الفقهاء وفضائل الزهاد، بالإضافة إلى بهلول بن راشد الذي التف حوله العباد وطلبة العلم، ناهيك عن أبي خالد عبد الحق القتاب وأبي عبد لله محمد أحمد السوسي وغيرهم كثير.

وقد كان المتصوفة يجتمعون بشكل دوري في بعض المساجد بالقيروان، وفي رباط المُنستير خاصة^(٦٢). وقد كان محتوى هذا الاجتماع الخاص للمتصوفة في بعض المساجد كمسجد السبت^(٦٣) ورباط المنستير يشمل على أنشطة معتمدة في حلقات الصوفية: أذكار وسماع وأحوال. فقد كان الزهاد والعباد يلتقون فيه ويعقدون حلقا للذكر وقراءة القرآن وإنشاد أشعار الزهد والرقائق، مثل أشعار ابن معدان:

مُرَّ بِدَارِ الْمُتَرَفِينَ وَقُلْ لَهُمْ
أَيْنَ أَرْبَابِ الْمَصَانِعِ وَالْقُرَى
مُرَّ بِدَارِ الْمُتَرَفِينَ وَقُلْ لَهُمْ
أَلَا قَطْعَ الْمَوْتِ التَّنَصُّبُ وَالْعَنَا

وقوله:

إذا كنت في دار الهوان فإِذَا

ينجيك من دار الهوان اجتنابها

وأهم ملاحظة يمكن للباحث ملاحظتها حول مسجد السبت هذا، هو أنه لقي معارضة شديدة من طرف فقهاء المالكية، خاصة على يدي الفقيه يحيى بن عمر، وقد قام هذا الفقيه بحملة تشهيرية ضد هذا المسجد، بل ونجده يقوم بتأليف كتاب "في النهي عن حضور مسجد السبت"^(٦٤).

٣/١- صقلية:

من الروافد التي ساعدت على ذيوع النفس الصوفي في الأندلس، تلك الواردات التي كانت ترد من إقليم صقلية. فقد

أن الناس من فرط تعلقهم بهؤلاء وغيرهم نجدهم ينسبون العديد من الكرامات لهؤلاء الزهاد^(٤٨).

ولعل من مظاهر نضج الحياة الروحية في الأندلس خلال هذا القرن، إقامة تلك الأربطة التي يقيم فيها النساك والعباد سواء كانوا أفرادًا أو جماعات^(٤٩)، خاصة في الثغور بين أرض الإسلام والممالك المسيحية وقد كان للثغر الأعلى في سرقسطة ووشقة وتطيلة... من مدن الثغر نصيب كبير من تلك الأربطة. هذا مع العلم بأن حياة العباد في هذه الأربطة وكانت مزيجا من التعبد والجهاد^(٥٠). وقد بدأت هذه الرباطات تنتشر تدريجيا في داخل البلاد منذ منتصف القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي.

إذن يمكننا القول-استنادًا إلى المعطيات السالفة الذكر- بأنه في هذه المرحلة بالذات بدأ التصوف الأندلسي يتميز شيئا فشيئا عن نظيره في العصور السابقة، وذلك بكونه لم يعد مسألة فردية يزاولها أشخاص مشتتون لا يجمعهم هدف، بل يتضح أنهم صاروا يَكُونُونَ جماعات لها أهداف مشتركة، بل ويقومون في متعبد خاص بهم^(٥١). وهذا إن دل على شيء فإنما يدل أن التصوف أضحى يهتم بالجماعة لا الفرد بعينه. حجتنا فيما نذهب إليه أن ابن الفري عند ما ترجم للمتصوف أصبح بن مالك القيرواني (ت. ٢٩٩هـ)، ذكر أنه كان يتحلق حوله جماعة من المتصوفة فيناقشون الأمور العامة في منزله الكائن ببشستر Bobastro^(٥٢).

ولعل ما زاد الحياة الروحية نضجًا هو اهتمام بعض الأندلسيين الراحلين إلى المشرق بقاء بعض المتصوفة هناك^(٥٣)، أو جمع سير العباد والزهاد والمشاركة. فمما لا مشاحة فيه أن رحلات الأندلسيين إلى المشرق كانت من أهم العوامل التي ساعدت على انتشار الأهماط السلوكية-الخاصة بأهل التصوف-في الأندلس في هذه الفترة. ومن بين أولئك نجد أحمد بن محمد الرومي القرطبي تلميذ ابن وضاح، الذي لقي عقب رحلته للمشرق إبراهيم بن الجنيد الصوفي البغدادي وسمع منه تصنيفه في الزهد وأدخله إلى الأندلس لما عاد من رحلته^(٥٤)، بالإضافة إلى محمد بن وضاح القرطبي (ت. ٢٨٧هـ/ ٩٠٠م)، مؤلف كتاب "العباد والعوابد"^(٥٥). وهذا أبو عثمان بن سعيد بن عمران بن مشرف من أهل قرطبة، خرج حاجا ودخل العراق فسمع من بندار محمد بن بشر وغيره^(٥٦). هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإننا لا نعدم أسماء عدة من صوفية المشرق يَمُومُوا وجوههم تلقاء الأندلس، ومنهم على سبيل المثال أبو العباس طاهر بن محمد بن عبد الله بن موسى بن إبراهيم المعروف بابن المهند^(٥٧) وأبو بكر أحمد بن محمد بن صالح بن النضر- الأنطاكي^(٥٨)، وأبو عبد الله محمد بن شجاع الصوفي^(٥٩). من خلال ما سبق نلاحظ أن التصوف الأندلسي- قد نهل في بدايته من التصوف المشرقي سواء كان ذلك من الشام أو العراق التي كانت حواضره مثل البصرة والكوفة... موطنًا للزهاد والمتصوفة أو من غيرها من المناطق المشرقية.

حيث أصبح قوة اجتماعية فاعلة^(٧٢)؟ هذا ما سنحاول الإجابة عليه في المبحث الثاني من الفصل الأول.

ثانياً: جذور التصوف المغربي^(٧٣)

بادئ ذي بدء، نود الإشارة إلى ملاحظة أساسية تتعلق بالتصوف المغربي. فمما لا مشاحة فيه أن من بين القضايا التي ما يزال يكتنفها الغموض بخصوص موضوع التصوف المغربي، ولم يُحسم فيها من قبل الباحثين تبرز مسألة تحقيب تطور التصوف المغربي- وذلك بإجماع أغلبية المؤرخين المتخصصين بالتصوف المغربي- أضف إلى ذلك نوعية وطبيعة التيارات الخارجية التي أثرت فيه سواء بالنسبة للمشرق أو إفريقية أو الأندلس^(٧٤). إذ من الصعب على الباحث في هذا الموضوع أن يُجزم بتعيين بداية محددة للممارسة الصوفية بالمغرب^(٧٥).

ولا يعزى هذا الأمر في الواقع إلى تأخر الظاهرة نفسها^(٧٦). مع العلم بأن أغلب الدراسات ترى أن التصوف ظهر في القرن السادس الهجري. لكن الأمر في نظرنا يحتاج إلى إعادة النظر في هذا الطرح، وإلى الكثير من البحث والدراسة. دليلاً فيما نذهب إليه أن هذه الدراسات لا تفرق بين ظهور التصوف كـ"فكر" وبين التصوف كـ"ممارسة". فمن جهتنا نزعم- استناداً إلى الوثائق التاريخية- بأن التصوف المغربي ظهر قبل ذلك بكثير. فإذا كان التصوف بالمشرق ظهر في أواخر القرن الثاني للهجرة كاتجاه فكري، فإن نظيره المغربي قد تأخر كثيراً حتى القرن السادس الهجري. حجتنا في ذلك تزامن هذا القرن بظهور أقدم المصنفات المناقبية في المغرب ونعني بها كتابي المستفاد للتميمي والتشوف لابن الزيات. أما إذا نظرنا إلى بدايات التصوف المغربي كسلوك يتبعه الشخص فإننا نزعم- استناداً إلى المصادر التاريخية- بأن التصوف المغربي قد ظهر مع دخول هذا القطر تحت دار الإسلام، حجتنا فيما نذهب إليه أن المتصفح لكتب التراجم المغربية- الأندلسية يجد أن مؤلفي هذه الكتب قد أطلقوا على بعض المُتَرَجِمِينَ لهم صفة التصوف، أو وصفوهم بألقاب مرادفة للفظ "تصوف" من قبيل: خمول، مجاب الدعوة... ومن خلال هذه الألفاظ يمكننا القول بأنها تدل على انتشار التصوف "كممارسة" وليس "كفكر" منذ فترة مبكرة.

وإذا عدنا لمناقشة من يزعم أن التصوف المغربي قد ظهر في المغرب في القرن السادس الهجري، فإننا نرى أن الحجج التي يقدمونها تنهاوي أمام النقد التاريخي. ذلك أن أغلب مؤرخي التصوف المغربي يربطون بين ظهور التصوف وعملية إحراق إحياء علوم الدين للغزالي. وعند تتبع هذه القضية في المصادر نرى أن من أفتى بحرق الكتاب كانوا فقهاء من الأندلس وليس من المغرب، هذا من جهة؛ أما من جهة ثانية فإن العديد من الباحثين الذين يرون أن التصوف ظهر في القرن السادس يربطونه بثورة المريدين في الأندلس ناهيك عن إشخاص زعماء التصوف لمراكش، ونعني بهم كل من ابن العريف وابن برجان والميورقي. ولنا أن نتساءل: هل كون إشخاص متصوفة أندلسيين إلى مراكش دليل كاف على أن التصوف قد انتشر- في القرن السادس الهجري في المغرب؟ خاصة وأن هؤلاء الثلاثة هم

نجح التصوف نجاحاً كبيراً في هذا الإقليم رغم كونه قد فُتح للإسلام متأخراً عن باقي الأقطار^(٧٥). فقد فُتح هذا الإقليم بصفة نهائية على عهد المأمون العباسي وبقيادة أسد بن الفرات^(٧٦). رغم هذا التأخر الحاصل في فتح صقلية، فإن صفحة صوفية مشرقة ظهرت بصقلية وذلك في القرن الهجري الثالث/ التاسع الميلادي. ومن بين العوامل التي ساعدت على نضاعتها سهولة الاتصالات بين الجزيرة وحواسر الشرق الإسلامي، خاصة مع العاصمة بغداد موطن الصوفية والزهاد. فقد سافر إلى هناك عدد لا بأس به من الصقليين سواء كانوا من أهل البلد أو من العرب المستقرين بها^(٧٧). فهذا سعيد بن سلام قد رحل إلى الحجاز حيث حظي هناك باحترام كبير، وذلك لتقدمه في العبادة والانقطاع إلى الله عز وجل. وتوجه من هنالك إلى بلاد فارس وتوفي في نيسابور سنة ٩٨٣م. ومن المعروف أن نيسابور في هذا الوقت كانت من معاقل أهل الحديث وأهل التصوف. كما أن الصوفي عتيق بن محمد حظي بنفس الاحترام في بغداد، وهي يومئذ عاصمة الخلافة الإسلامية وموطن لعدد من المدارس الصوفية. ومن بين أبناء صقلية الصوفية الذين جابوا أقطار العالم الإسلامي نذكر، عتيق بن علي السمنطري. والجدير بالذكر أن هناك من الصقليين من جمع بين علمي الحديث والتصوف^(٧٨).

وفي القرن الرابع نجد أبا بكر محمد بن إبراهيم التيمي الصوفي، الذي سافر إلى العراق طلباً للعلم وحضر- الجلسات الصوفية التي كان يتولاها الصوفي الكبير أبو القاسم الجنيد، ومنها عاد أبو بكر إلى موطنه صقلية حاملاً معه زادا في مجال التربية الروحية^(٧٩). واستطاع بعض الصوفية الصقليين أن يكوّنوا طُرُقاً للتربية خاصة بهم، ومن بينهم أبو القاسم عبد الرحمان بن محمد البكري. كما ساهم كذلك في تأليف الكتب سواء في "التصوف" أو "في صفة أولياء الله وكراماتهم"، وقد توفي أبو القاسم البكري هذا قبل سنة ٣٨٦هـ^(٨٠). إن الباحث في التصوف لا يعدم أسماء عدة صلحاء من صقلية ارتفعوا عن الرذائل واجتهدوا في التحلي بالفضائل وقطعوا ليالي طوالاً في التهجّد والاستغفار، ثم استحقوا أن يكونوا موضع تقدير السكان وإكبارهم. كل هذه المعطيات المتواجدة في أرض صقلية كانت تتفاعل مع ما يجري بأرض الأندلس، فتتبادل الجزيرتان التأثير والتأثير، إذ إن صقلية بحكم موقعها الاستراتيجي كانت مرحلة فيما بين المشرق والأندلس، تمر منها الأفكار والأخبار القادمة من الأندلس، والمتوجهة إليها^(٨١).

مما سبق ذكره يتضح بأن؛ العناصر المحلية والتأثيرات الإقليمية والروافد الشرقية، عملت على تخمير الممارسة الصوفية الأندلسية منذ دخول هذه الظاهرة إلى الأندلس مع الفتح الإسلامي لها. بل حتى أن الضفة الأندلسية ستكون فيما بعد من المحطات الأساس في تكون الممارسة الصوفية في المغرب. وبعد أن مهدنا لجذور التصوف في الأندلس، وعرفنا أهم القنوات التي أثرت فيه وكانت منطلقه، نرى ما هي جذور التصوف المغربي؟ وما هي أهم القنوات التي نهل منها التصوف المغربي منذ بداياته الأولى وحتى القرنين الخامس والسادس الهجريين،

للمحاسب^(٩٣). وبالتالي فإن عددا لا يستهان به من متصوفة المغرب قد تتلمذوا وأخذوا التصوف من نظرائهم في المشرق^(٩٣).

والملاحظ أن الأمر لم يقتصر على سفر متصوفة المغرب إلى المشرق، بل إننا لا نعدم من الإشارات التي تثبت أن متصوفة مشاركة يمموا وجوههم لقاء المغرب. فطبقا لوحدة الظاهرة الصوفية في العالم الإسلامي، لا سبيل لإنكار التلاقح الروحي بين مشرق العالم الإسلامي ومغرب^(٩٤). فقد أدت العلاقات الوثيقة التي ربطت بين المتصوفة المغاربة ونظرائهم المشاركة إلى قيام هؤلاء بزيارة أرض المغرب. فقد حجت طائفة من متصوفة المشرق لزيارة أبي عبد الله بن أمغار^(٩٥) وأبي شعيب وأبي عيسى- في أمور حسبما يذكر ابن الزيات^(٩٦). وقبل ذلك قام أحد المتصوفة بزيارة الأندلس ويتعلق الأمر بالزاهد طاهر بن محمد المعروف بالمهند (ت. ٣٩٠هـ) وهو من أهل بغداد وكانت له رسائل عجيبة ومقالات في معاني الزهد على مذهب المتصوفة^(٩٧). وظل الاهتمام منصبا على مصنفات الجنيد والمحاسب وأبي طالب المكي^(٩٨) والغزالي^(٩٩). ولا يخفى الدور الهام لهذا الأخير في التصوف المغربي، لكن هذا الأمر لا يصل- في نظرنا- إلى حد القول بأن هذا الأخير كان له دور مهم "في ميلاد التصوف بالمغرب" كما زعم أحد الباحثين^(١٠٠). لأن التصوف كان قد اشتد عوده وترسخ في التربة المغربية قبل أن تنتشر كتب الغزالي في المغرب وخاصة كتابه "إحياء علوم الدين".

صحيح أن تعاليمه ونظرياته الصوفية قد وجدت التربة الخصبة في المغرب والأندلس^(١٠١) وذلك بفضل العلماء الذين حجوا إليه واتصلوا به^(١٠٢). ولعل أشهرهم الولي محمد صالح بن حرزهم^(١٠٣) الذي أخذ عنه ثم عاد إلى مدينته فاس التي "نشر- بها طريقته وهدى الله به خلقا كثيرا"^(١٠٤)، والذي يُعتقد أنه أول من أدخل مذهب الإمام الغزالي إلى المغرب وخاصة إلى فاس حسب العديد من الدارسين^(١٠٥)، والذي تتلمذ مباشرة على الغزالي^(١٠٦). لكن ذلك لا يعني أن هذا الأخير كان له دور مهم في ميلاد التصوف بالمغرب. دليلنا في ذلك أن هناك عدد كبير لمصنفات صوفية كانت تُدرّس في العصر- المرابطي وقبله بقليل من قبيل: مؤلفات ابن أبي زمنين والحاتر المحاسبي. وقبل بداية العصر المرابطي شرع ابن سعدون في تدريس كتاب "الأنوار" لابن الحسن بن جهضم (ت. ٤١٤هـ) وعدد من كتب أبي بكر المطوعي مثل: "من صبر ظفر" و "المقالات في المقامات" و "أخبار الشبلي" وعن ابن سعدون روي كتاب "طبقات الصوفية" للسلمي^(١٠٧). وهذه الكتب المذكورة كلها كتب مشهورة بنزعتها التصوفية، وبالتالي فإن انتشار هذه الكتب يدل على أن التصوف كان منتشرا قبل دخول مؤلفات الغزالي لبلاد المغرب؛ مما ينهض حجة على عدم صحة ما ادعاه الدكتور إبراهيم القادري بوتشيش.

ومن خلال بعض التراجم نجد أن الولي أبا مدين شعيب قد لقي في الحج الشيخ عبد القادر الجيلاني، فألبسه خرقة التصوف^(١٠٨). وهي بدون شك من بين القرائن التي تثبت تأثير التصوف المشرقي في التصوف المغربي. هذا؛ وكان عبد الجليل بن ويحلا^(١٠٩) قد التقى كذلك بشيخه أبي الفضل الجوهري المصري

متصوفة أندلسيون وليس متصوفة مغاربة. مع العلم باننا لم نعثر في أي ترجمة - في المصادر التي عدت إليها- على ما يدل بأن متصوفة المغرب قد تعرضوا لمضايقات كما حدث لنظرائهم الأندلسيين^(٧٧).

وإذا عدنا لقضية إحراق الإحياء فإننا نرى أنها لم تتعلق بموقف الغزالي من التصوف بل كان سبب حرقه يعود إلى موقف صاحبه من أعطيات السلاطين، وأيضا موقفه من الفقهاء الذين يأخذون هذه الأعطيات^(٧٨). وعليه فإننا نخالف الرأي القائل بأن التصوف قد ظهر في القرن السادس الهجري وذلك على ضوء ما قدمناه وأوردناه أعلاه. هذا، مع العلم بأن البحث في قضية التصوف في المغرب، قد كانت مجال اهتمام كثير من الباحثين، وقد قُدمت بناءً على ذلك عدة افتراضات، اعتمدت في بعض الأحيان على الربط بين نشأة التصوف وبداية "الطوائف الدينية"^(٧٩)، وأحيانا أخرى اعتمدت على بعض المؤشرات ذات الطابع الشخصي والفيلولوجي لافتراض تلك البداية، أو الانطلاق من المحلي وتحويله إلى العام، خاصة مع الكتابات الكولونيالية في فترة الحماية وقبلها بقليل، حيث كانت تولي أهمية كبيرة لدراسة الحساسيات الدينية للمغرب^(٨٠)، ناهيك على تشديدها على الماضي الوثني للبربر، وذلك قصد تفسير المكانة المتميزة للأولياء داخل المجتمع^(٨١). وبالنظر إلى المعلومات المتوفرة، فيما يخص الفترة المبكرة يبدو بأن التصوف قد دخل المغرب عبر ثلاث قنوات رئيسية: المشرقية، الإفريقية، والأندلسية، فكيف تم ذلك؟

١/٢-المشرق:

من الطبيعي أن تكون القناة المشرقية هي مصدر التأثير المباشر باعتبار المشرق الإسلامي مجال التصوف ومنطلقه^(٨٢). فطبقا لوحدة الظاهرة الصوفية في العالم الإسلامي، لا سبيل لإنكار التلاقح الروحي بين مشرق العالم الإسلامي ومغرب^(٨٣). ولا غرو في ذلك؛ فالتصوف بالغرب الإسلامي قطعة حية من التصوف الإسلامي بالمشرق^(٨٤). إذ نعلم يقينا أن التصوف انتشر- انتشارا واسعا في الشرق إبان هذه الحقبة، بل وقبلها بكثير. ولم يكن تصوف الغزالي سوى عطاء صادق لهذا المد الصوفي^(٨٥). لذلك يمكن القول بأنه من البديهي أن يصل هذا التيار إلى المغرب الأقصى على ضوء هذا المعطى. وقد يتم ذلك عبر عدة طرق: إما عن طريق الحج^(٨٦)، أو عن طريق الرحلات العلمية^(٨٧). فإليه كان يذهب المغاربة لأداء مناسك الحج، وعند العودة منه يكونون قد تشبعوا بأفكار وتعاليم وسلوكات ومؤلفات صوفية يعملون على نشرها في الوسط المغربي^(٨٨)، ومن أمثلة ذلك: أبو عبد الله بن سعدون القيرواني^(٨٩) أول شخص مترجم في التشوف، والذي حمل تواليف أبي بكر المطوعي واستقر بأغامت حتى وافته المنية. وبُعِيد ذلك لقي أبو جبل يعلى^(٩٠)، أبا الفضل عبد الله بن حسن الجوهري الشيخ المتصوف (ت. ٤٨٠هـ) وحمل منه طريقته وعاد إلى فاس حيث توفي بها سنة ٥٠٣هـ/ ١١٠٩م^(٩١). وهذا عبد العزيز التونسي- الذي كان يحث تلامذته من المصامدة على قراءة كتاب "رعاية حقوق الله"

والالتزام به والاكثار من تلاوته، ويوصي بالصلاة بالليل وبحفظ اللسان وذكر الموت. بالإضافة إلى عدد كبير من الزهاد الآخرين نذكر منهم: الزاهد عبد الملك بن أبي كريمة (ت ٢٠٤هـ)^(١٣٣)، وأبو عبد الله حمدون بن عبد الله العسال (ت ٢٤٤هـ)^(١٣٤) الذي كان من أهل الفضل والدين والاجتهاد في العبادة وغيرهم كثير^(١٣٥).

وقد كان المتصوفة يجتمعون بشكل دوري في بعض المساجد بالقيروان، وخاصة مسجد السبت الذي يحدثنا المؤرخ المالكي في كتابه "رياض النفوس" والذي -مسجد السبت- كان يجمع كل أمارات الحلقة الصوفية المعهودة، ومن تسمية هذا المسجد يتضح بأنه كان يعقد بشكل أسبوعي في كل يوم سبت، وبالمثل كان المتصوفة يجتمعون في رباط المنستير.

والملاحظ هو أن مسجد السبت هذا، لم يحقق الإجماع حوله من قبل كل القيروانيين. فقد كان من بين هؤلاء من يحتفظ بشأنه، حيث وجدت معارضة من طرف الفقهاء وخاصة الفقهاء المالكيين، بعدما تقوى التصوف بإفريقية وخاصة خلال القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي. إذ تميزت هذه الفترة بازدياد الاحترام الشعبي للأولياء والمتصوفة، وبظهور ممارسات صوفية وطقوس أثارت حفيظة هؤلاء الفقهاء المالكيين^(١٣٦)، الذين عارضوا وبشدة مجلس الذكر والسماع الذي كان يُعقد بمسجد السبت هذا. وقد تزعم الفقيه الأندلسي- يحيى بن عمر هذه المعارضة، بل أدى به الأمر إلى القيام بحملة تشهيرية ضد هذا المجلس وذلك عن طريق تأليف كتاب في "النهى عن حضور مسجد السبت" وود لو أنه "هدم حتى لا يجتمع فيه أحد"^(١٣٧).

وخلال القرن الهجري الرابع/ العاشر للميلاد، اندلع بالقيروان جدال قوي حول كرامات الأولياء، كان من المدافعين عنها كل من: عبد الرحمان بن محمد البكري الصقلي، والقاضي المالكي المالكي ابن أبي زيد القيرواني (ت. ٣٩٦هـ/ ٩٩٦م)^(١٣٨). أما خلال القرن الهجري الخامس/ العاشر للميلاد، فزى بأن رجال التصوف كانوا يشتركون في امتلاك رصيد علمي وفقهي، ناهيك عن مناهم الزهدي والتعبدية^(١٣٩)، لذلك ليس جازافاً أن تكون أول تراجم كتاب "التشوف"، هي تلك المتعلقة بابن سعدون القيرواني الذي حمل تأليف المطوعي في التصوف واستقر بأغامت وريكة^(١٤٠). بل نجد من بينهم من كان ميلاً إلى الاستعاضة عن تدريس الفقه بالعمل على نشر المؤلفات الصوفية، ومن بين هؤلاء نجد الزاهد عبد العزيز التونسي المتوفى سنة ٤٨٦ هـ، الذي سكن مالقة وغيرها من البلاد الأندلسية واستقر أخيراً بأغامت ودرس الناس عليه الفقه ثم تركه لما رآهم نالوا بذلك الخطط والعمالات، وقد قال بهذا الصدد: "صرنا بتعليمنا لهم كبائع السلاح من اللصوص"^(١٤١).

والملاحظ أن البعض من هؤلاء الشيوخ قد هاجروا من إفريقية واستقروا بالمغرب الأقصى، مساهمين بذلك في نشر التصوف في هذه المنطقة^(١٤٢) ومن بينهم نذكر: ابن سعدون القيرواني صاحب عدة تأليف في الفقه وناشر تعاليم أبي بكر المطوعي في التصوف، هذا بالإضافة إلى الزاهد عبد العزيز التونسي^(١٤٣) الذي كان يحث تلامذته من المصامدة على قراءة

عندما رحل إليه من المغرب "واتخذ الطريقة على حقيقتها من المشرق"^(١٤٤). ولعل من بين القرائن التي تثبت تأثير المشرق في ظهور التصوف بالمغرب، أن الشيخ الجيلاني كان كلما سُئل عن قرين يضاويه في البلاد الإسلامية كان يشير إلى عبد حبشي- بالمغرب اسمه آل وكنيته أبو يعزى^(١٤٥). هذا، والملاحظ لكتاب "التشوف" ليرى أنه يزخر بعدد من المغاربة الذين يمموا وجوههم شطر المشرق، وانبهروا بشيوخ التصوف هناك وأخذوا عنهم^(١٤٦).

وفي الوقت نفسه، نرى أن بعض متصوفة المشرق قد شدوا الرحال تلقاء المغرب والأندلس، فساهموا بذلك في نشر- التصوف^(١٤٧). لذلك لم يكن من قبيل الصدفة أن يتسرب الفكر الصوفي إلى المغرب ويؤثر في مجموعة من المتصوفة^(١٤٨). وعلى كل، فإن التصوف الذي ولد وترعرع في المشرق شأنه شأن جميع الفرق والمذاهب الدينية، قد نفذ إلى المغرب الأقصى وأثر في دفع حركة التصوف بهذه المنطقة. فمن غير المعقول أن نجد صدى للحركات الدينية المشرقية على أرض المغرب من قبيل: مذهب الخوارج والدعوة العلوية والمذهب الشيعي. ناهيك عن ظهور النزعة العقلية للمعتزلة والأشاعرة، وألا نجد التصوف يشق طريقه إلى أرض المغرب، وبالتالي فإنه كان سيبدو الأمر غريباً إن لم ينجح التصوف المشرقي في التغلغل والنفاذ إلى أرض المغرب^(١٤٩).

٢/٢- إفريقية:

ثاني القنوات التي تأثر بها التصوف المغربي نجد القناة الإفريقية. فقد تأثر التصوف المغربي من القناة الإفريقية وذلك عبر حاضرة القيروان التي كانت تتردد فيها أصداء المدارس الصوفية المشرقية. فقد أقام بها ذي النون المصري باحثاً عن الصلحاء، واستوطنها كثير من الزهاد والصلحاء. ومن هذه الحاضرة قدم بعض الأهالي واستوطنوا مدن وبوادي المغرب خاصة أغامت^(١٥٠). ومن نفس القناة تسرب المجهود الدعائي لبعض شيوخ إفريقية الزيرية ومن بين هؤلاء نجد تلامذة أبي عمران الفاسي^(١٥١) الذي يعتبره بعض الباحثين أول من أدخل تعاليم أبي القاسم الجندب إلى إفريقية^(١٥٢).

وقد عرفت القيروان عبّاداً ونُسّاكاً من القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي، ومن الفضلاء التابعين بها نجد الزاهد إسماعيل بن عبيد الأنصاري، الذي تصفه المصادر بأنه كان من "أهل الفضل والعبادة والنسك والإرادة"^(١٥٣)، بالإضافة إلى التابعي أبي يزيد اللخمي المتوفى سنة ١٧٢هـ^(١٥٤) الذي كان من الزهاد القانتين المنقطعين إلى الله تعالى بالعبادة، وكان يوصي بكتاب الله وينصح بالالتزام به. ففي رسالته إلى البهلول بن راشد يقول له: "واستعن بكتاب الله عز وجل وكثرة ذكره وتلاوته فإنه الشفاء والرحمة للمؤمنين"^(١٥٥). وتحفل كتب التراجم بأسماء عديدة لزهاد آخرين نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر- الزاهد أبو خالد عبد الخالق المعروف بالقتاب^(١٥٦)، الذي كان من المجتهدين في العبادة، راغباً في الآخرة، كثير الخوف دائم الحزن، كثير المعروف قليل الهيبة من الملوك، وكان يوصي بالقرآن الكريم

الوحدة بين المغرب والأندلس من طرف المرابطين، بل وقبل ذلك بكثير. فقد كانت الكتب والآراء تنتقل بينهما بكامل الحرية والسهولة. ويحفل كتاب "التشوف" بأسماء عدة للمتصوفة الذين عبروا من الأندلس وإليها.

استنتاج

يتضح مما سبق ذكره أن: التصوف بالمغرب والأندلس، قد ظهر منذ القرون الهجرية الأولى، عكس ما يذهب إليه البعض^(١٤١). إن التصوف المغربي والأندلسي- قد نهل في بداياته الأولى من مجموعة من القنوات، على رأسها القناة المشرقية، فالتصوف المشرقي شكل رافدا من الروافد المهمة في تشكل التصوف المغربي والأندلسي على حد سواء. ولا غرو في ذلك، لأن المشرق الإسلامي هو موطن التصوف ومنطلقه. وخاصة عن طريق الحج والتلمذ على أعلام التصوف المشرقي كالإمام الغزالي. لذلك حق لأحد المستشرقين القول بأن التصوف المغربي وفد من المشرق^(١٤٢). هذا بالإضافة إلى صقلية التي كان لها دور فعال في التأثير في التصوف الأندلسي- والمغربي، خاصة بحكم موقعها الاستراتيجي بين المشرق الإسلامي وبلاد المغرب الأقصى- ولا ننسى عمليات التأثير والتأثر التي كانت تتفاعل بين الأندلس وصقلية.

إن الأنشطة التي عرفتها منطقة الغرب الإسلامي، كانت متناثرة في جميع ربوع الدولة المرابطية، وذلك حيثما حل الزهاد والمتصوفة. وقد انتشرت عدة مراكز للأنشطة الصوفية، كالميرية^(١٤٣) في الأندلس. وفاس وأغامت وريكة، ومراكش، وقصر-كتامة، وسبتة، وسلا، وسجلماسة... في المغرب، وكانت المدارس مجال تدريس علوم التصوف^(١٤٤).

إن الباحث في التصوف بالغرب الإسلامي، لا يخفى عليه الدور الهام الذي قام به الإمام الغزالي؛ فقد كان هذا الأخير حلقة وصل بين الطريقتين: الجنيديّة والشاذليّة بواسطة علماء مغاربة أشهرهم صالح بن حرزهم الذي تتلمذ وأخذ عليه بالمشرق، ونشر مذهبه بفاس، ثم بالمغرب عموماً على يد ابن أخيه علي ابن حرزهم^(١٤٥)، ودرس على هذا الأخير المتصوف أبو الحسن الشاذلي، ومن الذين نشروا مذهب الغزالي كذلك أبو بكر بن العربي الذي أخذه من الغزالي بالمشرق^(١٤٦) أثناء رحلته العلمية^(١٤٧)، ناهيك عن المتصوف أبو الفضل بن النحوي. ويرى الدكتور محمد الشريف أنه "أحد الذين ساهموا مساهمة كبيرة في نشر إحياء علوم الدين للغزالي"^(١٤٨).

عرفت بلاد المغرب مجموعة من الرباطات^(١٤٩) ونشاطاً صوفياً مكثفاً منذ وقت مبكر تمثل في: رباط نفيس: كان قائماً خلال القرن الهجري الخامس/ الحادي عشر للميلاد، وكان هذا الرباط مجمعا للصوفية. رباط شاكرا^(١٥٠): من أقدم الرباطات في المغرب، كان يحضره العلماء والمريدون من جميع مناطق المغرب، كما كان يقام به موسم سنوي^(١٥١).

إن بدايات التصوف الأندلسي- والمغربي كانت متواضعة متمثلة في الممارسات الزهدية التي كان يحياها بعض النساك، كما تخبرنا بذلك مختلف كتب التراجم الأندلسية المغربية^(١٥٢).

كتاب "رعاية حقوق الله" للمحاسبي^(١٣٤) ونحو ذلك من علوم التصوف، ناهيك عن المتصوف أبي الفضل ابن النحوي المتوفى سنة (٥١٣هـ/ ١١١٩م) الذي أقام فترة في سجلماسة وفاس، وهو من بين الذين ساهموا مساهمة فعالة في نشر- كتاب "إحياء علوم الدين" للإمام الغزالي^(١٣٥)، بل وكان من أهم المتصوفة الذين قاموا بالدفاع عن الغزالي وكتابه "إحياء علوم الدين"^(١٣٦). ومما تجب الإشارة إليه، أن أغلب هؤلاء الصوفية اختاروا أغامت وريكة مكاناً لإقامتهم قبل بناء مراكش عاصمة المرابطين سنة ٤٥٤هـ/ ١٠٦٢م^(١٣٧). فهل لهذا للاستقرار بهذه الحاضرة مغزى ودلالة أم أن ذلك مجرد صدفة؟

٣/٢- الأندلس:

إن الباحث في جذور التصوف المغربي لا يخفى عليه الدور الهام الذي لعبته هذه القناة في التصوف المغربي، فقد كان لأطرها المثقفة ذات المنحى الزهدي دوراً هاماً بالنسبة لتمثيل صوفية المغرب للتصوف الإسلامي والمتمثل كذلك في نقل التأثيرات الزهدية إلى الضفة الجنوبية من الزقاق. وهذا ما توضحه كتب التراجم المغربية والأندلسية، وكذا بعض الدراسات الحديثة حول انتشار الميولات الزهدية بالأندلس منذ العهود الأولى للإسلام بأرض الأندلس وحتى بداية القرن الخامس للهجرة/ الحادي عشر- للميلاد^(١٣٨). لقد شكلت هذه الميولات الأرضية الخصبة التي أنتج فيها مذهب صوفي بالديار الأندلسية وذلك قبل القرن الهجري الخامس^(١٣٩).

وخلال هذا القرن انتشرت بعض التأليف المشرقية المتعلقة بالتصوف^(١٤٠). وقد تأثر متصوفة المغرب بنظرائهم الأندلسيين، من قبيل ابن مجاهد الإلبيري، وابن أبي زمنين، وعمر الطلمنكي... وقد تأثر بفضل الرحلات التي قام بها متصوفة المغرب نحو عدوة الأندلس. ومن بين أولئك نذكر: جساس السجلماسي، ودراس بن إسماعيل، وخلف بن علي البلوي. وعلى كل حال، فإن التصوف المغربي في بدايته الأولى قد تشبع ونهل من عدة قنوات على رأسها القناة المشرقية باعتبار المشرق الإسلامي منطلق التصوف، وذلك عن طريق الرحلة في الاتجاهين (للحج، أو طلب العلم)، وتحفل كتب التراجم كالنفع، والتشوف وغيرها بأسماء كثير من العلماء الصوفية الذين يمموا وجوههم شطر المشرق. وعن طريق الرحلة كذلك دخلت المصنفات المشرقية بواسطة أسلوب الإجازة العامة، حيث تصدر بعض العلماء لتدريسها بعدما أخذوها عن مؤلفيها، وبذلك دخل التصوف إلى بلاد المغرب.

كما لا يخفى تأثير كل من إفريقية والأندلس، فقد كان لهما تأثير كبير في التصوف المغربي فقد حل بعض المتصوفة بأغامت قادمين من القيروان، وصفاقس، وتونس عبر بجاية فسجلماسة، وامتد نفوذهم وتأثير مذهبهم فيما بعد، ولا يعزب عن بالنا المجهود الكبير الذي قامت به القناة الإفريقية وذلك عن طريق تسرب المجهود الدعائي لبعض شيوخ إفريقية الزيرية. وطبيعي أن يتأثر المغرب بما يجري في الأندلس، خاصة بعد تحقيق

الهوامش:

(١) إبراهيم القادري بوتشيش: المغرب والأندلس في عصر المرابطين: المجتمع، الذهنيات، الأولياء، منشورات الجمعية المغربية للدراسات الأندلسية (٧)، ط. ٢، تطوان، ٢٠٠٤، ص ١٢٥-١٧٢، والغريب في الأمر أن الباحث يرى في موضع آخر أن التصوف المغربي بدأت ملامحه "الكبرى تبرز منذ القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، لتستمر إلى الآن" انظر: "ثقافة الوسطية في التصوف السني بالمغرب" ضمن كتاب: التصوف السني في تاريخ المغرب، نسق نموذجي للوسطية والاعتدال، تقديم وإشراف: د. إبراهيم القادري بوتشيش، منشورات الزمن، سلسلة شرفات ٢٧، الدار البيضاء، ٢٠١٠، ص ١٩، وفي مكان آخر يقول أن "التصوف ظهر في القرن الثالث الهجري"، الحركة المسرية بين الواقع ومحاولات التزييف" ضمن كتاب: الإسلام السري في المغرب العربي، دار سينا للنشر، ١٩٩٥، ص ٥٩، رابطا انتشاره بكونه جاء كرد فعل ضد الفكر الإقطاعي، ص ٥٩. بينما يرى بأن الأزمة "ساهمت في تأسيس الجذور الأولى للتصوف في المغرب والأندلس" في أواخر الدولة المرابطية، المغرب والأندلس...م. س، ص ١٣٠، وفي موضع آخر يقول أن كتاب الغزالي إحياء علوم الدين ساهم في تأسيس الجذور الأولى للتصوف في عصر المرابطين، إبراهيم القادري بوتشيش: الحياة الاجتماعية في المغرب والأندلس خلال عصر المرابطين، د. د. في التاريخ، جامعة مولاي إسماعيل، كلية الآداب مكناس، ١٩٩٠-١٩٩١، ج ١، ص ٣٠٥، مع العلم أن التصوف الأندلسي كان سباقا على التصوف المغربي، وسيكون أحد المحطات الأساس في تكون التصوف المغربي. ومن جهتنا نرى أن سبب هذا التخط في الأفكار الذي وقع فيه الدكتور بوتشيش يعود بالأساس إلى عدم فصله بين التصوف المغربي ونظيره الأندلسي، خاصة في كتابه: المغرب والأندلس. محمد البركة: "التصوف السني بالمغرب مقدمات في الفهم والتأصيل" ضمن ثقافة الوسطية... م. س، ص ٧٠-٧١، محمد القبلي: رمز الإحياء وقضية الحكم في المغرب الوسيط، ضمن كتاب: مراجعات حول المجتمع والثقافة بالمغرب الوسيط، الدار البيضاء ١٩٩٧، ص ٢٦. نفسه "ما لم يرد في كتابات ابن خلدون" ضمن نفس الكتاب، ص ٦٢. عصمت دندش: الأندلس في نهاية المرابطين و مستهل الموحدين (٥١٠-٥٤٦هـ / ١١١٦-١١٥١م) تاريخ سياسي وحضارة، دار الغرب الإسلامي، ١٩٨٨، ص ٥٠-٢٨٨-٣٥٦-٣٥٧، وفي موضع آخر ترى أنه "لم يوجد من مظاهر التصوف في هذه البلاد حتى منتصف القرن الخامس سوى الزهد الساذج" ص ٣٥٧، نفسها: "ارتسامات حول التصوف في العصر المرابطي" ضمن كتاب: أضواء جديدة على المرابطين، دار الغرب الإسلامي، ط ١، ١٩٩١، ص ٤٠، وانظر الصفحة ٤٧، حيث ترى أن انتشار التصوف مرتبط بالانحلال والتناقضات التي عصفت بالأندلس، عبد اللطيف الشاذلي: التصوف والمجتمع: نماذج من القرن العاشر الهجري، سلا، ١٩٨٨، ص ٧٠-٧١-٣١٥-٣١٦، غرميني عبد السلام: المدارس الصوفية المغربية والأندلسية في القرن السادس الهجري، الدار البيضاء ٢٠٠٠، ص ٢٤٩، عبد الجليل لحمنات: التصوف المغربي في القرن السادس الهجري، مقدمة لدراسة تاريخ التصوف بالمغرب، د. د. ع. كلية الآداب الرباط، ١٩٨٩-١٩٩٠ (نسخة مرقونة)، ص ١٥٣-١٥٤ وفي، ص ١٧٦ يفترض أن البداية كانت في القرن السادس الهجري، حيث يرى بأن بداية التصوف تتزامن مع القرن السادس الهجري، ص ٢، حيث يرى بأن هذا القرن هو قرن ابن حزم وأبي مدين شعيب السارية وأبي يعزى يلنور وأبي مدين الغوث... هو قرن انطلاق التصوف المغربي، وكذلك انظر الصفحات: ٣-٤٨-١٥١، وفي

لكن رغم ذلك فإن التصوف سرعان ما سيكتسح النسيج المجتمعي الأندلسي- المغربي بمركبيه الحضري والقروي، وسيصبح قوة اجتماعية فاعلة، خصوصاً في القرن السادس الهجري/ الثاني عشر للميلاد^(١٥٣).

إن الاهتمام بذكر أخبار رجالات المغرب نادرة جداً في القرون الأولى للهجرة، بينما نجد أخباراً كثيرة عن رجالات بلاد الأندلس، والتي اهتم بذكرها أهلها، وبذكر ورواية أخبار رجالها، وتدوينها في فترة مبكرة نسبياً. بينما نجد في القرون اللاحقة تزايد الاهتمام بذكر أخبار أهل الزهد والتصوف، خاصة مع مطلع القرن الهجري السادس^(١٥٤). إن أصول التصوف بالغرب الإسلامي عامة والعالم الإسلامي خاصة لم يكن له أصول أجنبية، مسيحية كانت أو غيره كما زعم العديد من المستشرقين، وهذا لا يمنع من القول بأن التصوف تأثر بهذه المؤثرات.

ويبقى أهم استنتاج يمكن الخروج به مما سبق ذكره: أن التصوف في بلاد المغرب والأندلس لم يكن وليد الأزمة كما ذهب إلى ذلك العديد من الباحثين في التصوف، أو أنه ظهر مع أواخر الدولة المرابطية، مرددين بذلك الفكرة المتواترة في الدراسات العربية التي مفادها أن التصوف إيديولوجية أزمة أنتجها مجتمع متأزم. وقد حاولنا تفنيد هذا الطرح.

السابق، ص ٣٧، أما الدكتور محمد الأمين بلغيث فيقول في هذا الصدد: "وجاء التصوف كرد فعل للتناقضات الموجودة في المجتمع الأندلسي، وكان التيار الصوفي، له مكانة كبيرة منذ أيام ابن مسرة، وانتشار رسائل "إخوان الصفاء وخلان الوفاء"، وقد انتشر التفسخ في المجتمع الأندلسي، كما كانت الهزائم العسكرية، والرعب الذي دخل النفوس والوهن الساكن بالقلوب، قد ألجأ البعض منهم إلى حياة العزلة والانزواء عن هذا المجتمع، واتخذ من الصوفية ملاذًا لعله يجد فيه مخرجًا لما يعانيه" محمد الأمين بلغيث: دولة المرابطين... م. س، ص ٢٢٢.

(٢) الحسين بولقطيب: كرامات... م. س، ص ٧٢، إبراهيم القادري بوتشيش: الحياة الاجتماعية في المغرب... م. س، ج ٣، ص ٦٥٨.

(٣) ابن عبد الملك المراكشي، أبو عبد الله محمد الأنصاري الأوسي (ت. ٧٠٣هـ): الذيل والتكملة لكتاني الموصول والصلوة، السفر الثامن، تحقيق محمد بن شريفة، الرباط، ١٩٨٤، ص ٤٠٥، وانظر أيضًا محمد بن شريفة: الأمير المرابطي ميمون بن ياسين حياته وحجه (٤٧٠هـ/ ٥٣٠هـ)، كتاب دعوة الحق، ع، ١٠، ٢٠٠٢، ص ١٨٧.

(٤) ابن الزيات أبو يوسف يعقوب التادلي: التشوف إلى رجال التصوف وأخبار أبي العباس السبتي، تحقيق أحمد التوفيق، منشورات كلية الآداب الرباط، نصوص ووثائق (١) الدار البيضاء ١٩٨٤، ص ٢٥٤، ترجمة ١٠٥. انظر أيضًا عصمت عبد اللطيف دندش: الأندلس في نهاية المرابطين ومستهل... م. س، ص ٢٩٠، هامش: ٩٢.

(٥) ابن الزيات: التشوف... م. س، ص ١٦٩، محمد بن عيشون الشراط: الروض العطر الأنفاس بأخبار الصالحين من أهل فاس، دراسة وتحقيق زهراء النظام، منشورات كلية الآداب، الرباط، سلسلة رسائل وأطروحات رقم ٣٥، الدار البيضاء ١٩٩٧، ص ٦٥، ابن قنفذ: أنس الفقير وعز الحقيق، تحقيق محمد الفاسي وأدولف فور، منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي، الرباط ١٩٦٨، ص ٢٠.

(٦) ابن الزيات التادلي، التشوف إلى رجال التصوف... م. س، ص ١٢٣، ترجمة ١٩.

(٧) نفسه، ص ٢٣٨، ابن القاضي: جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام مدينة فاس، تحقيق عبد الوهاب بن منصور دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط ١٩٧٣، ج ١، ص ٣٣٤-٣٣٥.

(٨) عصمت عبد اللطيف دندش: الأندلس في نهاية المرابطين... م. س، ص ٤٣، إبراهيم القادري بوتشيش: الحياة الاجتماعية في المغرب... م. س، ج ١، ص ٣١٠-٣١١. ويضيف الدكتور حسن علوي حافظي: "خصوصا وأن علي بن يوسف، وكما هي الحال بالنسبة لكل الأمراء المرابطين، قد عرف بالتقوى والورع والخوف من الله تعالى كما اشتهر بالتسامح والحلم"، حسن علوي حافظي: المرابطون الدولة، الاقتصاد، المجتمع، الرباط، ٢٠٠٧، ص ١٦-١٧-٢٢، وهذه الأوصاف تنطبق على جل أمراء الدولة المرابطية. فقد عُرف يوسف بن تاشفين بإقباله على الصلاة وكثرة الدعاء والاستخارة، ابن عذاري: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ج ٤، تحقيق ومراجعة إحسان عباس، ط. ٢، دار الثقافة بيروت، ١٩٨٠، ص ٤٥، "وكان زاهدا في الدنيا لباسه الصوف لم يلبس قط غيره وأكله الشعير ولحوم الإبل وألبانها"، ابن أبي زرع: ابن أبي زرع الفاسي: الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، الرباط ١٩٧٣، ص ١٣٦-١٣٨، مجهول: الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، تحقيق الدكتور سهيل زكار والأستاذ عبد القادر زمامة، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، ١٩٧٩، ص ٨١-٩٢. وكان تاشفين بن علي بدوره زاهدا لم يشرب قط مسكرا ولا استمتع إلى قينة ولا اشتغل بلذة مما يلهو به الملوك، ابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة، ج ١،

الصفحة ١٥٤ "يرى أنه يجب التمييز بين ثبوت وجود السلوك الزهدي قبل القرن السادس الهجري وما رافقه من مظاهر عكستها المواقف الخاصة للزهاد، أو الظواهر المتمثلة في الرباطات، وبين التصوف كمذهب وكنسق فكري وسلوكي يعبر عن آراء ومواقف فئة اجتماعية، تشترك في الخصائص والمقومات"، ص ١٥٤-١٧٦-٢٠٢-٢٢٣. حسين سيد عبد الله مراد: المتصوفة في المغرب الأقصى في عصري المرابطين والموحدين ٤٥٤-٦٦٨هـ/ ١٠٦٢-١٢٦٩م، معهد البحوث والدراسات الإفريقية، جامعة القاهرة، ١٩٩٤، ص ٤٣-٤٤، محمد زوزيو: سوسولوجيا التصوف المغربي ضريح المولى عبد السلام بن مشيش نموذجًا، د. د، كلية الآداب، تطوان ٢٠٠٨ (نسخة مرقونة)، ج ١، ص ٣٧، جمال غلال البختي، الحضور الصوفي في الأندلس والمغرب إلى حدود القرن السابع الهجري، تطوان، ٢٠٠٣، ص ٤٩، ابن قسي أحمد: كتاب خلع النعلين واقتباس النور من موضع القدمين، دراسة وتحقيق، الدكتور محمد الأماني، اسفي، ١٩٩٧، ص ٣٥، عبد السلام شقور: القاضي عياض الأديب، دار الفكر المغربي، ط ١، طنجة، ١٩٨٣، ص ٥٠. حيث يعتبر أن العصر المرابطي هو العصر الذي نشأ فيه التصوف المغربي، محمد الأمين بلغيث: دولة المرابطين بالأندلس من مدينة السياسة إلى مدينة العلم، دار الوعي الجزائر، ٢٠٠٩، ص ٢٢٢، حيث يرى بأن "التصوف وجد البيئة المغربية والأندلسية صالحة فتجذر في عهد المرابطين وظهر أقطاب التصوف الذين عاشوا حتى عهد الموحدين"، ص ٢٢٢، بولقطيب الحسين: "كرامات أولياء دكالة خلال عصري المرابطين والموحدين نموذجًا"، مجلة دراسات عربية، السنة ٣٢، ع ٤/٣، ١٩٩٦، ص ٧١ و ٧٥، بل أكثر من ذلك نجده يؤكد على أن التصوف بدأ يشق طريقه إلى المغرب في القرن السادس الهجري، ن. م، ص ٧١، و "أن عصر المرابطين شهد بداية تشكّل فئة الأولياء والمتصوفة"، ص ٧٢، الشريف محمد: التصوف والسلطة بالمغرب الموحد مساهمة في دراسة ثنائية الحكم والدين في النسق المغربي الوسيط، منشورات الجمعية المغربية للدراسات الأندلسية (٨)، الرباط ٢٠٠٤، ص ١٧، التميمي، أبو عبد الله محمد بن عبد الكريم الفاسي، (ت. ٦٠٣ أو ٦٠٤ هـ): المستفاد في مناقب العباد بمدينة فاس وما يليها من البلاد، دراسة وتحقيق محمد الشريف، الرباط، ٢٠٠٢، جزآن، ج ١، ص ٢٢-٣٠-٣١، عصام الدين عبد الرؤوف الفقي: تاريخ المغرب والأندلس، المطبعة التجارية الحديثة، القاهرة، ١٩٩٠، ص ٣٦٢. بل إن هذه الفكرة نجدها متواترة حتى في الدراسات التي اهتمت بالعصور الموالية للعصر المرابطي انظر مثلا: نللي سلامة العامري: الولاية والمجتمع: مساهمة في التاريخ الديني والاجتماعي لإفريقية في العهد الحفصي، جامعة منوبة، تونس، ٢٠٠١، ص ٥٣. والجدير بالذكر أن بعض الدراسات تذهب إلى أن الزهد أو شعر الزهد على الخصوص سطع "نجمه في عهد المرابطين كرد فعل على حياة اللهو والمجون" انظر: بولعراش خميسي: الحياة الاجتماعية والثقافية لأندلس في عصر ملوك الطوائف ٤٠٠-٤٧٩هـ/ ١٠٠٩-١٠٨٦م، رسالة ماجستير في التاريخ الإسلامي، جامعة الحاج لخضر باتنة، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، قسم التاريخ وعلم الآثار، ٢٠٠٦-٢٠٠٧ (نسخة مرقونة)، ص ١٦٩. أما عن مظاهر الأزمة وتفصيلها على المستوى الاقتصادي والسياسي والثقافي والإيديولوجي والأخلاقي، انظر: بوتشيش، المغرب والأندلس... م. س، ص ١٢٦-١٢٨، مع الغلم أننا لا نتفق في كثير من تلك التفاصيل التي يوردها الباحث. جمال غلال البختي: الحضور الصوفي... م. س، ص ٥٠-٥٣. أما الدكتور محمد زوزيو، فيؤكد على أن التصوف لم يكن ليظهر لولا تجذر الأزمة الأخلاقية والسياسية والاقتصادية والثقافية، انظر المرجع

عملية طرد أبي عمران الفاسي من مدينة فاس تنهض قرينة على الأوضاع المزرية في هذه الفترة الزمنية قبيل قيام الدولة المرابطية. فقد كان هذا الفقيه يعمل على إصلاح أوضاع كان يرى أنها فاسدة كمقاومة البدع والقضاء على المغارم وأخذ الأموال بغير حق، ومقاومة الظلم والجور، عمر بن حمادي: **الفقهاء في عصر المرابطين**...م. س، ج ١، ص ٦٥. وعن الوضع السياسي والاجتماعي والاقتصادي والوضع الديني والمذهبي للمغرب والأندلس قبل قيام الدولة المرابطية انظر إبراهيم القادري بوتشيش: **الحياة الاجتماعية في المغرب**...م. س، ج ١، ص ٦٧-٧٨، وعن الأندلس عمر بن حمادي: **الفقهاء في عصر المرابطين**...م. س، ج ١، ص ١٠٤-١٠٥.

(١٤) غرميني عبد السلام: **المدارس الصوفية**...م. س، ص ٢٤، ونتفق مع الدكتور محمد زنيير الذي يرى أنه عندما تشتد الأزمات والاضطرابات تتجه "الحياة الروحية إلى نوع من التهميش والانزواء"، زنيير محمد: **"تادلة في العصر الوسيط"** ضمن كتاب: **المغرب في العصر الوسيط**، منشورات كلية الآداب الرباط، سلسلة بحوث ودراسات رقم ٢٤، تنسيق: محمد المخراوي، ١٩٩٩، ص ٣٤٨.

(١٥) بنحمادة سعيد: **الماء والإنسان في الأندلس خلال القرنين ٧ و ٨هـ/ ١٣ و ١٤م، إسهام في دراسة المجال والمجتمع والذهنيات**، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ٢٠٠٧، ص ٢٤٤، نفسه: **"المجال الحيوي للأولياء بالمغرب الأدوار الدينية والعسكرية والاجتماعية"** ضمن كتاب: **التصوف السني في تاريخ المغرب**، نسق نموذجي للوسطية والاعتدال، تقديم وإشراف: د. إبراهيم القادري بوتشيش، منشورات الزمن، سلسلة شرفات، ٢٧، الدار البيضاء، ٢٠١٠، ص ١٤٥.

(١٦) جمعة شيخة: **"التصوف الأندلسي بين الدين والسياسة خلال النصف الأول من القرن ١٢هـ/ ١٢م"**، مجلة دراسات أندلسية، ع ٢١، ١٩٩٩، ص ٦٨.

(١٧) عمر فروخ: **التصوف في الإسلام**، بيروت ١٩٨١، ص ٧٦.

(١٨) منال عبد المنعم السيد جاد الله: **أثر الطريقة الصوفية في الحياة الاجتماعية لأعضائها: دراسة أنثروبولوجية في مصر والمغرب**، دكتوراة في الآداب، جامعة الإسكندرية، كلية الآداب قسم الأنثروبولوجيا، ١٩٩٠، ص ١٢٤، (نسخة مرقونة).

(١٩) الحسين بولقطيب: **كرامات**...م. س، ص ٧١، وفي موضع آخر يرى بأن العصر المرابطي شهد بداية تشكل فئة الأولياء والمتصوفة. ن. م، ص ٧٢، إبراهيم القادري بوتشيش: **الحياة الاجتماعية في المغرب**...م. س، ج ١، ص ٤، حيث يرى أن "الأولياء والمتصوفة ظهروا لول مرة في عصر المرابطين"، لكن الوقائع التاريخية تدحض هذا الطرح، إذ أن المصادر تذكر هؤلاء الأولياء والمتصوفة في فترة مبكرة قبل قيام الدولة المرابطية.

(٢٠) محمد زوزيو: **"التصوف"**، مجلة كلية الآداب تطوان، ع ٧، ١٩٩٤، ص ١٩-٢٠، نفس الرأي نجده يرد على لسان الدكتور محمد عادل عبد العزيز، الذي يرى بأن المغرب عرف "التصوف على عهد الموحدين ولكن في نطاق ضيق بدأ انتشاره من مدينة سبتة" انظر: **التربية الإسلامية في المغرب أصولها المشرقية وتأثيراتها الأندلسية**، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٧، ص ١٢٢ وكان كل تلك النماذج التي عرضناها سابقا وكل تلك الأسماء التي وردت في كتب التراجم والمناقب قبل العصر المرابطي لم تكفي هذا الباحث ليتأكد من كون المتصوفة كانوا بالفعل قبل القرن السادس بكثير؟.

(٢١) أحمد التوفيق: **"التصوف بالمغرب"**، معلمة المغرب، إنتاج الجمعية المغربية للتأليف والترجمة، ج ٧، صلا، ١٩٩٤، ص ٢٣٩٢، جورج مارسية: **بلاد المغرب الإسلامي في العصور الوسطى**، ترجمة محمود

تحقيق محمد عبد الله عنان، القاهرة، ط ٢، ١٩٧٣، ص ٤٤٨، ابن عذاري: **البيان المغرب**...م. س، ج ٤، ص ٧٩، العباس ابن إبراهيم: **الإعلام بمن حل مراكز وأغيمات من الأعلام**، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، الرباط، ١٩٧٤، ج ٣، ص ٨١، هذا، وكان للمتونيين عموما أهل ديانة ونية صادقة خالصة وصحة مذهب، انظر ابن أبي زرع: **الأنيس المطرب**...م. س، ص ١٦٦.

(٩) ابن الزيات: **التشوف**...م. س، ص ٢٣٦.

(١٠) ابن الأبار أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي: **المقتضب من تحفة القادم**، تحقيق إبراهيم الأبياري، طبعة دار الكتاب اللبناني-دار الكتب الإسلامية-الدار الإفريقية العربية، ١٩٨٢، ص ٧٠، ابن العريف: **كتاب النفائس ومحاسن المجالس**، أخرجه وقدم له نهاد خياطة، م. س، ص ٦٨٠.

(١١) ابن الأبار: **الحلة السراء**، تحقيق حسين مؤنس، جزآن، الشركة العربية للطباعة والنشر دار الكتاب العربي، القاهرة، ١٩٦٣، ج ٢، ص ١٩٧.

(١٢) إبراهيم القادري بوتشيش: **المغرب والأندلس**...م. س، ص ١٢٥، وفي الصفحة ١٢٦ يقول إن: "أثر الأزمة في ظهور التصوف مسألة لا يرقى إليها الشك"، ويضيف في صفحة أخرى أنه: "من الصعب إدراك ظهور المتصوفة والأولياء على الساحة الاجتماعية دون الوقوف على التناقضات التي طبعته المجتمع، إذ لم يكن منطقيا أن يعرف التصوف نمو وانتشارا دون أن يكون له طرح اجتماعي يلامس عواطف الفئات المتضررة" نفسه، ص ١٢٧. ونجده يؤكد أن الفكر الكرامي أيضا "ينشط إبان مرحلة الأزمات"، انظر: **"واقع الأزمة والخطاب الإصلاحية في كتب المناقب والكرامات"** (أواخر ق ٦ وبداية ق ٧هـ/ ١٢-١٣م)، ضمن كتاب: **الإستوغرافيا والأزمة دراسات في الكتابة التاريخية والثقافة**، إنجاز الجمعية المغربية للبحث التاريخي، تنسيق عبد الأحد السبتي، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية الرباط، سلسلة: ندوات ومناظرات رقم ٣٤، ١٩٩٤، ص ٢٧، نفسه: **المغرب والأندلس**...م. س، ص ١٤١. بينما نجد أحد الباحثين يخلط بين "التصوف" و "الزهد" وذلك في المغرب والأندلس فيجعل انطلاقهما في أواخر الدولة المرابطية وذلك بعد أن يقرن انتشارهما بالأزمة والفساد، فنجد يقول: "انتشر التصوف والزهد في الأندلس، بعد أن كثر الفساد في المجتمع، وتعرضت البلاد لهجمات النصارى، وتسلب الفقهاء على الناس وفرضوا عليهم مذهبهم وأرائهم، وضعف الحكام المرابطين وانتشر الفساد بين عمال الدولة وقضاتها، لذلك لجأت جماعات كبيرة إلى العزلة عن هذه الحياة والزهد فيها"، عصام الدين عبد الرؤوف الفقي: **تاريخ المغرب والأندلس**...م. س، ص ٢٦٢.

(١٣) يقول أحد الباحثين: "فقد كان تأسيس دولة المرابطين يهدف بالأساس إلى القضاء على الشتات السياسي، والاجتماعي الذي كانت تعرفه وقتها بلدان الغرب الإسلامي في كل من الأندلس والمغرب. وفي نفس الوقت توحيد المذاهب الفقهية والعقدية توحيدا تاما وكاملا وذلك بالقضاء على ما بقي من فقه الشافعي، والفقه الظاهري، والفقه الشيعي. وفي المقابل على عقائد الشيعة التي كانت ماتزال تهيمن في تونس. فنشأ هاجس التوحيد السياسي والمذهبي في بعض المشاريع الإصلاحية التي كان يحلم بها ويحملها مجموعة من المصلحين في هذه الفترة، أعني فترة الشتات السياسي، وما قبل دولة المرابطين" احناة يوسف: **تطور المذهب الأشعري في الغرب الإسلامي**، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية- المملكة المغربية، الرباط ١٤٢٤هـ- ٢٠٠٣م، ص ٦٢، عمر بن حمادي: **الفقهاء في عصر المرابطين**، شهادة التعمق في البحث (تاريخ وسيط) جامعة تونس، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، تونس، ١٩٨٧م، ج ٤، ص ٥٢٠-٥٢١-٥٢٢-٥٢٣-٥٢٤-٥٢٥-٥٢٦-٥٢٧-٥٢٨-٥٢٩-٥٣٣، ولعل

- (٣٠) عمر فروخ: **التصوف في الإسلام**، م. س، ص ٧٦.
- (٣١) عبد السلام غرميني: **المدارس الصوفية**... م. س، ص ٢١.
- (٣٢) راجع ترجمته في: عبد الله المالكي: **رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية وزهادهم ونسائهم وسير من أخبار فضلائهم وأوصافهم**، تحقيق بشير البكوش، مراجعة محمد العروسي المطوي، ٣ أجزاء، دار الغرب الإسلامي، بيروت ١٩٨٣، ج ١، ص ١٢١، ابن الفرضي: **تاريخ علماء الأندلس**، القاهرة، ١٩٦٦، ج ٢، ص ١٤٨، المقري: **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب**، تحقيق إحسان عباس، طبعة دار صادر، بيروت، ١٩٦٨، ج ٤، ص ٦، الحميدي: **جذوة المقتبس في ذكر ولاية الأندلس**، نشره زاهد الكوثري، القاهرة، ١٩٥١، ترجمة ٤٠٣، الضبي، أحمد بن يحيى بن أحمد بن عميرة (ت. ٥٩٩هـ): **بغية الملتبس في تاريخ رجال أهل الأندلس**، تحقيق، د. روية عبد الرحمان السويقي، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٧، ص ٢٣٨-٢٤٠، ترجمة ٦٨٧. وعن الزهاد الذين قدموا إلى الأندلس انظر: محمد بركات البيلي: **الزهاد والمتصوفة**... م. س، ص ١١٨-١١٩. ويرى الدكتور حميدي خميسي "أن حركة الزهد والنسك انتقلت من القيروان إلى الأندلس مع المشايخ أو المهاجرين" خميسي حميدي: **نشأة التصوف في المغرب**... م. س، ص ٢٣.
- (٣٣) ابن الفرضي: **تاريخ علماء الأندلس**، القاهرة، ١٩٦٦، ج ١، ص ١٢٥، الحميدي: **جذوة المقتبس**، م. س، ص ١٨٩.
- (٣٤) التميمي: **المستفاد**... م. س، ج ١، ص ٢٥.
- (٣٥) عبد السلام غرميني: **المدارس الصوفية**... م. س، ص ٢٤.
- (٣٦) محمود علي مكي: "بداية التصوف الأندلسي ما قبل ابن مسرة" مجلة كلية الآداب، القاهرة، ع ٥٣، مارس ١٩٩٢، ص ١٠، نفسه "التصوف الأندلسي مبادئه وأصوله"، مجلة دعوة الحق، ع ٨-٩ السنة الخامسة، ذو الحجة محرم ١٣٨٢هـ/ ماي- يونيو ١٩٦٢، ص ٦.
- (٣٧) أمثال: عيسى بن دينار الفقيه المالكي الطليطي (ت ٢١٢هـ/ ٨٢٦م)، وميمون بن سعد من أشهر زهاد الأندلس (ت ٢٦٧هـ/ ٨٨٠م)، وخلف بن سعد القرطبي (ت ٣٥٥هـ/ ٩١٧م)، ومحمد بن وضاح (ت ٢٨٧هـ/ ٩٠٠م)، وأيوب البلوطي (القرن الثالث الهجري)، ومعاذ بن عثمان الذي يقول عنه ابن حيان أنه "كان عابدا ناسكا، وكان من الأبدال مجاب الدعوة"، ابن حيان: **المقتبس**، تحقيق، محمود علي مكي، طبعة دار الكتاب العربي، بيروت، 1973، ص ٧٠. ويحيى بن عمر الكنائي (ت ٢٨٩هـ/ ٩٠١م) الذي استقر بإحدى أربطة إفريقية وكان له أتباع وتلاميذ في مناطق الثغور بالأندلس مثل سرقسطة وتطيلة حيث أسسوا بها رباطات نهجوا فيها مثل شيوخهم في إفريقية والمشرق نهج التعبد والجهاد، وعبد الله بن نصر القرطبي (ت ٣١٥هـ/ ٩٢٧م) الذي يقال إنه أول من لقب بالصوفي، وأصبع بن مالك القبري (ت ٢٩٩هـ/ ٩١١م) الذي كان يعيش في قلعة يشتر بالجبال المحيطة بغرناطة ويجتمع حوله الزهاد ليمارسوا الحياة الروحية، ويمن بن رزق التليطي (القرن الثالث الهجري وأوائل الرابع) الذي يظهر أنه كان من أهل السياحة. إذ يذكر ابن الفرضي أنه توفي بالمشرق بعسقلان وأن قبره كان موضع تجيل، ويبدو أن منّا قد نحى بالزهد الأندلسي منحى صوفيا إشرافيا فألف كتاب "الزهد"، هذا الكتاب الذي لا تعرف عنه سوى أنه أثار غضب الفقهاء سواء في القيروان أو في قرطبة، ففي القيروان أفتى محمد بن مسرور المعروف بابن الحجام بالنهي عن قراءته، وفي قرطبة أفتى بمثل ذلك أحمد بن خالد المعروف بابن الجباب (ت. ٣٢٢هـ/ ٩٣٤م)، وكان يصف منّا بأنه "صاحب وساوس". ومع ذلك فقد عكف نفر من صوفية الأندلس وزهادها على قراءة كتاب "الزهد"، مثل الزاهد

- عبد الله هيكمل، مراجعة مصطفى ضيف، الإسكندرية ١٩٩١، ص ٣٠٣.
- (٢٢) أحمد التادلي الصومعي: **كتاب المعزى في مناقب الشيخ أبي يعزى**، تحقيق علي الجاوي، منشورات كلية الآداب أكادير، سلسلة الأطروحات والرسائل رقم ٦، ١٩٩٦، ص ٣٢.
- (٢٣) محمد بركات البيلي: **الزهاد والمتصوفة في بلاد المغرب**... م. س، ص ٩١، وهي نفس الفترة التي شهدت بداية ظهور الارهاصات الأولى للتصوف في الأندلس مع ابن مسرة.
- (٢٤) محمد بركات البيلي: **الزهاد والمتصوفة**... م. س، ص ٩٢.
- (٢٥) سلسيل محمد محمود نوفل: **شعر الأطباء في الأندلس في القرن السادس الهجري، دراسة تحليلية نقدية**، رسالة ماجستير في اللغة العربية، كلية الدراسات العليا، جامعة النجاح الوطنية، نابلس، فلسطين، ٢٠٠٩، ص ٤٠، (نسخة مرقونة).
- (٢٦) باستثناء الأستاذ عبد الجليل لحمنات والدكتور محمد البركة الذين يفرقان بينها. مع العلم أن الدكتور محمد البركة يرى أن التصوف في المغرب بدأ في أواخر القرن الخامس الهجري، لكنه لا يقدم أي تفسير لكلامه ولا يستدل على ذلك بأي دليل؟ محمد البركة: "التصوف السني بالمغرب مقدمات في الفهم والتأصيل" ضمن ثقافة الوسطية... م. س، ص ٦٣.
- (٢٧) التميمي: **المستفاد**... م. س، ج ١، ص ١١. وبخصوص هاتين النقطتين انظر ما قام به متصوفة الفترة المدروسة في الفصل الثاني من هذا البحث فيما يخص الجانب الاجتماعي، أما عن الجانب السياسي فمعلوم أن للمتصوفة ثورات عدة. ويمكن الاستدلال مثلا بثورات المتصوفة في غرب الأندلس بزعماء ابن قسي انظر عبد القادر زمامة: "حركة خطيرة على عهد المرابطين: حركة ابن قسي"، مجلة البيئة، ع ٦، سنة ١٩٦٢، إبراهيم القادري بوتشيش، **المغرب والأندلس**... م. س، ص ١٦٣-١٧١، حسين مؤنس: "نصوص سياسية عن فترة الانتقال من المرابطين إلى الموحدين" مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية في مدريد، المجلد الثالث، العدد الأول، ١٩٥٥، ص ١١٣-١٢٣، بنسباص مصطفى: **السلطة بين التسنن والتشييع والتصوف ما بين عصري المرابطين والموحدين**، منشورات الجمعية المغربية للدراسات الأندلسية، تطوان، ١٩٩٩، ص ١١٧ وما بعدها. وقد جانب الدكتور حميدي خميسي الصواب عندما جعل ثورة ابن قسي في القرن الخامس الهجري انظر: خميسي حميدي: **نشأة التصوف في المغرب الإسلامي الوسيط اتجاهاته، مدارسه، أعلامه**، عالم الكتب الحديث، إربد - الأردن، ٢٠١١، ص ١٢. والملاحظ أن التصوف في العصر المرابطي فعلا أصبح قوة اجتماعية وسياسية، وهو أحد المقومات الروحية والدينية والثقافية، ولا غرابة في ذلك فالملاحظ لتاريخ المغرب برمته فعلا يرى أن "التيار الصوفي شكل في معظم مراحل تاريخ المغرب قوة اجتماعية"، إبراهيم القادري بوتشيش: "حول محن المتصوفة في العصر المرابطي"، مجلة المناهل، ع ٨٠-٨١، فبراير ٢٠٠٧، خاص بالزوايا في المغرب، ج ١، ص ٣٩.
- (٢٨) أبو بكر بن العربي: **قانون التأويل**، دراسة وتحقيق محمد السليماني، دار القبلة للثقافة الإسلامية، جدة، المملكة العربية السعودية- مؤسسة علوم القرآن، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨٦، ص ٤٣-٤٤.
- (٢٩) محمود علي مكي: "التراث المشترك الأندلسي المغربي في ميدان التصوف"، دورات أكاديمية المملكة المغربية، غرناطة ١٩٩١، ص ١٥٧، وعن الممارسات الزهدية للزهاد الأندلسيين في هذه الفترة انظر منويلا مارين: **الزهاد والصوفية والسلطة في الأندلس**، تعريب مصطفى بنسباص، منشورات كلية الآداب تطوان، ٢٠١٠، خاصة الفصل الموسوم بزهاد الاندلس (٣٠٠هـ/ ٩١٢م- ٤٢٠/ ١٠٢٩).

- (٤٩) أبو بكر بن العربي: **قانون التأويل**، م. س، ص ٦٤.
- (٥٠) محمود علي مكي: **التصوف الأندلسي**...م. س، ص ١٢-١٣.
- (٥١) منويلا مرين: **"زهاد الأندلس (٣٠٠هـ / ٩١٢م - ٤٢٠ / ١٠٢٩)"** ضمن كتاب: **الزهاد والصوفية والسلطة في الأندلس**، م. س، ص ٦٨-٦٩-٧٥.
- (٥٢) ابن الفريسي: **تاريخ العلماء**...م. س، ق ١، ص ١٦١، وفي النسخة التي حققها السيد عزت العطار الحسيني نجد ابن الفريسي يقول عنه أنه سمع من محمد بن وضاح القرطبي، وأنه "كان عابدا زاهدا يجتمع إليه أهل الزهد والفضل ويسمعون منه" **تاريخ العلماء والرواة للعلم بالأندلس**، عن بنشره وصححه ووقف على طبعه السيد عزت العطار الحسيني، الطبعة الثانية، القاهرة، ١٩٨٨، ج ١، ص ٩٥، ترجمة ٢٥٠، وانظر نماذج أخرى أوردتها منويلا مرين: **زهاد الأندلس**...م. س، ص ٦٨-٦٩.
- (٥٣) من الواضح أن العلاقات التجارية والأسفار إلى المشرق قصد أداء مناسك الحج، قد يسرت وصول المستجندات المشرقية إلى الأندلس، ميغيل كروز هيرنانديس: **"الفكر الإسلامي في شبه الجزيرة الإيبيرية (دراسة شاملة)"**، ضمن كتاب: **الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس**، الجزء الثاني، تحرير: د. سلمى الخضراء الجيوشي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت ١٩٩٨، ص ١٠٨٩، مانويلا مارين: **"ممارسات المسلمين الدينية في الأندلس بين القرنين الثاني والرابع الهجريين / الثامن والعاشر الميلاديين"**، ضمن المرجع السابق، ص ١٢٢٩، كلود عداس: **"التصوف الأندلسي وبروز ابن عربي"** ضمن المرجع السابق، ص ١٣٦٢. وهذا الأمر ينطبق كذلك على العدو المغربية، أبو بكر بن العربي: **قانون التأويل**، م. س، ص ٤٥.
- (٥٤) ابن الفريسي: **تاريخ علماء الأندلس**، م. س، ج ١، ص ٢٩.
- (٥٥) القاضي عياض: **ترتيب المدارك**...م. س، ج ٤، ص ٤٤٠، محمد بن محمد مخلوف: **شجرة النور الزكية في طبقات المالكية**، جزءان في مجلد واحد، بيروت، دار الكتاب العربي، طبعة بالأوقست عن طبعة ١٣٤٩هـ، ص ٨٦، وقد ورد فيه: العوائد بالهمز بدل العوائد بالباء وهو تصحيف. ونبادر بالقول بأن هذا العصر اقتصر فيه أهل الزهد والتصوف على حفظ أخبار النساك مثلا، أو رواية كتب السمرقندي، أو التفرغ للعبادة ونظم الأشعار حول الزهد والآخرة، انظر: ابن عبد الملك المراكشي: **الذيل والتكملة**...م. س، السفر الخامس، ص ٢١٦، ترجمة ٤٣٩، ابن الزيات: **التشوف**...م. س، ص ٢١١، محمود علي مكي: **التصوف الأندلسي مبادئه وأصوله**...م. س، ص ١٥، ميغيل كروز هيرنانديس: **الفكر الإسلامي**...م. س، ص ١٠٨٩، ويرى هذا الباحث بأن من بين العوامل التي ساعدت على دخول الفكر الإسلامي للأندلس نجد "التصوف والزهد اللذان حظيا بتوفر الوثائق في فترة مبكرة"، ن. م، ص ١٠٨٩-١٠٩٠، لكننا نتساءل عن هذه الوثائق المتوفرة منذ فترة مبكرة عن التصوف في الأندلس؟ فهل الباحث يقصد كتاب: **"العباد والعوابد"** لابن وضاح القرطبي، أم أنه يقصد وثائق تتعلق بالتصوف الأندلسي في حد ذاته؟ وتتبع المقال السابق يتضح أن الباحث لا يكشف عن هذه الوثائق. والملاحظ أن الدكتور محمد السليماني يرى بأن كتاب **"العباد والعوابد"** هو أول كتاب أُلّف في هذا الموضوع، ابن العربي: **قانون التأويل**، م. س، ص ٤٥، ولا نعلم على أي شيء اعتمد في قوله هذا، مع العلم أنه لا يعطي تفسيراً لإدعائه. وترى الدكتورة منويلا مارين أن الكتاب "عبارة عن مجموعة من الروايات المتعلقة بالزهاد المسلمين المشاركة" منويلا مارين: مانويلا مارين: **"الظهور المبكر للزهد في الأندلس"**، ترجمة مصطفى بنسباع، ضمن كتاب: **المغرب والأندلس ٢- نصوص دفيئة ودراسات، تقديم وتنسيق: الدكتور محمد**

- السجلماسي الأصل المدعو بجساس، الذي كان يعتكف في معتبهه بئر مجريط خلال القرن الرابع الهجري وينشر كتاب **"الزهد"** وعنه رواه عبد الرحمن بن خلف الإفريقي (ت ٣٤٧هـ / ٩٥٨م). بالإضافة إلى كتاب **العباد والعوابد** هناك متصوف آخر كان الفقهاء يمنعون الناس من قراءة كتابه، فقد كان لعطية بن سعيد الأندلسي كتاب **"في تجويز السماء"** فكان كثير من المغاربة يتحامونه من أجل ذلك. انظر الحميدي: **جذوة المقتبس**، م. س، ص ٣١٩، أبو القاسم خلف بن عبد المالك ابن بشكوال: **الصلة في تاريخ أئمة الأندلس وعلمائهم ومحدثهم وفقهائهم وأدبائهم**، نشره وصححه عزت العطار الحسيني، الدار المصرية للتأليف والترجمة القاهرة، ط ٢، ١٩٩٤، ج ٢، ص ٤٤٧. إن موقف الفقهاء من كتاب **"الزهد"** ليمن بن رزق ليدل على أن الكتاب "كان أكثر بكثير مما يدل عليه عنوانه، إذ لو كان مجموعة من المواعظ الزهدية لما أثار ثائرة الفقهاء، بل يبدو لنا كتابا صوفيا بمعنى الكلمة" محمود علي مكي: **التصوف الأندلسي**...م. س، ص ١٠، نفسه: **التراث المشترك الأندلسي**...م. س، ص ١٥٧-١٥٨. وبالتالي إذا كان هذا الكتاب قد أثار حفيظة الفقهاء فإن القول السائد بأن التصوف الأندلسي قد ظهر مع مذهب ابن مسرة قد يحتاج إلى إعادة النظر فيه، خاصة وأن ابن رزق قد عاش قبل ابن مسرة وأن سنة تأليفه لكتابه كانت قبل ٢٩٩هـ سنة وفاة يحيى بن يحيى الذي يتحدث عن هذا الكتاب. والجدير بالذكر والملاحظة أن حركة الزهد هذه لم تكن مقتصرة على الرجال فحسب، بل شملت النساء كذلك ونذكر على سبيل المثال لا الحصر: أم الحسن بنت أبي لواء سليمان بن أصبغ المكناسية، وهي من بيت بني وانوس البربري، ويذكر ابن الأبار أنها أسست مسجدا لصق ببيتها في فحس البلوط شمال غرب قرطبة، وكان يقصدها صواح نساء أهل ناحيتها يتعبن ويتذاكرن أخبار العابدات الصالحات.
- (٣٨) محمود علي مكي: **التصوف الأندلسي**...م. س، ص ١٠-١١.
- (٣٩) ابن الأبار: **التكملة لكتاب الصلة**، نشرها عزت العطار الحسيني، القاهرة ١٩٥٦، ج ١، ص ٣١٥.
- (٤٠) وقد كان هذا الزاهد من أوائل الزهاد الذين تم الاستغاثة به لطلب الغيث ونزول المطر إلى جانب الزاهد أيوب البلوطي، ابن بشكوال: **كتاب المستغيثين بالله تعالى عند المهمات والحاجات**، دراسة وتحقيق منويلا مارين، مدريد ١٩٩١، ص ١٥٧-١٥٨، ترجمة ١٤٩، ص ١٥٨، ترجمة ١٥٠.
- (٤١) محمود علي مكي: **التصوف الأندلسي**...م. س، ص ١١.
- (٤٢) محمود علي مكي: **التصوف الأندلسي**...م. س، ص ١١.
- (٤٣) عبد السلام غرميني: **المدارس الصوفية**...م. س، ص ٢٧.
- (٤٤) ابن الفريسي: **تاريخ علماء الأندلس**، م. س، ترجمة ٩٠٩.
- (٤٥) محمد العدلوني: **التصوف الأندلسي: أسسه النظرية وأهم مدارسه**، دار الثقافة الدار البيضاء ٢٠٠٥، ص ٤٧، أنخيل بالنثيا: **تاريخ الفكر الأندلسي**، ترجمة حسين مؤنس، ط ١، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ١٩٥٥، ص ٣٢٦ حيث يرى بالنثيا بأنه بدأت "حياة الزهد وحلقات النساك والزهاد تظهر في الأندلس كما كان الحال في المشرق" نفس المرجع والصفحة.
- (٤٦) القاضي عياض: **ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك**، تحقيق سعيد أعراب وآخرون، المحمدية ١٩٨٣، ج ٤، ص ٤٢٨.
- (٤٧) القاضي عياض: **ترتيب المدارك**...م. س، ج ٤، ص ٤٤٦.
- (٤٨) ولا نستغرب لهذا الأمر فقد ذكر ابن بشكوال أن أبا المطرف عبد الرحمان محمد المتوفى سنة ٤٠٢هـ قد ألف كتابا بعنوان **"كرامات الصالحين ومعجزاتهم"** في ثلاثين جزءا، ابن بشكوال: **الصلة**...م. س، ج ١، ص ٣١٢.

انطلقت من ظاهرة الصلاح وانتشار الأولياء، وربطتها بالتأثيرات الدينية المحلية، جاعلة التأثير الإسلامي الشرقي إن لم نقل منعدها، فهو ثانوي لا يتعدى الحواضر، أما البوادي حيث أغلبية السكان فلا علاقة لهم بذلك. وقد فطنت إلى هذه النقطة المدرسة التاريخية المغربية منذ وقت مبكر، محمد المازوني: "الكتابة التاريخية الكولونيالية بين أطروحة الرفض والاستغلال المنهجي" مجلة المناهل، ع ٨٧، يناير ٢٠١٠، ص ٤٧-٥٤. وإذا نظرنا إلى التصوف الإسلامي بصفة عامة فإننا نرى أن المستشرقين قد ردوه إلى عدة تيارات خارجية مثل: خارجي زرادشتي إيراني مثل مايدعده: Degobineau و Renan و Corbin أو هندي كما يظن W. Jones و A. Kremer و M. Horten، أو هيليني-هيلنستي (أفلاطوني وأفلاطوني محدث، وهرمسي...) كما يرى Merx ونيكلسون- في البداية- و Brown، أو يهودي كما يزعم Weinsinck و Kaufmann و Goldziher، أو مسيحي كما يظن بيكر و بلاثيوس و نيكلسون إلى حد ما- في البداية- هي محاولات تسقط من حسابها المجال التداولي الإسلامي (القرآن، السنة، الواقع المجتمعي، ذاتية الصوفي، الأنساق المعرفية الإسلامية الأخرى: الكلام، الفقه، اللغة، التصوف...)، ومن الإنصاف القول بأن التصوف وثيق الصلة بالمجتمعات الإسلامية، وأن تجلياته مصدرها القرآن سواء من حيث الأصل والتطور، "إلا أن ذلك لا يعني عدم تأثره بعوامل خارجية بحكم تباين الخصائص الاجتماعية للبلاد الإسلامية"، خميسي حميدي: نشأة التصوف في المغرب...م. س، ص ١١. وفيما يخص آراء المستشرقين الذين يرجعون التصوف الإسلامي إلى أصل أجنبي يعينه أو تيار مذهبي وافد محدد، يمكن الرجوع إلى: جولد تسهير: العقيدة والشريعة في الإسلام، القسم الرابع، ترجمة محمد يوسف موسى ومن معه، ط ٢، مصر (د. ت)، ص ١٣٩-١٨٩، نيكلسون: في التصوف الإسلامي وتاريخه، ترجمة أبو العلا عفيفي، مصر ١٩٦٩، علي سامي النجار: نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام، ج ٣، القسم الأول، دار المعارف مصر ١٩٦٩، ص ٣-٥٩، عبد الرحمن بدوي: تاريخ التصوف الإسلامي، الكويت ١٩٧٥، ص ٣١-٦٢، آسين بلاثيوس: ابن عربي، تعريب عبد الرحمن بدوي، الكويت ١٩٧٩، ص ١١٠-١١٥-١١٧-١٢٢-١٢٣-١٢٤-١٢٥-١٢٦-١٢٧-١٢٨-١٢٩-١٣٠-١٣١-١٣٢-١٣٣-١٣٤-١٣٥-١٣٦-١٣٧-١٣٨-١٣٩-١٤٠-١٤١-١٤٢-١٤٣-١٤٤-١٤٥-١٤٦-١٤٧-١٤٨-١٤٩-١٥٠-١٥١-١٥٢-١٥٣-١٥٤-١٥٥-١٥٦-١٥٧-١٥٨-١٥٩-١٦٠-١٦١-١٦٢-١٦٣-١٦٤-١٦٥-١٦٦-١٦٧-١٦٨-١٦٩-١٧٠-١٧١-١٧٢-١٧٣-١٧٤-١٧٥-١٧٦-١٧٧-١٧٨-١٧٩-١٨٠-١٨١-١٨٢-١٨٣-١٨٤-١٨٥-١٨٦-١٨٧-١٨٨-١٨٩-١٩٠-١٩١-١٩٢-١٩٣-١٩٤-١٩٥-١٩٦-١٩٧-١٩٨-١٩٩-٢٠٠-٢٠١-٢٠٢-٢٠٣-٢٠٤-٢٠٥-٢٠٦-٢٠٧-٢٠٨-٢٠٩-٢١٠-٢١١-٢١٢-٢١٣-٢١٤-٢١٥-٢١٦-٢١٧-٢١٨-٢١٩-٢٢٠-٢٢١-٢٢٢-٢٢٣-٢٢٤-٢٢٥-٢٢٦-٢٢٧-٢٢٨-٢٢٩-٢٣٠-٢٣١-٢٣٢-٢٣٣-٢٣٤-٢٣٥-٢٣٦-٢٣٧-٢٣٨-٢٣٩-٢٤٠-٢٤١-٢٤٢-٢٤٣-٢٤٤-٢٤٥-٢٤٦-٢٤٧-٢٤٨-٢٤٩-٢٥٠-٢٥١-٢٥٢-٢٥٣-٢٥٤-٢٥٥-٢٥٦-٢٥٧-٢٥٨-٢٥٩-٢٦٠-٢٦١-٢٦٢-٢٦٣-٢٦٤-٢٦٥-٢٦٦-٢٦٧-٢٦٨-٢٦٩-٢٧٠-٢٧١-٢٧٢-٢٧٣-٢٧٤-٢٧٥-٢٧٦-٢٧٧-٢٧٨-٢٧٩-٢٨٠-٢٨١-٢٨٢-٢٨٣-٢٨٤-٢٨٥-٢٨٦-٢٨٧-٢٨٨-٢٨٩-٢٩٠-٢٩١-٢٩٢-٢٩٣-٢٩٤-٢٩٥-٢٩٦-٢٩٧-٢٩٨-٢٩٩-٣٠٠-٣٠١-٣٠٢-٣٠٣-٣٠٤-٣٠٥-٣٠٦-٣٠٧-٣٠٨-٣٠٩-٣١٠-٣١١-٣١٢-٣١٣-٣١٤-٣١٥-٣١٦-٣١٧-٣١٨-٣١٩-٣٢٠-٣٢١-٣٢٢-٣٢٣-٣٢٤-٣٢٥-٣٢٦-٣٢٧-٣٢٨-٣٢٩-٣٣٠-٣٣١-٣٣٢-٣٣٣-٣٣٤-٣٣٥-٣٣٦-٣٣٧-٣٣٨-٣٣٩-٣٤٠-٣٤١-٣٤٢-٣٤٣-٣٤٤-٣٤٥-٣٤٦-٣٤٧-٣٤٨-٣٤٩-٣٥٠-٣٥١-٣٥٢-٣٥٣-٣٥٤-٣٥٥-٣٥٦-٣٥٧-٣٥٨-٣٥٩-٣٦٠-٣٦١-٣٦٢-٣٦٣-٣٦٤-٣٦٥-٣٦٦-٣٦٧-٣٦٨-٣٦٩-٣٧٠-٣٧١-٣٧٢-٣٧٣-٣٧٤-٣٧٥-٣٧٦-٣٧٧-٣٧٨-٣٧٩-٣٨٠-٣٨١-٣٨٢-٣٨٣-٣٨٤-٣٨٥-٣٨٦-٣٨٧-٣٨٨-٣٨٩-٣٩٠-٣٩١-٣٩٢-٣٩٣-٣٩٤-٣٩٥-٣٩٦-٣٩٧-٣٩٨-٣٩٩-٤٠٠-٤٠١-٤٠٢-٤٠٣-٤٠٤-٤٠٥-٤٠٦-٤٠٧-٤٠٨-٤٠٩-٤١٠-٤١١-٤١٢-٤١٣-٤١٤-٤١٥-٤١٦-٤١٧-٤١٨-٤١٩-٤٢٠-٤٢١-٤٢٢-٤٢٣-٤٢٤-٤٢٥-٤٢٦-٤٢٧-٤٢٨-٤٢٩-٤٣٠-٤٣١-٤٣٢-٤٣٣-٤٣٤-٤٣٥-٤٣٦-٤٣٧-٤٣٨-٤٣٩-٤٤٠-٤٤١-٤٤٢-٤٤٣-٤٤٤-٤٤٥-٤٤٦-٤٤٧-٤٤٨-٤٤٩-٤٥٠-٤٥١-٤٥٢-٤٥٣-٤٥٤-٤٥٥-٤٥٦-٤٥٧-٤٥٨-٤٥٩-٤٦٠-٤٦١-٤٦٢-٤٦٣-٤٦٤-٤٦٥-٤٦٦-٤٦٧-٤٦٨-٤٦٩-٤٧٠-٤٧١-٤٧٢-٤٧٣-٤٧٤-٤٧٥-٤٧٦-٤٧٧-٤٧٨-٤٧٩-٤٨٠-٤٨١-٤٨٢-٤٨٣-٤٨٤-٤٨٥-٤٨٦-٤٨٧-٤٨٨-٤٨٩-٤٩٠-٤٩١-٤٩٢-٤٩٣-٤٩٤-٤٩٥-٤٩٦-٤٩٧-٤٩٨-٤٩٩-٥٠٠-٥٠١-٥٠٢-٥٠٣-٥٠٤-٥٠٥-٥٠٦-٥٠٧-٥٠٨-٥٠٩-٥١٠-٥١١-٥١٢-٥١٣-٥١٤-٥١٥-٥١٦-٥١٧-٥١٨-٥١٩-٥٢٠-٥٢١-٥٢٢-٥٢٣-٥٢٤-٥٢٥-٥٢٦-٥٢٧-٥٢٨-٥٢٩-٥٣٠-٥٣١-٥٣٢-٥٣٣-٥٣٤-٥٣٥-٥٣٦-٥٣٧-٥٣٨-٥٣٩-٥٤٠-٥٤١-٥٤٢-٥٤٣-٥٤٤-٥٤٥-٥٤٦-٥٤٧-٥٤٨-٥٤٩-٥٥٠-٥٥١-٥٥٢-٥٥٣-٥٥٤-٥٥٥-٥٥٦-٥٥٧-٥٥٨-٥٥٩-٥٦٠-٥٦١-٥٦٢-٥٦٣-٥٦٤-٥٦٥-٥٦٦-٥٦٧-٥٦٨-٥٦٩-٥٧٠-٥٧١-٥٧٢-٥٧٣-٥٧٤-٥٧٥-٥٧٦-٥٧٧-٥٧٨-٥٧٩-٥٨٠-٥٨١-٥٨٢-٥٨٣-٥٨٤-٥٨٥-٥٨٦-٥٨٧-٥٨٨-٥٨٩-٥٩٠-٥٩١-٥٩٢-٥٩٣-٥٩٤-٥٩٥-٥٩٦-٥٩٧-٥٩٨-٥٩٩-٦٠٠-٦٠١-٦٠٢-٦٠٣-٦٠٤-٦٠٥-٦٠٦-٦٠٧-٦٠٨-٦٠٩-٦١٠-٦١١-٦١٢-٦١٣-٦١٤-٦١٥-٦١٦-٦١٧-٦١٨-٦١٩-٦٢٠-٦٢١-٦٢٢-٦٢٣-٦٢٤-٦٢٥-٦٢٦-٦٢٧-٦٢٨-٦٢٩-٦٣٠-٦٣١-٦٣٢-٦٣٣-٦٣٤-٦٣٥-٦٣٦-٦٣٧-٦٣٨-٦٣٩-٦٤٠-٦٤١-٦٤٢-٦٤٣-٦٤٤-٦٤٥-٦٤٦-٦٤٧-٦٤٨-٦٤٩-٦٥٠-٦٥١-٦٥٢-٦٥٣-٦٥٤-٦٥٥-٦٥٦-٦٥٧-٦٥٨-٦٥٩-٦٦٠-٦٦١-٦٦٢-٦٦٣-٦٦٤-٦٦٥-٦٦٦-٦٦٧-٦٦٨-٦٦٩-٦٧٠-٦٧١-٦٧٢-٦٧٣-٦٧٤-٦٧٥-٦٧٦-٦٧٧-٦٧٨-٦٧٩-٦٨٠-٦٨١-٦٨٢-٦٨٣-٦٨٤-٦٨٥-٦٨٦-٦٨٧-٦٨٨-٦٨٩-٦٩٠-٦٩١-٦٩٢-٦٩٣-٦٩٤-٦٩٥-٦٩٦-٦٩٧-٦٩٨-٦٩٩-٧٠٠-٧٠١-٧٠٢-٧٠٣-٧٠٤-٧٠٥-٧٠٦-٧٠٧-٧٠٨-٧٠٩-٧١٠-٧١١-٧١٢-٧١٣-٧١٤-٧١٥-٧١٦-٧١٧-٧١٨-٧١٩-٧٢٠-٧٢١-٧٢٢-٧٢٣-٧٢٤-٧٢٥-٧٢٦-٧٢٧-٧٢٨-٧٢٩-٧٣٠-٧٣١-٧٣٢-٧٣٣-٧٣٤-٧٣٥-٧٣٦-٧٣٧-٧٣٨-٧٣٩-٧٤٠-٧٤١-٧٤٢-٧٤٣-٧٤٤-٧٤٥-٧٤٦-٧٤٧-٧٤٨-٧٤٩-٧٥٠-٧٥١-٧٥٢-٧٥٣-٧٥٤-٧٥٥-٧٥٦-٧٥٧-٧٥٨-٧٥٩-٧٦٠-٧٦١-٧٦٢-٧٦٣-٧٦٤-٧٦٥-٧٦٦-٧٦٧-٧٦٨-٧٦٩-٧٧٠-٧٧١-٧٧٢-٧٧٣-٧٧٤-٧٧٥-٧٧٦-٧٧٧-٧٧٨-٧٧٩-٧٨٠-٧٨١-٧٨٢-٧٨٣-٧٨٤-٧٨٥-٧٨٦-٧٨٧-٧٨٨-٧٨٩-٧٩٠-٧٩١-٧٩٢-٧٩٣-٧٩٤-٧٩٥-٧٩٦-٧٩٧-٧٩٨-٧٩٩-٨٠٠-٨٠١-٨٠٢-٨٠٣-٨٠٤-٨٠٥-٨٠٦-٨٠٧-٨٠٨-٨٠٩-٨١٠-٨١١-٨١٢-٨١٣-٨١٤-٨١٥-٨١٦-٨١٧-٨١٨-٨١٩-٨٢٠-٨٢١-٨٢٢-٨٢٣-٨٢٤-٨٢٥-٨٢٦-٨٢٧-٨٢٨-٨٢٩-٨٣٠-٨٣١-٨٣٢-٨٣٣-٨٣٤-٨٣٥-٨٣٦-٨٣٧-٨٣٨-٨٣٩-٨٤٠-٨٤١-٨٤٢-٨٤٣-٨٤٤-٨٤٥-٨٤٦-٨٤٧-٨٤٨-٨٤٩-٨٥٠-٨٥١-٨٥٢-٨٥٣-٨٥٤-٨٥٥-٨٥٦-٨٥٧-٨٥٨-٨٥٩-٨٦٠-٨٦١-٨٦٢-٨٦٣-٨٦٤-٨٦٥-٨٦٦-٨٦٧-٨٦٨-٨٦٩-٨٧٠-٨٧١-٨٧٢-٨٧٣-٨٧٤-٨٧٥-٨٧٦-٨٧٧-٨٧٨-٨٧٩-٨٨٠-٨٨١-٨٨٢-٨٨٣-٨٨٤-٨٨٥-٨٨٦-٨٨٧-٨٨٨-٨٨٩-٨٩٠-٨٩١-٨٩٢-٨٩٣-٨٩٤-٨٩٥-٨٩٦-٨٩٧-٨٩٨-٨٩٩-٩٠٠-٩٠١-٩٠٢-٩٠٣-٩٠٤-٩٠٥-٩٠٦-٩٠٧-٩٠٨-٩٠٩-٩١٠-٩١١-٩١٢-٩١٣-٩١٤-٩١٥-٩١٦-٩١٧-٩١٨-٩١٩-٩٢٠-٩٢١-٩٢٢-٩٢٣-٩٢٤-٩٢٥-٩٢٦-٩٢٧-٩٢٨-٩٢٩-٩٣٠-٩٣١-٩٣٢-٩٣٣-٩٣٤-٩٣٥-٩٣٦-٩٣٧-٩٣٨-٩٣٩-٩٤٠-٩٤١-٩٤٢-٩٤٣-٩٤٤-٩٤٥-٩٤٦-٩٤٧-٩٤٨-٩٤٩-٩٥٠-٩٥١-٩٥٢-٩٥٣-٩٥٤-٩٥٥-٩٥٦-٩٥٧-٩٥٨-٩٥٩-٩٦٠-٩٦١-٩٦٢-٩٦٣-٩٦٤-٩٦٥-٩٦٦-٩٦٧-٩٦٨-٩٦٩-٩٧٠-٩٧١-٩٧٢-٩٧٣-٩٧٤-٩٧٥-٩٧٦-٩٧٧-٩٧٨-٩٧٩-٩٨٠-٩٨١-٩٨٢-٩٨٣-٩٨٤-٩٨٥-٩٨٦-٩٨٧-٩٨٨-٩٨٩-٩٩٠-٩٩١-٩٩٢-٩٩٣-٩٩٤-٩٩٥-٩٩٦-٩٩٧-٩٩٨-٩٩٩-١٠٠٠-١٠٠١-١٠٠٢-١٠٠٣-١٠٠٤-١٠٠٥-١٠٠٦-١٠٠٧-١٠٠٨-١٠٠٩-١٠١٠-١٠١١-١٠١٢-١٠١٣-١٠١٤-١٠١٥-١٠١٦-١٠١٧-١٠١٨-١٠١٩-١٠٢٠-١٠٢١-١٠٢٢-١٠٢٣-١٠٢٤-١٠٢٥-١٠٢٦-١٠٢٧-١٠٢٨-١٠٢٩-١٠٣٠-١٠٣١-١٠٣٢-١٠٣٣-١٠٣٤-١٠٣٥-١٠٣٦-١٠٣٧-١٠٣٨-١٠٣٩-١٠٤٠-١٠٤١-١٠٤٢-١٠٤٣-١٠٤٤-١٠٤٥-١٠٤٦-١٠٤٧-١٠٤٨-١٠٤٩-١٠٥٠-١٠٥١-١٠٥٢-١٠٥٣-١٠٥٤-١٠٥٥-١٠٥٦-١٠٥٧-١٠٥٨-١٠٥٩-١٠٦٠-١٠٦١-١٠٦٢-١٠٦٣-١٠٦٤-١٠٦٥-١٠٦٦-١٠٦٧-١٠٦٨-١٠٦٩-١٠٧٠-١٠٧١-١٠٧٢-١٠٧٣-١٠٧٤-١٠٧٥-١٠٧٦-١٠٧٧-١٠٧٨-١٠٧٩-١٠٨٠-١٠٨١-١٠٨٢-١٠٨٣-١٠٨٤-١٠٨٥-١٠٨٦-١٠٨٧-١٠٨٨-١٠٨٩-١٠٩٠-١٠٩١-١٠٩٢-١٠٩٣-١٠٩٤-١٠٩٥-١٠٩٦-١٠٩٧-١٠٩٨-١٠٩٩-١١٠٠-١١٠١-١١٠٢-١١٠٣-١١٠٤-١١٠٥-١١٠٦-١١٠٧-١١٠٨-١١٠٩-١١١٠-١١١١-١١١٢-١١١٣-١١١٤-١١١٥-١١١٦-١١١٧-١١١٨-١١١٩-١١٢٠-١١٢١-١١٢٢-١١٢٣-١١٢٤-١١٢٥-١١٢٦-١١٢٧-١١٢٨-١١٢٩-١١٣٠-١١٣١-١١٣٢-١١٣٣-١١٣٤-١١٣٥-١١٣٦-١١٣٧-١١٣٨-١١٣٩-١١٤٠-١١٤١-١١٤٢-١١٤٣-١١٤٤-١١٤٥-١١٤٦-١١٤٧-١١٤٨-١١٤٩-١١٥٠-١١٥١-١١٥٢-١١٥٣-١١٥٤-١١٥٥-١١٥٦-١١٥٧-١١٥٨-١١٥٩-١١٦٠-١١٦١-١١٦٢-١١٦٣-١١٦٤-١١٦٥-١١٦٦-١١٦٧-١١٦٨-١١٦٩-١١٧٠-١١٧١-١١٧٢-١١٧٣-١١٧٤-١١٧٥-١١٧٦-١١٧٧-١١٧٨-١١٧٩-١١٨٠-١١٨١-١١٨٢-١١٨٣-١١٨٤-١١٨٥-١١٨٦-١١٨٧-١١٨٨-١١٨٩-١١٩٠-١١٩١-١١٩٢-١١٩٣-١١٩٤-١١٩٥-١١٩٦-١١٩٧-١١٩٨-١١٩٩-١٢٠٠-١٢٠١-١٢٠٢-١٢٠٣-١٢٠٤-١٢٠٥-١٢٠٦-١٢٠٧-١٢٠٨-١٢٠٩-١٢١٠-١٢١١-١٢١٢-١٢١٣-١٢١٤-١٢١٥-١٢١٦-١٢١٧-١٢١٨-١٢١٩-١٢٢٠-١٢٢١-١٢٢٢-١٢٢٣-١٢٢٤-١٢٢٥-١٢٢٦-١٢٢٧-١٢٢٨-١٢٢٩-١٢٣٠-١٢٣١-١٢٣٢-١٢٣٣-١٢٣٤-١٢٣٥-١٢٣٦-١٢٣٧-١٢٣٨-١٢٣٩-١٢٤٠-١٢٤١-١٢٤٢-١٢٤٣-١٢٤٤-١٢٤٥-١٢٤٦-١٢٤٧-١٢٤٨-١٢٤٩-١٢٥٠-١٢٥١-١٢٥٢-١٢٥٣-١٢٥٤-١٢٥٥-١٢٥٦-١٢٥٧-١٢٥٨-١٢٥٩-١٢٦٠-١٢٦١-١٢٦٢-١٢٦٣-١٢٦٤-١٢٦٥-١٢٦٦-١٢٦٧-١٢٦٨-١٢٦٩-١٢٧٠-١٢٧١-١٢٧٢-١٢٧٣-١٢٧٤-١٢٧٥-١٢٧٦-١٢٧٧-١٢٧٨-١٢٧٩-١٢٨٠-١٢٨١-١٢٨٢-١٢٨٣-١٢٨٤-١٢٨٥-١٢٨٦-١٢٨٧-١٢٨٨-١٢٨٩-١٢٩٠-١٢٩١-١٢٩٢-١٢٩٣-١٢٩٤-١٢٩٥-١٢٩٦-١٢٩٧-١٢٩٨-١٢٩٩-١٣٠٠-١٣٠١-١٣٠٢-١٣٠٣-١٣٠٤-١٣٠٥-١٣٠٦-١٣٠٧-١٣٠٨-١٣٠٩-١٣١٠-١٣١١-١٣١٢-١٣١٣-١٣١٤-١٣١٥-١٣١٦-١٣١٧-١٣١٨-١٣١٩-١٣٢٠-١٣٢١-١٣٢٢-١٣٢٣-١٣٢٤-١٣٢٥-١٣٢٦-١٣٢٧-١٣٢٨-١٣٢٩-١٣٣٠-١٣٣١-١٣٣٢-١٣٣٣-١٣٣٤-١٣٣٥-١٣٣٦-١٣٣٧-١٣٣٨-١٣٣٩-١٣٤٠-١٣٤١-١٣٤٢-١٣٤٣-١٣٤٤-١٣٤٥-١٣٤٦-١٣٤٧-١٣٤٨-١٣٤٩-١٣٥٠-١٣٥١-١٣٥٢-١٣٥٣-١٣٥٤-١٣٥٥-١٣٥٦-١٣٥٧-١٣٥٨-١٣٥٩-١٣٦٠-١٣٦١-١٣٦٢-١٣٦٣-١٣٦٤-١٣٦٥-١٣٦٦-١٣٦٧-١٣٦٨-١٣٦٩-١٣٧٠-١٣٧١-١٣٧٢-١٣٧٣-١٣٧٤-١٣٧٥-١٣٧٦-١٣٧٧-١٣٧٨-١٣٧٩-١٣٨٠-١٣٨١-١٣٨٢-١٣٨٣-١٣٨٤-١٣٨٥-١٣٨٦-١٣٨٧-١٣٨٨-١٣٨٩-١٣٩٠-١٣٩١-١٣٩٢-١٣٩٣-١٣٩٤-١٣٩٥-١٣٩٦-١٣٩٧-١٣٩٨-١٣٩٩-١٤٠٠-١٤٠١-١٤٠٢-١٤٠٣-١٤٠٤-١٤٠٥-١٤٠٦-١٤٠٧-١٤٠٨-١٤٠٩-١٤١٠-١٤١١-١٤١٢-١٤١٣-١٤١٤-١٤١٥-١٤١٦-١٤١٧-١٤١٨-١٤١٩-١٤٢٠-١٤٢١-١٤٢٢-١٤٢٣-١٤٢٤-١٤٢٥-١٤٢٦-١٤٢٧-١٤٢٨-١٤٢٩-١٤٣٠-١٤٣١-١٤٣٢-١٤٣٣-١٤٣٤-١٤٣٥-١٤٣٦-١٤٣٧-١٤٣٨-١٤٣٩-١٤٤٠-١٤٤١-١٤٤٢-١٤٤٣-١٤٤٤-١٤٤٥-١٤٤٦-١٤٤٧-١٤٤٨-١٤٤٩-١٤٥٠-١٤٥١-١٤٥٢-١٤٥٣-١٤٥٤-١٤٥٥-١٤٥٦-١٤٥٧-١٤٥٨-١٤٥٩-١٤٦٠-١٤٦١-١٤٦٢-١٤٦٣-١٤٦٤-١٤٦٥-١٤٦٦-١٤٦٧-١٤٦٨-١٤٦٩-١٤٧٠-١٤٧١-١٤٧٢-١٤٧٣-١٤٧٤-١٤٧٥-١٤٧٦-١٤٧٧-١٤٧٨-١٤٧٩-١٤٨٠-١٤٨١-١٤٨٢-١٤٨٣-١٤٨٤-١٤٨٥-١٤٨٦-١٤٨٧-١٤٨٨-١٤٨٩-١٤٩٠-١٤٩١-١٤٩٢-١٤٩٣-١٤٩٤-١٤٩٥-١٤٩٦-١٤٩٧-١٤٩٨-١٤٩٩-١٥٠٠-١٥٠١-١٥٠٢-١٥٠٣-١٥٠٤-١٥٠٥-١٥٠٦-١٥٠٧-١٥٠٨-١٥٠٩-١٥١٠-١٥١١-١٥١٢-١٥١٣-١٥١٤-١٥١٥-١٥١٦-١٥١٧-١٥١٨-١٥١٩-١٥٢٠-١٥٢١-١٥٢٢-١٥٢٣-١٥٢٤-١٥٢٥-١٥٢٦-١٥٢٧-١٥٢٨-١٥٢٩-١٥٣٠-١٥٣١-١٥٣٢-١٥٣٣-١٥٣٤-١٥٣٥-١٥٣٦-١٥٣٧-١٥٣٨-١٥٣٩-١٥٤٠-١٥٤١-١٥٤٢-١٥٤٣-١٥٤٤-١٥٤٥-١٥٤٦-١٥٤٧-١٥٤٨-١٥٤٩-١٥٥٠-١٥٥١-١٥٥٢-١٥٥٣-١٥٥٤-١٥٥٥-١٥٥٦-١٥٥٧-١٥٥٨-١٥٥٩-١٥٦٠-١٥٦١-١٥٦٢-١٥٦٣-١٥٦٤-١٥٦٥-١٥٦٦-١٥٦٧-١٥٦٨-١٥٦٩-١٥٧٠-١٥٧١-١٥٧٢-١٥٧٣-١٥٧٤-١٥٧٥-١٥٧٦-١٥٧٧-١٥٧٨-١٥٧٩-١٥٨٠-١٥٨١-١٥٨٢-١٥٨٣-١٥٨٤-١٥٨٥-١٥٨٦-١٥٨٧-١٥٨٨-١٥٨٩-١٥٩٠-١٥٩١-١٥٩٢-١٥٩٣-١٥٩٤-١٥٩٥-١٥٩٦-١٥٩٧-١٥٩٨-١٥٩٩-١٦٠٠-١٦٠١-١٦٠٢-١٦٠٣-١٦٠٤-١٦٠٥-١٦٠٦

- (٨٥) إبراهيم القادري بوتشيش: **المغرب والأندلس...م. س.** ص ١٢٩.
- (٨٦) الصومعي: **المعزى...م. س.** ص ٢٣، علل الفاسي: **التصوف الإسلامي...م. س.** ص ٣٩. ويقول أحد الباحثين "ولا شك أن اتصال المغرب بالشرق عبر الرحلات التي كان يقوم بها الصوفية، كان له أكبر الأثر في انتقال الأنماط السلوكية الخاصة بأهل التصوف إلى المغرب فعبر هذه الرحلات انتقلت كتب المشاركة"، إبراهيم علي التهامي: **أهل السنة والجماعة في المغرب وجهودهم في مقاومة الانحرافات العقدية: من الفتح الإسلامي إلى نهاية القرن الخامس**، رسالة لنيل درجة الدكتوراة، جامعة أم القرى، كلية الدعوة وأصول الدين، قسم العقيدة، ١٤١٢هـ (نسخة مرقونة)، الجزء الثاني، ص ٥٦٨، كلود عداس: **التصوف الأندلسي...م. س.** ص ١٢٦٢، إبراهيم القادري بوتشيش: **المغرب والأندلس...م. س.** ص ١٢٩، أبو بكر بن العربي: **قانون التأويل**، م. س. ص ٤٥. وعن الرحلات التي قام بها المغاربة والأندلسيون تجاه المشرق انظر إبراهيم القادري بوتشيش: **"الرحلات العلمية الأندلسية لمكة المكرمة خلال عصري المرابطين والموحدين (ق ٥-١١هـ / ١١-١٢م)** ضمن كتاب: **مقالات في تاريخ الغرب الإسلامي خلال عصري المرابطين والموحدين**، مكناس ٢٠٠٧، ص ١١٩-١٧١، نفسه: **"رحلة علماء الأندلس لمكة ونتائجها العلمية خلال القرنين الرابع والخامس الهجريين"** ضمن أعمال الأبحاث المقدمة إلى الندوة الكبرى المقامة بمناسبة اختيار مكة المكرمة عاصمة الثقافة الإسلامية لعام ١٤٢٦هـ المنعقدة في رحاب جامعة أم القرى بمكة المكرمة خلال الفترة من ١٣-١٥-٨-١٤٢٦هـ الموافق ١٧-١٩-٩-٢٠٠٥م، المحور التاسع- الجزء الثاني **الرحلات وأثرها في العالم الإسلامي**، جامعة أم القرى ١٤٢٦هـ ص ٣-٥٨، عبد اللطيف مومن: **"رحلات الأندلسيين نحو المشرق مقياس الاستيعاب المعرفي والأصالة الثقافية بالأندلس"** ضمن كتاب: **أدب الرحلة في التواصل الحضاري**، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية مكناس، سلسلة الندوات ٥، ١٩٩٣، ص ٢٧٣-٢٨٦.
- (٨٧) حسين سيد عبد الله مراد: **المتصوفة في المغرب الأقصى...م. س.** ص ١٨.
- (٨٨) التميمي: **المستفاد...م. س.** ص ٢٥، حسن جلاب: **الحركة الصوفية بمراكش ظاهرة سبعة رجال**، مراكش ١٩٩٤، ص ٧٤، إبراهيم القادري بوتشيش: **المغرب والأندلس...م. س.** ص ١٢٩، منويلا مرين: **زهاد الأندلس...م. س.** ص ٨٣.
- (٨٩) ترجمته في ابن بشكوال: **الصلة...م. س.** ج ٢، ص ٢٠٦، برهان الدين إبراهيم بن علي بن محمد اليعمرى ابن فرحون: **الديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب**، تحقيق الدكتور محمد الأحمدى أبو النور، مكتبة دار التراث، القاهرة ١٩٧٢، ج ٢، ص ٢٩٩، ابن الزيات: **التشوف...م. س.**، ترجمة ١، ص ٨٣-٨٥.
- (٩٠) انظر ترجمته في: ابن الزيات: **التشوف...م. س.** ص ١٠١-١٠٥، التميمي: **المستفاد...م. س.** ج ٢، ص ١٨٩-١٩١، أبو عبد الله محمد الحميري: **الروض المعطار في خبر الأقطار**، تحقيق، إحسان عباس، مؤسسة ناصر للثقافة، بيروت ١٩٧٥، ص ٢٩٣-٢٩٤. ابن أبي زرع الفاسي: **الأنيس المطرب...م. س.** ص ١٧٠، ابن القاضي: **جذوة الاقتباس...م. س.** ج ٢، ص ٥٦٠، أبو الحسن علي الجزنائي: **جنى زهرة الأس في بناء مدينة فاس**، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، ط ٢، المطبعة الملكية، الرباط ١٩٩١، ص ٢٧٠.
- (٩١) الصومعي: **المعزى...م. س.** ص ٣١، عبد السلام غرميني: **المدارس الصوفية...م. س.** ص ٢٥٠.
- (٩٢) التميمي: **المستفاد...م. س.** ص ٢٨، ابن الزيات: **التشوف...م. س.** ص ٩٢-٩٣، العباس بن إبراهيم: **الإعلام...م. س.** ج ٩، ص ١٣٣، عبد

الصوفية...م. س. ص ٢٤٧، أحمد التوفيق: **التصوف بالمغرب...م. س.** ص ٢٣٩١. والملاحظ أن هذا الأمر لا يقتصر على المغرب فحسب، بل ينطبق كذلك على الأندلس، كلود عداس: **التصوف الأندلسي وبروز ابن عربي...م. س.** ص ١٢٥٩. مانويلا مارين: **الظهور المبكر للزهد...م. س.** ص ٣٩-٤٠.

(٧٧) لكن الدكتور إبراهيم القادري بوتشيش يرى أن تيار الغزالي نفي بالمغرب بسرعة "وتعرض أنصاره لبطش السلطة المرابطية التي زجت ببعضهم في السجون، ولكنهم لم يتقاعسوا عن الدعاية لتيارهم عن طريق تأليف مصنفات صوفية داخل السجون نفسها، وبهذا الخصوص ذكر ابن عبد الملك أنه وقع على مجموع في التصوف كتبه محمد بن خلف بسجن مراكش عندما عُزِّب إليها وذلك في عهد علي بن يوسف" إبراهيم القادري بوتشيش: **الحياة الاجتماعية في المغرب**، ج ١، ص ٣١٩. وقد أحال خطأ الدكتور بوتشيش إلى كتاب الذيل والتكملة الجزء ٥، القسم ٢، ص ١١٥١، ترجمة ٥٨٢، بينما ترجمة محمد بن خلف بن أحمد بن علي بن علي بن حسين اللخمي توجد في ابن عبد الملك: **الذيل والتكملة...م. س.** ص ٦، ص ١٨٢، ترجمة ٤٩٨. وبالرجوع لترجمة محمد بن خلف بن أحمد بن علي بن حسين اللخمي لا نجد إشارة واحدة تدل على أنه كتب مصنفه من أجل الدفاع عن الغزالي، بل ولا نستشف كذلك من خلال الترجمة أن محمد بن خلف كان من أنصار الغزالي كما ذهب إلى ذلك الدكتور إبراهيم القادري بوتشيش، ولا نعلم أيضا سبب دخوله السجن، هل لكونه متصوفا أم لسبب آخر، بل إننا نهجل تماما محتوى المصنف الذي صنفه محمد بن خلف في السجن كي نؤكد أو ننفي علاقته بالغزالي فما بالك الجزم بأن تأليفه كان من أجل الدفاع عن الغزالي؟!.

(٧٨) إبراهيم القادري بوتشيش: **الحياة الاجتماعية في المغرب**، ج ١، ص ٣٠٨-٣١١، وهو ينفي البتة أن يكون سبب إحراق الإحياء له علاقة بالتصوف، مصطفى بنسباغ: **السلطة بين التسنن والتشيع...م. س.** ص ٨٠-٨٨، وقارنه بما يقدمه عمر بن حمادي: **الفقهاء في عصر المرابطين...م. س.** ج ٤، ص ٥٨١-٥٨٢، وراجع أيضا الصفحات ٥٧٢-٥٧٣-٥٧٤-٥٧٥، حيث يعرض الباحث مجموعة من المناطق في العالم الإسلامي التي عارضت كتاب الإحياء، وبالمقابل فإن الدكتور إبراهيم القادري بوتشيش يرى أن كتاب الإحياء لم يلق معارضة في مشرق العالم الإسلامي، إبراهيم القادري بوتشيش: **الحياة الاجتماعية في المغرب**، ج ١، ص ٣١١، ومن جانبنا نؤكد ما ذهب إليه عمر بن حمادي، فبالفعل وجدت معارضة في شتى بقاع العالم الإسلامي لكتاب الإحياء عكس ما ذهب إليه إبراهيم القادري بوتشيش.

(٧٩) يقصد بها الطرق الصوفية.

(٨٠) التميمي: **المستفاد...م. س.** ج ١، ص ٩.

(٨١) يجمع المختصون في التصوف المغربي أن النظريات الاستشرقية حول التصوف المغربي قد أعلنت أن الماضي المغربي المتقدم عن مجيء الإسلام مارس تأثيره على العقلية المغربية ودفع البربر دفعا نحو اعتناق الآراء والمواقف التي كانت سائدة في هذه البلاد قبل الفتح الإسلامي. وادعت أن هذا التصوف إن هو إلا تعبير عن القومية البربرية وعقليتها أو إحياء لمعتقدات الوثنية. راجع مثلا محمد مفتاح: **الخطاب الصوفي مقاربة وظيفية**، مكتبة الرشاد، ط ١، ١٩٩٧، ص ٢٥.

(٨٢) عبد الجليل لحمنات: **التصوف المغربي...م. س.** ص ١٦٥، التميمي: **المستفاد...م. س.** ص ٢٥.

(٨٣) إبراهيم القادري بوتشيش: **المغرب والأندلس...م. س.** ص ١٢٩.

(٨٤) ابن قسي: **خلف النعلين...م. س.** ص ١٤-١٦.

(١٠٧) عمر بن حمادي: **الفقهاء في عصر المرابطين...** م. س، ج ٣، ص ٤٢٥. ويعتقد الباحث أن ابن سعدون "هو الذي جلب هذه الكتب كلها إلى مناطق المغرب وحدث بها" نفس المرجع والصفحة.

(١٠٨) أحمد التادلي الصومعي: **المعزى...** م. س، ص ٣١-١٤٣-١٦٠.

(١٠٩) توفي بأغامت سنة ٥٤١هـ انظر ترجمته في ابن الزيات: **التشوف** ... م. س، ص ١٤٦-١٥٠، العباس بن إبراهيم: **الأعلام...** م. س، ج ٨، ص ٢٨.

(١١٠) الصومعي: **المعزى...** م. س، ص ٣١-٧٣، علال الفاسي: **التصوف الإسلامي...** م. س، ص ٣٩.

(١١١) الصومعي: **المعزى...** م. س، ص ١٨٤، إبراهيم القادري بوتشيش: **المغرب والأندلس...** م. س، ص ١٢٩. وقد أكد أحمد التادلي الصومعي فكرة كون التصوف المغربي قد تأثر بالتصوف المشرقي حينما تطرق للأصول الشرقية للتصوف المغربي وذلك حينما قام بسرد سلسلة الشيخ أبي يعزى وعندما عرض اتصال سلسلته بالشيخ أبي يعزى وبأقطاب التصوف الآخرين إلى النبي صلى الله عليه وسلم، أحمد التادلي الصومعي: **المعزى...** م. س، ص ٣٠، وأيضاً الباب الثاني من الكتاب ص ٧١-١١١ والباب السابع من الصفحة ٢٨٥-٤١٣، إبراهيم القادري بوتشيش: **المغرب والأندلس...** م. س، ص ١٣٠.

(١١٢) ابن الزيات: **التشوف...** م. س، ص ٨٣-٩٤-١٠٩-١٤٦.

(١١٣) ابن الزيات: **التشوف...** م. س، ص ١٨٥، حسين سيد عبد الله مراد: **المتصوفة في المغرب الأقصى...** م. س، ص ١٨، إبراهيم القادري بوتشيش: **المغرب والأندلس...** م. س، ص ١٢٩.

(١١٤) إبراهيم القادري بوتشيش: **المغرب والأندلس...** م. س، ص ١٣٠، والغريب في الأمر أن الباحث يرى أنه ليس من الغريب "أن يتسرب الفكر الصوفي الباطني إلى المغرب ويؤثر في مجموعة من المتصوفة" ص ١٣٠، وفي موضع آخر ينفي البتة أن يكون التصوف المغربي قد تشبع بالأفكار الباطنية كما حدث في الأندلس، انظر إبراهيم القادري بوتشيش: **ثقافة الوسطية...** م. س، صفحات متعددة. مع العلم أنه يستدل على كلامه بنموذج المتصوف ابن قسي. ولنا أن نتساءل: هل ابن قسي كان من متصوفة المغرب؟ وهل تتلمذ متصوفة المغرب على ابن قسي حتى يتأثروا به وبالتالي بالفكر الباطني لكي ينتشر في المغرب التصوف الباطني؟

(١١٥) بهذا الصدد نتفق مع الباحث عمر بن حمادي عندما يرى بأنه لا يجب "الاقتصار عند تفسير الأحداث المغربية على الإطار الضيق للجهة فتؤخذ تلك الأحداث بمعزل عن بقية الجهات الإسلامية. بل إن الظروف تدعو إلى الربط بما كان يحدث بالشرق. فما كان يعرفه هذا الأخير من أحداث وتيارات وتحولات كان يؤثر كثيراً وبسرعة أكبر ربما مما قد تنصور على المنطقة المغربية" عمر بن حمادي: **الفقهاء في عصر المرابطين...** م. س، ج ٤، ص ٦٢٧-٦٢٨، وهذا بطبيعة الحال ينطبق كذلك على التصوف.

(١١٦) عبد السلام غرميني: **المدارس الصوفية...** م. س، ص ٢٤٨.

(١١٧) التميمي: **المستفاد...** م. س، ج ١، ص ٢٦. وانظر ترجمته في ابن بشكوال: **الصلة...** م. س، ج ٢، ص ٦١١، ابن الزيات: **التشوف...** م. س، ص ٨٧-٨٨، ابن فرحون: **الديباج المذهب...** م. س، ص ٣٤٤، ابن القاضي: **جذوة الاقتباس...** م. س، ج ١، ص ٣٤٤، ابن العماد الحنبلي: **شذرات الذهب في أخبار من ذهب**، سلسلة ذخائر التراث العربي، المكتبة التجارية للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت (د، ت)، ج ٣، ص ٢٤٧، ابن عذاري: **البيان المغرب**، طبعة بيروت، مراجعة، إحسان عباس، ج ١، ص ٢٧٥، ابن الجزري: **غاية النهاية في طبقات القراء**، عني بنشره: ج. برجستراس، ط ٢، ١٩٨٠، بيروت، ج ١، ص

السلام غرميني: **المدارس الصوفية...** م. س، ص ٢٤٩. أما عن ترجمة المحاسبي فهي موجودة بعدة مضان انظرها مثلاً في ابن عبد الرحمن السلمي: **طبقات الصوفية**، تحقيق نور الدين الناشر مكتبة الخانجي، القاهرة، ط ٣ ١٩٩٧، ص ١٥-٢٦.

(٩٣) أحمد التوفيق: **التصوف بالمغرب...** م. س، ص ٢٣٩٢، حسين سيد عبد الله مراد: **المتصوفة في المغرب الأقصى...** م. س، ص ٢٨.

(٩٤) إبراهيم القادري بوتشيش: **المغرب والأندلس...** م. س، ص ١٢٩.

(٩٥) من أقران الشيخ أبي شعيب أيوب السارية، انظر ترجمته في **التشوف...** م. س، ص ٢٠٩-٢١١، بن إبراهيم: **الإعلام...** م. س، ج ٨، ص ٢١٢.

(٩٦) ابن الزيات: **التشوف...** م. س، ص ١٨٥.

(٩٧) ابن الفرضي: **تاريخ علماء الأندلس...** م. س، ج ١، ص ٢٠٨.

(٩٨) مما يدل على دوره في التصوف المغربي أن مؤلفي كتب المناقب اهتموا به وترجموا له انظر مثلاً: مجهول: **تراجم الأولياء**، دراسة وتخرير محمد أحنات وفاطمة أولاس، بحث لنيل الإجازة في التاريخ، كلية الآداب تطوان، ٢٠٠٠-٢٠٠١، ص ٧٤-٧٧، ابن سعد: **النجم الثاقب في ذكر ما لأولياء الله من مفاخر المناقب**، ج ٤، دراسة وتحليل محمد داردار ومحمد المومن، بحث لنيل الإجازة في التاريخ، كلية الآداب تطوان، ١٩٩٦-١٩٩٧، ص ٦٢-٦٥.

(٩٩) إبراهيم القادري بوتشيش: **المغرب والأندلس...** م. س، ص ١٢٩.

(١٠٠) نفسه، ص ١٢٩، وانظر الصفحة ١٢٨ حيث يرى أن تسرب الفكر الغزالي للمغرب والأندلس "ساهم في تكوين قاعدة صلبة لنشوء التصوف؟! وهنا أيضاً نجد الدكتور بوتشيش يخلط بين التصوف المغربي والتصوف الأندلسي، وقد أشرنا لهذا الخلط الذي وقع فيه الدكتور بوتشيش في الهامش ١ ص ٢٣-٢٤، وفي موضع آخر يرى أن كتاب الإحياء "ساهم في تكوين تيار صوفي في المغرب والأندلس" إبراهيم القادري بوتشيش: **الحياة الاجتماعية في المغرب...** م. س، ج ١، ص ٢٢، وأيضاً فقد "تمخض عن تسرب الفكر الغزالي للمغرب والأندلس انتشار تيار الزهد والتصوف"، نفس المرجع، ص ١٣٧، وأن انتشار فكر الغزالي أثر في شريحة هامة من المجتمع، نفسه، ص ٢٨٤-٣١٩. بل وساهم هذا الكتاب في تأسيس الجذور الأولى للتصوف في عصر المرابطين؟! إبراهيم القادري بوتشيش: **الحياة الاجتماعية في المغرب...** م. س، ج ١، ص ٣٠٥، وأنه أعطى للانطلاقة الأولى الحقيقية للتصوف المغربي- الأندلسي، نفسه، ص ٣١٨.

(١٠١) علال الفاسي: **التصوف المغربي...** م. س، ص ٤٠.

(١٠٢) إبراهيم القادري بوتشيش: **المغرب والأندلس...** م. س، ص ١٢٩.

(١٠٣) انظر ترجمته في محمد بن عيشون الشراط: **الروض العطر...** م. س، ص ٥٦-٥٧، ابن الزيات: **التشوف...** م. س، ص ٩٤، ابن القاضي: **جذوة الاقتباس...** م. س، ص ٣٧٧، **المستفاد...** م. س، ج ٢، ص ١٨٣-١٨٤.

(١٠٤) الشراط: **الروض العطر الأنفاس...** م. س، ص ٥٦، ابن القاضي: **جذوة الاقتباس...** م. س، ج ١، ص ٣٥٨.

(١٠٥) إبراهيم القادري بوتشيش: **المغرب والأندلس...** م. س، ص ١٢٩، التميمي: **المستفاد...** م. س، ج ١، ص ٢٥، ويعتقد الباحث عمر بن حمادي ابن حزمه وابن العربي لم يعرفوا كتاب إحياء علوم الدين كاملاً، عمر بن حمادي: **الفقهاء في عصر المرابطين...** م. س، ج ٣، ص ٤٢٨.

(١٠٦) ابن الزيات: **التشوف...** م. س، ص ٩٤-٩٥، عمر بن حمادي: **الفقهاء في عصر المرابطين...** م. س، ج ٣، ص ٣٩٧-٤٢٨. وعن تأثير أبي حامد الغزالي ومؤلفاته في التصوف بالمغرب الأقصى، انظر عبد الجليل لحمنات: **التصوف المغربي...** م. س، ص ١٨٦-٢٠٢.

بالكرامات عامة. وكان لهذا الخلاف صدى واسع انقسم علماء القيروان على إثره فتنين، فئة تقول برأي أبي القاسم، وتضم معظم الصوفية وكثيراً من أهل الحديث وأهل الفقه، أمثال أبي سعيد خلف بن عمر المعروف بابن أخي هشام (ت ٣٧١هـ)، وفئة أخرى تؤيد أبا محمد القيرواني، وتضم بينها أبا الحسن علي القاسبي (ت ٤٠٣هـ) وأبا جعفر أحمد الداودي (ت ٤٠٢هـ). ثم ما لبث الخلاف أن توسع عندما أدلى أحد كبار علماء بغداد بدلو، بعد أن استفتي في الأمر، وهو أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني (ت ٤٠٣هـ). وتلا ذلك توسع آخر وصل بالمسألة إلى مكة المكرمة، إذ أيد شيخ صوفية الحرم حينئذ أبو الحسن علي بن عبد الله بن جهضم الهمداني (ت ٤١٤هـ) موقف أبي القاسم في الانتصار للكرامات، وردّ على أبي محمد القيرواني إنكاره لها. ولكن التوسع الأكبر للمسألة شهدته ديار الأندلس التي ظهر فيها تياران؛ يؤيد أحدهما أبا محمد القيرواني، ومنهم أبو بكر محمد بن موهب القبري (ت ٤٠٦هـ) وأبو محمد الأصيلي كبير علماء قرطبة (ت ٣٩٢هـ) وأبو العباس بن ذكوان كبير قضاة قرطبة (ت ٤١٣هـ). ويدافع التيار الآخر عن صحة الكرامات، فيرى رأي أبي القاسم الصقلي. ومن رجالات هذا التيار الشيخ أبو جعفر أحمد بن عون الله (ت ٣٧٨هـ) وتلميذه أبو عمر أحمد بن محمد الطلمني (ت ٤٢٩هـ). ولم يقتصر الخوض في غمار مسألة الكرامات على القرن الرابع وحده، بل تعداه إلى القرن الخامس، إذ شارك فيها أبو عمر الطلمني الذي توفي عام ٤٢٩هـ وكذلك الأمر بالنسبة إلى القرن السادس، حيث أفتى ابن رشد الجد بضرورة تصديق الكرامات بناء على التواتر في نقلها، وإجماع أهل السنة على صحتها. والأمر نفسه ينطبق على القرن الثامن؛ فثمة رسالة تُنسب إلى أحمد بن البناء الأزدي (ت ٧٢١هـ) بعنوان (الفرق بين الخوارق الثلاثة: المعجزة والكرامة والسحر) جذوة الاقتباس...م. س، ج ١، ص ١٥٢. ولقد خاض في تجويز الكرامات كثير من العلماء والفقهاء والمنصّفة، بل إننا نجد صدى الخلاف حول مبدأ الكرامات مستمراً حتى يومنا هذا.

(١٢٩) التميمي: المستفاد...م. س، ج ١، ص ٢٧.

(١٣٠) من بين هذه التراجم كما أوردها ابن الزيات التادلي: _ أبو عبد الله محمد بن سعدون بن علي القيرواني المتوفى سنة ٤٨٥ هـ ترجمة ١، ص ٨٣. _ أبو محمد عبد العزيز التونسي المتوفى سنة ٤٨٦ هـ ترجمة ٦، ص ٩٢. _ أبو الفضل يوسف بن نحوي المتوفى سنة ٥١٣ هـ ترجمة ٩، ص ٩٥ وما بعدها. _ الإخوة: أبو الطيب ومحمد ومحرز، ترجمة ٤٥، ص ١٦١.

(١٣١) ابن بشكوال: الصلة...م. س، ج ٢، ص ٤١٣، ابن الزيات: التشوف...م. س، ص ٩٢، ابن الزبير: صلة الصلة: القسم الأخير، اعتنى بتصحيحه وتعليق الحواشي، الأستاذ ليفي بروفنصال، الرباط ١٩٣٧، ص ١-٢ ترجمة ٣.

(١٣٢) التميمي: المستفاد...م. س، ج ١، ص ٢٧-٢٨.

(١٣٣) انظر ترجمته في ابن بشكوال: الصلة...م. س، ص ٨٠٧، ابن الزيات: التشوف...م. س، ترجمة ٦، ص ٩٢. المراكشي: الأعلام...م. س، ج ٨، ترجمة ١٢٤٢، أبو جعفر أحمد بن إبراهيم بن الثقفي العاصمي: (ت ٧٠٨ هـ): صلة الصلة، القسم الثالث، تحقيق، د. عبد السلام الهراس والشيخ سعيد أعراب، مطبوعات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، مطبعة فضالة، المحمدية، ١٩٩٣، ص ٢٥٤، ترجمة ٤٤٥، نفسه القسم الأخير، اعتنى بتصحيحه وتعليق الحواشي، الأستاذ ليفي بروفنصال، الرباط ١٩٣٧، ص ١-٢، ترجمة ٣.

(١٣٤) عبد السلام غرميني: المدارس الصوفية...م. س، ص ٢٤٩، التميمي: المستفاد...م. س، ص ٢٨، أما عن ترجمة المحاسبي فهي موجودة

٢٧٥، محمد بن محمد الأندلسي السراج: الحلل السندسية في الأخبار التونسية، تحقيق محمد الحبيب الهيلة، تونس ١٩٧٠، ج ١، ص ٢٧٢. محمد مخلوف: شجرة النور الزكية...م. س، ص ١٠٦، عبد الحي الكتاني: فهرس الفهارس والإثبات ومعجم المشايخ والمسلسلات، المطبعة الجديدة فاس ١٣٤٦، خير الدين الزركلي: الأعلام، ج ٨، ص ٢٧٨، عبد الوهاب بن منصور: أعلام المغرب العربي، المطبعة الملكية، الرباط ١٩٧٩، ج ٢، ص ٩٦، عبد الله كنون في مجلة الثقافة المغربية، ص ٤٩، عدد ١، عبد الله المرابط الترغي، فهارس علماء المغرب منذ النشأة إلى نهاية القرن الثاني عشر للهجرة، منهجيتها، تطورها، قيمتها العلمية، منشورات كلية الآداب تطوان، سلسلة الأطروحات رقم ٢، ط ١، الدار البيضاء، ١٩٩٩، ص ٥٩٨.

(١١٨) عبد السلام غرميني: المدارس الصوفية...م. س، ص ٢٤٨، عبد الجليل لحمنات: التصوف المغربي...م. س، ص ١٥٣، نقلاً عن: George drague: esquisse Religieuse du maroc Cahiers de l'Afrique et l'Asie, paris. 1952 ; p28et 30.

حيث اعتبر أن أبا عمران القاسي هو أول من أدخل تعاليم الجنيدي إلى إفريقية، ولم يتردد في نعت ابن ياسين بأنه صوفي مالكي.

(١١٩) عبد الله المالكي: رياض النفوس...م. س، ج ١، ص ١٠٧، ومن بين التابعين الذين قدموا مع الفتح الإسلامي للقيروان نذكر: موهب بن حي المعافري، نفسه، ص ١١٠-١١١، وحبان بن أبي جيلة (ت ١٢٢ أو ١٢٥هـ)، نفسه، ص ١١١-١١٢، وإسماعيل بن عبيد الله بن الأعور القرشي (ت ١٣١ أو ١٣٢هـ)، نفسه، ص ١١٥-١١٧، وإسماعيل بن عبيد الله مولى الأنصار (ت ١٠٧هـ)، نفسه، ص ١٠٦-١٠٩، وطلق بن حابان، نفسه، ص ١١٧-١١٨، وبكر بن سودة الجذامي (ت ١٢٨هـ)، نفسه، ص ١١٢-١١٣، وعبد الرحمن بن رافع التتوخي (ت ١١٣هـ)، نفسه، ص ١١٠، وعبد الله بن يزيد (ت ١٠٠هـ)، نفسه، ص ٩٩، وسعيد بن مسعود التجيبي، نفسه، ص ١٠٢-١٠٦، وأبو عبد الله بن نصير اللخمي (ت ١١٤هـ)، نفسه، ص ١١٩-١٢٠، وعبد الله بن أبي بردة القرشي، نفسه، ص ١٢٦-١٢٧.

(١٢٠) انظر ترجمته في: عبد الله المالكي: رياض النفوس...م. س، ص ٣٠٠-٣١٢.

(١٢١) المالكي: رياض النفوس...م. س، ص ٣٠٦.

(١٢٢) ترجمته في المالكي: رياض النفوس...م. س، ص ٣٢٤-٣٣١.

(١٢٣) المالكي: رياض النفوس...م. س، ص ٣٢٣.

(١٢٤) ترجمته في المصدر السابق، ص ٤١٠-٤١١.

(١٢٥) راجع بهذا الصدد إبراهيم علي التهامي: أهل السنة والجماعة في المغرب وجهودهم في مقاومة الانحرافات العقدية: من الفتح الإسلامي إلى نهاية القرن الخامس، رسالة لنيل درجة الدكتوراه، جامعة أم القرى، كلية الدعوة وأصول الدين، قسم العقيدة، ١٤١٢هـ، (نسخة مرقونة)، الجزء الثاني، ص ٥٣٣-٥٤٠.

(١٢٦) التميمي: المستفاد...م. س، ج ١، ص ٢٧.

(١٢٧) المالكي: رياض النفوس...م. س، ص ٤٩٣-٤٩٥.

(١٢٨) ابن حمادي: "كرامات الأولياء، النقاش الحاد الذي أثاره بالقيروان وقرطبة في أواخر القرن الرابع الهجري"، مجلة دراسات أندلسية، ع ٤، ١٩٩٠، ص ٣٥-٦٠. وللمزيد من التفاصيل حول هذا النقاش انظر: إبراهيم علي التهامي: أهل السنة والجماعة في المغرب...م. س، ص ٦٠٤-٦٠٧. وأصل الخلاف أن أبا القاسم كان ينسب لنفسه كرامات لم يكن يقبل بعضها أبو زيد القيرواني، إلا باشتراط حدوثها في المنام، مما أدى إلى خلاف واسع بين الرجلين أصاب مبدأ الاعتراف

بعده مضان انظر مثلاً في: ابن عبد الرحمن السلمي: طبقات الصوفية، تحقيق نور الدين الناشر مكتبة الخانجي، القاهرة، ط ٣، ١٩٩٧، ص ١٥-٢٦.

(١٣٥) التميمي: المستفاد...م. س، ج ١، ص ٢٧.

(١٣٦) التميمي: المستفاد...م. س، ج ١، ص ٢٧، محمد المغراوي: "فتوى

أبي الفضل ابن النحوي حول كتاب إحياء علوم الدين للإمام أبي حامد الغزالي" ضمن كتاب: متنوعات محمد حجي، نشرت بمناسبة صدور موسوعة أعلام المغرب، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط ١، ١٩٩٨، ص ١١٨-١١٩. وتوجد نسخة من هذا المخطوط في خزانة الإسكوريال رقم ١١٣٠، نقلًا عن إبراهيم القادري بوتشيش: الحياة الاجتماعية في المغرب والأندلس...م. س، ج ٣، ص ١٠٠٢، وقد انتصر ابن النحوي للإمام الغزالي وهو من المتصوفة، ولم يقتصر على الدفاع عنه بالكلام فقط؛ بل نجده يكتب لأمر المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين بذلك "يُعرفه بالشيخ الغزالي، وبعلو مقامه، وأنه يحسن به الظن لثلاث يهلك، وصرح في الفقهاء الذين أفتوا بحرق الكتاب، وحمل عليهم" الصومعي: المعري...م. س، ص ٣٢٩، عمر بن حمادي: الفقهاء في عصر المرابطين...م. س، ج ٤، ص ٥٧٩. وأفتى بأن الأيمان التي فرضت في عملية التفتيش أيمان لا تلزم وقال: "وددت أنني لم انظر في عمري سوى كتاب الإحياء" وكان قد انتسخ الإحياء في ثلاثين جزءاً، فإذا دخل رمضان قرأ كل يوم جزءاً، ابن الزيات: التشوف...م. س، ص ٩٦، الناصري أبو العباس أحمد: كتاب الإستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، ج ٢، الدار البيضاء، ١٩٥٤، ص ٧٤، وانظر إبراهيم القادري بوتشيش: الحياة الاجتماعية في المغرب، ج ١، ص ٣١٥-٣١٦-٣١٧. وعن نص الفتوى التي أصدرها ابن النحوي فالملاحظ أنها لم ترد في أي مصدر من مصادر ترجمة ابن النحوي، ولم يتم العثور أيضاً على الرسالة التي بعثها لأمر المسلمين علي بن يوسف. وقد أورد الدكتور محمد المغراوي فتوى أبي الفضل بن النحوي التي أصدرها في تلمسان: فتوى أبي الفضل ابن النحوي...م. س، ص ١٢٦-١٢٨. والغريب في الأمر أن أحد الباحثين يرى أن سبب الإحراق يعود إلى الصراع الإيديولوجي بين مذهب المرابطين وبين المذهب الأشعري الذي بدأ يغزو المغرب والأندلس زمن المرابطين، ويرى أن فتوى أبي الفضل بن النحوي كانت تتعلق بكتب الأشاعرة، احنانة يوسف: تطور المذهب الأشعري...م. س، ص ٨٢. ومما تجب الإشارة إليه أن الإمام الغزالي لم يعدم أنصاراً يدافعون عنه ويأمنون له، فمثلاً في الأندلس في عصر الدراسة وُجد من الفقهاء من قام بتبرئة الغزالي مما رمي به، وفي هذا الصدد يحدثنا قاضي الجماعة ابن حمدين بقوله: "إن بعض من كان ينتحل رسم الفقه ثم تبرأ منه شغفا بالشريعة الغزالية والنحلة الصوفية، أنشأ كراسة تشمل على معنى التعصب لكتاب أبي حامد إمام بدعتهم، فأين هو من شنع منكبه، ومضاليل أساطيره المبينة للدين؟ وزعم أن هذا من علم المعاملة، المفضي إلى علم المكاشفة الواقع بهم على سر الربوبية الذي لا يفسر عن قناعة، ولا يفوز بغلاته إلا من تمطى إليه ثبج ضلالتة التي رفع لهم أعلامها وشرع أحكامها" الذهبي: سير أعلام النبلاء، حقق بعضه وأشرف على تحقيق بعضه الآخر شعيب الأرنؤوط، ط. الثامنة، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٩٩٢، ج ١٩، ص ٣٣٢. وانظر أيضاً عمر بن حمادي: الفقهاء في عصر المرابطين...م. س، ج ٤، ص ٥٧٨-٥٧٩-٥٨٠-٥٨١. وقد وهم آسبن بلاثيوس بأن الصرخة الوحيدة على إحراق إحياء علوم الدين كانت في ألميرية فقط وأن صوفية المدن الأخرى في المغرب وغيرها اكتفوا بالاحتجاج" همسا في مجالسهم الخاصة" الطاهر أحمد مكي: دراسات أندلسية في الأدب

والتاريخ والفلسفة، حرر بعضها وترجم البعض الآخر الدكتور الطاهر أحمد مكي، ط ٣، دار المعارف، القاهرة ١٩٨٧، ص ٢٤٦، ابن العريفي: كتاب النفاثات ومحاسن المجالس، أخرجه وقدم له نهاد خياطة، م. س، ص ٦٨٢. ولعل فتوى ورسالة ابن النحوي تنهض حجة على ما يدعيه الباحث. وقد انتصرت ثلاث مناطق للغزالي وهي: ألميرية وفاس وأغمات.

(١٣٧) التميمي: المستفاد...م. س، ج ١، ص ٢٧.

(١٣٨) عبد السلام غرميني: المدارس الصوفية...م. س، ص ٢٤-٢٦، عبد الجليل لحمنات: التصوف المغربي...م. س، ص ١٦٨-١٦٩، التميمي: المستفاد...م. س، ج ١، ص ٢٩.

(١٣٩) كلود عداس: التصوف الأندلسي...م. س، ص ١٢٦٢. وهذا المذهب هو مذهب الصوفي، محمد بن مسرة (ت ٣١٩هـ/ ٩٣١ م). ومدرسة ابن مسرة كما هو معلوم تجمع ما بين مبادئ المتصوفة وبين بعض أصول الاعتزال ومبادئ الباطنية. عصمت عبد اللطيف دندش: أضواء جديدة على المرابطين، دار الغرب الإسلامي، بيروت ١٩٩١، ص ٤١، محمود علي مكي: "بدايات التصوف الأندلسي ما قبل ابن مسرة" مجلة كلية الآداب، القاهرة، ع ٣٥، مارس ١٩٩١، ص ٩، ميغيل كروز هيرنانديس: الفكر الإسلامي...م. س، ص ١٠٩٠. لكن الدكتور خميسي حميدي ينفي بأن يكون ابن مسرة معتزلياً أبداً، نشأة التصوف في المغرب...م. س، ص ٣٤ وما بعدها. وعن محمد بن مسرة ومدرسته الصوفية انظر: الضبي: بغية الملمتس في تاريخ رجال الأندلس، نشرة فرانسيسكو كوديرا وخوليان ريبيرا مدريد، ١٨٨٤، ترجمة ١٦٣، الحميدي: جذوة المقتبس...م. س، ترجمة ٨٣٠، ابن حيان: المقتبس من أنباء أهل الأندلس، نشرة زاهد الكوثري، القاهرة، ١٩٥١، ترجمة ٨٣، أنخيل بالنثيا: تاريخ الفكر الأندلسي...م. س، ص ٣٢٦-٣٣٢، عبد السلام غرميني: المدارس الصوفية...م. س، ص ٥٥-٨٣، جمال علال البختي: الحضور الصوفي...م. س، ص ١٥-٣١، محمد الوزاد: "الملاحم العامة لشخصية ابن مسرة وأرائه" مجلة كلية الآداب بفاس، ع ٦، السنة ١٩٨٢-١٩٨٣، جعفر محمد كمال: من التراث الفلسفي لابن مسرة، القاهرة ١٩٨٢، عبد الواحد العسري: "حول فلسفة محمد بن مسرة القرطبي" مجلة كلية الآداب تطوان، ع ٨، ١٩٩٧، ص ٢٢١-٢٤٤، إبراهيم علي التهامي: أهل السنة والجماعة في المغرب...م. س، ص ٥٧٠-٥٧٣، ميغيل كروز هيرنانديس: الفكر الإسلامي...م. س، ص ١٠٩٠-١٠٩٣، محمد العدلوني: التصوف الأندلسي...م. س، ص ٦٢-٧٢، محمد بركات البيلي: الزهاد والمتصوفة...م. س، ص ١٨١-١٨٥، أبو بكر بن العربي: قانون التأويل، م. س، ص ٤٧-٤٩، هنري كوربان: تاريخ الفلسفة الإسلامية من الينابيع حتى وفاة ابن رشد، ترجمة: نصير مروة وحسن قبسي، بيروت ط ٣، ١٩٨٣، ص ٣٢٩-٣٣٥. ويرجع الفضل إلى المستشرق الإسباني: M. Asin palacios في دراسة مذهب ابن مسرة والتعريف بأكثر أرائه وذلك في دراسته التالية: *Ibn Massarra y su escuela, origines de la filosofia hispano musulmana, Madrid 1914*. وقد اعتمدت على الترجمة العربية لهذه الدراسة التي أنجزها الباحث أشهر محمد: ابن مسرة ومدرسته، أصول الفلسفة الإسلامية بالأندلس، د. د. ع. كلية الآداب، فاس ١٩٨٣ (نسخة مرقونة)، ومع هذا المذهب تزامنت بدايات التصوف الأندلسي، جورج كتورة: التصوف والسلطة...م. س، ص ١٩٨. وإذا كان الحال هذا مع الأندلس فإننا لا نجاري الباحثة في ادعائها بأن التصوف المغربي قد تزامن مع مذهب ابن مسرة.

فكره وعصره وتأثيره، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة: ندوات ومناظرات رقم: ٩، ١٩٨٨، ص ١٢٦، إبراهيم القادري بوتشيش: الحياة الاجتماعية في المغرب...م. س، ج ١، ص ٣١١-٣١٨، ويضيف أيضا ميمون بن ياسين الصنهاجي للمنتوني، نفسه، ص ٣١٨، التميمي: المستفاد...م. س، ج ١، ص ٣٠، احناة يوسف: تطور المذهب الأشعري...م. س، ص ١٠١، وقد أخذ عنه مجموعة من كتبه عندما تتلمذ عليه بالمشرق، عمار طالبي: آراء أبي بكر بن العربي الكلامية، م. س، ج ١، ص ٥٢-٥٥-٦٣، ويقول ابن العربي أن الغزالي كتبه له- أي كتاب الاحياء- بخط يده، عمار طالبي: آراء أبي بكر بن العربي الكلامية، م. س، ج ١، ص ٥٢، سعيد أعراب: مع القاضي أبي بكر بن العربي، دار الغرب الإسلامي بيروت، ط ١، ١٩٨٧، ص ١٥١. وبالرجوع إلى الملحق الذي أثبتته الدكتور عمار طالبي في الجزء الثاني من كتابه آراء أبي بكر بن العربي الكلامية، والمتمثل في تحقيق كتاب العواصم من القواصم، نرى أن أبا بكر بن العربي لم يدرج كتاب الغزالي الإحياء ضمن الكتب التي جلبها معه من المشرق، رغم أنه يذكر أنه جلب معه بعض كتب الغزالي التي سماها بأسمائها، لكنه لم يذكر كتاب الإحياء، انظر عمار طالبي: آراء أبي بكر بن العربي الكلامية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ١٩٧٩، ج ٢، ص ٥٠٧، ويقول محمد السليماني أن أبا بكر بن العربي سمع كتاب الإحياء من الغزالي شفاهة في بغداد سنة ٤٩٠هـ أبو بكر بن العربي: قانون التأويل، م. س، ص ٦٠-٨٦.

(١٤٨) التميمي: المستفاد...م. س، ج ١، ص ٢٨.

(١٤٩) لأخذ فكرة أولية عن الروابط في المغرب في العصر الوسيط انظر: الروابط والزوايا في تاريخ المغرب، منشورات كلية الآداب، الرباط، تنسيق نفيسة الذهبي، الدار البيضاء ١٩٩٧، حسن جلاب: الحركة الصوفية بمراكش ظاهرة سبعة رجال، مراكش ١٩٩٤، ص ٢٤-٤٥، نفسه: بحوث في التصوف المغربي، مراكش، ١٩٩٥، ص ٣٨-٢٦، لحمنات: التصوف المغربي...م. س، ص ١٤١-١٣١، إبراهيم حركات: المغرب عبر التاريخ، طبعة الدار البيضاء ٢٠٠٠، ج ١، ص ١٧٤-١٧٦، حسين سيد عبد الله مراد: المتصوفة في المغرب...م. س، ص ٣٥-٤١، محمد بركات البيلي: الزهاد والمتصوفة...م. س، ص ٦١-٧٢، محمد حجي: الزاوية الدلائية ودورها الديني والعلمي والسياسي، المطبعة الوطنية بالرباط، ١٩٦٤، ص ٢٣-٢٥. ويرى عمر بن حمادي أن الروابط تنقسم إلى قسمين: ربط ساحلية ذات مهمة عسكرية للدفاع عن السواحل من خطر خارجي محتمل، وربط داخلية كان أصحابها يُوجّهون عملهم خاصة إلى نشر الإسلام بين قبائل لم تُسلم بعد، أو تعميقه عند قبائل لا يزال إسلامها سطحيًا، عمر بن حمادي: الفقهاء في عصر المرابطين...م. س، ج ١، ص ٧١. وقد وهمت الباحثة عصمت دندش أن الزوايا قد انتشرت في المغرب والأندلس في العصر المرابطي، ابن العريف: مفتاح السعادة...م. س، ص ١٦، نفسها: الأندلس في نهاية المرابطين...م. س، ص ٢٨٨، نفسها: ارتسامات حول التصوف...م. س، ص ٤٧، لكننا نعلم أن الزوايا لم تكن قد تهيكلت وتأسست في العصر المرابطي، انظر محمد الشريف: "ما قبل هيكلة الزوايا في المغرب" مجلة المناهل، ع ٨٠-٨١، خاص بالزوايا في المغرب، ج ١، ص ٢٣-٣٧، وقد وهم الباحث علي الجاوي أيضا حينما اعتبر بأن القرن السادس الهجري قد شهد ظهور الطرق الصوفية بالمغرب التي حلت مكان الجماعات والمذاهب التي تكونت حول مشايخ التصوف في القرنين الرابع والخامس، الصومعي: المعزى...م. س، ص ٣١.

(١٤٠) التميمي: المستفاد...م. س، ج ١، ص ٢٩. ومن بين تلك الكتب نذكر "رعاية حقوق الله" للمحاسبي و "قوت القلوب" لأبي طالب المكي، وكتاب "الهداية إلى سبيل العناية في الزهد والرفاق" لابن العسال... وعن المصنفات الصوفية التي كانت متداولة بالمغرب خلال القرن الهجري السادس انظر الملحق رقم: ٢.

(١٤١) عمر فروخ: التصوف في الإسلام. م. س، ص ٧٦.

(١٤٢) جورج مارسيسه: بلاد المغرب الإسلامي...م. س، ص ٣٣٢-٣٣٣، منويلا مرين: زهاد الأندلس...م. س، ص ٨١-٨٢-٨٣، ورغم ذلك ففي موضع آخر نجدها تقول بخصوص تأثير التصوف الأندلسي بنظيره المشرقي: "لا يعني هذا أن التأثير المشرقي كان هو الحاسم وحده"، زهاد الأندلس...م. س، ص ٨٨.

(١٤٣) محمد الصمدي: "مدينة ألمرية مركز الدراسات الصوفية بالأندلس أواخر العصر المرابطي"، ضمن أعمال ندوة من ابن برجان إلى أبي إسحاق البلفيقي: جوانب من التواصل الفكري بين المغرب والأندلس، مجلة كلية الآداب مراكش، ع ١٢، ١٩٩٥، ص ١٧١-١٨١، أنخيل بالنثيا: تاريخ الفكر الأندلسي...م. س، ص ٣٣٢، جمعة شيخة: التصوف الأندلسي بين الدين والسياسة...م. س، ص ٦٨، ابن قسي: خلع النعيل...م. س، ص ١٩، الهامش ١، الطاهر أحمد مكي: دراسات أندلسية...م. س، ص ٣٤٦، أبو العلاء عفيفي: "أبو القاسم بن قسي وكتابه خلع النعيل" مجلة كلية الآداب الإسكندرية، مجلد ١١، ١٩٥٧، ص ٥٣، حيث اعتبرها عفيفي "أعظم مركز روحي في المغرب العربي على الإطلاق"، عبد القادر زمامة: حركة خطيرة...م. س، ص ٧٣، ابن العريف: كتاب النفائس ومحاسن المجالس، أخرجه وقدم له نهاد خياطة، م. س، ص ٦٨٢، حيث اعتبرها "العاصمة الروحية لجميع صوفية الأندلس" وذلك في عصر المرابطين، عصمت دندش: ارتسامات حول التصوف...م. س، ص ١٥، عصام الدين عبد الرؤوف الفقي: تاريخ المغرب والأندلس، م. س، ص ٢٦٢، التميمي: المستفاد...م. س، ج ١، ص ٢٩.

(١٤٤) للمزيد من التفاصيل حول هاته المراكز انظر: محمد الصمدي: مدينة ألمرية...م. س، ص ١٨-١٧١، عبد الجليل لحمنات: التصوف المغربي...م. س، ص ٢٠٧-٢١٢.

(١٤٥) انظر ترجمته في: أبو عبد الله محمد ابن الأبار: التكملة لكتاب الصلة، تحقيق د عبد السلام الهراس، الدار البيضاء، مكتبة الرشاد الحديثة، ١٩٩٣، ج ٣، ص ٢٤٣، ابن الزيات: التشوف...م. س، ترجمة ٥١، ابن أبي زرع: روض القرطاس...م. س، ص ٢٦٥، ابن القاضي: جذوة الاقتباس...م. س، ص ٥٠٨، التميمي: المستفاد...م. س، ج ٢، ص ١٥-٢٨، ابن قنفذ: أنس الفقير...م. س، ص ١٢-١٤، بابا أحمد التنبكتي: نيل الإبتهاج بتطريز الديباج، إشراف عبد لله الهرامة، طرابلس ١٩٨٩، ص ٣٠٩، بابا أحمد التنبكتي: كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج دراسة وتحقيق محمد مطيع، الرباط ٢٠٠٠، ج ١، ص ٣٣٠-٣٣١، أحمد بن خالد السلاوي: الإستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، الدار البيضاء ١٩٥٤، ج ٢، ص ٢٠٠، ابن فرحون: الديباج المذهب...م. س، ص ١٩٨، ابن مخلوف: شجرة النور...م. س، ص ١٦٢، المراكشي: الإعلام...م. س، ج ٩، ص ٤٩.

(١٤٦) عمار طالبي: آراء أبي بكر بن العربي الكلامية، ج ١، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ١٩٧٩، ص ٥٢-٥٥.

(١٤٧) يقول الأستاذ محمد المنوني: "ولا يبعد أن يكون ابن العربي من أول الجالبيين لكتاب الإحياء عند عودته من الرحلة المشرقية عام ٤٩٥/ ١١٠١-١١٠٢"، "إحياء علوم الدين في منظور الغرب الإسلامي أيام المرابطين والموحدين" ضمن كتاب: أبو حامد الغزالي دراسات في

- (١٥٠) وشاكر هذا هو شاكر بن عبد الله الأزدي، دخل المغرب مع عقبة بن نافع، له رباط اندثر رسمه في حدود المائة الثالثة، الأعلام للمراكشي، ج ٥، ص ١٣٢، وذكر صاحب السلوة أن سيدي شيكر ولد سيدي يعلى بن واصل وقيل مصلين أحد رجال رجاجة وتلميذ الإمام ابن أبي زيد القيرواني. وقد أشار التلمساني في حاشية الشفا والأفندي في شرح الشفا إلى لقائهم للرسول عليه السلام وكذلك شرح الرسالة لأبي الحجاج يوسف الرجرجاني الذي نص على حملهم لكتاب نبوي ويدعو المغاربة إلى الإسلام فجمع وسيم المصامدة على هذا الكتاب في موضع شاكر، وقد صحح محمد بن سعيد المرغيثي أنهم صحابة في كتابه سلسلة الذهب المنفوذ وأنكر ذلك سيدي عبد القادر الفاسي الفهري الذي أجاب بذلك عن سؤال للسلطان المولى إسماعيل، انظر محاضرات اليوسي، ص ٤٨. وبين رباط شاكر ومراكش ٨٥ كلم. وقد نقل المراكشي في الأعلام نقلا عن الكتاني أنه توجد بقعة على مسافة نحو ميل من مراكش على ضفة وادي تانسيفت هي مدينة نفيس غزاها عقبة بن نافع وبنى بها مسجدا عام ٦٢ هـ وهو موضع رباط شاكر حيث أقام المولى إدريس الأكبر قبل غزو نفيس، المراكشي: الأعلام...م. س، ج ٧، ص ١٩٣. ويسمى رباط شاكر أيضا رباط عقبة، ابن الزيات: التشوف...م. س، ص ٤١٣، انظر عبد العزيز بنعبد الله: "الزاوية المغربية كمنتهى للفكر والإشعاع"، دعوة الحق، ع، ٢٤٥، ١٩٨٥، ص ٢٣-٢٤، وشاكر هذا هو المعروف اليوم بزاوية سيدي شيكر. الصومعي: المعزى...م. س، ص ٧١، الهامش ١١، حسن جلاب: "الرباطات المغربية ودورها في نشر الإسلام والدفاع عنه"، دعوة الحق، ع، ٣٧٢، ٢٠٠٣، ص ١٤٠-١٤٥، محمد حجي: الزاوية الدلائية...م. س، ١٩٦٤، ص ٢٣.
- (١٥١) للمزيد من التفاصيل حول رباط شاكر انظر أحمد التوفيق: "من رباط شاكر إلى رباط أسقي" ضمن كتاب: أبو محمد صالح: المناقب والتاريخ، الرباط ١٩٩٠، ص ٤٧-٥٣.
- (١٥٢) مانويلا مارين: "الظهور المبكر للزهد في الأندلس"، ترجمة مصطفى بنسباع، ضمن كتاب: المغرب والأندلس ٢-نصوص دفيئة ودراسات، تقديم وتنسيق: الدكتور محمد الشريف، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية تطوان ٢٠٠٨، ص ٣٧-٥٤.
- (١٥٣) التميمي: المستفاد...م. س، ج ١، ص ١١.
- (١٥٤) للمزيد من التفاصيل حول الكتابة الصوفية في العصر الوسيط وخاصة في القرن السادس، انظر: عبد الجليل لحمنات: التصوف المغربي...م. س، ص ٢١٢ - ٢٢٢.

أسرة آل رشيد ودورها في تنشيط الحياة الفكرية في مدينة حائل

(١٢٥٠-١٣٤٠هـ / ١٨٣٥ - ١٩٢١م)

أ.م.د. خالد حسين محمود

أستاذ التاريخ الإسلامي المساعد

كلية الآداب والفنون

جامعة حائل - المملكة العربية السعودية



ملخص

يسعى هذا البحث نحو تسليط الضوء على الجهود التي بذلتها أسرة آل رشيد من أجل تنشيط الحركة الفكرية في مدينة حائل خلال فترة حكم هذه الأسرة والتي دامت قرابة تسعة عقود، حيث تنوعت مظاهر دعم هذه الأسرة للحركة الفكرية، فقد تميزت فترة حكمهم بالأمن والرخاء والتسامح مما هباً مناخاً ملائماً لاجتذاب رجال العلم والفكر والثقافة، ولم تخل مجالسهم من حضور علماء وأدباء وحلقات للمذاكرة والمناظرة، كما يُحسب لهم تقديرهم لرجال الفكر ورفع مكانتهم، وخصصوا مرتبات وأعطيات دورية لأهل العلم والأدب، وأسسوا عدداً من مراكز العلم، وجلبوا إليها المعلمين من سوريا ومصر، واستقطبوا إلى حاضرتهم القضاة من المراكز الأكثر علماً، لنشر التعليم بين الناس، ووقفوا الكتب العلمية لجعلها متاحة أمام العلماء وطلاب العلم، وهو ما تشهد به وثقياتهم التي تند عن الحصر في مكتبات حائل العتيقة.

بيانات المقال:

تاريخ استلام المقال:	٠٢	مارس	٢٠١٨
تاريخ قبول النشر:	١٥	مارس	٢٠١٨

كلمات مفتاحية:

أسرة آل رشيد، الجزيرة العربية، مراكز العلم، مكتبات حائل، الحياة العلمية

DOI 10.12816/0052956

معرف الوثيقة الرقمي:

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

خالد حسين محمود، "أسرة آل رشيد ودورها في تنشيط الحياة الفكرية في مدينة حائل (١٢٥٠-١٣٤٠هـ / ١٨٣٥ - ١٩٢١م)". دورية كان التاريخية، السنة الحادية عشرة- العدد الأربعون: يونيو ٢٠١٨، ص ٨٨ - ٩٦.

مقدمة

آل رشيد، لما تحتويه من مادة ضافية قادرة على ملء الثغرات، وترميم النقص. والحقيقة أن الرجوع إليها برمتها يعد من الصعوبة بمكان، لولا ما أسهم به الباحثون من أبحاث ومقالات وكتب، كانت خير عون في استكشاف بعد القضايا؛ التي قد يكلف التنقيب عنا الشيء الكثير.

الحياة الفكرية في حائل عصر أسرة آل رشيد

لفت الانتعاش الملحوظ للحياة العلمية في حائل عصر آل رشيد أنظار الأديب والصحفي والسياسي سليمان بن صالح الدخيل (١٣٦٤هـ/ ١٩٤٥م)^(١)، فراح يسجل انطباعاته عنها قائلاً: "وأما العلوم والآداب في الحائل.... قد وصلت إلى درجة تذكر في العلوم والمعارف منذ سابق العهد إمارة آل رشيد انتقلت أكثر الكتب إلى حائل... أهل حائل.... سبقوا غيرهم في العلوم العصرية، وذلك لاختلاف كبرائهم إلى الأستانة ومصر والحجاز أيام

أثارت مدينة حائل اهتمام المؤرخين عرباً وأجانب؛ حيث خُصص لها مؤخراً أطروحات شاملة، ودراسات قطاعية، قدمت للمهتمين الإطار العام لهذه المدينة، وأوضحت كثيراً من خصائصها المشتركة. بيد أن تلك المجهودات انصبت بصورة قوية على دراسة التاريخ السياسي والعسكري^(٢)، أما الدراسات المتخصصة في التاريخ الفكري والثقافي فإنها شديدة الندرة^(٣)، وهو أمر يُعزى دون شك إلى طبيعة الأسطغرافية الحائلية، التي تظل قاصرة عن إشباع نهم الباحث في هذا المجال، سواء ما يتعلق بالحواليات التاريخية^(٤)، أو كتب التراجم والطبقات^(٥)؛ مما يعزز قيمة المظان الأخرى ويعطي لها الصدارة المرجعية، وعلى رأسها كتابات الرحالة، والتي تعد بحق سجلاً وافيًا، ومصدرًا أساسيًا لدارسي التاريخ الفكري والثقافي لمدينة حائل خلال عصر-

"مشتراً في عدد من الصحف العربية والتركية في مصر- وسوريا والقسطنطينية، وكان يقوم بكتابة العديد من الرسائل المطولة"^(٢٣)، وعلى علم "دقيق بقدامى الشعراء العرب، بالإضافة إلى معرفته بجميع أشعار الفكاكة البدوية قديمها وحديثها"^(٢٤)، وحسب شهادة البارون إدوارد نولده (Baron Eduard Nolde)^(٢٥) كان الأمير مطلعاً وملمّاً بالتاريخ الأوربي الحديث، بدليل أنه أخبره أنه يعرف "كل شيء عن منطقة الأناضول.. إنه ذلك البلد الذي انتزع من فرنسا بواسطة الألمان قبل عشرين عاماً، ونتيجة لذلك تم قصف المدينة المشهورة باريس، وأن الفرنسيين غاضبون جداً على ألمانيا لدرجة أنهم تحالفوا مع حكومة موسكو، وأن عدم الوضوح هذا شكل نقطة المركز لكل السياسات الأوربية، وإنها سياسات يتعلق بها مصير الدولة العثمانية، وهو مصير ذو أهمية كبيرة واهتمام بالنسبة لنا في الجزيرة العربية، ولنكون مستعدين مسبقاً"، وهو ما أثار إعجاب المستشرق الروسي، والذي أردف الرواية بقوله: "ابن رشيد ذكي، مستنير ومطلع بصورة جيدة، إن فهمه الواضح للشئون الأوربية كان حقاً مثاراً للدهشة"^(٢٦)، وفي موضع آخر أبدى المستشرق الروسي ذهوله لثقافة محمد بن عبد الله الرشيد وإلمامه التام بالأفكار والمعتقدات الإسلامية المستمدة من مبادئ الدعوة السلفية، والذي مكنه من توجيه نقد لاذع لرجال الدين الشيعة والسنة التقليديين، الذين تحولت معتقداتهم إلى خرافات وأساطير غير عقلية، وتحريفهم لمبادئ الدين الحنيف تمسحاً مع مصالحهم الخاصة، مما نتج عنه حالة من المقت والرياء والنفاق والفساد والفسوق، وهو موقف- حسب الرحالة- أشبه بمواقف رجال الدين الاصطلاحيين في أوروبا^(٢٧)، كما كان الأمير ملمّاً بعلم الفلك وحركة النجوم^(٢٨)، ولذا فقد احتوت هدايا الرحالة آن بلنت (Anne Blunt) له "منظاراً جيداً"^(٢٩)، وحسب الالوسي^(٣٠) فإن الأمير عبد العزيز بن متعب (١٣١٤-١٣٤٢هـ/ ١٨٩٧-١٩٠٦م) كان ذو "معرفة في الدين".

تميز حكام حائل من آل رشيد بالتسامح مع مخالفيهم في الرأي والاعتقاد طالما لا يتعارض مع الشرع الحنيف^(٣١)، وهو ما كان كفيلاً بانتعاش الحركة الفكرية، فقد أكد عدد من الرحالة^(٣٢) أن الأمير طلال الرشيد سمح للتجار والعلماء الشيعة من أهل البصرة والنجف للإقامة في حائل، واعدّاً إياهم بالحماية. وهكذا صادف الرحالة (Palgrave) بلجريف عدداً من الشيعة القادمين من مشهد علي، ومعهم كتباً في المذهب الشيعي، وأخرى تمجيدية تحمل مزايا خيالية لعلي بن أبي طالب ونسله^(٣٣). ولعل مما يؤكد تلك الروايات وجود حي بحائل يعرف بحي المشاهدة من أبناء النجف الذين توافدوا على حائل في عهد طلال الرشيد، وأقاموا بهذا الحي واشتغلوا بالتجارة، وبلغوا حوالي (٣٥) عائلة، ولكنهم اضطروا لبيع أملاكهم والرجوع لبلادهم عندما خضعت حائل للدولة السعودية الثالثة. وكان من آثار المشاهدة في حائل قبورهم التي تتميز عن سائر القبور في المدينة بعظم شواهداها،

السلطان عبد الحميد المخلوع، فأصبح البعض منهم يعرف اللسان التركي والفارسي، وترى في بلادهم اليوم الكتب العربية القديمة النادرة الثمينة التي لا ترى لها وجوداً في سائر البلاد العربية وأغلبها غير مطبوع... وتؤانس جماعة منهم تطالع الصحف السيارة والمجلات الموقوتة، وأهل هذه الديار أنور من غيرهم من تلك الأقطار في العلوم العصرية وأوسع اطلاعاً في الأمور السياسية... أما ميلهم إلى العلوم الأدبية كالشعر والنحو وعلوم الآلة والسياسة والاجتماع فمما تظهر منافعه عن قريب إذا ما تحسنت الأحوال وتوفرت وسائل النقل والانتقال"^(٣٤). لا شك أن ثمة عوامل متضافرة كانت وراء هذه النهضة الفكرية، كان من أهمها دعم آل رشيد للحركة العلمية، حيث يقول أحد الباحثين^(٣٥) في هذا الخصوص "كانت حائل في تلك الفترة من أهم المدن العلمية استقطاباً للعلماء ومرتبداً لطلبة العلم، وكان أمراؤها يرعون العلماء ويهيئون لهم الأسباب والوسائل التي تعينهم على نشر العلم، وخاصة ما يتعلق بنشر- دعوة التوحيد التي جاء بها الشيخ المجدد محمد بن عبد الوهاب"، وحسب شهادة باحث آخر^(٣٦) كانت "حائل هي عاصمة نجد زمن إمارة الأمير محمد بن عبد الله بن رشيد، وكانت أهلة بالعلماء ممن فيها وممن يفد إليها".

لا يكاد الباحث يقرأ مصدراً من مصادر المرحلة محط البحث، إلا وتطالعه إشارات عما اشتهر به بعض أفراد أسرة آل رشيد بالتزامهم الديني، ومثانة تكوينهم الثقافي، وسعة معرفتهم، فقد جرت بهم العادة أن يختاروا أحد العلماء المبرزين والمشهورين بغزارة العلم لتعليم أبنائهم^(٣٧)، وهكذا وصف عبيد آل رشيد^(٣٨) (١٢٥٠-١٢٨٦هـ/ ١٨٣٤-١٨٦٩م) بأنه حافظ للقرآن مداوم على تلاوته وقراءة تفسيره لأوقات طويلة^(٣٩)، ناظماً للشعر^(٤٠)، وهو ما ينسحب على أفراد أسرته؛ حيث وصف بيته بأنه "بيت علم وثقافة"^(٤١).

ووصف بلجريف (Palgrave)^(٤٢) الأمير طلال الرشيد^(٤٣) (١٢٦٣-١٢٨٣هـ/ ١٨٤٧- ١٨٦٦م) بأن "لديه كل احتياجات الأفكار العربية التي تضمن له حكماً وشعبية دائمة... معتدلاً وغير مترآخ في أمور الدين"، "يتذوق الشعر والحكايات"^(٤٤). وأبدت الرحالة الليدي آن بلنت (Lady Anne Blunt)^(٤٥) إعجابها بأخلاق حمود بن عبيد الرشيد وذكائه وثقافته الجيدة، وقد تجلت تلك الثقافة في مناظرة دينية دارت بينه وبين الرحالة تشارلز داوتي (Charles Doughty) حول ورود ذكر للنبي محمد عليه الصلاة والسلام في الإنجيل^(٤٦).

أما الأمير محمد بن عبد الله الرشيد، فقد كان "ذو فهم لاذع"^(٤٧)، تميز "فكره المتنور"^(٤٨)، و"كانت عقلانيته تفوق ليس فقط أتباعه، ولكن أيضاً أقاربه إلى حد بعيد، وعلى الرغم من إيمانه إلا أنه يبدي تسامحاً نحو من يخالفونه في العقيدة. وهو يتحدث العربية والفارسية والتركية في درجة واحدة من الإتقان"^(٤٩)، حيث انغمس بشكل كبير في "الترف الثقافي"^(٥٠) وكان

يرافقه عشرة أو عشرون مسلحاً،... والسائد بين السكان الآن أن أي فرد يستطيع السفر في هذه الأرض من طرف إلى آخر حاملاً ذهبه فوق رأسه دون أن يعترضه معترض، وقيل لي إن القرويين كانوا منشقين في السابق جماعات متنازعة يسلب بعضها بعضاً وينهبون في أية مناسبة". ومن جانبه أكد بلجريف^(٤٢) أن الأمير طلال الرشيد بذل جهداً مشهوداً في "تأمين الطرق السريعة، ووقف عمليات السلب والنهب"، بحيث كان في استطاعة "المسافر السير دون سلاح ودون حراسة ودون عوائق... وأهل المدينة يتنقلون على ظهور الحمير أو على أقدامهم دون مسدس أو رمح حاملين معهم كل ما يملكون"، وهكذا أصبح في عهده "هدوء الأحوال واستقرارها... سمتين من سمات جبل شمر"، وهو ما ينسحب على الأمير محمد بن عبد الله الرشيد، الذي أكدت آن بلنت^(٤٣) أنه استأصل شأفة قطاع الطرق، و"صار بمقدور المسافرين التنقل بكل أمان في أي جهة بالبادية ولو حملوا ذهباً دون أن يتعرضوا لخطر السلب، وكذلك فلا وجود للسراق في المدن".

كان مما ساعد على تنشيط الحياة العلمية في المنطقة تخصيص الحكام رواتب شهرية لأهل العلم، مثال ذلك تلك الوثيقة المحفوظة بالأرشيف العثماني والتي تتحدث عن تجديد رواتب شهرية ومخصصات مصروفة لأهل العلم في جبل شمر، منهم الشيخ يوسف بن يعقوب ١٣٥٩هـ حيث خصص له ثلاث ليرات شهرياً، والشيخ عبد الله بن خلف والمؤذن عبد الله بن فالح خصص لكل منهما ليرتين شهرياً من أموال المدينة المنورة. نتيجة لذلك وغيرها من عوامل انتعاش الفكر والثقافة بحائل، شهدت حائل عصر- الدراسة مظاهر للنشاط العلمي؛ حيث انتشرت بها العديد من وسائط نقل العلم وتلقى الثقافة، كالكتاتيب: مثل كُتّاب الشيخ عبد العزيز النزهة (ت. ١٣٣٧هـ/١٩١٩م)^(٤٤)، وكُتّاب الشيخ عبد الله بن عبد الرحمن الملقب (ت. ١٣٤٣هـ/١٩٢٥م)^(٤٥)، وكُتّاب الشيخ يوسف بن يعقوب (ت. ١٣٥٩هـ/١٩٤١م)^(٤٦)، وكُتّاب الشيخ عمر بن يعقوب (ت. ١٣٦٦هـ/١٩٤٧م)^(٤٧)، وكُتّاب الشيخ علي الشامي (ت. ١٣٦٩هـ/١٩٥٠م)^(٤٨)، وكُتّاب الشيخ صالح الزريقى (ت. ١٣٧١هـ/١٩٥٢م)^(٤٩). كما تعددت كتاتيب البنات مثل: كُتّاب هيلة، وكُتّاب نورة بنت هيلة، وكُتّاب هيا الصالح الشاعر، وكُتّاب فاطمة الغازي، وكُتّاب فاطمة الدرسوني، وكُتّاب فاطمة بنت سلامة الشبيب.^(٥٠)

ونتيجة انتشار الكتاتيب في حائل خلال فترة البحث أكد الرحالة^(٥١) أن الكثير من أهلها كانوا يعرفون القراءة والكتابة. ويبدو أن المعلمين القائمين على أمر تلك الكتاتيب كان لهم دور في عملية نسخ المخطوطات، فيشير الرحالة (Charles Huber) تشارلز هوبير^(٥٢) إلى مطوع بأحد تلك الكتاتيب كان يدعى "عواد" كان قد قام بأمر من الأمير محمد بن عبد الله الرشيد

وخلوها من الكتابة^(٣٤). كما أسهم هؤلاء الشيعة في فن البناء، حيث بنوا لهم في حائل قصوراً على طرق هندسية حديثة على المنطقة، كما تجلى تأثيرهم في فن الزخرفة على الجدران والكتابات والأشكال الهندسية.^(٣٥)

أدرك أمراء آل رشيد أهمية دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب في ازدهار الحركة العلمية في بلاد نجد^(٣٦)، لذلك اتخذوا منها منهجاً أساسياً في الحكم، ودعامة قوية اعتمدت عليها الحياة العلمية في منطقة حائل، حيث اتخذوا دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب منهج أساس في الحكم، وكان لهم أثر في توطین الناس على الدعوة الإصلاحية، والاحتكام إليها فيما يجد من مسائل أو يتولد من خلاقات، ونتوفر بهذا الخصوص على رسالة أرسل بها الأمير عبيد بن رشيد إلى الشيخ عبد الرحمن بن حسن بن محمد بن عبد الوهاب ١٢٨٥هـ يستفتيه في مسألة فقهية وهي أن بعض العلماء في حائل يوجبون صيام يوم الثلاثاء من شعبان إذا حال دون منظر الهلال غيم أو قتر.^(٣٧)

وتحدث الرحالة عما شاهدوه عند أمراء المنطقة من آل رشيد من التزام تام بدعوة الشيخ ابن عبد الوهاب، يقول المستشرق فالين^(٣٨) "والأمراء الوهابيون شديداً العناية بجمع الناس لصلاة الجمعة، وحدث مراراً في حائل أن عبد الله بن آل رشيد عاقب كثيرين تخلفوا عن هذه الصلاة عقاباً أليماً". وذكر في موضع آخر أنه شاهد مراراً القاضي يعاقب رعاياه بضرب العصا لمخالفتهم بعض تعاليم الدعوة الإصلاحية، وبين أنه ذكر ذلك ليظهر الفارق الكبير بين سلطة شيخ شمر على قومه وإلزامهم بتعاليم دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب وبين سلطة غيره من شيوخ القبائل الأخرى على رعاياهم.^(٣٩)

وعن تأثير أمراء آل رشيد بدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب، وتفيداً منهم لتوجيهات حكام الدولة السعودية من وجوب الالتزام بدعوة الشيخ وإلزام السكان بها، وصف الرحالة الانجليزي بلغريف الذي زار حائل عام (١٢٧٩هـ/١٨٦٢م) الأمير عبيد آل رشيد بالرجل المتعصب للدعوة وقال عنه "كان عبيد ملتزماً وورعاً بعيداً عن أي علاقة بغیضة، بارتداء حرير أو استخدام تبغ، ومداوماً على تلاوة القرآن لأوقات طويلة".^(٤٠)

أسهم أمراء آل رشيد في تنشيط الحياة العلمية من خلال إقرارهم للأمن ونشرهم للنظام، وهما من أهم عوامل ازدهار الحياة العلمية، فقد أولى أمراء آل رشيد الأمن أهمية كبيرة، واعتبروا المحافظة على تحقيقه عاملاً أساسياً للمحافظة على استقرار إمارتهم بالدرجة الأولى، كما كان الأمن ضرورياً ليمارس الناس حياتهم وتنقلاتهم بشكل طبيعي ودون خوف، وقد عقد الرحالة فالين^(٤١) مقارنة بين حالة الفوضى التي عانت منها المنطقة قبل حكم آل رشيد، وظاهرة الأمن التي رسخها أمراء آل رشيد مع بداية حكمهم، حيث قال: "من المؤكد أنه قبل عهد عبد الله لم يستتب أمر للأفراد ولا للأملك، ولا يزال بعض المعمرين يذكرون أياماً لم يكن أحد يجزؤ على السفر من حائل إلى قفار إن لم يكن

حلقات علمية في مجالسهم، ووقف الكتب العلمية على طلبه العلم، وصرف مرتبات دورية لأهل العلم.

فحين استولى محمد بن عبد الله الرشيد على نجد كلها عام ١٣٠٨هـ واستقرت له الأمور حرص على جعل حائل مقصداً لمشاهير المعلمين والعلماء، يقول المستشرق نولده،^(٨٣) لقد انغمس ابن رشيد بشكل كبير في هذا الترف الثقافي، فجلب عدداً من المعلمين من سورية ومصر، وكان يحاول بمساعدتهم توسيع نشر التعليم بين أتباعه". وهو ما ينسحب أيضاً على العلماء، من ذلك أنه رغب إلى الشيخ عبد الله بن عبد اللطيف آل الشيخ - علامة نجد ومرجعها الإسلامي في زمنه - في الشخوص إلى حائل مقرر حكمه للانتفاع به في نشر العلم، واستجاب الشيخ لطلب الأمير، فسافر إلى حائل ١٣٠٨هـ واستقر فيها وأقام بها حولاً كاملاً، يدرس بها العلم، فاخذ عنه علم العقائد والتوحيد والحديث والتفسير غالب علماء حائل، ولازموه ملازمة تامة، وتزاحم على بابه الناس فغمرهم بعلمه وفضله وكرمه.^(٨٤)

وقد صحب الشيخ عبد الله بن عبد اللطيف في هذه الرحلة الشيخ سليمان بن سحمان ١٣٤٩هـ، ولما رجع الشيخ عبد الله إلى الرياض تخلف الشيخ سليمان بن سحمان في حائل واكب على العلم ونسخ الكتب ليلاً ونهاراً فتحصل على كتب خطية كثيرة وأخذ عنه طلبه العلم.^(٨٥) كما وفد الشيخ محمد بن إبراهيم آل محمود ١٣٣٠هـ قاضي ضرام ثم الرياض على الأمير محمد بن رشيد وجلس في حائل وأخذ عنه ثلة ممن ينتسبون إلى العلم، منهم الشيخ يعقوب والشيخ صالح السالم والشيخ المرشدي وخلق كثير.^(٨٦)

كذلك دخل حائل بدعوة من آل رشيد الشيخ إبراهيم بن حمد بن جاسر ١٣٣٨هـ الذي اشتهر بإلمامه التام بعلم التفسير والحديث واللغة، حتى صار فيها بحرًا لا يجارى وعالم لا يمارى، وذاع فيها صيته حتى عد من كبار علماء نجد، حيث تلقاه أميرها وأهلها بالإكرام وظل فيها مدة من الزمن يدرس العلم وأفاد منه فريق من طلبه العلم فيها.^(٨٧)

أسهم آل رشيد في تنشيط الحركة الفكرية من خلال تقديرهم للعلماء واحترامهم لهم ورفعهم لمنزلة رفيعة وسط المجتمع، فعلى سبيل المثال تشير المصادر إلى عزوف الأمير محمد بن عبد الله الرشيد عن شيخ قبيلة العجمان "راكان بن حثلين" ومن معه من زعماء العجمان والذين كانوا ضيوفاً عنده، لما سمع بمقدم الشيخ عبد الله بن عبد اللطيف، حيث شغل عن ضيوفه بتدبير مراسم استقبال الشيخ خارج مدينة حائل، فقد خرج في كوكبة من الخيل عليها أمراء آل رشيد، ليكونوا معه عند استقبال الشيخ، ولما فرغ الأمير من استقبال الشيخ، وانتهى من ضيافته، عاد إلى ضيوفه معتذراً لهم عن انشغاله عنهم بقوله لراكان: "اعذرننا أن حصل شيء من قلة أدب المجالسة والمؤانسة، فقد صادف قدومك قدوم الشيخ عبد الله بن عبد اللطيف علينا".^(٨٨)

بنسخ نقش حميري من على جبل سرا على غلاف كتاب وزود به الرحالة.

شهدت حائل حلقات العلم في المساجد الكبرى مثل جامع لبدة^(٥٣)، وجامع برزان^(٥٤) ومسجد الجبارة^(٥٥)، ومسجد سرحة^(٥٦)، ومسجد عيسى^(٥٧) ومسجد الهندي^(٥٨)، وغيرها. فضلاً عن أن بعض هذه المساجد كانت مقرراً للقضاة الذين كان يتم إرسالهم من قبل الأئمة السعوديين، فإنها كانت عامرة بحلقات العلم لعدد كبير من مشايخ حائل؛ الذين تخرج على أيديهم عدد لا حصر له من طلاب العلم، نخص بالذكر منهم: الشيخ عوض بن محمد الحجى (ت. ١٣٠٣هـ/١٨٨٦م)^(٥٩)، والشيخ محمد بن راشد الغنيمي (ت. ١٣٠٣هـ/١٨٨٦م)^(٦٠)، والشيخ سليمان بن عبد الرحمن المفيز (ت. ١٣١٠هـ/١٨٩٣م)^(٦١)، والشيخ مبارك بن عبدالله العواد (ت. ١٣٢٠هـ/١٩٠٣م)^(٦٢)، والشيخ يعقوب بن محمد بن سعد (ت. ١٣٢٢هـ/١٩٠٥م)^(٦٣)، والشيخ عبد العزيز بن صالح المرشدي (ت. ١٣٢٤هـ/١٩٠٧م)^(٦٤)، والشيخ عبدالله بن مرعى ت. ١٣٣٧هـ/١٩١٩م^(٦٥)، والشيخ شكر بن حسين الشكر (ت. ١٣٣٧هـ/١٩١٩م)^(٦٦). عبدالله بن مسلم التميمي (ت. ١٣٤١هـ/١٩٢٣م)^(٦٧). كما اتخذ بعض علماء حائل من بيوتهم مراكز للتدريس والمناظرة وتعليم الطلاب، مثل الشيخ عبد الله بن عبد اللطيف آل الشيخ^(٦٨) والشيخ حميد الصريري ت. ١٣٥٨هـ/١٩٤٠م.^(٦٩)

يبدو أن تطوراً ملحوظاً شهدته المؤسسة التعليمية في عهد محمد بن عبدالله الرشيد، كان ممثلاً في ظهور المدارس النظامية^(٧٠)، والتي لم تكن معروفة في حائل قبل عهده حسب شهادة فالين (Wallin)^(٧١)، فقد ذكر نولده (Nolde)^(٧٢) الذي زار حائل عام ١٨٩٣م/١٣١٠هـ أن الأمير أبدى اهتماماً مشهوداً بالتعليم، فأسس "أربع مدارس في حائل، وتوصف هذه المدارس وفق معايير العرب بأنها جيدة للغاية... و جلب عدداً من المعلمين من سوريا ومصر وكان يحاول بمساعدتهم توسيع نشر- التعليم"، ويذكر داوتي (Doughty) أن مدير إحدى هذه المدارس كان معيئاً من قبل الدولة العثمانية^(٧٣). وكان وجود مدارس بهذا الشكل المتميز في حائل وحضور علماء أفذاذ للتدريس بها من أشد ما لفت أنظار الرحالة الألوسي^(٧٤). وكان طبيعياً مع وجود هذه الوسائط أن يبرز عدد من علماء المنطقة الذين تركوا العديد من المؤلفات العلمية في شتى أنواع المعارف، مثل علوم القرآن،^(٧٥) والحديث،^(٧٦) والتوحيد،^(٧٧) والفقه،^(٧٨) وعلوم اللغة العربية،^(٧٩) والتاريخ،^(٨٠) والجغرافيا والرياضيات،^(٨١) والفلك والطب.^(٨٢)

فضلاً عما سبق، تجلّى أثر أمراء آل رشيد على الحركة العلمية من خلال صور أخرى كان من أهمها جلب العلماء والقضاة من المراكز الأكثر علماً، والمبالغة في إظهار احترامهم وتقديرهم، وعقد

ووصف بلجريف مجالس العلم والذكر التي كانت تعقد في مجلس الأمير طلال بن عبد الله ١٢٨٣هـ وذكر انه كان يُقرأ عليه شيء من السيرة أو صحيح البخاري^(٩٧).

كان من أبرز مظاهر اهتمام آل رشيد بالعلم والعلماء وتشجيعهم للحياة العلمية هو قيامهم بوقف الكتب - لا سيما الدينية- على العلماء وطلبة العلم، فقد وقف الأمير عبيد بن رشيد عددًا من الكتب على طلبة العلم، ففي عام ١٢٥٩هـ وقف مخطوط "الممتع في شرح المقنع" للمنجى بن عثمان^(٩٨)، وفي سنة ١٢٦٥هـ وقف كتاب "عمدة الأحكام" للمقدسي^(٩٩) و"الجامع الصغير"^(١٠٠) للسيوطي، وكتاب "الشرح الكبير" لابن قدامة^(١٠١)، وفي عام ١٢٦٦هـ وقف على طلبة العلم مخطوطة "معونة أولي النهى بشرح المنتهى"^(١٠٢)، وفي عام ١٣٠٦هـ وقف كتاب "حادي الأرواح" لابن القيم على طلبة العلم بحائل، وفي عام ١٣٠٩هـ وقف نسخة أخرى من الكتاب ذاته^(١٠٣)، وفي عام ١٣١٠هـ وقف كتاب "مدارك التنزيل"^(١٠٤) للنسفي.

وكان لابنه الأمير حمود بن عبيد آل رشيد النصيب الأكبر في وقف الكتب على طلبة العلم، فقد وقف في عام ١٢٦٥هـ كتاب "السياسة الشرعية" لابن تيمية^(١٠٥)، وكتاب "عمدة الأحكام" للمقدسي^(١٠٦)، ووقف عام ١٣٠١هـ كتاب "التخويف من النار" لابن رجب الحنبلي^(١٠٧)، وكتاب "أحكام الكلام" لابن دقيق العيد^(١٠٨)، وكتاب "النهاية في غريب الحديث" للمبرد^(١٠٩)، وفي عام ١٣٠٥هـ وقف كتاب "جامع العلوم"^(١١٠)، لابن رجب، وفي عام ١٣٠٧هـ وقف كتاب "درء تعارض العقل والنقل" لابن تيمية^(١١١)، وعدة أجزاء من تفسير الطبري^(١١٢)، وكتاب "اقتضاء الصراط المستقيم" لابن تيمية^(١١٣)، وكتاب "تذكرة السامع والمتكلم" للكناني^(١١٤)، وكتاب "قلائد الجمان" للسيوطي^(١١٥)، وفي عام ١٣١٠هـ وقف كتاب "تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد" لسليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب آل الشيخ^(١١٦)، وكتاب "الشرح الكبير" لابن قدامة^(١١٧)، ووقف الجزء الأول من تفسير الطبري عام ١٣١١هـ^(١١٨)، وكتاب "دقائق أولي النهى" للبهوتي^(١١٩)، كما اشترى ووقف على طلبة العلم مخطوطتين من كتاب "كشف القناع" للبهوتي، الأولى: بخط المؤلف، والثانية: بخط تلميذه محمد بن عبد القادر الشامي الذي نسخها من نسخة المؤلف نفسه كما في آخر الجزء الثاني من المخطوط من دون تاريخ.^(١٢٠)

وأسهم الأمير محمد بن عبد الله بن رشيد في عملية وقف الكتب، ففي عام ١٢٩٣هـ وقف كتاب "هداية الحيارى" لابن القيم^(١٢١)، وفي عام ١٢٩٥هـ وقف كتاب "نيل المآرب" للتغلبلي^(١٢٢)، وفي عام ١٣٠٢هـ وقف كتاب "الكافية الشافية" لابن قدامة^(١٢٣)، وكتاب "تفسير ابن كثير"^(١٢٤)، وفي عام ١٣٠٥هـ وقف كتاب "إغاثة اللهفان" لابن القيم^(١٢٥) وكتاب "جامع

ولما علم الأمير طلال بن عبد الله بن رشيد بوفاة القاضي محمد بن إبراهيم السيف ١٢٦٥هـ حزنًا شديدًا، وأصدر أمرًا بنعي الشيخ على منابر المساجد في صلاة الجمعة، ولما قدم ابنه سعد من الرياض إلى حائل لزيارة والده ووجده قد توفي، وعلم الأمير بمقدمه خرج لاستقباله وأكرمه لحظوة ومقام أبيه عنده، وولاه الأمير مطوعة بقعاء، فثبت هناك داعيًا ومرشدًا^(٩٩). وكان أمراء آل رشيد يقدمون العلماء في مجالسهم ويأمرون الخدم بتقديمهم عليهم في شرب القهوة، حيث تذكر المصادر^(٩٠) أن الأمير طلال آل رشيد كان لا يأخذ فنجان القهوة قبل الشيخ يعقوب بن محمد بن سعد ١٣٢٢هـ وان سماء وضع في فنجان قهوة للأمير والذي رفض أن يشرب فنجان القهوة قبل الشيخ، وألح أن يبدأ الشيخ بالشرب، فشربها الشيخ وتوفي على إثر هذا السم من يومه. وأحيانًا كان الأمراء يتغافلون عن زلة بعض العلماء احترامًا للعلم الذي عندهم وصار ذلك من الأمور المشهورة^(٩١) دليل ذلك تلك الرواية التي تذكر أن الأمير عبد العزيز بن متعب آل رشيد وهو المعروف بحدة الطبع، غضب ذات مرة على أحد الأئمة لكلام بدر منه، إلا أن مكانة ذلك الشيخ دفعت الأمير إلى أن يقول له "والله لولا العلم الذي تحمله في صدرك لفعلت فيك كذا وكذا"^(٩٢).

تبدو أهمية مكانة العلماء عند أمراء المنطقة من خلال اصطحاب هؤلاء الحكام العلماء معهم في أسفارهم وترحالهم، من ذلك أن الأمير محمد بن رشيد خرج ذات مرة بجيشه إلى منطقة ياطب شرقي حائل في طريق القصيم فاصطحب معه الشيخ عبد الله بن مرعى^(٩٣)، وكان الشيخ سليمان الحماد دائمًا ما يرافق الأمير محمد بن عبد الله آل رشيد ثم الأمير عبد العزيز المتعب في الغزوات^(٩٤)، وكان الشيخ صالح بن سالم آل بنيان ذا مكانة مرموقة عند الأمير محمد بن عبد الله آل رشيد، وصحبه مرارًا إمامًا ومرشدًا في مغازيه وحججه^(٩٥).

أسهم الأمراء أيضًا في تنشيط الحركة العلمية من خلال مجالس العلم التي كانت تعقد في مجالسهم، والتي كان يحضرها العلماء والأدباء والمؤرخون، ويقرأ فيها من مختلف الكتب الدينية والتاريخية والأدبية، فعلى سبيل المثال كان الأمير حمود بن عبيد بن رشيد، محبا لأهل العلم، وله رغبة في قراءة الكتب والاطلاع عليها، وكان له مجلس علم يحضره العلماء والأدباء، حيث كان يجلس الأمير وحوله المشايخ وطلبتهم بعد صلاة الفجر فيقرأ عنده العديد من العلوم الشرعية وكتب التاريخ والأنساب والسير والتراجم وغيرها، وكان يقرأ عليه الشيخ جار الله الحمادي من كتاب معجم البلدان لياقوت الحموي، حتى أن المنية وافته وهو يقرأ عام ١٣٢٠هـ فحزن عليه الأمير ورثاه بقوله:

يا معجم البلدان هيبت والويت من بعد أبو حماد ما بك شفاة من عقب ما انتة عنبر حلتيت لو نجلبك ما حللوك الشراة^(٩٦).

ولم يقتصر الأمر على نساء آل رشيد، وإنما امتد ليشمل النساء الموالي، نموذج ذلك نورة مولاة محمد بن عبد الله الرشيد^(١٥٨)، التي وقفت عام (١٣١١هـ/ ١٨٩٤م) كتاب "الطرق الحكمية في السياسة الشرعية" لابن القيم^(١٥٩).

خاتمة

أسهم أفراد أسرة آل رشيد خلال فترة حكمهم لحائل في دعم الحركة الفكرية بشتى الوسائل، فقد شجعوا على قدوم عناصر فكرية مختلفة إلى حائل، ولم تكن تخلو مجالسهم من وجود علماء وأدباء وحلقات للمذاكرة والمناظرة، كما يُحسب لهم تقديرهم لرجال الفكر ورفع مكانتهم، فقد خصصوا مرتبات وأعطيات دورية لأهل العلم والأدب، وأسسوا عددًا من مراكز العلم، وجلبوا إليها المعلمين من سوريا ومصر، واستقطبوا إلى حاضرتهم القضاة من المراكز الأكثر علمًا، لنشر التعليم بين الناس، ووقفوا الكتب العلمية لجعلها متاحة أمام العلماء وطلاب العلم، وهو ما تشهد به وقفياتهم التي تند عن الحصر في مكتبات حائل العتيقة.

الترمذي^(١٦٦)، كما وقف النصف الثاني من صحيح البخاري في ٢٩ شوال عام ١٣٠٥هـ^(١٦٧)، وكتاب "سراج الملوك" للطروشوي^(١٦٨). كما تم وقف عدد آخر من الكتب على يد أفراد أسرة آل رشيد مثل فيصل بن محيسن الجبر آل رشيد الذي وقف عام ١٣٠٧هـ كتاب "التنقيح المشبع" للمرداوي^(١٦٩)، ووقف عام ١٣٠٩هـ كتاب "جامع العلوم والحكم" لابن رجب^(١٧٠)، وفي عام ١٣١٠هـ وقف كتاب "أقسام القرآن" لابن القيم^(١٧١)، وكتاب حاشية أبي النجا^(١٧٢)، وكتاب "حاشية محمد بن عبد اللطيف على الأجرومية"^(١٧٣). أما الأمير سالم بن حمود العبيد آل رشيد فقد وقف عام ١٣٠٧هـ كتاب "فتح المجيد" بشرح الشوكاني^(١٧٤)، وكتاب "بيان الهدى"^(١٧٥) لابن تيمية، والأمير طلال بن نايف آل رشيد الذي وقف عام ١٣٢٣هـ كتاب "الرد على الاخواني"^(١٧٦)، وكتاب "الاستغاثة"^(١٧٧)، وكتاب "الرسالة الدينية"^(١٧٨) لابن تيمية. ولم تقتصر عملية وقف الكتب على الأحرار بل شارك الموالي والغلمان في تلك الحركة، ففي عام ١٣١٢هـ وقف سعيد غلام الأمير محمد بن عبدالله بن رشيد عدة كتب منها: "الأزرق في علم الطب"^(١٧٩)، و"التحفة المنتخبة في الأدوية المجربة"^(١٨٠)، و"السياسة الشرعية"^(١٨١)، و"حاشية المنتهى"^(١٨٢)، و"جامع العلوم والحكم"^(١٨٣)، و"الحسبة"^(١٨٤) لابن تيمية، وفي عام ١٣٢٥هـ وقف عنبر غلام سالم الحمود آل رشيد كتاب "شرح المعلقات" للزوزني على الشيخ يوسف يعقوب وأخيه عمر^(١٨٥)، وفي عام ١٣١٦هـ وقف خالد غلام حمود العبيد الجزء الأول من كتاب "الجامع لمفردات الأدوية" لابن البيطار^(١٨٦)، وفي عام ١٣٢٢هـ وقف جوهر غلام حمود العبيد آل رشيد كتاب "وسيلة النجاة" للطرابلسي^(١٨٧)، وكتاب "الصلاة" لابن القيم^(١٨٨). أبدت بعض نساء أسرة آل رشيد حرصهن ورعايتهن للحركة العلمية؛ من خلال توفير المخطوطات لطلبة العلم، فقد شهد عام (١٣١٤هـ/ ١٨٩٦م) وقف عدد من المخطوطات بواسطة بعض أميرات آل رشيد، منهن رقية آل متعب الرشيد^(١٨٩)، والتي وقفت الجزء الثاني عشر من "جامع البيان في تفسير القرآن" للطبري^(١٩٠)، كما وقفت كتاب "مدارج السالكين" لابن القيم^(١٩١)، وطريقة بنت عبيد الرشيد^(١٩٢) (ت. ١٢٦٣هـ/ ١٨٣٥م) التي وقفت كتاب "إيقاظ الوسنان على بيان الخلل الذي في صلح الإخوان" لمحمد بن ناصر التهامي^(١٩٣)، وكتاب "الفواكه العذاب في الرد على من لم يحكم بالسنة والكتاب" لحمد بن معمر الحنبلي^(١٩٤)، وكتاب "كشف ما ألقاه إبليس من البهرج والتلبيس على قلب داوود بن جرجيس" لعبد الرحمن بن حسن آل الشيخ^(١٩٥). وفي عام ١٣٠٠هـ وقفت دليل بنت طلال الرشيد نسخة من تفسير سورة الإخلاص لابن تيمية^(١٩٦)، كما وقفت خنساء آل رشيد في عام ١٣٠٧هـ نسخة مطبوعة في المطبعة الأميرية ببولاق سنة ١٣٠٤هـ من كتاب "إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري" للقسطلاني^(١٩٧).

الهوامش:

- (٩) دواقي: مصدر سابق، ص ٤٢، ج ٦٦؛ محمد عثمان القاضي: **روضة الناظرين** عن مآثر علماء نجد وحوادث السنين، ج ١، ط ١، القاهرة، مطبعة الحلي، ١٤٠٣هـ ص ١٧٢.
- (١٠) هو عبيد بن علي الرشيد أخو مؤسس الإمارة عبد الله بن علي، شارك مع أخيه في بناء الإمارة وتسيير شؤونها السياسية والعسكرية منذ نشأتها في (١٢٥٠هـ/١٨٣٤م) وحتى وفاته عام (١٢٨٦هـ/١٨٦٩م). انظر: أمين الريحاني: **تاريخ نجد الحديث وملحقاته**، ط ١، بيروت، المطبعة العلمية ليوسف صادر، ١٩٢٨ م، ص ٢٨٦.
- (١١) بلجريف، وليام جيفورد: **وسط الجزيرة العربية وشرقها ١٨٦٢-١٨٦٣**، ترجمة صبري حسن، المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠١ م، ج ١، ص ١٦٣.
- (١٢) دواقي: **ترحال في صحراء الجزيرة العربية**، ترجمة صبري محمد حسن، ط ٢، القاهرة، المركز القومي للترجمة، ٢٠٠٩ م، ص ٤٤.
- (١٣) أحمد العريفي: **مقامات حائلية لمحات تاريخية اجتماعية ونصوص شعرية**، ط ١، ج ١، الرياض، د.ن، ١٤٢٨هـ ج ١، ص ٦٨.
- (١٤) بلجريف: مصدر سابق، ١٥٩.
- (١٥) ثاني حكام إمارة جبل شمر في حائل. وهو ابن عبد الله العلي الرشيد مؤسس الأمارة انتقل إليه الحكم بعد وفاة أبيه، شهدت الإمارة في عهده حالة من الرخاء والاستقرار والتوسع، أنهى حياته بالانتحار بعد أن أخبره الأطباء بأنه أصيب بمرض مزمن سيؤدي لفقدان عقله، ففضل الموت على الجنون. انظر: خليف الصغير الشمري: **طلال بن عبد الله آل رشيد قراءة سسيو تاريخية**، ط ١، د.م، جداول للطباعة والنشر، ٢٠١٦.
- (١٦) بلجريف: مصدر سابق، ص ١٦٦.
- (١٧) بلنت: مصدر سابق، ص ٢٥٧.
- (١٨) دواقي: مصدر سابق، ص ١٩-٢٠.
- (١٩) دواقي: مصدر سابق، ص ٢٠١.
- (٢٠) شارلز هوبير (Charles Huber): **رحلة في الجزيرة العربية الوسطى ١٨٧٨-١٨٨٢**، ترجمة اليسار سعادة، بيروت، دار كتب، ٢٠٠٣ م، ص ٥٣.
- (٢١) يوليوس اوتينج (Julius Euting): **رحلة داخل الجزيرة العربية**، ترجمة وعلق عليه سعيد بن فايز السعيد، ط ١، الرياض، إصدارات دار الملك عبد العزيز، ١٤١٩هـ ص ٩٧-٩٨؛ دواقي: مصدر سابق، ص ٢٢٣.
- (٢٢) **الأوضاع السياسية في وسط الجزيرة العربية عند نهاية القرن التاسع عشر الميلادي**، تقديم وتعريب عوض البادي، الرياض، دار بلاد العرب للنشر والتوزيع، ١٤٢٢هـ/٢٠٠٠ م، ص ٢٥٧.
- (٢٣) نولده: مصدر سابق، ص ٩٣.
- (٢٤) اوتينج: مصدر سابق، ٩٨.
- (٢٥) نولده: مصدر سابق، ص ٥١.
- (٢٦) نفسه.
- (٢٧) نولده: مصدر سابق، ص ٩٢.
- (٢٨) نولده: مصدر سابق، ص ٤٥.
- (٢٩) الليدي آن بلنت: **رحلة إلى نجد مهد العشائر العربية**، ترجمة وتعليق أحمد إيش، دار المدى للثقافة والنشر، دمشق، ٢٠٠٥ م، ص ٢٥٠.
- (٣٠) محمود شكري الالوسي: **تاريخ نجد**، عنى بتحقيقه محمد بهجة الاثري، القاهرة، مكتبة مدبولي، القاهرة، د. ت، ص ٢٠.
- (٣١) بلنت: مصدر سابق، ص ٢٨٢.
- (٣٢) بلجريف: مصدر سابق، ص ١٦١؛ اوتينج: مصدر سابق، ص ١١٤؛ دواقي: مصدر سابق، ج ٢، م، ص ١١.
- (٣٣) بلجريف: مصدر سابق، ص ١٩٧.

(١) انظر على سبيل المثال: السويداء، عبد الرحمن: **منطقة حائل عبر التاريخ**، دار السويداء للنشر والتوزيع، الرياض، ١٤٣٠هـ العثيمين، عبد الله: **نشأة إمارة آل رشيد**، عمادة شؤون المكتبات، جامعة الرياض، الرياض، ١٤٠١هـ، عبيد، جبار: **التاريخ السياسي لإمارة حائل ١٨٣٥-١٩٢١م**، الدار العربية للموسوعات، ٢٠٠٣م، زعارير، محمد عبد الله: **إمارة آل رشيد في حائل**، بيسان، ١٩٩٧م، آل علي، محمد بن مهنا: **إمارة آل علي في منطقة حائل**، دار المؤيد، جدة، ١٤٢٤هـ السعدون، خالد حمود: **"موقف إمارة حائل من الحرب العالمية الأولى كما صورته الوثائق البريطانية"**، الدارة، س ٩، ع ٢٤ المحرم ١٤٠٤، أكتوبر ١٩٨٣، ص ٢٨ - ٤٠.

Paran, Michel, The Rashidi Amirate of Hayl: The rise, development and decline of a pre modern Arabian principality, doctoral dissertation, University of Michigan, 1992.

(٢) إذ لا يمكن نذكر سوى كتاب "الثقافة والتعليم في منطقة حائل قبل المدارس النظامية" للأستاذ عبد الرحمن السويداء، الذي لا يتعد في التحليل الأخير عن كونه تراجم ذاتية أكثر منه رصدًا لمظاهر الحياة العلمية، ورسالة الباحث خاتم الشمري "الحياة العلمية في منطقة حائل في عهد الملك عبد العزيز"، والتي تُعدّ دراسة جادة، نوع فيها الباحث من مصادره.

(٣) مثل كتاب "القول السديد في أخبار إمارة آل رشيد" لسليمان الدخيل، وكتاب "نبذة تاريخية عن نجد" لضاري الرشيد، وكتاب "تاريخ بعض الحوادث الواقعة في نجد" لابن عيسى، وكتاب "شذا الند في تاريخ نجد" لصالح بن مطلق النجدي، وكتاب "تاريخ بعض الحوادث الواقعة في نجد" لابن عيسى، وكتاب "صدى الحرب" للحجبي.

(٤) على سبيل المثال كتاب "زهر الخمائيل في تراجم علماء حائل" للهندي، وكتاب "روضة الناظرين عن مآثر علماء نجد وحوادث السنين" لابن عثمان القاضي.

(٥) رحالة وصحفي من منطقة القصيم ولد في مدينة بريدة وتوفي بغداد عام ١٩٤٤م، قام بعدة رحلات داخل الجزيرة العربية، والهند والعراق، عاش في كرخ بغداد وأنشأ دار للطباعة والنشر والتأليف ومجلة عربية، وبسبب معارضته للأتراك حُكّم عليه بالسجن؛ ليهرب بعد ذلك إلى المدينة المنورة ثم يعود بعد فترة لبغداد ويستقر فيها بعد قيام الحكم الوطني في العراق، ليتدرج بالمناصب حتى أصبح قائمقام. بخصوص حياته ونشأته وعلاقته بأسرة آل رشيد في حائل انظر: حسن غياض: **الصحفي، السياسي، المؤرخ النجدي سليمان بن صالح الدخيل**، ط ١، البصرة، مركز دراسات الخليج العربي، ١٩٨٢، محمد بن عبد الرزاق القشعري: **"سليمان الدخيل: رائد الصحافة النجدية"**، مجلة أبعاد، نادي القصيم الأدبي، السعودية، ع ١، ٢٠٠٧م، ص ٤٠ - ٤٩.

(٦) سليمان الدخيل: **"نجد"**، مجلة لغة العرب، بغداد، مج ١، ١٩١١، ص ٢١-٢٤.

(٧) العفنان، سعد: **أعلام علماء حائل-الشيخ صالح السالم**، فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، ١٤١٨هـ ص ٢٢-٢٣.

(٨) عبد الله البسام: **علماء نجد خلال ستة قرون**، ط ٢، دار العاصمة، الرياض، ١٤١٩هـ ج ٤، ص ٤٨٦.

- (٣٤) بلجريف: مصدر سابق، ج ١، ص ١٦٤؛ أحمد العريفي: مقامات حائلية، ج ٢، ص ٢١١.
- (٣٥) أوتينج: مصدر سابق، ص ١١٤.
- (٣٦) عن أثر هذه الدعوة في انتعاش الحياة الفكرية بنجد على نحو عام انظر: عبد الرحمن بن أحمد البهكلي: **نفخ العود في سيرة الشيخ حمود**، تحقيق محمد بن أحمد العقيلي، ط ٢، جازان، مطابع جازان، ١٤٠٦هـ ص ٣١٤، أحمد بن عبد العزيز البسام: **الحياة العلمية في وسط الجزيرة العربية في القرنين الحادي عشر والثاني عشر الهجريين وأثر دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب فيها**، ط ١، سلسلة الرسائل الجامعية رقم ١٣، الرياض، دار الملك عبد العزيز، ١٤٢٦هـ.
- (٣٧) مجموعة مؤلفين: **مجموع الرسائل والمسائل النجدية**، ط ٣، دار العاصمة، الرياض، ١٤١٢هـ ج ١، ص ٣٢٧.
- (٣٨) مصدر سابق، ص ١٤٧-١٤٨.
- (٣٩) فالين: مصدر سابق، ص ١٤٣.
- (٤٠) البادي، عوض: **الرحالة الأوربيون في شمال وسط الجزيرة العربية: منطقة حائل**، ط ١، دار برزان للنشر، ٢٠٠٤م، ص ١٧٥-١٥٩.
- (٤١) مصدر سابق، ص ١٤٥.
- (٤٢) بلجريف: مصدر سابق، ص ١٦٠، ٢٨٥.
- (٤٣) بلنت: مصدر سابق، ص ٢٣٤؛ لوريمر: مصدر سابق، ج ٦، ص ٢٢٤٤.
- (٤٤) انظر ترجمته عند: الهندي: مصدر سابق، ص ٦٧.
- (٤٥) انظر ترجمته عند: أحمد العريفي: علماء لبدة، ص ٨٥.
- (٤٦) انظر ترجمته عند: القاضي: مصدر سابق، ج ٢، ص ٣٩٠.
- (٤٧) انظر ترجمته عند: القاضي: مصدر سابق، ج ٢، ص ١٣٤-١٣٦.
- (٤٨) انظر ترجمته عند: الرديعان: منبع الكرم، ص ٣٥٨-٣٥٩.
- (٤٩) انظر ترجمته عند: الرديعان: منبع الكرم، ص ٣٧٢-٣٧٤.
- (٥٠) فهد العريفي: **قضاة مدينة حائل**، ط ١، الرياض، مطابع دار الجسر، ١٤١٥هـ ص ١٠٢؛ السويداء: مرجع سابق، ص ٣٤-٣٥.
- (٥١) فالين: مصدر سابق، ص ١٠٧؛ لوريمر: مصدر سابق، ج ٦، ص ٢٢٤٣.
- (٥٢) هوبر: مصدر سابق، ص ٥٩.
- (٥٣) طارق المزيني: **النبة عن مسجد مشايخ لبدة**، الرياض، ط ١، الرياض، مطابع الحميضي، ١٤١٩هـ ص ٢١.
- (٥٤) الرديعان: منبع الكرم، ص ٤٩-٥١.
- (٥٥) وينسب بناؤه لأسرة الجبارة خلال القرن الثالث عشر، ويقع قريباً من مسجد لبدة. المزيني: مرجع سابق، ص ٢٣.
- (٥٦) ويقع إلى الغرب من مسجد لبدة. المزيني: المرجع نفسه ص ٢٣.
- (٥٧) ويقع في وسط مدينة حائل بالشارع الطويل، وينسب بناؤه للشيخ عيسى الحمود المهوست ١٣٥٠هـ الذي تولى الإمامة والتدريس به مدة من الزمن. الهندي: مصدر سابق، ص ١٠٣، المزيني: مرجع سابق، ص ٢٤.
- (٥٨) ويقع داخل مدينة حائل، وينسب المسجد إلى الشيخ عبد العزيز بن عبد الله الهندي، الذي ولد بالهند وتعلم بها العربية ثم هاجر إلى الرياض حيث أكرمه الإمام عبد الله بن فيصل آل سعود، واصطحبه معه إلى حائل وقدمه للأمير محمد عبد الله الرشيد، فأكرمه وأبقاه عنده وبنى له ذلك المسجد الذي عرف باسمه. الهندي: مصدر سابق، ص ١٢١.
- (٥٩) أحمد العريفي: مرجع سابق، ص ٦٣.
- (٦٠) عبد الله البسام: مرجع سابق، ج ٥، ص ٥٣٠.
- (٦١) عبد الرحمن السويداء: **منطقة رمان**، ط ١، الرياض، دار السويداء للنشر والتوزيع، ١٤١٤هـ ص ٨٥.
- (٦٢) فهد العريفي: مرجع سابق، ص ١٨.
- (٦٣) الهندي: مصدر سابق، ص ١٠.
- (٦٤) حسان الرديعان: منبع الكرم، ص ١٩٨.
- (٦٥) عثمان القاضي: مصدر سابق، ج ١، ص ٣٥١.
- (٦٦) فهد العريفي: مرجع سابق، ص ١٩.
- (٦٧) عبد الله بن زيد بن مسلم آل مسلم: **العقد المنظم في سيرة الشيخ عبد الله بن مسلم**، ط ١، الرياض، مطابع الحميضي، ١٤٢٣هـ ص ٤١؛ القاضي: مصدر سابق، ج ١، ص ٣٧٨.
- (٦٨) عبد الله البسام: مصدر سابق، ج ١، ص ٢٢٠.
- (٦٩) حمد بن عبد الله المرشد: **الأزهار الندية في تراجم طلبة العلم في الغوطة البهية ما قبل المدارس النظامية**، ط ١، حائل دار الأندلس للنشر والتوزيع، ١٤٣٠هـ ص ٣٩.
- (٧٠) ويقصد بها البناية المخصصة للدراسة، والتي يقصدها طلاب العلم، ويتولى التدريس فيها معلمون وأساتذة وعلماء. إسماعيل سامعي: معالم الحضارة العربية الإسلامية، ط ١، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، ٢٠٠٧، ص ٣١٢.
- (٧١) فالين: مصدر سابق، ص ١٠٧.
- (٧٢) نولده: مصدر سابق، ص ٤٥.
- (٧٣) داوتي: مصدر سابق، ص ٦٧؛ سلطان الحماد: مرجع سابق، ص ١٢٤.
- (٧٤) الألوسي: مصدر سابق، ص ٢٠.
- (٧٥) إدوارد نولده: مصدر سابق، ص ٣٥-٣٦، عبد الله البسام: مرجع سابق، ج ٢، ص ١٧، أحمد العريفي: مرجع سابق، ص ٦٥، السويداء: الثقافة والتعليم في حائل، ص ١٢٥.
- (٧٦) صالح بن عثيمين: **تسهيل السابلة لمريد معرفة الحنابلة**، تحقيق بكر أبو زيد، بيروت، ط ١، مؤسسة الرسالة، د.ت، ج ٣، ص ١٧٨٠، الزركلي: **الأعلام قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين**، بيروت، دار العلم للملايين، ٢٠٠٢م، ج ٤، ص ٢٠٨.
- (٧٧) سليمان بن سحمان: **عقود الجواهر المنضدة الحسان**، أشرف على تصحيحه وضبطه وعلق عليه عبد الرحمن بن سليمان الرويشد، منشورات مؤسسة الدعوة الإسلامية، د.ت، ص ١٩٢، والهندي: مصدر سابق، ص ٣١، وعثمان القاضي: مصدر سابق، ج ٢، ص ١٥٠، وعبد الله بن محمد الطريقي: **معجم مصنفات الحنابلة**، الرياض، ط ١، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م، ج ٦، ص ٣١١.
- (٧٨) عثمان القاضي: مصدر سابق، ج ١، ص ٣٥٦، سليمان بن حمدان: **تراجم متأخري الحنابلة**، تحقيق بكر أبو زيد، ط ١، ١٤٢٠هـ دار ابن الجوزي، ص ١١٩-١٢٠، الهندي: مصدر سابق، ص ٢٦، إبراهيم رفعت باشا: **مرآة الحرمين**، القاهرة، مطبعة دار الكتب المصرية، ط ١، ١٣٤٤هـ برقم ١٩٣٥م، ج ٢، ص ١٣٦، عبد الله بن زيد بن مسلم: **العقد المنظم في سيرة الشيخ عبد الله بن مسلم**، الرياض، ط ١، مطابع الحميضي، ١٤٢٣هـ ص ٣٤-٣٧، عبد الله البسام: مرجع سابق، ج ٢، ص ٤٦٢، حسان الرديعان: مرجع سابق، ص ١٧٠.
- (٧٩) الهندي: مصدر سابق، ص ٤٨، عبد الله البسام: مرجع سابق، ج ٢، ص ٢١١، السويداء: **حائل عبر التاريخ**، ص ٦٣٠-٦٣٣.
- (٨٠) ابن بشر: مصدر سابق، ج ٢، ص ١٠٤-١٠٦، الهندي: مصدر سابق، ص ٧٤، فهد المارك: **من شيم العرب**، بيروت، ط ٤، المكتبة الأهلية، ١٤٢٠هـ ج ٣، ص ٩٥٨، عبد الله البسام: مرجع سابق، ج ٥، ص ٤٥٢.
- (٨١) نولده: مصدر سابق، ص ٥١.
- (٨٢) سليمان الدخيل: مصدر سابق، ص ١٤٩-١٥٠.
- (٨٣) مصدر سابق، ص ٥٠-٥١.

- (٨٤) آل الشيخ، عبد الرحمن بن عبد اللطيف: **مشاهير علماء نجد وغيرهم**، ط ٢ دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، الرياض، ١٣٩٤هـ ج ١، ص ١٣٠-١٣١، البسام، عبد الله: مرجع سابق، ج ٢، ص ٤٦٢.
- (٨٥) آل الشيخ: مصدر سابق، ص ٢٩١-٢٩٢.
- (٨٦) الرديعان، منبع الكرم، ص ٢١٥، خاتم الشمري: مرجع سابق، ص ٥١.
- (٨٧) البسام، عبد الله: مرجع سابق، ج ١، ص ٢٩٠.
- (٨٨) البسام، عبد الله: المرجع نفسه، ج ١، ص ٢١٩.
- (٨٩) الرديعان: منبع الكرم، ص ١٣٩.
- (٩٠) القاضي: مصدر سابق، ج ٢، ص ٣٨٩، البسام، عبد الله: مرجع سابق، ج ٦، ص ٤٩٦.
- (٩١) وصف الشيخ عبد الله بن عمرو -لأمير محمد بن رشيد في رسالته التي وجهها إليه -بالحلم والأناة والصفح عن العلماء. البسام، عبد الله: مرجع سابق، ج ٤، ص ٣٢٩.
- (٩٢) السويدي: **منطقة حائل**، ص ٥٢٩، خاتم الشمري: مرجع سابق، ص ٥٤.
- (٩٣) الرديعان: منبع الكرم، ص ١٨٧.
- (٩٤) العريفي، أحمد: علماء لبدة، ص ٤٢.
- (٩٥) القاضي، محمد عثمان: **روضة الناظرين عن مآثر علماء نجد وحوادث السنين**، مطبعة الحلبي، القاهرة، ١٤٠٣هـ ج ١، ص ١٧٢.
- (٩٦) البسام، عبد الله: مرجع سابق، ج ٢، ص ١٧.
- (٩٧) البادي، عوض: مرجع سابق، ص ١٩١-١٩٢.
- (٩٨) نسخة محفوظة في مكتبة اليقوب برقم ٩٣.
- (٩٩) نسخة محفوظة في مكتبة البنيان بدون رقم.
- (١٠٠) نسخة محفوظة في مكتبة اليقوب برقم ٥٨.
- (١٠١) نسخة محفوظة في مكتبة اليقوب برقم ٤-٢.
- (١٠٢) نسخة محفوظة في مكتبة البنيان بدون رقم.
- (١٠٣) نسخة محفوظة في مكتبة اليقوب برقم ١١.
- (١٠٤) نسخة محفوظة في مكتبة اليقوب برقم ٦٧.
- (١٠٥) نسخة محفوظة في مكتبة اليقوب برقم ٨٥.
- (١٠٦) نسخة محفوظة في مكتبة البنيان برقم ٦١.
- (١٠٧) نسخة محفوظة في مكتبة اليقوب برقم ٧٠.
- (١٠٨) نسخة محفوظة في مكتبة اليقوب برقم ١١٦.
- (١٠٩) نسخة محفوظة في مكتبة اليقوب برقم ٢٢.
- (١١٠) نسخة محفوظة في المكتبة الخيرية بحائل بدون رقم.
- (١١١) نسخة محفوظة في مكتبة الشغدي بدون رقم.
- (١١٢) نسخ محفوظة في مكتبة البنيان برقم ١٢، ١٤، ١٧، ٢٠، ومكتبة الشغدي بدون أرقام.
- (١١٣) نسخة محفوظة في مكتبة اليقوب برقم ٥٦.
- (١١٤) نسخة محفوظة في مكتبة اليقوب برقم ١٦.
- (١١٥) نسخة محفوظة في مكتبة الشغدي بدون رقم.
- (١١٦) نسخة محفوظة في مكتبة اليقوب برقم ٧٥.
- (١١٧) نسخة محفوظة في مكتبة اليقوب برقم ٤-١.
- (١١٨) نسخة محفوظة في مكتبة الشغدي بدون رقم.
- (١١٩) نسخة محفوظة في مكتبة اليقوب برقم ٨٨.
- (١٢٠) حسان الرديعان: "نوادير المخطوطات"، ص ٤٨٠.
- (١٢١) نسخة محفوظة في مكتبة اليقوب برقم ٦.
- (١٢٢) نسخة محفوظة في مكتبة اليقوب برقم ٤١.
- (١٢٣) نسخة محفوظة في مكتبة اليقوب برقم ١٢.
- (١٢٤) نسخة محفوظة في مكتبة البنيان بدون رقم.
- (١٢٥) نسخة محفوظة في مكتبة اليقوب برقم ٦٠.
- (١٢٦) نسخة محفوظة في مكتبة البنيان بدون رقم.
- (١٢٧) نسخة محفوظة في مكتبة البنيان برقم ١٥٥.
- (١٢٨) نسخة محفوظة في مكتبة البنيان برقم ٣٩.
- (١٢٩) نسخة محفوظة في مكتبة اليقوب برقم ٥٧.
- (١٣٠) نسخة محفوظة في مكتبة اليقوب برقم ٢.
- (١٣١) نسخة محفوظة في مكتبة البنيان بدون رقم.
- (١٣٢) نسخة محفوظة في مكتبة اليقوب برقم ١-١٠.
- (١٣٣) نسخة محفوظة في مكتبة اليقوب برقم ٢-١٠.
- (١٣٤) نسخة محفوظة في مكتبة اليقوب برقم ٢١.
- (١٣٥) نسخة محفوظة في مكتبة اليقوب برقم ٥٢.
- (١٣٦) نسخة محفوظة في مكتبة اليقوب برقم ٢-٤٢.
- (١٣٧) نسخة محفوظة في مكتبة اليقوب برقم ٤٢.
- (١٣٨) نسخة محفوظة في مكتبة اليقوب برقم ٣-٤٢.
- (١٣٩) نسخة محفوظة في مكتبة اليقوب برقم ٤٨.
- (١٤٠) نسخة محفوظة في مكتبة اليقوب برقم ٤٨.
- (١٤١) نسخة محفوظة في مكتبة اليقوب برقم ٣-٥٢.
- (١٤٢) نسخة محفوظة في مكتبة اليقوب برقم ٣-٥٨.
- (١٤٣) نسخة محفوظة في مكتبة اليقوب برقم ٢-١.
- (١٤٤) نسخة محفوظة في مكتبة اليقوب برقم ٤-٥٢.
- (١٤٥) نسخة محفوظة في مكتبة اليقوب برقم ٣٦.
- (١٤٦) نسخة محفوظة في مكتبة الشغدي بدون رقم.
- (١٤٧) نسخة محفوظة في مكتبة اليقوب برقم ١-٢٦.
- (١٤٨) نسخة محفوظة في مكتبة اليقوب برقم ٦-٢٦.
- (١٤٩) التقت بها الرحالة آن بلنت في رحلتها إلى حائل ١٢٩٧هـ/ ١٨٨٠م وذكرت أنها كانت زوجة لماجد بن حمود الرشيد. انظر كتابها: **رحلة إلى نجد**، ترجمة وتحقيق أحمد إبيش، دار المدى للثقافة والنشر، دمشق، ٢٠٠٥م، ص ٢٦٦.
- (١٥٠) نسخة محفوظة بمكتبة الشغدي/ دون رقم.
- (١٥١) نسخة محفوظة بمكتبة الشغدي/ دون رقم.
- (١٥٢) انظر: ترجمتها عند دلال الحربي: **نساء شهيرات من نجد**، دار الملك عبد العزيز، الرياض، ١٩٩٨م، ص ١٠٠-١٠٥.
- (١٥٣) نسخة محفوظة بمكتبة البنيان، تحت رقم ٧٥م.
- (١٥٤) نسخة محفوظة بمكتبة البنيان/ تحت رقم ٧٥م.
- (١٥٥) نسخة محفوظة بمكتبة البنيان/ تحت رقم ٧٥م.
- (١٥٦) نسخة محفوظة في مكتبة الملك فهد الوطنية من مجموعة مكتبة الرياض السعودية.
- (١٥٧) نسخة محفوظة في مكتبة البنيان بدون رقم.
- (١٥٨) لم نعر على تاريخ وفاتها.
- (١٥٩) نسخة محفوظة بمكتبة البنيان/ تحت رقم ٧٥م.

جوانب من الإصلاحات الإدارية في المغرب خلال عهد مولاي الحسن (١٨٧٣ – ١٨٩٤م)

د. محمد أيت صالح

أستاذ التعليم الثانوي

دكتوراه في التاريخ المعاصر من كلية الآداب

الرباط - المملكة المغربية



ملخص

يتمحور هذا المقال حول الإصلاحات الإدارية في عهد السلطان مولاي الحسن (١٨٧٣-١٨٩٤)، والتي ساهمت في وضع اللبنة الأولى لتجاوز التأخر وتحديث المجتمع في مرحلة فاصلة من تاريخ المغرب خلال القرن التاسع عشر، مما ترتب عنه نتائج مهمة انعكست على كافة المستويات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والفكرية. يبتدئ المقال بتعريف الإصلاح، باعتباره برنامجاً يشتمل على مختلف الإجراءات التنظيمية التي اضطر السلطان مولاي الحسن إلى إحداثها لتقوية بلده، ولمواجهة ضغوط الدول الأوروبية الاستعمارية. ثم يتناول السياق العام لظهور حركات الإصلاح في المغرب، ويرصد أبرز مظاهر الإصلاح الإداري، وخاصة إحداث أمانة الأمراء (وزارة المالية) ووزارة الأمور الخارجية، وإصلاح البريد وكيفية تكوين الأطر الإدارية. ويخلص إلى أن تجربة مولاي الحسن هي المنطلق لبروز فكرة الإصلاح في المغرب ما قبل الاستعمار، لأن هذا السلطان كان على وعي بضرورة التطور والخروج من وتيرة الركود. فشكّل الإصلاح لديه قضية جوهرية لمواجهة مشاكل العصر التي تكاثرت وتعمدت في عهده.

بيانات المقال:

الكلمات مفتاحية: الإصلاحات الإدارية، مولاي الحسن، تاريخ المغرب الحديث، الجهاز المخزني

تاريخ استلام المقال: ١٠ نوفمبر ٢٠١٥
تاريخ قبول النشر: ٢٦ فبراير ٢٠١٦

DOI 10.12816/0052959

معرف الوثيقة الرقمي:

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

محمد أيت صالح، "جوانب من الإصلاحات الإدارية في المغرب خلال عهد مولاي الحسن (١٨٧٣ - ١٨٩٤م)". - دورية كان التاريخية. - السنة الحادية عشرة - العدد الأربعون، يونيو ٢٠١٨، ص ٩٧ - ١٠٥.

مقدمة

مولاي الحسن إلى إحداثها لتقوية بلده، ومواجهة ضغوط وتحديات الدول الأوروبية الاستعمارية. وهو ما كان يقتضي تغيير نظم الدولة وتوجيه نشاطها طبقاً للتحويلات السريعة والمستمرة، وبتقليد العالم الغربي واقتباس تقنياته وتنظيماته. وعليه، فالإصلاح هنا يستند إلى مدى الانفتاح على التجارب الأوروبية والنهل منها. برزت حركات الإصلاح في المغرب من خلال الرد على الضغط العسكري الأوروبي الذي هدف إلى بسط سيطرته ونفوذه عليه بعد هزيمة إسلي سنة ١٨٤٤م أمام فرنسا وهزيمة تطوان سنة ١٨٦٠م ضد إسبانيا، مما انعكس سلباً على أجهزة الدولة سياسياً وعسكرياً واقتصادياً، ومهد الطريق للاستعمار، وشكّل نقطة تحول خطيرة في تاريخ البلاد؛ إذ انهارت سمعتها العسكرية لأول مرة في التاريخ الحديث، وثارت النفوس وقلت هيبة السلطان، وتسببت كذلك في صدمة عنيفة للمغاربة، في "كانت مصيبة

ساهمت الإصلاحات الإدارية في عهد مولاي الحسن (١٨٧٣-١٨٩٤) في وضع اللبنة الأولى لتجاوز التأخر وتحديث المجتمع في مرحلة فاصلة من تاريخ المغرب، مما ترتب عنها نتائج مهمة انعكست على كافة المستويات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والفكرية، كما كان لها بالغ الأثر في التطورات اللاحقة التي شهدتها المغرب على المستويين الداخلي والخارجي. فما المقصود بالإصلاح الذي يعنينا في هذا الموضوع؟ وما هي سياقاته المختلفة؟ وفي ماذا تتمثل أهم مظاهره؟

يمثل الإصلاح ظاهرة من مظاهر الوعي المرتبط بتدهور الأوضاع الداخلية والأخطار الخارجية المحدقة بالمغرب. وأعني به، مختلف الإجراءات التنظيمية والتجهيزات التي اضطر السلطان

وكان عليه أن يبذل جهوداً جبارة لإخراج البلاد من الورطة التي توجد فيها، وهو يواجه التهديدات الأجنبية والإمكانات المادية المتواضعة، والأوضاع الداخلية المتردية بفعل غياب الأمن الناتج عن انهيار السلطة، وانتشار التمرد في كل أنحاء البلاد، وعيش السكان تحت رحمة ظاهرة اللصوصية وقطاع الطرق^(٢)، وقد دفع هذا الوضع مولاي الحسن إلى التوجه نحو الخارج قصد الاستفادة من الخبرات الأجنبية من أجل النهوض بأوضاع مجتمعه في كافة الميادين، وأدرك حتمية نهج سياسة إصلاحية، تهم عدة مجالات من بينها الميدان الإداري، الذي كان فيه للمقترحات الأوروبية، وضغوطها، وخاصة من بريطانيا، دوراً كبيراً للشروع فيها. فما هي أهم الإصلاحات الإدارية التي شهدتها المغرب على عهد مولاي الحسن؟

تابع مولاي الحسن سياسة الإصلاحات الإدارية التي بدأها سلفه^(٣)، بعد تفتنه إلى أن البناء التقليدي للدولة المغربية المرتكز على الأنظمة العتيقة لم يعد صالحاً لمواجهة مشاكل العصر - التي تكاثرت وتعقدت، ولم يعد مجدياً إزاء التقدم الأوروبي الحديث، لذا فالإصلاح بالنسبة إليه أصبح قضية حيوية وضرورية للخروج من وتيرة الركود والإحجام، وتكون في نفسه شعور بالحاجة للتجديد وانتحال وسائل التقدم والنهوض. كما أدرك أن الزمن تبدل وأن إكراهات الواقع لا حد لها، وأن استشارة الفقهاء أصبحت لا تجدي نفعاً كثيراً، فغلب منه النخبة التجارية الحضريّة العارفة بأحوال المال والأعمال في العالم المعاصر، فأصبح العمل من أجل إصلاح الدولة وتقوية أسسها قناة لا مندوحة عنها بالنسبة إليه، إن لم نقل اختصاراً له لقياس حدود تقبل مكونات المجتمع المغربي لمبدأ التحول والتغيير من عدمه، لأن "التجديد منه ما يكون ظاهرياً، ومنه ما يكون باطنياً، ومنه ما يظهر نتائجه للعموم وتناله الفهم، ومنه ما سره مكتوم لا يظهر إلا للخصوص... وهذا الإمام الذي ألقى إليه خلافة الله في أرضه الزمام، فالقاؤها الرسن إليه، وقع في حيز إبان التجديد من غير خلف ولا ترديد، وطاوعته بحسن الانقياد وكمال التمهيد، حتى فيما كان يجرم أنه لا يدرك من كل إقليم وقطر صعب أو بعيد"^(٤).

والواقع أن إصلاحات مولاي الحسن قد تمحورت حول قطاعات على درجات بالغة التأثير والأهمية، فمنها ما له صلة بالأمن والحدود والوحدة الترابية بالعمل على إصلاح الجيش، والنظام الجبائي الذي أصبح موضوع استفهام واستياء بعد حرب تطوان، وما نجم عنها من مشاكل مالية. وأخرى لها علاقة بوضعية المغرب الجيو-استراتيجية ومكانته داخل التيارات التجارية الدولية، وأخرى ذات صلة أساساً رهانات القوى الأوروبية الرامية إلى إدماجها بالمنظومة الدولية الرأسمالية وربطه بمحاورها وأسواقها الاقتصادية. كما عمل السلطان على القيام بالإصلاحات في مجالات مختلفة، من بينها الإدارة التي تعرضت لنقد أوروبي من طرف السفراء والقناصل والتجار والرحالة، ولنقد محلي من العلماء والفقهاء^(٥).

عظيمة وفجعية كبيرة لم تفجع الدولة الشريفة بمثلها^(٦)، وكان الأثر النفسي لها قوياً، حيث أحدثت اضطراباً في كل أنحاء البلاد، وشجعت التسرب الأجنبي، واستفحلت ظاهرة الحماية القنصلية، وتسببت في أزمة مالية خانقة، أدت إلى إفراغ الخزينة، نتيجة الغرامة الحربية التي فرضتها إسبانيا على المغرب مقابل الجلاء عن تطوان.

إضافة إلى الضغط العسكري، أرغم مسلسل الضغط الاقتصادي الأوروبي المخزن على توقيع اتفاقيات غير متكافئة، تهدف إلى إرساء دعائم التسرب الأوروبي، بما نصت عليه من امتيازات للتجار الأجانب، فقد أقرت اتفاقية ١٨٥٦م مع بريطانيا، مبدأ حرية التجارة وألغت معظم الاحتكارات السلطانية، وحددت الرسوم الجمركية في ١٠%. كما منحت حرية التنقل للتجار البريطانيين وحق الملكية داخل المغرب، وفي ميدان القضاء تم الاتفاق على خضوع الأجانب لقوانين بلادهم، حيث أصبح للتقاضي البريطاني الحق في الفصل في القضايا التي يكون الأجنبي طرفاً فيها، وأعطت أعوان القناصل وسماسرة التجار وشركاءهم امتيازات قضائية وجبائية. وشكل توقيعها مساً خطيراً بالبلاد، ذلك أن مراقبة التدخل الأوروبي أفلتت من يد المخزن، ففي صراعه ضد الإمبريالية الأوروبية، فقد المغرب واحداً من أهم أسلحته، ويتعلق الأمر هو بالتشريع الجمركي، كما تخلص عن حقوقه القضائية تجاه الأوروبيين والمحامين من المغاربة، وأخلت معاهدة ١٨٥٦م بالتوازن لصالح بريطانيا، ومن ثم ساهمت في إذكاء النزاعات بين القوى الأوروبية المهتمة بالمغرب، فحاولت هذه الدول الحصول على امتيازات جديدة لصالحها، وهو ما تأتى لإسبانيا في اتفاقية ١٨٦١م التي منحت حق الملكية العقارية للرعايا الإسبان، وفتحت أمامهم موانئ المغرب ومصايد الساحلية وحددت حقوق التصدير، وأكدت حق الحماية الإسبانية للرعايا المغاربة. كما وقع المغرب نفس الاتفاقية مع فرنسا سنة ١٨٦٣. وهكذا وضعت هذه الاتفاقيات الأسس القانونية لعلاقات المغرب مع أوروبا بعد أن أخذ نفوذها يتصاعد دون أن يستطيع المخزن إيقافه، وازدادت تبعية المغرب لها.

ولم يستطع الجهاز الإداري المخزني مواجهة هذه الضغوط الأوروبية في بداية القرن التاسع عشر؛ لأنه كان جهازاً بسيطاً ومتواضعاً في تنظيماته، وكان عدد أفرادها قليلاً وغير مستقر، كما طبعته المرونة التامة في تحديد مهام كل فرد؛ لأن ذلك كان يتوقف على مقدرتهم أو طريقة تعاملهم، وعلى مدى اهتمامات السلطان أكثر مما يتوقف على أعراف وتقنيات إدارية. واستمرت هذه البنية حتى منتصف القرن التاسع عشر، حيث بدأ المخزن يتطور هيكله بحكم الواقع الجديد، بعد أن اضطر السلطان محمد بن عبد الرحمان (١٨٥٩-١٨٧٣م) إلى إعادة النظر في كثير من مؤسسات الدولة سواء في الميدان الإداري والعسكري، أو في المجال المالي أو الجبائي والنقدي، أو في ميدان التجارة الخارجية. وقد توسعت دائرة هذه الإصلاحات في عهد خلفه مولاي الحسن (١٨٧٣-١٨٩٤م)، الذي ورث مغرباً مطوّقاً بالكثير من المشاكل،

وأصدقهم وأنصحهم للسلطان، وأشدّهم غيرة على الدين والوطن، حتى لو كان في الدولة عشرة رجال على شاكلته ومذهبه، لكان يظن أن يكون لها بذلك النجاح التام"^(١١). وكان التازي يمارس التجارة، وجاب كثيرا أقطار أوروبا، وفي سنة ١٨٨٧ أسس فرعًا تجاريًا بجبل طارق^(١٢)، مما أكسبه دراية بالمال وشؤونه. وبعد تعيينه، أصبح للتازي وحده حق التصرف في عزل وتنصيب من يريد من الجالسين بأماكن القبض من جهة، ومحاسبتهم وحيازة ما يتحصل بأيديهم ودفعه لأمناء دار العديل من جهة ثانية. بحيث من استحسن إقراره على الجلوس بمحل من تلك المحال يقره، ومن أراد عزله وإبداله يعزل ويبدل بغيره^(١٣). وبهذا صار التازي يدبر شؤون قطاعه بكثير من الاستقلالية. وكان لأمين الأمناء بنيقته، كمقر خاص به للعمل بدار المخزن على غرار باقي الوزراء.

شرع التازي في ترتيب مستفادات فاس وفق ما أمر به، وقام بعزل بعض المسؤولين وتنصيب آخرين بدلهم، وذلك ما يتضح من الرسالة التالية: "وبعد فليكن في علم سيادتكم أننا لما شرعنا في الخدمة، وصرنا نتفقد جلاس كل محل، فظهر لنا إبدال جلاس سوق البهائم، فجعلنا فيه الحاج محمد الموفق والحاج أحمد بنونة، وقد ظهرت نجابتهم في المدخول حسبما يصلكم بعد هذا، وكذلك وجدنا فندق الجدل لا نحصل فيه على طائل، فظهر لنا إبدال من وجدنا فيه، وجعلنا مكانهم الأمين الحاج محمد القباچ والحاج محمد أزويتن، وها نحن نرتب الأماكن عن جد إن شاء الله"^(١٤).

وقد ظل منصب أمين الأمناء من اختصاص عائلة التازي. فبعد وفاة محمد التازي عام ١٨٩٠، عين السلطان أخاه عبد السلام خلفا له، وكان بدوره من كبار التجار مع أوروبا، وشغل أمانة بعض المراسي. وقام كسلفه بتوجيه رسائل للأمناء يحثهم فيها على احترام مهامهم، ومن ذلك توبيخه أمناء مرسى العدوتين على تعيينهم ليهودي كقباض لواجبات الأبواب باعتباره مخالف لعوائد وحقوق المخزن الذي لا يسلم هذه الوظيفة إلا للمسلمين^(١٥). ومن الإجراءات المتخذة لترتيب الجهاز المالي، أنه تم تعيين أمناء من بعض قبائل الجنوب لأول مرة بواسطة ظهائر. وأمر السلطان بدفع جميع تعويضات السفر للأمناء الجدد للاتحاق بمقر عملهم. ووجه أوامره لعمال المدن بشد أزr الأمين حتى لا يتعرض لمشاكل أثناء مزاولته لعمله. وخضع الأمناء الجدد للتدريب تحت إشراف نظرائهم المقالين، وكان جلهم في المدن من عائلات غنية ومشهورة مثل الحاج عبد السلام لحلو^(١٦).

ويبدو أن اختيار الأمناء من بين الأغنياء، يرجع إلى أن ثروتهم تشكل ضمانا مادية، تمد الدولة إليها يدها عند الاقتضاء، ولأن يسرهم المادي من شأنه أن يكف أطماعهم في مال الرعية والدولة^(١٧). كما تم اختيار أمناء المراسي والمستفادات من أهل التجارة؛ لأنهم أعرف الناس بالسوق والمبادلات وأكثرهم اتصالا بالأجانب، مما يكسبهم خبرة مالية ودراية في المعاملات لا تتوفر لغيرهم. هذا وقد عين المخزن الحسني في كل مرسى ثلاثة أمناء،

كان هدف السلطان مولاي الحسن من الإصلاح الإداري هو تكوين موظفين مدربين مختارين، يتقاضون رواتب معلومة، ويطبقون قوانين عامة ويخضعون لتنظيم محكم، قصد بناء مؤسسات قادرة على الاضطلاع بالدور المنتظر منها، والضرب بيد من حديد على موظفي الدولة المتهاونين، والقضاء على عوامل الاستبداد والظلم، وسد الفراغ الذي تشكو منه البلاد في بعض الميادين. فقام بتدعيم الوزارات السابقة^(١٨) وتوسيعها مع مراعاة عناصر الكيف والتخصص، كما أنشأ وزارات جديدة.

١- أمانة الأمناء

كان ارتشاء الموظفين وخاصة العاملين في المالية من أسباب عدم فعالية الإدارة، ومن دواعي تذرر السكان. وقد وصف دراموند هاي (Dramand Hay) حالة التلاعب في المراسي بقوله: "...فلا أننا نستغرب في هذا النهب، حيث أن كثيرا من الأمناء لا يتوصلون للخدمة إلا بإبدال الرشاوي لكبير الأمناء وغير الخدام بالحضرة الشريفة، وحيث هذه الرشاوي هي قدر ما يقبضه المهدي والمرتش في ستة أشهر أو نصف ذلك... فلا بد من التأمل كيف يكون دواء هذا... إذ غرض الطرف عن الأمناء يزعم الغير في زيادة الفساد للذين هم عليه"^(١٩). كما هدف المخزن الحسني في ضبط شؤون المراسي، الرفع من مداخيلها والتمكن من تسديد ما تبقى من الغرامة الحربية الإسبانية، وأقساط القرض الإنجليزي. علاوة إلى توفير نفقات للإصلاحات التي باشرها في الميادين الأخرى، وحماية بيت المال من النهب^(٢٠). وكان للمالية ضمن الإصلاحات في فترة مولاي الحسن نظاما خاصا، فأصبحت ذات أهمية واضحة، بإعادة تنظيم جهازه المالي الذي يتولاها "أمين الأمناء".

يياشر أمين الأمناء الأمور المتعلقة بأموال المخزن، ويؤدي النفقات ورواتب المستخدمين والجند والصلوات للأشراف والأعيان وذوي الفاقة ومؤونة دار المخزن. ويقبض بواسطة الأمناء الضرائب المختلفة وأعشار الديوانة والمستفاد وأكرية الأملاك المخزنية، وما ينزع من أموال العمال والقواد من أهل الظلم والغصب^(٢١)، ويراقب السلع ليعلم هل خضعت للضريبة الجمركية أم لا. وبالجمل، فإنه يشرف على بيت المال ويياشر جميع المداخيل والمصاريف للمخزن. ويدخل في اختصاصاته أيضا النظر في تعيين أمناء المراسي والأملاك المخزنية والمستفادات، وفرض مراقبة صارمة عليهم، وهذا ما جعله ينتقل باستمرار لتفقد أحوالهم ويراجع أعمالهم. وكان تعيين مختلف الأمناء في سائر الجهات رهن بإشارته بعد موافقة السلطان^(٢٢).

ونظرا لأهمية منصب المالية باعتباره وظيفة عالية، فإن المخزن كان يولييه يأخذ من المخزن أهمية عظمى، ولا يسند مهمة الإشراف عليه إلا للمقتدر الكفاء من ذوي المروءة والدين والمعرفة. وقد تولى محمد التازي هذا المنصب في سنة ١٨٧٩/١٢٩٦، حيث "أسند إليه أمر خراج المغرب ومراسيه ومستفاداتها وما يتبع ذلك من صوائرها، وفوض إليه في ذلك تفويضا تاما لعلمه وأمانته وضبطه؛ لأنه "من أمثل أهل المغرب

أمنا أيت عياش إلى السلطان في ٢٨ جمادى الأولى ١٨٨٦/١٣٠٣ قائلين: "...فليكن في كريم علمك أن فرقة من أيت عياش إيالة العامل عبد الوهاب اسمهم أيت علي بوبكر، وجب لهم ثلاثة حراك وتعرض لهم العامل المذكور، وأخذ من كل واحد منهم خمسة وثلاثون ريالاً وامتنعهم من الحركة الشريفة، وعليه سيدنا كتبنا لك بهذا، لتكون على بال منه، لئلا يشتكي عليك بفسادهم، وقد أخبرناك لتكون على بال منه، لئلا يقلب لك الحقيقة" (٢٥).

وكان السلطان مولاي الحسن ينوي تعيين أجور للوزراء، إلا أنه كان مقتنعاً أنه حتى ولو فعل ذلك، فلن يقطع دابر الرشوة؛ لأن المسؤولين اعتادوها (٢٦). وقد اعترف السلطان بنفسه، أن الرواتب التي يتقاضاها رجال المخزن لا تكفيهم، وذلك ما نستشفه من كلامه لمحمد بركاش: "وكون سفرك يلزمك في صائره على نفسك فيما لا بد منه الألف ريال في تعداد الكسوى لك، وما يناسب لأصحابك والفراش... وراتبك لا يكفيك لصائر بطنجة فضلاً عن صائر الرباط" (٢٧). وبرر السلطان ضعف الرواتب بقوله: "وما ذكرته من كون راتبك لا يكفيك لصائر... فإننا نعرف ذلك ونعتقد ونحن أولى بمواساتك وإعانتك، وكل ما يعطى لك في محله، لولا أن المخزن اليوم واجب أن يعان ولا يخفك ما نخرجه كل شهر في مشاهرات النجليز والصليون والآلات الجهادية والبناء لها" (٢٨). وبهذا تعددت مهام وأدوار الأمناء، بهدف السهر على مصالح المخزن المركزي المالية وتأمين موارده، وتسهيل مأموريته، وإعلامه بدقائق الأمور الجارية في مناطقهم.

٢- وزارة الأمور البرانية "الخارجية"

يبدو أن وزارة الأمور البرانية تكونت بعد الاتصالات المكثفة والمتصلة مع الدول الأوروبية التي أخذت تتنافس من أجل السيطرة على المغرب. ولتطور مسألة المحميين التي أسفرت عن صعوبات في العلاقات السياسية بينه وبين هذه البلدان، حيث تطاول المحميون على الحكام المخزنيين، وتفاحش أمرهم إلى أن وصلت الحالة إلى درجة كاد أن يتعذر معها تنفيذ أوامر المخزن في الرعية، وبدأ ترامي الأجانب والمحميين على أراضي الدولة، ويشهد على ذلك ما جاء في رسالة السلطان: "فقد بلغنا أن أرض المخزن التي بناحية طنجة وقع الترامي عليها وتناولتها الأيدي من غير موجب، وأن كل من يملك بإزائها خمسين خطوة استولى على مائة وخمسين مما والاها من أرض المخزن، حتى أدى ذلك إلى الاستيلاء على غالبها" (٢٩). وأمام هذا الواقع الجديد ازدادت الحاجة إلى جهاز إداري يعالج هذه القضايا الدبلوماسية، فعجل بتأسيس وزارة الشؤون البرانية سنة ١٨٨٥.

كان من مهام وزير الخارجية مراسلة ممثلي وسفراء الدول الأوروبية والقيام بالوساطة بينهم وبين السلطان (٣٠)، والاهتمام بالجوانب الدبلوماسية والعلاقات مع القوى الأجنبية (٣١)، بوضع الاتفاقيات والمعاهدات معها، وتحرير الرسائل الموجهة إليها، والقيام بدراسة شؤون كل بعثة أجنبية في المغرب (٣٢). كما كان يتلقى الشكاوى والالتماسات من ممثلي الأجانب، ويبلغ إليهم

الأولين أجنيين عن المرسى، والثالث هو الذي يكون من أهل المرسى، ويعملون بمقر يعرف بـ "دار الأعشار" لمراقبة تجارة المغرب الخارجية، وتحصيل الرسوم الجمركية على السلع الصادرة والواردة، والإنفاق مما تجتمع لديهم في مختلف الأوجه، كتسديد ديون الدول الأجنبية على المغرب، وأداء أثمان المشتريات ونفقات الإصلاحات ورواتب الموظفين، وتجهيزات المرسى الضرورية ونفقات المدينة والمناطق المجاورة للمرسى، وتعهد أملاك المخزن والمنشآت العمومية (٣٣). غير أنه لا يسمح لهم بتصدير بعض البضائع مثل الزيوت، كما تم تحديد فترة إباحة تصدير الحبوب. ويتولى أمناء المستفاد الإشراف على جباية الضرائب على التجارة الداخلية وموارد الأملاك المخزنية وتركات من لا وارث له، وفوائد البريد والجزية، وبعض الأعشار العينية وهدايا الأعياد التي يتكلف بها العامل بجمعها وتقديمها للسلطان. كما يتولون أمر تكاليف النهوض بالحركات بشرى عدد من التبن والشعير لعلف الدواب، وصنع الخزائن والبرادع والعدد اللازم من قروش المجال، قدر بألف وخمسمائة قرش (٣٤). ومن المهام المضافة للأمناء في عهد مولاي الحسن الإشراف على تكاليف ونفقات الطلبة الموجهين إلى البلاد الأجنبية، ومن ذلك ما نستشفه في قوله: "وبعد، فقد وجهنا صحبته خمسة عشر من نجباء الطلبة بقصد التوجيه لبر النصرى لتعلم طبجيت والهندسة... كما أمرنا الأمناء أن ينفذوا لهم مدة إقامتهم بطنجة" (٣٥).

وحرص السلطان على اختيار الأمناء من أهل الجد والصدق، ليكونوا مكلفين بقبض المداخل في المراسي، وأمر بعدم تدخل العمال في شؤونهم، وألا تكون وساطة بينهم وبينه. ومنعهم من ممارسة أي نشاط تجاري بالمراسي التي يشغلون بها، وإقرار مرتب شهري لهم، ومن ثبتت خيانتهم يعاقب كالسارق (٣٦). وأحدث مولاي الحسن مصلحة تقوم بتخليص القوائم الواردة من المراسي وغيرها، وتسجيلها بالدفاتر المعدة لها، قصد الاهتمام المتزايد بالسجلات والمستندات والتدقيق في الحسابات ومراقبة صحتها بوسائل مختلفة، لتنظيم الأجهزة المخزنية وتطوير أساليب الضبط الإداري (٣٧). كما قام السلطان بتعيين أمناء جدد على الصعيد المحلي إلى جانب القواد من أجل استخلاص الجبايات، وكانوا يختارون من رجال القبيلة من فئة الأعيان. وكانت مراسلات الأمناء المحليين لا تصل إلى الأمناء المركزيين، وإنما تصل إليه ليفتحها بنفسه إذا ارتأى فائدة ذلك. وكانت أوامر الأمناء المركزيين وملاحظاتهم لا تأخذ طريقها إلى المحليين إلا إذا تمت موافقته عليها، فالكل مسؤول عن تصرفاته أمامه (٣٨). ومن جانب آخر، كان الأمناء يخبرون السلطان بتجاوزات العمال بما يجري في مناطقهم من أحداث وممارسات كيفما كانت أهميتها، ويبدو أن العاهل قد خول لهم هذه الصلاحيات، كما جاء في ظهر تعيين مولاي الحسن بعض الأمناء بقوله: "يعلم من كتابنا هذا... أننا... ألباسنا خدامنا الطالب عبد المالك الزيراوي اليسفي والطالب صالح بن الهاشمي... فالأولون أمناء وعلى كل شاذة وفادة شهداء" (٣٩). ويشهد على ذلك أيضاً ما جاء في رسالة

من مدينة الجديدة إلى مدينة مراكش بقصد التجربة. ثم وضع تخطيطا لتعميمه بين مدن سائر البلاد. ومن التدابير التي قام بها في هذا المجال أن السلطان حدد لحملة البريد الأجرة في حالة القيام بالمهمة بالفعل، وهذا ما يفهم من كلامه: "يكتب (الرقاص) لأمين الرباط بالعدل المانع من رجوع المنهض من قبله ليصير له أجرة الذهاب فقط التي هي نصف أجرته المعتادة للذهاب والإياب، وهو يصير أجرة ذهاب المنهض من قبله بدلا"^(٤١).

كما جعل السلطان لكل مدينة طابعان، أحدهما يطبع به على المكاتيب والآخر يطبع به على الشكارة، ويتخذ الأمناء المأمورين بإنهاض الرقاصين ما يكفيهم من الحقائق الجدلدية، ويصير ثمنها في حساب المكاتيب. ويسجل كل أمين عدد الرسائل الموجه لكل أرض مع الرقاص. وعند تسليمها من طرف أمين آخر، يضع عليها طابعه كدليل على توصله بالمكاتيب^(٤٢). ويدون الأمين الصائر على الرسائل في الحقائق وأجرة حملة البريد. وقد حددت أثمان المكاتيب حسب وزنها، فمثلا إذا كان وزنها نصف أوقية فالثمن هو أقل من ثمان موزونات^(٤٣). ويلزم الأمناء بعد كل ستة أشهر أن يوجهوا تقارير حسابية تتضمن تفاصيل المداخل والمصاريف المتعلقة بالبريد إلى السلطان^(٤٤).

٥- إصلاح الإدارة المحلية

لاشك أن التطورات الاقتصادية والسياسية التي جرت في المغرب خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر - نتيجة الضغوط المالية والاقتصادية الأوروبية المتصاعدة - وما ترتب عنها من انعكاسات سلبية على معاش السكان وبيت المال -، قد أرغمت المخزن على إعادة النظر في هياكل الإدارة المحلية بكيفية تمكنه من الحصول على المزيد من الإيرادات المالية. حيث أخذت الأمور بمجيء السلطان مولاي الحسن تتغير وتتخذ مسارا آخر، بعد أن أدخل على إدارة القبائل عدة إصلاحات، وأعاد تنظيمها على أسس تنطوي على شيء من الجدة. وكانت سياسته في هذا الباب، ترمي إلى تفتيت العصبية القوية وتفريق كلمتها حتى يتسنى للدولة إحكام قبضتها على الرعية، وإخضاعها لسلطتها ونفوذها. ومن جهة أخرى تهدف إصلاحاته المحلية إلى إضعاف نفوذ كبار القواد، والحد من سلطتهم ونفوذهم، ووقف الصراعات بينهم حول مناطق النفوذ^(٤٥)، وتعويضهم بعدد من القواد الصغار. كي يسهل على السلطان مراقبتهم، والضرب على أيديهم كلما استوجب الأمر ذلك، "ونهى القواد عن أخذ أموال الرعية والدعيرة بالمال، وأعلمهم بأن لا يدفع أحد لعامله شيئا إلا عن إذنه"^(٤٦).

ومن أجل وضع حد لتصرفات القواد، قسم مولاي الحسن القيادات القديمة إلى قيادات ثانوية وأحدث قيادات جديدة، فصار التقسيم الإداري للإيالة المغربية موزع على ثلاثمائة قيادة^(٤٧)، وعين عددا من القواد وكلفهم بالوقوف في عين المكان على عملية عد رؤوس الماشية واستخلاص مستحقات المخزن من واجب الزكاة

أجوبة المخزن. ويراسل الممثلين المخزنين المحليين فيما يتعلق بقضايا المحميين، وبكيفية معاملات الأجانب في مناطقهم^(٤٨)، بعد أن صارت الحماية كارثة بعد حرب تطوان. وكانت هذه الوزارة تنظر فيما اغتصب من حقوق المغاربة بالإكراه من طرف الدول الأجنبية كالسرقة^(٤٩) من غير اعتماد لا على نصوص المعاهدات ولا على تشريع مغربي داخلي. وقد عبر مولاي الحسن عن خطر هذا المشهد قائلا: "إن إدارتنا تكاد لا تجد في البلاد من هو باق تحت سلطانها من جراء ما منحتة الدول الأجنبية من حمايات غير مشروعة"^(٥٠).

وتعالج هذه الوزارة مشاكل اليهود داخل المغرب^(٥١)، ويتضح ذلك من خلال معاتبة وزير الأمور البرانية للقائد محمد ويده السوسي على معاملته السيئة لليهود، ووعدهم بأن يكونوا في أمن وأمان باعتبارهم أهل ذمة السلطان، وشدد الوزير على أن السلطان أمره بحسن معاملتهم بمثل ما يعامل به نظرائهم المسلمين^(٥٢). ويتكلف وزير الأمور البرانية، بشؤون القرصنة ومشاكلها أو بقضايا الأسرى وافتكاكهم، وكان هدف هذه الوزارة الدفاع باللسان والقلم وسلوك سياسة التوازن، التي تدور على استغلال التنافس الدولي حول المغرب، ومماثلة نواب أوروبا في مطالبهم. كما تعمل هذه الوزارة على المحافظة على حدود المغرب التاريخية ومقاومة التدخل الأجنبي وتطوير علاقات المغرب مع بعض الدول الأوروبية. ويتأسس وزير الأمور البرانية حفل استقبال سفراء الدول الأجنبية بمعية قائد المشور وعامل البلدة^(٥٣). ويعتبر آخر من يستقبله السلطان من الوزراء.

تولى منصب وزير الأمور البرانية في عهد مولاي الحسن، السيد محمد المفضل غريط، وقد وجاء في ظهير تعيينه ما يلي: "...وقد كلفنا كاتبنا الطالب محمد غريط بمباشرة ما يرفع منها (الرسائل) لحضرتنا الشريفة، وبأجوبة النواب عنها، وخصصناه بذلك اعتناء بشأنها... على أن كتابتهم لحضرتنا الشريفة إنما هي على المحبة والسر، وإلا فالأمور الرسمية المخزنية من وظيفة نائب المخزن بطنجة... والكثير منهم يراعي هذا، ويكتب لحضرتنا الشريفة بتكليف نائب المخزن بطنجة بمباشرة فصل دعاويه"^(٥٤).

٣- تنظيم الكتابة

نظم مولاي الحسن مصلحة الكتابة، وقسمها إلى عدة دواوين، بلغ عددها ستة وجعل على كل واحد منها رئيس له عدة كتبة، منها ما كتابه يبلغون الستين، ومنها ما يبلغون العشرين ففوق، ومنها ما دون ذلك، والجميع في شغل شاغل مما يصدره لهم عن السلطان مولاي الحسن عن نظره ورأيه وأمره^(٥٥).

٤- تنظيم البريد

اتخذ المخزن الحسناني البريد وسيلة لمهامه السياسية والإدارية وجعل له ثمانية خطوط. إذ حاول السلطان أن يرتب البريد المغربي ترتيبا محكما. وشرع في ذلك سنة ١٨٩٢م، انطلاقا

وصار بالبال، فقد وصل الكل، وجد في تحصيل الباقي".^(٥٣) وكان الأمناء والشيوخ يلقون المصير نفسه.

وكان السلطان يتدخل لحماية حدود اختصاصات موظفيه، مثل حل النزاع بين المحتسب البوكيلي وعامل مراكش ابن داود، حيث أمر العامل على عدم التزامي، وكفه عن الدخول في غير ما هو منوط به، وأمره عند الوقوف عند حده والخروج من خطة الحسبة^(٥٤). وبهذه الإجراءات، حاول السلطان أن يضع في أنحاء البلاد قوادا مرتبطين بالسلطة المركزية، وذلك للقضاء على التحركات الفردية، وتوقيف تمرد السكان على المخزن، وتدجين البنيات القبلية حسب استراتيجية مركزية. ويمكننا القول في هذا الصدد أن منصب القائد، هو منصب فيه الالتقاء بين المؤسسات القبلية الجماعية والمؤسسة المخزنية المركزية، فالقائد يحتل نقطة المواجهة بين قوة القبيلة وقوة المخزن.

٦- تكوين الأطر الإدارية

وجد السلطان مولاي الحسن نفسه مجبرا على القيام بإصلاح التعليم من أجل الحصول على موارد بشرية قادرة على تنفيذ إصلاحاته، بتزويد الإدارة المركزية والمحلية بأطر تساهم في تحقيق تسيير جيد لها ومواجهة ضغوط أجنبية. ومن أجل ذلك أسس المدرسة الحسنية بطنجة سنة ١٨٧٥م ليتلقى فيها الطلبة مواد الحساب والهندسة والتنجيم والجغرافية واللغة العربية ولغة أجنبية والمبادئ الدينية الأولية. بعد أن أصبحت الحاجة ماسة إليها لنجاح البعثات التعليمية إلى الخارج، وخاصة أوروبا، قد أنشأت هذه المدرسة بقصد استيعاب المتدربين لخبرة يحددها المخزن. وكان طلبتها يختارون من نجباء التلاميذ، وتتراوح أعمارهم بين ١٥ و ١٨ سنة. وقد اعتنى مولاي الحسن بالهندسة وبالعلوم الحربية، سواء في الدروس المنتظمة في جوامع الحواضر أو في المراكز بالشغور أو في مدرسة الهندسة بفاس التي عدد طلبتها يتراوح ما بين ٤٤ و ٥٨ طالبا تجري عليهم مراتب يومية^(٥٥). ودعا السلطان إلى "نشر- التعليم في الأرياف حتى لا تبقى أي قرية دون أن يكون فيها معلم يعلم أولادهم ويفقههم دينهم"^(٥٦).

ويختار السلطان المدرسين الأكفاء، ويشهد على ذلك كلامه: "وبعد فإن الطالب السيد عبد السلام... من أنجب الطلبة وأجودهم فهما وأوثقهم ذهنا...وقد تذاكرت معه مرارا في عدة فنون، واختبرته في مسائل عويصات فيحسن في الجواب...وقد شرع في التدريس وتعليم العلم بمسجد القرويين...فهو ممن ينبغي أن يسهم له من المرتب الشهري والصلة المولوية، كأمثاله من المدرسين"^(٥٧). وبالمقابل لا يقبل السلطان ترقية المدرس من مرتبة إلى أخرى إلا باستحقاق، ويشهد على ذلك قوله: "فإن الطالب ابن سودة ذكر أن أحد ولديه استحق الكون في المرتبة الثالثة من مراتب الفقهاء، وأن بيده شهادة بذلك...فإن استحق الولد المذكور المرتبة المذكورة فأنقله إليها، وإن استحق الآخر زيادة في مرتبه فزده له ما يقبضه أمثاله"^(٥٨). ووضع السلطان

والأعشار والغرامات، فمثلا قسم سوس تقسيما إداريا انبنى على تعيين عدد من القواد، حيث عين على كل فخدة أو فرقة صغيرة من قبيلة قائدا أو خليفة، فعين مثلا على "هواره" وحدها ١٠ قواد^(٥٨). وتضمن إصلاح الإدارة المحلية ممثلين مختلفين من حيث انتمائهم القبلي ومصدر اختيارهم. وأسند لوفود القبائل اختيار القواد والشيوخ، بينما تولى السلطان إصدار ظهائر التولية لتحديد سلطة ممثلي المخزن المركزي بالقبيلة.

وينقل السلطان نفس القائد من منطقة إلى أخرى لمصلحة معينة. ومن ذلك أنه عزل قائد الدار البيضاء محمد بن إدريس الجراري، وولى مكانه عبد الله بن قاسم حصار السلاوي، ثم كتب إليه السلطان وعينه على الجديدة قائلا: "خدعنا الأرضي الطالب محمد بن إدريس الجراري...فقد أعفيناك من ولاية الدار البيضاء ووليناك على الجديدة، ولم نزلك عنها سخطا لسيرتك ولا هضما لجانب خدمتك، وإنما اقتضت المصلحة ذلك تقدما للأهم فالأهم، وأنت منا وإلينا ودارك دار الخدمة والصالح فلا نسلمكم ولا نفتكم ولا نهضم لكم جانبا"^(٥٩). وكان السلطان يختار القواد من ذوي الرأي السديد، ويتضح من رسالته بقوله: "وقد نصبنا قائدا من قواد جيشنا السعيد، مختارا من ذوي الرأي السديد، وأقمناه بقصبة تزينت محل المخزن في القديم، بقصد أن يكون إغاثة لسائر عمال القطر السوسي"^(٦٠).

كما تخلى مولاي الحسن عن السياسة المتبعة زمن أبيه، والتي كانت تقتضي إبدال العمال كلما ثارت عليهم قبائلهم، لما تنطوي عليه من تشجيع للقبائل على التمرد، والنسج على منوال جده عبد الرحمان الذي كان يرفض الرضوخ لطلب القبائل الملحة على تبديل عمالها للمحافظة على هيبة المخزن^(٦١). وقد حاول السلطان وضع حد لتمرد الرعية على القواد لجعلهم في مأمن من أي اعتداء أو قهر. فيقوم بذلك بواسطة "الحركة". ومن ذلك إلقاء القبض في ذي الحجة سنة ١٢٩١/١٨٧٤ على مائتين وثمانين شخصا من أولاد أبي السباع الذين خرجوا عن القائد العربي الرحماني، وأرغمهم السلطان على أداء ستين ألف ريال ذعيرة لهم على التمرد وإيقاد نيران الفتى، ولم يسعهم إلا بيع ماشيتهم بأبخس الأثمان وأدائهم هذه الغرامة^(٦٢).

وكان السلطان يصادر ممتلكات القواد وثوراتهم سواء عند نكبتهم أو هلاكهم، وفي هذه الحالة يجرّد القائد من الأراضي التي كانت تسندها إليه القبيلة عند ولايته، وينزع منه جميع ما جمعه من أموال طيلة حكمه. إذ كان السلطان يعتبر أن ما يوجد في ملك القواد من أموال وثورات هو في النهاية ملك لبيت المال. وإن كان جل القواد يلجؤون إلى إخفاء ثروتهم بوسائل شتى، كشراء الذهب والمسكوكات وإخفائها في باطن الأرض أو توزيع قطعان الماشية على أقاربهم وشركائهم، كلما أحس القائد بقرب تحيته. ومما يشهد على ذلك ما يلي: "وبعد، وصل كتابك جوابا عما أمرت به عن الأمر الشريف من البحث من متروك الحسن البومدمادي، بأنك بالغت في البحث عنه حتى حضر- لديك من بهائم ما قيده طرة كتابك، وما تحصل لديك توجيهه،

الأوتار الحساسة، فحرك وتحرك، رغب في التجديد، وحاول في الوقت نفسه إبقاء الوضع على ما هو عليه. فكانت وفاته إيذانا بضيق مختلف أوراق لعبه، التي لم يكن ممكناً أن يجيد لعبها أحد سواه، وقد بني فأحسن البناء ولكن لسان الحال ينشد: أرى ألف بان لا يقوم بهادم فكيف بيان خلفه ألف هادم^(٦٣)

توفي مولاي الحسن سنة ١٨٩٤م تاركا في دهن المغاربة سمعة سلطان استطاع أن يبقي سلطة المخزن، وأن يصون وحدة المغرب واستقلاله، مساعدا على دعم أسس الإدارة المركزية وعلى ظهور إرهابات بيروقراطية جديدة، وإطلاق برنامج التحديث وبداية مغرب جديد. وشكلت وفاته، الحدث الذي كان وقعه شديداً على السكان. كما أكد السباعي بقوله: "فنزلت بالناس مصيبة وأي مصيبة، وما أدراك ما المصيبة، في عظمها مصيبة حلت بالناس عند هجوم ذلك البأس"^(٦٤). أما الأوروبيون، فقالوا عن نهاية حكمه، إنها منظر غروب شمس جميل ومؤثر^(٦٥). وبوفاة مولاي الحسن اتسع الخرق على الراقع^(٦٦). وهذا الخرق توسع عهد الوزير الصدر أحمد بن موسى.

خاتمة

يمثل عهد السلطان مولاي الحسن أهمية كبيرة في النظام الإداري المركزي لأنه شهد انخراط المغرب في برنامج عهد إصلاحي جديد في الميدان الإداري والإقبال على حضارة الغرب. فقد شرع السلطان في تشكيل "إدارة حكومية" لها صفات تختلف اختلافاً واضحاً عن تلك التي كانت قائمة فيما قبل توليته. فتطور الجهاز المركزي من جهاز بسيط مكون من السلطان ووزير واحد، كان بمثابة معين له في أشغاله، إلى جهاز أكثر تعقيداً، يتركب من عدد من الوزراء بإنشائه وزارات جديدة. فشهد الجهاز المخزني بداية التخصص مع انفتاح البلاد أكثر على العالم الخارجي خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر، فكان مولاي الحسن بذلك العمل واضع أساس الحكومة الحديثة في المغرب، ومنظم إدارة البلاد، فوصف بالمجدد الحقيقي للتنظيم المخزني.

وقد تطلب هذا التغيير توسيع وتنويع مصادر تطعيم النخبة المسيرة لشؤون الدولة. فعرفت القاعدة البشرية تغييراً في هذا العهد، وذلك من خلال الانفتاح على الحضريين الذين تزايد عددهم، وتدعم نفوذهم داخل المخزن، ممثلين في العلماء والفقهاء والعدول، والتجار المتعودين على التعامل مع الأوروبيين والمستأنسين بالقضايا الاقتصادية والمالية. وظهر على المسرح وزراء وكتاب وقواد ينحدرون أساساً من طنجة والرباط وسلا ومراكش، علماً أن الأصول الاجتماعية والجغرافية للنخبة، كانت قبل ذلك من مكناس أو من تطوان أو من فاس.

ولم تكن لهذا الجهاز المخزني رواتب قارة. غير أنه يستغل انتماءه من قريب أو بعيد للبلاد، ليعيش كما يحلو له في البلاد مستغلاً حظوته وجاهه بشتى السبل ومختلف الوسائل. ورغم وجود الوزراء فإن دورهم لم يكن يتعدى مهمة تهيئ القرارات أو

رهن إشارة جامع القرويين مجموعة من الكتب، وأمر بفتح متجر في مراكش للإشراف على توزيع الكتب، كما أمر سنة ١٨٨٢م بطبع نسخ عديدة من كتاب "إتحاف السادة المتقين بشرح أسرار إحياء علوم الدين للغزالي"، لمؤلفه مرتضى-الزبيدي^(٥٩).

وعمل السلطان على توجيه بعثات طلابية إلى أوروبا لدراسة بعض الفنون العصرية وتعلم اللغات الأجنبية، ف"لما نظر إلى الأمم الراقية وما أفادها العلم الرياضي والطبيعي من القوة والسلطان والتفوق على الأقران في معتك الحياة، فعضد إرساله الشبان المتخرجين من مدرسة والده، وتوجهوا لعواصم أوروبا لتتيمم دروسهم، فعين لكل فريق رجلاً من أهل الدين والعلم لمرافقتهم وصيانتهم وأجرى عليهم النفقات الكافية. ولما زاولوا دروسهم وملؤوا بكل نافع حقائبهم يمموا بلادهم لبيتوا فيها ما ينفع مستقبلهم، فلم يعدموا معاكسا وقف في سبيلهم وحرّم البلاد والعباد ما كان يرجى من فوائد معارفهم بفتح المدارس وسلوك هذا السبيل، كما سلكه اليابان لذلك العهد الذين رافقهم في دروسهم، فكانت النتيجة أن تقدم اليابانيون وتأخرنا، والله في خلقه شؤون"^(٦٠).

وقد توجه الطلبة على نفقة المخزن لأوروبا لإكمال دروسهم متفرقين في مدارس إنجلترا وفرنسا وألمانيا وإيطاليا وإسبانيا. لكل واحدة منهن بعثة تشتمل على ثلاثة طلبة، مثلاً، في إنجلترا محمد الجباص، الزبير السكيج، الحاج إدريس بن عبد الواحد الشاوي. "وكل بعثة منهم رجعت للحضرة الشريفة بعد أخذها من لغة الأمة التي ذهبت للتعلم بمدارسها، وتلقي الدروس الرياضية عندها، وكان مكوثهم هنالك نحو خمسة أعوام"^(٦١). كما وجه الطلبة إلى مصر. إذ وفرت حملات الإصلاح بكل من تركيا ومصر، شروط بروز فكرة الإصلاح في المغرب، وقررت أجهزة المخزن ممارستها، وقد نبغ الطلاب المغاربة بمصر. مثل الطالب عبد السلام العلمي الذي حصل على إجازة في الطب من المدرسة المصرية بقصر-العيني بالقاهرة، بشهادة عميد المدرسة سنة ١٨٧٤/١٢٩١ قائلا: "إني منذ كلفت بتعليم علم الطب بدمشق المحمية قبل مجيئي إلى المدرسة الخديوية المصرية... لم أجد أحداً اشتغل بغيره شديدة وطريقة مستمرة حميدة مثل هذا الطبيب التحرير الذي هو من المدح جدير... وإني لأشكر صائب الرأي السلطان مولاي الحسن... أن عمت منفعة هذه المعارف العلمية والعملية... ومن حظي الأوفر أني اجتمعت مع هذا الطبيب الماهر، فوجدته في العلم والعمل وجيدا وفي المعارف بالنسبة لأقرانه فريدا"^(٦٢). ويتضح أن إصلاح التعليم في المغرب كان من الضروريات للتماشي مع الإصلاحات في المجالات الأخرى خاصة الجيش والإدارة، وضرورة تجاوز الركود الذي عرفه هذا الميدان ومسايرة العصر. فكان الهدف تكوين طلبة يشتغلون في مرافق الدولة حسب خبرتهم.

وبالجملة، سعى مولاي الحسن إلى كسب كل شيء دفعة واحدة، فكثف من خيوط الضبط وأزرار الضغط، ولعب على كل

الهوامش:

- (١) أحمد بن خالد الناصري، الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى، مطبعة دار الكتاب، الدار البيضاء، ١٩٥٦، ج ٩ ص ٥٣.
- (٢) محمد الأمين البزاز، تاريخ الأوبئة والمجاعات بالمغرب في القرنين ١٩ و ١٨، منشورات كلية الآداب بالرباط ١٩٩٢، ص ١٢١.
- (٣) السلطانين: مولاي عبد الرحمان ومحمد بن عبد الرحمان.
- (٤) السباعي، محمد بن إبراهيم، البستان الجامع لكل نوع حسن وفن مستحسن في عد بعض مآثر السلطان مولانا الحسن، تحقيق، أمنصور محمد، أطروحة لنيل الدكتوراه في التاريخ، إشراف محمد الأمين البزاز، كلية الآداب، الرباط، ٢٠٠٢، ص ٤٩٥.
- (٥) انتقد العلماء النظام الإداري وحددوا عيوبه ومكامن الفساد والضعف فيه والمتمثل في الاعتماد على أطر لا تتمتع بالكفاءة الضرورية لتسيير البلاد، من ذلك ما قاله العراقي في فتواه: "فهذا عين الصدق التي ذكرناه وفيه فوائد لا تخفى من جملتها أن الأمير ومن يلوه به ينبغي أن يعتنوا بإصلاح الناس ظاهراً وباطناً لأن الغلبة إنما هي بذلك... وليست بجمع الأموال ولا بالمخالفة لما جاء به سيد المرسلين..."، أوردتها لطيفة بناني سميرس، مرجع سابق ص ١٩١. انظر كذلك موقف الحراق من الولاة، داود، تاريخ تطوان، ج ٦، ص ٣٢٩.
- (٦) قام السلطان عبد الرحمان بن هشام بإحداث دار النيابة بطنجة، وقام محمد بن عبد الرحمان بإنشاء وزارة الحرب، ووزارة الشكايات.
- (٧) خالد ابن الصغير، المغرب وبريطانيا العظمى في القرن التاسع عشر، منشورات كلية الآداب الرباط، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء ١٩٩٧، ص ٤٢١.
- (٨) AUBIN (Eugène), Le Maroc d'aujourd'hui, Armand colin, Paris, 1908, P.203.
- (٩) عبد الحميد بنشهو، النظام الإداري بالمغرب، مطبعة الأمنية، الرباط، ١٩٨٩، ص ٢٧.
- (١٠) عبد الرحمان ابن زيدان، العز والصولة في معالم نظم الدولة، المطبعة الملكية، الرباط ١٩٦١، ص ٢٧٣.
- (١١) الناصري، الاستقصاء...، مصدر سابق، ج ٩، ص ١٦٦.
- Miége, Jean Louis, Hassan 1(er)(1836-1894) et la crise marocaine au XI X(ème) siècle, p 278.
- (١٣) عبد العزيز الخمليشي، جوانب من الحياة التجارية بالمغرب في القرن التاسع عشر (١٨٥٦-١٨٩٦) المخزن والضرائب المفروضة على التجارة الداخلية، مكوس الحواضر، دبلوم الدراسات المعمقة، إشراف جرمان عياش كلية الآداب الرباط، ١٩٨٩، ص ٢٦٤.
- (١٤) رسالة من الأمين محمد التازي إلى موسى بن أحمد سنة ١٨٧٤، أوردتها الخمليشي، جوانب...، مرجع سابق، ٢٦٤.
- (١٥) رسالة بتاريخ ١٦ رجب ١٣١٦ / ٣٠ نونبر ١٨٩٨، وثائق ونصوص، رسائل شريفة، محمد نهليل، إعداد وتقديم الجيلالي العدناني وعبد الرحيم بنحادة، كلية الآداب الرباط، مطبعة أبي رقراق، الرباط، الطبعة الأولى ٢٠١٣، ص ١٨٠.
- (١٦) نفسه، ص ٥٣-٥٩.
- (١٧) AUBIN (Eugène) , Le Maroc d'aujourd'hui, 5(ème) édition, Armand colin, Paris, 1908. P. 203.
- (١٨) التوزاني، الأمناء...، مرجع سابق، ص ٨٨-٩٣.

تحضير مشاريع الظواهر للسلطان، وتسيير شؤون وزارتهم في إطار محدود والاكتفاء بتقديم النصح والمشورة متى خوطبوا في شأنها في ميدان تسيير شؤون المخزن. إذ أن ما يصدره الوزراء يبقى بغير قيمة تذكر ما لم يصادق عليه السلطان بختمه، ليظلوا جماعة مختارة من طرفه، وتظل في محطة التحليل مشكلة من مجموعة من الخدم. كما تدل على ذلك ديبايج مختلف الرسائل السلطانية الموجهة إلى أعضاء الجهاز المخزني بمختلف مراتبهم ووظائفهم، والذين عليهم الامتثال لسلطاته المتداخلة والمركبة، ويتبعونه أينما حل وانتقل، وينفذون أوامره وإخباره بذلك. وكان رجال المخزن يحملون ألقاباً مختلفة ومتعددة، لكنهم يجتمعون في لقب واحد يشملهم جميعاً، وهو لقب "الخدم" الذي يتواتر ذكره في جميع المراسلات الرسمية التي تبدأ بخديمتنا أو بخدامنا. أما المحاولات الإصلاحية، فلم تحقق الأهداف المتوخاة منها وكانت معظم نتائجها سلبية نظراً لغياب تغيير شمولي لبنيات المجتمع المغربي الاقتصادية والاجتماعية والثقافية. فالإصلاح كان بعيداً كل البعد عن المجتمع، فظل في دائرة المخزن بالدرجة الأولى للدفاع عن حكمه ونظامه السياسي واستقلال بلاده. ولم تكن هذه المبادرات الإصلاحية كافية لبلوغ مستوى الإصلاح العميق والشامل، ولم تهتم كل الفئات الاجتماعية التي لم يحصل لديها وعي بالإصلاح وأهميته. كما أن إمكانيات الإصلاح في هذا الظرف كانت ضعيفة في حقبة تاريخية كان ميزان القوة العسكرية والاقتصادية بين العالم الإسلامي والعالم الأوروبي، قد مال لصالح هذا الأخير. الشيء الذي أدى إلى عرقلة السياسة الإصلاحية في المغرب. وعلى العموم، يمكن اعتبار تجربة مولاي الحسن منطلقاً لبروز فكرة الإصلاح في مغرب ما قبل الاستعمار. وبالتالي، ألا يمكن اعتبار عدم استفادة المغرب من محاولات الإصلاح التي قام بها هذا السلطان من باب الفرص الضائعة في تاريخ المغرب؟

- (٤٦) محمد بن مصطفى المشرفي، **الحلل البهية في ملوك الدولة العلوية وعد بعض مفاخرها غير المتناهية**، دراسة وتحقيق بوهليلة إدريس، رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا في التاريخ، تحت إشراف إبراهيم حركات، الرباط، ١٩٩٣ ج ٢ ص ١٠٧.
- (٤٧) الهادي الهروي، **القبيلة الإقطاع والمخزن، مقارنة سوسيولوجية للمجتمع المغربي الحديث (١٨٤٤-١٩٣٤)**، إفريقيا الشرق، المغرب، ٢٠٠٤ ص ٧٨.
- (٤٨) أحمد العلمي "حركتا السلطان المولى الحسن إلى سوس"، ندوة **الإصلاح والمجتمع في القرن التاسع عشر**، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ١٩٨٦ ص ٥٦.
- (٤٩) رسالة سلطانية في ٢٣ ربيع الأول ١٢٩٣، أوردها الناصري، **الاستقصا...**، مصدر سابق، ج ٩ ص ١٥٠.
- (٥٠) رسالة من السلطان ميم شعبان ١٢٩٩/١٨٨٢، المشرفي، **الحلل...**، مصدر سابق، ص ٢٩٤.
- (51) LAROU (Abedellah), **Les origines sociales et culturelle de nationalisme marocaine**, Ed. centre culturel Arabe, 1993. P.158.
- (٥٢) ابن زيدان، **إتحاف...**، مصدر سابق، ج ٢ ص ١٨٨.
- (٥٣) رسالة من أحمد بن موسى، بتاريخ ١٢ ربيع الثاني ١٣١٢، أوردها أكيننج، **أثر...**، مرجع سابق، ص ٢٧٣.
- (٥٤) الشايب، **النخبة...**، مرجع سابق، ص ٤٧.
- (٥٥) محمد حجي، **جولات في تاريخ المغرب**، دار الغرب الإسلامي، بيروت ١٩٩٥، ص ٢٢٨-٢٢٩.
- (٥٦) ابن زيدان، **العز...**، مصدر سابق، ج ٢ ص ٢٧.
- (٥٧) نفسه، ص ١٨٧.
- (٥٨) رسالة في ٢٧ ربيع الأول عام ١٨٧٣/١٢٩٠، أوردها ابن زيدان، **العز والصولة**، مصدر سابق، ج ٢ ص ١٨٧.
- (٥٩) عبد الرزاق، فوزي، **تاريخ الطباعة بالمغرب (١٨٦٥-١٩١٢)**، تعريب خالد بن الصغير، منشورات كلية الآداب الرباط، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط ١، ١٩٩٦، ص ١٦٠.
- (٦٠) ابن زيدان، **إتحاف...**، مصدر سابق، ص ٤٣.
- (٦١) نفسه، ص ٤٦٦.
- (٦٢) عبد الهادي، التازي، **التاريخ الدبلوماسي للمغرب**، المعهد الجامعي للبحث العلمي، مطبعة أكادال، الرباط، ١٩٧٠، ص ٢١٨.
- (٦٣) كنون، **النبوغ...**، مرجع سابق، ص ٢٧٣.
- (٦٤) السباعي، **البستان...**، ج ٣، م، س، ص ٥٦٠.
- (65) J, caillé, op.cit. p 7.
- (٦٦) الطيب، بياض، **المخزن الضريبة والاستعمار، ضريبة الترتيب ١٨٨٠-١٩١٥**، إفريقيا الشرق ٢٠١١، ص ١٠١.

- (١٩) ابن زيدان عبد الرحمان، **إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس**، المطبعة الوطنية، الطبعة الأولى، الرباط ١٩٣٠، ج ٢، ص ١٦٢.
- (٢٠) رسالة من مولاي الحسن إلى محمد بركاش بتاريخ ٢٥ رجب ١٢٩٢/١٨٧٥، أوردها المنوني، **مظاهر...**، مرجع سابق، ج ١ ص ١٠٧.
- (٢١) ابن الصغير، **المغرب...**، مرجع سابق، ص ٣٩٨.
- (٢٢) أحساين عبد الحميد، **الإدارة المركزية الفرنسية بالمغرب ١٩١٢-١٩٣٩**، أطروحة لنيل دكتوراه الدولة في التاريخ، إشراف إبراهيم بوطالب، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، ٢٠٠٥، ص ٣٩.
- (٢٣) نفسه، ص ٢٩٢.
- (٢٤) رسالة بتاريخ ١٣٠٢/١٨٨٥، التوزاني، **الأمناء...**، مرجع سابق، ص ٤٩.
- (٢٥) العربي أكيننج، **آثار التدخل الأجنبي في المغرب العربي على علاقات المخزن بالقبائل في القرن التاسع عشر**، مطبعة أنفو برانت، فاس ٢٠٠٤، ص ٢٨٥.
- (26) Miège, (Jean Louis), **le Maroc et l'Europe (١٨٣٠ - 1894)**, TOME 4, P.U.F, Paris, 1962 P.247 .
- (٢٧) رسالة من مولاي الحسن إلى بركاش بتاريخ ١٤ ربيع الأول ١٢٩٧/١٨٨٠، ابن زيدان، **إتحاف...**، ج ٢ ص ٤٨١.
- (٢٨) نفسه، ص ٤٨١.
- (٢٩) رسالة السلطان إلى محمد بركاش، بتاريخ ٢٠ جمادى الأولى، بوشعراء، **الاستيطان...**، مرجع سابق، ص ٤١٨.
- (30) LAHBABI (Mohamed), **Le Gouvernement Marocaine à l'aube du XXé siècle**, collection des centres des études judidiques du maroc, édition technique nord Africaines, Rabat, 1957. .p 37.
- (٣١) أحساين، **الإدارة المركزية...**، مرجع سابق، ص ٣٤.
- (٣٢) ابن زيدان، **العز...**، مصدر سابق، ج ١، ص ١٢٩.
- (٣٣) مصطفى الشايب، **النخبة المخزنية في مغرب القرن التاسع عشر**، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية الرباط، مطبعة فضالة، المحمدية، ١٩٩٥، ص ٣٣.
- (٣٤) مديرية الوثائق الملكية، محفظة ٢، رسالة، بتاريخ ١٢٨٠/١٨٦٤، من عبد القادر أشعاش إلى النائب السلطاني محمد بركاش حول نازلة سرقه أحد النصارى بتطوان.
- (٣٥) المنوني، **مظاهر...**، مرجع سابق، ص ٥٧.
- (٣٦) مديرية الوثائق الملكية، محفظة ٢، بتاريخ ذي القعدة الحرام عام ١٢٨٠ / ١٨٦٤، حول قضية الحاج الطيب بوهلال الذي اشترى دار اليهودي، وتبين الرسالة أن هناك شبهة في الموضوع.
- (٣٧) وثيقة مؤرخة في ٧ جمادى ١٣١٠/١٨٩٣، أوردها ابن زيدان، **إتحاف...**، ج ٢، ص ٣١٠.
- (٣٨) ابن زيدان، **إتحاف...**، مصدر سابق، ص ٢٩٨.
- (٣٩) المنوني، **مظاهر...**، مرجع سابق، ج ١، ص ٣٥.
- (٤٠) السباعي، **مصدر سابق**، ص ٣٦٥.
- (٤١) ظهير مؤرخ ب سنة ١٣١٠ الموافق ١٨٩٢، رسائل شريفة، ص ١٦٨.
- (٤٢) المنوني، **مظاهر...**، مرجع سابق، ج ١ ص ٩١.
- (٤٣) نفسه، ص ٩١.
- (٤٤) نفسه، ص ٩٢.
- (٤٥) الصراع بين عامل تازة ابن البشير والقائد عبد الرحمن الزراري، إذ كانت بينهما المنافسة والعداوة والبغضاء بالغة منتهاها، يطمع كل واحد منهما في ضم حكومة الآخر لحكومته، ويرى كل أن الأحق والأولى بالتفرد بالرياسة. انظر ابن زيدان، **إتحاف...**، ج ٢، ص ١٨٧.

تهريب الكيف في المغرب خلال فترة الحماية

١٩١٢ – ١٩٥٦

محمد عبد المومن

أستاذ التعليم الثانوي التأهيلي
ماجستير في تاريخ وحضارة الأندلس
تطوان - المملكة المغربية



ملخص

كان تعاطي الكيف شائعاً في المغرب خلال القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، لكن فرض الحماية سنة ١٩١٢، وتقسيم البلاد إلى منطقتي نفوذ واحدة فرنسية وأخرى إسبانية، ورغبة السلطات الاستعمارية في تقنين في زراعة الكيف وتعاطيه، أفرز واقعاً جديداً حيث تكشف الوثائق الصادرة عن أجهزة المراقبة الاستعمارية، على أن السلطات الفرنسية نجحت في القضاء على زراعة القنب الهندي، وعلى أن السلطات الإسبانية حاولت الاستفادة من هذه الزراعة الممنوعة قانونياً، مما أدى إلى ظهور عصابات متخصصة في تهريب الكيف من مناطق زراعته في منطقة الحماية الإسبانية، إلى مناطق حيث يدر بيعه مداخيل هامة، وخصوصاً في مدن فاس والدار البيضاء. وقد كان المهربون خلال سنوات الثلاثينيات والأربعينيات ينقلون كميات صغيرة على ظهورهم أو على ظهور الدواب، لكن عقد الخمسينيات شهد تطورات كبيرة على مستوى الكميات المهربة، والوسائل المعتمدة، كما أصبح المهربون يحملون أسلحة نارية، منها مسدسات آلية ورشاشات. وكان من الطبيعي أن يخلف تهريب الكيف نتائج مهمة، على المستويين الاقتصادي والاجتماعي، لكن النتائج الأخطر، كانت على المستوى السياسي والأمني، حيث أن اقتران تهريب الكيف بتهريب السلاح، أدى إلى زعزعة الأمن في بعض المناطق التي تشكلت فيها عصابات إجرامية مسلحة، وإلى تزويد المقاومين المؤمنين بالعمل المسلح بما يحتاجون إليه من أسلحة، وبذلك ازدادت عمليات المقاومة وأصبحت أكثر خطورة وتهديداً لمصالح الاستعمار الفرنسي.

كلمات مفتاحية:

القنب الهندي، الحماية الفرنسية، زراعة الكيف، عصابات التهريب

بيانات المقال:

تاريخ استلام المقال: ١٣ ديسمبر ٢٠١٧
تاريخ قبول النشر: ٢١ مارس ٢٠١٨

DOI 10.12816/0052958

معرف الوثيقة الرقمي:

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

محمد عبد المومن. "تهريب الكيف في المغرب خلال فترة الحماية (١٩١٢ - ١٩٥٦)". - دورية كان التاريخية. - السنة الحادية عشرة - العدد الأربعون: يونيو ٢٠١٨. ص ١٠٦ - ١١٣.

مقدمة

يلفها الغموض، ولا توجد بخصوصها معلومات ولا إحصائيات دقيقة، ومنها التهريب الذي نعهده ظاهرة متجذرة في تاريخ المغرب.

وإذا كان الدراسات الاجتماعية قد تناولت مكونات المجتمع المغربي، من فلاحين وصناع، ونخب حضرية وقروية، والتحولت التي طرأت عليها خلال سنوات الحماية، فإنها قد أغفلت عناصر اجتماعية أخرى كاللصوص والعيارين والمهربين. وفي هذا الإطار، ارتأيت أن أركز في هذه المساهمة على زراعة وتهريب الكيف في الفترة الممتدة ١٩١٢ إلى سنة ١٩٥٦، في محاولة لفهم التحولات التي طرأت على زراعة الكيف، وللوقوف على بدايات تهريب

نشرت في السنوات الأخيرة العديد من الأبحاث والمقالات التي تناولت جوانب مختلفة من تاريخ الحماية الفرنسية والإسبانية في المغرب، مع تركيز واضح على ما هو الجانب السياسي وبدرجة أقل على الجوانب الاقتصادية والاجتماعية، إلا أن جوانب أخرى لا تزال في حاجة جهود إضافية. فإذا كانت بعض الدراسات قد ركزت على الجانب الاقتصادي، فقد اقتصر على الاستغلال الفلاحي والمعدني، إلا أن هناك قطاعات اقتصادية

مهربا للسجائر والمخدرات قبل أن يتسلسل السلم الاجتماعي ويصبح أحد أركان نظام فرانسيكو فرانكو.^(٢)

لكن وثائق نيابة الشؤن الأهلية تكشف على السلطات الإسبانية، كانت تتعامل مع زراعة القنب الهندي وتهريب الكيف بمنظور نفعي مصلحي، ففي تقرير أعده القسم السياسي في النيابة السالفة الذكر، بتاريخ ١٩٣٩/٩/٢٠ فإن المندوب السامي أمر بتشديد المراقبة على السلع المهربة من المنطقة الفرنسية، لأنها تتسبب في خروج العملة الإسبانية لكنه في المقابل أمر بغض الطرف عن المنتجات المحلية، التي تهرب نحو المنطقة الفرنسية وخصوصاً المنتجات التي تزيد عن حاجة السكان وتلك التي تسبب المشاكل.^(٣) وفي الصفحة الثالثة من نفس التقرير، نجد ما يلي: "الشركة المحتركة للتبغ لا تريد شراء كميات أخرى من الكيف، وبالتالي يسمح للكتامين والسداتيين بزراعته وتسويقه ولكن بشروط محددة، ورغم أنه ممنوع في المنطقة الفرنسية، ولكن يجب السماح لمواطني منطقنا بتصديره إلى خارجها وخصوصاً إلى الأسواق الموجودة قرب الحدود".^(٤)

أما في المنطقة الفرنسية فقد صدر أول نص قانوني يوطر زراعة وتجارة الكيف في سنة ١٧ نونبر ١٩١٩، وقد جاء فيه: "لا يمكن لأحد أن يباشر زرع الكيف في المنطقة الفرنسية من إيلالتا الشريفة قبل نيله الرخصة بذلك من إدارة صاكة الدخان"^(٥) وفي ١٢ نونبر ١٩٣٢ صدر ظهير جديد تم تغييره بتاريخ ١٨ فبراير ١٩٣٧ وقد نص هذا الظهير في بنده الأول: "شراء وصناعة وتسويق التبغ والكيف، تحتكره بشكل حصري الشركة الممنوح لها حق الاحتكار إلى غاية نهاية عقدها، وهي الآن الشركة العالمية للتبغ".^(٦) أما بخصوص زراعة القنب الهندي فقد جاء في البند ٤٣ من نفس الظهير: "إن زراعة القنب الهندي المخصص لإنتاج الكيف ممنوع بصفة كلية، في منطقة الحماية الفرنسية من الإمبراطورية الشريفة، لكن يمكن لشركة التبغ أن تزرع القنب الهندي لحسابها الخاص، ووفق احتياجاتها عن طريق منح تراخيص خاصة لبعض المزارعين الذين تختارهم الشركة".^(٧) (٨) وقد استمر العمل بهذه القوانين إلى آخر سنوات الحماية، كما أن السلطات الفرنسية كانت تصدر بين الحين والآخر نشرات ودوريات، تؤكد على تسويق الكيف وتعاطيه كما أنها تعاملت مع مهربي الكيف بصرامة وقسوة.^(٩)

٣/١- مناطق زراعة القنب الهندي في المنطقة الإسبانية:

يتبين من خلال الوثائق التي أتوفر عليها تتبين أن زراعة القنب الهندي، كانت خلال فترة الحماية الإسبانية على شمال المغرب منتشرة في منطقتين -مع ترجيح وجود منطقة أو مناطق أخرى - وهاتان المنطقتان هما:

١- قبليتي الحوز الممتدة شمال مدينة تطوان، وقبيلة بني حزم الممتدة إلى جنوبها، حيث ورد ذكرهما في مجموعة من الوثائق من بينها تقرير أعدته المفتشية العامة للمراقبة العسكرية والفرق الخليفية، حدد بدقة مناطق انتشار المزارع السرية لنبته القنب الهندي حيث ورد فيها: "وهذه المزارع

الكيف من المنطقة الإسبانية نحو المنطقة الفرنسية، مع التركيز البنات التي تحكمت في هذا النشاط المحظور، خصوصاً خلال سنوات الأربعينيات والخمسينيات من القرن العشرين، وبالإجمال فالغاية من هذه المساهمة هو الإجابة عن الأسئلة التالية:

- ما هي المناطق التي انتشرت فيها زراعة الكيف خلال فترة الحماية؟
- لماذا انتعش تهريب الكيف خلال سنوات الخمسينيات؟
- كيف ساهمت السياسات الإسبانية في ازدهار تهريب الكيف؟
- من هم مهربو الكيف؟
- ما هي النتائج المترتبة عن تهريب الكيف؟

أولاً: لمحة عن زراعة القنب الهندي خلال

عهد الحماية

١/١- مصادر البحث:

بالنظر إلى صعوبة الوصول إن لم نقل انعدام أية مصادر أو مراجع مغربية، سواء مكتوبة أو شفوية، فقد اعتمدت بشكل أساسي على عدة أنواع من المصادر منها:

- وثائق المندوبية السامية لإسبانيا بالمغرب، المحفوظة في الأرشيف العام للإدارة (Administracion) ومقره مدينة ألكالا دي هيناريس وخصوصاً المحافظ التالية: ٨١/١٩١٠، ٨١/١٩١٢، ٨١/٢٢٠٢، ٨١/١٥٢٠.
- وثائق متعلقة بتهريب الكيف، مصدرها الأرشيف الدبلوماسي الفرنسي (Centre des archives diplomatiques de Nantes) ومقره مدينة نانت، وخصوصاً المحفوظة: 1Ma/200/502
- مقالات صحفية من جريدتين هما (La Vigie (Marocaine)، (Le Petit Marocain).
- بعض القوانين المنظمة لزراعة وتجارة التبغ والكيف.
- مذكرات بعض رجال الحركة الوطنية.

٢/١- تقنين زراعة الكيف وترويجه:

كان من الطبيعي، أن تقوم سلطات الحماية الفرنسية والإسبانية بإصدار قوانين توطر زراعة القنب الهندي والمتاجرة به، سواء في حالته الطبيعية، أو بعد المعالجة. ففي المنطقة الإسبانية نص ظهير ٦ فبراير ١٩١٧، على أن شراء وصناعة وبيع التبغ والكيف، مقتصر على الشركة الاحتكارية، التي فوت لها تدبير القطاع، وهذه الشركة هي "الشركة الاحتكارية للتبغ بشمال إفريقيا"^(١) وقد كانت في ملكية رجل الأعمال والصناعي الإسباني المعروف خوان مارش أورديناس الذي بدأ من حياته

- يرى الباحث عبد الرحيم برادة، أن السياسات الاقتصادية الفاشلة التي طبقتها إسبانيا في منطقة حمايتها، هي السبب في انتشار مجموعة من الظواهر السلبية كالتهريب وزراعة الكيف.^(١٤)
- شجعت السلطات الإسبانية زراعة القنب الهندي في بعض مناطق الريف الأوسط، وقامت السلطات المحلية في تلك المناطق بعض الطرف، عن هذه الزراعة كما شجعت تهريب الكيف لمنطقة الحماية الإسبانية بهدف الحصول العملة الفرنسية إلى شمال المغرب، في مقابل محاولتها منع نزيه العملة الإسبانية.^(١٥)
- خلال الخمسينات عرف المجتمع المغربي مجموعة من التغيرات السلوكية، فتفشيت عادة تدخين السجائر، وبدأ تعاطي المخدرات القوية من قبيل الحبوب المخدرة، وتفشى تعاطي مخدر الكيف، فهل يكون سبب ذلك تأثر المغاربة بالأجانب الذين تواجدوا في البلاد في تلك الفترة؟ وخصوصا القادمين من إسبانيا وفرنسا البلدين الحامين، والولايات المتحدة الأمريكية التي كانت لها قواعد عسكرية؟^(١٦)
- من العوامل المهمة لانتعاش التهريب عامة، وتهريب الكيف بشكل خاص تدهور العلاقات الفرنسية الإسبانية، قيام السلطات الفرنسية بنفي محمد الخامس دون استشارة، ودون تنسيق مع السلطات الإسبانية، خصوصاً أن العلاقات بين الطرفين لم تكن يوماً على ما يرام، بسبب مشكل الحدود بين المنطقتين وبسبب موقف فرنسا من نظام الديكتاتور فرانسيסקو فرانكو.^(١٧)
- ضعف فرق مراقبة الحدود، بسبب قلة الرجال وعدم توفر العتاد الضروري، خصوصاً أن الحدود التي كانت تفصل بين المنطقتين طويلة جداً ذات تضاريس وعرة، ورغم الاستفادة من فرق متعددة عسكرية وشبه عسكرية إلى أن السلطات الفرنسية لم تستطع أبداً إحكام سيطرتها على الحدود.^(١٨)

٢/٢- عصابات التهريب:

كانت عصابات تهريب الكيف خلال سنوات الأربعينيات تتشكل من مجموعة من الشباب، الذين تتراوح أعمارهم ما بين (٢٠) و (٤٠) سنة في الغالب، وكان أغلبهم ينتمي إلى المناطق الحدودية، ولم يكن تهريب الكيف نشاطهم الوحيد إذ كان أغلبهم يشتغل في الزراعة، كما أنهم لم يقتصر على تهريب الكيف دون غيره بل كانوا ينقلون في رحلاتهم ذهاباً وإياباً كل ما يمكن أن يدر عليهم الأموال وكان عددهم العصابة (مجموعة من المهربين) يتراوح بين (٤) و (٢٠)^(١٩) شخص. ولا يسعني الوثائق المتوفرة حالياً لتبيان هل كانوا يشتغلون لمصلحتهم الخاصة، أم أنهم كانوا مجرد حمالين، ولكني أرجح أنه كان هناك مهربون

تتواجد في الوقت الحالي في الملاليين والرنكون وواد النكرو وبني معدن والشركة المحتكرة تدعو الإدارات التابعة لجهاز المراقبة لإصدار الأوامر من أجل التدخل بفاعلية للقضاء على هذه المزراع عبر اقتلاع المزروعات".^(١٠)

ويبدو أن هذه الجهود المبذولة للقضاء على زراعة القنب الهندي بنواحي تطوان قد أتت أكلها، حيث تقلصت المساحة المزروعة، وأصبحت سنة ١٩٢٨ تقتصر على مداشر بني معدن، وهذا ما يتبين من رسالة بعثها باشا تطوان لمراقب الشؤون الأهلية يخبره بما يلي: "فإنه حيث وصل الكتاب المذكور، صادف الحال، بأنه قبل يومين جاء إلينا بعض موظفي الصاكة، وطلبوا إعطاء مخزني فساعدناهم طبق العادة المألوفة، والأمر المقرر بين المخزن وكمبانية الصاكة، ولم يبينوا لنا محل الكنطرباندو ولا سألناهم عنه، وحيث رجع المخزني أفادنا بأنه ألقى بمدشر بني معدن قدرًا من الكيف بعضه مقس، وبعضه غير مقس وأن الجميع حازه موظفو الصاكة".^(١١)

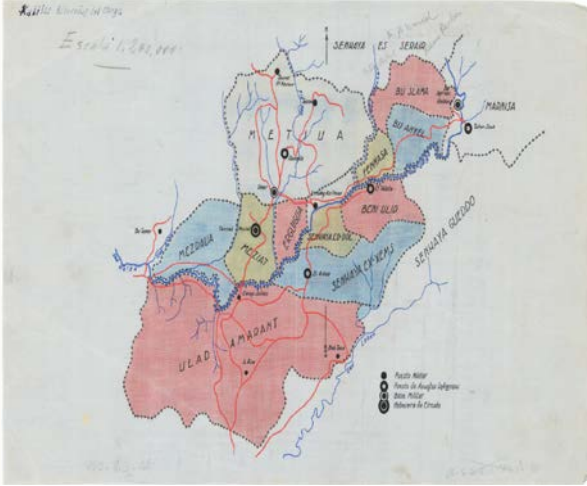
٢- قبيلتي كتامة وبني سدرات: اللتين كانت السلطات الإسبانية تتساهل من سكانهما الذين يمارسون زراعة القنب الهندي، بشرط تسويقه خارج منطقة الحماية الإسبانية، وذلك عبر تهريبه إلى مدن المنطقة الفرنسية، وخصوصاً فاس والدار البيضاء أو عبر بيعه في الأسواق الأسبوعية المتاخمة لحدود المنطقة الفرنسية.^(١٢)

أما بخصوص، حجم الإنتاج فيبدو أن إنتاج قبيلتي الحوز وبني حزم تراجع بشكل حاد خلال العشرينات، إلى أن توقف نهائياً على عكس ما وقع في قبيلتي كتامة وبني سدرات، حيث تزايد حجم الإنتاج بشكل كبير خلال الأربعينات وخصوصاً خلال الخمسينات القرن العشرين، وتوسع إلى قبائل أخرى مجاورة لتصبح منطقة صنهاجة السراير مصدرًا أساسيًا لمخدر الكيف، ودليلنا على ذلك الكميات الضخمة التي كانت تصدرها السلطات المختصة بشكل شبه يومي خلال السنوات القليلة التي سبقت استقلال المغرب.^(١٣)

ثانيًا: تهريب الكيف خلال فترة الحماية

١/٢- أسباب انتعاش تهريب الكيف خلال الخمسينيات:

كانت عمليات تهريب الكيف خلال سنوات الأربعينات، من القلة بحيث يمكن أن نجزم أن هذا النشاط المحظور كاد أن يختفي، وحتى الكميات المصادرة من العمليات المذكورة في الوثائق لا تتجاوز بضعة كيلوغرامات، وذلك بسبب المجاعة وظروف الحرب التي جعلت الناس ينصرفون إلى البحث عما يسد الرمق في تلك الظروف الصعبة. لكن مع بداية عقد الخمسينات انتعش تهريب الكيف، وأصبحت أخبار المهربين تصدر الصحافة اليومية، أما الكميات التي كانت تصادرها أجهزة الدرك والشرطة والجمارك فأصبحت تفوق عدة مئات من الكيلوغرامات وأسباب ذلك كثيرة منها:



Archivo Cartográfico de Estudios Geográficos del Centro Geográfico del Ejército — Colección: PCGE — Ubicación: DE — Signatura: MAR-C.8-084 — Código de barras: 9786987 — Notas: B

٤/٢-وسائل التهريب:

كان تهريب الكيف خلال السنوات الثلاثينيات والأربعينيات، يتم بوسائل تقليدية حيث كان المهربون يحملون الأكياس على ظهورهم ويسيرون ليلاً في جماعات قد يبلغ عدد أفرادها عشرون فرداً، طلباً للأمن والحماية، وفي بعض الحالات كانت السلع المهربة تحمل على ظهور الدواب وخصوصاً البغال والحمير، وقد كان هذا الأسلوب شائعاً خصوصاً في الحدود الإسبانية البرتغالية، والإسبانية الفرنسية، وكان يصطلح على تسميتهم بـ (Mochileros).^(٣٦) ولم يكن المهربون يقتصرّون على تهريب مخدر الكيف، بل نقلوا معه سائر المواد الاستهلاكية التي تحقق لهم أرباحاً، فعودتهم من المنطقة الفرنسية كانوا يعودون محملين ببعض السلع التي كانت تفتقر إليها المنطقة الإسبانية، خاصة وأن شمال المغرب عانى من المجاعات ومن نقص حاد في المواد الغذائية، خلال سنوات الحرب الأهلية الإسبانية وسنوات الحرب العالمية الثانية.

أما خلال السنوات اللاحقة، أي خمسينات القرن العشرين فقد ظهر جيل جديد من المهربين، وظهرت وسائل جديدة فتراجع الاعتماد على الدواب، وقل عدد من يحملون السلع ومنها الكيف على ظهورهم، وأصبح المهربون يعتمدون على السيارات ذات المحركات القوية خصوصاً من ماركة فورد، لنقل حمولة كبيرة من مئات الكيلوغرامات في مسالك جبلية وعرة، أما في من كانوا ينقلون المخدر المحظور عبر الطرق المعبدة فقد اعتمدوا بالأساس على سيارات قوية وسريعة من ماركة أولدز موبيل وشيفرولي وكاديلاك،^(٣٧) وبسبب ذلك لم تعد هناك حاجة لتشكيل مجموعات كبيرة، أو قل عصابات من المهربين، وإن ظل الليل هو وقت عملهم المفضل، حيث استعاضوا عن الكثرة

مستقلون، وآخرون اشتغلوا لصالح آخرين يمتلكون المال والسلطة.

وقد كان من بين أعضاء عصابات التهريب أصحاب أماكن التخزين، وهم أشخاص يتوفرون على منازل أو ضيعات قريبة من الحدود، كان يقصدها المهربون بمجرد عبورهم الحدود للاختباء، وللإستراحة وطبعاً لتخزين السلع المهربة.^(٣٨) أما خلال الخمسينات فقد تناقص أفراد عصابات التهريب وأصبح العدد يتراوح بين (٢) و(٤)، كما صاروا يعتمدون على السيارات والشاحنات، ويستقون على رجال الشرطة والجمارك والدرك بالأسلحة النارية التي لم يكونوا يترددون في استخدامها.^(٣٩)

وإذا كان نشاط التهريب قد ارتبط بالليل، فإن المهربين لم يعودوا في حاجة إلى تسليم البضاعة أو تخزينها بمجرد عبور الحدود، حيث صارت تنقل إلى المدن الكبرى كالدار البيضاء وفاس وغيرها... وإذا كان بعض المهربين قد ظلوا يشتغلون لحسابهم، فإن آخرين كانوا في خدمة مهربين كبار امتلكوا ثروات مهمة، وكان بعضهم من الأجانب، وبعضهم الآخر من رجال السلطة، وفي هذه الفترة بدأ امتهان عدد من النسوة للتهريب، حيث كانت بعضهن تهرب مقادير صغيرة نسبياً من الكيف باستعمال القطار.^(٤٠)

٣/٢-مسالك التهريب:

كانت توجد العديد من المسالك التي استعملها مهربو الكيف، والتي تتفاوت من حيث الأهمية ومنها:

- الطريق الرئيسية الرابطة بين مدينتي شفشاون ووزان، مروراً بالمركز الحدودي سوق الحد، وقد برزت هذه الطرق خلال الخمسينات، وقد كانت قليلة الأهمية بالنظر للطرق الأخرى، كما لا نجدها إلى في عدد محدود من الوثائق.^(٤١)

- الطريق الرئيسية المعبدة الرابطة بين مدن تطوان، طنجة، القصر الكبير... ومدن القنيطرة، الرباط، الدار البيضاء مروراً بالمركز الحدودي الخضاضرة، وهذه الطرق كانت تعرف رواجاً كبيراً سواء على مستوى البضائع المنقولة بشكل قانوني، أو بالنسبة للبضائع المهربة، ومنها طبعاً الكيف ولكن نظراً لوجود رجال الجمارك والدرك فلم تكن الطرق المفضلة لمهربي الكيف.^(٤٢)

- أما الطريق الثالث والأخير، فقد كان عبارة عن مجموعة من المسالك الوعرة المارة الرابطة بني قبائل صنهاجة السرائر، وقبائل ورغة العليا (مرنيسة، متيوّة الجبل، صنهاجة غدو، بني زروال...) والتي تنتهي إلى مدينة فاس، وقد كان هذا الطريق هو المفضل لمهربي الكيف، بالنظر إلى قربها من مناطق الإنتاج، وبسبب ضعف المراقبة، كما أنه كان معبراً مفضلاً للفارين من المنطقة الفرنسية سواء كانوا مقاومين هاربين، من الاعتقال أو جنوداً فروا من الخدمة العسكرية.^(٤٣)

وقد لاحظت أن الوثائق الفرنسية تميز بين جماعات المقاومة المسلحة التي كانت تقوم بعمليات تخريبية تستهدف المصالح الفرنسية، حيث تصفها تلك الوثائق بـ (Groupes Terroristes) مجموعات الإرهابيين وبين المجموعات المسلحة حيث تصفها بـ (Groupes de Bandits) عصابات المجرمين.^(٣٣)

— كان تهريب الكيف بالنسبة لمجموعة من تجاره ومهربيه، وسيلة للاغتناء وتسلق درجات السلم الاجتماعي، وقد تحقق ذلك بشكل فعلي لعدد منهم، وتحفل الوثائق الفرنسية بأسماء المهربين، الذين تمكنوا تحقيق ثروات هامة، بل وتمكن بعضهم من تغيير مهنته وأصبح مقاولاً أو تاجرًا معروفًا، بل وحتى أصبح له دور سياسي هام في المغرب، خصوصًا أن البلد كان يتجه نحو الاستقلال، ولم يقتصر الأمر على المغاربة بل حتى المهربون الأجانب وعدد من رجال الشرطة والدرك الفرنسيون والإسبان، تمكنوا من تحقيق ثروات هامة عن طرق الارتشاء.^(٣٤)

خاتمة

إذا كانت الظواهر التي أصدرتها سلطات الحماية في المنطقتين الفرنسية والإسبانية، تروم تقنين زراعة القنب الهندي، والتحكم في المساحات المزروعة، وحجم الإنتاج، فمما لا شك فيه أن السلطات الإسبانية قد حاربت زراعته في المناطق السهلية ذات المؤهلات الزراعية، لكنها في المقابل تساهلت مع زراعته في المناطق الجبلية، كالريف الأوسط وخصوصًا في قبائل صنهاجة السرائر. وإذا كانت الظواهر والقوانين الصادرة خلال عهد الحماية، تنص على منع تسويق الكيف منعا باتًا، إلا أن الواقع يكشف على أن سلطات الحماية الإسبانية حاولت التحكم والاستفادة من هذه نشاط، عبر تشجيع المهربين على تسويقه في المنطقة الفرنسية. كما أن السلطات الفرنسية حاولت توظيف التهريب لخدمة مصالحها، فتغاضت عنه أحيانًا، وحاربت أحيانًا أخرى، إذ عملت على إغراق المنطقة الإسبانية بالمنتجات الفرنسية، بما في ذلك السجائر وأنواع أخرى من المخدرات.

بالسلاح، الذي أصبح وسيلة من وسائل العمل، وسلعة يتم الحصول منها على مدخول إضافي، ويتم التخلص منها حالة الوصول على الوجهة المقصودة.^(٣٥)

٥/٢- نتائج تهريب الكيف:

نظرا لكثرة نتج عن تهريب الكيف من نتائج اجتماعية وسياسية واقتصادية فلا يمكننا في هذه المساهمة، إلا الوقوف عند بعضها ومنها:

— خلف تهريب الكيف من المنطقة الإسبانية نحو المنطقة الفرنسية الكثير من الضحايا خلال سنوات الأربعينيات، حيث أن القوات المكلفة بمراقبة الحدود وخصوصًا قوات الكوم، كانت لا تتردد في إطلاق النار على من سولت له عبور الحدود سرًا من المهربين، الذين كانوا ينشطون خلال الليل مما خلف الكثير من القتلى والجرحى، وقد ساهمت هذه الأحداث في توتر العلاقات بين المغاربة (قياد القبائل الحدودية، الحركة الوطنية، سكان الحدود) والسلطات الفرنسية (جهاز المراقبة، السلطات العسكرية...) ^(٣٦) أما خلال سنوات الخمسينات فقد انقلبت الآية حيث صار رجال الأمن هم أكبر ضحايا تهريب الكيف، لأن المهربين صاروا مسلحين بمسدسات لا يتورعون عن استعمالها ضد قوات الشرطة والدرك، وقد حفلت صحافة تلك الفترة بحوادث إطلاق النار وبأسماء من قضا أو أصيبوا في المواجهات.^(٣٧)

— رغم أن الأسلحة النارية كانت موجودة في المغرب خلال سنوات الخمسينات، إلا أن الوصول إليها وامتلاكها لم يكن بالأمر الهين،^(٣٨) حتى بالنسبة لمجموعات المقاومة المسلحة والفدائيين، الذين اختاروا العمل المسلح ضد الاستعمار الفرنسي، وضد مصالحه بالمغرب. وذلك لأن السلاح كان محتكرًا من طرف فئات معينة، وثانيًا لأنه كان متوفرًا في المنطقة الإسبانية، ونادرًا في المنطقة الفرنسية ويبدو من خلال وثائق الأرشيف الدبلوماسي الفرنسي، وما خطه بعض رجال المقاومة من مذكرات صدرت في الفترة الأخيرة، أن مهربي الكيف ساهموا بشكل كبير في تهريب المقاومين الملاحقين من طرف الشرطة من المنطقة الفرنسية (اللاجئين)، نحو المنطقة الإسبانية، كما ساهموا في تزويد المقاومين بالسلاح الناري، حيث كانوا يتخلصون من مسدساتهم عن طريق بيعها بأثمنة معتبرة بمجرد وصولهم إلى الوجهة المقصودة.^(٣٩)

— أدى ازدهار تهريب الكيف وارتباطه بتهريب السلاح، وقيام المهربين بمهاجمة قوات الدرك والشرطة، في حدوث انفلاتات أمنية خطيرة خصوصًا في المناطق الحدودية وبضواحي المدن الكبرى كالدار البيضاء (أكبر سوق للكيف خلال الخمسينيات)، وفاس وغيرها كما ظهرت بسبب ذلك عصابات مسلحة، قامت بالعديد من الأنشطة الإجرامية،

(۶)

رسالة من مراقب الشؤون الأهلية بناحية الريف لمندوبية
الشؤون الأهلية بخصوص الإجراءات المتخذة للتحكم في نشاط
التهرب الحدودي مع المنطقة الفرنسية

(1)

رسالة من باشا تطوان لمراقب الشؤون الأهلية بخصوص قيام موظفي الصاكة بمصادرة كمية بأحد مداخل بني معدن



(۶)

خبر في جريدة Le Petit Marocain يوم ١٩/٠٦/١٩٥٤
حجز ٢٠٠ كيلوغرام من الكيف بالدار البيضاء واعتقال ٤ مهربين

9/29d Kit

Dans la nuit de jeudi à vendredi les services de police ont procédé à l'arrestation de 4 trafiquants de 200 kilos de stupéfiant, représentant un million de francs ont été saisis. (Notre photo).

(3)

Del periódico "La Voz Mexicana" día 20 Mayo 1924.

- (18) Quand les douaniers et les fraudeurs sont aux prises, La Vigie Marocaine, 20/5/1954.
- (19) Article nommé 'sur les Routes du Rif a la poursuites en auto des contrebandier de kif', LA vigie Marocaine 09/06/1953.
- (20) Archivo Genaral de la Administracion, Seccion Africa, Caja 81/633.
- ملف عن عصابة محمد بن الهاشمي البويو
- (21) "Article nommé 'De véritables combats au fusil et a la mitraillette s'engagent parfois autour d'un chargement de kif', La vigie Marocaine, 22/5/1954.
- (22) Article nommé '20 kilo de kif saisie a Rabat', Le Petit Marocain 10/2/1955.
- (23) Archivo Genaral de la Administracion, Seccion Africa, Caja 81/1910 y tambien la caja N° 81/1912.
- (24) Ibid.
- لمزيد من التفاصيل بخصوص هذه المسالك يمكن العودة إلى كتاب **جولات في ذاكرة مقاوم**، (الأنصاري) محمد بن المختار، دار أبي رقرق، الرباط، الطبعة الأولى، ١٩١٢، صفحة ٦٠ وما بعدها.
- (26) Eusebio Medina García, CONTRABANDO EN LA FRONTERA DE PORTUGAL: ORÍGENES, ESTRUCTURAS, CONFLICTO Y CAMBIO SOCIAL, UNIVERSIDAD COMPLUTENSE DE MADRID. FACULTAD DE CIENCIAS POLÍTICAS Y SOCIOLOGÍA, Madrid, 2001, P 274.
- (27) Article nommé, 'Sur les contreforts du Rif, ou s'affront douaniers, moghaznis et gannsters du ki', La Vigie Marocaine, 19/5/1954.
- (٢٨) الفرخ (جواد)، **مذكرات المقاوم بوشتي صبور**، المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير، الطبعة الأولى، ٢٠٠٩، ص ٩٩.
- (٢٩) نظرًا لكثرة ضحايا إطلاق النار من المهربين وردود أفعال المغاربة على ذلك أحيل القارئ مباشرة إلى المحفوظة رقم ٨١/١٩١٠ المحفوظة بالأرشيف العام للإدارة الإسبانية.
- (30) Article nommé 'De contrebandier qui font capoter la jeep de la police, deux blessées', La Vigie Marocaine, 22/7/1954.
- (٣١) (السباعي) محمد خليل، **صفحات من تاريخ المقاومة السرية بالدار البيضاء**، المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير، الطبعة الأولى، ٢٠١٥، ص ٢٣.
- (٣٢) **مذكرات المقاوم بوشتي صبور**، مذكور سابقًا.
- (33) Centre des archives Diplomatique de Nantes, 1Ma/200/502.
- رسالة من رئيس ناحية وجدة إلى المديرية العامة للداخلية بالرباط بتاريخ ١٩٥٥/١٢/٢.
- (34) Centre des archives Diplomatique de Nantes, 1Ma/200/502.
- مذكرة استعلاماتية عن شعبة الشؤون السياسية التابعة للمديرية العامة للداخلية.

- (1) Archivo Genaral de la Administracion, Seccion Africa, Caja 81/1520.
- تقرير من إنجاز جهاز المراقبة العسكرية بتاريخ ١٩٢٤/٧/٣٠.
- (٢) **خوان مارش أورديناس**، رجل أعمال إسباني معروف بدأ حياته مهربا للسجائر من المغرب والجزائر نحو إسبانيا مول نقلاب ١٩٣٦ ولعب أدوارًا مهمة في حقبة فرانكو وتمكن خلال تلك الفترة من تكوين ثروة مالية ضخمة بسبب احتكاره للتبغ والبتول والنقل البحري توفي سنة ١٩٦٢ جراء حادثة سير.
- (3) Archivo Genaral de la Administracion, Seccion Africa, Caja 81/1762.
- رسالة من جهاز المراقبة بناحية الريف لمندوبية الشؤون الأهلية بتاريخ ١٩٣٩/٨/٢٩
- (4) Ibid.
- (٥) **الجريدة الرسمية**، عدد (٣٤٢)، بتاريخ ١٩١٩/١١/١٧، ص ٣٦٦.
- (6) Dahir de 12 Novembre 1932, modifie par Dahir de 18 Fevrier 1937, relatif au regime des tabacs et du kif au Maroc. Page 3.
- (7) Ibid, page 16.
- (٨) ملاحظة: اطلعت على نص الظهير باللغة الفرنسية.
- (٧) تضم المحفوظة رقم ٨١/١٩١٢ والمحفوظة رقم ٨١/١٩١٠ المحفوظتان بالأرشيف العام للإدارة الإسبانية أسماء العديد من المهربين الذين قتلوا على يد قوات القوم.
- (10) Archivo Genaral de la Administracion, Seccion Africa, Caja 81/978.
- رسالة من باشا تطوان إلى القنصل المراقب بتاريخ ١٩٢٨/٣/٢
- (11) Ibid.
- (12) Archivo Genaral de la Administracion, Seccion Africa, Caja 81/1762.
- رسالة من جهاز المراقبة بناحية الريف لمندوبية الشؤون الأهلية بتاريخ ١٩٣٩/٨/٢٩
- (13) 600 000 Francs de kif en nouvelle medina de Casa, le Petit Marocain, 27/06/1954. Et voire aussi cinq cents kilos de kiff saisie prés de Fes, la Vigie Mrocaïne 5/10/1954.
- (١٤) "الحماية الإسبانية على شمال المغرب ومسؤوليتها في بروز المشاكل الاقتصادية للمنطقة"، مجلة أمل، العدد ١٢ - عبد الرحيم برادة، ٢٠١٤، ص ٨٩.
- (15) Archivo Genaral de la Administracion, Seccion Africa, Caja 81/1762.
- رسالة من جهاز المراقبة بناحية الريف لمندوبية الشؤون الأهلية بتاريخ ١٩٣٩/٨/٢٩
- (16) Archivo Genaral de la Administracion, Seccion Africa, Caja 81/2202.
- مذكرة استعلامية بخصوص استفحال تهريب الأقراص المخدرة.
- (17) Ybarra Enriquez de la Orden (Maria concepcion); España y la seccolonizacion del Magreb, Universidad Nacional a de Educacion a distancia, Madrid, 1989, pagina 252.

العلاقات الإيرانية – السوفيتية من استلام غورباتشوف للسلطة حتى نهاية الحرب العراقية – الإيرانية (١٩٨٥-١٩٨٨ م)

د. ناظم يونس عثمان

أستاذ مساعد - قسم التاريخ
كلية العلوم الإنسانية - جامعة دهوك
إقليم كردستان - جمهورية العراق



د. فرهاد محمد أحمد

أستاذ مساعد - قسم التاريخ
كلية العلوم الإنسانية - جامعة دهوك
إقليم كردستان - جمهورية العراق



ملخص

تدور محاور هذا الدراسة حول تطورات التحسن النسبي التدريجي للعلاقات الإيرانية-السوفيتية من استلام ميخائيل غورباتشوف للسلطة وحتى نهاية الحرب العراقية - الإيرانية، فبعد تولي غورباتشوف السلطة في الاتحاد السوفيتي في مارس ١٩٨٥، وفي ظل برامجه الإصلاحية تراجعت الاعتبارات الأيديولوجية نسبياً أمام الاعتبارات الاقتصادية بوصفه محدداً عاماً للسياسة الخارجية السوفيتية، ويقال الأمر نفسه بخصوص السياسة الخارجية الإيرانية التي تخلت نوعاً ما عن مبدأ تصدير الثورة الإسلامية إلى الخارج، وهذا ما دفع بالبلدين إلى تحسين علاقاتهما، كذلك ظروف الحرب العراقية-الإيرانية وتطوراتها الإقليمية والدولية، حيث اتسمت علاقات البلدين خلال الفترة (١٩٨٥-١٩٨٧) بالتحسن التدريجي نسبياً، ثم سادها نوع من التوتر النسبي في علاقاتهما من جديد خلال الفترة (١٩٨٧-١٩٨٨) بفعل تطورات الحرب العراقية-الإيرانية باتجاه حرب الناقلات البترولية، وحرب المدن، وما رافق ذلك على مستوى الأزمة الأفغانية والموقف السوفيتي من الحصار الغربي على إيران، إلا إنها لم تصل إلى المستوى الذي شهده علاقات البلدين عند بداية الحرب العراقية-الإيرانية، وهذا ما جعل علاقات البلدين أن تدخل مرحلة جديدة بعد انتهاء الحرب، فشهدت علاقاتهما خلال الفترة (١٩٨٩-١٩٩١) تطورات نوعية مهمة على المستوى السياسي والاقتصادي، أنهت بذلك الطابع العدائي الذي ساد علاقات البلدين بعد الثورة الإسلامية.

كلمات مفتاحية:

الحرب العراقية الإيرانية، الناقلات البترولية، مجلس الأمن، الاتحاد السوفيتي، تاريخ إيران

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث: ١١ فبراير ٢٠١٨
تاريخ قبول النشر: ١٦ أبريل ٢٠١٨

DOI 10.12816/0052952

معرف الوثيقة الرقمي:

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

فرهاد محمد أحمد، ناظم يونس عثمان. "العلاقات الإيرانية-السوفيتية من استلام غورباتشوف للسلطة حتى نهاية الحرب العراقية-الإيرانية (١٩٨٥-١٩٨٨)". دورية كان التاريخية، السنة الحادية عشرة - العدد الأربعون، يونيو ٢٠١٨، ص ١١٤ - ١٢٨.

تختلف جوهرياً عن سياسة سابقه من القادة السوفيت، حيث فرض رؤية واقعية جديدة لطبيعة العلاقات الدولية، التي أدت تدريجياً إلى تخفيف حدة التوتر في العالم بأسره^(٢). أملت إيران، كباقي دول العالم، خيراً بسياسة الزعيم السوفيتي الجديد، فالتأكيدات السوفيتية بشأن موقفها الحيادي في الحرب بدأت تظهر بكثافة في الصحافة السوفيتية، فمثلاً لم تلق زيارة طارق عزيز إلى موسكو في أواخر آذار عام ١٩٨٥ أي اهتمام من قبل الإعلام السوفيتي، فصحيفة البرافدا التي نشرت خبر تلك الزيارة في عددها المؤرخ ٣١ آذار ١٩٨٥، نشرت بشكل

أولاً: العلاقات بين البلدين من استلام غورباتشوف للسلطة حتى إعلان المبادرة السلمية السوفيتية ١٩٨٥-١٩٨٧

يُعدّ تسلم (Mikhail Gorbachev) ميخائيل غورباتشوف^(١) لمقاييد السلطة في الاتحاد السوفيتي في آذار ١٩٨٥ نقطة تحول مهمة، ليس في تاريخ الاتحاد السوفيتي فحسب، وإنما في تاريخ العلاقات الدولية أيضاً، فالسياسة التي تبناها غورباتشوف كانت

مواجهة الهجوم الإيراني الوشيك، أما الجانب السياسي للزيارة، فكان لتأييد المساعي السوفيتية في المحافل الدولية لإنهاء الحرب^(٩)، وقد أكد أندريه غروميكو (Andrei Gromyko)، وزير الخارجية السوفيتي، في أثناء لقائه بالرئيس العراقي: "أن أولئك الذين يصرون على استمرار الحرب حتى النصر- النهائي يضحون بمصالح شعوبهم وشعوب المنطقة"^(١٠).

ومما لاشك فيه أن هذه الزيارة تركت انطباعات سلبية عند طهران، وأوضحت الصحف الإيرانية أن الزيارة لم تكن موفقة، فقد أشارت صحيفة اطلاعات حينها، وهي تعلق على العلاقات الجيدة بين طهران وموسكو، إلى الموقف الإيجابي الذي اتخذته موسكو في الجمعية العامة للأمم المتحدة حينما رفضت قراراً أصدرته الجمعية تدين إيران بانتهاك حقوق الإنسان في بلدها^(١١). وللتخفيف من وطأة تأثير تلك الزيارة على العلاقات الإيرانية-السوفيتية أذاع راديو موسكو بياناً من الحكومة السوفيتية تؤكد فيه رغبتها في تطوير العلاقات بين البلدين، وأضاف البيان أنه لا يجب أن يكون اختلاف الأيديولوجية سبباً في عدم وجود العلاقات بين البلدين، واعترفت أن الحرب العراقية-الإيرانية قد تركت تأثيرات سلبية على العلاقات بين البلدين، منها اضطرابها على سحب خبرائها من إيران خوفاً على حياتهم، كذلك تركت تأثيراً سلبياً على حجم التبادل التجاري بين البلدين، ومن ذلك المنطلق طالب الاتحاد السوفيتي بإنهاء الحرب؛ كونها لا تخدم البلدين وإنما تخدم غيرهما^(١٢). فضلاً عن ذلك أرسل غورباتشوف رسالة إلى القيادة الإيرانية عن طريق بولديريف، السفير السوفيتي الجديد في طهران، الذي التقى بدوره بنائب وزير الخارجية الإيراني علي محمد بشاري، حيث تابحا معاً شؤون تطوير العلاقات بين البلدين^(١٣).

وتأكيداً لبيان حسن النوايا السوفيتية تجاه إيران توجه وفد سوفيتي برئاسة جورج كورنينكو Georg Kornienko، نائب وزير الخارجية السوفيتي، إلى طهران في ٢٣ كانون الثاني ١٩٨٦، وقد استقبله نظيره الإيراني علي محمد بشاري، الذي أكد عند استقباله للوفد الزائر أن هناك عدة ملفات سيبحثها الجانبان، منها مشكلة أفغانستان، وإمدادات السلاح إلى العراق، كذلك استئناف العمل في مشاريع التنمية المشتركة بين الجانبين^(١٤). ومن ضمن الاتفاقات التي توصل إليها كورنينكو خلال زيارته لطهران هو مباحثاته مع علي أكبر ولايتي، وزير الخارجية الإيراني، والاتفاق بشأن عودة الرحلات الجوية بين طهران وموسكو، والموافقة على الدعوة التي وجهت إلى وزير الخارجية الإيراني بزيارة موسكو^(١٥). يبدو أن زيارة كورنينكو كانت تهدف إلى تحقيق عدة غايات منها: إن انخفاض الإنتاج الإيراني من النفط قد يجعل الاتحاد السوفيتي سوفاً بديلاً للنفط الإيراني عن السوق الغربية، التي لا يصل إليها سوى القليل من النفط الإيراني، بسبب الهجمات العراقية على المنشآت النفطية الإيرانية، وعلى ناقلات النفط التي تحمل النفط الإيراني من الخليج، كما كانت موسكو تطمح في أن تتوقف طهران في دعمها ومساندتها لثوار أفغانستان، وأن تكف الحكومة الإيرانية عن مضايقة أعضاء حزب توده^(١٦).

مختصر، وفي الصفحة الرابعة ودون أن تعلق على الزيارة، بعكس ما كانت تفعله في السابق^(١٧). ولكي تطمئن القيادة الإيرانية للسياسة السوفيتية الجديدة، أدلى السفير السوفيتي حينها في طهران بتصريحات مشجعة للجانب الإيراني، وقال: "أن العراق لا يمتلك صواريخ بعيدة المدى تصل إلى المدن الإيرانية"، وعن مسألة حزب توده، أكد: "أنها مسألة داخلية، وأن الاتحاد السوفيتي ليس له أدنى تدخل فيها"، واختتم تصريحاته بالتأكيد على أن: "الاتحاد السوفيتي يقف على الحياد في الحرب، ويرغب في إنهاؤها بأسرع وقت من خلال المباحثات المباشرة بين الدولتين"^(١٨).

ومع ذلك فإن معالم السياسة السوفيتية الجديدة بالنسبة للحكومة الإيرانية لم تكن واضحة بشكل كامل بعد، فالمقالة التي كتبها الدكتور أوليانوفسكي Ulianovskii، نائب الإدارة الدولية باللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفيتي، في مجلة كومونيست Communist في أواخر حزيران ١٩٨٥ كانت مليئة بالانتقادات للثورة الإيرانية وطبيعة نظامها؛ فقد أشار في مقالته المعنونة (مصر الثورة الإيرانية) إلى أن الثورة الإيرانية أنتجت نظاماً استبدادياً، مؤكداً: "يذكرنا الموقف الداخلي الحالي في إيران بأوقات العصور الوسطى المظلمة، حيث يبدو الناس جميعاً تحت الرقابة والريبة، والاعتقال، والتعرض للإعدام، كل هذا قد أصبح الطابع المعتاد للحياة السياسية والاجتماعية في آن واحد في إيران الحالية"^(١٩).

من جانب آخر كانت القيادة الإيرانية ترى أن هناك العديد من العوائق تحول دون تطبيع العلاقات مع الجارة الشمالية، فقد لخص علي أكبر ولايتي^(٢٠)، وزير الخارجية الإيراني، المشاكل التي تعيق العلاقة بين البلدين، منها على سبيل المثال: عدم الخروج من أفغانستان، ودعمها غير المباشر للجانب العراقي على الجانب الإيراني في الحرب، وخروج الخبراء السوفيت من إيران^(٢١)؛ لهذا كانت القيادة الإيرانية ترى عدم جدوى التحركات السوفيتية لإنهاء الحرب العراقية-الإيرانية؛ فقد طالب علي خامنئي، رئيس الجمهورية، خلال خطابه في مدينة قزوین في ٢٢ تشرين الثاني ١٩٨٥، الاتحاد السوفيتي بعدم التدخل في إنهاء الحرب؛ لأنها لن تجدي نفعاً، وأشار خامنئي إلى أن العراق يحث القيادة السوفيتية للقيام بذلك الدور، إلا أن الشعب الإيراني هو صاحب القرار الوحيد في إيقاف هذه الحرب، وليس غيره^(٢٢).

شكلت زيارة الرئيس العراقي صدام حسين (١٩٧٩-٢٠٠٣) إلى موسكو، في ١٦ كانون الأول ١٩٨٥، نقطة تحول كبيرة، سواء أكان ذلك في تاريخ العلاقات العراقية-السوفيتية، أم في حجم المتغيرات الجديدة على موقف دول الخليج، ومستقبل الحرب العراقية-الإيرانية؛ لأن الزيارة كانت تنطوي على جانبين، فمن الجانب العسكري جاءت الزيارة في ظل التوتر العسكري المتصاعد بين العراق وإيران، ولا سيما بعد أن حشدت الأخيرة أكثر من نصف مليون جندي على جبهات القتال مع العراق لشن هجوم عسكري واسع بهدف تغيير ميزان القوى لصالحها، فقد جاءت زيارة صدام حسين لموسكو للحصول على المزيد من السلاح الروسي المتطور لتعزيز قدرات الجيش العراقي في

والخوف من تقارب الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة مع عدوهما ضدها^(٢١).

وكان من الطبيعي أن يكون الاتحاد السوفيتي على رأس تلك الدول التي كانت الحكومة الإيرانية تفكر في إعادة العلاقات معها، ليس لاستيراد السلاح منه، بل كونه النافذة الوحيدة التي يمكن من خلالها الاتصال بالعالم الخارجي في حال تهديد نافذتها الجنوبية على الخليج؛ ولهذا حاولت إيران تذليل العقبات في طريق العلاقات بين البلدين، ففي زيارة رسمية قام بها محمد جواد لاريجاني، نائب وزير الخارجية الإيراني، إلى موسكو في أوائل آب عام ١٩٨٦، والتي استغرقت أربعة أيام، أدلى لاريجاني عقب عودته إلى طهران بتصريحات للصحافة أشار إلى أنه أجرى مباحثات مهمة جداً مع المسؤولين السوفيت، مؤكداً: "أن الاتحاد السوفيتي أيضاً مهتم بشكل جدي بتطوير علاقاته مع الجانب الإيراني، وأنه في الأيام القادمة سيقوم علي أكبر ولايتي، وزير الخارجية الإيراني، بزيارة إلى موسكو لبحث أمن المنطقة وقضايا أخرى"^(٢٢).

وفي السياق نفسه شهدت العلاقات بينهما تحسناً واضحاً، عندما صرح غلام رضا آغا زاده، وزير النفط الإيراني للصحف الإيرانية بعد المحادثات التي أجراها في موسكو مع المسؤولين السوفيت في أواخر آب ١٩٨٦، بأن إيران والاتحاد السوفيتي اتفقا على استئناف صادرات الغاز الإيراني إلى الاتحاد السوفيتي، وقال إن إيران ستبدأ بتصدير كميات صغيرة نسبياً لتصل بحلول ١٩٩٠ إلى المستوى السابق (٣٥٠) مليار قدم مكعب في السنة^(٢٣).

ومع أن هذه النسبة لا تمثل سوى نسبة ضئيلة من إنتاج الغاز في الاتحاد السوفيتي الذي يعد أكبر مصدري الغاز في العالم بمعدل سنوي قدره (٢٣٠٠٠) مليار قدم مكعب، إلا أن للغاز الإيراني فائدة مهمة بالنسبة للاتحاد السوفيتي، فمن المعروف أن مصادر الغاز السوفيتي الكبرى تقع في غرب سيبيريا، التي هي بعيدة عن القوقاز القريبة جغرافياً إلى مصادر الغاز الإيراني، فعندما توقف الغاز الإيراني عن الإنتاج والتصدير في ١٩٨٠، اضطر الاتحاد السوفيتي إلى بناء خطوط أنابيب لمسافات طويلة لإمداد الغاز إلى منطقة القوقاز^(٢٤). وفي أثناء زيارته لموسكو تباحث أيضاً الوزير الإيراني مع الجانب السوفيتي طالباً منه تخفيض صادراته النفطية، بهدف تقليل العرض لزيادة الأسعار، وتجاوزت الحكومة السوفيتية للطلب الإيراني، فضلاً عن اتفاق الجانبين على التعاون المشترك في استخراج النفط في الحوض الجنوبي لبحر قزوين^(٢٥).

ونتيجة للتحسن التدريجي في العلاقات بين البلدين فإن الحكومة السوفيتية تغاضت عن اعتراض البحرية الإيرانية، في أواخر آب ١٩٨٦ لسفينتين سوفيتين، إحداهما تدعى بيوتر يمتسوف Pyotr Yemtsov التي أوقفتها قبالة سواحل دولة الإمارات العربية المتحدة وأصطحبتها إلى ميناء بندر عباس الإيراني، واضطرت السفينة لتفريغ حمولتها للتأكد على أنها لا تستخدم لأغراض عسكرية. والثانية كانت تدعى توتوف Tutov، التي أوقفتها لمدة قصيرة ثم سمح لها بالاستمرار^(٢٦). ويبدو أن عدم الحاق الأذى بالسفينتين وتركهما هي التي حالت دون

لم تمض فترة طويلة على زيارة كورنينكو لتهران، حتى جاء الاحتلال الإيراني لمثلث الفاو في جنوب العراق في التاسع من شباط ١٩٨٦، التي كانت بمثابة نقطة تحول كبيرة في مجريات الحرب العراقية-الإيرانية، وشكلت بداية لاحتلال مدن عراقية أخرى، بل تهديداً مباشراً للنظام العراقي بأسره، وتغييراً في ميزان القوة لصالح إيران، وتهديداً للنظام الإقليمي والدولي، وهذا ما لم ترغب به القيادة السوفيتية؛ لأنها لا تريد انتصار أي طرف على الآخر، والانتصار الإيراني سيؤثر سلباً على مسلمي الاتحاد السوفيتي، وسيدعم الموقف الأفغاني ضد القوات السوفيتية فيها، وبالتالي سيعني انتصار الإيديولوجية الإسلامية ضد الإيديولوجية الشيوعية^(٢٧).

وتجنباً لتحقيق انتصار إيراني حاسم على القوات العراقية وهزيمتها بدأت الحكومة السوفيتية بالتحرك على المستويين الدولي والإقليمي، فعلى المستوى الدولي بدأت بخطوات حثيثة مع الإدارة الأمريكية، للتفاهم حول الأزمة الأفغانية، والحرب بين العراق وإيران، وبجهود الطرفين، الأمريكي والسوفيتي أصدر مجلس الأمن الدولي قراراً جديداً طالب فيه البلدين بضرورة إنهاء الحرب بينهما، والعودة إلى الحدود الدولية^(٢٨)، وقد صرح مندوب الاتحاد السوفيتي في الأمم المتحدة، سافرونجوك، بأن بلاده: "تطالب طرفي النزاع بأن يضعا خلافتهما جانباً، وللجوء إلى المباحثات المباشرة لحلها؛ لأن الحرب لا تخدم سوى مصلحة الأطراف التي تريد التدخل في شؤون البلدين الداخلية من أجل إضعافهم"^(٢٩).

ومن جهة أخرى بدأ الاتحاد السوفيتي يقدم للعراق أسلحة بشكل مباشر؛ فقد سلم للعراق بعد احتلال الفاو حوالي (٢٠٠) دبابة كان من بينها (٨٠٠) دبابة متطورة من نوع (T-72)، و(٣٣) طائرة حربية شملت طائرات نوع (Mig- 23)، و (Mig- 25) و (Mig-27)، كذلك (٣٠٠) صاروخ أرض أرض (Scud- B)، و (SS-12)، فضلاً عن إرسالها للعديد من خبرائها وفنيها إلى العراق^(٣٠).

بدأت القيادة الإيرانية تدرك جيداً أن أيّاً من القوتين العظميين لا تريدان أن تنتصر إيران في الحرب، وعليه حاولت طهران تغيير سياستها الخارجية نحو التهدة؛ فقد طالب الخميني الدبلوماسيين الإيرانيين في الخارج بانتهاج سياسة جديدة، مؤكداً ضرورة إقامة علاقات طيبة مع جميع الدول فيما عدا الدول المعادية للنظام الإيراني، وبدأ الزعماء الإيرانيون بالتراجع عن شعار تصدير الثورة إلى العالم، وكلفت الحكومة الإيرانية مجموعة من الدبلوماسيين للقيام بمهام رسمية بشأن توضيح وبيان موقف إيران بعد احتلال الفاو مؤكدة أنها لا تشكل خطراً، أو تهديداً للدول المجاورة، وليس لها مطامع في احتلال العراق أو أي دولة أخرى. يبدو أن السبب في ذلك الموقف الجديد كان يكمن في الصعوبات التي واجهتها في الحصول على السلاح، والتخفيف من الصورة القبيحة التي رسمها العالم لإيران كدولة دينية متطرفة، ووجود استياء شعبي داخلي بسبب الحرمان والكتب، واستئناف العلاقات العراقية-السوفيتية،

(٧٠٠) ألف كيلوات، وعلق راديو موسكو على هذه المباحثات بأنها: "تأتي في إطار توسيع العلاقات الاقتصادية بين البلدين" (٣٦). عادت العلاقات بين البلدين تشهد توتراً نسبياً، على خلفية اكتشاف فضيحة العلاقات السرية بين إيران والولايات المتحدة، والتي تعرف بفضيحة إيران غيت (Iran Gate) (٣٧) وذلك في تشرين الثاني ١٩٨٦، حيث أصبحت تلك الفضيحة محل نقد شديد في الصحافة السوفيتية، إلا أن النقد تركز بالدرجة الأساس على الولايات المتحدة أكثر من إيران، ففي مقال لصحيفة البرافدا ذكرت: "إن فضيحة الأسلحة الأمريكية الإيرانية ليست صدفة بل تجسيد للغطرسة والهيمنة والاستهتار بالقوانين الدولية والتدخل في الشؤون الداخلية للدول والشعوب" (٣٨). في حين أن وكالة تاس ذكرت: "أن الولايات المتحدة وإسرائيل يعملها هذا يسكبان الزيت على نار الحرب العراقية-الإيرانية"، ووصفت فضيحة الأسلحة بأنها: "خروج على مبدأ الحياد تجاه الحرب بين العراق وإيران، الذي أعلنته الإدارة الأمريكية"، وأشارت أن الولايات المتحدة تسعى من خلال إرسال أسلحة سرية إلى طهران إلى جعل: "إيران العوبة في يدها مثلما كانت في ظل حكم الشاه" (٣٩).

وللتقليل من أهمية التدايعات السلبية، التي تركها اكتشاف العلاقات السرية بين إيران والولايات المتحدة نشرت بعض الصحف الغربية، ومنها الصندي تايمز The Sunday Times البريطانية، بعض التقارير التي تؤكد أن موسكو أيضاً تبيع الأسلحة إلى إيران سرّاً؛ فقد أكدت الصحيفة المذكورة: "أن الاتحاد السوفيتي يقوم بشحن أسلحة سوفيتية سرّاً إلى إيران، وتستلم الأخيرة هذه الشحنات السرية بشكل مباشر من الاتحاد السوفيتي، وفي بعض الأحيان بطرق غير مباشرة من عدة دول بينها كوريا الشمالية، وتشيكوسلوفاكيا" (٤٠).

وتطرق صحيفة لفيغارو Le Figaro الفرنسية أيضاً في مقال مطول لها إلى فضيحة إيران غيت تحت عنوان (العلاقة الشائكة بين موسكو وطهران)، أوضحت فيه: "أن الاتحاد السوفيتي بدأ يوظف هذه القضية لصالحه بنجاح، فالقضية بالنسبة للكرملين تمثل منبعاً للاجتهادات الشيوعية الجديدة في حربها على النظم الرأسمالية، وهي في الوقت نفسه تشكل مصدراً محرّجاً للبيت الأبيض، وعلى ذلك الأساس دأبت الصحف السوفيتية على الشجب العنيف لشحنات الأسلحة الأمريكية إلى إيران، وأكدت أنها بمثابة دليل قاطع على رغبة واشنطن في التدخل بالشؤون الداخلية للجمهورية الإسلامية، والسعي إلى استمرار النزاع الإيراني-العراقي لزعة الوضع في هذه المنطقة" (٤١). ومن جانبها انتقدت صحيفة اذفيستا السياسة الإيرانية وأشارت: "أن إيران أيضاً تؤدي دوراً سلبياً في المنطقة، وأنها بتعاونها مع الولايات المتحدة، واشتراكها الفعلي في النشاطات التخريبية ضد جمهورية أفغانستان الديمقراطية، تكون إيران قد انحازت إلى الولايات المتحدة وحلفائها" (٤٢).

وأشار المحلل السياسي فلاديمير بيرساد Vladimir Berbassad في مقال نشر في صحيفة البرافدا في ٢٢ كانون الأول ١٩٨٦ إلى: "أن الحرب العراقية-الإيرانية، التي دخلت عامها

إقدام الحكومة السوفيتية بالاحتجاج عند الحكومة الإيرانية، ولا سيما أن الحادث قد وقع في فترة كان كل من موسكو وطهران يسعيان إلى تحسين علاقاتهما المتوترة منذ فترة طويلة" (٣٧). إن تحسن العلاقات بين البلدين دفعت بالحكومة الإيرانية إلى رفع مستوى تمثيلها الدبلوماسي في موسكو، فعينت في أوائل تشرين الأول ١٩٨٦ سفيراً جديداً مشهوداً له بالكفاءة والنشاط، ويسعى إلى تطوير العلاقات بين البلدين، وهو ناصر حيران نوبري (٣٨) بدلاً من القائم بأعمالها (٣٩). وأكد غروميكو، رئيس الاتحاد السوفيتي، عند استقباله للسفير الإيراني الجديد في العاشر من تشرين الأول ١٩٨٦، أن الاتحاد السوفيتي يأمل في تطوير علاقات حسن الجوار بين البلدين مشيراً: "نحن في الاتحاد السوفيتي ننظر إلى الشعب الإيراني بإجلال فهو الذي أسقط الإمبريالية في بلاده" (٤٠).

القت تحسن العلاقات السياسية بين البلدين بظلالها على المجالات الاقتصادية الأخرى، فقد عقدت سلسلة من اللقاءات المشتركة في أوائل عام ١٩٨٦ بين مسؤولي البلدين، في كل من طهران وموسكو، ترأس الجانب السوفيتي قسطنطين كاتوشف، Konstantin F. Katushev رئيس الوفد السوفيتي إلى طهران مع محمد جواد ايرواني، الذي صرح بعد انتهاء المحادثات بأن: "تحسين العلاقات مع موسكو هي واحدة من أهم أولويات السياسة الخارجية الإيرانية" (٤١)، وأكد هاشمي رفسنجاني أيضاً على أهمية العلاقة مع الاتحاد السوفيتي، لكنه في الوقت نفسه لم يخف انتقاداته للسياسة السوفيتية تجاه حرب الخليج، والحرب في أفغانستان، بالقول: "كيف تحارب موسكو الثورة التي تناهض الإمبريالية، وتقف إلى جانب حكومة بغداد التي تنتهك صراحة الاتفاقيات الدولية" (٤٢). أما كاتوشف فقد صرح بدوره بأن هناك جهوداً تبذل من أجل تحسين العلاقات بين البلدين، وأشار إلى جملة من المشاريع التي ناقشها مع الجانب الإيراني، منها: تأسيس شركة شحن مشتركة في بحر قزوين، وتصدير الغاز الإيراني إلى أوروبا عبر الأراضي السوفيتية، والاتفاق على إنشاء سدين، أحدهما على نهر اراس، والآخر على نهر اترك على حدود البلدين، كذلك ناقشا عودة الفنانين السوفيت الذين غادروا إيران عام ١٩٨٥، بسبب الغارات الجوية العراقية على المشاريع الصناعية الكبرى في إيران (٤٣). وعلق رئيس الجمهورية الإيرانية "علي خامنئي" على أهمية هذه المحادثات الاقتصادية قائلاً: "إنها تشكل تقدماً كبيراً في توطيد علاقات البلدين الاقتصادية، ويمكن أن يكون لها تأثير سياسي بعيد المدى" (٤٤). يذكر أن اجتماعات اللجنة الاقتصادية الإيرانية-السوفيتية المشتركة كانت من المفروض أن تعقد جلساتها في عام ١٩٨٠، ولكن بسبب توتر علاقات البلدين السياسية تأجلت جلساتها مراراً وتكراراً لمدة ست سنوات (٤٥).

تواصلت اللقاءات المشتركة بين الطرفين؛ فقد نقلت الصحافة السوفيتية أن هناك مباحثات اقتصادية مشتركة تجري الآن في موسكو بين مؤسسة التجارة الخارجية السوفيتية مع شركة توانير الإيرانية الخاصة بإنتاج الكهرباء، حيث تناولت المباحثات كيفية زيادة إنتاج الطاقة الكهربائية في المحطة الحرارية في أصفهان إلى

السوفيتي للنظام العراقي، فقد نشرت صحيفة ازفيستا مقال أكدت فيه أن: "الاتحاد السوفيتي يطالب إنهاء الحرب عن طريق المباحثات بين البلدين... وأنه ضد المطالب الإيرانية بخصوص إزاحة صدام من السلطة"^(٤٦).

٣- وبسبب فضيحة الأسلحة الأمريكية الإيرانية (إيران غيت)، شهدت العلاقات الإيرانية-السورية توتراً ملحوظاً، بعد أن كانت سوريا المزود الرئيسي للأسلحة السوفيتية إلى إيران، فضلاً عن إطلاق سراح الرهائن الأمريكيين في لبنان دون مشورة القيادة السورية أو حتى علمها بذلك^(٤٧).

٤- ازدياد المخاوف الإيرانية من تطور العلاقات السوفيتية الخليجية، وأن يحل الاتحاد السوفيتي محل إيران في النفوذ والسيطرة على منطقة الخليج^(٤٨).

وبناءً على ما سبق من أسباب ودوافع أرسل، الرئيس الإيراني، علي خامنئي رسالة إلى الرئيس السوفيتي غروميكو، وحسب ما ذكرته وكالة تاس أن السفير الإيراني ناصر حيران نوبري سلم تلك الرسالة إلى الرئيس السوفيتي^(٤٩)، ثم جاءت زيارة علي أكبر ولايتي، وزير خارجية إيران، إلى موسكو في أواخر شباط ١٩٨٧، وحظيت الزيارة باهتمام كبير من المراقبين السياسيين في موسكو؛ فقد وصفت بانها أهم زيارة يقوم بها مسؤول إيراني كبير، حيث تخللت المباحثات التي أجراها ولايتي مع كل من رئيس الجمهورية اندريه غروميكو من جهة، ونيكولاس ريشكوف، رئيس الوزراء السوفيتي، من جهة أخرى، الكثير من عبارات الدبلوماسية المعهودة، مثل: رغبة الطرفين في توسيع العلاقات الثنائية القائمة على أساس مبادئ المساواة والاحترام المتبادل.

ومن جانب آخر صاحبت المباحثات العديد من الاختلافات في وجهات النظر بين الجانبين، ولا سيما موضوع الحرب الدائرة بين العراق وإيران، والأزمة الأفغانية، وقد أشار الرئيس السوفيتي غروميكو في خضم حديثه مع ولايتي إلى اختلاف وجهات نظر البلدين بخصوص الحرب العراقية-الإيرانية، وأكد: "أن تقييمه لهذه الحرب لا يتطابق مع الجانب الإيراني، وأن التفكير السليم يميل على الحكومة الإيرانية وجوب الاهتمام بالمستقبل لا بالماضي، قاصداً البحث عن سبل وقف الحرب مع العراق والنظر إلى مستقبل الشعب الإيراني وشعوب المنطقة"^(٥٠).

أما بخصوص الأزمة الأفغانية فلم يكن الغوص فيها أخف وطأة من قضية الحرب العراقية الإيرانية، حيث كان الجانب السوفيتي أكثر صراحةً عندما وجه اتهاماً مباشراً إلى الحكومة الإيرانية بأنها ترسل من أراضيها مجموعات مسلحة لتحارب الحكومة الأفغانية؛ لهذا يمكن القول إن مهمة ولايتي لم تكن بالمهمة السهلة في الجانب السياسي والدبلوماسي، غير أنها حققت نجاحات في المجال الاقتصادي، فقد اتفق الطرفان على إعادة تصدير الغاز الإيراني من جديد إلى الاتحاد السوفيتي، وإنشاء شركة سوفيتية إيرانية مشتركة^(٥١). وصرح علي أكبر ولايتي، للصحف الإيرانية بعد عودته إلى طهران بأن زيارته للاتحاد السوفيتي كانت ناجحة، على عكس ما أشيع عنها في الصحافة الغربية، وأن وزير الخارجية السوفيتي ادوارد

السابع، صراع لا معنى له، إن الأخ يقتل فيها أخاه، ولا يستفيد منه أحد سوى الولايات المتحدة وإسرائيل... إن توتر الموقف يتيح لواشنطن فرصة إبقاء قوات بحرية كبيرة بالقرب من الخليج، ويجعل من السهل اتباع سياسة فرق تسد في هذه المنطقة المهمة استراتيجياً والغنية بالنفط"، وأضاف المحلل: "لهذا السبب فقد تحولت إطالة أمد هذا الصراع إلى هدف استراتيجي لإسرائيل، كما أن كشف النقاب عن إرسال أسلحة أمريكية لإيران توضح أن حكومة الرئيس رونالد ريغان Ronald Reagan (١٩٨١-١٩٨٩) تميل إلى إذكاء الحرب العراقية-الإيرانية"، وبعد أن أوضح كاتب المقال الموقف الأمريكي من الحرب أشار إلى الموقف السوفيتي أيضاً، وقال: "بأن الاتحاد السوفيتي الذي أكد على حياديته في الحرب يواصل إمداد العراق بالأسلحة طبقاً للمعاهدة التي تربطهما، في الوقت الذي يسعى إلى تحسين علاقاته بإيران"^(٥٢).

ونفت وكالة نوفوستي Novosti السوفيتية للأنباء ما ذكرته صحيفة نيويورك تايمز عن أن الاتحاد السوفيتي باع في كانون الأول عام ١٩٨٦ أسلحة لإيران بما قيمته (١٨) مليون دولار لحاجته إلى العملات الأجنبية، وقالت الوكالة إن مثل هذه الأنباء ليست إلا محاولات للتشهير بسياسة الاتحاد السوفيتي، وخاصة في الوقت الحالي، بسبب تفاقم خطورة الوضع في منطقة الخليج^(٥٣).

ومن جانب آخر انتقدت الصحافة الإيرانية بدورها الموقف السوفيتي من الحرب، الذي عدته موقفاً غير حياديّاً من طرفي النزاع، ولا سيما بعد إعلان ممثل الاتحاد السوفيتي في الأمم المتحدة أن بلاده تقف على الحياد في النزاع الدائر بين العراق وإيران، فقد شنت صحيفة (رسالت) الإيرانية هجوماً لاذعاً ضد الاتحاد السوفيتي بقولها: "إن ممثلكم في الأمم المتحدة يعلن عن حياد بلادكم في الحرب، بينما الأسلحة السوفيتية المتنوعة لا زالت مستمرة بالتدفق إلى العراق، التي بها يقتل يومياً أبناء الشعب الإيراني، الذي يعلم حقيقة الموقف السوفيتي الداعم لنظام صدام الذي يحارب الثورة التي قضت على النفوذ الأمريكي في إيران...، ومن الآن لا يمكن قبول شعاراتكم ضد الإمبريالية والرجعية في إيران"^(٥٤).

وعلى الرغم من الانتقادات المستمرة للصحافة الإيرانية ضد المواقف السوفيتية في أثناء الحرب العراقية الإيرانية، إلا أن الموقف الإيراني الرسمي كان أقل تشدداً من موقف الصحافة؛ لأنها لم تكن تبغي وصول العلاقة بين البلدين إلى درجة القطيعة، ويمكن أن نعزو ذلك إلى عدة أمور منها:

- ١- زيادة الهجمات الجوية العراقية على المنصات والناقلات التي تحمل البترول الإيراني في الخليج، والتي أصبحت منطقة غير آمنة بالنسبة لها؛ ولكي تستطيع الاستمرار في الحرب كان لا بد من الاعتماد على الاتحاد السوفيتي، الذي أصبح نافذتها الوحيدة إلى أوروبا، ليس فقط للحصول على الأسلحة، وإمّا لتصدير بترولها إلى الخارج والحصول على العملة الصعبة.
- ٢- محاولة الحكومة الإيرانية عدم إثارة الجانب السوفيتي، في تلك الأونة، بهدف تقليل الدعم العسكري والسياسي

المناسبة لإنهاء الحرب، وأشار إلى أن بلاده تتفق مع أمريكا بهذا الشأن، وأنه يقف ضد كل من يهدد أمن المنطقة^(٥٧).

ويبدو مما سبق أن مسألة حماية الملاحة في الخليج، من وجهة النظر السوفيتية، ترتبط بقضية أشمل هي الأمن في الخليج، والتي لا يمكن تحقيقها إلا بإزالة التوتر الناجم عن استمرار الحرب العراقية-الإيرانية، وعلى هذا الأساس عرض المسؤول السوفيتي في جولته الخليجية تصوراً جديداً لإنهاء الحرب العراقية الإيرانية تتكون من خمس نقاط هي^(٥٨):

- ١- عقد اجتماع في مجلس الأمن الدولي على مستوى وزراء خارجية الدول الأعضاء، وبحضور الطرفين المعنيين أي: العراق، وإيران، يخصص لمناقشة النزاع العراقي الإيراني من مختلف جوانبه ولدراسة كيفية تسويته سلمياً.
- ٢- يصدر هذا الاجتماع قراراً إلزامياً بوقف إطلاق النار على الجبهة كخطوة أولى لا بد منها لتسوية النزاع سلمياً.
- ٣- يدرس مجلس الأمن جدياً إرسال قوات دولية إلى الجبهة للفصل بين قوات البلدين، وتأمين احترام وقف إطلاق النار.
- ٤- يصدر المجلس أيضاً حظراً دولياً على شحنات الأسلحة المرسلة إلى العراق وإيران، إلى أن يتوصلا إلى تسوية النزاع سلمياً بين الدولتين.
- ٥- يقوم مجلس الأمن بدور رئيسي في مساعدة العراق وإيران على تسوية النزاع بينهما بشكل يضمن حقوق الشعبين.

ومما لا شك فيه أن جولة بتروفسكي أظهرت أن موسكو تجد مزيداً من الصعوبة في المحافظة على نوع من التوازن الظاهري في علاقاتها مع إيران والعراق، وبنظر الحكومة الإيرانية جاءت هذه الزيارة؛ لكي تؤكد دعم المواقف المساندة للعراق، حيث أن التصريحات التي أطلقها بتروفسكي أكدت ذلك، منها تأكيداً أن الاتحاد السوفيتي: "يعارض كل من يعرضون حرية الملاحة في الخليج للخطر سواء بصورة مباشرة أو غير مباشرة"^(٥٩). ومن جانب آخر جاءت التصريحات الإيرانية على لسان قادتها، لتؤكد أن العلاقات الإيرانية-السوفيتية بدأت تسير في مرحلة صعبة، حيث أكد الرئيس الإيراني، علي خامنئي، في خطبة الجمعة في طهران، في أيار ١٩٨٧، أن: "الحكومة السوفيتية كانت تعلن مراراً بأنها تقف على الحياء في حرب الخليج، إلا أنها بدأت منذ فترة تتخذ مواقف موالية لصالح العراق، وهي أقرب لمواقف الإدارة الأمريكية تجاه العراق"^(٦٠). وأشار هاشمي رفسنجاني، رئيس مجلس الشورى الإيراني، إلى هذه الحقيقة، عندما صرح: "أن الاتحاد السوفيتي زود النظام العراقي بالأسلحة والمعدات المتطورة في الآونة الأخيرة"^(٦١).

وحول المبادرة السلمية التي أعلنتها الحكومة السوفيتية، أصدرت وزارة الخارجية الإيرانية بياناً رسمياً رفضت فيه المقترحات السوفيتية مؤكدة أن: "مهمة الحفاظ على الأمن في الخليج تقع على عاتق دول المنطقة فقط، وأن إيران يجب أن تضطلع بالمسؤولية الكبرى؛ لأن لديها أطول ساحل في الخليج"، ذكر البيان أيضاً أن القوتين العظميين هما السبب الرئيسي للتوتر في المنطقة، وعن المؤتمر الدولي للملاحة أشار البيان إلى: "أنه

شيفرنادزه Eduard Shevardnadze^(٥٢)، وافق على تلبية دعوته بزيارة طهران^(٥٣).

وفي السياق نفسه، ومن أجل تهدئة الأجواء المتوترة، مع الاتحاد السوفيتي آنذاك، انتقد هاشمي رفسنجاني، رئيس مجلس الشورى الإيراني، التصريحات الأمريكية التي أشارت فيها إلى غزو مرتقب للقوات السوفيتية للأراضي الإيرانية، حيث أشار رفسنجاني خلال خطبة الجمعة التي ألقاها في طهران في ١٢ آذار ١٩٨٧، إلى أن: "الإدارة الأمريكية تحاول، من خلال نشر تقارير وهمية، إثارة القلق والمخاوف بين حكومتي طهران وموسكو، بهدف سحب قواتنا من الجبهات العسكرية مع العراق إلى الحدود الشمالية مع الاتحاد السوفيتي"^(٥٤). هكذا كانت القيادات الإيرانية تحاول إنهاء خلافاتها مع الجارة الشمالية بكل الوسائل، وعدم تصديق الإشاعات التي كانت تبث من خلال الصحافة والتقارير الغربية بشأن تدهور العلاقات الإيرانية-السوفيتية، ومحاولة الأخيرة الهجوم على الأراضي الإيرانية.

ثانياً: العلاقات بين البلدين من المبادرة السلمية السوفيتية حتى نهاية الحرب العراقية-الإيرانية ١٩٨٧-١٩٨٨

لم تؤدِ المحاولات الإيرانية للتقرب من الجانب السوفيتي إلى تحسين في العلاقات بين البلدين، بل عاد التوتر يخيم بظلاله من جديد على العلاقات بينهما، نتيجة للمواقف السوفيتية الجديدة إزاء الحرب العراقية-الإيرانية، وكذلك التطورات المستجدة على مسرح العمليات العسكرية بين إيران والعراق، وتوسيع نطاق العمليات على الصعيد الإقليمي، وتأثيراتها السلبية على الصعيد العالمي، ويمكن توضيح ذلك من خلال الأمور الآتية:

١/٢-الموقف الإيراني من مبادرة السلام السوفيتية

تركت الانتصارات الإيرانية في الحرب تحوفاً عظيماً عند كل من الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي، حيث تعاونوا فيما بينهما من أجل ألا يكون هناك منتصر واحد، كما شهدت الحرب عام ١٩٨٧ تصعيداً كبيراً سواء على جبهة القتال، أو حرب المدن، أو حرب المنشآت الاقتصادية، أو حرب الناقلات النفطية، أو الاعتداء الإيراني على الكويت، وتصاعد احتمالات المواجهة بين الولايات المتحدة وإيران. هذا الأمر دفع بالاتحاد السوفيتي إلى تكثيف نشاطاته الدبلوماسية مع دول الخليج، ففي منتصف نيسان ١٩٨٧ قام فلاديمير بتروفسكي، نائب وزير خارجية الاتحاد السوفيتي، بجولة مكوكية إلى دول الخليج، حيث زار أول الأمر الكويت، ثم توجه إلى عمان والإمارات لتنتهي جولته في العراق، وفي نهاية لقاءاته، أشار إلى أن هناك توافقاً عاماً في مواقف الدول الخليجية بشأن أوضاع المنطقة، وضرورة إنهاء الحرب العراقية-الإيرانية المستمرة منذ سبع سنوات، كذلك تأمين مرور السفن في مضيق هرمز ومياه الخليج والمحيط الهندي^(٥٥). كما أكد في مؤتمر صحفي بعد لقاءاته مع المسؤولين العراقيين أن الاتحاد السوفيتي يحاول بقوة الاتصال بكل الدول المعنية من أجل تهيئة الأرضية

القتال ضد القوات العراقية، حيث وجدت أن القضاء على أهم حليف لها في العراق ستكون بمثابة ضربة موجعة ضد أمنها الوطني والاستراتيجي في المنطقة، وكذلك المخاوف السوفيتية من الدور الإيراني المتزايد في دعم القوات الأفغانية المعارضة للتواجد السوفيتي في أفغانستان، والتي حققت بدورها انتصارات متكررة ضد القوات السوفيتية فيها؛ لذا كانت الحكومة السوفيتية قلقة من مصير أفغانستان بأن تقع ضمن النفوذ الإيراني مستقبلاً، فضلاً عن المخاوف السوفيتية، في حال انتصار إيران على العراق، من ظهور جبهة قوية في قلب الشرق الأوسط، تتكون من إيران والعراق وأفغانستان، تحمل أيديولوجية إسلامية موحدة في مواجهة الإيديولوجية الشيوعية، التي ستترك ظلالها أثراً سلبية ونتائج خطيرة على سياسة الاتحاد السوفيتي في المنطقة، وكذلك قد تؤثر على الجمهوريات الإسلامية في الاتحاد السوفيتي^(٦٩).

تركت الاتفاقية السوفيتية-الكويتية ردود فعل سلبية عند الجانب الإيراني، فقد انتقد علي خامنئي، الرئيس الإيراني، الاتفاقية السوفيتية-الكويتية بشدة، وأظهر تعجبه من السلوك السوفيتي هذا، ومحذراً أن ذلك ليس من مصلحة الاتحاد السوفيتي^(٧٠). وأصدرت الخارجية الإيرانية بياناً انتقدت فيها تلك الاتفاقية، وأكدت أن الأمن لا يعود إلى الخليج بعقد تلك الاتفاقية^(٧١).

ومما زاد من توتر العلاقات بين البلدين الهجوم الذي شنته البحرية الإيرانية في الخامس من أيار ١٩٨٧ على السفينة السوفيتية إيفان كرويف Ivan Cruyff، التي استأجرتها للكويت، وبعد أقل من أسبوعين تعرضت سفينة سوفيتية أخرى وهي مارشال جيوكوف Marshal Chuykov إلى لغم بحري^(٧٢). مما أدى إلى ردود فعل سلبية لدى الاتحاد السوفيتي، حيث ذكرت وكالة تاس أن الهجوم الذي تعرضت له السفينة السوفيتية، والتي كانت تحمل مواد انشائية وأنابيب تصريف المياه، عمل قرصني، ونقلت وكالة تاس، عن أوساط سوفيتية مخولة أن السفينة تعرضت إلى قصف بالصواريخ ورمي الرشاشات من قوارب إيرانية صغيرة، عندما كانت متجهة إلى ميناء الدمام السعودي، موضحاً أن هيئات سوفيتية مخولة تتولى إجراء التحقيق الدقيق في ظروف وملابسات هذه الغارة القرصنية على السفينة السوفيتية المدنية^(٧٣).

وحذرت وزارة الخارجية السوفيتية الحكومة الإيرانية في بيان لها من مغبة استمرار الأخيرة في حملاتها الدعائية المعادية للاتحاد السوفيتي، وتشويه موقفها المحايد والواضح من الحرب العراقية-الإيرانية، حيث دعا البيان الحكومة الإيرانية إلى: "الاستجابة لصوت العقل"^(٧٤). وأضاف نائب وزير الخارجية السوفيتي، فلاديمير بترفوسكي أن لحكومة بلاده الحق الكامل، بموجب القوانين الدولية، الرد بالوقت والمكان المناسب على الهجمات الإيرانية في حال تكرار الاعتداءات العسكرية على سفنها^(٧٥).

وبعد الحملة الإعلامية المعادية بين إيران والاتحاد السوفيتي، بسبب موقف الأخير من دعم الطلب الكويتي لحماية سفنها، دأبت الصحافة الغربية على العمل لتعميق الهوة

سيكون عديم الجدوى، وأنه من الأفضل تقديم النصح إلى مؤيدي العراق بأن يمنعوا مساعداتهم لحكومة بغداد^(٦٩). كما صرح رئيس الوزراء الإيراني: "بأن بلاده سترد بقبضة من حديد على أية دسائس تدبرها القوى العظمى في الخليج ... وأن الخليج إما أن يصبح أمناً أمام الجميع أو غير آمن لأي جهة على الإطلاق"، وأكد أن الهجمات على السفن المتجهة للكويت لن تتوقف قبل أن تتوقف الغارات الجوية العراقية على الناقلات النفط الإيرانية^(٦٧).

٢/٢- أثر حرب الناقلات البترولية على العلاقات الإيرانية-السوفيتية

دخلت الحرب العراقية-الإيرانية منذ ١٩٨٤ مرحلة عرفت باسم (حرب الناقلات البترولية) اعتمد العراق على هذه العمليات كوسيلة لقطع تدفق النفط الإيراني إلى الخارج، في حين اعتمدت إيران في ردها على هذا الإجراء على الزوارق السريعة وصواريخ السلك وورم الصينية، التي نصبت في شبه جزيرة الفاو، وبعض القواعد الأخرى عند مضيق هرمز، بالإضافة إلى زرع الألغام البحرية في مياه الخليج، وتعاملت إيران مع السفن الأجنبية المارة في مياه الخليج بثلاث طرائق: الاعتراض، أو الاحتجاز، أو القصف^(٦٣).

وشهدت بداية سنة ١٩٨٧، اعتداءات إيرانية مستمرة على سيادة دولة الكويت، بهدف الضغط على العراق لوقف هجماته الجوية المتكررة على الناقلات والمنشآت النفطية الإيرانية في مياه الخليج، فضلاً عن ذلك حاولت الحكومة الإيرانية أن تبعث برسالة إلى دول الخليج الأخرى، تشير فيها إلى أن التهديد سيظل الجميع في حال استمرار الدعم الخليجي للعراق^(٦٤). ونتيجة لتكرار الاعتداءات الإيرانية على الكويت طلبت الأخيرة الدعم العسكري من الولايات المتحدة، والاتحاد السوفيتي، وفرنسا، وبريطانيا، والصين لحماية ناقلاتها التجارية في مياه الخليج، من خلال رفع الناقلات الكويتية لأعلام تلك الدول، ووافق كل من الاتحاد السوفيتي وفرنسا على الطلب الكويتي، إلا أن الدول الثلاث الأخرى رفضت ذلك^(٦٥). وبناءً على الموافقة السوفيتية للطلب الكويتي توصل البلدان إلى اتفاق في ١٤ نيسان ١٩٨٧، تضمن موافقة الاتحاد السوفيتي على استئجار ثلاث ناقلات بترول سوفيتية للكويت، أو السماح لها برفع العلم السوفيتي على ناقلاتها في أثناء أبحارها عبر مياه الخليج^(٦٦). وأوضح الناطق باسم وزارة الخارجية السوفيتية ذلك مؤكداً: "أن الاتحاد السوفيتي سيلبي الطلب الكويتي باستئجار ثلاث ناقلات بترول سوفيتية لمدة ثلاث سنوات قابلة للتمديد، وإذا اقتضت الضرورة فإن سلاح البحرية السوفيتية سيقوم بحماية تلك السفن"^(٦٧).

ويبدو أن موافقة الاتحاد السوفيتي على الطلب الكويتي جاء لتحذير النظام الإيراني بعدم المساس بحرية الملاحة في الخليج^(٦٨)، في حين رأت الحكومة الإيرانية أن الموافقة السريعة للحكومة السوفيتية على الطلب الكويتي جاءت لأسباب أخرى، فقد نشرت صحيفة (رسالت) الإيرانية الأسباب الكامنة وراء الموقف السوفيتي المؤيد للطلب الكويتي، فأرجعته إلى المخاوف السوفيتية من الانتصارات المتكررة للقوات الإيرانية في جبهات

الملاحدة الدولية على وفق الأسس والقوانين الدولية^(٨٠). واستقبلت إيران البيان السوفيتي بالترحيب، فقد أكد نائب وزير خارجية إيران في لقائه مع السفير السوفيتي في طهران على أن بلاده تؤيد ما جاء في البيان السوفيتي من خروج فوري لجميع القوات من الخليج^(٨١)، على الرغم من أنها كانت تشك في المبادرة السوفيتية، حيث نشرت إذاعة طهران: "أن الاتحاد السوفيتي استثنى وجود قواته في الخليج في البيان الذي أصدره"^(٨٢).

٣/٢- قرار مجلس الأمن ٥٩٨ والعلاقات الإيرانية-السوفيتية

شهدت العلاقات الإيرانية-السوفيتية تحسناً واضحاً، بعد إعلان الإدارة الأمريكية موافقتها على رفع أعلامها على السفن الكويتية في الخليج، كما تزامن مع ذلك تحسن في العلاقات العراقية- الأمريكية، مما دفع بالحكومة الإيرانية إلى التقرب أكثر من الاتحاد السوفيتي طالبة منه الدعم السياسي في المحافل الدولية، ولا سيما بعد صدور قرار مجلس الأمن الدولي المرقم ٥٩٨ في ٢٠ تموز ١٩٨٧، الذي يدعو إلى وقف الحرب العراقية- الإيرانية، وفرض عقوبات صارمة ضد الطرف الراض لتنفيد القرار^(٨٣).

ويبدو أن جزءاً من مسؤولية إذابة الجليد في العلاقات الإيرانية-السوفيتية يقع على عاتق الولايات المتحدة؛ لكونها لم تولي للعامل السوفيتي أية أهمية في سياستها تجاه دول الخليج وإيران، فهي كانت تعتقد أنه من الصعب جداً أن تشهد العلاقات الإيرانية-السوفيتية أي تطور سياسي مهم؛ لأن ما يفرق بينهما أكثر مما يجمعهما، فالاختلاف الإيديولوجي، وانعدام ثقة طهران بموسكو تاريخياً، والخلاف الحاد بشأن مسألة أفغانستان، والموقف من حرب الخليج، والتخوف السوفيتي من انتشار الأصولية الإسلامية بين جمهورياتها المسلمة، كل ذلك كفيل بأن لا تشهد العلاقات الإيرانية-السوفيتية أي تطور سياسي وعسكري واستراتيجي، عليه مارست الإدارة الأمريكية ضغطاً شديداً على إيران، وحاولت محاصرتها سياسياً واقتصادياً وعسكرياً، فلم يبق لها خيار إلا الاتصال والتفاهم مع الاتحاد السوفيتي^(٨٤).

ومن مظاهر تحسن العلاقات بين الاتحاد السوفيتي وإيران هو الاستقبال الحار الذي لقي به يولي فورنتسوف Yuli Vorontso، نائب وزير الخارجية السوفيتي في طهران من قبل علي خامنئي، رئيس الجمهورية في اب ١٩٨٧؛ فقد ادلى فورنتسوف بتصريحات أدان فيها الدور الأمريكي في الخليج، مؤكداً أن بلاده طالبت بخروج جميع السفن العسكرية الأجنبية من الخليج؛ لأن ليس هناك أي مسوغ لوجود القوى الأجنبية، ورداً على الموقف السوفيتي الراض لوجود القوات الأجنبية في منطقة الخليج، عبر الرئيس الإيراني، خلال لقائه بفورنتسوف، مؤكداً على تطوير العلاقات بين البلدين في مختلف المجالات، مشيراً إلى رفض بلاده لقرار مجلس الأمن الدولي ٥٩٨، الذي صدر بجهود ومسايع الإدارة الأمريكية، معداً آياه قراراً لا يصب في مصلحة إيران، ولا يحتوي على شيء جديد^(٨٥). وحرصاً من إيران على تطوير علاقاتها مع الاتحاد السوفيتي فقد استقبل الضيف السوفيتي مير حسين موسوي، رئيس الوزراء، وكذلك علي أكبر ولايتي، وزير الخارجية^(٨٦)، حيث أكدا خلال لقاؤهما على حرص

والتوتر بين البلدين، فقد أشارت صحيفة نيويورك تايمز الأمريكية إلى وجود محادثات سرية بين طهران وموسكو؛ للحيلولة دون تكرار الهجمات الإيرانية على السفن السوفيتية في الخليج، وأكدت الصحيفة أن الحكومة السوفيتية تحاول، عبر ممثلها في الأمم المتحدة، عدم تمرير قرار مجلس الأمن الدولي بدعم من الحكومة الأمريكية، بشأن حظر تصدير الأسلحة إلى إيران، في حال توقف الهجمات الإيرانية على السفن السوفيتية في الخليج^(٨٧).

وأشارت أيضاً مجلة Arabia الفرنسية في حزيران ١٩٨٧، بأن هناك خطة سوفيتية لاحتلال إيران، واستعرضت عدة سيناريوهات للموقف الذي يمكن أن يتخذه الاتحاد السوفيتي في حالة تحقيق انتصارات إيرانية حاسمة على القوات العراقية، مثل احتلال مدينة البصرة، أو الاقتراب من بغداد، أو تهديد حقول النفط في كركوك، وقالت أن إحدى هذه السيناريوهات هو زج وحدات سوفيتية محمولة جواً وبراً لعبور الحدود الإيرانية باتجاه طهران، وهذه العملية لن تكون صعبة لضخامة القوات السوفيتية المرابطة في مناطق القوقاز وكراسكوم في الشمال، فضلاً عن مراكز عسكرية داخل المناطق الشرقية لأفغانستان، وأوضحت أنه في حال تنفيذ سيناريو كهذا سيكون مسبوقاً باتفاق أمريكي سوفيتي، وأولها أن تتعهد موسكو رسمياً بسحب قواتها ما إن تنتهي مهمة هذه القوات^(٨٨).

ونشرت صحيفة وول ستريت جورنال The Wall Street Journal الأمريكية مقالاً بعنوان (إيران تعرض على الاتحاد السوفيتي مد خط أنابيب مع الخليج) قالت فيه: "إن إيران قد اتفقت مع الاتحاد السوفيتي على فتح خط سكة حديد وخط الأنابيب لربط البلدين، وأن هذين الخطين الاستراتيجيين سيعطيان الاتحاد السوفيتي ميزة طالما حرمتها منها إيران في الماضي، وهي الوصول إلى ميناء على المياه الدافئة في الخليج، وأوضحت أن خط الأنابيب سيسمح لطهران بنقل البترول من وإلى الاتحاد السوفيتي، في حالة ما إذا توقفت خطوط البترول الإيرانية، كما أن خط السكك الحديدية سيسمح بنقل البضائع من الاتحاد السوفيتي إلى دول الخليج، ومقابل هذا الامتياز ستطالب الحكومة الإيرانية الاتحاد السوفيتي بالابتعاد عن الجهود الأمريكية الرامية لحماية الملاحدة الدولية في الخليج، ودعوة الاتحاد السوفيتي إلى أن تقلل من تزويد العراق بالأسلحة والمعدات، أو تزويد إيران بنفس الكميات التي تزود العراق بها^(٨٩).

خف التوتر في العلاقات الإيرانية-السوفيتية بعد موافقة الولايات المتحدة على رفع العلم الأمريكي على الناقلات الكويتية^(٩٠)؛ لأن ذلك سيعني زيادة التواجد الأمريكي في منطقة الخليج، الذي لم ترغب به الحكومة السوفيتية مما دفع بها إلى إصدار بيان شديد اللهجة أكدت فيه أن: "التوتر في منطقة الخليج بلغ مرحلة خطيرة قد تسبب في خلق أزمة دولية، وإن لم نقم بإيقافها والسيطرة عليها فإنها ستهدد الأمن والسلم الدوليين بالصميم"، وطالب البيان بالخروج الفوري لجميع السفن الأجنبية من الخليج، وأن يتعامل كل من العراق وإيران مع

إيران تأنيها من شركات وحكومات غربية بالأساس، كما أن الاتحاد السوفيتي لا تباع الأسلحة لإيران منذ عدة سنوات^(٩٢).

وفعلًا أعلن أدوارد شيفرنادزه، وزير خارجية الاتحاد السوفيتي، أن بلاده لا تؤيد دعوة الولايات المتحدة لفرض حظر دولي على صادرات السلاح لإيران، وقال في كلمته أمام الجمعية العامة للأمم المتحدة: "إن على مجلس الأمن أن يبحث مسألة تحديد من المسؤول عن بدء نزاع الخليج، وبأن تتكفل قوة دولية تحت إشراف الأمم المتحدة بحماية الملاحة في الخليج"^(٩٣). يعكس خطاب شيفرنادزه تغييرًا واضحًا في السياسة السوفيتية وموقفه من الحرب العراقية-الإيرانية باتجاه دعم الموقف الإيراني دوليًا.

دفع الموقف السوفيتي الجديد الحكومة الإيرانية إلى تدارك أهمية العلاقة بين البلدين، ففي لقاء تلفزيوني لهاشمي رفسنجاني مع شبكة (A.T.N) البريطانية أكد أن: "إيران والاتحاد السوفيتي لا يستطيعان إلا أن يكونا أصدقاء" وعندما أشار مراسل الشبكة إلى أن موسكو ما زالت من أكبر المصدرين للسلاح إلى العراق، أجابه رفسنجاني: "نعتقد بأن العلاقات بين البلدين إذا ما وصلت إلى مستويات متقدمة، سيتم حل مشكلة تصدير الأسلحة إلى العراق أيضًا؛ لأن مصالحنا مشتركة، ولنا حدود طويلة مشتركة"^(٩٤)؛ لهذا ليس من المستغرب أن يقول وزير خارجية العراق: "إن الاتحاد السوفيتي الذي كان يسعى من أجل تنفيذ اتفاقية وقف القتال بدأ يقف إلى جانب إيران، ويدعم مواقفها"^(٩٥).

وقدمت صحيفة الأوبزرفر The Observer البريطانية في مقالها الذي نشرته في أواخر تشرين الأول ١٩٨٧، بعنوان (إيران تباع تأييدها لقضية أفغانستان لو ضمنت شراء تأييد السوفيت في الخليج) تفسيرًا جيدًا لواقع التقارب السوفيتي الإيراني الجديد، حيث أكدت أن موسكو وطهران تتحركان نحو المزيد من التقارب بينهما، في الوقت الذي تتباعد موسكو عن بغداد التي تزداد علاقاتها مع الولايات المتحدة، وأوضحت الصحيفة أن هذا التقارب بين موسكو وطهران يرتبط برغبة الاتحاد السوفيتي في الخروج من أفغانستان، فإيران تأوي نحو مليوني لاجئ أفغاني، وتقدم دعمًا نشطًا للثوار المعادين للاتحاد السوفيتي، ويعد قطع هذا الدعم هدفًا رئيسيًا له. أما هدف إيران من التقارب مع موسكو فيمكن في أنه كلما اشتد عليها الضغط في حرب الخليج تصبح أكثر استعدادًا لتقديم تنازلات في القضية الأفغانية، بهدف الحصول على تأييد دبلوماسي سوفيتي في الخليج، وهكذا كلما تخلت إيران عن هدفها لإقامة حكومة إسلامية في كابول زاد التأييد الذي تتوقع الحصول عليه من موسكو في حربها ضد العراق^(٩٦).

وعلى ذلك الأساس ظل الاتحاد السوفيتي يرفض بإصرار فرض أية عقوبات اقتصادية وعسكرية على إيران بموجب قرار مجلس الأمن رقم ٥٩٨، كما ظل يطالب بانسحاب جميع السفن الحربية الأمريكية والأوروبية من منطقة الخليج، والتي كان يبلغ عددها (٧٩) سفينة حربية، واقترحت موسكو مرة أخرى تكوين

الحكومة الإيرانية على تطوير علاقاتها مع الاتحاد السوفيتي في كافة المجالات، ولا سيما مد خطوط أنابيب النفط، وتوسيع التعاون في مجال الطاقة، وتكرير النفط، وصناعة الحديد والصلب، والنقل البحري المشترك في بحر قزوين، والتخطيط لإنشاء سكك الحديد من الحدود السوفيتية إلى مياه الخليج^(٩٧).

ومما لا شك فيه أن زيارة يولي فورنتسوف تركت آثارًا إيجابية مهمة في مسيرة العلاقات الإيرانية-السوفيتية؛ لأن الحكومة السوفيتية كانت منزعة من زيادة الاعتماد الكويتي على الولايات المتحدة، كذلك قلقها من التطور الذي شهدته العلاقات الأمريكية-العراقية، كما كان هناك مخاوف سوفيتية من قيام الولايات المتحدة بشن حملة عسكرية ضد إيران، فصحافتها أشارت مرارًا وتكرارًا إلى ذلك، فصحيفة البرافدا كانت تؤكد في مقالاتها الافتتاحية أن وجود القوى الأجنبية في منطقة الخليج تعقد من عملية السلام فيها، كما قللت الصحافة السوفيتية في مقالاتها الافتتاحية من انتقاداتها لإيران على أنها السبب في إطالة أمد الحرب، وفعلت إيران الشيء نفسه، فقللت صحافتها من انتقاداتها للاتحاد السوفيتي، فعلى سبيل المثال: انتقد الخميني في رسالته، التي ألقاها في ٢٨ تموز ١٩٨٧، الإدارة الأمريكية مرارًا وتكرارًا، دون أن ينتقد الاتحاد السوفيتي بشكل واضح^(٩٨). كما قللت موسكو من شحنات الأسلحة إلى العراق؛ لهذا أكد فورنتسوف في لقاءاته مع المسؤولين الإيرانيين أن بلاده تدعم المقترح الإيراني حول إيقاف جميع العمليات العسكرية في مياه الخليج، كما أكد أن بلاده لن تزيد من عدد سفنها في الخليج، فضلًا عن ذلك ناقش فورنتسوف إمكانية فتح خط أنابيب الغاز إلى جمهوريات الاتحاد السوفيتي الجنوبية^(٩٩).

وفي خطوة أخرى طرحت موسكو في الرابع من أيلول ١٩٨٧، مبادرة سلام جديدة في الخليج دعت من خلالها إلى إيقاف فوري للهجمات على السفن، وانسحاب جميع الأساطيل الأجنبية من مياه الخليج، وأرادت موسكو من وراء ذلك تحقيق عدة أهداف، منها: إبعاد النفوذ الأمريكي من الخليج، حيث كانت الولايات المتحدة تستغل التهديد الإيراني لإنشاء قواعد جديدة في دول الخليج، كما أرادت تحقيق تقارب أفضل مع كل من العراق وإيران، وبدورها وافقت إيران على المبادرة السوفيتية؛ لتحقيق عدة مكاسب منها: الرغبة في إنهاء الوجود الأمريكي في الخليج، والاعتماد على الاتحاد السوفيتي في صادراتها التجارية والنفطية في حال غلق مضيق هرمز، كذلك للحيلولة دون قيام الاتحاد السوفيتي بتأييد قرار الأمم المتحدة الذي يحمل عقوبات قوية ضد إيران^(٩٩).

وعلى الرغم من فشل المبادرة السوفيتية بشأن إيقاف الهجمات العسكرية ضد السفن الأجنبية في الخليج إلا أن العلاقات الإيرانية-السوفيتية استمرت بالتحسن، ولا سيما بعد إعلان غورباتشوف أن إصدار أي قرار أممي حول فرض عقوبات على إيران، وحظر تصدير السلاح إليها سيكون غير مجد إذا رفضته الأخيرة^(٩١). واستند الموقف السوفيتي إلى عدة مسوغات دبلوماسية منها: إنه من الصعوبة بمكان تنفيذ قرار دولي بحظر الأسلحة، وخاصة أن جزءًا كبيرًا من الأسلحة التي تحصل عليها

إيران في حال عدم قبولها بالقرار، الأمر الذي أزعج حكومة طهران وتسبب في حدوث فتور العلاقات بينهما فيما بعد^(١٠٣). كما كان للهجمات الصاروخية العراقية على معظم المدن الإيرانية الرئيسية اثره البالغ في توتر علاقات البلدين، حيث إن الحكومة الإيرانية اتهمت الحكومة السوفيتية بأنها هي التي زودت الحكومة العراقية بتلك الصواريخ. ويذكر الحكومة السوفيتية زودت العراق خلال العام (١٩٨٧-١٩٨٨) ما مجموعه (٣٠) صاروخ فراك 7- و(٢٠) صاروخ سكودB^(١٠٤). فضلاً عن الإدانة الإيرانية للتنسيق والتشاور الأمريكي السوفيتي في نيسان ١٩٨٨ بخصوص إنهاء الأزمة الأفغانية^(١٠٥)، مما كان له تأثيره على العلاقات الاقتصادية بين البلدين، حيث كان معظم صادرات إيران مع الدول الغربية، فكان أكثر من (٥٠%) من صادراتها مع كندا واليابان وأوروبا الغربية، وبشكل خاص مع ألمانيا الغربية؛ إذ وصل قيمة التبادل التجاري بينهما إلى أكثر من (٢,٥) مليار دولار^(١٠٦).

وبعد أن استمرت الحكومة الإيرانية في عدم قبولها لقرار مجلس الأمن ٥٩٨، أعلن ممثل الاتحاد السوفيتي لدى الأمم المتحدة، الكسندر بلونوAlexander Belluno، في مؤتمر صحفي له أن بلاده وافقت على المقترح الأمريكي-البريطاني الذي يدعو إلى عدم بيع الأسلحة لإيران، كوسيلة ضغط عليها لإجبارها على إنهاء الحرب مع العراق^(١٠٧). ولتوضيح موقف الحكومة السوفيتية للحكومة الإيرانية توجه فلاديمير بتروفسكي إلى طهران، والتقى برئيس الوزراء مير حسين موسوي ووزير الخارجية علي أكبر ولايتي، وتناولت المباحثات بين الطرفين الأزمة الأفغانية؛ فقد أكد بتروفسكي عزم بلاده على سحب قواته من أفغانستان، وبالمقابل أكدت الحكومة الإيرانية أن هذه الخطوة سوف تكون مهمة في تطوير علاقات البلدين^(١٠٨). لكن الصحافة الإيرانية لم تطرق بأي إشارة لمباحثاتهما حول الحرب مع العراق وأن عدم التطرق للموقف الجديد الذي اتخذته الحكومة السوفيتية من الحرب يعني بوضوح الرفض الإيراني له^(١٠٩).

خلقت حرب المدن توتراً شديداً في العلاقات الإيرانية-السوفيتية، ولا سيما بعد أن زاد العراق من هجماته الصاروخية على طهران مما تسبب في قتل العديد من المدنيين، الأمر الذي أثار حفيظة الجماهير الإيرانية التي تظاهرت في عدة مدن إيرانية، اتهمت الحكومة السوفيتية بأنها وراء تزويد العراق بالصواريخ التي تضرب المدنيين في طهران، إلا أن السفير السوفيتي في طهران فلاديمير غودوف^(١١٠) قدم توضيحاً إلى الخارجية الإيرانية بين فيه أن الصواريخ السوفيتية التي زودت بها العراق، مداها لا تصل إلى مدينة طهران، وعليه لا تتحمل مسؤولية الهجمات الصاروخية للعراق، بل هذه الصواريخ طورها الخبراء العراقيون بمساعدة الخبراء الغربيين وتحديدًا الخبراء الألمان^(١١١).

وعلى الرغم من التوضيح السوفيتي بشأن الصواريخ العراقية إلا أن المظاهرات الجماهيرية استمرت في عدد من المدن الإيرانية، والتي كانت ترفع شعارات معادية ومنذدة بالموقف السوفيتي من الحرب، حيث هاجم المتظاهرون القنصلية

قوة بحرية عسكرية من الدول الكبرى تابعة لإشراف الأمم المتحدة لضمان حرية الملاحة في الخليج^(١١٢).

بدأت العلاقات الإيرانية-السوفيتية تشهد تحسناً واضحاً في كافة الصعد، فقد صرح هاشمي رفسنجاني، في لقائه مع صحيفة اساهي شيمبون Asahi Shimbun اليابانية في أواخر تشرين الثاني ١٩٨٧، بأن بلاده بدأت حالياً تتفاوض مع الجانب السوفيتي بخصوص عقد معاهدة دفاع مشتركة جديدة، التي ستحل محل معاهدة ١٩٢١، والتي لم تعد تأخذ بها الحكومة الإيرانية منذ عام ١٩٧٩، وأضاف رفسنجاني بأنه سيزور موسكو قريباً بناءً على دعوة من الحكومة السوفيتية^(١١٣). وتواصل لهذا التقارب بين البلدين أذاع راديو طهران في ٢٠ تشرين الثاني ١٩٨٧، نبأ عن توقيع اتفاقية تمهيدية بينهما في طهران، يسمح للأخيرة باستخدام سفنها الممرات المائية داخل الاتحاد السوفيتي، وأعلن أحمد مدني، نائب وزير الطرق والنقل الإيراني، أن الاتفاق يتيح للسفن الإيرانية دخول بحري قزوين والأسود ومغادرتها عن طريق الممرات المائية السوفيتية، وأضافت إذاعة طهران أن الجانبين الإيراني والسوفيتي اتفقا على إنشاء خطوط ملاحية مشتركة بين مدينة باكو السوفيتية ومدينتي بوشهر وانزلي الإيرانية، ويدرسان أيضاً شق طريق بين البلدين وبلغاريا تستفيد منه إيران في تجارتها مع الدول الأوروبية^(١١٤).

وإزاء هذا التحسن في العلاقات الإيرانية-السوفيتية ظلت الإدارة الأمريكية مستمرة في توجيه التهم للحكومة السوفيتية؛ لكونها الجهة المعرقلة لإجراء المباحثات حول صيغة توافقية لتطبيق قرار الأمم المتحدة ٥٩٨، فقد أعلن مساعد وزير الخارجية الأمريكي، ريتشارد مورفيRichard Murphy، أن الموقف السوفيتي إزاء الحرب العراقية-الإيرانية له وجهان متناقضان، وأشار فيليس اوكلليPhyllis Oakley، المتحدث باسم الخارجية السوفيتية، في رده على تصريح مورفي إلى أن بلاده ترفض جميع القيود المفروضة على بيع الأسلحة لإيران^(١١٥). وأشار غورباتشوف، في لقائه مع العاهل الأردني حسين بن طلال في موسكو، إلى أن بلاده ليست ضد مسألة حظر الأسلحة لإيران، بل تعد قرار مجلس الأمن ٥٩٨ هو الخيار الأمثل لوضع نهاية الحرب بين العراق وإيران^(١١٦).

وفضلاً عما سبق فقد شهدت العلاقات بينهما تحسناً ملموساً في مجال النقل الجوي، والتعاون في مجال الطاقة والتنقيب عن النفط، ومد خطوط الأنابيب من إيران إلى موانئ البحر الأسود عبر الأراضي السوفيتية، مما أدى بالنتيجة إلى الإفراج عن نورالدين كيانوري، سكرتير حزب توده الإيراني، وتخفيف حدة اللهجة الإعلامية المعادية للطرفين أحدهما ضد الآخر^(١١٧).

٤/٢-توتر العلاقات الإيرانية السوفيتية عام ١٩٨٨

مع مطلع عام ١٩٨٨، شهدت العلاقات بين البلدين توتراً من جديد، تعود لجملة أسباب ومتغيرات إقليمية ودولية، من أبرزها محاولة غورباتشوف في أن يقوم بدور الوساطة في إنهاء الحرب العراقية-الإيرانية، إلا أن الرفض الإيراني المستمر لقرار ٥٩٨، دفعت بالحكومة السوفيتية على الموافقة بتطبيق بنود القرار المذكور، التي نصت على فرض عقوبات عسكرية واقتصادية على

بشكل مستمر في منطقة الخليج، ونطالبها بالخروج الفوري لأساطيلها من المنطقة" (١١٩).

وبعد مرور أسبوعين على هذه الحادثة وافقت الحكومة الإيرانية على قرار مجلس الأمن الدولي المرقم ٥٩٨، وذلك في ١٨ تموز ١٩٨٨، وقال الخميني في خطابه إلى الأمة الإيرانية إن موافقته على القرار كانت "أصعب من تجرع السم" (١٢٠). وأصدرت الحكومة السوفيتية بياناً بهذه المناسبة، قالت فيه: "إن توقف النزاع الطويل المميت والخطير... سيترك تأثيراً كبيراً على ميزان التسلح في المنطقة في المستقبل...، وستؤمن حرية وسلامة الملاحة في الخليج العربي...، وإن الاتحاد السوفيتي مستعد لأن يسحب وبدون تأخير أساطيله في حال إذ أقدمت الدول الأخرى على عمل مماثل...، والاتحاد السوفيتي مستعد لأي نوع من المساعدة والتعاون بين العراق وإيران..." (١٢١).

شكلت نهاية الحرب بين العراق وإيران نقطة تحول مهمة في مسار العلاقات الإيرانية-السوفيتية مستقبلاً، وفي كافة الصعد، وحاولت الشركات السوفيتية أن تجد لها مكاناً في إيران للمشاركة فيها بعقود التنمية والاستثمار، فعندما عقد معرض طهران الدولي للتجارة في أيلول ١٩٨٨، كان الحضور السوفيتي ودول أوروبا الشرقية هو الأكبر والأثقل فيه، فقد شارك في مراسيم افتتاح المعرض، فينمين كورليف Veneman Korleaf، نائب وزير العلاقات الاقتصادية الخارجية السوفيتي، الذي صرح بعد لقائه بنظيره الإيراني علي مجيدي، قائلاً: "نحن حريصون على تطوير العلاقات والمبادلات الاقتصادية والفنية مع إيران... وأن اللجنة الاقتصادية المشتركة بين البلدين ستعقد اجتماعها قريباً في موسكو لبحث ومناقشة سبل تطوير العلاقات بين البلدين" (١٢٢). وأعلن نائب وزير العلاقات الاقتصادية الخارجية السوفيتي أن حجم المبادلات التجارية بين إيران والاتحاد السوفيتي في سنة ١٩٨٦ وصل إلى (١٠٠) مليون دولار، وازداد هذا الرقم في سنة ١٩٨٧ إلى (٢٥٠) مليون دولار، ومن المقترح أن يصل في عام ١٩٨٨ إلى (٣٥٠) مليون دولار، وأضاف إنه خلال مدة ٢٥ سنة من التعاون الاقتصادي بين البلدين تم تأسيس (١٢٠) مشروعاً صناعياً في إيران، ويمكن الإشارة إلى هذه المشاريع مثل: معامل الحديد الصلب، وصناعة السيارات، وتوزيع شبكة الغاز (١٢٣).

هكذا انتهت مرحلة مليئة بالمد والجزر بين البلدين، تخللتها أحداث ومتغيرات إقليمية ودولية قت بظلالها سلباً وإيجاباً على العلاقات بينهما، انتهت بوقف الحرب العراقية-الإيرانية، ثم وفاة آية الله الخميني في الثالث من حزيران ١٩٨٩، وبدأت مرحلة جديدة من العلاقات كانت أقرب إلى التطبيع بدوافع سياسية، واقتصادية، وأمنية، واستراتيجية.

السوفيتية في أفهان، وألحقت بها خسائر مادية فادحة، مما دفعت بالخارجية الإيرانية إلى تقديم اعتذار رسمي للحكومة السوفيتية، وأنكرت فيه عدم علمها بالحدث، متهمة المهاجرين الأفغان بهذا العمل، وأنها ستقوم بتعويض الخسائر التي لحقت بالانفصالية (١٢٤).

تكررت الاعتداءات الإيرانية على الممثلات الدبلوماسية السوفيتية في إيران؛ ففي السادس من آذار ١٩٨٨ هاجم الآلاف من الإيرانيين السفارة السوفيتية في طهران، وحاولوا اقتحامها، وذكرت وكالة تاس السوفيتية أن حشدًا من العناصر المثيرة للشغب حاولت اقتحام السفارة السوفيتية في طهران، ورشقوها بالحجارة، وألقوا عليها مواد مشتعلة، الأمر الذي هدد حياة العاملين بالسفارة، وأكدت وكالة تاس إن هذه الحادثة تأتي بسبب اعتقاد إيران أن العراق يستخدم صواريخ سوفيتية الصنع في قصف المدن الإيرانية، وأشارت إلى بيان لوزارة الخارجية السوفيتية والتي قالت فيه: "إن القوى التي تعارض التحسن الحالي في العلاقات السوفيتية-الإيرانية يريدون إعادة كل شيء إلى لا شيء من ذلك التقدم الذي حصل مؤخراً في علاقات البلدين" (١٢٥). فضلاً عن ذلك قدمت الحكومة السوفيتية مذكرة احتجاجية رسمية إلى الحكومة الإيرانية، كما استدعت وزارة الخارجية السوفيتية ماجد قرماني القائم بالأعمال الإيراني في موسكو وحذرت أنه: "القيادة السوفيتية تشعر بالقلق مما حدث، وتأخذ على محمل الجد الهجمات على المواقع الدبلوماسية السوفيتية" (١٢٦).

ويبدو أن الجهات الرسمية في إيران كانت تتعاطف مع المتظاهرين، وتؤيد صحة شعاراتها حول تزويد موسكو لصواريخ بعيدة المدى للحكومة العراقية، فقد قامت الجهات الأمنية الإيرانية المتخصصة بتفكيك وتفجير الصواريخ، بإجراء عملية تفجير صاروخ عراقي من صنع السوفييت، من تلك الصواريخ التي أطلقت على طهران، ولم تنفجر في حينها، أمام الفسحة الخالية قبالة السفارة السوفيتية، مما تسبب في تهشيم زجاج مبنى السفارة ومقر السفير وبيوت موظفي السفارة (١٢٧).

وعلى الرغم من تصاعد التوتر بين البلدين إلا أن موسكو لم تكن ترغب في زيادة التوتر بينهما بسبب تلك الأحداث، بل اكتفت بالإجراءات الدبلوماسية، كتقديم المذكرات الاحتجاجية، والتحذيرات، وسحب السفراء (١٢٨). ومن جهة أخرى كانت موسكو حينها بصدد سحب قواتها من أفغانستان، والتي كانت تنتظر أن يؤدي ذلك القرار إلى تحسين العلاقات مع إيران (١٢٩).

وجدت الحكومة السوفيتية الفرصة المناسبة للتقرب من إيران والتودد لها عندما أسقطت القوات البحرية الأمريكية في الخليج طائرة إيرانية مدنية تقل (٢٩٠) راكباً، وقتلت جميع من فيها، في الثالث من تموز ١٩٨٨ (١٣٠)، فقد شجبت الحكومة السوفيتية هذه الحادثة، ونشرت وكالة تاس موقف حكومتها الرسمي بالقول: "إن مسؤولية هذه الحادثة المؤلمة تقع على عاتق الولايات المتحدة؛ لأن الحادثة لم تكن مصادفة مطلقاً، بل إنها جاءت نتيجة لقيام الإدارة الأمريكية بزيادة عدد قواتها

الهوامش:

(١) ميخائيل غورباتشوف: من مواليد الثاني من آذار ١٩٣١، خريج كلية القانون جامعة موسكو عام ١٩٥٥، انضم إلى الحزب الشيوعي عام ١٩٥٠، تولى عام ١٩٨٢ رئاسة لجنة الشؤون الخارجية للحزب، ثم منصب الأمين العام للحزب خلال (١٩٨٥-١٩٩١) ومنصب رئيس الدولة خلال (١٩٨٨-١٩٩١) أدت برامجه الإصلاحية المعروفة بـ (الغلاسنوت والبريستويكا) إلى تغير جذري في السياسة الداخلية والخارجية للاتحاد السوفيتي نحو التعايش السلمي. للتفاصيل، يُنظر: ستروب تالوب، ميخائيل غورباتشوف-سيرة ذاتية مفصلة، إعداد: مجلة التايم الأمريكية، ترجمة: دار طلاس للدراسات والترجمة، (دمشق، ١٩٩٠)، ص ٢٣ وما بعدها.

(٢) للتفاصيل، يُنظر: نازلي معوض أحمد، "النظرة السوفيتية الجديدة للصراع والتوازن في العالم المعاصر"، مجلة السياسة الدولية، العدد (٩٤)، القاهرة، تشرين الأول ١٩٨٨، ص ١١٥-١٣٠.

(٣) كارول ر. سيوتز، اتحاد شوروي وخليج فارس در دهه ١٩٨٠، ترجمه: بيذن اسدي، (تهران، ١٣٩٠)، ص ١٢٠-١٢١.

(٤) اطلاعات، ١٣٦٤/١/٢٨؛ كيهان، شماره (١٢٤٦)، ١٣٦٤/١/٢٨.

(٥) الأهرام، العدد (٣٥٩٩٦)، ٢٩/ حزيران/ ١٩٨٥.

(٦) علي أكبر ولايتي: من مواليد طهران عام ١٩٤٥، أنهى فيها دراسته الابتدائية والمتوسطة والإعدادية. درس الطب وتخصص في طب الأطفال بشهادة دكتوراه من جامعة طهران، ثم شهادة أخرى في أمراض الالتهابات من جامعة "جون هوبكينز" الأمريكية. انتمى للجهة الوطنية عام ١٩٦٢، وبعد انتصار الثورة الإسلامية، شغل منصب مساعد وزارة الصحة، ثم اختير نائباً عن أهالي طهران في الدورة الأولى لمجلس الشورى الإسلامي، ليتسلم بعدها حقيبة الخارجية، وظل وزيراً لخارجية الجمهورية الإسلامية مدة ١٦ سنة، وهو يشغل منذ عام ١٩٩٧ منصب مستشار الشؤون الدولية لقائد الثورة الإسلامية آية الله السيد علي خامنئي. يُنظر: علي أكبر ولايتي في سطور، منشور على الرابط:

[HTTP://ARABIC.IRIB.IR/NEWS/ITEM/415/131096/40/%D8%B9](http://arabic.irib.ir/news/item/415/131096/40/%D8%B9)

(٧) اطلاعات ١٣٦٤/٤/٢٩.

(٨) كيهان ١٣٦٤/٩/٢.

(٩) للتفاصيل، يُنظر: سمير محمد عبد الوهاب، "زيارة الرئيس العراقي إلى موسكو"، مجلة السياسة الدولية، العدد (٨٤)، القاهرة، أبريل ١٩٨٦، ص ١٥٥-١٥٨.

Саид Кхудейда Ало, . Советско-иракские отношения и позиции СССР по курдской проблеме в 1958-1991 гг. Ростов-на-Дону – 2010, С 124.

سعيد خديدا علو، العلاقات السوفيتية العراقية ومواقف الاتحاد السوفيتي من القضية الكردية ١٩٥٨-١٩٩١، رستوف على نهر الدون، ٢٠١٠. باللغة الروسية.

(١٠) نقلًا عن: سمير محمد عبد الوهاب، المصدر السابق، ص ١٥٧.

(١١) اطلاعات، ١٣٦٤/٩/٢٦.

(١٢) كيهان، شماره (١٢٦٣١)، ١٣٦٤/١٠/٨.

(١٣) كارول ر. سيوتز، مصدر تيشين، ص ١٢٨-١٢٩.

(١٤) اطلاعات، ١٣٦٤/١١/٣؛ الأهرام، العدد (٣٦٢١٦)، ٣/ شباط/ ١٩٨٦.

(١٥) رابرت فريدمان، طورباضوف، ايران، جنط ايران وعراق، مترجم: إبراهيم متقى، الهه كولاي، بحث منشور ضمن كتاب: نيكي كدي، نه شرقى، نه غربى روابط خارجى ايران با امريكا واتحاد شوروى، مترجمين: إبراهيم متقى، الهه كولاي، (تهران، ١٣٧٩)، ص ٨٠.

لقد تركت الحرب العراقية-الإيرانية، وتطور الأحداث والعمليات العسكرية بينهما آثارًا سلبية على الموقف السوفيتي من الحرب، وكذلك على علاقاتها مع إيران؛ ولهذا تميز الموقف السوفيتي بالتغير طبقًا للمتغيرات الدولية والإقليمية ومستجدات العمليات العسكرية بين العراق وإيران. وتتميز موقفها من بداية الحرب وحتى وصول غورباتشوف إلى السلطة بدعم العراق على حساب إيران، في حين تميزت الفترة (١٩٨٥-١٩٨٨) بالتحسن التدريجي في علاقات البلدين اقتصاديًا وسياسيًا وعسكريًا.

بشكل عام تركزت الاستراتيجية السوفيتية تجاه الطرفين خلال الفترة (١٩٨٥-١٩٨٨) على إبعاد طرفي الحرب من إقامة علاقات وصلة وثيقة مع الولايات المتحدة الأمريكية، وهذا ما تحقق بالفعل؛ فقد خرج الاتحاد السوفيتي، بعد انتهاء الحرب العراقية-الإيرانية، بعلاقات أقوى مع كل من العراق وإيران، في الوقت الذي أصبح لهما علاقات عدائية مع الولايات المتحدة.

كما إن مرحلة (١٩٨٥-١٩٨٨) تعد من أهم مراحل العلاقات الإيرانية-السوفيتية؛ فقد زال فيها عوامل التوتر الأساسية في علاقات البلدين، ولم تعد الأيدولوجية هي الحاكمة في السياسة الخارجية لكلتا الدولتين، كما أثبتت هذه المرحلة وبالعكس المراحل السابقة أن الحكومة الإيرانية هي من تحاول التقارب مع الحكومة السوفيتية، فمع نهاية الحرب العراقية-الإيرانية، دخلت علاقات البلدين مرحلة التطبيع، وشملت كافة المجالات السياسية، والاقتصادية، والعسكرية، والأمنية، حتى وصلت إلى صيغة أقرب لمستوى التحالف الاستراتيجي.

(٣٨) مقتبس من: عناد فواز الكبيسي، "تطورات السياسة السوفياتية تجاه الحرب العراقية الإيرانية ١٩٨٠-١٩٨٧"، مجلة دراسات إيرانية، مج ١، العددان ٥٤ و٥٥، البصرة، ١٩٨٩، ص ٦٥.

(٣٩) المصدر نفسه، ص ٦٥.

(٤٠) الأخبار، ١ / كانون الأول / ١٩٨٦، من المعروف أن الاتحاد السوفيتي خلال عامي ١٩٨٥ و١٩٨٦ زاد من توريداته لشحنات الأسلحة إلى حلفائه من الدول العربية وهي: سوريا، والعراق، وليبيا، وتأتي سوريا في المرتبة الأولى من حيث استلامها لشحنات الأسلحة السوفيتية، والعراق بالمرتبة الثانية، إلا أن السلاح المزود للعراق كان يشمل على بعض الأنواع من الأسلحة التي لم تقدم إلى سوريا، مما يعكس رغبة الاتحاد السوفيتي في التفوق النسبي للعراق دون تحويله إلى تفوق مطلق، يمكن أن يقطع عليه الطريق للاحتفاظ بعلاقة ما مع إيران. يُنظر: الاتحاد السوفيتي والشرق سياسيًا وعسكريًا، التقرير الاستراتيجي العربي ١٩٨٦، (القاهرة، ١٩٨٧)، ص ٦٣-٦٤. وهناك تقارير تؤكد أن الاتحاد السوفيتي بعد طرد الحكومة الإيرانية لدبلوماسيه عام ١٩٨٣، لم يقدم أسلحة بشكل مباشر إلى إيران، في الوقت الذي زادت شحنات الأسلحة من دول أوروبا الشرقية إلى إيران. يُنظر: ناظم يونس الزاوي، العلاقات الإيرانية السوفياتية ١٩٦٢-١٩٨٨، رسالة ماجستير غير منشورة، قدمت إلى مجلس كلية العلوم السياسية - جامعة بغداد، (بغداد، ١٩٨٩)، ص ١٨٠-١٨١.

(٤١) الأنباء، الكويت، ١٢ / كانون الأول / ١٩٨٦.

(٤٢) المصدر نفسه.

(٤٣) الأنوار، القاهرة، ٢٣ / كانون الأول / ١٩٨٦.

(٤٤) الأهرام، العدد (٣٦٦٩٦) / ٢٩ / أيار / ١٩٨٧.

(٤٥) رسالت، تهران، ٢١ / ١٠ / ١٣٦٥.

(٤٦) كارول ر. سيوتز، مصدر ثيشين، ص ١٣٧.

(٤٧) للتفاصيل، يُنظر: هوزان سليمان ميرخان، العلاقات الإيرانية - السورية ١٩٧٩-١٩٨٩، أطروحة دكتوراه غير منشورة، كلية الآداب جامعة دهوك، (دهوك، ٢٠١٢)، ص ١٩٧-٢٠٤.

(٤٨) اريك هوكند، سياست دولت ريطان نسبت به ايران، مترجم: إبراهيم متقى، بحث منشور ضمن كتاب: نيكي كدي، مصدر ثيشين، ص ١٦٢-١٦٣.

(٤٩) جهانپير كرمي، مصدر ثيشين، ص ٢٢٢.

(٥٠) الاتحاد، أبو ظبي، ٢٣ / شباط / ١٩٨٧.

(٥١) المصدر نفسه.

(٥٢) إدوارد شيفرنادزه: هو من مواليد جورجيا عام ١٩٢٨، انضم إلى الحزب الشيوعي للاتحاد السوفيتي عام ١٩٤٨، وظل يرتفع من خلال الرتب إلى أن أصبح عضو مجلس السوفيت الأعلى في جورجيا عام ١٩٥٩. وأصبح بعد ذلك الوزير الجورجي للشؤون الداخلية من عام ١٩٦٨ وإلى عام ١٩٧٢، انضم إلى اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفيتي عام ١٩٧٦، وفي عام ١٩٧٨ رقي إلى رتبة المرشح (غير مصوت) عضو للمكتب السياسي في الحزب الشيوعي السوفيتي. عينه ميخائيل غورباتشوف وزيرًا لخارجية الاتحاد السوفيتي من عام ١٩٨٥ وإلى عام ١٩٩٠. أصبح رئيسًا لجمهورية جورجيا من عام ١٩٩٥ وحتى استقالته في عام ٢٠٠٣. توفي في السابع من تموز ٢٠٠٤. للتفاصيل، يُنظر: إدوارد شيفرنادزه، منشور على الرابط: <http://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%A5%D8%AF....>

(٥٣) كارول ر. سيوتز، مصدر ثيشين، ص ١٢٩.

(54) Toronto Star, 13 Mar 1987.

(٥٥) رسالت، ٢/٣ / ١٣٦٦.

(٥٦) رسالت، ٢/٩ / ١٣٦٦.

(١٦) الأهرام، العدد (٣٦٢٣٣)، ٢٠ شباط ١٩٨٦.

(١٧) رسول موحديان عطار، ثرسترويك وروابط إيران واتحاد شوروي، ثاينامة كارشناسي ارشد، دانشكده حقوق وعلوم سياسي، دانشطه تهران، (تهران، ١٣٧٠)، ص ٢٠٧.

(١٨) حسين اردستاني، جنط عراق وايران رويارويي استراتذي ها، (تهران، ١٣٧٨)، ص ١٤٠.

(19) Саид Кхудейда Ало, Указ соч,с 126.

(٢٠) حسين اردستاني، مصدر ثيشين، ص ١٤٠.

(٢١) جاري سيك، الثورة الإيرانية والقوى العظمى، ترجمة: سوسن حسين، مجلة السياسة الدولية، العدد (٩١)، القاهرة، كانون الثاني ١٩٨٨، ص ٣٠٨-٣٠٧.

(٢٢) الأهرام، العدد (٣٦٤٠٣)، ٩ / آب / ١٩٨٦.

(23) The New york Times, 26 Aug 1986.

(24) Ibid.

(٢٥) رسالت، ٣ / ٦ / ١٣٦٥.

(26) The New york Times, 7 Sep 1986.

(27) The Gazette Montreal, [Montreal], 4 Sep 1986 .

(٢٨) ناصر حيران نوبري: وهو خريج كلية الهندسة في جامعة شريف صنعتي، برز نشاطه منذ أن كان طالبًا في الكلية وكثيرًا ما كان يدخل في نقاشات فكرية مع الطلاب الشيوعيين. أصبح سفيرًا لإيران في الاتحاد السوفيتي خلال الفترة ١٩٨٦-١٩٩٠. يُنظر:

<http://fa.wikipedia.org/wiki:>

http://www.nasernobari.com/?page_id=2

(٢٩) أبو الحسن خلع منفرد، روابط جمهوري إسلامي إيران واتحاد جماهير سوسيالستي شوروي در دهه أول انقلاب إسلامي ١٣٥٧-١٣٦٧، ثاينامة كارشناسي ارشد، دانشكده علوم سياسي ومعارف إسلامي، دانشطه إمام صادق، (تهران، ١٣٦٩)، ص ٢٠٠.

(٣٠) اطلاعات، ١٩ / ٧ / ١٣٦٥.

(31) The New york Times, 10 Dec 1986.

(32) Ibid.

(33) The New york Times, 10 Dec 1986.

(34) The Gazette Montreal, 10 Dec 1986 .

(35) Ibid.

(٣٦) جهانپير كرمي، شوروي وجنط ايران وعراق، (تهران، ١٣٩١)، ص ٢١٦.

(٣٧) فضيحة إيران غيت: ملخص هذه الفضيحة أن إيران والولايات المتحدة اتفقتا بمعاونة المخابرات الإسرائيلية، بشكل سري، تقوم الولايات المتحدة بموجبه ببيع أسلحة وقطع غيار لإيران، مقابل أن تقوم بالمساهمة في إطلاق الرعايا الأمريكيين في لبنان، الذين أختطفهم حزب الله اللبناني الموالي لإيران، إلا أن خيوط هذه العملية كشفت لصحيفة الشراع اللبنانية التي نشرت الخبر. وبذلك كشف للعالم أن أمريكا التي تعادي إيران، وتطلب من الدول عدم بيع الأسلحة إليها تقوم هي نفسها بذلك، ويقال الأمر نفسه بالنسبة لإيران التي تعادي أمريكا علنيًا تقوم هي سرًا بصداقتها. واعترفت أمريكا بأنها باعت أسلحة لإيران، واستخدمت ريعها لثوار الكونترا في نيكاراغوا، لكن إيران رفضت الاعتراف بأنها تعاملت مع الولايات المتحدة. للتفاصيل، يُنظر: تربتا بارزي، حلف المصالح المشتركة - التعاملات السرية بين إسرائيل وايران والولايات المتحدة، ترجمة: أمين الأيوبي، مراجعة وتحرير: مركز التعريب والبرمجة، (بيروت، ٢٠٠٨)، ص ١٧٦-١٨٠.

(٨٣) للتفاصيل، يُنظر: محمد دروديان، مصدر ثيشين، ص ١٠٤-١١٩.
(84) Hunter, Shireen, Moscow and Tehran may yet decide to join hands, The Christian Science Monitor, 8 Sep 1987.

(٨٥) اطلاعات، ١٣ / ٥ / ١٣٦٦.

(٨٦) همان مصدر.

(87) The Ottawa Citizen, [Ottawa], 5 Aug 1987.

(88) The Christian Science Monitor, 3 Oct 1987.

(89) Ibid.

(90) Freedman, Robert, But who is manipulating, The Christian Science Monitor, 8 Sep 1987.

(٩١) الأهرام، العدد (٣٦٧٧٠)، ١١ / آب / ١٩٨٧.

(٩٢) حسن أبو طالب، "التطورات الأخيرة في حرب الخليج، مجلة السياسة الدولية"، العدد (٩٢)، القاهرة، أبريل ١٩٨٧، ص ١٧٥؛ أيمن السيد عبد الوهاب، "حرب الخليج وإمكانات حظر تصدير السلاح لإيران"، مجلة السياسة الدولية، العدد (٩٣)، القاهرة، يوليو ١٩٨٧، ص ١٣٤.

(٩٣) الأهرام، العدد (٣٦٨١٤)، ٢٤ / أيلول / ١٩٨٧.

(٩٤) كيهان، ١٣٦٦/٧/٦.

(٩٥) رسالت، ١٣٦٦ / ٧ / ٢٥.

(٩٦) الأهرام، العدد (٣٦٨٥٢)، ١ / تشرين الثاني / ١٩٨٧.

(٩٧) الوفد، القاهرة، ٧ / تشرين الثاني / ١٩٨٧.

(٩٨) أخبار اليوم، القاهرة، ٢١ / تشرين الثاني / ١٩٨٧.

(٩٩) المصدر نفسه؛ الأهرام، العدد (٣٦٨٧٢)، ٢١ / تشرين الثاني / ١٩٨٧.

(١٠٠) رسالت، ١٣٦٦ / ٩ / ٢١.

(١٠١) الأهرام، العدد (٣٦٩٠٤)، ١٢ / كانون الأول / ١٩٨٧.

(١٠٢) المصور، القاهرة، ٥ / كانون الثاني / ١٩٨٨.

(١٠٣) كارول ر. سيوتز، مصدر ثيشين، ص ١٩٩.

(١٠٤) بيدن اسدي، علائق واستراتيذي ابر قدرتها در خليج فارس ١٣٥٧-

١٣٦٨، (تهران، ١٣٧١)، ص ١٨٠.

(١٠٥) جهانپير كرمي، مصدر ثيشين، ص ٣٠١.

(١٠٦) مرتضى دامن ثك جامي، ديتلماسي اقتصادي جمهوري اسلامي ايران در آسيای مركزي، (تهران، ١٣٨٨)، ص ٢٥٨.

(١٠٧) رسالت، ١٣٦٦ / ١٠ / ٢٦.

(١٠٨) اطلاعات، ١٣٦٦ / ١١ / ٢٦.

(١٠٩) رابرت فردمان، مصدر ثيشين، ص ١٠٠.

(١١٠) فلاديمير غودوف: ولد في عام ١٩٤٠، وهو خريج معهد الاقتصاد والعلاقات الدولية. وفي الفترة ما بين (١٩٨٧-١٩٩٣) عمل سفيراً للاتحاد السوفيتي في إيران، وفي الفترة ما بين (١٩٩٥-٢٠٠٠) كان سفيراً مفوضاً فوق العادة لروسيا الاتحادية في جمهورية مصر العربية، وفي الفترة من عام ٢٠٠٠ وإلى عام ٢٠٠٢ عمل سفيراً لبلاذ في جمهورية جورجيا، عمل فلاديمير غودوف في مختلف الأقسام والدوائر التابعة لوزارة الخارجية السوفيتية والروسية، وهو يجيد اللغات العربية، والإنجليزية، والفرنسية، يعمل حالياً مديراً للدائرة الرابعة التابعة لوزارة الخارجية الروسية الخاصة ببلدان رابطة الدول المستقلة. يُنظر: الدبلوماسية السوفيتية في أعوام الحرب العراقية الإيرانية - لقاء مع فلاديمير غودوف، قناة روسيا اليوم، برنامج رحلة مع الذاكرة، تقديم: خالد الراشد، منشور على الرابط:

<https://www.youtube.com/watch?v=KQcX87PulR0>

(١١١) المصدر نفسه.

(١١٢) المصدر نفسه.

(113) The New York Times, 7 March 1988.

(٥٧) عبد العاطي محمد أحمد، "الموقف السوفيتي من حرية الملاحة في الخليج"، مجلة السياسة الدولية، العدد (٨٩)، القاهرة، يوليو ١٩٨٧، ص ١٩٠.

(٥٨) الدستور، القاهرة، ٥ / أيار / ١٩٨٧.

(٥٩) الدستور، ٥ / أيار / ١٩٨٧.

(٦٠) المصدر نفسه.

(٦١) عبد العاطي محمد أحمد، المصدر السابق، ص ١٩١.

(٦٢) المصدر نفسه، ص ١٩١.

(٦٣) الشرق الأوسط في العلاقات الأمريكية السوفيتية، التقرير الاستراتيجي العربي عام ١٩٨٧، (القاهرة، ١٩٨٨)، ص ١٤٢.

(64) Bryan Gibson, Covert Relationship: American Foreign Policy, Intelligence, and the Iran-Iraq War, 1980-1988, Thesis submitted in partial fulfillment of the requirements for PH.D degree, University of Ottawa, Canada, 2007, p150.

(٦٥) رسالت، ١٣٦٦ / ٢ / ١٩.

(٦٦) الشرق الأوسط في العلاقات الأمريكية السوفيتية، المصدر السابق، ص ٦٢؛ رابرت فريدمان، مصدر ثيشين، ص ٨٥.

(67) Симферополь М.М, Ирано-Иракская война 1980-1988 гг. борьба на море. Симферополь. 2001, с 129.

سليمنين، م.م، الحرب العراقية-الإيرانية ١٩٨٠-١٩٨٨، الصراع على البحر، سينغرابول، ٢٠٠١ "باللغة الروسية"

(٦٨) القبس، ٢٦ أيار ١٩٨٧.

(٦٩) رسالت، ١٣٦٦ / ٢ / ١٩.

(٧٠) محمد دروديان، سيري در جنط ايران وعراق شلمضة تا حلبضة، برسي وقايع سياسي - نظامي جنط در سال ١٩٦٦، جلد چهارم، (تهران، ١٣٩٠)، ص ٧٥.

(٧١) الأهرام، العدد (٣٦٦٧٠)، ٣ / أيار / ١٩٨٧.

(٧٢) كارول ر. سيوتز، مصدر ثيشين، ص ١٨٤؛ رابرت فريدمان، مصدر ثيشين، ص ٨٥.

(٧٣) الدستور، ٥ / أيار / ١٩٨٧.

(٧٤) الوطن، القاهرة، ٩ / أيار / ١٩٨٧.

(٧٥) كارول ر. سيوتز، مصدر ثيشين، ص ١٨٤.

(٧٦) الأهرام الدولي، القاهرة، ٢ / حزيران / ١٩٨٧.

(٧٧) للتفاصيل، يُنظر: الوطن، القاهرة، ١١ / تموز / ١٩٨٧.

(٧٨) الأهرام، العدد (٣٦٧٧١)، ١٢ / تموز / ١٩٨٧.

(٧٩) ترجع مطالبة الكويت برفع العلم الأمريكي على ناقلاتها إلى تشرين الثاني ١٩٨٦، إلا أن هذا الطلب لم يقابل باهتمام كبير من جانب الولايات المتحدة، ولكنها عادت ووافقت بعد أن وافق الاتحاد السوفيتي على استئجار ناقلاتها للكويت، وبالتالي فكان لا بد من تعزيز الوجود الأمريكي في مواجهة تزايد النفوذ السوفيتي في المنطقة، ولاستعادة النفوذ الأمريكي لدى الدول العربية بعد فضيحة إيران غيت، وافقت في أيار ١٩٨٧ على الطلب الكويتي برفع العلم الأمريكي على (١١) ناقلة كويتية، وفي ٢٢ حزيران بدأت أولى ناقلتي بترول كويتية ترفعان العلم الأمريكي وسط حراسة جوية وبحرية أمريكية مكثفة. للتفاصيل، يُنظر: التقرير الاستراتيجي العربي لعام ١٩٨٧، الشرق الأوسط في العلاقات الأمريكية السوفيتية، المصدر السابق، ص ١٤٥-١٤٦.

(٨٠) نقلًا عن: محمد دروديان، مصدر ثيشين، ص ٩٣-٩٤.

(٨١) همان مصدر، ص ٩٤.

(٨٢) مقتبس من: كارول ر. سيوتز، مصدر ثيشين، ص ١٨٧.

(114) Ibid.

(١١٥) الدبلوماسية السوفيتية في أعوام الحرب العراقية الإيرانية، المصدر السابق.

(١١٦) المصدر نفسه.

(117) The Christian Science Monitor, 11 May 1988.

(١١٨) جاري سيك، "الولايات المتحدة في الخليج الفارسي: من الركيكتين التوأم إلى الاحتواء المزدوج"، بحث منشور في كتاب: ديفيد دابليو ليش (إعداد)، الشرق الأوسط والولايات المتحدة (إعادة تقييم تاريخي وسياسي)، ترجمة: أحمد محمود، (القاهرة، ٢٠٠٥)، ص٤٦٤.

(١١٩) كامرون، رهيوم، سازمان ملل متحد: إيران وعراق، ترجمة: هوشنط راسخي، (تهران، ١٣٧٦)، ص٢٣٤-٢٣٥.

(١٢٠) للتفاصيل عن أسباب موافقة إيران على قرار ٥٩٨، يُنظر: طلعت مسلم، "الأبعاد الاستراتيجية لقبول إيران لقرار مجلس الأمن"، مجلة السياسة الدولية، العدد (٩٤)، أكتوبر ١٩٨٨، ص٢٤٨-٢٦٦.

(١٢١) رسول موحديان عطار، مصدر ثيشين، ص٢١١.

(122) John Haldane, After the war, business opportunists in Tehran, The Christian Science Monitor, 19 Dec 1988.

(١٢٣) كيهان، شماره (١٣٤٢٣)، ١٣٦٧/٦/٢٨.

صفحات من تاريخ الصراع الجزائري الإسباني خلال القرن الثامن عشر حملة الكونت أورلي (Orelly) على مدينة الجزائر سنة ١٧٧٥م

د. تومي الطاهر

أستاذ التاريخ الحديث - كلية العلوم الإنسانية
جامعة أكلي محند أولحاج
البويرة - الجمهورية الجزائرية



ملخص

شكلت حملة الكونت أورلي على مدينة الجزائر سنة ١٧٧٥م إحدى حلقات الصراع الجزائري الإسباني الذي بدأ منذ تأسيس الإيالة الجزائرية سنة ١٥٢٠م على يد خير الدين بربروس بعد استشهاد أخويه إسحاق وعروج على يد الإسبان، وقد عرفت هذه المعركة إحدى أهم الانهزامات العسكرية الإسبانية الحديثة، حيث ذهب الكثير من المؤرخين بتشبيهها بحملة شارلكان على مدينة الجزائر سنة ١٥٤١م، نظراً للاستعدادات الضخمة والإمكانات الهائلة التي سخرتها إسبانيا لإنجاح هذه الحملة، التي علق عليها آملاً كبيرة لاستعادة مدينة الجزائر مرة أخرى، وضمها إلى أملاك الإمبراطورية الإسبانية، إلا أن قوة الإيالة الجزائرية وعبقريتها وقفت سداً منيعاً في وجه طموحات الإسبان، الذين تكبدوا خسائر فادحة مرة أخرى على أسوار مدينة الجزائر، وتسلسل الدراسة الضوء على أهم معركة جرت وقائعها في مدينة الجزائر خلال القرن الثامن عشر الميلادي بين الدولة الجزائرية والإمبراطورية الإسبانية.

بيانات المقال:

تاريخ استلام المقال: ٢٧ ديسمبر ٢٠١٥
تاريخ قبول النشر: ٠٤ مارس ٢٠١٦

كلمات مفتاحية:

الإيالة الجزائرية، الإمبراطورية الإسبانية، الكونت أورلي، الحملات العسكرية، تاريخ الجزائر الحديث

DOI 10.12816/0052962

معرف الوثيقة الرقمي:

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

تومي الطاهر. "صفحات من تاريخ الصراع الجزائري الإسباني خلال القرن الثامن عشر: حملة الكونت أورلي (Orelly) على مدينة الجزائر سنة ١٧٧٥م". - دورية كان التاريخية. - السنة الحادية عشرة - العدد الأربعون: يونيو ٢٠١٨. ص ١٢٩ - ١٣٨.

مقدمة

لإخضاعها واحتلالها، إلا أنه مني بهزيمة نكراء، وتكبد جيشه خسائر مادية وبشرية فادحة، وعليه يمكننا طرح التساؤلات التالية: إلى أي مدى استطاعت الإيالة الجزائرية التصدي لهذه الحملة؟ وما هي مآلات هذه الحملة؟ وما هي أهم نتائجها على الطرفين؟ وقبل التطرق لأسباب الحملة ووقائعها أردنا التطرق لأوضاع البلدين قبيل هذه الحملة.

أولاً: الوضع العام للبلدين قبيل الحملة

١/١-إسبانيا

تولى حكم إسبانيا في هذه الفترة شخصية قوية تمثلت في كارلوس الثالث (١٧٥٨-١٧٨٨م) الذي كان له مشروع طموح لتطوير بلاده وجعلها من أهم دول أوروبا في ذلك الوقت، فحاول إدخال إصلاحات جديدة، مست جميع القطاعات السياسية، العسكرية، الصناعية، الفلاحية والمالية، ولذلك نال بعد

توقفت الهجمات الإسبانية على مدينة الجزائر منذ بداية القرن السابع عشر وإلى غاية حملة ١٧٧٥م التي تعد الأولى خلال القرن الثامن عشر، بعد الحملة على وهران والمرسى الكبير سنة ١٧٣٢م والتي أسفرت عن إعادة احتلال المدينتين^(١)، كما أنها تأتي بعد فشل الحملة الداعماركية عامي ١٧٧٠ و ١٧٧٢م، وكأن الدول الأوروبية اتفقت فيما بينها على إنهاء الإيالة الجزائرية كل مدة بحروب متقطعة هدفها السيطرة عليها وإخضاعها، وفي كل مرة كانت دولة من هذه الدول الأوروبية تلعب الدور ذاته، فتارة إسبانيا ومرة فرنسا وإنجلترا وتارة أخرى الداعمارك وغيرهم. وتعتبر هذه الحملة من أهم الحملات التي وجهتها إسبانيا ضد الجزائر، بل يذهب الكثير من المؤرخين لتشبيهها بحملة شارلكان سنة ١٥٤١م التي قادها بنفسه على مدينة الجزائر محاولة منه

الدانماركي في استانبول، وطلبه من الدولة العلية التدخل لإبرام صلح بين الطرفين^(١١)، وبموجب ذلك تدخلت الدولة العلية وطلبت إبرام هذا الصلح تماشياً والعلاقات الحسنة بينها وبين الدانمارك، وفي عام ١٧٧٢م جاء الأميرال هوسلاند «Hosland» إلى الجزائر وخضع للشروط^(١٢) التي فرضها محمد بن عثمان باشا وتم إبرام الصلح بين الطرفين^(١٣)، أما من جانب إنجلترا وفرنسا فلم يمس الداي بجوهر هذه العلاقات وترك الأمور كما كانت عليه في عهد سابقه.

وما يمكننا قوله أن محمد بن عثمان باشا استطاع أن يحكم قبضته داخلياً، بإسناد المناصب إلى رجال أكفاء لهم القدرة على تسيير البلاد بمقدرة عالية وبإخلاص تام نذكر منهم: الباي محمد بن عثمان الكبير (باي الغرب)، الباي الوزناجي (باي التيطري)، الباي صالح الإزميري (باي الشرق)، وآغا العرب علي، وقام بتنظيم الجيش والحد من سطوة الإنكشارية وتدخلهم في شؤون الحكم، مع مراعاة العدل بين الناس والرفق بهم حتى قال فيه الزهار: «... وكان رحمه الله مؤثراً للعدل والإنصاف عارفاً بقوانين الملك ملتزماً بأحكام الشريعة المطهرة، وكان يحب الجهاد...»^(١٤) أما على المستوى الخارجي فقد استطاع فرض هيبة الدولة الجزائرية، وقام بإعادة مراجعة العلاقات الخارجية وفق أسس جديدة تراعي أكبر الحقوق والامتيازات للجزائر، فيما أبقى على هدوء العلاقات مع إنجلترا وفرنسا ربما لقوتهم، وأيضاً تحييدهما في أي نزاع مرتقب ضد إسبانيا، خاصة وأنه وضع من أولوياته تحرير مدينتي وهران والمرسى الكبير.

ثانياً: أسباب الحملة

١/٢- محاولة فك الحصار على وهران والمرسى الكبير

بعد انسحاب القوات الجزائرية من مدينتي وهران والمرسى الكبير -على إثر إعادة احتلالهما من طرف الإسبان سنة ١٧٣٢م- استطاعت فرض حصار محكم على المدينتين، وبدأت في إنهاك القوات الإسبانية بالهجمات الخاطفة والمفاجئة، كبدتهم من خلالها خسائر مادية وبشرية فادحة، ونتيجة لهذه الخسائر تشكلت لدى الإسبان قناعة أنهم لا يستطيعون العيش بسلام وهناء ما لم يضعوا حداً لهذا الحصار وهذه الهجمات المتتالية^(١٥) ظل التواجد الإسباني بوهران والمرسى الكبير يشغل بال الساسة والعسكريين الذين خصصوا مصاريف باهظة للاحتفاظ بالمدينتين وإبقائهما تحت سيطرتهم، فكانتا تشكلان عبئاً ثقيلاً عليهم، نظراً للأوضاع الصعبة التي كانت تعيشها قواتهم بالمدينتين المحاصرتين، ولذلك انقسمت الطبقة السياسية والعسكرية حيال مستقبل التواجد الإسباني بالمدينتين إلى قسمين: قسم كان يدعو إلى الانسحاب وعدم المجازفة بالبقاء، الذي كلف وسيكلف المزيد من الخسائر المادية والبشرية، وقسم آخر كان يفضل البقاء مهما كانت الخسائر.

ومن أجل حسم هذا الخلاف قرر الملك فليب الثالث تكليف الحاكم العسكري لوهران الدوق جوزيف دي أرميورو بإعداد

١٠ سنوات من مباشرة هذه الإصلاحات لقب "الطاغية المستنير"^(١٦) أما على المستوى الخارجي فقد حاول أن يجعل من إسبانيا دولة قوية مثلما كان عليه الحال بداية القرن السادس عشر ميلادي، حتى تستطيع مواجهة الدول الأوروبية خاصة فرنسا وإنجلترا اللتان كانتا تهددان إسبانيا دائماً، وما إن تمكن كارلوس الثالث من تأمين الجبهة الداخلية بعد نجاح الإصلاحات السياسية والاقتصادية التي قام بها، وإنهاء الحرب داخل أوروبا، حتى بدأ يوجه أنظاره نحو الجزائر التي كانت تمثل بالنسبة له العدو الأول الذي يجب القضاء عليه، ولذلك ما إن حلت سنة ١٧٧٤م حتى كان مستعداً للهجوم على مدينة الجزائر، معتمداً على خطة تقضي بهاجمتها بحراً وبراً للقضاء على تهديدات دار الجهاد أو "مهد القرصنة"^(١٧) كما كان يسميها الأوربيين في ذلك الوقت.

٢/١- الجزائر

تولى حكم الإيالة الجزائرية في هذه الفترة محمد بن عثمان باشا^(١٨) خلفاً للداي علي "الملقب ببوصبع" وكان يحمل مشروعاً حضارياً أساسه إعادة هيكلة الدولة الجزائرية داخلياً وخارجياً، لعلمه أنها كانت تعيش حالة من الفوضى والتدهور، زاد الأوضاع خطورة الاحتلال الإسباني، الذي قرر محمد بن عثمان تصفيته نهائياً حتى يستطيع توحيد كامل الإيالة وإنجاح مشروعه الحضاري^(١٩) فعلى الصعيد الداخلي انتهج سياسة تعتمد على الكفاءة والقدرة في اختيار الرجال، سواء المتعاونين معه في إدارة شؤون البلاد بمدينة الجزائر، أو على مستوى البائلكات الثلاث، فكان يولي من يستحق الولاية ويعزل من يستحق العزل^(٢٠).

ولعلمه بما كان يحيكه الإنكشارية من مؤامرات داخل الإيالة، بدأ في التقليل من عددهم وعمل على تأديبهم وتنظيمهم، فمنعهم من حمل السلاح أثناء التجول بالمدينة وشدد على تنفيذ أوامره^(٢١) لذلك كثرت تمرداتهم ومحاولات قتله، لكنه استطاع القضاء على هذه المؤامرات وقرر لأول مرة في تاريخ الحكم العثماني للجزائر منع دخول الأشخاص المسلحين قصر-الداي وتفتيش كل من يريد الدخول إلا ضباط الحكومة وضباط حراس القصر^(٢٢) بالإضافة إلى قمع القبائل المتمردة مثل: قبائل فليسة بجرجرة وقبائل بجاية التي رفضت دفع الزمة المقدرة بـ ٣٠ بوجو سنوياً، فوجه لها الداي محمد بن عثمان حملة لقمعها وإخضاعها لسلطته^(٢٣).

أما خارجياً فقد انتهج سياسة مختلفة عن سابقه، فرفع قيمة الإتاوات على السفن التابعة للندقية وهولندا والسويد، أما الدانمارك فقد نقض معها معاهدة السلم لسنة ١٧٦٧م لرفضها تقديم الهدايا والإخلال بشروط المعاهدة، وردا على قرار الداي قامت القوات الدانماركية بهاجمة ميناء الجزائر، إلا أن البحرية الجزائرية تصدت لها، ولم يتمكن الأسطول الدانماركي الاقتراب من المدينة، واستمر على ذلك مدة ١١ يوماً، ليضطر في النهاية لعقد صلح مع الجزائر^(٢٤) بتدخل من الدولة العلية التي حثت حكام الجزائر على إرجاع القنصل الدانماركي بعد تدخل القنصل

أخذت إسبانيا تعد العدة للسيطرة على مدينة الجزائر واحتلالها نهائياً.^(١٩)

٥/٢- فشل مساعي الصلح بين الطرفين

عاشت إسبانيا قبيل قرارها القاضي باحتلال مدينة الجزائر مشاكل داخلية كبيرة بسبب حروبها داخل القارة الأوروبية، فعملت على تهدئة الصراع ضد الإيالة الجزائرية ولو لمدة معينة حتى تتفرغ لمواجهة هذه المشاكل لذلك أرسل الملك كارلوس الثالث مبعوثاً عنه للداي علي باشا طالباً منه عقد الصلح وعارضا عليه مبالغ مالية معتبرة، لكن طلبه قوبل بالرفض، غير أن الملك الإسباني لم ييأس من ذلك، وما إن تم تعيين الداوي محمد بن عثمان باشا سنة ١٧٦٦م حتى أرسل إليه يهنئه بمنصبه الجديد وعارضا عليه إقامة الصلح مقابل مبالغ مالية كبيرة، إلا أن الداوي الجديد رفض هذا الطلب وكرر موقف سلفه قائلاً للملك الإسباني: «... إنني لا أخاف من القوات الإسبانية، وإن السلاح هو الفاصل بيننا».^(٢٠)

ولما تأكد الملك الإسباني من فشل مساعيه لجأ إلى وساطة السلطان المغربي محمد بن عبد الله الذي وافق على طلب الوساطة بين الطرفين، وقام بجهود مضنية في سبيل تحقيق رغبة الملك الإسباني، لذلك أرسل إلى الداوي محمد بن عثمان باشا كتاباً راجياً منه باسمه وباسم أخوة الإسلام أن يتصالح مع الإسبان، في مقابل حصوله على أموال كثيرة، ولإنجاح هذه الوساطة اتصل السلطان المغربي بالدولة العلية لتمارس ضغوطها على الداوي.^(٢١) ومواصلة لجهوده في سبيل إقامة الصلح أرسل السلطان المغربي مبعوثه محمد الفزان إلى الجزائر للإشراف على تبادل الأسرى بين الجزائر وإسبانيا سنة ١١٨٢هـ / ١٧٦٨م^(٢٢)، وقد نجح المبعوث المغربي في مهمته وتم تبادل الأسرى على نطاق واسع بين الطرفين، على الرغم من رفض المجلس الملكي الإسباني ولمدة قاربت ٢٥٠ سنة مثل هذا الأمر، بحجة أن إطلاق سراح الأسرى المسلمين يزيد في عددهم وقوتهم.^(٢٣)

ومما تجدر الإشارة إليه أن الداوي محمد بن عثمان رفض إقامة الصلح، ورد على مبعوث السلطان المغربي بقوله: «... هل طلبت مشورتي ورأيي عندما عقدت أنت معاهدة الصلح مع إسبانيا سنة ١٧٦٧م»^(٢٤) وأمام تعنت الموقف الجزائري الرفض لأي صلح مع إسبانيا ما لم تتخلى عن وهران والمرسى الكبير تأكد الملك كارلوس الثالث أنه لا حل أمامه سوى استخدام القوة العسكرية لإسقاط الداوي من الحكم وإخضاع مدينة الجزائر.

٦/٢- إطلاق سراح الأسرى المسيحيين

يعتبر القرن السابع عشر ميلادي قرن الجهاد البحري بامتياز، مما نتج عنه تكديس هائل للأسرى الأوروبيين بالجزائر، وذلك راجع لازدياد الهجمات الجزائرية على السواحل الجنوبية الغربية لأوروبا التي كانت هدفا مباشرا للبحرية الجزائرية انتقاماً من إسبانيا، ومن أكثر السواحل عرضة للهجمات الجزائرية سواحل جنوة ونابولي، ليفورن، كورسيكا، صقلية، مالطة و ميورقة... وتعد هذه المناطق الأماكن المفضلة لنشاط القراصنة الأوروبيين الذين

تقرير مفصل عن وهران والمرسى الكبير ومستوى العلاقات الذي يربط الإسبان بالقبائل المجاورة، وقد أنجز هذا التقرير سنة ١٧٤١م^(٢٥)، ويصدور هذا التقرير أصبحت السلطات الإسبانية مرغمة على اختيار أحد الحلول، إما الانسحاب وتجنب المزيد من الخسائر أو مواصلة المغامرة وتحمل النتائج المترتبة عن ذلك، ولا يتأتى لهم ذلك إلا بإعادة احتلال كامل السواحل الجزائرية، وبداية إخضاع مدينة الجزائر التي شكلت دائماً الصخرة التي تتحطم عليها آمالهم، وفي النهاية كانت الغلبة لأصحاب الاختيار الثاني.

٢/٢- الحد من الهجمات الجزائرية على السواحل الإسبانية

على الرغم من الهدف الأساسي لفرص الحصار هو تحرير وهران والمرسى الكبير، ونظراً لصعوبة هذه المهمة غيرت القوات الجزائرية استراتيجيتها في مواجهة الإسبان، وقامت بنقل المعارك إلى السواحل الإسبانية فكانت السفن الجزائرية تهاجم هذه السواحل وتعود محملة بالغنائم والأسرى من نساء ورجال وأطفال والذين كان عددهم بمدينة الجزائر وحدها يزيد عن ١٨ ألف، منهم ١٠ آلاف إسباني^(٢٦)، وهذا ما يدل على ضخامة الهجمات الجزائرية على كامل الدول الأوروبية وخاصة إسبانيا، ونتيجة لكثرة الشكاوى من طرف سكان السواحل الإسبانية للملك، وتضررهم مادياً ومعنوياً، كان لا بد له من اتخاذ قرار لوقف هذه الحملات المتزايدة.

٣/٢- إسقاط الداوي محمد بن عثمان باشا من الحكم

أدركت السلطات الإسبانية حقيقة مفادها أن الإيالة الجزائرية تمر بمرحلة قوة وازدهار، بقيادة الداوي محمد بن عثمان باشا، الذي كان يعيش العديد من المشاكل الداخلية نتيجة لإعلان بعض القبائل تمرداً عن سلطته وخلافه مع الجيش الإنكشاري الذي كان الداوي يريد الحد من نفوذه وتدخله في شؤون الحكم، فأرادت إسبانيا استغلال هذه الفرصة والقيام بإسقاط محمد بن عثمان باشا من سدة الحكم^(٢٧)، وتعطيل مشاريعه داخل البلاد وخارجها وتوقيف هذا الازدهار الممتد.

٤/٢- السيطرة على مدينة الجزائر

لم ينس الإسبان لسكان مدينة الجزائر استنجادهم بعروج وخير الدين، هذا الأخير الذي استطاع طردهم من قلعة البنيون في ماي ١٥٢٩م، وأيضاً لم ينسوا هزيمة شارلكان على يد حسان آغا على أسوار المدينة سنة ١٥٤١م، بالإضافة أن مدينة الجزائر هي عاصمة ومركز قوة الإيالة، لذلك تم اتخاذ القرار باحتلالها وإحاقها بالممتلكات الإسبانية كما كان الشأن في مطلع القرن السادس عشر ميلادي وجعلها منطقة نفوذ، فالغاية إذن هي السيطرة على مركز الإيالة وقوتها، وهي رغبة قديمة متجذرة في نفوس الإسبان الأسفين على ضياعها، والذين فشل أسلافهم في تحقيق هذه الرغبة على الرغم من كثرة محاولاتهم التي كانت على مدار القرنين السادس عشر والسابع عشر- الميلاديين لذلك

مع مدافعهم، في ما كانت السفن تحمل حوالي ٣٥٠٠ بحار^(٢٩)، و ٥٠٠ سفينة، توجد منها ٥٠ باخرة حربية، ٢٠ بارجة و ٢٠ مدمرة ٧ مراكب من نوع "شباك" و ٣٤٤ سفينة مزودة بـ ١٠٠ مدفع^(٣٠)، وأسندت مهمة قيادة هذه الحملة للأميرال الأيرلندي الأصل الكونت (O'reilly Algandro) أليخندرو أورلي كقائد للجيش البري، فيما أسندت قيادة الجيش البحري إلى (Don Pedro Castejon) بيدور كاستيخون لتتطلق الحملة يوم ٢٣ جوان ١٧٧٥م من ميناء قرطاجنة لتصل إلى سواحل مدينة الجزائر يوم ٣٠ جوان^(٣١).

٢/٣-الجزائر

على عكس الحملة الأولى ضد وهران والمرسى الكبير سنة ١٧٣٢م علم الجزائريون مبكراً بخبر هذه الحملة فعملوا على الاستعداد الجيد لها بقيادة وإشراف الداوي محمد بن عثمان باشا الذي أصدر أوامره وأعلن النفير العام في كامل تراب الإيالة، وأمر الناس بالجهاد للدفاع عن الدين والوطن، حاثا السكان على التعاون فيما بينهم مهما كانت طبقاتهم الاجتماعية ومستوياتهم المعيشية، ومن مختلف الفئات العمرية، حتى أنه أمر بتعيين الأولاد من فوق السبعة سنين للمساعدة على تعمير القلاع والأبراج^(٣٢). ثم وجه أوامره بضرورة تنظيم القوة العسكرية الموجودة بمدينة الجزائر وضواحيها، والتي قدر عددها بحوالي ١١٨٩٧ مجند منهم ٩٣٢٢ قادراً على المشاركة الفعلية في المعارك، كانوا موزعين على ٤٢٤ فوجاً، مقيمين بثماني ثكنات عسكرية داخل أسوار المدينة^(٣٣)، وبعدها أصدر أوامره إلى باي قسنطينة بالمسير إلى الجزائر بعد أن كان مرابطاً ناحية حمزة (البويرة) وفي ذلك يقول محمد الطاهر بن أحمد: «...فأخذ صالح باي المخازنية والعتاد والمشايخ والدواير والصاباحية وكل من أراد الجهاد من الطلبة والمرابطين وتوجه إلى الجزائر»^(٣٤) وكذلك أصدر أوامره لباي التيطري، ولخليفة باي الغرب بالتوجه إلى الجزائر، فيما أمر الباي بالبقاء لتشديد الحصار على وهران، مخافة من تحرك القوات الإسبانية ومفاجأة القوات الجزائرية، أو مهاجمة مستغانم وتلمسان^(٣٥).

رابعاً: توزيع القوات الجزائرية المدافعة عن المدينة

قرر الداوي محمد بن عثمان باشا توزيع وحدات الجيش الجزائري إلى خمس مجموعات، كل واحدة منها ترابط في مكان معين لتكون على أهبة الاستعداد للدفاع عن المدينة والتصدي للقوات الإسبانية، وكان توزيعها على النحو التالي:

-المجموعة الأولى: أسندت قيادتها "لحسن الخرناجي"، وكان مركز رباطها عين الربط (الحامة حالياً) ووادي الخنيس معه ٤٠ حُباء (فصيل أو سرية)، وفي كل حُباء ٣٠ نفراً من العسكر، أي يوجد معه حوالي ١٢٠٠ جندي.

-المجموعة الثانية: أسندت قيادتها "لعلي آغا" آغا العرب ومركز رباطها واد خنيس (العناصر حالياً)، وأمر الداوي أن يكون معه ٤٠ حُباء في كل حُباء ٣٠ نفراً من العسكر أي ١٢٠٠ جندي.

ينطلقون منها لمهاجمة السفن الجزائرية والقيام بحملات على مدينة الجزائر^(٣٦). ولذلك ما إن فكرت إسبانيا في مهاجمة مدينة الجزائر حتى كانت الكنيسة في طليعة المؤيدين لها، زيادة على بعض المدن الإيطالية مثل نابولي، ليفورنو وجنوة، وذلك بحجة حماية السواحل الإسبانية من الهجمات الجزائرية المتواصلة وإطلاق سراح أسراهم الذين يقدرون بالآلاف في ذلك الوقت^(٣٦)، فكان هذا من أهم الأسباب التي تحجج بها الملك كارلوس الثالث في هجومه على مدينة الجزائر.

٧/٢-استقرار الأوضاع في إسبانيا وأوروبا

دخلت إسبانيا خلال الفترة الممتدة من سنة ١٧٣٢-١٧٧٥م في سلسلة من الحروب الأوروبية إلى جانب فرنسا فقد كانت طرفاً فعالاً في حرب الوراثة البولونية التي امتدت من ١٧٣٣-١٧٣٨م، وكانت أيضاً ضمن التحالف المشكل من فرنسا، بفاريا، سردينيا، في مواجهة النمسا، روسيا وجermania، لفرض مرشحهم ستانيسلاس لزينسكي «Stanislas le czinski» للوصول إلى سدة الحكم خلفاً للملك أوغست الثاني «Augusts 2»^(٣٧) وفي سنة ١٧٣٨م أبرمت الدول المتصارعة معاهدة فينا تم بموجبها إنهاء حرب الوراثة البولونية.

وبعد مدة قصيرة من توقف حرب الوراثة البولونية وجدت إسبانيا نفسها من جديد إلى جانب حليفها فرنسا في حرب جديدة ضد ملكة النمسا مريا تيريزا «Marie Thérèse»، وعرفت هذه الحرب تاريخياً بحرب الوراثة النمساوية، التي امتدت على مدار سنوات الأربعينيات من القرن الثامن عشر- ميلادي، إلا أن أشهر الحروب وأخطرها التي خاضتها إسبانيا في هذه الفترة حرب ٧ سنوات التي جرت وقائعها في الفترة الممتدة من ١٧٥٦-١٧٦٣م، وكان سببها الرئيس المنافسة الاستعمارية بين دول التحالف إسبانيا، فرنسا والنمسا، ضد إنجلترا وبروسيا، والتي استطاعت خلالها إنجلترا تحقيق مكاسب هائلة في العالم الجديد على حساب فرنسا وإسبانيا^(٣٨).

تكبدت إسبانيا خسائر فادحة في هذه الحروب، لذلك ما إن انتهى الصراع الأوروبي-الأوروبي حتى بدأ التفكير في كيفية استعادة هيبتها وتعويض الخسائر التي لحقت بها، فكان لزاماً على الساسة والعسكريين الإسبان إيجاد طرقاً أقل قوة من تلك الدول التي واجهتها في أوروبا، فهداهم تفكيرهم إلى مدينة الجزائر التي يمكن السيطرة عليها بسهولة حسب ظنهم.

ثالثاً: استعدادات الطرفين

١/٣-إسبانيا

بعد أن توفرت العديد من الأسباب للقيام بهذه الحملة، أصدر الملك "كارلوس الثالث" أمراً إلى كافة الموانئ الرئيسية بإسبانيا، مثل قرطاجنة، قادس، برشلونة، بضرورة التحضير الجيد كتجميع الفياق الحربية والعتاد والمؤن والآليات الضرورية، وقد استمرت هذه التحضيرات طيلة شهر جوان ١٧٧٥م. استطاع الإسبان تجنيد حوالي ٢٠ ألف جندي و ٣٠٠ فارس و ٦٠٠ مدفعي

استطلاعية رفقة العديد من الضباط والمستشارين على متن السفينة "سانتا كلارا" لاستطلاع الأوضاع على الساحل والتعرف على الدفاعات الجزائرية المنصوبة، لكنه تفاجأ عندما رأى المدافع والبطاريات موزعة على كامل المدينة من كل الجهات، وأكثر من ذلك اكتشافه لتحصينات قوية لا يمكن اختراقها، مما دفعه إلى اختيار حل آخر وهو النزول إلى البر ثم الزحف على مدينة الجزائر للسيطرة عليها.^(٤٣)

قرر الكونت أورلي إنزال قواته على الشاطئ الشرقي للجزائر بين وادي خنيس (العناصر) والحرش وتم حشد حوالي ٢٠ ألف جندي بكامل معداتهم الحربية ومؤنهم، وقد وصف أحد قادة القوات الإسبانية الأميرال مزاريدو «Mazarredo» عملية النزول والظروف المحيطة بها قائلا: «...بعد أن تجمعت الحملة في خليج الجزائر في أول جويلية طلب مني الكونت أورلي على أساس أنني قائد الأسطول النزول إلى البر رفقة الأفواج الأولى للجيش ومع ١٢ قطعة مدفعية من عيار ٨، ثم يليها مباشرة إنزال ١٢ مدفع من عيار ٨ بالإضافة إلى ٨ مدافع من عيار ١٢، إلا أننا تفاجئنا برياح قوية يوم ٠٣ جويلية^(٤٤) مما صعب عملية الإنزال التي قرر لها ٤ جويلية ونتيجة هذه الأوضاع كلفت بوضع خطة نهائية لنقل الجنود واختيار السفن التي ستحملهم إلى الشاطئ على أن تنزل قوة قوامها ٧٦٠٠ رجل، ليلتحق بهم بعد وقت قصير قوة تعدادها ٧ آلاف رجل».^(٤٥)

فيما أخذت القوات الجزائرية مواقعها استعدادا لملاقاة العدو متبعة إستراتيجية محكمة لتطبيق القوات الإسبانية، حيث لم يتروكوا أي مجال للصدفة، متخذة الشكل التالي:

- الجهة الغربية المؤدية بين الجزائر ووادي خنيس وعين الربط (الحامة، ساحة أول ماي)، أسفل مرتفعات عين الأزرق، قوات حسن الخزناسي تؤازرها قوات علي آغا العرب بالقرب من وادي خنيس.
- الجهة الشرقية من ساحة الحرش جنوبا: قوات صالح باي ومعه الكثير من راكبي الخيل والجمال.
- الجنوب الغربي: قوات مصطفى خوجة الخيل.
- باب الوادي: فرقة الصبايحية، لمراقبة تحركات العدو في حال تغيرت خططه وتنقل إلى الجهة الغربية لمدينة الجزائر.
- فرق زواوة: لحماية الجهة الغربية للمدينة.
- الجهة الغربية: قوات خليفة باي الغرب محمد بن عثمان الكبير.^(٤٦)
- سهل متيجة: قوات باي التيطري إلى غاية تامنفوست (البرج البحري حاليا)، لتأمين مؤخرة المدافعين والمكلفين بإيصال المؤن، والمبادرة بالهجوم في حالة الضرورة.^(٤٧)

الملاحظ إذن أن المدينة أصبحت مطوقة من كل الاتجاهات، فما إن تنزل القوات الإسبانية إلى ساحة المعركة حتى تجد نفسها محاصرة من كل الجهات. أخذ كل قائد ينظم قواته ويعدها

-المجموعة الثالثة: أسندت قيادتها للسيد "مصطفى خوجة" خوجة الخيل ومركز رباطها باب الواد، وأمر بأن يكون معه ٢٠ خُباء في كل خُباء ٣٠ نفر أي يوجد معه ٦٠٠ جندي.^(٣٦)

-المجموعة الرابعة: باي التيطري "مصطفى باي" ومركز رباطه تمنفوست، تؤازره بعض القبائل وفرسان سباو.

-المجموعة الخامسة: خليفة باي الغرب يؤازره الخزناسي من الجهة الغربية من رباط (عين الربط) ومعه ٤ آلاف فارس من الدواير.^(٣٧)

خامساً: توزيع المدافع على الأبراج

- برج الفناء (برج البحرية) وبه ١٨٠ مدفعاً.
- برج السردين وبه بطارتان من المدافع بها ٣٢ مدفعاً.
- برج الجديد (برج الزوينة) وقد جدد بناءه محمد بن عثمان باشا ما بين ١٧٧٣-١٧٧٤م فيه مجموعة من المدافع، وفي المحصلة يوجد حوالي ٢٠٠ مدفع جاهز للدفاع عن المدينة.^(٣٨)

أما فيما يخص العدد الكامل للقوات الجزائرية المستعدة فعليا للدفاع عن المدينة، فإننا نستعين بالتقرير الذي قدمه سان ديدوي حول الحملة الإسبانية نقلا عن جمال قنان وكان توزيعها كما يلي:

- بايلك الشرق بقيادة صالح باي، عدد قواته ٢٠ ألف رجل.
- بايلك التيطري بقيادة مصطفى باي، عدد قواته ٤٠ ألف رجل، فيما ذكر الجديري رقم ٢٠ ألف.^(٣٩)
- بايلك الغرب بقيادة الخليفة نائب الباي، عدد قواته ٢٠ ألف جندي.
- آغا العرب بالجزائر عدد قواته ٢٠٠٠ من العثمانيين.
- الخزناسي بالجزائر عدد قواته ٦ آلاف رجل.
- وكيل الحرج عدد قواته ٥ آلاف رجل من العثمانيين.^(٤٠)

أما باي الغرب فبقي مرابطا في أرزيو يتصد تحركات الإسبان الموجودين في وهران والمرسى الكبير وكان عدد قواته يتراوح ما بين ٣٠ و ٤٠ ألف رجل.^(٤١)

سادساً: سير الحملة ونتائجها

١/٦- سير الحملة

في ٠٢ جمادى الثانية ١١٨٩هـ الموافق لـ ٣٠ جوان ١٧٧٥م، بدأت تظهر القوات الإسبانية على سواحل مدينة الجزائر، وما إن بدأ الناس يخرجون من صلاة الجمعة حتى رست مقدمة الجيش بالحرش ونتيجة لهذا الوصول المفاجئ قام صالح باي بمنورة ذكية وأنزل قواته التي قدرت بحوال ٢٠ ألف جندي يمكن غير بعيد عن الحرش.^(٤٢) ومع مطلع فجر يوم ٠١ جويلية ١٧٧٥م قام القائد العام للقوات الإسبانية الكونت أورلي بجولة

الإسبان فداستها واقتحمها^(٤٤)، فيما كانت قواته المقدرة بحوالي ٢٠ ألف رجل تمشي خلفها، وكان يهدف من وراء هذه الخطة حماية جنوده من رصاص الجنود الإسبان^(٤٥)، زيادة على إرعابهم وبعث الخوف في نفوسهم لمشاهدتهم هذا الموقف الرهيب^(٤٦)، وفي هذه الأثناء التحقت بقوات صالح باي قوات الخزناجي من جهة الغرب، ومن الجنوب قوات خليفة باي معسكر وقوات حوجة الخيل.

والتقى الطرفان في معركة رهيبة استطاعت فيها القوات الجزائرية دخول المتاريس وملاحقة القوات الإسبانية التي بدأت في الفرار باتجاه السفن بدون تنظيم، وما زاد الأمر تأزماً بُعدهم عن البحر، حيث قدرت المسافة بنصف ميل، وقتل منهم الكثير وهرب بعضهم في الزوارق إلى سفنهم^(٤٧) على الساعة الثالثة صباحاً من يوم ٨ و ٩ جويلية تمكن بعض الإسبان الذين نجوا من نيران وسيوف الجزائريين من ركوب سفنهم، وكلهم فرح وسرور بتمكنهم من النجاة من هذه المجزرة الرهيبة، تاركين خلفهم مدافعهم ومعداتهم الثقيلة التي أنزلوها لإحكام الحصار على المدينة، وظل أسطولهم إلى غاية ٢٤ جويلية محاولاً إعادة القصف والهجوم من جديد، لكن المجلس الحربي رفض خطة أورلي، ليتحرك الأسطول باتجاه إسبانيا وسط خلافات حادة بين قادته، وكل واحد منهم محملاً مسؤولية الانهزام للآخر^(٤٨).

أما من جانب الجزائريين فقد زفت البشائر للداي محمد بن عثمان باشا وأعلنت الأفراح، فقام بتوزيع الكثير من الأموال على السكان، وفي ذلك يقول أحمد الشريف الزهار: «... وقعد عند باب دار ملكه ومعه خزناده وعماله وهم يرفقون الأموال بإذنه على كل من يأتي برأس نصراني، والمقدر بـ ١٠٠ سلطاني على كل رأس بالإضافة إلى أصحاب المدافع، حتى ضاقت الأرض بروؤوس النصراري والمدافع»^(٤٩)، وهو دليل على كثرة الغنائم التي تحصل عليها الجزائريون. انتهت المعركة بانتصار الجزائريين على الإسبان الذين رجعوا خائبين مرة أخرى، وتحطمت آمالهم على عتبات مدينة الجزائر، التي بقيت صامدة بفضل عبقرية الداوي محمد بن عثمان باشا ومعاونيه من أمثال صالح باي وأغا العرب وحسن الخزناجي وخليفة باي الغرب، زيادة على شجاعة الجنود الجزائريين سواء النظاميين أو المتطوعين من أبناء القبائل والعرب والسكان المحليين، وقد أسفرت هذه الحملة على عدة نتائج.

٣/٦- نتائجها

- فشل الإسبان بقيادة الكونت أورلي في احتلال مدينة الجزائر وخيبة آمال الملك كارلوس الثالث في تحقيق أمنية لطالما حلم بها أجداده من الملوك، وهي إخضاع المدينة لسلطة الإسبان.
- تكبد الإسبان خسائر مادية وبشرية فادحة، فقد أجمعت المصادر المحلية على أن الإسبان تركوا وراءهم جميع عتادهم وجثث جنودهم مقطوعة الرؤوس مرمية في ساحة المعركة، وقد قدرت هذه الخسائر بـ ٨ آلاف قتيل و ٣ آلاف جريح منهم ١٢ مهندسا، ومن الضباط السامين ٢٥٠ ضابطاً منهم كاهية الجنرال "كاتبه"^(٥٠)، فيما ذهبت رواية أخرى إلى أن

لخوض المعارك في المنطقة التي خصصت له، وقاموا بحفر الخنادق والمتاريس، ومما ساعدهم على إتمام تجهيزاتهم تأخر نزول القوات الإسبانية أسبوعاً كاملاً نتيجة التردد وهبوب الرياح وإلى ذلك أشار ابن رقية التلمساني بقوله: «...إن مكث العدو كان خيراً لنا، لأن قبائل العرب كانوا يجيؤون من كل ناحية إلينا»^(٤٨). بدأت القوارب التي تحمل الجنود الإسبان بالتقدم نحو الساحل، وما إن وصلت حتى بدأ الجنود بالنزول إلى الشاطئ وفي نفس الوقت تقوم السفن الحربية بقصف معسكرات القوات الجزائرية مركزة قصفها على المنطقة التي توجد بها قوات حسن الخزناجي رغبة منها في تأمين عملية النزول، لكن البطاريات والمدافع الجزائرية كانت لهم بالمرصاد^(٤٩).

نزل الجنود الإسبان إلى البر ويبد كل واحد منهم بنديقة ورمح برأسين حديدين، لتستعمل كمتاريس حول معسكراتهم، وفي نفس الوقت يعيقون بها تقدم الخيالة الجزائريين، كما أنزلوا معهم أكواما من الأخشاب مربوطة في شكل حزم ومهارس القنابل والمدافع ومعهم جميع ما يلزمهم، لتبدأ فرقهم العسكرية في بناء الاستحكامات باستخدام تلك الرماح، إلا أن القوات الجزائرية بتمركزها الجيد استطاعت أن تعيق تحركاتهم وتطوقهم وتحاصرهم في منطقة ضيقة بين مرتفعات حسين داي وشاطئ البحر، رغم تحصيناتهم التي بادروا منذ البداية بإقامتها^(٥٠).

بعد أن أدرك الإسبان خطورة الموقف حاولوا فك الحصار مبكراً لذلك هرعت قواتهم نحو البساتين المجاورة والحقول الواقعة بين الحراش وخنيس، وقاموا باستخدام الأسطول في قصف تجمعات القوات الجزائرية التي أبدت مقاومة شرسة في التصدي لهم، والتي بقيت لمدة ٣ أيام وهي تحارب في نفس المنطقة إلى أن استطاع أحد المدافعين واسمه عمر براقنيس إدارة مدفعين إلى ناحية الحصن، الذي يتواجد به الإسبان فأحدث ثغرة في حائطه، مما مكن الجزائريين من توجيه قذائف مباشرة إلى تجمعات الإسبان وسفنهم، مما نتج عنه تدمير العديد من المتاريس، وبذلك بدأت المعركة تميل لصالح الجزائريين^(٥١). أسفرت هذه المعارك عن خسائر فادحة في صفوف الإسبان، فقد قتل حوالي ١١٩ ضابط و ٢٠٨٨ جندي، أما من بقي من الجيش فقد أحكم الحصار حولهم تماماً وغدا الصمود لا يجدي نفعاً، لأن القوات الجزائرية أحكمت سيطرتها على المنطقة^(٥٢).

٢/٦- اليوم الرابع من المعارك - بداية النهاية للقوات الإسبانية

على الرغم من مرور ثلاثة أيام على بداية المعارك، إلا أنه لا أحد من الطرفين استطاع حسم المعارك لصالحه، فحاول كل طرف إيجاد طريقة ما لحسم الأمر نهائياً، ومن هنا خطر على بال صالح باي خطة حربية يفاجئ بها القوات الإسبانية ويشتت شملها ويقتحم معسكراتها المحصنة، ففي اليوم الرابع من المعارك صبيحة يوم الإثنين أشار صالح باي بتجميع كل الإبل التي قدم بها من قسنطينة، وكان عددها ٥٠٠^(٥٣)، ووضع فوقها الصوف وقام بإشعاله فاندفعت الإبل إلى الأمام نحو خنادق

عدد القتلى كان ١١ ألف قتيل^(٦١)، بالإضافة إلى تركهم حوالي ١٠٠ مدفع وجميع الآلات الحربية.^(٦٢)

أما التقارير الإسبانية فإنها حاولت التخفيف من هول الصدمة التي أصابهم، والتقليل من الخسائر التي لحقت بهم، فالأمير جوزيف دي مازاريدو المسؤول عن عمليات الإنزال على الشاطئ حاول في تقريره التخفيف من الخسائر الإسبانية قائلاً: «... وما تركناه وراءنا على الساحل أربعة مدافع مشاة، وبعض قطع مدفعية عيار ١٨، بالإضافة إلى ١٩ رطلاً من رصاص البنادق، ورامي القذائف، وبعض الأدوات، وهذه الخسائر لا تعبر عن شيء لعدد الرجال الذين كنا سنتركهم قتلى لو انتظرنا إلى الصباح».^(٦٣) وهذا التقرير في الحقيقة يعبر عن نظرة عسكري وجب عليه التحفظ في شأن إعطاء الخسائر الحقيقية والتدليل على عبقريته العسكرية، مفضلاً الانسحاب على تكبد خسائر في أرواح جنوده، مع التقليل من الخسائر وعدم إظهار ذلك للعدو (الجزائريين)، وهذا إن دل على شيء إنما يدل على ذكاء هذا الضابط في ذلك الوقت أو لنقل هي حرب كلامية مرتبطة عضويًا بالحرب العسكرية، مع أن كل القرائن تكذب قوله، فهل يعقل أنه لم يتكبد خسائر في كل المدة التي قضاها في المعارك وأدرك هذه الحقيقة في يوم واحد فقط؟

أما بالنسبة للخسائر البشرية حسب الروايات الأجنبية فإنها جاءت مغايرة تماماً لما أوردته المصادر المحلية ولم تتجاوز حسبهم ١٩١ قتيل و٢٧ جريحاً من الضباط، و٢٠٨٨ جندي قتيل و٥٠١ جريح في صفوف الجنود.^(٦٤)

• أما خسائر الجزائريين فقد كانت ضئيلة مقارنة بحجم الخسائر التي مني بها الإسبان والمعارك التي جرت فلم تتجاوز عند البعض ٢٠٠ شهيد^(٦٥)، أما عند البعض الآخر فقد بلغت ٣٠٠ شهيد^(٦٦) فيما ذهب البعض الآخر إلى ٤٠٠ شهيد، جمعوا وجعلت لهم مقبرة بالرملية إزاء عين الربط^(٦٧) (عرفت لدى العامة بحصن المجاهدين "ساحة أول ماي حالياً")

• زاد هذا الانتصار المحقق الإحساس بالفخر والاعتزاز لدى الجزائريين، والالتفاف حول قيادتهم التي قادتهم إلى الانتصار، فعمت الأفراح والاحتفالات كامل تراب الإيالة، وزف الخبر السعيد للسلطان عبد الحميد الأول^(٦٨) مع بعض الهدايا وقدم له حفيد الداوي محمد بك ووكيل خراج القصر- تفاصيل هذا الانتصار الذي حققه الجزائريون، فيما توافدت جموع غفيرة للوفد الجزائري مهئنة ومباركة له هذا الانتصار.^(٦٩)

• تركت هذه الهزيمة أثراً بالغاً عند الإسبان، فقد ذكرتهم بحملاتهم الفاشلة السابقة، خاصة حملة شارلكان سنة ١٥٤١م، لتضاف هذه الهزيمة إلى انتكاساتهم السابقة على عتبات مدينة الجزائر، التي بقيت صامدة أمامهم دائماً.^(٧٠)

• سطوع نجم الداوي محمد بن عثمان باشا في كامل العالم الإسلامي، وبخاصة في منطقة المغرب الإسلامي، وأصبح مشهوراً ومحوباً في قلوب الناس، لأنه استطاع بدهائه وعبقريته العسكرية ألا يترك شيئاً للصدفة، ولذلك كافأه السلطان عبد الحميد الأول ببردة وسيف وطرة مرصعة بالجواهر والكثير من السفن ولوازمها والأشربة تكريماً وتعظيماً له.^(٧١)

• خلداً هذا النصر- لدى الجزائريين وأطلق الشعراء العنان لقرايحهم، فنظموا العشرات من القصائد الشعرية والكتابات التي تخلد هذا النصر التاريخي، ومن هذه الأبيات ما قاله الشاعر الجزائري أحمد بن الشيخ سيدي السعيد قدورة وهو يُجيب فيها الشيخ محمد بن سعيد بن قريش التطواني عن أخبار هذه المعركة:

هِيَ الْأَقْلَامُ تَنْطِقُهَا الْمَحَابِرُ لَتُسْمِعَكَ الْيَقِينَ عَنِ الْجَزَائِرِ
وَبَاؤُوا مِثْلَمَا جَاؤُوا خَزَائِنًا وَأَعْطَوْا مَا أَكُنَّ فِي الضَّمَائِرِ
وَكَمْ رَمَتْ الْحُصُونُ عَلَيْهِمْ مِنْ صَوَاعِقٍ لَا تَعْدُ خِلَالَ زَاخِرِ
وَلَا تَحْزَنُ فَإِنَّ اللَّهَ مَعَنَا إِذَا تَقَتِ الْعَسَاكِرُ بِالْعَسَاكِرِ.^(٧٢)

استمرار حالة العداء بين الطرفين الجزائري والإسباني، فزادت الغارات من الجانبين وأصبح كل واحد منهما يترصد سفن الآخر، وقد اتبع محمد بن عثمان باشا سياسة تكثيف الغارات على سفن الإسبان والقيام بتشجيع العاملين في البحرية بزيادة المكافآت للرّياس والبحارة، ودفع الأجور لهم زيادة على نصيبهم من الغنائم، وشجع صناعة السفن، ولذلك اعتبرت السنوات الممتدة من ١٧٧٨-١٧٨٢م من أهم السنوات التي حقق فيها الجهاد البحري أعلى مستوياته، لأن المداخيل زادت فيها وقاربت المليون فرنك سنوياً.^(٧٣)

• انتعاش الحركة التجارية بمدينة الجزائر نتيجة لكثرة الغنائم والأسرى، وفي ذلك يقول الزهار: «فوقع للتجار ربح عظيم، وكان السماسرة ينادون على الأسارى وقيمة كل أسير ٢٠٠ دورو، فإذا جاء الغداء يفتدونهم بألف دور لكل رأس»^(٧٤)، وهذا دليل على انتشار الحركة التجارية وكثرة الغنائم والأسرى بمدينة الجزائر في ذلك الوقت.

سابعاً: العوامل المساعدة على انتصار الجزائريين

اختلف المؤرخون في تفسير العوامل والأسباب التي أدت إلى انتصار الجزائريين وهزيمة الإسبان، وكل واحد فيهم يحاول تفسير هذا الأمر من وجهة نظره، فهناك من أرجعها إلى الأخطاء الحربية التي وقع فيها الإسبان، وثان أرجعها إلى دهاء وعبقرية القادة الجزائريين بقيادة محمد بن عثمان باشا ومساعدته مثل علي خوجة وصالح باي... وغيرهم، وآخر أرجعها إلى تأييد الله بالملائكة وكراماته التي أنزلها على الجيش الجزائري نتيجة لإيمانه وصبره، ولذلك نلخص مجمل هذه الأقوال فيما يلي:

- الكرامات التي حدثت للمجاهدين الجزائريين أثناء القتال، وقاتل الملائكة معهم^(٨١)، حتى قيل إن النار كانت تشتعل في جنود النصارى بعون الله سبحانه وتعالى.^(٨٢)

وعموماً فإن هذه العناصر مجتمعة هي التي قادت الجزائريين للانتصار ودحر الحملة الإسبانية، على الرغم من اختلاف التفاسير لهذه الأسباب، فهناك المتعاطف مع الإسبان خاصة الأوروبيين، وآخر متعاطف مع الجزائريين، ومع ذلك مهما كانت التفسيرات فإنها لا تنقص من هذا الانتصار، بل يبقى من أعظم الانتصارات التي حققتها الدولة الجزائرية الحديثة.

خاتمة

تعتبر هذه المعركة التي درات وقائعها على أرض الجزائر بداية النهاية للصراع الجزائري الإسباني الذي دام حوالي ثلاثمائة سنة، حاولت فيها إسبانيا بكل ما أوتيت من قوة إبقاء الجزائر تحت سيطرتها، إلا أنه بانتهاء هذه المعركة تأكد للسانة والعسكريين الإسبان أن الجزائر الحديثة لا يمكنهم احتلالها أو إخضاعها، لذلك يجب التفكير في طرائق أخرى لعلمهم يستطيعون بها تحقيق أهدافهم التي عجزوا عن تحقيقها بالقوة العسكرية، لذلك سلاحظ فيما بعد أن الخيار الوحيد المتاح أمامهم هو الخيار الدبلوماسي الذي بدأ سنة ١٧٨٦م بتوقيع اتفاق صلح بين الطرفين، ليتوج مسار هذا الطريق الدبلوماسي بمعاهدة نهائية سنة ١٧٩١م، تم على إثرها انسحاب الإسبان النهائي من وهران والمرسى الكبير بعد احتلال دام حوالي ٢٨٠ سنة، وبذلك تضع الحرب أوزارها بين الجزائر وإسبانيا بعد صراع مرير وأليم كبذ الطرفان خسائر فادحة في الأرواح والأموال.

- التردد الذي طبع قرارات قادة الجيش الإسباني وعلى رأسهم الكونت أورلي والدون بيدرو كاستيخون في اختيار موقع الإنزال، فقد استغرق ذلك ٧ أيام كاملة^(٧٥)، وهذا فيه إنبهالك لقوى الجيش الذي أصابه العياء من قلة النوم والجهد المبذول خلال هذه المدة، وكان من المفروض أن يختار نقطة الإنزال مسبقاً قبل وصول الحملة إلى الجزائر، حتى يتم الإنزال بأقصى سرعة ممكنة.
- استهزاء الإسبان بقدرات الجزائريين على رد الحملة وعدم تقديرهم الجيد لمعطيات المعركة، سواء ما تعلق بقدرات الجزائريين العسكرية أو أرض المعركة نفسها، فقد دخلوا المعركة دون أن يقع اختيارهم على شاطئ حصين، كما أنهم فشلوا في معرفة أماكن تواجد المدافع الجزائرية التي وضعت على المرتفعات المطلّة على مكان نزولهم^(٧٦)، لذلك كانت تقديراتهم سيئة، زد على ذلك أن تخطيطهم لهذه المعركة كان أسوأ.
- قوة وفعالية المدفعية الجزائرية التي كانت متمركزة جيداً على المرتفعات وبين الأشجار والبساتين المحيطة بأرض المعركة، وتأزر وتدخل القوات الجزائرية في آن واحد ضد العدو، أدى إلى حسم المعركة لصالحهم.
- مهارة وكفاءة القادة الجزائريين وعلى رأسهم محمد بن عثمان باشا ومساعديه مثل صالح باي ومصطفى خوجة وخليفة باي الغرب... الذين عرفوا كيف يخططون لهذه المعركة.^(٧٧)
- لعبت المكافآت المالية التي وعد بها الداى محمد بن عثمان باشا جنوده -لكل من يأتي برأس جندي إسباني- دوراً مهماً، وكانت دافعا لمزيد من الحماس والشجاعة لدى الجزائريين من أجل الحصول على ١٠ دنانير مقابل كل قتيل مسيحي^(٧٨)، ومما نلاحظه في هذا الشأن أن جون وولف يفسر هذا الأمر على أنه جشع بحت لهؤلاء المقاتلين الذين يريدون الربح المادي فقط، وهذا هو ديدنه في كامل كتابه فيما يخص كل المعارك التي خاضها الجزائريون خاصة المتطوعون منهم، غير مبال تماماً بعقيدتهم التي تدعو إلى الجهاد والفوز بالجنة زيادة إلى حماسهم في الدفاع عن وطنهم وأرضهم التي يريد الإسبان الاستيلاء عليها، وهم في ذلك غير متناسين مأساة إخوانهم من الأندلسيين الموريسكيين الذين فعلوا الإسبان بهم الأفاعيل وطردوهم من أرضهم، زيادة على الانتقام من الإسبان الذين يحتلون وهران والمرسى الكبير.
- الشجاعة والإقدام اللذان تميزت بهما القوات الجزائرية المدافعة عن المدينة وذكائها الحربي وسرعة تحركاتها داخل أرض تعرف خباياها بالتفصيل.^(٧٩)
- الخطة العسكرية المحكمة التي نفذها صالح باي هي التي رجحت الكفة لصالح الجزائريين وأثبتت ذكاءه وخبرته العسكرية، وكانت سبباً في تحقيق هذا النصر.^(٨٠)

الهوامش:

معتبرة من الأخشاب ومواد البناء، والعديد من الحبال الضخمة، ودفع جميع الهدايا المترتبة على السنوات الماضية أثناء قطع العلاقات...، عزيز سامح ألتز: المرجع السابق، ص ٥٢٦، بلبروات بن عتو: المرجع السابق، ص ١٠٠،

(١٣) عزيز سامح ألتز: المرجع السابق، ص ٥٢٤.

(١٤) أحمد الشريف الزهار: المصدر السابق، ص ٣٧.

(١٥) عزيز سامح ألتز: المرجع السابق، ص ٥٢٩.

(١٦) للمزيد عن هذا التقرير يُنظر: أرميورو، وهران والغرب الجزائري في القرن الثامن عشر ميلادي حسب تقرير أرميورو، تقديم وترجمة: محمد القورصو وميكال دي إيبيلزا، المكتبة الوطنية، الجزائر، ١٩٧٨م.

(١٧) أحمد الشريف الزهار: المصدر السابق، ص ٤١.

(١٨) بلبروات بن عتو: المرجع السابق، ص ١٠٠.

(١٩) أحمد توفيق المدني: حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا ١٤٩٢-١٧٩٢م، ط ١، دار البصائر للتوزيع والنشر، الجزائر، ٢٠٠٧، ص ٤٥١.

(٢٠) شبيب بن حفري: "العلاقات الإسبانية الجزائرية في القرن الثامن عشر ميلادي من خلال مخطوط عثمان"، مجلة الآداب والعلوم الإنسانية، ١٤، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة، الجزائر، ٢٠٠٢م، ص ١٢٤.

(٢١) نفسه، ص ١٢٥.

(٢٢) بوحفص تاجانة: المرجع السابق، ص ٦٩.

(٢٣) عزيز سامح ألتز: المرجع السابق، ص ٢٢٧.

(٢٤) شبيب بن حفري: المرجع السابق، ص ١٢٥.

(٢٥) يحي بوعزيز: الموجز في تاريخ الجزائر، ج ٢، الجزائر الحديثة، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ٢٠٠٧م، ص ١٨٥.

(٢٦) ناصر الدين سعيدوني: دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر-الفترة الحديثة والمعاصرة-، ج ٢، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ١٩٨٤م، ص ١٥٦.

(٢٧) امحمد موقفي: العلاقات السياسية والتجارية بين الجزائر وإسبانيا ١٢٠٠-١٢٤٥هـ / ١٧٨٦-١٨٣٠م، مذكرة ماجستير، قسم التاريخ، معهد العلوم الإنسانية والاجتماعية، المركز الجامعي، غرداية، ١٤٣١-١٤٣٢هـ / ٢٠١٠-٢٠١١م، المرجع السابق، ص ٣٣.

(٢٨) جمال قنان: نصوص ووثائق في تاريخ الجزائر الحديث ١٥٠٠-١٨٣٠م، دار الرائد للكتاب، الجزائر، ١٤٣١هـ / ٢٠١٠م، ص ٢٦.

(٢٩) جون وولف: المرجع السابق، ص ٤٠٣، فيما ذكر جيمس ولسن ستيفانسون أن عدد القوات كان ٢٥٤٤٧ شخص بما فيهم المشاة، الخيالة، الفرسان، رجال المدفعية... وغيرهم، أما السفن وتجهيزاتها فكانت ٦ سفن كبيرة، ١٢ فرقاطة، ٩ شباك، ٢٤ سفينة من نوع آخر، ١٧٦ قطعة مدفع و ٢٠ مدافع هاون... جيمس ولسن ستيفانسون: الأسرى الأمريكيين في الجزائر، ١٧٨٥ - ١٧٩٧ م، ترجمة، علي تابلت، منشورات تالة، الجزائر، ٢٠٠٨ م، ص ٥٨ - ٥٩.

(٣٠) أما المصادر المحلية والمراجع فقد تقاربت في إعطاء نفس الأرقام تقريبا ٢٠ ألف جندي و ٥٠٠ سفينة حربية، أحمد الشريف الزهار: المصدر السابق، ص ٤٢، مجموعة ٣١٩٠، علبة رقم ١٦، الملف الثاني، وثيقة رقم ١٣، ص ١، محمد أبوراس الناصري: عجائب الأسفار ولطائف الأخبار، ج ١، دراسة وتحقيق بوركية محمد، منشورات وزارة الشؤون الدينية والأوقاف، الجزائر، ٢٠١١م، ص ٣٣٨ D'alarymple (Major), Expedition D'oreilly 1775, R.Af, N°5, Alger, 1861, pp33.34

(٣١) مجموعة ٣١٩٠، علبة رقم ١٦، الملف الثاني، وثيقة رقم ١٣، ص ٢.

(٣٢) ناصر الدين سعيدوني: المرجع السابق، ص ١٥٧.

(١) في سنة ١٧٠٨ استطاع الداوي محمد بكداش تحرير مدينتي وهران والمرسى الكبير لأول مرة من الاحتلال الإسباني بعد احتلال دام ٢٠٣ سنة، ليعاد احتلالهما سنة ١٧٣٢ بقيادة الضابط الكونت دي مونتماريا.

(٢) جون وولف: الجزائر وأوروبا، ترجمة وتعليق: أبو القاسم سعد الله، ط ٢، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، الجزائر، ٢٠٠٩م، ص ٤٠٣.

(٣) نفسه، ص ٤٠٣.

(٤) ولد الباوي محمد بن عثمان الملقب بالكبير همليانة ما بين ١٧٣٤-١٧٣٧م، كان ولده عثمان الكردي بايا للتيطري، وأمه تدعى زائدة كانت جارية ببلاط مولاي إسماعيل سلطان المغرب الأقصى، ولما قتل والده عثمان الكردي في معركة ضد أولاد نايل، حضى محمد الكبير وأسرته برعاية صديق والده الباوي إبراهيم، الذي صار بايا للتيطري ثم بايا للغرب الجزائري سنة ١٧٥٩-١٧٦٠م، كان محمد الكبير يحظى بثقة الداوي إبراهيم لخصاله الحميدة، وازداد قربا إليه بالمصاهرة، حيث زوجه ابنته فاطمة وأشركه في إدارة البايلك، وتدرج في المناصب إلى أن صار بايا للغرب الجزائري سنة ١٧٧٩-١٧٩٧م، وخلالها سجل الباوي العديد من الإنجازات، قال عنه أبو راس الناصري «ذي المقام الذي أطلعت أزهاره غمائم جوده، واقتضى اختباره بركة جوده، الملك الأصيل الذي كرم منه الإجمال والتفصيل الرفيع الشأن، السيد محمد باي ابن عثمان أخلص الله جهاده ويسر في قهر أعداء الدين مراده بأبسط العدل والأمان، الرفيع المجاهد المرابط...»، محمد أبو راس الناصري: فتح الإله ومنتبه في التحدث بفضل ربي ونعمته "حياة أبي راس الذاتية والعلمية"، حققه، محمد بن عبد الكريم، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ١٩٩٠م، ص ١٠٠؛ بلبروات بن عتو: "الإصلاح الثقافي للباي محمد الكبير في مدينة معسكر"، حولية المؤرخ، ع ٤/٣، الأبيار، الجزائر، ٢٠٠٣م، ص ١٩٧؛ Gorgouos, Notice sur le Bey D'oran Mohammed Elkebir, R.Af, N°1, Alger, 1856, pp 403-406.

(٥) بوحفص تاجانة: الحملات العسكرية لدول غرب أوروبا المتوسطية على الجزائر ١١٤٥-١٢٤٦هـ / ١٧٣٢-١٨٣٠م، رسالة ماجستير في التاريخ، قسم التاريخ، معهد العلوم الإنسانية والاجتماعية، المركز الجامعي، غرداية، ١٤٣٢-١٤٣٣هـ / ٢٠١٠-٢٠١١م، ص ٦٣.

(٦) أحمد شريف الزهار: مذكرات أحمد الشريف الزهار نقيب أشرف الجزائر، تحقيق، أحمد توفيق المدني، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، الجزائر، ٢٠١٠م، ص ٣٧.

(٧) عزيز سامح ألتز: الأتراك العثمانيون في إفريقيا الشمالية، ط ١، ترجمة: محمود علي عامر، دار النهضة العربية للنشر والتوزيع والطباعة، بيروت، لبنان، ١٩٨٩م، ص ٥٣٣.

(٨) نحن بدورنا نتساءل لماذا تأخر حكام الإيالة في فرض هذا النظام طوال المدة السابقة؟ على الرغم من عشرات الحالات التي تم فيها اغتيال الحكام نتيجة هذا التسبب في مقر الحكم، وربما راجع لضعف الحكام السابقين الذين كان يتحكم فيهم من طرف الإنكشارية لأنهم هم من عينوهم فيبدون ضعفاء أمامهم، بالإضافة إلى فقدان حكام الإيالة الجزائرية لبروتوكولات الحكم كما كان يحدث في سائر دول أوروبا.

(٩) بلبروات بن عتو: الداوي محمد بن عثمان باشا وسياسته ١٧٦٦-١٧٩١م، مجلة عصور، ٧/٦٤، جامعة وهران، الجزائر، جوان/ ديسمبر ٢٠٠٥م، ص ٩٢، ٩٤.

(١٠) أحمد الشريف الزهار: المصدر السابق، ص ٤٠، ٤١.

(١١) مجموعة رقم ٣٢٠٥، علبة رقم ٥٤، وثيقة رقم ١٦.

(١٢) من أهم هذه الشروط دفع ٥٠ ألف سكين، و ٤ مدافع من البرونز، و ٤٠٠ قنبلة و ٥٠٠ قنطار بارود و ٥٠٠ صارية للأشعة، وكميات

- (٦٠) مجموعة ٣١٩٠، علبة رقم ١٦، الملف الثاني، وثيقة رقم P١٣، ص ٠٢.
- (٦١) أحمد الشريف الزهار: المصدر السابق، ص ٤٣.
- (62) Mazarredo (J. de), op.cit, p265.
- (63) Berbrugger (A), op.cit, p184.
- (٦٤) يقول جون وولف أن عدد القتلى بلغ ٢٧ ضابطاً و ٥٠٠ جندي وجرح ١٩١ ضابطاً وأكثر من ١٠٠٠ جندي، جون وولف، المرجع السابق، ص ٤٠٦؛ وهكذا هي عادة الأوروبيين يقللون من خسائرهم حتى ينقصوا من انتصارات الجزائريين ولا يعطونها حقها من القيمة والاهتمام، عكس انتصاراتهم ولو كانت في معركة بسيطة.
- (٦٥) مجموعة ٣١٩٠، علبة رقم ١٦، الملف الثاني، وثيقة رقم P١٣، ص ٢.
- (٦٦) ابن رقية الجديري التلمساني: المصدر السابق، ص ٣١.
- (٦٧) محمد أبو راس الناصري: **الحلل السندسية في تاريخ وهران والجزيرة الأندلسية**، مخطوط المكتبة الوطنية، الجزائر، رقم ٣١٨٢، ص ٣٣٨.
- (٦٨) ولد سنة ١١٢٨ هـ/ ١٧٢٦ م، جلس على العرش سنة ١١٨٧ هـ/ ١٧٧٣ م، ومدة حكمه ١٦ سنة، في عهده عرفت الدولة العلية عدة إصلاحات ابتداءً من سنة ١١٨٩ هـ/ ١٧٧٥ م، مثل محاربة الفساد وبعض الإصلاحات الإدارية، وعرف عهده الكثير من الحروب ضد الدولة الصفوية وروسيا، توفي سنة ١٢٠٣ هـ/ ١٧٨٩ م، عن عمر يناهز ٦٦ سنة...، محمد فريد بك المحامي: **تاريخ الدولة العلية العثمانية**، تحقيق، إحسان حقي، ط١، دار النفائس، بيروت، لبنان، ١٤٠١ هـ/ ١٩٨١ م، ص ١٨٤، ١٨٦.
- (٦٩) عزيز سامح ألتز: المرجع السابق، ص ٥٣٢.
- (٧٠) أحمد موفق: المرجع السابق، ص ٣٩.
- (٧١) عزيز سامح ألتز: المرجع السابق، ص ٥٣٢.
- (٧٢) عبد الرحمن الجبالي: **تاريخ الجزائر العام**، ج ٣، ص ٥، دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، ٢٠١٠ م، ص ٢٤٥، ٢٤٦.
- (٧٣) المنور مروش: **دراسات عن الجزائر في العهد العثماني - القرصنة، الأساطير والواقع**، ج ٢، دار القصة، سعيد حمدين، الجزائر، ص ٤٦٨.
- (٧٤) أحمد الشريف الزهار: المصدر السابق، ص ١٤٤.
- (٧٥) عزيز سامح ألتز: المرجع السابق، ص ٥٣١.
- (٧٦) جون وولف: المرجع السابق، ص ٤٠٦.
- (٧٧) ناصر الدين سعيدوني: المرجع السابق، ص ١٦١.
- (٧٨) جون وولف: المرجع السابق، ص ٤٠٤.
- (٧٩) أحمد توفيق المدني: المرجع السابق، ص ٤٦٩.
- (٨٠) مجهول: **تاريخ بايات قسنطينة، المرحلة الأخيرة**، تحقيق، حساني مختار، منشورات دحلب، حسين داي، الجزائر، ١٩٩٠ م، ص ١٠.
- (٨١) لا يمكننا نفي أو تصديق هذا الأمر، لكن نقول إنه ثبت عبر التاريخ الإسلامي منذ غزوة بدر الكبرى مثل هذه الكرامات للمجاهدين المخلصين، لأن الله سبحانه وتعالى يمد عباده بالملائكة للقتال معهم نصرته لدينه وعباده المظلومين، ويمكن أن يكون حدث هذا الأمر في هذه المعركة.
- (٨٢) مجموعة ٣١٩٠، علبة رقم ١٦، الملف الثاني، وثيقة رقم P١٣، ص ٢.
- (٣٣) محمد الطاهر بن أحمد: **ذكر طرف ولاية المرحوم السيد صالح باي أمير ببلدة قسنطينة**، مخطوط المكتبة الوطنية، تونس، رقم ٢٦٣، ص ٢٢.
- (٣٤) ابن رقية الجديري التلمساني: **الزهرة النائرة فيما جرى في الجزائر حين أغارت عليها جنود الكفرة**، مخطوط، المكتبة الوطنية، الجزائر، رقم ١٦٢٦، ص ٢٦.
- (٣٥) نفسه، ص ٢٦، ٢٧.
- (٣٦) مجموعة ٣١٩٠، علبة رقم ١٦، الملف الثاني، وثيقة رقم P١٣، ص ٠١.
- (٣٧) جمال قنان: المرجع السابق، ص ٢٥٦.
- (٣٨) ابن رقية الجديري التلمساني: المصدر السابق، ص ٢٧.
- (٣٩) ليكون بذلك عدد الجنود المدافعين عن المدينة يقدر بحوالي ١١٣ ألف مقاتل ويبدو الرقم مبالغاً فيه كثيراً ولا يعبر عن الحقيقة، خاصة وأن المصادر المحلية لم تتطرق بتاتاً لهذا العدد الضخم.
- (٤٠) جمال قنان: المرجع السابق، ص ٢٥٦ - ٢٥٧.
- (٤١) أوجين فايس: **تاريخ بايات قسنطينة في العهد التركي ١٧٩٢ - ١٨٧٣ م**، ترجمة، صالح نور، تقديم، الشيخ عبد الرحمان شيبان، ط١، دار قرطبة للنشر والتوزيع، الجزائر، ١٤٣٢ هـ/ ٢٠١٠ م، ص ٣١.
- (42) Berbrugger (Adrien), Reprise D'oran par Les Espagnols en 1732, R.Af, N°8, Alger 1864, p174.
- (٤٣) هكذا هو ديدن الأوروبيين دائماً عندما يتعلق الأمر بمعاركهم ضد الجزائريين، ولكي يبرروا هزائهم يلجؤون إلى العوامل الطبيعية مثل الرياح والأمطار وغيرها، وهي كلها مباررات غير مقنعة تماماً، ناسين أو متناسين قوات الجيش الجزائري وعبقريته.
- (44) Mazarredo (Joseph de), Expédition D'oreilly Contre Alger en 1775, R.Af, N°8, Alger, 1864, pp 255, 257.
- (٤٥) أحمد توفيق المدني: المرجع السابق، ص ٤٦٥.
- (٤٦) ناصر الدين سعيدوني: المرجع السابق، ص ١٥٨.
- (٤٧) ابن رقية الجديري التلمساني: المصدر السابق، ص ٢٧.
- (٤٨) أحمد موفق: **العلاقات السياسية والتجارية بين الجزائر وإسبانيا ١٢٠٠-١٢٤٥ هـ/ ١٧٨٦-١٨٣٠ م**، مذكرة ماجستير، قسم التاريخ، معهد العلوم الإنسانية والاجتماعية، المركز الجامعي، غرداية، ١٤٣١-١٤٣٢ هـ/ ٢٠١٠-٢٠١١ م، ص ٣٧.
- (٤٩) ناصر الدين سعيدوني: المرجع السابق، ص ١٥٩.
- (٥٠) أحمد الشريف الزهار: المصدر السابق، ص ٤٢.
- (٥١) عزيز سامح ألتز: المرجع السابق، ص ٥٣٠.
- (٥٢) مجموعة ٣١٩٠، علبة رقم ١٦، الملف الثاني، وثيقة رقم P١٣، ص ٢.
- (٥٣) مجهول: **تاريخ بايات قسنطينة، المرحلة الأخيرة**، تحقيق، حساني مختار، منشورات دحلب، حسين داي، الجزائر، ١٩٩٠ م، ص ١٠؛ الأغا بن عودة المازاري: المصدر السابق، ص ٢٥٠.
- (٥٤) يُذكرنا هذا الأمر بما فعله المرابطون في معركة الزلاقة سنة ٤٧٩ هـ بقيادة يوسف بن تاشفين، عندما استنجد بهم المعتمد بن عباد ضد النصارى، فهاجموا النصارى بالإبل وكانت المعركة فاصلة أبقت الأندلس إسلامية لمدة قاربت أربعة قرون من الزمن.
- (٥٥) أوجين فايس: المصدر السابق، ص ٣٣.
- (٥٦) أحمد الشريف الزهار: المصدر السابق، ص ٤٢-٤٣.
- (٥٧) حساني مختار: **"شرح تنوير البصائر والأبصار في تحريض سلطان الجزائر على قتال الكفار"**، المجلة المغاربية للمخطوطات، أعمال الملتقى الوطني للتراث المخطوط، نوفمبر ٢٠٠٦ م، ع ٤، جامعة الجزائر، الجزائر، ٢٠١٣ م، ص ٢٢٨.
- (٥٨) أحمد الشريف الزهار: المصدر السابق، ص ٤٣.
- (٥٩) ابن رقية الجديري التلمساني: المصدر السابق، ص ٣١.

دور إيالة الجزائر في ظهور المصالح التجارية الأمريكية بغرب البحر الأبيض المتوسط خلال الفترة (١٧٩٥-١٨١٦)

د. معمر العايب

أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر

قسم التاريخ - كلية الآداب

جامعة تلمسان - الجمهورية الجزائرية



ملخص

يحاول المقال تسليط الضوء على مرحلة هامة من تاريخ الجزائر في الفترة الحديثة، حين كانت الدول الأوروبية توحد صفوفها ومواقفها ضد الجزائر (مؤتمر فيينا ١٨١٥)، في الوقت نفسه أيضاً كانت الدولة الفتية الولايات المتحدة الأمريكية تبحث عن أماكن جديدة لترويج وتسويق تجارتها، وتبحث أيضاً عن سبل حماية سفنها التجارية في الحوض الغربي للمتوسط، وعليه فإن إشكالية الموضوع تتمحور حول: دور الجزائر في ظهور المصالح التجارية الأمريكية في غرب المتوسط خلال أواخر القرن الثامن عشر الميلادي ومطلع القرن التاسع عشر، والتي يمكن الإجابة عليها من خلال تناول الموضوعات التالية: (أهمية الجزائر في التجارة الخارجية الأمريكية، وضع التجارة الخارجية الأمريكية في غرب المتوسط أواخر القرن الثامن عشر الميلادي، أهمية معاهدة ١٧٩٥ في ترسيم العلاقات الجزائرية الأمريكية، دور التجار اليهود المتواجدين بالجزائر في تعزيز المصالح التجارية الأمريكية في غرب المتوسط). معتمدين على النهج التاريخي في سرد أحداث هذا الموضوع وتحليلها، والوصول إلى استنباط عدة نتائج: (تناول الموضوع يتيح الفرصة للباحثين لمعرفة مآلات التوثيقية، وجوانبه الغامضة فيما يتعلق بالعلاقات الأمريكية الشمالية أفريقية في هذه الفترة المبكرة من تاريخ الولايات المتحدة الأمريكية، العوامل التي ساعدت الولايات المتحدة الأمريكية، في توسيع نطاق مصالحها التجارية في غرب البحر المتوسط، إبراز دور الولايات المتحدة الأمريكية في إضعاف البحرية الإسلامية للإيالات الثلاث (الجزائر- تونس - طرابلس)، وخاصة الجزائر التي فقدت أبرز ضباط بحريتها (الرايس حميدو)، في صراعها البحري مع أمريكا، في الوقت الذي كانت فيه الدول الأوروبية منهكة في حروبها مع نابليون بونابرت، والكشف عن الدور الهام والخطير الذي لعبه التجار اليهود المتواجدين بالجزائر في التأثير على دايات الجزائر في ربط علاقات مع أمريكا من جهة والدخول معها في من جهة أخرى، وفي مرحلة أخرى السعي لربط المصالح التجارية لليهود بتوسيع المصالح التجارية الأمريكية في غرب المتوسط).

بيانات المقال:

تاريخ استلام المقال:	٢٨	نوفمبر	٢٠١٥
تاريخ قبول النشر:	١٣	فبراير	٢٠١٦

كلمات مفتاحية:

تاريخ الجزائر الحديث، المصالح الأمريكية، إيالة الجزائر، الدبلوماسية الجزائرية، معاهدة ١٧٩٥

DOI 10.12816/0052960

معرّف الوثيقة الرقمي:

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

معمر العايب، "دور إيالة الجزائر في ظهور المصالح التجارية الأمريكية بغرب البحر الأبيض المتوسط خلال الفترة (١٧٩٥-١٨١٦)". دورية كان التاريخية. - السنة الحادية عشرة - العدد الأربعون: يونيو ٢٠١٨، ص ١٣٩ - ١٤٨.

مقدمة

الدور البريطاني حينما كانت الولايات المتحدة الأمريكية مستعمرة إنجليزية، وكانت السفن الأمريكية تدخل مياه غرب المتوسط وهي حاملة لراية التاج البريطاني وكانت الحكومة البريطانية توفر لها الحماية، في إطار بنود اتفاقياتها ومعاهداتها مع حكومة دايات الجزائر، وبعد ذلك يأتي الدور الفرنسي منذ أن

من خلال عنوان المقال قد يتبادر للبعض أن الدور الجزائري كان الوحيد، في ظهور المصالح التجارية الأمريكية في غرب المتوسط، بل سنلاحظ إن دور الجزائر وإيالات المغرب العربي الأخرى بما فيهم المغرب الأقصى، سيأتي في المرحلة الأخيرة بعد

تشير أهم الكتابات التاريخية الجزائرية^(١) التي أرخت للعلاقات الجزائرية الأمريكية، خلال الفترة المعاصرة إلى الدور الذي لعبته إيالة الجزائر في ظهور المصالح الأمريكية في غرب المتوسط، فالولايات المتحدة الأمريكية الدولة الفتية التي احتكت بالجزائر مع أواخر القرن الثامن عشر- وعززت علاقاتها معها بتوقيعها معاهدة صداقة معها عام ١٧٩٥، الأمر الذي ساعدها في توسيع نشاطها التجاري عبر موانئ الجهة الغربية للمتوسط و التطلع نحو شرق المتوسط، وأمام تشابك المصالح التجارية الغربية في غرب البحر المتوسط سارعت الدولة الفتية المنتمية إيديولوجيا إلى الغرب المسيحي إلى الانضمام إلى التحالف الأوربي الذي جاء تنفيذا لتوصيات مؤتمر فينا ١٨١٥ الداعية إلى القضاء على الأسطول الجزائري واحتلال مدينة الجزائر. في خضم هذه الأحداث استطاعت الولايات المتحدة الأمريكية تعزيز مكانتها في غرب المتوسط ونسج علاقات تجارية مع دول شمال إفريقيا وشرق المتوسط، هذا ما سنحاول التطرق إليه بالتفصيل في هذا المقال.

ظهور المصالح الأمريكية في غرب المتوسط

يعود ظهور المصالح الأمريكية في غرب المتوسط إلى الفترة التي سبقت الاستقلال، عندما كانت أمريكا مستعمرة بريطانية وهي الفترة التي سمحت لأمريكا بالاحتكاك بعالم البحر الأبيض المتوسط، من خلال تعاملاتها التجارية خصوصاً مع فرنسا ثم الجزائر، ففرنسا هي التي فتحت أعين أمريكا على البحر الأبيض المتوسط منذ أن كانت تقدم الدعم والمساندة للثورة الأمريكية.^(٢)

أما الجزائر فهي الأخرى ساهمت في فتح المجال للتجارة الأمريكية في غرب المتوسط، "فحسب شهادة الأمريكان أنفسهم بأن تجارتهم قد تقدمت خلال هذه الفترة، وأن بلادهم قد بدأت تتعرف على أحوال الشرق أو العالم القديم بفضل معاملة الجزائر لهم"،^(٣) والأكثر من ذلك أن الكثيرين من مؤرخي أمريكا الشمالية لهذه الفترة يؤكدون أن سياسة الجزائر البحرية هي التي جعلت الأمريكيين يعتمدون المال لبناء أسطول بحري قوي يستطيع الوقوف في وجه الأسطول الجزائري، وأن فرقة البحارة (المارينز) الأمريكية ما تزال تنشده انتصاراتها "على سواحل طرابلس"، وأن أول أسطول بحري للجمهورية الفتية قد أنشئ، وفي ذهنه البحارة الجزائريون.^(٤) ومنذ إعلان استقلال أمريكا عن بريطانيا سعت جاهدة إلى الحصول على اعتراف الدول الأوربية باستقلالها وتحقيق دعم سياسي دولي لها، فأرسلت ممثليها إلى عواصم أوروبا الغربية لعقد معاهدات صداقة وتجارة معها، وكانت فرنسا من أوائل الدول الأوربية التي اعترفت بها عام ١٧٧٦، وهذا الاعتراف كان نكايه في بريطانيا وتبعه عقد معاهدتين بين البلدين الأول سنة ١٧٧٦ والثانية عام ١٧٧٨.^(٥)

تبنّت فرنسا قضية الثورة الأمريكية وقدمت مساعداتها المادية والمعنوية للثوار الأمريكان في حربهم ضد الإنجليز. ومن دواعي هذا البحث أنه جاء كمحاولة لإزالة الغموض على تفاصيل بعض الأحداث التي عرفتتها منطقة غرب المتوسط خلال الربع الأخير من القرن الثامن عشر والعقدين الأول والثاني من القرن التاسع عشر الميلادي، المتصلة بظهور المصالح التجارية الأمريكية كقوة جديدة تدخل حلبة المنافسة في مياه غرب المتوسط، والتطرق إلى هذا الموضوع اقتضى بالضرورة العودة إلى الدراسات السابقة التي تناولته بمقاربات أخرى تميزت بالشمولية في تتبع أحداث مسار العلاقات الجزائرية الأمريكية (١٧٩٥-١٨١٦) أو العلاقات الشمال الأفريقية الأمريكية خلال نفس الفترة، وبهذا الشكل كان من المفيد العودة إلى هذه الكتابات وإعادة قراءتها واستنباط أهم النتائج المتعلقة بظروف المواجهة لدخول الدولة الفتية (الولايات المتحدة الأمريكية) إلى الحوض الغربي للمتوسط، والطرق التي استعملتها (الدبلوماسية والعسكرية) في الوصول إلى تحقيق مصالحها التجارية وحمايتها وتوسيع نشاطها في كامل حوض المتوسط ككل.

والدراسات السابقة حول الموضوع المعتمدة في هذا المقال، تنوعت ما بين الدراسات الجزائرية، والأجنبية المعربة والعربية، التي تناولت الموضوع بشكل مباشر، وهنا يمكن الإشارة إلى كتابات المؤرخ أبو القاسم سعد الله في هذا المجال ونذكر منها على سبيل المثال للحصر: "الدبلوماسية الجزائرية الأمريكية قبل الاحتلال"، مجلة المعرفة الجزائرية، العدد، ١٥، ١٦، ١٩٦٤، وكذلك الدراسة القيمة حول: "العلاقات الجزائرية الأمريكية (١٧٧٦-١٨٣٠)"، والتي نشرها في كتابه أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر الحديث، ج١، ش، و، ن، ت، الجزائر ١٩٧٨. أما الدراسات الأجنبية المعربة حول الموضوع فقد اعتمدنا على ما قدمه من مجهود المرحوم الأستاذ إسماعيل العربي وتمثلت في ترجمته لمؤلفين اثنين: الأول لصاحبه: راي ويل أرين: العلاقات الدبلوماسية بين دول المغرب والولايات المتحدة (١٧٧٦-١٨١٦)، شون ت الجزائر ١٩٧٨، والتأليف الثاني المترجم وهو لتشارلز أوسكار بولان، المفاوضات الدبلوماسية بين ضباط البحرية الأمريكية ودول المغرب (١٧٧٨-١٨٨٣)، ضمنه في كتابه القيم، فصول في العلاقات الدولية، م و ك، الجزائر، ١٩٩٠. دون إغفال الدراسات العربية المشرقية التي تناولت الموضوع في بعض جوانبه على غرار ما كتبته الباحثة هيفاء معلوم الأمام حول: العلاقات الأمريكية الشمال إفريقية في العصر الحديث، ونشرته في المجلة المغربية التي تصدرها مؤسسة عبد الجليل التميمي للبحث والمعلومات، بتونس، عددها ١٥ و ١٦، شهر جويلية، ١٩٧٩، ولتحليل أحداث هذا الموضوع اعتمدنا على المنهج التاريخي في سرد أحداثه.

أهمية الجزائر في التجارة الخارجية الأمريكية قبل استقلال أمريكا

يؤكد توماس برايسون^(١) وهو أحد المتخصصين في تاريخ العلاقات الدبلوماسية الأمريكية مع الشرق الأوسط أن أمريكا بعد استقلالها عن الإنجليز عام ١٧٧٦، وجدت نفسها في عالم معاد لها تهيمن عليه قوى استعمارية أوروبية بعد ما كانت أمريكا جزءًا من النظام الذي قامت عليه فلسفة التوازن الاقتصادي للإمبراطورية البريطانية، حيث أنها كانت تتمتع بحماية خاصة باعتبارها مجرد تابع يسير في ركاب الإمبراطورية البريطانية، أما بعد استقلالها ففي استطاعتها أن تدخل مجال المنافسة بل من الضروري أن تواجه هذه المنافسة في نطاق سوق عالمية، هذا الوضع أفقد الدولة الفتية عدة مزايا تجارية كانت تتمتع به قبل استقلالها عن التاج البريطاني، وكانت التجارة الخارجية مسألة ضرورية للحفاظ على بقاء الدولة الفتية، لذا سعى المؤسسون الأوائل لأمريكا سعيًا حثيثًا للبحث عن أسواق جديدة وكان الشرق الأوسط الإسلامي من أول الجهات التي قصدوها^(٢).

إن ظهور السفن التجارية والحربية والتجار والدبلوماسيين الأمريكيين في بلدان الشرق الأوسط وشمال إفريقيا، يعود إلى أواخر القرن الثامن عشر أي بضع سنوات فقط من ظهور أمريكا كدولة مستقلة، أثناء هذه الفترة زاد اهتمام بهذه المنطقة من طرف الأمريكيين نتيجة تجارة الأفيون، حيث كان التجار الأمريكيين يشترون الأفيون من أزمير وغيره من مرافق الإمبراطورية العثمانية وينقلونه عبر البحر الأبيض المتوسط والمحيط الأطلسي- وحول رأس الرجاء الصالح وعبر المحيط الهندي، وفي هذا يشير دان ليسي- أيضًا: (.. أن من بين روابط الولايات المتحدة الأمريكية ببقية أوربا (...)) التجارة الغير الشرعية التي كانوا يمارسونها مع سكان البحر الكاريبي، ومنها أيضًا بيع السمك والأرز لبلدان البحر الأبيض المتوسط (...))^(٣).

إن نجاح هذه العمليات التجارية كان يتوقف على موافقة حكام المغرب والجزائر وطرابلس الغرب، الذين كانوا يحصلون على رسوم وضرائب كثيرة مقابل السماح بمرور السفن الأمريكية المحملة بالأفيون في مياههم الإقليمية، وتزويدهم بالماء والمأكولات أثناء زيارة المرافئ العربية وضمان سلامتها. وفي شهر مايو ١٧٨٤ بدأت أمريكا علاقاتها الدبلوماسية مع الشرق الأوسط، عندما عين الكونغرس لجنة خاصة، تتكون من بنيامين فرانكلين وجون آدامز وتوماس جيفرسون لإقامة علاقات تجارية، والتفاوض مع بلدان المغرب العربي (المغرب الأقصى- الجزائر وتونس و ليبيا)^(٤)، وتوصلت إلى عقد معاهدات معها فكانت المعاهدة الأولى مع المغرب الأقصى عام ١٧٨٦م ودفعت لحاكم المغرب حوالي ١٠٠٠٠ دولار سنويًا لقاء دعمه للتجار الأمريكيين، وفي سنة ١٧٩٥ تم توقيع معاهدة مع الجزائر، وفي عام ١٧٩٧ تم

توقيع معاهدة مماثلة مع طرابلس الغرب (الجمهورية الليبية حاليًا) وتونس.

لقد ذهب جيمس كاثكارت^(٥)، إلى التأكيد أن الدافع الوحيد الذي جعل الدول الأوروبية تخضع للدول المغربية هو التوسع التجاري وقال في هذا الشأن: (..أن الرشوة و الفساد تستجيب لأهدافها بطريقة أفضل وهي أقل تكلفة من إعلان الحرب نبيلة....)^(٦). ضمن هذا السياق كتب ريتشارد أوبراين القنصل العام لأمريكا في الجزائر^(٧): (..إن الدول التي ترتبط بعلاقات سلام مع دول المغرب لا ترغب في أن ترى دولاً أخرى ترتبط بعلاقات سلام معها وتجنّي الفوائد التي تجنيها هي من التجارة في البحر الأبيض المتوسط و "اللورد شيفليد" كان واثقًا من أنه نظرًا لاعتبارات تجارية، فإن الدول البحرية الكبيرة لا تود مساعدة أمريكا، على إقامة علاقات السلام مع الدول المغربية وقد قيل أن المثل السائد بين كبار التجار الإنجليز أنه لو لم تكن الجزائر موجودة لكان خلق الجزائر ضروريًا)^(٨).

فالأسطول البريطاني في البحر الأبيض المتوسط كان يقوم بمضايقات في بعض الأحيان ولكنها في الحملة كانت تتمتع بحرية أكبر مما كانت تتمتع به ملاحه أي دولة أوروبية أخرى، وهذه الوضعية كانت في مصلحة المستعمرات البريطانية في أمريكا الشمالية، التي كانت تشارك بريطانيا الفوائد النسبية التي كانت تجنيها، وقبل إعلان الثورة الأمريكية كانت المستعمرات الأمريكية تقوم بتجارة واسعة النطاق في البحر الأبيض المتوسط^(٩)، وكانت المبادلات التجارية في البحر المتوسط هامة في القرن الثامن عشر- وكانت البلاد الشمال الأفريقية تصدر الحبوب من قمح والشعير وحمص وزيت الزيتون والصابون والصوف والجلود والخيول والمواشي والملح والفاكهة المجففة والعاج وريش النعام والشمع والسجاد، أما الواردات فكانت أكثرها من الأقمشة والسكر والشاي والقهوة والبهارات والحديد والفخار والعتاد الحربي، وكانت تلك المبادلات تنقل على السفن الأجنبية بامتيازات خاصة أو بواسطة شركات غربية وبعقود فردية^(١٠).

يقدر جيفرسون عدد البحارة الذين كانوا يعملون في التجارة في البحر الأبيض المتوسط بإثنى عشر ألف بحار، وعدد السفن التي يعملون بها يتراوح بين ٨٠ و ١٠٠ سفينة، حمولتها قدرت بـ ٢٠ ألف طن، وقد كانت موانئ البحر الأبيض المتوسط توفر سوقًا لنحو السدس من صادرات الحبوب والدقيق ونحو الربع من صادرات المستعمرات من السمك المملح المجفف والمنتجات الأخرى المهمة التي كانت تصدرها المستعمرات إلى جنوب أوروبا وإلى إفريقيا الشمالية، هي الأرز وخشب الصنوبر والبلوط وشمع النحل والبصل^(١١).

لقد بلغ مجموع قيمة البضائع لأمريكية التي شحنت إلى هذه المنطقة في سنة ١٧٧٠ حوالي ٧٠٧,٠٠٠ جنيه، وكذلك قدرت قيمة البضائع الأجنبية التي شحنتها السفن الأمريكية في السنة نفسها، وخصوصًا من جزر الهند الغربية إلى جنوب أوروبا

الإنجليزية، وبعد التصديق على البنود المؤقتة لمعاهدة الصلح الأمريكية البريطانية فقبل عقد المعاهدة النهائية حاولت أمريكا إضافة بعض البنود التي تتعلق بالتجارة، وأحد هذه البنود يتصل بحماية المصالح الأمريكية من نشاط الأسطول الجزائري، غير أن هذه المساعي باءت بالفشل والسبب الحقيقي لهذا الفشل يعود للمخاوف من المنافسة التجارية الأمريكية في البحر الأبيض المتوسط^(٢٤).

فالمشروع الذي تقدم به وليام بيت (w.Pitt) أمام البرلمان عام ١٧٨٣ والذي نص على حرية التجارة بين بريطانيا وأمريكا قد فشل في الحصول على الأغلبية، ومن الحجج التي أدلى بها اللورد شيفلد ضد مشروع القانون إشارته إلى أهمية دول المغرب فيما يتعلق بالتجارة مع أمريكا حيث قال: (... ليس من المرجح أن يحصل الأمريكيون على حرية كبيرة في التجارة في البحر الأبيض المتوسط فإنه ليس في مصلحة أية دولة بحرية حمايتهم من دول المغرب أما الدول المغربية فهي مفيدة للدول البحرية فهو شيء واضح لا غبار عليه...) (٢٥)، ورفضت بريطانيا إضافة أي مادة تتعلق بحماية المصالح الأمريكية في غرب المتوسط، مثلما رفضت فرنسا هي الأخرى من توفير الحماية لسفن الأمريكية، وهي المعروفة بصدقتها لأمريكا خلال هذه الفترة.

فالموقف الأوروبي كان يقوم على مبررين الأول أن معاهدات هذه الدول مع الجزائر لا تحتوي على تعهد بحماية أو تدخل بشأن أمريكا والثاني عدم الرغبة في إضافة منافس جديد لهم في غرب البحر الأبيض المتوسط^(٢٦)، فالمرر الأخير يقوم على تخوفات فرنسا وإنجلترا من ظهور منافس قوي في المتوسط، فقد اقتصر التنافس التجاري في المتوسط على فرنسا وبريطانيا بشكل خاص وظهر جلياً خلال المرحلة الأخيرة من القرن الثامن عشر، وجاء هذا بعد أن فقدت الدول الأوروبية جزءاً كبيراً من مستعمراتها في القارة الأمريكية، ولهذا وجهت أنظارها من جديد إلى البحر المتوسط وقد شجعها على ذلك ضعف البحرية الجزائرية وألقت إنجلترا بكل ثقلها في البحر المتوسط ساعية أخذ مواقع فرنسا في السواحل الجزائرية^(٢٧).

ترسيم العلاقات الجزائرية الأمريكية

بعد فشل المساعي الأمريكية في الحصول على الحماية لمصالحها من طرف الدول الأوروبية حاولت أمريكا تجريب القوة ضد الجزائر، حيث شنت حملة دبلوماسية ضد الجزائر كان الهدف منها هو تكوين تحالف أوروبي أمريكي لمواجهة الجزائر، وتعود هذه المحاولة إلى جيفرسون الذي أصبح فيما بعد وزيراً للخارجية ورئيساً للجمهورية، وهو صاحب فكرة تكوين تحالف أوروبي ضد الجزائر، ففي عام ١٧٨٥ اقترح على فيرجين Vergennes سفير فرنسا في أمريكا، في شن حرب على الجزائر، غير أن هذا الاقتراح فيما يبدو لم يعجب فيرجين، ومساعدة المغامر الفرنسي "لافاييت"، قام جيفرسون في عام ١٧٨٦، بتقديم

وإفريقيا الشمالية بـ ٦٢٨٧ جنيتها، أما في سنة ١٧٧٦ فإن قيمة مجموع صادرات المستعمرات الأمريكية في المنطقتين السالفتين الذكر كانت أقل من ذلك، وبالمقابل قدرت قيمة واردات المستعمرات من المنطقتين رسمياً في سنة ١٧٦٩ بـ ٢٢٨,٦٨٢ جنيتها، وهي تتكون خصوصاً من الخمر والملح والزيت والجلد المدبوغ المستورد من المغرب الأقصى^(٢٧)، وفي عام ١٨٢٣ طالب أحد أعضاء الكونغرس، وزير المالية الأمريكي إعداد تقرير عن حجم تجارة أمريكا في الشرق الأوسط وشمال إفريقيا، وذكر التقرير أن حجم تجارة أمريكا مع الشرق الأوسط بلغ ٢,٣ مليون دولار في الفترة (١٨٢٠-١٨٢٢)، وأنه تخطى ١,٢ مليون دولار في عام ١٨٢٣^(٢٨) بواسطة الهدايا والمعاهدات واستعمال القوة في بعض الحالات تمكنت إنجلترا من حماية تجارتها من البحرية الجزائرية، وكانت سفن المستعمرات التي تحمل وثائق صادرة من وزارة البحرية البريطانية، أو التي يكون معظم بحارتها من الإنجليز تتمتع بوعود الحصانة وعدم الاعتداء عليها بموجب نصوص معاهدات واحتاجت الحكومة البريطانية إلى الاحتفاظ بسفن مسلحة باستمرار في البحر الأبيض المتوسط^(٢٩).

بعد الاستقلال

بحث الدولة الفتية عن الحماية لمصالحها

التجارية في غرب المتوسط

بعد الثورة الأمريكية والاعتراف بالاستقلال بموجب معاهدة فرساي ٣ سبتمبر ١٧٨٣ تغير وضع المصالح التجارية الأمريكية في غرب المتوسط، وأصبحت السفن التجارية الأمريكية مهددة من قبل السفن الجزائرية، بعد أن سحبت بريطانيا حمايتها من مستعمراتها القديمة، وأصبحت أمريكا حرة في التعامل مع السفن الجزائرية، وكان عليها لكي تحمي تجارتها إما أن توقع معاهدة صداقة مع الجزائر أو تدخل في مواجهة معها، والخيار الأخير لم يكن في صالح الدولة الفتية على أساس أنها لا تملك أسطول حربي، فظنراً للمشاكل الداخلية التي كانت تعاني منها وقوة الأسطول الجزائري من جهة أخرى، فإنها قررت التفاوض مع الجزائر بغرض عقد معاهدة صداقة معها، وللوصول إلى هذا الهدف، فإنها لم تسلك طريقاً مباشراً لذلك فقد لجأت إلى أصدقائها الأوروبيين ليساعدها على تحقيق ذلك^(٣٠).

الخطوة الأولى التي اتخذها الكونغرس في محاولة إيجاد حل لهذه الأزمة -توفير الحماية- هي أن تتضمن المعاهدات التي عقدت مع الدول الأوروبية نصوصاً تعد بالحماية للسفن الأمريكية من نشاط الأسطول الجزائري^(٣١)، فالمعاهدة التي وقعت بين أمريكا مع فرنسا عام ١٧٧٨ احتوت على مادة يتعهد بموجبها ملك فرنسا باستعمال وساطته لدى الجزائر لحماية وراحة الولايات المتحدة الأمريكية^(٣٢). وفي معاهدة أخرى مع كل من هولندا عام ١٧٨٢^(٣٣) وبريطانيا عام ١٧٨٣ حاولت أمريكا أن تصيف نفس المادة، حيث سعت للحصول على المساعدة

الأسطول الجزائري الذي دخل المحيط الأطلسي- على ١١ سفينة أمريكية بحمولاتها وبحارها بذلك ارتفع عدد الأسرى الذين سعت أمريكا لفديتهم من ٢٠ إلى ١١٩ أسيراً^(٣٤)، وهكذا حققت إنجلترا ما كانت تصبو إليه حيث دخل الأسطول الجزائري في حرب ضد السفن الأمريكية بعد دخوله من جديد مياه الأطلسي، وبالتالي تم عرقلة عملية تموين الموانئ الفرنسية^(٣٥) وبادرت بريطانيا إلى تقديم معلومات مهمة عن الطرق البحرية، التي تسلكها السفن الأمريكية في المحيط الأطلسي والمتوسط^(٣٦).

شرعت الحكومة الفرنسية في البحث عن الوسيلة التي تمكنها من فك الحصار البحري الذي فرضته إنجلترا على سواحلها وفتح الطريق أمام سفن الأمريكية للوصول إلى موانئها عبر بحر المانش، واضطرت فرنسا لهذا الغرض إلى إرسال بعثة إلى تونس والجزائر لإقناع حكامها بالتفاوض مع أمريكا، غير أن تطور الأحداث بين الجزائر والبرتغال حيث تجددت الحرب بين البلدين خلال شهر أبريل ١٧٩٤، وأرسلت البرتغال أسطولها إلى مضيق جبل طارق وإغلاقه في وجه الأسطول الجزائري ومنعه من المرور إلى المحيط الأطلسي هذه الإجراءات البرتغالية، ساعدت السفن الأمريكية على مواصلة تموين الموانئ الفرنسية. إن هذه المستجدات كانت سبباً أساسياً في تراجع فرنسا عن قرارها المتعلق بإيفاد بعثة إلى تونس والجزائر، هذا ما يفسره البعض من تخوف فرنسا هي أيضاً من احتمال تدخل أمريكا التجاري في البحر المتوسط، وبسط نفوذها فيه خاصة أنها كانت هي الأخرى قد أرسلت مبعوثاً لها يرافق البعثة الفرنسية لعقد معاهدة مع الجزائر وتونس، غير أن فرنسا فضلت إبقاء الوضع على ما كان عليه.^(٣٧)

توقيع معاهدة ١٧٩٥

على الرغم من العراقيل الفرنسية الإنجليزية فإن أمريكا بفضل دبلوماسيتها استطاعت التوصل إلى عقد معاهدة مع الجزائر خلال شهر سبتمبر ١٧٩٥^(٣٨)، وكان هذا بداية لتعزيز وجودها في البحر المتوسط وأصبحت طرفاً مؤثراً فيه، بعد أن عين الرئيس الأمريكي جون آدمز العقيد "دافيد همفريز"^(٣٩)، مفوض أمريكا في البرتغال ليتفاوض مع الجزائر بغية الوصول إلى عقد معاهدة سلام معها، بحيث تضمن البحث عن السبل الكفيلة لإطلاق صراح الأسرى الأمريكيين بالجزائر، وقد اختار همفريز، "جوزيف دونالدسون" كي يذهب إلى مدينة الجزائر ليقود المفاوضات ففي شهر سبتمبر ١٧٩٥ توصل إلى إبرام معاهدة سلام مع إيالة الجزائر.^(٤٠)

بعد مفاوضات شاقة انتهى الطرفان إلى توقيع أول معاهدة سلام وصداقة بين البلدين بتاريخ ٥ سبتمبر ١٧٩٥ الموافق لـ ٢١ صفر ١٢١٠ هـ و قد وافق الكونغرس الأمريكي على هذه المعاهدة بتاريخ ٢ مارس ١٧٩٦ وأصبحت بذلك ملزمة للطرفين^(٤١)، ونصت على أن تدفع أمريكا ما يعادل حوالي مليون دولار، منها ٢١,٦٠٠ دولار جزية سنوية تدفع كمعدات بحرية إلى الجزائر وتدفع إلى

مشروع يتكون من إحدى عشر- نقطة لتكوين ذلك الحلف وبعث به إلى الدول الأوروبية.^(٣٨)

وافقت على المشروع كل من البرتغال، نابل، البندقية، صقلية، مالطة، الدانمرك، السويد، فيما رفضت الدول الكبرى بريطانيا وفرنسا المشاركة فيه، ويعود فشل هذا المشروع إلى سببين الأول: أنهذه الدول الصغيرة لم تكن متأكدة من قوة أمريكا على حمايتها في حالة حرب ضد الجزائر، والسبب الثاني راجع كون الكونغرس الأمريكي رفض تمويل المشروع. مع مطلع ١٧٩١ أصبحت الظروف مواتية لتبدأ أمريكا، مفاوضات جديدة مع الجزائر، ويبدو أن من أهم العوامل التي ساعدت على انطلاق هذه المفاوضات هو انشغال أوروبا بأحداث الثورة الفرنسية، لا سيما بعد توتر العلاقات الجزائرية الفرنسية وعزم الجزائر على بداية عهد جديد لكسب صداقة أمريكا^(٣٩)، لقد ازدادت أهمية الجزائر الاستراتيجية بشكل واضح في البحر الأبيض المتوسط خلال فترة الثورة الفرنسية. حيث حاولت حكومة الإدارة في فرنسا استخدام البحر الأبيض المتوسط كوسيلة للوصول إلى مصر ولضرب بريطانيا في الهند، وظهرت مدينة الجزائر في موقع متوسط بين القواعد البريطانية في جبل طارق وفي مالطة، مما يدعم السيطرة البحرية على البحر المتوسط في حالة استيلاء بريطانيا عليها، أو الحصول على تسهيلات من حكامها، وأقلقت فكرة إمكان قيام تقارب أو تحالف جزائري - بريطاني بال

وكانت فكرة الاستفادة من موقع الجزائر الاستراتيجي تراود نابليون بونابرت في حربه مع بريطانيا، ولا شك أن حصول فرنسا على قاعدة بحرية في شمال إفريقيا يسمح لها بالتعاون مع قاعدة طولون، إنما يحقق لفرنسا التفوق في الحوض الغربي للبحر المتوسط، وتهديد الخطوط البحرية البريطانية التي كانت تمتد عبر هذا البحر بين الشرق والغرب.^(٣١) قبل أن يشتد الصراع والتنافس بين فرنسا وإنجلترا كانت الأمور بينهما قد تطورت بشكل أدى إلى فرض إنجلترا حصاراً بحرياً شديداً على السواحل الفرنسية (١٧٩٢-١٧٩٦)، ومنعت بعض الدول التعامل معها، بهدف تجويع الفرنسيين إلا أن خطة الحصار أثبتت فشلها إذ ظلت السفن الأمريكية التي دخلت حلبة الصراع في البحر المتوسط، تزود الموانئ الفرنسية بالمواد الغذائية^(٣٢)، لهذا رأت إنجلترا أنه من الحكمة أن تنهي الحرب بين الجزائر والبرتغال، حتى يتمكن الأسطول الجزائري من التغلغل إلى المحيط الأطلسي، وبذلك يستطيع عرقلة ومنع السفن الأمريكية من الاتصال بالموانئ الفرنسية، وتوصلت إنجلترا بفضل دبلوماسيتها إلى إقناع الجزائر والبرتغال إلى عقد هدنة مدتها عام خلال سنة ١٧٩٣^(٣٣).

المعاهدة كانت كارثة بالنسبة للإدارة الأمريكية التي فشلت في توقعها وعجزت عن التصدي لتأثيراتها، وهذه الحقيقة أدركتها شركات التأمين البحرية بسرعة، فرفعت التأمين على الشحن البحري بالسفن الأمريكية في المحيط الأطلسي- من ١٠% إلى ٣٠%، وفي غضون شهرين (أكتوبر ونوفمبر) ١٧٩٣، استولى

تاريخ الملاحة الأمريكية، وفتح المجال لها في الاحتكاك والاتصال بالدولة العثمانية والمشرق العربي الإسلامي.^(٤٩)

علاقة التجار اليهود المتواجدين في الجزائر بالمصالح الأمريكية بغرب المتوسط

كان لتجار اليهود المتواجدين في الجزائر دوراً مؤثراً في توجيه العلاقات الجزائرية الأمريكية خلال هذه الفترة، حيث نسجل أن جوزيف بكري Joseph Bocri قد حضر - جميع المقابلات التي أجراها القنصل الأمريكي "كانكارت" مع الداى وحضر أيضاً توقيع الاتفاقية مع العقيد همفريز (Humphrey)، وكلف بكري بحمل مطالب الداى إلى الأمريكيين أثناء إجراءات معاهدة ١٧٩٥ بين البلدين، وتلقى مقابل هذه الوساطة من بارلوا (Barlow) مبعوث أمريكا إلى الجزائر عمولة تقدر بـ ١٨,٠٠٠ دولاراً أمريكياً لم يكن للداى علم بها، لأنها دفعت له أساساً من أجل أن يستدرجه إلى تمديد أجل الدفع إلى ثلاثة أشهر إضافية على الأقل، ريثما يحصل المفاوضون الأمريكيون على السيولة الضرورية للدفع والوفاء بما جاء في المعاهدة. عن طريق هذه الوساطة تظاهر بكري (Joseph Bocri) بالولاء للأمريكيين وفي نفس الوقت للداى من أجل ابتزازهما معاً، غير أن القنصل الأمريكي كان واعياً بخطر نفوذ بكري السياسي والاقتصادي لدى إيالة وممارساته المشبوهة، حتى أننا نجد "كانكارت" قنصل أمريكا بالمغرب العربي ركز عليها في كتابه "مذكرات أسير الداى".^(٥٠)

خلال هذه الفترة رأى يهود الجزائر أن تجارة الأمريكيين في غرب المتوسط أصبحت في نمو متصاعد، وأصبحت تهدد مصالحهم في الحوض الغربي للمتوسط، ومن أجل عرقلتها عملوا على تحريض الداى، مؤكدين له ضرورة إيقاف النشاط التجاري الأمريكي، فأعلن الحرب على أمريكا مرة أخرى يوم ١٧ جويلية سنة ١٨١٢^(٥١)، والملفت للانتباه أنه خلال هذه الفترة بدأ يتشكل لوبي يهودي ذو مصالح واسعة في أمريكا وفي فرنسا بالجزائر^(٥٢)، هذا اللوبي تشكل من التجار وأرباب الأعمال شكلوا كتلة مترصة عرفت باسم: "شركة بوسطن" أو "بزمرة إيسكس"، وقد صار أحد ممثلي زمرة إيسكس وهوكراونن شيلد وزيراً للأسطول البحري، وكانت هذه الزمرة تمنح لأعضاء الكونغرس والوزراء رشاوى كبيرة، وتؤثر في سياسة أمريكا. لهذه الأسباب عندما طلب حكام إيالات المغرب العربي على إعادة تجديد المعاهدات القديمة، ووقف تعسف البحارة الأمريكيين، وزيادة المدفوعات والإعانات، سلكت الحكومة الأمريكية على المكشوف تحت ضغط زمرة إيسكس طريق العدوان ضد إيالات المغرب، أما اللورد شيفيلد (Sheffield) كان يعتبر قوة الجزائر على أنها حاجز منيع لنقدم وازدهار التجارة البحرية لأمريكا.^(٥٣)

خلال سنة ١٨١٤ تطورت الأوضاع في غير صالح العلاقات الجزائرية الأمريكية ومن بين المستجدات هزيمة نابليون عام ١٨١٤ على يد بريطانيا وحلفائها وعودة التقارب الأمريكي

الإيالة أيضاً ما مقداره ٦٤٢,٥٠٠ دولار كدفدية لمائة أسير أمريكي بالجزائر^(٥٤)، من جهته قبل الداى حسن باشا التدخل لدى تونس وطرابلس الغرب لتوقيع معاهدة مماثلة مع أمريكا.

المعاهدة الجزائرية الأمريكية تحتوي على ٢٢ مادة، معظمها تتصل بالاستيلاء على السفن والمطاردة والتحرش في عرض البحر، وتتص المعاهدة على تزويد السفن الأمريكية بجوازات مرور في ظرف ١٨ شهراً بعد التوقيع عليها والبلدان الأجنبية لا تستطيع بيع سفن أمريكية في الجزائر، وفي نفس الوقت تسمح المعاهدة للأمريكيين ببيع سفنهم في الموانئ الجزائرية وإعفائهم من الضرائب الجمركية^(٥٥). لقد وضعت هذه المعاهدة أمريكا، في نفس وضعية الأمم الأوروبية في العلاقات مع الجزائر وذلك على الرغم من الامتيازات الأقل تعرضاً للمخاطر، بسبب بعد المسافة بين الجزائر وأمريكا والجزيرة المنخفضة، ومنح لأمريكا تمثيلية دبلوماسية ممثلة في القنصل العام المقيم، الذي تأكدت وضعيته الدبلوماسية وأجر له منزل للإقامة من ورثة الداى مصطفى (١٧٩٨-١٨٠٥). ونتيجة لهذه المعاهدة بقيت العلاقات الجزائرية الأمريكية هادئة يطبعها السلام خلال مرحلة الاضطرابات الأوربية الكبرى خاصة أثناء الحروب النابليونية، وحصل القنصل العام لأمريكا توبياس لير Tobias Lear وبعده وليام شالر William shaler على نفوذ معتدل لدى الدايات مما مكن أمريكا من الحصول على تفهم أكثر من مدينة الجزائر.^(٥٦) من وجهة النظر الأمريكية فإن بعض المؤرخين يصرون على أن هذه المعاهدة كانت إهانة بالغة للشرف الأمريكي، ولكن البعض الآخر من المؤرخين المعاصرين للمعاهدة قد اعتبروه انتصار لبلادهم لأنها قد عقدتها مع أعظم دول شمال إفريقيا، ولأن المعاهدة نفسها قد أنهت الحرب مع الجزائر وفتحت الطريق التجاري لأمريكا في البحر الأبيض المتوسط^(٥٧)

ما يلاحظ في تطور العلاقات بين البلدين بعد توقيع المعاهدة، أن أمريكا قد تأخرت في تنفيذ بعض بنود المعاهدة، مما جعل الجزائر تنصرف بطرقها الخاصة في الحصول على مستحقاتها من الحكومة الأمريكية، وكانت الفرصة المناسبة عندما أرسلت السفينة جورج واشنطن USS George Washington, 1798^(٥٨)، في ميناء الجزائر عام ١٨٠١، حيث نجد أن الداى قد تقدم بطلب إلى القنصل الأمريكي وربان السفينة بنقل البعثة الجزائرية إلى إسطنبول.^(٥٩) وتذكر المصادر أن قائد السفينة William Bainbridge^(٦٠) قد رفض طلب الداى، لكن بعد تهديده بإعلان الحرب من جديد على أمريكا، قد رضخ للأمر الواقع وقامت السفينة جورج واشنطن، بتنفيذ المهمة ونقل البعثة الجزائرية إلى إسطنبول تحت الراية الجزائرية، على الرغم من الإهانة للشرف الأمريكي في نظر البعض، فإن البعض الآخر من الأمريكيين يعترفون بأن ما قامت به السفينة جورج واشنطن كان فرصة في صالح أمريكا في عبور أول مرة لمضيق الدردنيل والوصول إلى إسطنبول لأول مرة في

خاتمة

إن تتصل أمريكا عن التزاماتها في تنفيذ معاهدة ١٧٩٥ جاء بعد توقيع المعاهدة مباشرة كما سبق ذكره، لكنها لم تعبر عنه صراحة مع بقائها تراقب الوضع من قريب، وحينما اطلعت على الوضع الدولي بعد مؤتمر فينا ١٨١٥، وظهر إجماع أوروبي على ضرورة القضاء على الأسطول الجزائري ووضع حد لنشاطه، سارعت إلى المبادرة بإرسال مراكبها إلى المتوسط تحت قيادة الضابط بنبريدج (w. Bambridge) والفصيلة الثانية تحت قيادة الضابط ستيفان ديكاتور (S. Decatur)^(٥٩)، الذي دخل البحر الأبيض المتوسط على رأس أسطول صغير واشتبك في معركة بحرية مع الرايس حميدو، وقضى عليه ثم توجه ديكاتور إلى مدينة الجزائر حيث أعلن عن نتائج المعركة وكانت النتيجة معاهدة جديدة (١٨١٥-١٨١٦) بين الجزائر وأمريكا، تضمنت حماية المصالح التجارية الأمريكية بغرب المتوسط دون دفع إتاوة. وكان ذلك في واقع الأمر النهاية العملية للأسطول الجزائري فبرغم من أن الجزائريين استطاعوا أن يستعيدوا إلى حد ما بعض من قوتهم فإنهم لم يعودوا يشكلون تهديدا للتجارة الأمريكية في غرب المتوسط.

البريطاني، بعد توقيع معاهدة "Ghent"، التي أنهت النزاع بين البلدين ١٨١٢، هذه المستجدات جعلت أمريكا في غير حاجة لكسب صداقة الجزائر وعشية انعقاد مؤتمر فينا ١٨١٥^(٥٤)، وجدت الجزائر نفسها في عزلة دبلوماسية فكانت الفرصة مواتية لأمريكا، لكي تتصل من التزاماتها السابقة ففي نفس السنة، أجمع الكونغرس الأمريكي على ضرورة عدم تقديم الضريبة السنوية، وأمر بتوجيه حملة عسكرية ضد الجزائر، ولما كان رياس الجزائريين متغييبين حسب ما أورده السيد "بيليسي" قبل "عمر باشا" الشروط التي جاء بها قائد الأسطول، ويقول شالر: "...لقد أرسلت بنفسني في شهر مايو إلى إيالة لإنجاز هذه المهمة فوصلتها يوم ٢٨ منه ولما كان بحارة إيالة متغييبين قبلت السلطات الجزائرية شروطنا بدون نقاش، وتم توقيع المعاهدة يوم ٣٠ جوان من نفس السنة وفي نفس اليوم عينت قنصلاً عاماً لأمريكا على الجزائر..."^(٥٥) فالجزائر تلقت عام ١٨١٢ ضربة قاسية من أمريكا بسبب إتباع الداى لنصائح بكري، بحيث أغراه هذا الأخير بنقض المعاهدة التي وقعت عام ١٧٩٥ مع الأمريكيين، والضغط عليهم لرفع نسبة الإتاوة السنوية المفروضة عليهم تدعيماً لخزينة الدولة، ولكي يتمكن الداى من تسديد بعض الديون التي كان قد استلفها من بكري في وقت سابق، واستجاب الداى فعلاً لهذا التحريض وألغى المعاهدة في ١٧ جويلية ١٨١٢^(٥٦).

لقد كان دخول الجزائر في مواجهة أمريكا خلال هذه المرحلة بمثابة الكارثة، إذ كلفت الجزائر حياة أحد أكبر وأبرز قادتها وآخر عمالقة البحرية الجزائرية وهو "الرايس حميدو"^(٥٧) الذي لقي حتفه في معركة بحرية غير متوازنة القوى والإمكانيات مع الأمريكيين في مضيق جبل طارق. بالإضافة إلى فقدان سمعتها السياسية وهيبته الدولية، كما أفقدتها نهائياً الـ ٢١,٠٠٠ دولاراً سنوياً التي كانت تدفعها أمريكا للجزائر كإتاوة سنوية، لأن الأمريكيين كانوا في أقصى قوتهم المادية والمعنوية بعد خروجهم منتصرين على بريطانيا من الحرب الثانية للاستقلال "The second war of indépendance"، وتوقيع معاهدة غانت (Traité de Ghent) سنة ١٨١٥، حيث قاموا بتوجيه قوة بحرية كبيرة بعد مقتل الرايس حميدو بضع أسابيع لتأديب من كانوا يسمونهم: "القراصنة" وتمكنوا من فرض شروطهم بالقوة على الداى.^(٥٨)

الهوامش:

الملاحق

(١) ملحق رقم

كانت السفينة جورج واشنطن (USS George Washington) في الأصل سفينة تجارية تم صنعها عام ١٧٩٣ ليشتريها الكونجرس في عام ١٧٩٨ وتحولت إلى قاذفة حرب لحماية النقل البحري الأمريكي في البحر الكاريبي من السفن الفرنسية، ثم أصبحت فيما بعد أول سفينة حربية أمريكية تدخل البحر الأبيض المتوسط، عندما أرسلت للتفاوض مع دايات الجزائر قبل اندلاع الحرب مع إيالات الشمال الإفريقي، قامت السفينة برحلة أخرى إلى البحر الأبيض المتوسط قبل بيعها في فيلادلفيا في عام ١٨٠٢.



Typical Early 1800s Typical Sloop of War

المصدر:

انظر معلومات عن تاريخ سفينة جورج واشنطن:

Sam La Grone, Ships Named for Lincoln and Washington, <https://news.usni.org/2013/02/18/ships-named-for-lincoln-and-washington>



Une gravure montrant la rencontre des Américains avec le Maghreb

لوحة تظهر لقاء الأمريكيين مع المغرب العربي في القرن الثامن عشر الميلادي

(١) من كتابات أبو القاسم سعد الله، في هذا المجال نذكر: "الدبلوماسية الجزائرية الأمريكية قبل الاحتلال"، مجلة المعرفة الجزائرية، العدد، ١٥، ١٦، ١٩٦٤، ص ٦-٢٥. وكذلك: "العلاقات الجزائرية الأمريكية (١٧٧٦-١٨٣٠)"، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر الحديث، ج ١، ش، ون، ت، الجزائر ١٩٧٨، ص ٢٠٣-٢٢٥. أما مجهود المرحوم الأستاذ إسماعيل العربي فتمثلت في ترجمته لمؤلفين اثنين: الأول لصاحبه: راي ويل أرين: العلاقات الدبلوماسية بين دول المغرب والولايات المتحدة (١٧٧٦-١٨١٦)، ش ون ت الجزائر ١٩٧٨، والتأليف الثاني المترجم وهو لتشارلز أوسكار بولان، المفاوضات الدبلوماسية بين ضباط البحرية الأمريكية ودول المغرب (١٧٧٨-١٨٨٣)، نشره في كتابه، فصول في العلاقات الدولية، م و ك، الجزائر، ١٩٩٠.

(٢) كان لهذه الثورة أسباب عديدة والسبب المعلوم أكثر من غيره هو إصرار الحكومة البريطانية انطلاقاً من ١٧٦٨ على مستعمراتها بطلب مشاركتها المالية التي تتناسب مع النفقات التي اقتضاها دفاعها الخاص ضد هجوم الفرنسيين والأسبان والهنود وحاولت الحكومة البريطانية بلوغ ذلك بوضعها موضع التنفيذ بعض القوانين المجمدة منذ سنوات. للمزيد من التفصيل انظر: ماتيو أندرسون، تاريخ أوروبا القرن الثامن عشر ترجمة نور الدين حاطوم، ط ١ دار الفكر، ١٩٧٧، ص ٣٤٥. وانظر أيضاً: دان ليسي، الثورة الأمريكية دوافعها ومغزاها، تر، سامي ناشد، ج ٢، مؤسسة سجل العرب، القاهرة، ١٩٦٦، ص ١٤٦ وما بعدها.

(٣) أبو القاسم سعد الله: أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، الجزء الأول، ش.و.ن.ت الجزائر ١٩٧٨، ص ٢٠٦.

(٤) جون ب وولف، الجزائر وأوروبا (١٥٥٠-١٨٣٠)، (تر) أبو القاسم سعد الله، م.و.ك الجزائر ١٩٨٦، ص ٤١٧.

(5) DUPUY (EMILE), AMERICAINS ET BARBARESQUES (1776-1824), R, ROYER. PARIS, 1910, P16.

(٦) توماس برايسون: أستاذ بجامعة وست جورجيا كولييدج الأمريكية صاحب كتاب "علاقات أمريكا الدبلوماسية بالشرق الأوسط" (١٧٨٤-١٩٧٥) نشر الكتاب عام ١٩٧٧، للمزيد من التفصيل راجع: علاء بيومي، "أقدم لوبي ضد الدول الإسلامية في أمريكا"، المقال منشور في الموقع:

<http://www.islamweb.net/media/index.php?page=article&lang=A&id=53091>

(٧) دان ليسي، الثورة الأمريكية دوافعها ومغزاها، تر، سامي ناشد، ج ٢، مؤسسة سجل العرب، القاهرة، ١٩٦٦، ص ٨٤.

(٨) دان ليسي، المرجع السابق، ج ١، ص ١٢٠.

(٩) علاء بيومي: المرجع السابق.

(١٠) جيمس كاثكارت: ولد في جبل موراه في مقاطعة سيث الغربية في ٢٢ سبتمبر ١٧٦٧ وقد انتقل مع والده إلى أمريكا في سن مبكرة في ١٧٨٧ وقع في الأسر حين استولى الجزائريون على السفينة "ماري بوسطن" وهي أو سفينة تقع في أيدي الجزائريين، في الجزائر استطاع أن يتخلص من الأسر ويصبح مديراً لمكتب الداي في الجزائر. ثم أصبح بعد ذلك قنصلاً لبلاده في طرابلس للمزيد من التفصيل عن هذه الشخصية راجع جيمس ليندر كاثكارت، مذكرات أسير الداي، (تر) إسماعيل الغري د م ج الجزائر ١٩٨٢ ص ١٣.

(٢٧) أرزقي شويتام، التنافس الدولي في البحر المتوسط خلال القرنين ١٨-١٩ وموقف الجزائر منه "حولية المؤرخ، العدد ٣-٤/ الجزائر ٢٠٠٤، ص ١٧٣.

(٢٨) نلاحظ أن محاولة الولايات المتحدة الأمريكية لتشكيل حلف أوروبي ضد الجزائر جاء بعد عامين فقط، من المحاولة الفاشلة التي مني بها الأسبان ١٧٨٤ أثناء محاولة تكوين حلف أوروبي (أسبانيا، البرتغال، نابلي ومالطة)، وكانت آخر محاولة إسبانية ضد الجزائر واضطرت في آخر المطاف إلى عقد اتفاقية سلام وصداقة مع الجزائر توصلت إليها بعد أن دفعت أموالاً باهظة لحكومة الداى، تاريخ المعاهدة يوم ١٤ جوان ١٧٨٦ للمزيد من التفصيل راجع: مولاي بلحميسي، "صفحات من تاريخ العلاقات الجزائرية الإسبانية"، مجلة تاريخ وحضارة المغرب، العدد ١١ ش.و.ن.ت، الجزائر، ص ٥ - ٢٢.

(٢٩) أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص ٢٠٨.

(٣٠) لقد ازدادت المخاوف الفرنسية من هذا التقارب، منذ أن تدخلت بريطانيا لدى الباب العالي لإجبار الداى مصطفى (١٧٩٨-١٨٠٥) بقطع علاقاته مع فرنسا وإعلان الحرب عليها، وتحت ضغط السلطات وتهديد الإنجليز أعلنت الجزائر الحرب على فرنسا، وازداد تدخل بريطانيا في الشأن الجزائري بعد تهديدات نابليون للجزائر حيث قام الداى أحمد بالاستيلاء على المؤسسات الفرنسية في الشرق الجزائر عام ١٨٠٧ ومنحها لإنجلترا مقابل ضريبة سنوية، راجع: أرزقي شويتام، المرجع السابق، ص ١٧٨.

(٣١) مرفت أسعد عطا الله: التنافس البحري العسكري بين بريطانيا وفرنسا في البحر المتوسط بعد فتح قناة السويس (١٨٦٩-١٩٠٤)، مركز الإسكندرية للكتاب مصر، ٢٠٠٥، ص ١٤.

(٣٢) أرزقي شويتام: مرجع سابق، ص ١٧٤.

(٣٣) تنص اتفاقية الهدنة الجزائرية البرتغالية على أن تكون نافذة المفعول لمدة ١٢ شهراً وتدفع البرتغال للداى ثلث المبالغ التي تدفعها إسبانيا سنوياً، وطلب الداى أن تقوم الحكومة البريطانية بضمان الالتزام البرتغالي، وهذا دليل على أن الاتفاقية أبرمت بإيعاز من بريطانيا: انظر راي ويل أروين، المرجع السابق، ص ٩٠.

(٣٤) للمزيد انظر إسماعيل العربي: فصول في العلاقات الدولية م.و.ك الجزائر ١٩٩٠-٣٠.

(٣٥) أرزقي شويتام: المرجع السابق، ص ١٧٤.

(٣٦) جيمس كاتكارت، مذكرات أسير الداى، (تر)، إسماعيل العربي، د.م.ج، الجزائر، ١٩٨٢، ص ١٦.

(٣٧) أرزقي شويتام: المرجع السابق، ص ١٧٥.

(٣٨) انظر النص الإنجليزي للمعاهدات الجزائرية الأمريكية ١٧٩٥-١٨١٥-١٨١٦ على الموقع الإلكتروني التالي:

http://avalon.law.yale.edu/18th_century/bar1795t.asp

(٣٩) دهفيد همفريز (١٧٥٢-١٨١٨): دبلوماسي أمريكي وشاعر كان يتمتع بمؤهلات عسكرية عين أميناً عاماً مع لجنة التفاوض مع إيالة الجزائر

(٤٠) وليام سبنسر، الجزائر في عهد رياس البحر، (تر) عبد القادر زبادية، ش و ن ت، الجزائر ١٩٨٠ ص ١٥٥.

(٤١) أبو القاسم سعد الله: المرجع السابق، ص ٢١١، انظر نص المعاهدة في الملحق رقم ٠١.

(٤٢) جون ب وولف، المرجع السابق، ص ٤١٦.

(٤٣) إسماعيل العربي، فصول العلاقات الدولية، المرجع السابق، ص ٣٦.

(٤٤) وليام سبنسر، المرجع السابق، ص ١٥٦.

(١١) راي ويل أروين: العلاقات الدبلوماسية بين دول المغرب والولايات المتحدة (١٧٧٦-١٨١٦) (تر) إسماعيل العربي: ش و ن ت الجزائر ١٩٧٨ ص ٣٩.

(١٢) خلال هذه الفترة كانت الجزائر خاضعة لحكم الدايات (١٦٧١-١٨٣٠) وهي المرحلة الأخيرة من الحكم العثماني في الجزائر، وللإشارة فإن الجزائر ألحقت بالخلافة العثمانية رسمياً عام ١٥١٨ على يد خير الدين بربروس، واستمر الحكم العثماني في الجزائر إلى غاية عام ١٨٣٠ بعد وقوعها تحت الاحتلال الفرنسي. للمزيد من التفصيل عن المرحلة العثمانية في الجزائر، راجع الدراسات الأكاديمية التالية: جمال فنان: نصوص ووثائق في تاريخ الجزائر الحديث (١٥٠٠-١٨٣٠)، الجزائر ١٩٨٧. ناصر الدين سعيدوني، النظام المالي في الجزائر في الفترة العثمانية (١٨٠٠-١٨٣٠)، ش و ن ت الجزائر ١٩٧٩.

- Kaddache (M), L'Algérie durant la période ottomane, Alger 1982.

(١٣) راي ويل أروين: العلاقات الدبلوماسية بين دول المغرب...، المرجع السابق، ص ٣٩.

(١٤) إسماعيل العربي، فصول العلاقات الدولية، م و ك، الجزائر/١٩٩٠، ص ٧٥.

(١٥) هيفاء معلوم الأمم، "العلاقات الأمريكية الشمال أفريقية في العصر الحديث"، المجلة المغربية، ع ١٥٦، تونس، جويلية، ١٩٧٩، ص ٦٥.

(١٦) NAVAL DOCUMENTS RELATED TO THE U.S.VOL.I.p22.

(١٧) راي ويل أروين: العلاقات الدبلوماسية بين دول المغرب...، المرجع السابق، ص ٤٢.

(١٨) علاء بيومي، المرجع السابق.

(١٩) راي ويل أروين: العلاقات الدبلوماسية بين دول المغرب...، المرجع السابق، ص ٤٢.

(٢٠) أبو القاسم سعد الله: أبحاث وأراء في تاريخ الجزائر، الجزء الأول، ش و ن ت الجزائر ١٩٧٨، ص ٢٠٦.

(٢١) راي ويل أروين: العلاقات الدبلوماسية بين دول المغرب...، المرجع السابق، ص ٤٤.

(٢٢) الإشارة إلى معاهدة التجارة والصداقة التي أبرمت بين فرنسا وأمريكا وقعت بين البلدين عام ١٧٧٨. وتشير المادة ٠٧ من بنودها على أن ملك فرنسا سيقوم بالمساعي الحميدة للتوسط لدى الدول المغربية، وذلك قصد توفير فوائد شاملة وفعالة بقدر الإمكان وأمن الولايات المتحدة. انظر: راي ويل أروين، العلاقات الدبلوماسية بين دول المغرب...، المرجع السابق، ص ٤٤.

(٢٣) جاء في آخر بنود هذه المعاهدة "أنه ينبغي للولايات المتحدة أن تجري مفاوضات مع الحكومات المغربية تتعلق بمنح وثائق المرور لسفنها في البحر المتوسط، وسيؤيد جلالته هذه المفاوضات بأفضل الوسائل: انظر راي ويل أروين، العلاقات الدبلوماسية بين دول المغرب...، المرجع السابق ص ٤٦. حول الموضوع راجع:

Freewalt.Jason andrew.the Barbary corsairs. University indina.april 9.1998.p7.

(٢٤) راي ويل أروين، العلاقات الدبلوماسية بين دول المغرب...، المرجع السابق، ص ٤٦.

(٢٥) نفسه، ص ٤٦.

(٢٦) أبو القاسم سعد الله: المرجع السابق، ص ٢٠٦.

(٥٦) سعد الله أبو القاسم: المرجع السابق، ص ٢٢٠.
 (٥٧) * ولد سنة ١٧٦٥ ويرجع نسبه إلى أسرة جزائرية في صغره تعلم الخياطة والطرز إلا أنه كان يتطلع إلى المراتب العليا فقرر الانضمام إلى رجال البحرية وكان لا يتجاوز العاشرة من عمره، إلى أن حقق أمنيته وانضم إلى البحرية الجزائرية فاشتهر من بين صفوف رجال البحر، لقي حتفه في معركة بحرية في المحيط الأطلسي، حول ظروف استشهاد راجع، جون ب وولف: الجزائر وأوروبا (تر) أبو القاسم سعد الله، ش و ن ت، الجزائر، ١٩٨٦ المرجع السابق، ص ٤١٩
 (٥٨) نفسه، ص ٢١٠.

(٥٩) ستيفان ديكاتور: (Decature Stephan) (١٧٧٩-١٨٢٠) ولد في ٥ جانفي ١٧٧٩، قام بأول رحلة بحرية رفقة أبيه الذي كان ضابطاً سامياً وقائداً لإحدى السفن التجارية، انخرط في البحرية الأمريكية عام ١٧٩٨، وشارك في الحرب البحرية ضد فرنسا، فارتقى إلى رتبة ملازم أول في ١٧٩٩، شارك في الحرب ضد طرابلس عام ١٨٠٤، ثم انخرط في الحرب ضد الجزائر عام ١٨١٢ وكان دخوله قوياً في البحر المتوسط. وكان أحد الأطراف المشاركة في توقيع معاهدة ١٨١٥ الثانية. بعد عودته إلى أمريكا عين مستشاراً لدى البحرية الأمريكية، وتوفي عام ١٨٢٠ بلاندرسبورغ (Blandeusborg) للمزيد من التفصيل انظر:

encyclopédie, 2003

وانظر أيضاً:

https://en.wikipedia.org/wiki/Stephen_Decatur

(٤٥) ما يمكن ملاحظته على هذه المعاهدة أن الولايات المتحدة الأمريكية لم تستطع تنفيذ كل بنود المعاهدة حيث تأخرت بعدة أشهر على توقيع المعاهدة ولم تصل المعدات البحرية المتفق تسليمها للجزائر. للمزيد من التفصيل انظر سعد الله، المرجع السابق، ص ٢١٣.
 (٤٦) في شهر ماي من عام ١٨٠٠ تم تجهيزها وإعدادها للإبحار باتجاه البحر الأبيض المتوسط، تحت قيادة الضابط وليام بينبريدج في مهمة لدفع الإتاوات السنوية لدايات الجزائر بحمولة من المخازن والأخشاب وصلت مدينة الجزائر في شهر سبتمبر من نفس السنة، وهي أول سفينة حربية أمريكية تدخل البحر الأبيض المتوسط. ومع ذلك، لم تحتو السفينة على ما يكفي لإرضاء مطالب داي. وطالب داي باستخدام السفينة وطاقمها، مدعياً أنه يمتلكها، خضع بينبريدج إلى التهديدات وحمل هدايا داي إلى السلطان سليم الثالث في القسطنطينية، غادرت الفينة جورج واشنطن الجزائر يوم ١٩ أكتوبر وعادت سفينة جورج واشنطن من إسطنبول إلى الجزائر في ٢١ يناير ١٨٠١، وبعد زيارة إلى أليكانت رجعت إلى الولايات المتحدة في ١٩ أبريل ١٨٠١. للمزيد انظر:

- Harris, Gardner W. (1837). *The Life and Services of Commodore William Bainbridge, United States navy*. Carey Lea & Blanchard, Philadelphia. p. 254

حول ظروف بناء هذه السفينة وشكلها انظر الملحق رقم: (١)
 (٤٧) تمثلت مهمة البعثة الجزائرية إلى إسطنبول ١٨٠١ في إعادة علاقات الصداقة مع الباب العالي بعد الأزمة التي ظهرت بين الجزائر والباب العالي عندما لم ترغب الجزائر في مواجهة الفرنسيين، بعد حملتهم على مصر ١٧٩٨، انظر أبو القاسم سعد الله: المرجع السابق، ص ٢١٦.
 (٤٨) للمزيد حول حياة هذه الشخصية، انظر:

- Harris, Gardner W. (1837-); opcit; p254.

(٤٩) انظر أبو القاسم سعد الله: المرجع السابق، ص ٢١٦. وانظر أيضاً: Charles ellms: the pirates own book, originally published 1837

للاطلاع عليه عن طريق الإنترنت انظر الموقع www.gutenberg.net
 (٥٠) فوزي سعد الله، يهود الجزائر هؤلاء المجهولون، شركة دار الأمة، الجزائر ١٩٩٦، ص ٢١٩.

(٥١) إسماعيل العربي، فصول العلاقات الدولية، المرجع السابق ص ٧١.
 (٥٢) يرى فوزي سعد الله، أن الاستراتيجية الروتشيلدية قد استغلت الجزائر باعتبارها قاعدة استراتيجية في غرب المتوسط، في تضيق الخناق الاقتصادي على نابليون بونابرت عند إعلانه التمرد على الماس ونية واليهود، من خلال تحريك يهود ليفورنه بالجزائر ضد مصالحه بالجزائر. وعلى رأسهم عائلة بكري بوشناق، هؤلاء الماسونية وزعمائهم وظفوا الجزائر كورقة ضغط سياسية واقتصادية لضرب فرنسا بريتانيا - للمزيد راجع، فوزي سعد الله، المرجع السابق، ص ٢٠٦.

(٥٣) عبد الجليل التميمي، بحوث ووثائق في التاريخ المغربي الجزائر وتونس وليبيا (١٨١٦-١٨٧١) د.م.ح الجزائر ١٩٨٥، زغوان تونس ١٩٨٥، ص ٥٧.

(٥٤) مؤتمر فيينا: انعقد المؤتمر عام ١٨١٥ بالعاصمة النمساوية فيينا ومن جملة القضايا الهامة التي أثيرة في المؤتمر مسألة الجزائر التي ظلت تواصل الجهاد البحري مقلقة بذلك سائر الدولة المسيحية، وبعد مداورات ومناقشات أجمع الحاضرون على ضرورة العمل المشترك للقضاء على حكومة الدايات.

(٥٥) محمد العربي الزبيري: المرجع السابق، ص ٧١.

الأزمات الداخلية لحزب الشعب الجزائري

حركة انتصار الحريات الديمقراطية (PPA-MTLD)

(١٩٤٥-١٩٥٤م)

د. سعاد يمينة شبوط

أستاذة محاضرة - قسم التاريخ

جامعة أبي بكر بلقايد

تلمسان - الجمهورية الجزائرية



ملخص

تتفق المصادر التاريخية المتوفرة حول موضوع تطور الحركة الوطنية الجزائرية بعد نهاية الحرب العالمية الثانية ١٩٤٥، على أن الأزمة المزمنة التي عصفت بهياكل (MTLD) (حركة الانتصار للحريات الديمقراطية) خلال مؤتمرها الثاني الذي انعقد أيام ٥، ٦، ٤ أفريل ١٩٥٣، لم تكن وليدة حينها بل نتيجة عدة مشاكل وأزمات لم يتم تسويتها في وقتها الأمر الذي زاد من استفحالها عندما اتضحت المسائل الجوهرية في طبيعة النزاع بين اللجنة المركزية ومصالي الحاج وأنصاره واتخاذ دعاة العمل المسلح موقفاً معارضا من الطرفين وتبلور المشروع العسكري الذي بلغ مستوى من النضج في خضم مرحلة مخاض عسير انتهى بميلاد فصل ثوري عرف باللجنة الثورية للوحدة والعمل (CRUA) في مارس ١٩٥٤ تلك اللجنة التي أخذت على عاتقها مسؤولية الإعداد الفعلي لتفجير الثورة في خريف ١٩٥٤ وفي هذا السياق يشير المناضل محمد بوضياف بأن الشروع في العمل المسلح كان أنسب حل لإنقاذ الحركة الوطنية الجزائرية من المأزق الذي وقعت فيه.

كلمات مفتاحية:

حزب الشعب، الأمين دباغين، الأزمة البربرية، المنظمة الخاصة، الحركة الوطنية الجزائرية

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث: ٢٢ مارس ٢٠١٦
تاريخ قبول النشر: ٠٦ يونيو ٢٠١٦

DOI 10.12816/0052949

معرفة الوثيقة الرقمي:

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

سعاد يمينة شبوط، "الأزمات الداخلية لحزب الشعب الجزائري: حركة انتصار الحريات الديمقراطية (PPA-MTLD) (١٩٤٥-١٩٥٤م)"، -جورية كان التاريخية-، السنة الحادية عشرة- العدد الأربعون: يونيو ٢٠١٨، ص ١٤٩ - ١٥٨.

مقدمة

وتتفق المصادر التاريخية المتوفرة حول موضوع تطور الحركة الوطنية الجزائرية بعد نهاية الحرب العالمية الثانية ١٩٤٥، على أن الأزمة المزمنة التي عصفت بهياكل الحزب (حركة الانتصار للحريات الديمقراطية) خلال مؤتمرها الثاني الذي انعقد أيام ٥، ٦، ٤ أفريل ١٩٥٣، لم تكن وليدة حينها بل نتيجة عدة مشاكل وخلافات لم يتم تسويتها في وقتها الأمر الذي زاد من استفحالها عندما اتضحت المسائل الجوهرية في طبيعة النزاع بين اللجنة المركزية ومصالي الحاج^(١) وأنصاره واتخاذ دعاة العمل المسلح موقفاً معارضا من الطرفين^(٢) ودون الاستطراد في تفاصيل الأزمة وخلفياتها التاريخية، يمكن حصر أهم الأزمات والمشاكل الصعبة التي اعترضت مسيرة حزب الشعب (PPA)-حركة انتصار الحريات الديمقراطية (MTLD)- وترسبت بعمق طيلة

شكلت سنة ١٩٥٣، منعطفاً حاسماً في تطور مسار الحركة الوطنية الجزائرية بالنسبة للكثير من المختصين في تاريخ الثورة التحريرية، وممن عاصروا تلك الفترة من مناضلي التيار الاستقلالي ورواد المشروع العسكري، الذي بلغ النضج في مرحلة مخاض عسير انتهى بميلاد فصل ثوري عرف باللجنة الثورية للوحدة والعمل (CRUA) في مارس ١٩٥٤ تلك اللجنة التي أخذت على عاتقها مسؤولية الإعداد الفعلي لتفجير الثورة في خريف ١٩٥٤^(٣) وفي هذا السياق يشير المناضل محمد بوضياف بأن الشروع في العمل المسلح كان أنسب حل لإنقاذ الحركة الوطنية الجزائرية من المأزق الذي وقعت فيه.^(٤)

المنفى ببرازفيل في جمع أطراف التيار الاستقلالي وأعاد بناء حزب الشعب باسم حركة انتصار الحريات الديمقراطية MTLD في ديسمبر ١٩٤٦^(٩) مع الاحتفاظ بطبيعة العمل السري إلا أن ما يلفت الانتباه في هذا اللقاء، بروز قضية جوهرية تمثلت في قضية المشاركة في الانتخابات^(١٠).

ويمكن الإشارة إلى أن هذه المسألة تم عرضها في الأشهر الأولى لتأسيس الحركة الجديدة، إذ عرضت لأول مرة في اجتماع اللجنة المركزية بتاريخ ٢٣ أكتوبر ١٩٤٦، لأن مصالي الحاج كان يعتقد أن الوضع آنذاك كان ملائماً للعمل السياسي، لذلك سارع بطرح مسألة المشاركة في الانتخابات على طاولة النقاش الأمر الذي أدى إلى تباين المواقف بشكل واضح^(١١)، وكان أول خلاف علني في نوفمبر ١٩٤٦ عشية الانتخابات المقررة في ذلك الشهر، وهو ما أوحى ببداية القطيعة الإيديولوجية داخل الحركة الثورية الجديدة حيث شبَّ خلاف بين الإطارات والمناضلين فزعيم الحزب مصالي الحاج ألحَّ على دعوته للمشاركة في الانتخابات ومسايرة السياسة الاستعمارية والعمل في إطار ما تسمح به الشرعية الفرنسية^(١٢) وقد دفعت هذه الخطوة بالعناصر النشطة (الشابة) من الجيل الجديد الذي التحق بصفوف النضال السياسي داخل الحركة إلى ترسيخ قناعتهم بفكرة العمل المسلح وامتعضهم للأسلوب الذي انتهجه مصالي وأنصاره^(١٣).

وترزعم التيار المعارض لفكرة المشاركة في الانتخابات في بداية طرحها للنقاش الأمين دباغين وعدد من الإطارات الشابة، ثم تنازل معظم هؤلاء عن موقفهم، ولم يبق سوى حسين لحول في موقف معارض لفكرة في سنوات ١٩٤٦-١٩٤٩. ثم ما لبث إن تحول هو أيضاً إلى مناصر للفكرة عندما ترشح وانتخب رفقة آخرين لعضوية المجلس البلدي للجزائر العاصمة خلال تولي جاك شوفالي لرئاسته في سنوات ١٩٥٠-١٩٥٤. وتمكن عدد من مرشحي الحزب من الفوز في الانتخابات رغم عملية التزوير التي رافقتها بتدبير من الحاكم العام إدموند نايجلان، إذ وصل إلى عضوية البرلمان الفرنسي كل من دباغين ومحمد خيضر- وحسن دررور ومسعود بوقادوم وأحمد مزغنة، لكن الأزمة حول فكرة المشاركة في الانتخابات استمرت بسبب قيام بعض الإطارات القديمة في نجم شمال إفريقيا وحزب الشعب بشن حملة انتقاد ضد مصالي الحاج والإطارات التي وافقت على العمل في ظل الشرعية الاستعمارية من خلال قبولها بالعضوية في الهيئات السياسية الفرنسية.

ويمكن تفسير استمرار الخلاف حول المشاركة في الانتخابات إلى سنوات متوالية إلى تباين مكاسب وإخفاقات تلك المشاركة، فقد كان الفوز في الانتخابات البلدية في أكتوبر ١٩٤٧ مكسباً وحجة لدعاة العمل الشرعي العلني في حركة الانتصار في وجه المعارضين والمشككين من رفاقهم، لكن التزوير الذي رافق انتخابات الجمعية الوطنية الجزائرية في بداية عام ١٩٤٨، ورافق أيضاً الانتخابات الموالية في عام ١٩٤٩، سرعان ما أعاد الأصوات المعارضة إلى الواجهة بسبب الكلفة المادية الباهظة للمشاركة الانتخابية وتعرض عدد كبير من مرشحي الحركة للاعتقال والسجن والغرامات المادية التي سلطت على كل من حسين

مرحلة عسيرة بدأت معالمها مع نتائج وآثار مجازر ٨ مايو ١٩٤٥ وانعكاساتها على أهداف وتوجهات الحزب المستقبلية.

الأزمات الداخلية لحزب الشعب

حركة انتصار الحريات الديمقراطية (١٩٤٥-١٩٥٤)

١- ورطة حزب الشعب (المُحل)

في مجازر ٨ مايو ١٩٤٥

لقد وُجّهت أصابع الاتهام خلال جلسات المؤتمر الأول للحركة يومي ١٥-١٦ فيفري ١٩٤٧^(١٤) إلى بعض العناصر النشطة في الخلايا السرية للحزب في الشرق الجزائري أمثال الشاذلي المكي وشوقي مصطفى^(١٥) على مسؤوليتها المباشرة في دفع الشعب إلى الشارع الأمر الذي أدى إلى ردود فعل فرنسية عنيفة انتهت بأبشع مجزرة في تاريخ الجزائر^(١٦) وقد اعتبرت هذه الورطة من المشاكل والصعوبات التي تركت أزمة من الشكوك والريبة وانعدام الثقة بين الإطارات والمناضلين داخل هياكل الحركة، تخوفاً من تكرار تجربة وسيناريو ٨ مايو من عام ١٩٤٥. وتعود خلفية هذه القضية إلى محاولة قادها عدد من مناضلي حزب الشعب من أجل توظيف الحركة الشعبية التي تزامنت مع الاحتفالات بانتصار الحلفاء على دول المحور في نهاية الحرب العالمية الثانية واستغلال الغطاء السياسي لحركة أحباب البيان والحرية من أجل الجهر بالمطالب الاستقلالية التي كان ينادي بها الحزب كحل للقضية الوطنية.

وقد رسم هؤلاء خطة تقضي بتحرير مصالي الحاج من إقامته الإجبارية في منطقة قصر شلالة بالتزامن مع مظاهرات الأسبوع الأول من شهر ماي ١٩٥٤ وهو الأمر الذي كان ينطوي على تدبير سياسي يسعى إلى تحويل التظاهرات إلى عصيان مدني وثورة شعبية معلنة من أجل الضغط على الإدارة الاستعمارية ودفعها إلى تبني فكرة "حق تقرير المصير السياسي" للشعوب المستعمرة، والتي كانت شديدة الرواج عند نهاية الحرب العالمية الثانية^(١٧). لكن سوء تقدير طبيعة وحجم ردود الفعل الاستعمارية التي جوبهت بها المطالب والشعارات الوطنية جعل مشروع توظيف التظاهرات يتحول إلى إخفاق سياسي شديد كانت كلفته البشرية باهظة جداً وهو ما جعله موضوعاً لتبادل الاتهامات في صفوف قيادة حزب الشعب في الاجتماعات الأولى التي عقدت تحت غطاء حركة انتصار الحريات الديمقراطية غداة إعادة بناء الحركة الوطنية في خريف ١٩٤٦.

٢- الخلاف حول مسألة الانتخابية

دفع انبعاث النشاط السياسي في الجزائر عقب نهاية الحرب العالمية الثانية في خريف ١٩٤٥ مرة أخرى إلى محاولة بناء الحركة الوطنية من جديد دون أي تغيير في برامجها التي تجاوزتها الظروف المستجدة. وفي هذا السياق شرع زعيم الحزب- حزب الشعب الجزائري- مصالي الحاج بعد عودته من

حتى سنة ١٩٤٦، بالسياسة البرلمانية الجديدة لحركة الانتصار والتخلي عن المبادئ والتنظيم وانسحبوا لتترك المجال للقادمين الجدد مرشحين متمكنين.^(١٩)

لقد أحدث انسحاب الأمين دباغين^(٢٠) هزة عنيفة في صفوف المناضلين وخصوصًا الشباب الثوري الذي رأى فيه الأمل والريادة في البحث عن مخرج من تلك الشرنقة التي أبعدتهم عن جوهر الصراع مع السلطات الاستعمارية والإسراع بتفجير الثورة. كما ساد التذمر في أوساطهم معتبرين ذلك دليلًا آخر على انحراف إدارة الحركة عن المنهج الثوري الذي رسمته لنفسها منذ سنوات عازمة على تحقيق الطموحات الشعبية بقوة السلاح وفي هذا السياق يمكن الإشارة بالمناضل الأمين دباغين الذي اعتبر الدماغ المفكر للحزب ورجل حركة أحباب البيان والحرية سنة ١٩٤٤، ورجل المؤتمر الأول للحزب لكونه لا يميل إلى العمل الجماعي وذلك لتفضيله التفكير والدراسة المتأنية البعيدة عن الضوضاء وتعارض الآراء^(٢١). وبسبب كثرة الانتقادات ضده خاصة من المقربين الذين سبق الإشارة إليهم ضف إلى عزله من الحزب خلال مؤتمر زدين^(٢٢) تشكلت صورة عن الحالة التي كان عليها خلال تلك الفترة حيث كان في حقيقة الأمر مُحبط المعنويات بشكل عميق.

إن ما يمكن قوله عن طبيعة هذه الأزمة وتداعياتها أنها بينت بشكل واضح حقيقة الصراع حول القادة بين جماعة من المناضلين القدماء بزعامة مصالي ومولاي مرباح ومزغنة من جهة وثلة من المثقفين النشطاء الشبان الذين تمكنوا من التسرب إلى هياكل الحزب بقة وبلوغهم مراكز قيادية عالية وفي وقت كان من المفروض على قيادة الحزب الشروع الجدي في البحث لإيجاد حلول جذرية لهذه الأزمة التي عرفت في أدبيات الحركة الوطنية بأزمة "دباغين" قامت بالمزج بينها وبين شق آخر من أزمة شهدتها سنة ١٩٤٩ وهي الأزمة البربرية وفي هذا السياق تشير بعض المصادر أن قيادة الحزب استغلت هذه الأزمة لإقصاء أنصار محمد الأمين دباغين من صفوف وقيادة الحزب^(٢٣). وإن اختلفت التفاسير والأطروحات في قضية دباغين فالمؤكد أن هذه الهزة عبرت عن تحول خطير في توجهات الحركة وسوف تكون لها انعكاسات خطيرة أيضا على مستقبلها ومستقبل مناضليها.

٤- الأزمة البربرية ١٩٤٩

اعتبرت الأزمة البربرية إحدى الأزمات التي مهدت للأزمة الكبرى وتركت آثارًا عميقة في مسار الحركة، كما شكّلت في الوقت نفسه منعطفًا حاسمًا في مسيرتها لارتباطها بأعقد قضية في تاريخ الحركة الوطنية وهي قضية الاستقطاب الجهوي والهوية في حد ذاتها^(٢٤). ويرجع البعض أسباب ظهور هذه الأزمة إلى انتخاب رشيد علي يحيى^(٢٥) لقيادة فدرالية الحركة بفرنسا خلال مؤتمرها الذي انعقد في شهر نوفمبر ١٩٤٨ بدعم من واعلي بناني،^(٢٦) وعمر ولد حمودة^(٢٧) وهما من أبرز زعماء الدعوة البربرية،^(٢٨) حيث قاما بتقديم أطروحات حول الهوية وطبيعة الدولة الجزائرية. وفي مقابل ذلك شرع اليساريون في العمل من أجل إنشاء شعبية للبربرية وأقر أعضاء اللجنة الفدرالية بأغلبية

لحول والحاج محمد شرشالي من أجل منعهما من الدعاية الانتخابية.

ومنذ ذلك التاريخ استمر الخلاف حول مسألة الانتخابية بين الرفقاء وتحول من مسألة عادية مطروحة للنقاش إلى صراع حمل في طياته اختلافات شديدة في تحديد الروى والتصورات السياسية بين ثلاثة تيارات أحدهما مؤيد للعمل الشرعي والآخر معارض له بينما كان التيار الثالث يؤيد المشاركة السياسية كحل مؤقت للتغطية على المشروع الثوري الذي كان يجري الإعداد له في السرية من طرف عناصر المنظمة الخاصة. ويجدر توضيح أن محركات الخلاف حول مسألة المشاركة في الانتخابات التي كانت أحد أهم الأسباب في استمراره كانت ترتبط أحيانًا بالطموحات الشخصية والمنافسة على الموقع القيادية وأحيانًا بالتعصب السياسي وحب الزعامة الذي يمكن اعتباره سببًا مباشرًا في أصول الأزمة الحادة التي انتهت بتصدع الحزب في ربيع ١٩٥٣

٣- مشكلة الأمين دباغين^(١٤) (١٩٤٧-١٩٤٩)

إذا كان الخلاف بين الأمين دباغين وبعض أعضاء قيادة الحركة وعلى رأسهم مصالي الحاج شخصيا يعود إلى ندوة الإطارات التي انعقدت في شهر ديسمبر ١٩٤٦ بعد بروز الخلاف حول المسألة الانتخابية، إلا أن الموقف سيتبلور بوضوح ليصبح أكثر تعصبًا وصلابة بعد المؤتمر الأول (فيفري ١٩٤٧) فالسياسة الجديدة التي حاول بعض القادة فرضها كمنهج عمل داخل الحركة تسببت بشكل مباشر في قيام المواجهة بين هيئة القيادة وعلى رأسها مصالي الحاج والدكتور الأمين دباغين الأمر الذي دفع به إلى الابتعاد بشكل رسمي عن الحركة وانقطع تمامًا عن حضور جلساتها والمشاركة في نشاطات القيادة^(١٥). كما امتنع عن تقديم التقارير عن نشاطاته النضالية خصوصًا تلك المتعلقة بوجوده في البرلمان الفرنسي- وعلى الرغم من هذا الابتعاد لم يتوقف دباغين عن توجيه تهمه للمسؤولين بإدارة الحركة لاسيما مصالي الحاج الذي اتهمه بالسكر^(١٦).

وفي محاولة لإعادة الأمين دباغين إلى صفوف قيادة الحركة شكلت لجنة من أربعة أشخاص وهم: مصالي الحاج ومحمد بلوزداد وبن يوسف بن خدة وأحمد بودا لتوضيح قضيته وموقفه من الحركة غير أنه رفض مقابلتهم ثم تمت محاولة أخرى من طرف القيادة الذين توجهوا إلى بيته لكنه رفض أيضا أي اتفاق معهم. وقد كانت آخر محطة لقاء بين دباغين مع إدارة الحركة هي الزيارة التي قام بها أحمد بودا إليه، حيث بلغه فيها بأن قيادة الحركة سوف تعتبره متمردًا أو عاصيًا في حالة عدم توضيح موقفه فأجابه الأمين دباغين بقوله "إذن فالحرب بيننا"^(١٧).

ومما لا شك فيه؛ أن سبب الخلاف كان جوهريًا، حيث شكل إحدى دعائم الحركة إذ أنه تعلق ببرنامجه ومبادئها ومطالبها الأمر الذي اعتبره دباغين انحرافًا حقيقياً وخطيرًا على نهجها وقد كان التوجه الجديد للحركة إحدى بدايات هذا الخلاف وقد أشاد الدكتور مصطفى الأشرف^(١٨) بخصوص هذه المسألة "لقد انخدع كثير من المناضلين الشباب في الحزب الذين ناضلوا في السرية

شك فيه أن للإدارة الاستعمارية ضلع في الأزمة حيث لها دور في ظهورها ومحاولة نشرها في إطار السياسة الاستعمارية "فرق تسد".

ه- نتائج وآثار اكتشاف وحل المنظمة

الخاصة (Los) (٤٠)

على إثر عملية اكتشاف المنظمة السرية في شهر أفريل ١٩٥٠ وتعرض الحزب لتلك الأعمال العنيفة قررت اللجنة المركزية حل المنظمة، مادامت الظروف لا تسمح بمباشرة أعمالها، وأوصت بأن تعود إلى عملها من جديد قبل بضعة أشهر فقط من بدء الحركة الفعلية، وكان لهذا الإجراء نتائج سلبية وشعور بالجفاء بين زعيم الحزب مصالي الحاج وبين الشبان الذين بذلوا الكثير في سبيل إعداد ذلك الجيش من المدربين، وتلك الخطط التي تقرر البث في تحضيرها (٤١).

ويعتبر ذلك سبباً في تأجيل معركة التحرير في تلك الفترة (٤٢)، فسياسة الانتخابات كانت هي الأخرى إحدى محاور الخلاف (٤٣) بين قادة الحركة وقاعدتها، فقد دأب الحزب منذ تكوينه على المشاركة في الانتخابات البلدية والتشريعية في حين كان يواصل نشاطه الشرعي ويطالب بالاستقلال، ورأى المناضلون الشبان من أعضاء الحزب أن اشتراك حزبهم في المجالس الفرنسية التشريعية خيانة ومضيعة للوقت (٤٤) في حين كان الكهول والمتقدمون في السن منهم يرون عكس ذلك مادامت هناك مكاسب وطنية ولو بسيطة وقصيرة المدى. وفي عام ١٩٥٢ نقلت الحكومة الفرنسية مصالي الحاج نهائياً من الجزائر وحددت إقامته الجبرية في فرنسا، وسبب بعده عن الجزائر اتساع شقة الخلاف بينه وبين الأعضاء الشبان في اللجنة المركزية (٤٥).

والحقيقة أن الخلاف الذي ظهر بين مجموعة مصالي واللجنة المركزية كان خلافاً بين جيلين يختلفان في الطبيعة والتكوين والاتجاه وإن تقاربت، فمصالي كان يعتقد ويرى نتيجة لقدمه وأسبقيته في الحركة أن لاحق لأحد في أن يعارضه أو يشاركه في الرأي، ويريد أن يفرض سلطته الشخصية على الحزب، ويتصرف في مقرراته ما يشاء ويهوى، ويُسِرّه وفق ما يعن له أما اللجنة المركزية فقد وضعت نصب أعينها تدعيم الحزب بدم جديد وفرض الزعامة الجماعية، ونبذ الشخصية الفردية وتحقيق الديمقراطية داخل إطار الحزب، ضماناً لاتجاهه السليم وعدم انحرافه (٤٦).

انتابت حركة انتصار الحريات الديمقراطية أزمة داخلية فهلل الاستعمار لها، وعزز وسائل المحافظة على الأمن، لأن المشكل الجزائري في نظر أهل الفكر الاستعماري، مشكل "جندرمة" ليس إلا وحيث أن العربي لا يحترم إلا القوة، فما على الاستعمار إلى اللجوء إليها، وكانت الجرائد الفرنسية ببعد نظرها وثاقب بصرها في طول أعمدها وعرضها تقنع قراءها بضرورة ذلك، ونذكر من تلك الجرائد: "ليكو دالجي" L'écho d'Alger، و"لاديبش

٢٨ صوتاً من جملة ٣٢ صوتاً استعمال القوة ضد اللجنة المركزية للحزب ورفض أية فكرة قائلاً "الجزائر ليست عربية ولكنها جزائرية، وإن كان من الضروري تشكيل اتحاد لجميع المسلمين الجزائريين دون تمييز للجنس العربي أو البربري نحن فوق المشكلة العرقية" (٢٩).

وتجدر الإشارة إلى: أن الحركة البربرية حُضيت بالمساعدات والدعم لدى الحزبين الشيوعي الجزائري والفرنسي وخلاصة هذا الدعم ما عرف بـ "نظرية البوتقة" التي جاء بها رئيس الحزب الشيوعي الفرنسي- موريس توريز "Moris Toreze" الذي يذهب في قوله بأن "إن الأمة الجزائرية لم تكن موجودة في السابق وهي اليوم في طريق التكوين من العرب والقبائل واليهود والمالطيين والأسبان والفرنسيين وغيرهم..." (٣٠). ويعتبر أول من دق ناقوس الخطر حول هذه القضية هو المناضل أحمد بودة (٣١) في مؤتمر زدين الذي واجه آنذاك معارضة شديدة من قبل حسين آيت أحمد وعمر ولد حمودة وعلي بناي (٣٢).

أخذت قيادة الحركة القضية بشكل أكثر جدية، حيث كلفت المناضل حسين لحول الذي كان آنذاك أميناً عاماً لها بمهمة احتواء الأزمة والقضاء عليها قبل استفحالها واستحالة السيطرة عليها وقام هذا الأخير بإرسال وفد يحسن التكلم بالقبائلية على رأس فدرالية الحزب بفرنسا وطلبت من السادة "راجف بلقاسم" (٣٣) وسعيد صادق وشوقي مصطفى" القيام بإعادة تنظيم خلايا الحزب بفرنسا كما قام كريم بلقاسم من جهته بالقضاء على مفتعلي الحركة البربرية وعلى رأسهم "رشيد علي يحي" (٣٤) بالإضافة إلى إيقاف جريدة النجم الإفريقي "التي كانت تصدر باسم الاتحادية" (٣٥).

وأدت هذه الإجراءات إلى وقوع صدمات ومواجهات بين أعضاء الوفد وبعض العناصر المتسببة في الأزمة البربرية أصيب على إثرها عدد من المناضلين بجروح من بينهم محمد خيضر (٣٦) وفي نفس السياق أصدر الوفد منشوراً ندد فيه ببربرية "رشيد علي يحي"، وقد ردت عليه بعض التنظيمات الطلابية القبائلية بتجميدها للمساهمات المالية وذلك تحت شعار "عاقبوا علي يحي دون مهاجمة البربر" (٣٧). وفي الجزائر فقد قامت الحركة بتوجيه من الأمين العام حسين لحول بمعالجة القضية بحكمة وهدوء دون أن تصل إلى هياكل الحركة وقواعدها كما تم إبعاد المناضلين الذين ثبت أن لهم ضلع في القضية وهم "واعلي بناي" و"عمر أوصديق"، و"عمر ولد حمودة" (٣٨).

أما بالنسبة لحين آيت أحمد رئيس المنظمة، فقد أتهم بهذه القضية وتم استدعاؤه وأجرى معه المناضلان أحمد بودة والحاج محمد شرشالي تحقيقاً أنكر فيه التهمة واعتبرها مؤامرة من قيادة الحركة ضد مسؤولي منطقة القبائل فقررت الحركة عزله من الرئاسة المنظمة وتكليف المناضل أحمد بن بلة برئاستها (٣٩). لقد أثارت هذه القضية الكثير من المتاعب للمناضلين داخل الحركة وكادت أن تعصف بقواعدها وأجهزتها باعتبارها قضية تشكيك في الهوية الوطنية ومساس بالأشخاص مباشرة في الحركة التي أصبح لها رصيذاً وطنياً وشعبياً كتيار ثوري استقلالي. ومما لا

كوتيديان "La Dépêche و" la Dépêche Quotidien و" Constantine، و"ليكودوران " L'écho d'Oran.

٦- المؤتمر الثاني للحركة أبريل ١٩٥٣

يُعدّ المؤتمر الثاني لحركة الانتصار من أهم المؤتمرات وأكثرها تأثيراً على مسارها كما أنه يعد المؤتمر الأخير على مستوى الاجتماع داخله، وآخر محطة التقى فيها الإخوة الأعداء لأنه يمثل بداية الخلاف العلني والصراع الدامي بين الفريقين المتوقعين داخل الحركة ومن هنا جاءت أهمية وخطورة هذا المؤتمر بالإضافة إلى القرارات الحاسمة التي صدرت عنه سواءً على المستوى التنظيمي والهيكلي للحركة وطبيعة التركيبة البشرية التي انتخبت على هرم قيادتها أو على مستوى تحديد المسؤوليات وصلاحيات رئيسها مصالي الحاج، وهو ما اعتبر سابقة خطيرة في تاريخها بالنسبة للرئيس وللبعض أنصاره المتعصبين له والذين كانوا يرون فيه الزعيم الأبدي الذي لا ينافس بل ولا يجوز أن يكون محل جدل أو نقاش، من حيث مسؤوليته السياسية والروحية على الحركة، ومناضليها، وهو ممثل الشعب الجزائري بدون منازع رغم أن قضية تحديد المسؤوليات داخل أجهزة الحركة وكذلك قضية الرئاسة مدى الحياة قد نوقشت قبل هذا التاريخ، إذ كانت من أهم نقاط جدول أعمال دورة لجننتها المركزية في شهر مارس ١٩٥٠، حيث أشار تقرير تلك الدورة إلى مسألة تحديد سلطات رئيس الحركة ورفض صيغة الرئاسة مدى الحياة، إضافة إلى حق "النقض" وذلك رغم التباين الكبير الذي ساد أشغال الدورة حول هذه المسائل الحساسة، التي أجل البث والحسم فيها إلى وقت لاحق^(٤٧).

والحقيقة أن هذا المؤتمر قد أخرج هذه المسائل إلى النور بعد أن كانت تدور بين عدد محدود معين من مناضلي قيادة الحركة وداخل لجننتها المركزية وهو ما عجل بظهور الخلاف إلى السطح، وبداية مرحلة من أخطر المراحل في تاريخ الحركة^(٤٨). أما فيما يتعلق بعقد هذا المؤتمر فيشير محفوظ قداش^(٤٩) بأنه كان من المزمع عقده قبل هذا التاريخ وقد قررت له آجال تم تأجيلها في كل مرة وكان آخرها أيام ١٢، ١٣، ١٤ جويلية ١٩٥٢، وبعد التحضيرات الجدية له تم فجأة تأجيله مرة أخرى، وذلك لأسباب بعضها ظرفية ومنها زيارة مصالي الحاج للأصنام وما أعقبها من حوادث دامية، بالإضافة إلى قضية نفيه إلى نيور Niort بفرنسا.

في نهاية المطاف تم تحديد تاريخ انعقاد المؤتمر باتفاق أكثرية أعضاء اللجنة المركزية مع موافقة رئيسها الموجود آنذاك تحت الإقامة الجبرية بنيور بعد أن أوفدت إليه اللجنة المركزية لجنة من خمسة أعضاء سلمها مصالي تقريراً احتوى على تسعة نقاط رئيسة عرض من خلالها التباين مع المواقف السياسية للقادة الآخرين منذ سنة ١٩٤٦، كما عين أثناء هذا اللقاء المناضل مولاي مرياح ناطقاً رسمياً له^(٥٠).

وقد استقر الرأي النهائي على أيام ٦ و٥ و٤ من شهر أفريل ١٩٥٣ لعقد المؤتمر الثاني وتم فعلاً انعقاده في هذا التاريخ، وذلك بصفة شبه سرية بمقر الحركة بساحة شارتر "Charter"

بالجزائر العاصمة، بينما يذكر عبد الرحمن بن إبراهيم بن العقون أن المؤتمر انعقد بنادي المولودية بساحة شارتر^(٥١). وحسب المصدر نفسه فإن هذا المؤتمر انعقد في جو مشحون بالتوتر وانعدام الثقة، وظهر ذلك واضحاً على وجوه المجتمعين من خلال الترسبات السابقة والخلافات في الآراء ومشكلة اكتشاف المنظمة الخاصة، وموقف القيادة السليبي من مناضليها بالإضافة إلى المواقف والتوجهات التي سبقت انعقاد المؤتمر الثاني بين مصالي الحاج من جهة، وأعضاء اللجنة المركزية من جهة أخرى^(٥٢). وكل ذلك انعكس على جو المؤتمر وكان هناك أيضاً ما يثير التوتر والتحفظ ويتمثل ذلك في مسألتين هما:

- ١- ضرورة محاولة الاحتفاظ بسر الخلاف الذي نشب بين رئيس الحركة واللجنة المركزية.
- ٢- ضرورة عدم التصريح ببعض قرارات المؤتمر لما فيها من خطر على الحركة ومناضليها ومستقبلها أمام السلطات الاستعمارية^(٥٣).

وبالنسبة لطبيعة المؤتمرين وتوجهاتهم تؤكد بعض الدراسات بأن المشرفين على المؤتمر منعوا أعضاء المنظمة الخاصة من حضور أشغاله، وذلك تحت غطاء حجة الأمن، ومن هؤلاء محمد العربي بن مهيدي الذي أجبر على إرسال رمضان بن عبد المالك مكانه، أما بالنسبة لمصطفى بن بولعيد ورغم صفته كعضو باللجنة المركزية فإنه لا يستطيع الإدلاء بأي شيء^(٥٤). وكان محمد بوضياف المقيم بفرنسا آنذاك قد أرسل مبعوثين عنه للمؤتمر، وفي نفس الوقت للاتصال بديدوش مراد ليطلع على الوضع داخل الحركة^(٥٥)، ورغم الحصار والمضايقات التي تعرض لها النشطاء، فقد استطاعوا تمرير فكرتهم الأساسية والرئيسية وهي إعادة بعث المنظمة الخاصة من جديد، وقد تم في هذا الإطار تكوين لجنة خماسية تشكلت من: مصالي الحاج وحسين لحول وبن خدة بن يوسف ومحمد دخلي ومصطفى بن بولعيد^(٥٦).

- ومن خلال اللائحة العامة والتقرير النهائي الذي صدر عن المؤتمر فإن أشغاله قد تمحورت حول قضايا أساسية وهي:
- (١) قضية التحالفات داخلياً وخارجياً.
 - (٢) التكفل بمصالح الطبقة البرجوازية.
 - (٣) البحث عن مساندة لدى الدول الغربية خاصة الولايات المتحدة الأمريكية.
 - (٤) قضية المنظمة الخاصة العسكرية والتي طرحت بشكل سري وخاص، وقد سبقت الإشارة إلى ما قرر بشأنها.
 - (٥) قضايا تنظيمية خاصة بأجهزة الحركة ومسؤوليتها^(٥٧).

ولقد أثارت النقطة الثالثة المتعلقة بالبحث عن مساندة لدى الدول الغربية جدلاً واسعاً، حيث لم تلق إجماعاً داخل المؤتمر، فمنهم من أيدوا ومنهم من عارضوها^(٥٨). وقد طرحت أثناء أشغال المؤتمر الثاني عدة تساؤلات جوهرية وجدية وهامة منها: ما هي وسائل تحرير الجزائر؟ ما هي المبادئ التي تبني عليها الدولة الجزائرية المستقلة؟ وإذا كانت هذه الأسئلة قد طرحت بهدف إيجاد إجابات شافية ترضي مناضلي الحركة، فإن

فإن المؤتمر شكل محطة هامة جداً من حيث تطورها والمستجدات التي طرأت عليها، بسبب ما ترتب عنه من قرارات حاسمة وخطيرة، وكذلك المواقف المتخذة إزاء العديد من القضايا المطروحة على الساحة السياسية منها والاقتصادية والاجتماعية والمذهبية الملخصة في اللائحة الختامية التي تبناها المؤتمر ومما جاء فيها: "... أن الحركة تحت عوامل داخلية وخارجية قد عرفت تطورات وتقلبات فقلة الكفاءات من أنواع مختلفة تجلب النظر، إذ دعت إلى المسارعة بمعالجتها حتى يمكن للحركة أن ترتقي إلى مستوى الحالة العامة الحاضرة وأن تتقدم بنجاح إلى الكفاح، ومن جهة أخرى فنظراً إلى الحاجة إلى التحديد والتدقيق لمواجهة القضايا التي تعترض الكفاح الحالي والجزائر مستقلة، كان من المحتوم تحديد سياسة عامة... على ضوء تحليل السياسة التي تتعاطاها فرنسا ضد الجزائر..."^(٦٥).

لقد تضمنت اللائحة الختامية التي تبناها المؤتمر نقداً موضوعياً لوضعية الحركة وحالتها الراهنة والتناقضات الموجودة بداخلها، وانعدام التنظيم مع الإشارة إلى كثير من النقائص الواجب معالجتها والقضاء عليها، ونستنتج من خلالها أن المؤتمرين كانوا يهدفون للخروج بالحركة من تلك الدائرة المغلقة التي كانت تدور فيها، وجعلها حركة طلائعية قوية تضطلع بمهامها التي نذرت نفسها لها خاصة وأنها تمثل الحركة الوطنية في الجزائر، التي بنيت عليه آمال وأحلام جميع الوطنيين، كما نلاحظ الصراحة والجرأة التي طبعت صياغة ومناقشة تلك القضايا الحساسة التي تعترض سبيل الحركة سواء الداخلية أو الخارجية منها. إن هذه المحاولة التصحيحية لأوضاع الحركة خاصة قضية الإطار والاختصاص في المهام والعلاقات الداخلية والخارجية هي التي ستثير حفيظة أولئك الذين يرغبون في إبقاء الحركة هيكلًا جامدًا بلا روح.

وقد أشارت اللائحة الختامية بصراحة إلى أن الحركة بوضعيتها تلك ستتجاوزها الأحداث في يوم ما وكان ذلك تنبأ سابقاً لأوانه أثبتت الأيام فيما بعد صحته، وكانت كذلك إحدى الأسباب العميقة والجوهرية التي أحدثت تلك الأزمة العنيفة داخل قيادة الحركة، والتي ساهمت فيها أزمات فرعية تراكمت وترسبت أحداثها لتؤدي في النهاية إلى الانقسام النهائي لها^(٦٦).

القضايا التي طرحت لم تجد الحلول الكافية والمقنعة علماً بأن المؤتمر عالج حتى القضايا الاقتصادية والاجتماعية، وأصدر بشأنها اقتراحات وحلول، كقضية الإصلاح الزراعي والتصنيع وهو ما تضمنه نص اللائحة العامة لأشغال المؤتمر^(٦٧).

إلا أن القضية الحساسة والخطيرة التي شكلت بداية الأزمة الفعلية بين رئيس الحركة وأعضاء اللجنة المركزية الجدد تمثلت في نقطتين أساسيتين هما:

* **النقطة الأولى:** وتتمثل في القرار الخطير الذي اتخذته المؤتمر والقاضي بتحديد صلاحيات الرئيس وإدخال نوع من الديمقراطية والشورى داخل قيادة الحركة، واعتماد ما يعرف بمبدأ القرار للأغلبية وستكون هذه النقطة القنبلة المفجرة للحركة عندما يصر رئيسها على رفض هذا القرار، ويطالب لاحقاً بمنحه الصلاحيات المطلقة والتفويض التام لتسيير شؤون الحركة تسييراً فردياً، وعلى الجميع الطاعة والانصياع^(٦٨).

* **النقطة الثانية:** وتتمثل في القرار الثاني المتخذ بالأغلبية والقاضي بإبعاد أهم مساعدي مصالي الحاج وأقرب مقربيه عن عضوية المكتب السياسي، وهما أحمد مزغنة ومولاي مرباح وانتخاب بن خدة بن يوسف^(٦٩) أميناً عاماً للحركة مع اختيار كل من حسين لحول وعبد الرحمن كيوان مساعدين له^(٧٠).

لقد كانت هذه القرارات رغم طابعها الانتخابي الجماعي ذات تأثير كبير على مصالي الحاج وكانت بمثابة صدمة عنيفة لم يكن ينتظرها، نزلت عليه كالصاعقة جعلته يفقد صوابه واعتبر كل ذلك بمثابة انقلاب حقيق ضد شخصه، ومؤامرة حاك خيوطها في الخفاء أعضاء اللجنة المركزية لإقصائه وتهميشه، وكان ذلك بالنسبة له تجاوزاً للخط الأحمر من قبل أعضاء هذه اللجنة. لقد شعر مصالي الحاج بأن مكانته قد اهتزت وأنه أصبح معزولاً خاصة بعد إبعاد أهم مساعديه وأقرب مستشاريه.

ورغم أن العلاقات بين رئيس الحركة والأمين العام الجديد بن خدة بن يوسف بدت ظاهرياً عادية، وذلك أثناء اللقاءين اللذين قما بين الرجلين في شهر جويلية وأوت سنة ١٩٥٣ في منفاه بنيور "Niort" والخاص بعرض نتائج المؤتمر الثاني وقراراته، بالإضافة إلى قضية تسوية مشكلات البرامج وتنصيب المسؤولين رسمياً من قبل رئيس الحركة، إلا أن الواقع أثبت بعد فترة قصيرة أن مصالي الحاج لم يكن موافقاً البتة على تلك القرارات، وأعلن عن رفضها جملة وتفصيلاً وذلك من خلال المذكرة التي أرسلها في شهر سبتمبر ١٩٥٣، إذ كشف مصالي الحاج من خلال هذه المذكرة عن موقفه الحقيقي من نتائج المؤتمر الثاني وقراراته، وانتقد بشدة ما سماه بـ "سياسة الإصلاح" التي انتهجتها القيادة الجديدة وطالب صراحة بتفويض كامل السلطات^(٧١).

وكان موقف اللجنة المركزية معاكساً تمام لرغبة مصالي الحاج، إذ أعلنت رسمياً عن تنصيب بن خدة بن يوسف أميناً عام للحركة، وكذلك تنصيب المكتب السياسي، كما أعلنت عن رفضها المطلق لمطلب مصالي الحاج المتمثل في منحه تفويضاً كاملاً للصلاحيات^(٧٢). لكن هذا المطلب بقي بين أخذ ورد، كما بقي الصراع بين الطرفين قائماً إلى غاية الانقسام النهائي والتام بانعقاد مؤتمر الطرفين في صائفة سنة ١٩٥٤، وعلى كل حال

خاتمة

الهوامش:

(1) Mohamed Harbi. La Guerre commence en Algérie, Ed Complexe, Bruxelles, 1984. P.P.20.23.

(2) شهادة مناضل المرحوم محمد بوضياف في حديث له لجريدة الشعب ليوم ١٦ نوفمبر ١٩٨٨، ص ٨.

(3) **مصالي الحاج (١٨٩٨-١٩٧٤)** "ولد الحاج أحمد مصالي في عائلة من فقراء الفلاحين، كانت مهنة والده بسيطة لأنه كان اسكافياً فعاش مصالي حياة متواضعة ولم يحتمل قساوة الحياة الصعبة في الجزائر من جراء المساومات الكولونيالية وبعد عودته من الخدمة العسكرية بفرنسا إلى الجزائر عاد مرة أخرى إلى فرنسا سنة ١٩٢٣ ومارس عدة حرف متواضعة، خطا خطواته السياسية الأولى في إطار جمعية نجم شمال إفريقيا التي ساهم في تأسيسها والحزب الشيوعي الفرنسي. بدأ صدامه مع هذا الحزب منذ سنة ١٩٢٨، لكنه لن يغادره بدون رجعة إلا عام ١٩٣٣، خلال مؤتمر بروكسل المعادي للإمبريالية ١٩٣٧، وفي اجتماع المؤتمر الإسلامي بالجزائر العاصمة ١٩٣٦ طرح مصالي نظريته حول الوطنية الجزائرية. لحقه القمع ولحق حركته ابتداء من سنة ١٩٢٩ عاش ١٦ سنة من حياته بين السجن والنفي، غير أن صموده لم يؤول أكله، أصبح منذ ١٩٤٥ أبرز شخصية للحركة الوطنية في الجزائر، وبقي معبود الجماهير حتى نوفمبر ١٩٥٤. وابتداءً من هذا التاريخ يسدل تلاميذه عليه الحجاب. وبعد إنشاء حزب الشعب ١٩٣٧ وحركة انتصار الحيات الديمقراطية سنة ١٩٤٦، أنشأ مصالي الحركة الوطنية الجزائرية (MNA) لكن جبهة التحرير الوطني رسخت أقدامها في الأرياف وعقدت تحالفات بدون منازع في العالم العربي وحتى في فرنسا استطاعت العودة إلى المدن وقطع مصالي عن القوى الاجتماعية التي صنعت يوماً قوته وبعد معارك دامية خلفت وراءها الأحقاد والضغائن ودحضت بعض أنصاره إلى اليأس والارتقاء في أحضان العدو. وفي ماي ١٩٦١ رفض مصالي الدخول في اللعبة الفرنسية ورفض المشاركة في مفاوضات إيفيان ضد جبهة التحرير الوطني. وبعد الاستقلال أسس مصالي حزب الشعب الجزائري دعى فيه إلى التعددية الحزبية وانصرف كمعارض حتى وفاته سنة ١٩٧٤ بفرنسا وتم دفنه بالجزائر. انظر: بن يامين سطورا مصالي الحاج، رائد الوطنية الجزائرية ١٨٩٨-١٩٧٤، ترجمة الصادق عماري مصطفى ماضي، دار القصة للنشر، الجزائر، ٢٠٠٧، وأيضاً: رابح لونيسي، بشير بلح، تاريخ الجزائر المعاصر (١٨٣٠-١٩٨٩) ج ١، دار المعرفة، الجزائر ٢٠١٠، ص ٢٤٦.

(4) عيسى كشيدة، مهندسو الثورة، تقديم عبد الحميد مهري، دار الشباب، الجزائر، ٢٠٠٣، ص ٥٩-٦١.

(5) عقد أول مؤتمر لحركة الانتصار الحريات الديمقراطية في سرية تامة يومي ١٥-١٦ فيفري ١٩٤٧ حسب جل المصادر ولأسباب أمنية انعقد اليوم الأول منه في منزل ببوزريعة للمناضل مهدي عمار أما في اليوم الثاني فكان ببلكور في قاعة للمشروبات لصاحبها المناضل ملايين مولود وقد ضم المؤتمر حسب بعض المصادر ١٢٠ مناضلاً انظر:

Hocine Ait Ahmed, Mémoire d'un combattant l'esprit d'indépendance (1942-1952), Ed Bouchene, Alger, 1990. P90. Mahmoud Abdoune, Témoignage d'un militant du mouvement nationaliste, Ed. Dahlab, 1990, P.77. Mahfoud Kadache, Histoire du Nationalisme Algérien (1919-1951), tome 2, 2eme Ed, ENAL, Alger P.77.

وقد قال مصالي الحاج عن هذا المؤتمر "بأنه انعقد في جو منعقد الثقة، وفيه تصفية الحسابات، وحرب التكتلات والدسائس والتسابق نحو السلطة

في خضم سلسلة الآزمات المتعاقبة التي تعرضت إليها حركة انتصار الحريات الديمقراطية منذ سنة ١٩٤٦ إلى غاية انفجار الحزب ووقوع القطيعة النهائية سنة ١٩٥٣ يمكن للباحث الوقوف على جملة من الاستنتاجات والنتائج التي يمكن أن نذكر منها:

تعد أزمة حزب الشعب (PPA) - حركة انتصار الحريات الديمقراطية (MTLD) - أزمة قيادة وخلل في نظام وهياكل الحزب وتقاليده الموروثة منذ فترة النجم بالإضافة إلى الاختلافات في الرؤى والأطروحات والتوجهات في صفوف المناضلين ثم برزت أزمة القيادة في ظل المتغيرات والظروف الداخلية والخارجية وردود الفعل الاستعمارية بين أنصار زعيم الحزب (المصاليون) وأعضاء اللجنة المركزية (المركزيين)، فالمصاليين يطالبون بمبدأ القيادة الفردية بزعامة مصالي الحاج مدى الحياة، والمركزيين يريدون هيكلة الحركة بإطارات جديدة شابة مثقفة بالاعتماد على مبدأ القيادة الجماعية بعيداً تكريس عبادة الشخصية والقيادة الكريزماتية بطرائق ووسائل تماشى مع متطلبات الساعة في مواجهة السياسة الاستعمارية.

ساهم إبعاد مصالي ووضعه تحت الإقامة الجبرية في نيور بفرنسا في تفاقم الأزمة وزيادة الهوة بين المصاليين والمركزيين الأمر الذي أعطى الفرصة لبعض المناضلين في قيادة وهياكل الحزب باستغلال الظرف والمواقف لخدمة مصالحها الشخصية من خلال عرقلة الاتصالات بين مصالي واللجنة المركزية مثل مولاي مرياح وأحمد مزغنة.

يعتبر مصالي الحاج سبباً مباشراً في خروج أزمة الحزب إلى الشارع في الجزائر وفرنسا، وبذلك كشف عن المستور فيما يتعلق بهياكل الحزب السرية منها ولم يسعى لحل المشاكل داخلياً بينه وبين أعضاء اللجنة المركزية بسبب التعنت والنزعة الفردية وهو ما ساهم في تصدع الحزب وكشف أسرارته ومشاكله للمناضلين في القاعدة الأمر الذي أثر سلباً على مستقبل الحركة.

من وسائل الكفاح السياسي وعلى ضوءها يتمكن الحزب من نشر أفكاره الاستقلالية في الأوساط الشعبية (عمال، طلبة، شباب، نساء) وفي إطار من الشرعية المعلنة. أما الرأي الثاني الذي مثله لحول حسين فكان يرى بأن ذلك مضیعة للوقت على حساب التفرغ التام لمتطلبات العمل المسلح، كما أن الإدارة الفرنسية سوف تقوم بمحاولة استمالتهم لمصالحها. وللمزيد من التفاصيل انظر عبد الرحمن بن العقون، المصدر السابق، ص ١٦.

(١٢) ترجع بعض المصادر جذور الخلاف العلني الذي كان سبباً مباشراً في أزمة حركة انتصار الحريات الديمقراطية إلى مرحلة التحضير للانتخابات المقرر إجرائها في ١٠ نوفمبر ١٩٤٦ عندما رفع الحزب شعار "من أنتخب كفر" وهو ما كان يعارضه مصالي الحاج ومن هنا خطا الحزب الخطوة الأولى نحو الأزمة التي انفجرت خلال المؤتمر الثاني للحركة في شهر أبريل ١٩٥٣: انظر، نظيرة شتوان، **الثورة التحريرية (١٩٥٤-١٩٦٢) الولاية الرابعة نموذجاً**، أطروحة دكتوراه في التاريخ المعاصر، قسم التاريخ، جامعة تلمسان، ٢٠٠٧/٢٠٠٨، ص ٣٣.

(١٣) هذه العناصر سوف تشكل فيما بعد تنظيم المنظمة الخاصة التي تعتبر القاعدة الأولى للعمل الثوري الجاد.

Mohamed Boudiaf, la préparation de 1(er) novembre 1954, In El Jarida, N° 15, Novembre. Décembre, 1974, P10. Mohamed Boudiaf la préparation de 1(er) novembre, in memoria Magazine, N° 01 le magazine l'histoire ed, Publicité, Alger, 1997, P 3-29.

(١٤) **محمد الأمين دباغين (١٩١٧-٢٠٠٣)** ولد سنة ١٩١٧ بمدينة شرشال، دخل معهد الطب وانخرط في جمعية الطلبة المسلمين لشمال إفريقيا فكانت البوابة التي دخل منها إلى عالم السياسة والنضال، لم يتجاوز دباغين العشرين من عمره عندما انخرط في حزب الشعب الجزائري الذي كان برئاسة مصالي الحاج حيث رفض التجنيد خلال الحرب العالمية الثانية وكان ضمن ذلك السجن ثم أفرج عنه، وفي أحداث ٠٨ ماي ١٩٤٥ أصبح من قيادي حزب الشعب وفي جوان ١٩٥٥ ألقت السلطات الفرنسية القبض عليه بتهمة تكوين مجموعة أشرار وسجن لمدة ستة أشهر وبعد خروجه التحق بصفوف جبهة التحرير الوطني بواسطة عبان رمضان غادر الجزائر بعد أن حوصر ببيتته ووضع تحت المراقبة الجبرية وأقام ببباريس عدة أسابيع ثم انتقل إلى القاهرة حيث عين مسؤولاً عن الوفد الخارجي لجبهة التحرير الوطني. كان محمد الأمين دباغين عضواً في المجلس الوطني للثورة الجزائرية ثم في لجنة التنسيق والتنفيذ الموسعة عام ١٩٥٧ ليتولى منصب أول وزير للشؤون الخارجية في الحكومة المؤقتة الأولى. ابتعد الأمين دباغين عام ١٩٥٩ عن السياسة بعد دخوله في صراع ضد أول رئيس للحكومة المؤقتة فرحات عباس وعبد الحفيظ بوصوف رجل المخابرات القوي في الثورة الجزائرية. وبعد الاستقلال تفرغ لمهنة الطب في العلة قبل العودة إلى العاصمة حيث توفي فيها يوم ٢٠ جانفي ٢٠٠٣. انظر: العمري مومن، **الحركة الثورية في الجزائر من نجم شمال إفريقيا إلى جبهة التحرير الوطني ١٩٢٦-١٩٥٤**، دار الطليعة، الجزائر، ٢٠٠٣، ص ٢٠١.

(١٥) عبد الرحمن بن إبراهيم بن العقون، المصدر السابق، ص ١٠٩.

(١٦) العمري مومن، المرجع السابق، ص ٢٠٢.

(١٧) نفسه، ص ٢٠٢.

(١٨) **مصطفى الأشرف (١٩١٧-٢٠٠٧)**: من مواليد ٧ مارس ١٩١٧ بسيدي عيسى (المسيلة)، درس بالجزائر ثم ببباريس، رئيس تحرير جريدة نجم "الجزائر" التي كانت تصدر ببباريس، التحق بصفوف حزب جيش التحرير الوطني وعمل في مجال الاتصال والتنسيق السياسي. وكان يرافق بن بلة في تنقلاته، عمل سفيراً للجزائر بالأرجنتين ثم

ولم تدرس فيه أي مشكلة دراسة جدية انظر: يحي بوعزيز، **الانتهاكات المتبادلة بين مصالي الحاج واللجنة المركزية وجهة التحرير الوطني ١٩٤٦-١٩٦٢**، دار هومة، الجزائر، ٢٠٠٣، ص ٣٠-٣١.

(٦) **شوقي مصطفى**: ولد في ٠٥ نوفمبر ١٩١٩ بمسيلة حيث كان أبوه قائداً، ترعرع في برج بوعريج قبل أن يرحل إلى سطيف لمواصلة الدراسة الثانوية. في معهد سطيف، انخرط في نجم شمال إفريقيا برفقة مولود بوقرموح وعبد الرحمن علاق من خراطة، وهو طالب في الطب بكلية الجزائر العاصمة أنضم إلى الفرع الجامعي لحزب الشعب الجزائري PPA خلال الحرب العالمية الثانية وبعد انهزام فرنسا في جوان ١٩٤٠، بدأت تتبلور فكرة اللجوء إلى العمل المسلح، بدأ الوطنيون في أبريل ١٩٤٥، يتهينون للاحتفال بهزيمة النازية منفصلين لتكذيب الدعاية الفرنسية (أو الشيوعية) التي كانت تتهم حزب الشعب الجزائري وسار شوقي رافعاً راية الأمة الجزائرية التي فصلت خصيصاً للمناسبة، انتخب عضواً في قيادة جمعية الطلبة المسلمين لشمال إفريقيا في ٢٣ ماي ١٩٤٥، وهو بالذات من نقل الأمر المضاد للثورة الشاملة. تابع شوقي بين ١٩٤٥ و ١٩٤٧ دراسته في الطب بتولوز ثم ببباريس مع تكفله مع بلقاسم راجف وآخرين بالإشراف على فيدرالية فرنسا لحزب الشعب الجزائري PPA- حركة انتصار الحريات الديمقراطية MTLD خلال الأزمة البربرية. ذهب في صيف ١٩٥٠ إلى تونس، لإعادة عرض اقتراحات الوحدة المقدمة في جانفي ١٩٤٩ على حزب الدستور الجديد، بدون جدوى، دعا إلى وحدة العمل مع الاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري والعلماء، ترك قيادة الحركة في ١٩٥١ مع ثلاثة من رفاقه، عمراني السعيد وحاج شرشالي وشتنوف عبد الرزاق احتجاجاً على التصرفات المتسلطة لمصالي، ولم يعد إلى الساحة السياسية إلا في عام ١٩٥٥، تاريخ بداية تعاونه مع مصالي الوشي مسؤول فدرالية ج ت و. بفرنسا وشارك في مصلحة الصحة إلى جانب الدكتور محمد نقاش في مستشفيات تونس وعلى الحدود بغار الدماء وفي ١٩٥٧ عين بصفة مستشار سياسي لدى كريم بلقاسم ومسؤول القوات المسلحة في لجنة التنسيق والتنفيذ CCE، ثم عين رئيس بعثة دبلوماسية بتونس ثم بالرباط التي لم يغادرها إلا سنة ١٩٦٢ لقيادة مجموعة جبهة التحرير الوطني في الجهاز التنفيذي المؤقت، للهيئة الانتقالية المكلفة بتحضير استفتاء تقرير المصير وانتخاب الجمعية التأسيسية الأولى لدولة الجزائرية، قرر الانسحاب من جديد من الساحة السياسية، عمل مع الاتحاد الإفريقي بالحراش قبل أن يدخل للعمل في مستشفى مصطفى باشا في سنتي ١٩٦٤-١٩٦٥ وفي ١٩٦٦ طرد من الجامعة ليعود إلى الاتحاد الإفريقي إلى غاية تأميمه سنة ١٩٧١. انظر: عاشور شرقي، **قاموس الثورة الجزائرية (١٩٥٤-١٩٦٢)**، تر: عالم مختار، دار القصة الجزائر، ٢٠٠٧، ص ٣٤٣.

(٧) **شهادة المناضل الشاذلي المكي في عبد الرحمان ابن إبراهيم بن العقون الكفاح القومي والسياسي** (من خلال مذكرات معاصر)، الجزء ٢، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ١٩٨٦، ص ٢١٢.

(٨) محمد العربي الزبيري، **تاريخ الجزائر المعاصر (دراسة) الجزء الأول**، منشورات اتحاد كتاب العرب، دمشق، ١٩٩٩، ص ٦٥-٦٤.

(٩) عُرف هذا اللقاء ببدء الإطارات التي انعقدت ببوزريعة بالقرب من إقامة مصالي الحاج وتعتبر هذه الندوة تأسيسية للحركة وقد حضرها معظم إطارات الحركة المعروفين ويعتقد البعض ممن عاصروا هذه المرحلة أن هذه الندوة شكلت بداية الصراع والخلاف بشكل علني على الأقل داخل قيادة الحركة: انظر: محمد يوسف، **الجزائر في ظل المسيرة النضالية (المنظمة الخاصة)**، ترجمة محمد الشريف دالي حسين، منشورات الذكرى الأربعين للاستقلال الجزائر، ٢٠٠٢، ص ٧٩.

(١٠) بداية بأول انتخابات تشريعية للجمهورية الفرنسية الرابعة في (نوفمبر ١٩٤٦).

(١١) تباين رأي المشاركين في هذا اللقاء خصوصاً بين مصالي الحاج ولحول حسين فالأول يدعو إلى المشاركة في الانتخابات باعتبارها وسيلة هامة

وبعد ماي ١٩٤٥ ملاحقًا من طرف الشرطة الفرنسية فاضطر للإخفاء وممارسة نشاطه في السرية وكان من دعاة العمل المسلح وفي غضون الندوة التي عقدها حزب الشعب - حركة انتصار الحريات الديمقراطية في شهر أكتوبر ١٩٤٦ عُيِّنَ عضوًا باللجنة المعروفة باسم لجنة اليقظة التي طالبت بعقد مؤتمر لإعادة مراجعة بناء الهيئات القاعدية في الحزب، التحق باللجنة المركزية سنة ١٩٤٧، ومنذ نشأة المنظمة الخاصة نظم حملة لجمع الأموال لشراء الأسلحة للمنظمة الخاصة وقد تميز في تلك الفترة بميوله البربرية ففي هذا الإطار ومنذ سنة ١٩٥٥ عرض على اللجنة التنظيمية لحركة الانتصار توحيد منطقة القبائل بكاملها وقد تمّ توقيفه بمبناه وهران في سبتمبر ١٩٤٨، في هوية مستعارة وهو يريد الذهاب إلى فرنسا وخلال فترة تواجده في السجن تطورت الأزمة البربرية سنة ١٩٤٩، وانتهت بتصفية مجموعة من الإطارات بمنطقة القبائل، تمّ طرده من حركة الانتصار وبعد خروجه من السجن توجه لفرنسا وبارش في اتصالات مع الحزب الشيوعي الفرنسي-PCA طالبًا منه دون جدوى مساعدته لإنشاء الحزب الوطني التقدمي ثمّ التحق بجهة التحرير الوطني واغتيل سنة ١٩٥٧، بسبب مواقفه خلال الأزمة البربرية سنة ١٩٤٩. انظر محمد حربي، المرجع السابق، ص ٣٣٣. وأيضًا:

Benjamin Stora, Dictionnaire biographique de militants algériens (1954-1962), La harmattan, Paris, 1985, p233.
(٢٧) **عمر ولد حمودة:** من القبائل الكبرى انظم إلى حزب الشعب الجزائري سنة ١٩٤٢، انتقل إلى مراكز المقاومة في ١٤ ماي ١٩٤٥، عضو اللجنة المركزية (١٩٤٧-١٩٤٩) انظم إلى جبهة التحرير الوطني وتم اغتياله خلال الثورة بسبب مواقفه إبان الأزمة البربرية سنة ١٩٤٩. انظر محمد حربي، المرجع السابق، ص ٣٣٣.

(٢٨) انكب هؤلاء رفقة علي عميش وحسين أيت أحمد على البحث في تاريخ وماضي البربر معتمدين في معارضهم على المنظرين اللاتين وقد توصلوا في اكتشافهم لهذا الماضي من حيث معاداة العرب الأمر الذي بين أن هذه الأزمة من تدبير السياسة الفرنسية "فرق تسد" وأن سكان القبائل من أصول أوروبية وبالضبط من جنس الرومان واستدلوا على ذلك بصفات خلقية بيولوجية انظر بالتفصيل: عبد الرحمان بن إبراهيم بن العقونن المصدر السابق، ص ١١١.

(٢٩) **العمرى مومن،** المرجع السابق، ص ٢٠٦.

(٣٠) **محمد حربي،** المصدر السابق، ص ٦٨.

(٣١) **بودة أحمد (١٩٠٧-١٩٩٢):** وجه من وجوه الحركة الوطنية، ولد يوم ٠٣ أوت ١٩٠٧ بعين طاية بومرداس في عائلة فلاحية انضم في ١٩٣٢ إلى جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وفي ١٩٣٧ ناضل في صفوف نجم شمال أفريقيا في فترة حله. وفي صفوف حزب الشعب الجزائري ترقى بسرعة في سلم المسؤوليات، ففي ١٩٣٩ كان مسيرا للبرلمان الجزائري، وخلال الحرب العالمية الثانية أصبح عضوًا في قيادة حزب الشعب الجزائري المٌحل، في أفريل ١٩٤٣ إلى جانب حسين عسلة ومحمد بلوزداد. ثم عضوا في اللجنة المركزية، ومندوبا في الجمعية الجزائرية. في ١٩٤٨. شد إليه الأنظار من خلال تدخلاته بالعربية، ودفاعه عن الكشافة الإسلامية الجزائرية التي سعت الإدارة الاستعمارية إلى خلقها برفضها تقديم الإعانة المالية لها. عند عودته من رحلة قادته إلى القاهرة، برفقة مزغنة عام ١٩٥٢، شن بودة معركة مفتوحة ضد مصالي واللجنة المركزية. كان في هذا النزاع أحد خصوم مصالي، اعتقل إثر حل حركة انتصار الحريات الديمقراطية في نوفمبر ١٩٥٤، بعد أن أطلق سراحه في أفريل ١٩٥٥، شارك إلى جانب بن خدة في المناقشات التي جرت بين قدماء المركزيين وجبهة التحرير الوطني التي عرضت عليه مغادرة الجزائر وتمثيلها في العراق ثم في ليبيا. بعد النزاع بين الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية وبن بلة

مستشارًا برئاسة الجمهورية ليتولى وزارة التربية الوطنية في السبعينات، توفي يوم ١٣ جانفي ٢٠٠٧. انظر: رابح خدوسي، «موسوعة العلماء والأدباء الجزائريين»، دار الحضارة للنشر، الجزائر ٢٠٠٢، ص ٢٧.

(١٩) **مصطفى الأشرف، الجزائر الأمة والمجتمع،** ترجمة الدكتور حنفي بم عيسى المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر ١٩٨٣، ص ٢٢.

(٢٠) وجد دباغين نفسه معزولاً بين اتجاهين في الحركة -اتجاه وسط كان يمثلهم مصالي وحسين لحول وأحمد مزغنة وبن خدة وبن يوسف واتجاه يميني مثله كل من شوقي مصطفى ومحمد الحاج شرشالي وعمراني.

(٢١) تؤكد جل المصادر التاريخية أن المناضل الأمين دباغين كان من ألمع مناضلي الحركة وأكثرهم ثقافة ونشاطاً ووطنية وهذا ما يشير إليه المناضل حسين أيت أحمد بقوله "لقد كان الدكتور دباغين رجلاً مثقفاً جداً ولم يكن رجل فكر فقط، بل كان رجل عمل كما كانت له القدرات فائقة في التحليل والمعرفة والحكمة". للمزيد من التفاصيل انظر: حسين أيت أحمد، **روح الاستقلال مذكرات مكافح ١٩٥٢-١٩٤٢**، ترجمة سعيد جعفر، منشورات البرزخ، الجزائر، ٢٠٠٢، ص ٩٢. وانظر أيضاً: عبد الرحمان بن العقون، **الكفاح القومي والسياسي من خلال مذكرات معاصر، ج ٣، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ١٩٨٦**، ص ٢٨٢. وانظر أيضاً: يحي بوعزيز، **السياسة الاستعمارية من خلال مطبوعات حزب الشعب الجزائري، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ١٩٩٥**، ص ٣٨.

(٢٢) يشير سطورا بأن ذلك الصراع بين مصالي ودباغين تم حله بطريقة عنيفة عن طريق إقصاء هذا الأخير من الحركة في ٠٢ ديسمبر ١٩٤٩ لعدم الانضباط والعمل اللاإرادي ورفضه وضع تعويضاته كنائب تحت تصرف الحزب وقد كان هذا الإقصاء نتيجة أزمة عرفت بالأزمة البربرية، حيث صرح مصالي في تقرير قدمه لمؤتمر هورنو ١٩٥٤ مشيراً إلى هذه المرحلة "لقد أقصيت بلا تمييز العناصر المزعجة باتهامها بالنزعة البربرية" للمزيد من التفاصيل انظر بنيامين سطورا، المرجع السابق، ص ١٩٨.

(٢٣) للمزيد من التفاصيل انظر: حسين أيت أحمد. المصدر السابق ص ١٠٦-١٩٦-١٩٨. وأيضاً شهادة مبروك بلحسن في جريدة الشعب اليومية ٦ فيفري ١٩٨٩، ص ١٠، وانظر أيضاً: سليمان الشيخ، **الجزائر تحمل السلاح، دراسة في تاريخ الحركة الوطنية والثورة المسلحة،** ترجمة محمد حافظ الجمالي. منشورات الذكرى الأربعين للاستقلال الجزائر، ٢٠٠٢، ص ٥٩. وانظر أيضاً:

Hocine Ait Ahmed, Mémoire d'un Combattant 1942-1952, Alger, P.189-190.

(٢٤) **محمد حربي،** جبهة التحرير الوطني، الأسطورة والواقع، ترجمة كميل قيصر داغر، ط ١، مديرية الأبحاث العربية، بيروت ١٩٨٣، ص ٦٢٠.

(٢٥) **رشيد علي يحي:** اسمه الكامل محمد سيد علي المدعو رشيد أحد المتخرجين من الكنيسة النصرانية عرف بمواقفه العدائية للعروبة "الجزائر ليست عربية..." انظر أيضاً: محمد حربي، المصدر السابق، ص ٦٤.

(٢٦) **بناي واعلي:** مسؤول حزب الشعب الجزائري-PPA- في منطقة القبائل سنة ١٩٤٣، وعضو اللجنة المركزية لحركة انتصار الحريات الديمقراطية سنة ١٩٤٧ وعضو في جبهة التحرير الوطني سنة ١٩٥٥، ولد بجمعة الصهاريج والده فلاح صغير وقد مرّ على التوالي في متيجة ثم مدينة الجزائر وعاد مسؤولاً بحزب الشعب في منطقة القبائل حيث كان مكلف بعملية التنسيق بين المنظمات الطلابية والحزب سنة ١٩٤٤ كما شغل على تأمين مؤتمر رابطة أحباب البيان والحرية AML- الذي عقد في شهر مارس ١٩٤٥ بمدينة الجزائر،

- (٤٣) مصطفى الأشرف، المرجع السابق، ص ١٤٥.
- (٤٤) يحي بوعزيز، المرجع السابق، ص ١٢٨.
- (٤٥) نفسه، ص ١٢٩.
- (٤٦) العمري مومن، المرجع السابق، ص ١٢٨.
- (47) Mohamed Harbi, Op.Cit, P.40.
- (٤٨) العمري مومن، المرجع السابق، ص ١٩٤.
- (٤٩) جيلالي صاري، محفوظ قداش، **المقاومة السياسية (١٩٥٤-١٩٥٠)**، ترجمة: عبد القادر بن حراث، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ١٩٨٤، ص ١٠٤.
- (50) Mohamed Harbi, Op.Cit, p. 49.
- (٥١) عبد الرحمن بن إبراهيم بن العقون، المصدر السابق، ص ٣٦٦.
- وكذلك: العمري مومن، المرجع السابق، ص ١٩٥.
- (٥٢) عبد الرحمن بن إبراهيم بن العقون، المصدر السابق، ص ٣٦٦.
- (٥٣) نفسه، ص ٣٧٣.
- (٥٤) العمري مومن، المرجع السابق، ص ١٩٥-١٩٦.
- (55) Mohamed Harbi, Op. Cit, P. 49.
- (٥٦) العمري مومن، المرجع السابق، ص ١٩٦.
- (٥٧) جيلالي صاري، محفوظ قداش، المصدر السابق، ص ١٠٣.
- (٥٨) نفسه، ص ١٠٣.
- (٥٩) العمري مومن، المرجع السابق، ص ١٩٧.
- (٦٠) عبد الرحمن بن إبراهيم بن العقون، المصدر السابق، ص ٣٧٦.
- (٦١) **بن يوسف بن خدة (١٩٢٠-٢٠٠٣)**: ولد بن يوسف بن خدة في ٢٣ أفريل ١٩٢٠ بمدينة البرواقية بدأ أول مراحل دراسته بمسقط رأسه ثم انتقل إلى البلدة ليتم المرحلة الثانوية وبعدها التحق بجامعة الجزائر بقسم الصيدلة. ناضل في صفوف الحركة الطلابية كما شارك في الكشافة الإسلامية الجزائرية والتحق بصفوف حزب الشعب الجزائري وفي أفريل ١٩٤٣ اعتقل وزج به في سجن الاستعمار لمدة ثمانية أشهر، وفي سنة ١٩٤٧ أصبح عضواً في اللجنة المركزية لحركة انتصار الحريات الديمقراطية وبعد اندلاع الثورة أُلقي عليه القبض مع مجموعة من رفاقه وأُطلق سراحه سنة ١٩٥٥ ثم اتصل به عبان رمضان ليصبح عضواً في جبهة التحرير بالعاصمة ومساهمها في تحرير جريدة المجاهد، وعين بعد مؤتمر الصومام في لجنة التنسيق والتنفيذ، وفي سنة ١٩٥٧ غادر إلى تونس وعين رئيساً لبعثة جبهة التحرير بلندن ثم وزيراً للشؤون الاجتماعية في حكومة فرحات عباس المؤقتة سنة ١٩٥٨ وخلفه سنة ١٩٦١ في ثالث حكومة مؤقتة بعد الخلاف الذي جرى في مؤتمر طرابلس. انسحب بن خدة من النشاط السياسي بعد أزمة صيف ٦٢، وفي سنة ١٩٨٩ أسس حزب الأمة ثم حل الحزب عند توقف المسار الانتخابي، وفي الرابع من فيفري سنة ٢٠٠٣ انتقل بن يوسف بن خدة إلى جوار ربه. كان معروفاً بعمق التدين والتقوى وحب الوطن وسعة الثقافة والاهتمام بكتابة تاريخ الثورة والحركة الوطنية رحمه الله تعالى. كرمته السلطات الجزائرية بإطلاق اسمه على الجامعة المركزية بالجزائر. انظر: المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر ١٩٥٤، القرص المضغوط، المرجع السابق.
- (٦٢) العمري مومن، المرجع السابق، ص ١٩٨.
- (٦٣) العمري مومن، المرجع السابق، ص ١٩٩.
- (٦٤) نفسه، ص ٢٠٠.
- (٦٥) نفسه، ص ٢٠٠.
- (٦٦) العمري مومن، المرجع السابق، ص ٢٠٠.
- انسحب نهائياً من المسرح السياسي، عاشور شرقي، المرجع السابق، ص ٨٧.
- (٣٢) يحي بوعزيز: المرجع السابق، ص ٤٦. ويمكن أن نضيف إليهم علي ليماش وعمر أوصديق ومبروك بلحسين والصادق هجرس.
- (٣٣) **بلقاسم راجف (١٩٠٩-١٩٨٩)**: ولد المناضل في ١٩ سبتمبر ١٩٠٩ بدوار أومالو (الأربعاء ناث إيراثن)، هاجر سنة ١٩٢٤ وفي أواخر ١٩٣٠ انخرط في حركة نجم شمال إفريقيا التي كانت في مرحلة التكوين على المستوى القاعدي وبعد ندوة ماي ١٩٣٣ عُيّن في المكتب السياسي للحركة رفقة مصالي وعمار أمعاش وسي الجيلالي وأكلي بانون، كان من مؤسسي حزب الشعب الجزائري الذي عقد مؤتمره التأسيسي في نانتر يوم ١١ مارس ١٩٣٧، وعند اندلاع الحرب العالمية الثانية تعاون مع الألمان طمعاً في خدمة استقلال الجزائر وكان يعد حصة إذاعية موجهة للمهاجرين الجزائريين، استأنف النضال مع بوادير الهدنة وعمل مع عدد من المناضلين على إحياء حزب الشعب بفرنسا، التزم الحيداء في خضم اشتداد الأزمة بعد الخلاف الحاد بين المصاليين والمركزيين وكان من الذين وجهوا نداء إلى القاعدة بعنوان (نداء العقل) وهو النداء الذي حمل توقيع، غير أن راجف وجد نفسه في نهاية المطاف مع المركزيين وقد حضر مؤتمهم بالجزائر في منتصف شهر أوت ١٩٥٤، أُلقي عليه القبض في الحملة على المركزيين يوم ٢٣ ديسمبر ١٩٥٤، ولم يفرج عنه إلا بعد سنتين وقد خرج من السجن وهو يعاني من مرض مزمن وبالرغم من ذلك لم ييخل على جبهة التحرير الوطني بمملك من خبرة ونصيحة ومعارف، عاد إلى بعد الاستقلال لإتمام رسالته النضالية في الأعمال الخيرية بقطاع الشؤون الاجتماعية وتوفي بالعاصمة في ٢٥ ماي ١٩٨٩، انظر: محمد عباس، **رواد الوطنية شهادات ٢٨ شخصية وطنية**، دار هومة، الجزائر، ٢٠٠٥، ص ١٩٠.
- (٣٤) عمار بوحوش، **التاريخ السياسي للجزائريين من البداية ولغاية ١٩٦٢**، دار الغرب الإسلامي للطباعة، بيروت، ٢٠٠٠، ص ٣١٩.
- (٣٥) محمد حربي، المصدر السابق، ص ٦٦.
- (٣٦) نفسه، ص ٦٦.
- (٣٧) ثبت ذلك عندما اكتشفت رسالة موجهة من عمر أوصديق من السجن إلى صديقه "وعلي بناي" وبالتالي تم التعرف على محركي القضية ومفتعلها وثبت أيضاً تورط الحزب الشيوعي الجزائري وتواطئه مع هذه العناصر بالاتفاق والتنسيق مع مناضليه ومنهم "صادق هجرس". انظر التفاصيل في: يحي بوعزيز، **السياسة الاستعمارية من خلال مطبوعات حزب الشعب الجزائري (١٨٣٠-١٩٥٤)**، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ١٩٩٥، ص ٤٧.
- (٣٨) نفسه، ص ٤٧.
- (39) Mahfoud Bennoune, Ali El Kenz, Le Hazard et l'histoire entretien avec Belaid Abedessalam, Alger, 1990, T1 P37,38.
- (٤٠) **المنظمة الخاصة**: أطلقت عليها تسميات منها "المنظمة السرية العسكرية" أو "شبه العسكرية"، "الجناح المسلح" في حركة الانتصار، كما أطلق عليها اسم "العظم"، وكذلك تسمية "الشرف العسكري"، وهي تسميات مقبولة لكن تسميتها الصحيحة هي المنظمة الخاصة، وهذا استناداً للمناضل أحمد مهساس الذي يُعدّ واحداً من مسؤوليها فجعلها تتميز عن الحركة السياسية السرية التي يقصد بها حزب الشعب الجزائري. انظر: مومن العمري، المرجع السابق، ص ١٠٥.
- (٤١) يحي بوعزيز، المرجع السابق، ص ١٢٨.
- (٤٢) عباس فرحات، **ليل الاستعمار**، دار القصة للنشر، الجزائر، ٢٠٠٥، ص ١٥٩.

قضية التعريب في الجزائر المستقلة من خلال الصحافة الوطنية جريدة الشعب أنموذجاً (١٩٦٢ – ١٩٦٥)

غانم بودن

أستاذ مساعد التاريخ المعاصر

قسم العلوم الإنسانية - جامعة ابن خلدون

تيارت - الجمهورية الجزائرية



ملخص

تندرج قضية التعريب ضمن مخلفات الاستعمار الفرنسي في شقه الثقافي ذلك أن الجزائر خضعت سنة ١٨٣٠ لاستعمار استيطاني جعلها مقاطعة فرنسية، وشن عليها حرباً توسعية وإبادية روحية شملت مقوماتها اللغوية والدينية، فحارب الدين الإسلامي ومنع اللغة العربية من التعليم واعتبرها لغة أجنبية بهدف عزل الجزائر عن محيطها العربي الإسلامي، وبالمقابل فرض اللغة الفرنسية باعتبارها لغة الغالب فعدت هي اللغة الرسمية التي نشأ عليها من كان له حظ في التعليم من الجزائريين، وبقيت اللغة العربية تدرس على استحياء في المدارس القرآنية (الكتاتيب)، وبعد الاستقلال كان من الطبيعي أن تسترجع اللغة العربية مكانتها فطالب خريجو المشرق العربي من الجزائريين بتعميمها كمظهر لاستكمال الاستقلال وجعلها وسيلة البناء والتنمية، لكنهم اصطدموا بالمتخرجين من المدارس الفرنسية من الجزائريين الذين كانوا يسيطرون على الهيئات الإدارية بعد الاستقلال ويريدون استمرارية اللغة الفرنسية لتحقيق التطور، والدفاع عن مواقفهم استخدم العربون جريدة الشعب كمسبر للتعبير عن آرائهم وتوجهاتهم وحججهم حول ضرورة التعريب في الجزائر.

كلمات مفتاحية:

التعريب، اللغة العربية، القومية، التعليم، الهوية

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث: ٠٣ أبريل ٢٠١٦
تاريخ قبول النشر: ١٧ يوليو ٢٠١٦

DOI 10.12816/0052967

معرف الوثيقة الرقمي:

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

غانم بودن. "قضية التعريب في الجزائر المستقلة من خلال الصحافة الوطنية: جريدة الشعب أنموذجاً (١٩٦٢ - ١٩٦٥)". - دورية كان التاريخية. - السنة الحادية عشرة - العدد الأربعون: يونيو ٢٠١٨، ص ١٥٩ - ١٧١.

مقدمة

محط أنظار الجماهير الشعبية في الدفاع عن مقوماتها خاصة اللغة التي تجسّد الاستقلال الثقافي.

ومن خلال تصفح جريدة الشعب لاحظت تكرار عناوين مثل قضية التعريب، مشكلة التعريب، معركة التعريب، مستقبل اللغة العربية، التعريب ضروري لأمة عربية، وهذا ما يدل على وجود نقاش كبير في المجتمع الجزائري بشأن التعريب كانت الجريدة ميداناً له وتتبع تطوره لأكثر من عقدين، ونظراً لكثرة المادة بحكم أنها جريدة يومية ارتأيت دراسة قضية التعريب من خلال الجريدة خلال الفترة (١٩٦٢-١٩٦٥)، فكيف رأى كتابها ضرورات التعريب ودواعيه؟ وما هو مفهوم التعريب في نظرهم؟ وما هي الحجج التي قدموها لخصومهم بشأن ضرورة التعريب؟

إن التعريب يكتسب أهمية كبرى في الجزائر المستقلة لأنه يمثل عودة لسانها وهويتها التي حرمت منها طيلة فترة الاحتلال الفرنسي الذي منع تعلّم وتعليم اللغة العربية واعتبرها لغة أجنبية وضيق على معلمها وحصرها في أمور العبادة فقط، ونظراً لهذه لأهميته فقد احتل حيزاً كبيراً من النقاش بدءاً منذ الاستقلال عام ١٩٦٢ وما يزال هذا النقاش محتدماً إلى غاية اليوم بين التيار المعرب والتيار الفرانكفوني، وأردت من خلال هذا البحث التأصيل لظهور قضية التعريب لدى الرأي العام الجزائري في بداية الاستقلال في فترة حكم الرئيس أحمد بن بلة (١٩٦٢-١٩٦٥) من خلال أول جريدة ناطقة باللغة العربية بعد الاستقلال وهي جريدة الشعب^(١) اليومية، وكانت النخبة المعربة

العربية على مر العصور»^(٦)، فاللغة العربية الفصحى لها خصوصية كونها لغة القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف فهي لغة توحد الشعوب الناطقة بها وتسهل التواصل بينها للاستفادة من منجزات التراث الحضاري العربي بحكم أنها ذاكرة الأمة تختزن فيها تراثها وقيمها وأصالتها.

ومن مشاركات المعلمين في الموضوع نجد ما نشرته الجريدة بتاريخ ١٩٦٥-٠٣-٠٦ حيث يرى أن التعريب تصحيح لأوضاعنا في عهد الاستعمار وإعادة المركز الحقيقي لشعبنا الجزائري في ركب الأمة العربية^(٧)، فقد عانت اللغة العربية أثناء الاستعمار من الإبعاد والتهميش وحلت محلها اللغة الفرنسية تنفيذا للسياسة الاستعمارية في جانبها الثقافي لسلخ الجزائريين عن هويتهم حيث كتبت الجريدة مقالا بتاريخ ١٩٦٢-١٢-٢٧ بينت فيه أن الاستعمار طيلة مائة وثلاثين سنة لم يترك وسيلة صريحة أو خفية إلا واستعملها لانتزاع الجزائر من عروبته وضمها فرنستها^(٨). وقد عبر المرحوم يحي بوعزيز في مقال له بتاريخ ١٩٦٣-٠١-٠٦ بأن الاستعمار حارب لغة الشعب القومية (العربية) بنفس العنف الذي نشر به الفكر الفرنسي- واللغة الفرنسية^(٩)، فكان من الواجب إعادة المكانة اللائقة لها بعد الاستقلال وكان من حق الشعب الجزائري التعلم بها والشعور بسيادته الثقافية من خلالها والتأكيد على هويته العربية، وقد ورد بتاريخ ١٩٦٤-٠٢-١٤ أفاد أن التعريب في الجزائر هو إعادة إلى إملأ السطر الفارغ بكلام عربي على صفحة الأرض العربية، وهو عودة الجزائر إلى إطار الفكر القومي الأصيل^(١٠).

كما اهتمت الجريدة بنشر- مختلف التقارير والدراسات الواردة عن الهيئات والمؤتمرات الخاصة بالتعريب كالمؤتمر الثالث للمعلمين العرب^(١١) المنعقد بالجزائر في الفترة ما بين ٠٥ إلى ١٣ أوت ١٩٦٣ الذي بين أن مشكلة اللغة العربية في الجزائر قامت نتيجة لوضع غير طبيعي فرض عليها مدة قرن وثلث وما دام الاستعمار الفرنسي قد زال بفضل كفاح الشعب العربي الباسل بالجزائر فقد وجب أن تزول كل الآثار التي ترتبت عليه ومنها حلول لغة المستعمر محل اللغة القومية العربية^(١٢) فالتعريب يرادف حل لمشكلة اللغة التي أوجدها الاستعمار بإزالة مخلفاته الثقافية بعد الاستقلال.

كما وضع المؤتمر نفسه أن التعريب في الجزائر ليس مجرد إحلال لغة محل لغة أخرى ولكنها مسألة حل لمشكلة أساسية هي مشكلة اللغة في الجزائر، تلك المشكلة التي أوشكت أن تعزل الشعب الجزائري عن لغته القومية وهذا من أخطر الأمور على شخصية أي شعب أو قوميته^(١٣) فالتعريب في الجزائر لا يقوم على استبدال اللغة الفرنسية باللغة العربية فقط، وإنما هو أعمق من ذلك فهو يعيد للإنسان الجزائري هويته الثقافية التي ابتعد عنها مجبرا بسبب السياسة الاستعمارية التي عملت على فصله عن انتماؤه وحضارته العربية من خلال حرمانه من لغته فتعلم اللغة العربية يتعدى إلى بناء الشخصية القومية التي دافعت عنها الجريدة كثيرا فقد نشرت مقالا بتاريخ ١٩٦٢-١٢-٢٢ جاء فيه: «إذا كان شعبنا يريد استرجاع شخصيته كاملة

وفيما يخص الدراسات السابقة لموضوع التعريب فإنها قليلة رغم أهميته وذلك في بعض المجلات مثل "الأصالة" في السبعينيات، لكن لا توجد دراسة للرأي العام الجزائري حول قضية التعريب من خلال جريدة وطنية كالشعب التي لم يخل عددًا من أعدادها من مصطلح التعريب طوال الفترة المدروسة، وهذا ما يجعلها سجلاً حافلاً باهتمامات المجتمع الجزائري وحراكه الثقافي، ذلك أن الصحافة مرآة عاكسة لتطور المجتمع في جميع النواحي.

١- مفهوم التعريب في نظر كتاب الجريدة

إن التعريب في الجزائر اكتسب الطابع الوطني الرسمي بحيث لا يقتصر على مطالب فئة معينة في المجتمع وإنما شكل مطلباً وطنياً تقتضيه السيادة وتشارك فيه كل مكونات الشعب من طبقة سياسية ونخبة مثقفة وجماهير الشعب فهو يتطلب جهود الجميع لما فيه من مصلحة للهوية الوطنية دون إعفاء فئة وتحصيل أخرى كل المسؤولية وفي هذا ورد مقال بتاريخ ١٩٦٣-٠١-٢٦ قائلاً: «إن التعريب قضية من قضايا الوطنية الرئيسية التي يجب علينا أن نهتم بها وهو واجب نتحمله جميعاً»^(١٤) وهناك من يقرن التعريب باستكمال الشخصية المميزة للأمة مثل المرحوم رابح تركي الذي بين في مقال له بتاريخ ١٩٦٣-٠٦-٠١ بأن الأمم لا تستكمل شخصيتها إلا إذا عملت على بعث قوميتها حية متطورة بين قوميات العالم ومن أبرز مقومات القومية كما هو معروف اللغة والتاريخ والتراث الثقافي والحضاري^(١٥) فالجزائر استرجعت شخصيتها السياسية وحريتها المغتصبة سنة ١٩٦٢ لكن ذلك لم يشكل إلا جزءاً من السيادة الكاملة التي تشمل إضافة إلى الحرية السياسية الجوانب الفكرية واللغوية والحضارية وحرية الاختيارات.

كما فتحت الجريدة صفحاتها لأقلام من خارجها اهتمت بمناقشة موضوع التعريب خاصة المعلمين حيث يرى محمد عبد الرحيم أن التعريب يعني إزالة تلك السحنة الفرنسية التي علقت بالجزائر والتي كانت أكبر الآثار السيئة التي خلفها الاستعمار^(١٦) فقد أبقي الاستعمار على استمرارية وجوده في الجزائر المستقلة بضمان مكانة مهمة للغة الفرنسية من خلال ما جاء في اتفاقيات إيفيان ١٩٦٢ باسم التعاون الثقافي، والفني كما بقي الجهاز الإداري في مختلف المصالح الحكومية يتعامل باللغة الفرنسية وبقيت الشوارع والمدن الجزائرية تسيطر عليها الأسماء الجزائرية مما يمس بكرامة الشعب وتضحياته.

ونجد في رأي متقارب للمرحوم رابح تركي-وهو أكثر من تحدث عن التعريب في الجريدة-نشر في ١٩٦٤-٠٥-٢٨ مقالا جاء فيه: «أن التعريب هو محافظة على كيان الشعب الجزائري الذي أهدبته كرامته وقوميته زمناً طويلاً»^(١٧) وتتجسد تلك المحافظة برد الاعتبار للغة العربية والتي من خلالها يتم رد الاعتبار للهوية والشخصية الوطنية. ويضيف شفيق عبد الرزاق السامرائي: «أن التعريب يعني إدخال الفكر العربي إلى أبناء الشعب الجزائري بما فيه من قيم وأن هذا الفكر يعتمد أساساً على لغة القرآن الكريم الذي يعتبر بحد ذاته قمة الفكر العربي والمرجع الأصيل للغة

على لسان الجزائريين نظراً لتهميش اللغة العربية الفصحى فدرج لسانهم على مزيج من التراكيب اللغوية أغلبه كلمات فرنسية حاولت الجريدة إزالتها تدريجياً بتخصيص مجال فيها يترجمها إلى اللغة العربية بعنوان "تطهير لغة التخاطب بيننا من الكلمات الأجنبية".^(٢٠)

واستمر تركي رابع في توضيح دواعي التعريب في الركن الذي يشرف عليه في الجريدة "التعليم والتعريب" حيث كتب في ٢٨-١٩٦٤-٠٥: «بأن دعوتنا تقوم على أساس الدفاع عن الذات وعن الكيان الخاص في وجه الأخطار الأجنبية الزاحفة علينا خاصة الكامنة في النفوس كالرواسب الموجودة لدى طائفة من الجزائريين ممن نشأوا وترعرعوا في أحضان الاستعمار الثقافي والفكري الأجنبي»،^(٢١) فالتعريب يؤدي لخلق الاعتزاز بالهوية والثقافة الوطنيتين من خلال الاعتزاز باستعمال اللغة العربية باعتبارها جزء من ميراث تاريخنا الاجتماعي والوطني^(٢٢) لتجنب الأمة خطر الانحلال والانهار من الداخل والذوبان في الكيانات الأخرى الأجنبية التي تتأثر بلغتها وثقافتها فيمكن القول بأن اللغة الأجنبية في هذه الحال هي حسان طروادة. ويضيف تركي رابع في مقال آخر بأن بقاء اللغة الأجنبية خاصة في التعليم معناه أن تنشأ أجيالنا الصاعدة على الولاء لمصدر ثقافتها، ومنبع غذائها الفكري والروحي، وهو الثقافة الفرنسية والآداب الفرنسية، والعلوم التي درستها باللغة الفرنسية^(٢٣).

وتتجسد مظاهر هذا الولاء للثقافة الفرنسية في أن التيار المفرنس لا يرى عيباً في استمرارية اللغة الفرنسية بعد الاستقلال، وفي غياب مسألة الهوية عنده بحكم ثقافته الأجنبية، لذلك فالتعريب كفيل بتفادي هذه النتيجة. حيث يضيف في نفس المقال بأن المثقفين ثقافة فرنسية عند مناقشة قضايا التعريب يتساءلون: لماذا هذا الإلحاح في الدعوة للتعريب؟ أليس من الأجدى للوطن أن نجعل اللغة الفرنسية وسيلة للنهوض به في شتى المرافق الحيوية؟ وما يضرنا في ذلك؟ ألم يصبح دولة مستقلة في كل الميادين^(٢٤) وكتبت جريدة المجاهد الأسبوعي في مقال لها بتاريخ ١٤-٠٣-١٩٦٣: «إن اللغة لها تأثيرها الفعال في الفرد فالمثقف منساق انسياقاً لا شعورياً إلى التأثير بثقافة اللغة التي يتقنها وبطريقة تفكير مجتمعا، فالمثقف ثقافة فرنسية بحتة بالجزائر الذي يقرأ الكتاب الفرنسي، ويطالع أنباء وطنه من الصحافة الفرنسية، ليس من الغريب أن نراه يفكر تفكيراً فرنسياً ويفسر الأحداث في وطنه تفسيراً فرنسياً، ويحاول إيجاد حلول فرنسية لمشاكله».^(٢٥)

والمعنى نفسه عبرت عنه فاطمة عبد الله في مقال لها بتاريخ ١٢-٠٢-١٩٦٣ حيث بينت أن التعريب يجنبنا خطر الاستعمار الفكري الذي هو أخطر بكثير من الاستعمار العسكري لأنه يوجه ضربته للعقول بدلا من الأجساد، إذ أن فرنسا لم تنفض يدها من المعركة، لقد اتخذ سلاحها شكلاً آخر، إنه لغتها وثقافتها^(٢٦). فاللغة قطار الثقافة والإنسان يوالي مصدر ثقافته، فالمتعلم باللغة الأجنبية ينشأ أجنبياً عن قوميته ويعمل في غير صالحها بحكم تأثير ثقافته الأجنبية، وفي هذا المعنى كتب أحمد على الغزالي في ١٠-٠٨-١٩٦٣ بمناسبة انعقاد مؤتمر المعلمين العرب

فإن اللغة العربية هي العنصر القومي الذي لا يزال ينقصنا، والعنصر الفعال الذي سيلعب الدور الحاسم في اكتمال شخصيتنا القومية»^(٢٧).

والرأي نفسه عبر عنه مكتب الجامعة العربية الدائم للتعريب الذي نشرته الجريدة في عددها الصادر بتاريخ ١٢-١٠-١٩٦٣ حيث قال أن عملية التعريب في الجزائر تختلف شكلاً وموضوعاً عن عملية التعريب في أي قطر عربي آخر لأنها ليست قضية إحلال لغة عربية محل لغة فرنسية ولكنها أيضاً قضية بناء قومية وشخصية عربية فوق ذلك،^(٢٨) فالاستعمار الفرنسي- عمل على هدم الشخصية الجزائرية من خلال محاربة مقوماتها المتمثلة في اللغة والدين والتاريخ وجعل لغته تكتسح المجتمع الجزائري لتغريب شخصيته وسلخه من انتمائه العربي لذلك كان التعريب مظهراً لاستكمال الشخصية الوطنية واسترجاع الهوية العربية وتأكيدها لها، كما وضع مكتب الجامعة العربية الدائم للتعريب^(٢٩) تقريراً نشرته الجريدة في عددها الصادر بتاريخ ١٢-١٠-١٩٦٣ وضح فيه وجهة نظر المسؤولين الجزائريين له: «بأن تكون اللغة العربية لغة التدريس والمخاطبة والتحدث ولغة تأليف الكتب المدرسية على اختلاف أنواعها وموادها وليس هو مجرد إدخال اللغة العربية في برامج التعليم كمادة قائمة بذاتها مع الاحتفاظ بالمواد الفرنسية الأخرى»^(٣٠).

فالتعريب هنا معناه جعل اللغة العربية أداة التعبير لأفراد المجتمع عن أفكارهم وعواطفهم ومعاملاتهم اليومية أي جعله لغة الحياة والعلم والعمل وبالتالي العودة إلى أصل الجزائر العربي ويتعدى عن إدخال اللغة العربية كمادة في برامج التعليم بينما تبقى المواد الأخرى تدرس باللغة الفرنسية فهذا إجهاض للتعريب.

٢- دواعي التعريب في رأي كتاب الجريدة

يرى كتاب الجريدة أن التعريب هو جعل اللغة العربية لغة الحياة في الجزائر وإدخالها في جميع التعاملات الرسمية والشعبية لتسريع ترسيخها في المجتمع وإعادة طابعه العربي وتطويرها من خلال الاستخدام اليومي الذي به تبقى حياة متطورة ملائمة للعصر- ومستجداته. فالتعريب يؤدي لتطهير اللسان الجزائري من الكلمات الأجنبية الدخيلة عليه من مسميات للأشياء وأسماء للشوارع والمدن وبالتالي إعادة الكرامة للجزائر وشعبها وإعادة طابعها العربي إليها، وفي هذا كتب الأمين عبد العزيز بتاريخ ١٩-٠٢-١٩٦٤: «إن مَنْ يزور بلادنا اليوم ويلقي نظرة خاطفة على متاجرنا وشوارعنا فإنه لا يحس في نفسه أنه في بلد عربي حر نظراً لما يشاهده من كتابات باللغة الفرنسية بالشوارع والمحلات التجارية، وما يسمعه أيضاً في الشوارع والمقاهي من تخاطب المواطنين باللسان الفرنسي»^(٣١). وقد عبر تركي رابع في مقال له بتاريخ ٣٠-٠٤-١٩٦٤ عن هذا الوضع بقوله: «إذ من العار أن تبقى أسماء الجبال والكتلون (المعمرون الأوروبيون) الذين كانوا سيقاً مسلطاً على رقاب شعبنا تحتل شوارع مدننا ومياديننا، وكذلك بعض القرى والأحياء الهامة في جميع أنحاء القطر»^(٣٢) فقد أثرت اللغة الفرنسية كثيراً

الموضوع أكثر من خلال هذه التقارير التي أعطته بعدا قوميا اهتمت به الدول العربية والجامعة العربية. ومن بين الهيئات العربية التي أخذت على عاتقها مهمة تطوير آليات التعريب على المستوى العربي مؤتمر المعلمين العرب الذي احتضنت الجزائر دورته الثالثة من ٠٥ إلى ١٣ أوت ١٩٦٣ والتي خرجت بتوصيات مهمة، فقد اعتبر المؤتمرون أن اللغة العربية وعاء الثقافة العربية الإسلامية^(٣٤) وبالتالي فمعرفة ضرورية لفهم الثقافة العربية بكل روافدها الفكرية والفنية والحضارية، ولا نستطيع الوقوف على كنوز الفكر العربي من شعر ونثر وفلسفة وتاريخ وعلوم وحكمة إلا إذا أتقنا اللغة العربية التي هي مفتاح هذا الفكر، فاللغة تتعدى أن تكون وسيلة للتبليغ والاتصال فقط، فهي أداة للثقافة ووعاء لحضارة الأمة.

وأضاف المؤتمر بأن التعريب يساعد على فهم أمور الدين الإسلامي فهماً صحيحاً، إذ أن اللغة العربي لغة القرآن الكريم ولغة الحديث النبوي الشريف، ولذلك فهي من أهم الأدوات لفهم الدين الإسلامي الحنيف ولا يستطيع شعب متمسك بإسلامه أن يتهاون في أهم أدوات فهمه لدينه وهي اللغة العربية.^(٣٥) كما تبنى المؤتمر فكرة الوحدة القومية العربية. بتثبيت اللغة العربية في الجزائر مما يؤدي لوحدة التوجه بين الشعوب العربية حيث نقلت الجريدة عنه: «إن اللغة العربية هي المقوم الأساسي للقومية العربية نظراً لأثرها الفعال في توحيد الأفكار والعواطف بين الشعب العربي، وبالتالي تربط الجزائر بالأقطار العربية بعد أن كان محروماً من ذلك من خلال حرمانه من لغته»^(٣٦)، فقد اجتهد الاستعمار محاولاً فصل الجزائر عن بقية الوطن العربي وتشويه التاريخ المشترك بالادعاء بأن الفتح الإسلامي هو غزو عربي للجزائر، كما منع الاستعمار دخول الصحف العربية للجزائر باعتبارها صحفاً أجنبية عن الجزائر.

ويرى المؤتمر أن التعريب يؤدي إلى إزالة آثار الاستعمار ومن أهم هذه الآثار مشكل اللغة حيث قام الاستعمار بفرض اللغة الفرنسية على الجزائريين مدة قرن وثلث، وإحلالها محل اللغة القومية العربية^(٣٧) فالمدّة الطويلة للسيطرة الاستعمارية على الجزائر أثرت عليها سلباً وبقيت لما بعد الاستقلال، حيث استمرت هيمنة اللغة الفرنسية على معظم أجهزة الدولة وهياكلها الإدارية وحتى في الحياة الاجتماعية. بالإضافة إلى هذا فقد نشرت الجريدة أيضاً بعض تقارير مكتب الجامعة العربية الدائم للتعريب الذي اهتم بمتابعة المشاكل التي تواجه التعريب في الجزائر بين ١٥ و٢٤ أوت ١٩٦٣ وقد بين التقرير أن التعريب في الجزائر يختلف عن أي بلد آخر، فهو يتعدى كونه مجرد إحلال اللغة العربية محل اللغة الفرنسية، وإنما يؤدي لبناء القومية والشخصية العربية للجزائر،^(٣٨) فالتعريب هنا مطلب حيوي وضروري لإعادة بناء الشخصية الوطنية لأن الجزائر كانت مقاطعة إدارية فرنسية تطبق فيها القوانين الفرنسية وفي كل المجالات لأجل تجريد الجزائر من عروبته ومن دينها كأبرز مقومات شخصيتها عكس باقي المستعمرات العربية التي

بالجزائر: «إن قرنا ونيفا من الاستعمار في الجزائر لا يمكن أبداً أن يمر هكذا سدى دون أن يترك أثراً في حياتنا الثقافية والاجتماعية، ولهذا فمهمة مؤتمر المعلمين العرب هي إزالة هذا الصدا الذي تراكم على مر الأيام على قلب بلادنا حتى كدنا أن نفقد شخصيتنا لولا إيمان هذا الشعب بعروبته وتاريخه»^(٣٧). فالاستقلال لا يقتصر - على الخروج المادي للاستعمار فقط، أي استقلال سياسي وإنما هو أوسع من ذلك حيث يشمل كل نواحي الحياة، وهو تأكيد للسيادة ووسيلة للتحرر والتحرر - وهذا ما يوضحه حديث نقلته الجريدة على لسان محمدي السعيد^(٣٨) النائب الثاني لرئيس الجمهورية بتاريخ ٠٦-٠٥-١٩٦٤ قال فيه: «والجزائر المستقلة ينبغي لها أن تسترجع استقلالها الثقافي واللغوي، وباستعمالنا للغتنا سوف نحقق أكبر أمنية لهذا الشعب الذي يصبو إلى الاحتفاظ بشخصيته في هذا البلد، يجب إذن القيام بمهمة نبيلة وبواجب ضروري هو تعليم لغتنا ونشرها في الإدارة وفي الشارع والبيت»^(٣٩).

وكتبت الجريدة في عددها الصادر يوم ٠٨-٠١-١٩٦٤ بأن التعريب يؤدي إلى خلق جيل وطني لتحقيق الأهداف الوطنية موحد الاتجاهات العلمية والفكرية والعقلية تجاه القضايا الوطنية العليا، دون أن تؤثر فيه العوامل الخارجية التي لا تتلاءم مع فائدة بلاده المقدسة، وبهذا يمكن استكمال السيادة التي تتطلب الاستقلال السياسي والاقتصادي والثقافي، وإذا اختل شرط من هذه الشروط تعتبر تابعة لغيرها، وإذا كانت تابعة لغيرها تسير في اتجاه معاكس لرغبتها.^(٤٠) كما أن التعريب يؤدي إلى رد الاعتبار للغة العربية في الجزائر المستقلة بعد معاناتها من الاستعمار الذي اعتبرها لغة أجنبية في عقر دارها، لذا وجب العمل على إعطائها المكانة اللائقة وهذا ما عبر عنه محمدي السعيد في كلمته الافتتاحية لمؤتمر السفراء العرب بالجزائر ١٩٦٣ حيث قال: «إن الجزائر دولة عربية ولغتنا الوطنية هي العربية، ويجب أن تستعيد العربية مكانتها عندنا من جديد، تلك المكانة التي احتلتها في العالم لعدة قرون»^(٤١).

والمعنى نفسه عبر عنه ابن العربي في مقال نقلته الجريدة بتاريخ ١٤-١٢-١٩٦٢ حيث ورد فيه: «إن القالب الذي يصوغ فيه مجتمعنا الجزائري ثقافته الوطنية هو اللغة العربية وقد اختار هذه الأداة التعبيرية ليجعل منها وسيلته الوحيدة لتقرير حضارته»^(٤٢)، وأضاف مؤكداً الهوية العربية للجزائر ومعبراً عن أمله وأمل الجزائريين: «إننا مجتمع عربي لنا تقاليدنا وعاداتنا وطريقتنا في التفكير، إن شخصيتنا القومية تتكون من اعتزازنا بلغتنا الوطنية وديننا الحنيف وتاريخنا المجيد وبالقيم الثقافية التي تتجاوب مع أصالتنا، إننا نريد مجتمعاً يتكلم لغته ويتعلم تاريخه ويمارس عاداته وتقاليد»^(٤٣).

٣- دواعي التعريب في التقارير التي نشرتها الجريدة

لقد رصدت الجريدة مختلف التقارير والدراسات التي تطرقت لموضوع التعريب ونشرتها عبر صفحاتها لتوضيح أهمية

الأصالة في كل لغة يعبر دائماً عن أصالة مبدعيها والمفكرين به، وهذا ما حدا بالأجانب إلى تعلم اللغة العربية ودراسة الحضارة الواسعة بشغف»^(٤٣).

وفيما يخص دور اللغة العربية في بناء الحضارة الإنسانية بمختلف مجالاتها فقد تحدث عنه بإسهاب الأستاذ عبد المالك مرتاض في سلسلة مقالات نشرت في سبعة أعداد بعنوان "دور الثقافة العربية في بناء الحضارة الإنسانية" حيث أكد في العدد الأول الصادر بتاريخ ١٩٦٤-٠٦-١٩ بأن «اللغة العربية كانت حاضرة في كل الميادين، فقد اضطلعت بأدوار كبيرة في شتى أصناف العلوم العقلية والإنسانية، فوجد الكاتب مصطفى الرافي^(٤٤) في كتابه "حضارة العرب" يشير إلى الطبيب العربي ابن سينا،^(٤٥) ويقول بأن كتبه نقلت إلى أكثر لغات العالم، وظلت مرجعاً عاماً للأطباء وأساساً للمباحث الطبية في جامعات فرنسا وإيطاليا طوال ستة قرون، ولم ينقطع أطباء جامعة مونبلييه عن شرح نظرياته وتدريس كتبه إلا منذ أقل من قرن»^(٤٦).

وللتأكيد أكثر يحيلنا نفس الكاتب على كتاب "شمس العرب تسطع على الغرب" للألمانية سكريد هنك^(٤٧) الذي أوردت فيه أن كلية الطب بباريس كانت منذ ستمائة عام تمتلك أصغر مكتبة في العالم، كان بها كتاب واحد، ولم يكن هذا الكتاب إلا لمؤلف عربي، وكان الملك لويس الحادي عشر^(٤٨) يرغب في أن يرجع أطباؤه إلى هذا الكتاب كلما ألم به مرض ما، فمن هو صاحب هذا الكتاب؟ إنه أبوبكر بن زكريا الرازي^(٤٩)، أما كتابه الذي كان يدرس بكلية الطب بباريس فهو "الحاوي"، وقد ترجم إلى اللاتينية تحت عنوان "كونتيننس"^(٥٠).

كما يضيف في عدد آخر صادر بتاريخ ١٩٦٤-٠٦-٢٦ أن ابن هارون الترجالي^(٥١) أول من علل الدورة الدموية في تاريخ الطب في كتابه "الكليات"، والزهرأوي^(٥٢) الذي قال عنه الغرب أنه أعظم طبيب في الجراحة العربية وقد اعتمده واستند على بحوثه جميع مؤلفي الجراحة طوال القرون الوسطى^(٥٣)، وبعد سرده لمنجزات الثقافة العربية حمل الأستاذ عبد المالك مرتاض العرب مسؤولية العجز والتأخر حيث توجه مخاطباً خصوم اللغة العربية في العدد الثاني من دراسته بتاريخ ١٩٦٤-٠٧-٠٣: «إن العربية اخترعت وقادت أمماً، ونشرت علوماً، وبنيت حضارات، والإنسانية مغرقة في جهل رهيب، أليست اليوم بعد كل هذا بقادرة على أن تنهض بدورها خير نهوض، فما عربيتنا بعاجزة عن أن تسع العلوم، وإنما نحن هم العاجزون، ولم نكن نحن عاجزين حتى عجزنا الاستعمار، ولم يعجزنا الاستعمار حتى كنا منجلي الصفوف»^(٥٤).

كما نجد أحمد علي الغزالي متفقاً مع هذا الرأي وأرجع العجز إلى الأمة العربية وليس لغة العربية عندما كتب في ١٢-١٩٦٣ بأن تأخرنا عن الركب الحضاري لا يرجع إلى اللغة العربية كما يريد المثقفون باللغة الأجنبية أن يظهروه لنا، وإما لتأخر الأمة وانحطاط حضارتها في العصور الحديثة، وبعبارة أخرى إن اللغة العربية هي ضحيتنا ولسنا ضحاياها كما يحاول الاستعماريون الجدد أن يبينوه، فقد كانت هذه اللغة التي تُتهم اليوم بالعقم هي لغة العلم في العصر العباسي، ويزال كثير من

خضعت للحماية والانتداب فهي لم تتعرض لمعاول الهدم الحضاري.

٤- حجج أنصار التعريب

قام أنصار اللغة العربية عبر صفحات جريدة الشعب بالرد على المناهضين للتعريب والتأكيد على علمية اللغة العربية ودورها الحضاري، وقدموا لذلك حجج يثبت ريادة اللغة العربية عبر التاريخ في جميع المجالات.

١/٤- اللغة العربية لغة علم وحضارة

ادعى بعض الجزائريين وغيرهم بأن اللغة العربية ليست بلغة العلم والتطور، وهذا ما كانت تقوله المدرسة التاريخية الاستعمارية، لذلك تضمنت الجريدة مقالات ومواقف أثبتت علمية اللغة العربية ودورها البارز في الحضارة الإنسانية. وفي هذا المجال أوردت الجريدة تصريحاً لوزير التربية الجزائري عبد الرحمان ابن حميدة^(٥٥) بتاريخ ١٩٦٣-٠٥-٢٧ جاء فيه: «أما لغتنا العربية فلم تخلق عاجزة، لكن الاستعمار أرادها كذلك، ولا الأفق الواسع ينقصها، ولكن الاستعمار جعلها كذلك، ولا الأداء المعبر يعوزها، ولكن الاستعمار أخرسها، وإلا فلنزم النظرة بعيداً إلى المشرق العربي فهل عاقته اللغة العربية الرسمية في الدوائر الحكومية، والمقررة في المعاهد والكليات العملية والعلمية منها، هل عاقته اللغة العربية عن التطور؟ عن مسابقة ركب الحضارة؟ هل عاقته اللغة العربية في أن يأخذ مكانه في مصاف الأمم المتحضرة؟»^(٥٦).

إن هذا التصريح كان ردّاً على الذين اتهموا اللغة العربية بالعجز عن مسابقة التطور، فاللغة العربية واسعة الأفق ولا تعرقل التطور والحداثة حيث قال رابح تركي في مقاله "من معاركنا العاجلة، معركة التعريب": «إن الدول التي أنهت عملية التعريب لم تنفصل قط عن حركة التطور العالمي في ميدان العلوم أو التكنيك أو الصناعة أو الثقافة كمصر- وسوريا، وهي تساهم كغيرها من دول العالم في كل مجالات النشاط الثقافي الدولي وكذلك في حركة التطور الفكري العالمي بشهادة منظمة اليونسكو»^(٥٧). وفي رد آخر على متهمي اللغة العربية بالعجز ورد في مقال بعنوان "مكانة العربية بين اللغات" أكد أن اللغة العربية ملأت فراغ اللغات الأخرى ولا سيما الأوروبية، ودخلت ألفاظ كثيرة منها في هذه اللغات لعجزها وقصورها، ومن هذه الألفاظ التي لا تزال مستعملة في اللغات الأجنبية كأسماء لها دلالتها العلمية في ميدان علم الكيمياء نجد: الأكسجين، الكحول، الزنبرنج وغيرها^(٥٨).

ونظراً لهذا فالأجانب يحبون اللغة العربية ويعترفون بدورها العلمي عليهم وهذا ما أكده سليمان بورنان في مقال له بتاريخ ١٢-١٩٦٣ حيث كتب: «إن الأجانب يحبون لغتنا وثقافتنا، يحبونهم اعترافاً منهم بفضلهم ودورهم الحضاري في رقي الإنسانية وما تتضمنه هذه اللغة من تراث إنساني ضخم أذهل الدنيا وما يزال يشغل أفكار عابرة العالم حتى الآن فالثقافة الرفيعة الأصيلة خالدة لا تفنى، واللغة الملهممة الفسيحة تحمل في ذاتها مقومات وجودها، وهي من أجل ذلك لن تبديد، وعنصر-

سرعان ما يجد نفسه بعد جيلين أو ثلاثة أجيال على الأكثر قد انسلخ عن قوميته وتراثه التاريخي، وذاب في كيان الشعب الذي تعلق بلغته وثقافته دون أن يشعر بذلك».^(٦١)

وللتدليل أكثر على أن اللغة ليست مجرد وسيلة تعبير فقط هو ما حدث لجيل فترة الاستعمار الذي تثقف باللغة الفرنسية من تمزق فكري وابتعاد عن ثقافته الوطنية وجهله لها مما أدخله في حيرة عبر عنها سليمان بورنان في سلسلة مقالات بعنوان "الثقافة العربية وأزمة الجيل الحائر" منها ما ورد بتاريخ ٢٧-١٢-١٩٦٣ حيث كتب: «إن جيل فترة الاستعمار جيل هجين، مشوه، فاقد لمميزات قوميته وشخصيته الأساسية، فالاستعمار يعتمد دائماً لخلق جيل ممسوخ حائر، ممزق، مشدود بالحضارة الغربية، مبهور بأسخف ما فيها من ترهات وخزعبلات دون أن يثقف ثقافة غربية حقيقية، ودون أن يتيح له الفرصة أيضاً لتعلم لغته والاتصال بثقافته وحضارته... فلا عجب بعد ذلك إذا ما وجدت إنسانا يفكر ضمن أطر وقوالب غربية وضعت وفق مخطط سابق بعيداً عن اهتماماته وظروفه وهذا ما أحسه مالك حداد»^(٦٢) «بعمق واكتوى بناره من سنين».^(٦٣)

إن هذا التمزق جعل أفراد هذا الجيل الذي لم يتكون باللغة الوطنية القومية يعيش حيرة وأزمة نفسيتين لإحساسهم ببعدهم عن واقعهم وواقع مواطنيهم، فبعض الكتاب يكتبون باللغة الفرنسية لقراء جزائريين مغربين بعد الاستقلال وهذا ما جعلهم يعيشون في حيرة ومنهم من توقف عن الكتابة باللغة الفرنسية التي اعتبرها منفى له ليحاول العودة إلى أحضان الثقافة الوطنية كمالك حداد، حيث يضيف سليمان بورنان معبراً عن حاله: «أطلق مالك حداد صيحة مدوية ملء صدره يشهد بها التاريخ والعالم على مأساة جيل بأسره: أنا سجين واللغة الفرنسية هي سجن الرهيب ومنفائي الأخير، أجل أنا منفي ونحن جميعاً غرباء، ولسنا سوى حبة أسبرين مسكنة سيتلاشى مفعولها بالتدريج، وسنفقد كلنا مبرراتنا بعد حين».^(٦٤)

إن التبعية اللغوية تؤثر سلبيًا على أصحابها بخلق هذه الحيرة بين الانتماء القومي والانتماء الثقافي، فارتباطهم باللغة الأجنبية يفصلهم عن أوطانهم، وهذا ما يوضح أن اللغة أكبر من أن تكون وسيلة اتصال فحسب، بل هي وسيلة لبناء الهوية والفكر. وفي هذا كتب محمد بن الشريف في مقال له بعنوان "شخصية الجزائر العربية" بتاريخ ١٣-١٢-١٩٦٣: «أن الاستعمار سلبننا وسيلة التعبير عن فكرنا، فأزمتنا في الجزائر هي أزمة تعبير بلغتنا القومية التي هي الوسيلة الطبيعية والأداة الحقيقية التي يعبر بها شعبنا العربي في جميع أقطاره عن روحه وفكره عن ومشاكله وهمومه»^(٦٥)، ووصف تركي رابح ضحايا التمزق الثقافي في مقال بتاريخ ٣٠-١-١٩٦٥ بقوله: «إن هؤلاء الأشخاص هم في الواقع ضحايا أكثر منهم متجنون؛ هم ضحايا ظروف شاذة نشأوا فيها وترعرعوا في أحضانها وطبعوا بطابعها العنيف الذي لم يستطيعوا الفكك منه، لأنها استحوذت على عقولهم ونفوسهم استحوذاً كلياً، فهم إذا يعانون تمزقاً رهيباً في شخصياتهم، وغربة قاتلة في أوطانهم وبين شعوبهم، كما يعانون انقساماً رهيباً كذلك في الولاء بين وطنهم الذي يعيشون فيه وما يعنيه الوطن

الكلمات الفرنسية العلمية مرجع أصلها إلى اللغة العربية»^(٦٦). فاللغة العربية أثبتت وجودها منذ القدم كلغة لمختلف العلوم العقلية والإنسانية وفاق صداها الحدود العربية، وكانت السبابة إلى إحداث نهضة علمية متطورة جداً في العصور الوسطى ومنها استلهمت أوروبا عوامل نهضتها العلمية، وقد بين هذا المعنى الأستاذ عبد المالك مرتاض في مقاله السابق حيث كتب: «فإذا كانت العربية لغة الأدب والشعر الجميل، فإنها أيضاً لغة الجبر والكيمياء والفيزياء والطب والصيدلة والفلسفات والعلوم... وكيف تعجز العربية عن هذه العلوم بعد أن غدتها وغمتها أمداً طويلاً؟! هيهات»^(٦٧). وتساءل في العدد الرابع الصادر بتاريخ ٢٤-١٩٦٤-٠٧ قائلاً: «إن العربية وسعت جميع العلوم التي عرفتها الإنسانية في العصور الوسطى، وأنها هضمت كل ما كان لدى اليونان والفرس والهند من ذخائر حضارية، فهل تعجز اليوم عن نقل ما لدى الغرب بعد أن نهضت بما نهضت به خلال أعصار التاريخ؟»^(٦٨).

وفي هذا الصدد نشرت الجريدة بحثاً من بحوث المؤتمر الثالث للمعلمين العرب المنعقد في الجزائر في الفترة ما بين ٠٥ إلى ١٣ أوت ١٩٦٣ والذي تطرق إلى علاقة اللغة العربية بالعلوم الحديثة حيث ورد فيه: «لقد ثبت أن الذين زاولوا صناعة الطب والصيدلة من العرب كثيرون، أودعوا خبراتهم ومعلوماتهم مؤلفات قيمة اتخذها علماء الغرب لهم أساساً بنوا عليه مجدهم في الحضارات الحديثة، لقد عرفوا التشريح والدورة الدموية وطب العيون، كما لم تصبح الكيمياء علماً صحيحاً إلا بجهود علماء العرب ونزعتهم العلمية، وكان الحسن بن الهيثم»^(٦٩) «أول من درس الضوء من حيث الانعكاس والانكسار والتفريق، ووضع النظريات العلمية التي كانت الأساس السليم لدراسة البصريّات، والعرب هم الذين وضعوا علامة الكسر- العشري»^(٧٠).

٢/٤- العربية لغة القومية والشخصية والهوية

إن أي لغة هي تعبير عن هوية وانعكاس لثقافة مستعملها وحضارتهم بكل روافدها فالتحدث باللغة القومية فيه حفاظ على الشخصية من الذوبان في القوميات الأخرى وحفاظ على الشعور بالانتماء القومي. ترى الجريدة أن اللغة أكثر من مجرد وسيلة للتفاهم والتخاطب، وأنها أصبحت عبر عصور التاريخ وعاء الحضارة الأولى، اللغة معناها تراث وتاريخ وشخصية قومية متميزة، اللغة معناها انتماء إلى جذور معينة، وقد كان الاستعمار يدرك هذا قبل أن ندركه ولذلك كانت هجماته على اللغة العربية ومحاولاته لتدميرها وتحطيمها^(٧١).

ذلك أن اعتماد لغة أجنبية في التعليم والتعامل يؤثر سلبيًا على المتحدثين بها حيث تدخلهم في فضاء فكري وثقافي أجنبي عنهم وبالتالي ضياع لغتهم وهويتهم وكان المرحوم تركي رابح أبلغ من عبر عن هذا في مقال له بتاريخ ٢٥-٠٦-١٩٦٤ جاء فيه: «اللغة ليست وسيلة للتعبير فحسب، ولكنها قبل كل شيء تعبير عن حضارة وفكر ومفهوم خاص عن الحياة، وفلسفة خاصة تترجم عن عقلية وروح أصحابها، لذلك فكل شعب يترك لغته ويستعمل لغة أجنبية عنه في التعليم والإدارة وغيرهما فإنه

من غير الفرنسيين - وتختنق ضمن المناهج ذات الروح والقالب الفرنسي^(٧٢) ومن مظاهر التمزق الثقافي لدى المتفرنسين مناداتهم بتأخير عملية التعريب لأن التسرع يؤدي إلى نتائج عكسية في نظرهم وبالتالي إطالة عمر اللغة الفرنسية في الجزائر فقد كتبت (El moudjahid) جريدة المجاهد بتاريخ ٠٢-٠٣-١٩٦٣ «أن التعريب الشامل ليس أمراً واقعياً»^(٧٣).

كما دعا مصطفى الأشرف^(٧٤) إلى نفس الفكرة وقد رد عليه سليمان بورنان حيث وصفه بقوله: «إن الأستاذ الأشرف ما يفتأ يحارب فكرة التعريب، كما يحاول إبعاد اللغة العربية عن حياتنا ما أمكنه، أو على الأقل تأخيرها وتعطيلها ولو مؤقتاً، وفي المقابل يحاول أن يطيل من عمر اللغة الفرنسية، واضح أن تفكير الأستاذ الأشرف يعبر عن موقف هروبي مأساوي، وهو قدر هذا الجيل المهووس بمطارق الزيف والتمزق واللاحقية، وسيظل أبداً هارباً من ذاته ووجوده، يحس لا جدواه تلاحقه ومع ذلك يتابع خط حياته المرقعة لأنه محكوم عليه بالحياة»^(٧٥).

إن الإبقاء على اللغة الفرنسية في الجزائر بعد الاستقلال هو تكريس للتمزق الثقافي والاستلاب الفكري الذي عانى منه بعض الجزائريين المتفرنسين لأن الإنسان يفكر ضمن إطار اللغة التي درس بها، ومن خلالها ينظر إلى الأشياء فاللغة تدخل في تكوينه الإيديولوجي حيث كتب عبد الكريم غلاب في ١٢-١١-١٩٦٥: «واللغة كما لا أحتاج أن أقول ليست أداة ولكنها فكر وروح، ليست أسماء وأفعالاً وحروفاً، ولكنها تحمل كل مقومات الأمة التي تبينت فيها وسأيرت تاريخها وكل تطوراتها الاجتماعية والفكرية والحضارية»^(٧٦). وعلى هذا فالتعريب يحافظ على الشعور بالانتماء القومي للفرد ضمن أمة تجمع بين مواطنيها مقومات مشتركة أساسها اللغة، ومن خلال وحدة اللغة تنتج وحدة الفكر والآمال والأهداف، وتؤدي إلى خلق جيل منسجم فكرياً بعيداً عن التناقض الذي أحدثته اللغة الفرنسية التي ينادى باستمرارها في الجزائر المستقلة أو الازدواجية التي قد تخلق صراعاً فكرياً واجتماعياً للتناقض في المشارب الفكرية بين أنصار كل لغة، ذلك أن استمرار تيار التفرنس الذي بدأه المشروع الثقافي الاستعماري في الجزائر قد يفقد الاستقلال معناه الحقيقي ويؤدي لزيادة ابتعاد الجزائريين عن استعمال لغتهم الوطنية واتساع ظاهرة التمزق في الهوية الوطنية، وقد بين محمد بن الشريف في نفس المقال السابق: «أن الاستعمار تمكن من إنبات بعض البذور الثقافية التي زرعها وبقيت حية إلى ما بعد فترة الاستقلال، حيث ما تزال اللغة والثقافة الفرنسية سائدة شكلاً ومضموناً»^(٧٧)، ولهذا فإن مناصري التعريب أدركوا خطورة إبقاء اللغة العربية مبعدة عن ميادين الحياة المختلفة بعد الاستقلال، لأن غيابها يعني عدم تشكل الشخصية الوطنية بشكل سليم ونادوا بضرورة تقليص دور اللغة الفرنسية لتنشئة جيل سليم متشبع بثقافته الوطنية القومية.

٣/٤- التعريب لتوحيد اللسان والفكر

نظراً لطول فترة الاستعمار بالجزائر وهيمنة اللغة الفرنسية بالجزائر في الإدارة والتعليم والتخاطب فإنها تغلغت في النسيج الاجتماعي، وأثرت عليه فغداً اللسان الجزائري خليطاً من كلمات

للمواطن الصالح الصادق من قيم وحضارة وشخصية متميزة ولغة قومية، وبين مصدر ثقافتهم وتفكيرهم وهي ثقافة ولغة المستعمر التي يدافعون عنهما»^(٧٨).

وعن دور اللغة في تكوين الشخصية كتب تركي رابح مقالاً في ٣٠-٠٤-١٩٦٤ جاء فيه: «إن تعلم ثقافة ما ليس تأثيره قاصراً على التحدث بلغتها فقط، ولكنه يتغلغل إلى التشكل بها في التفكير والسلوك الاجتماعي والعادات والتقاليد والإعجاب بتاريخها وأشخاصها واتجاهها العام»^(٧٩). إن الاستعمار ترك بعد خروجه صدوعاً في البنية الثقافية للجزائريين الذين درسوا باللغة الفرنسية واتخذوها مصدراً للثقافة ومنهجاً في الحياة مما أثر على شخصياتهم وهوياتهم فناصروا اللغة العربية العداء وانتقدوا دخولها التعليم وعودتها إلى مكانتها الطبيعية، فقد كشف سليمان بورنان في نفس المقال السابق عن وجود حرب ضد اللغة العربية من طرف هؤلاء عندما قال: «إن اللغة العربية تعاني عنتاً وإرهاقاً من طرف المتفرنسين من بعض الجزائريين الموتورين والمسجونين خلف قضبان الحرف اللاتيني، حتى لا تكاد تجد بينهم من يحمل بين جنبيه ولو ذرة من إيمان بأصالة وقيمة هذه اللغة ودورها الحضاري في ترقية وتقديم الانسانية... لماذا لا يكف هؤلاء عن التشهير والتنديد بها ومحاربتها بشتى الطرائق والوسائل، لا شيء إلا لأنهم يجهلون»^(٨٠).

والرأي نفسه عبر عنه أحمد علي الغزالي في مقال له بتاريخ ٢٩-١٢-١٩٦٢ بقوله: «لم يستطع بعض الجزائريين أن يتخلصوا من الرواسب والسموم التي بثها الاستعمار فيهم فاعتقدوا أنها صحيحة، وراحوا يتهمون كل من يخالفهم الرأي بالعاطفة والتحيز، إن هذه العقلية توجد عند نخبة كبيرة مثقفة في بلادنا يساهم بعض منها في الحكم، إن هذه النخبة تستطيع أن تطبق في الجزائر برنامجاً استعمارياً لم تستطع فرنسا لمدة قرن ونيف أن تصل إلى تحقيقه نظراً لمعارضة الشعب، وبعبارة أخرى إنهم يخدمون الاستعمار ولغته وثقافته سواء شعروا بذلك أم لم يشعروا»^(٨١)، وأضاف في مقال آخر بتاريخ ٢٢-٠٦-١٩٦٣: «هناك بعض الجزائريين لم يستطيعوا إلى الآن بعد الاستقلال أن يتحرروا نهائياً من رواسب الاستعمار الثقافي، تلك الرواسب التي كان يبتها المستشرقون طوال قرون للتشكيك في حضارتنا وقيمنا الاجتماعية»^(٨٢).

وكتب محمد بن الشريف في مقال آخر بتاريخ ١٧-٠١-١٩٦٤: «كما قيل لنا أن مبادئ بسيطة بالفرنسية أحسن وأولى من التبحر في العربية، وقد نجح الاستعمار إلى حد ما في بث هذا النوع من العقد الخطيرة لدى بعض شبابنا، وأخذوا ينظرون إلى لغتهم الأصلية بعجرفة وكبرياء وهكذا رأينا كيف نشأت أزمة التعبير في الجزائر وكيف كان لعامل الزمن تأثير كبير فيما قاسته ثقافتنا العربية من تشويه وحرمان ما لاقاه أهلها من استخفاف واحتقار»^(٨٣)، وفي مقال آخر عن معاداة اللغة العربية كتبت الجريدة في ١١-٠٤-١٩٦٣: «إن اللغة العربية هي منطلق ثقافتنا لم تزل في مدارسنا تعاني مثلما بالأمس من الغربة واللامبالاة، بل هي الآن تتن تحت ضغط المديرين الفرنسيين - ومن في حكمهم

الضيقة،^(٨٥) فإذا سلمنا بهذا سنجد أنفسنا أمام عدة لغات إقليمية ولهجات جهوية، وهذا ما يزيد من الابتعاد عن اللغة العربية الفصحى وإبعادها عن الممارسة اليومية، ونكون بذلك قد واصلنا السياسة الاستعمارية التي شجعت العامية لتهميش الفصحى. وتابعت الجريدة قضية العامية بنشر- مختلف الآراء والردود على من دعا لها، حيث نشرت مقالاً بتاريخ ٠٨-٠٢-١٩٦٤ جاء فيه: «أن العامية لا تمثل أمة بأجمعها، كما لا تعبر عن عادات القطر بأكمله، وهي مختلفة ومغايرة من منطقة لأخرى، وهي لا تمثل شخصية الجزائر ولا عاداتها ولا أخلاقها».^(٨٦)

لذلك فالتعريب يؤدي إلى توحيد اللسان والفكر في الجزائر، وهذا يقتضي تثبيت اللغة الرسمية العربية الفصحى في البلاد لإزالة الضعف اللغوي الذي خلفه الاستعمار من خلال فسحه المجال لانتشار اللهجات المحلية التي كانت معاول هدم للغة العربية الفصحى، التي هي لغة القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، وفيما يخص العلاقة بين العربية الفصحى والعامية فقد تطرق لها المؤتمر الثالث للمعلمين العرب المنعقد بالجزائر بالشرح والتوضيح حيث نقلت الجريدة عنه: «...فالعامية تتأثر بالفصحى وتأخذ منها، وممرور الزمن تصبح العامية لغة فصحى، والعامية الجزائرية خلال فترة الاحتلال لم تجد لغة فصحى في الجزائر تتأثر بها وتأخذ أسماء وسائل الحضارة الحديثة، وهذا بخلاف العامية في المشرق العربي، فهي تأخذ هذه الأسماء من اللغة العربية الفصحى، ولذلك خلت لهجة المشرق من الكلمات الأجنبية الدخيلة، والعامية الجزائرية لم تأخذ من الفرنسية مختارة، ولكنها كانت مضطرة».^(٨٧) فالتعريب في هذا المجال يعمل على توحيد اللسان العربي الذي يحل محل اللهجات فيعوض التعددية اللغوية بلغة واحدة لضمان وحدة التفكير والرؤى والأهداف، ولهذا تبنت الجريدة قضية تطهير اللسان الجزائري من الكلمات الأجنبية بتخصيص ركن بعنوان «تطهير لغة التخاطب بيننا من الكلمات الأجنبية» بشعار «التعريب يتحقق أول ما يتحقق على السنة المواطنين وأحاديثهم»^(٨٨) حيث يقدم الكلمات العامية وما يقابلها في العربية الفصحى.

وما يقال على العامية يقال على الداعين لبقاء اللغة الفرنسية في التعليم وما ينتج عنه من ازدواجية لغوية ومزاحمة للغة العربية، وآثار ذلك على الجيل الذي ينشأ بها، وفي هذا بين تركي رابح أن التعليم باللغات الأجنبية يشكل خطورة على المتعلمين، ذلك أن الأجيال تنشأ على الولاء إلى مصدر ثقافتها ومنبع غذائها الفكري والروحي، وهو الثقافة الفرنسية.^(٨٩) فالتعريب خاصة في المراحل الأولى من التعليم يؤدي لتفادي التناقض الفكري بين الناشئة ويحافظ على وحدة اللسان العربي ويضمن تكوين جيل يتقن العربية ويؤمن بانتمائه القومي ويعتز بثقافته.

وفي مقال بدون توقيع بتاريخ ٠٨-٠١-١٩٦٤ ورد أنه لا يمكن للطفل الصغير أن يفتح عينه على شيء غريب عنه ومتناف مع مجتمعه ووطنه، فيتعلم اللغة الأجنبية في سن مبكرة التي هي أداة للعادات والتقاليد، فيشب الطفل أجنبي الفكر وإن كان يعيش في بلده ثم نتهمه بعدم الإخلاص للوطن، وعدم الاحترام

دارجة وأخرى فرنسية، فإذا تكلم لا يعكس هوية عربية جزائرية، لذلك فالتعريب هو محاولة لتطهير اللسان الجزائري من الكلمات الدخيلة عليه من الفرنسية، ومن خلاله يتم تطهير الفكر وجعله موحدًا سليمًا ومبدعًا. ذلك أن بقاء الدارجة بكلماتها الفرنسية كلغة تخاطب يؤدي إلى إبعاد اللغة العربية الفصحى عن الاستعمال، وإلى تأخير استرجاع مكانتها اللائقة والطبيعية في المجتمع وبالتالي تستمر عزلتها التي بدأها الاستعمار، وفي هذا المجال يرى أبو القاسم قدوري في مقال له بتاريخ ٢٥-٠١-١٩٦٤ أن التعريب عامل مهم في تخليص لساننا العربي مما أصابه من لوثة من لغة الاستعمار، وآثار اللهجات المختلفة^(٩٠)، لكنه طالب بضرورة تيسير الفصحى تيسيرا يتماشى مع الحياة، وارتفاع العامية ارتفاعًا يتماشى كذلك مع الحياة، حتى تلتقي اللغتان في مرحلة هي التي نصبو إليها.^(٩١)

ويحتج أبو القاسم قدوري في رأيه بالاهتمام بالعامية لما فيها من تاريخنا اللغوي والأدبي،^(٩٢) إن الاستعمار أدى لإبعادنا عن لغتنا العربية الفصحى فغدت صعبة الممارسة على ألسنتنا بعد الاستقلال، لذا ظهرت أصوات تنادي بالاهتمام بالدارجة واللهجات العامية بحكم سهولتها، وقد ورد في مقال بتوقيع خروبي شريف عمر بتاريخ ٠١-٠٩-١٩٦٥ بأن الاستعمار منع تدريس اللغة العربية الفصحى في المدارس الرسمية للناس وقرر معاقبة كل من يحاول تعليمها، وأباح اختيار لغة لم تكن فصيحة أصيلة بل كانت عامية محلية ولعل قصده من هذا هو كسر- شوكة اللغة الفصحى وذلك لأنه يرى الخطورة الكامنة فيها، ويعتقد بأن شخصية الجزائر العربية ستبقى ما بقيت لغة التنزيل.^(٩٣)

كما نجد من الدعوات لصالح العامية ما نقلته الجريدة بتاريخ ٠٣-٠٨-١٩٦٣ عن جريدة "لاديبش" (la Dépêche) حيث كتبت: «نشرت جريدة "لاديبش" مقالاً لأحد الأساتذة الجزائريين طالب بتعليم اللغة العامية في مدارسنا، وقال بأنها ستصبح لغة رسمية مثلما كان شأن الفرنسية والإسبانية والإيطالية التي كانت في بداية القرون الوسطى لهجات محلية ثم أصبحت على مر الزمان لغات رسمية، وإن مصير اللغة العربية الفصحى سيكون مثل اللاتينية، ولذا يجب أن نعتني بهذه اللغة المحلية التي هي لغة الشارع والتعامل بين الناس»^(٩٤)، وقد علق الأستاذ عبد المالك مرتاض على هؤلاء في العدد الرابع من دراسته بقوله: «هناك طائفة من الناس المتعلمين، وطائفة من المستشرقين بنوع خاص يبيتون للعربية الشر ويكيدون لها الكيد، بدعوى الإحياء والتجديد والتطور والتبسيط، يريد منا هؤلاء أن نغير لغة بنحوها، وصرفها، وأسلوب تركيبها، وتاريخها، ثم نغمس في هذه الدارجة المتفشية التي كانت نتيجة جهل الشعوب العربية لما أصابها من أهوال الاستعمار الهائلة».^(٩٥)

كما نقلت الجريدة عن مجلة لاتر فرونسا "lettres françaises" في عددها الصادر في شهر فيفري ١٩٦٣ دعوة كاتب ياسين^(٩٦) إلى تعلم اللهجات المحلية وسماها باللغات الإقليمية، ومتعلمها يجب ألا يوصم بالإقليمية أو الوطنية

أن نسترجع قوميتنا العربية بعد أن حاول الاستعمار إبادة، وفي ذلك شرف لنا وإكبار لشخصيتنا».^(٩٦) وبين المقال نفسه أن الفرنسيين لم يتحدثوا العربية طول وجودهم فوق أرضنا، ليس عجزاً منهم على تعلمها، وإنما محافظة على شرفهم ولغتهم، فكيف نحن نتخلى عن هذا الشرف مع أننا أمة تتصف بالعزة والشهامة، وليس معنى هذا أننا ضد الفرنسية أو أي لغة أجنبية أخرى، لكن ليس معنى تعلمها أن نجعل منها لغة الشارع والمنزل، فإن هذا يعتبر من الخيانة للقومية والأمل.^(٩٧)

وقد فتحت الجريدة صفحاتها لمشاركات القراء بأرائهم في مختلف القضايا المطروحة، ومنها ما تطرق لموضوع التعريب واعتبر استمرار التحدث بالفرنسية بمثابة الخيانة لتضحيات الجزائريين في سبيل الاستقلال فقد نشرت الجريدة مشاركة لأحد القراء بدون توقيع بعنوان "استعمال اللسان الفرنسي خيانة لدم الشهداء" ورد فيها بأن المسؤولين يخاطبون الشعب بالفرنسية، ومع ذلك يتكلمون عن التعريب فهذه مراوغة وتضليل، وهم بمقدورهم التكلم بالدرجة ثم التدرج على العربية لو كانوا حقاً يشعرون بقوميتهم ويؤمنون بلغتهم العربية، إن الاستمرار في هذه المراوغة هو خيانة لتضحيات الشهداء.^(٩٨) وتضيف الجريدة في نفس المقال الصادر في ١٠-٠٨-١٩٦٤ بأننا لو تمادينا في تعليم أطفالنا باللغة الأجنبية نكون قد حققنا ما عجز عنه الاستعمار الفرنسي طيلة قرن وربع، وخلقنا أجيالاً مثقفة ثقافة أجنبية.^(٩٩) فالاستقلال يستلزم قطع الصلة بالاستعمار وكل مخلقاته، والتمتع بكل ما تقتضيه السيادة من أبعاد ثقافية واقتصادية، والتعريب أهم هذه الأبعاد، وكان على الجزائريين العمل على إنجاحه لتصحيح أوضاعنا الثقافية كجزء من معركة التحرير، لذلك فمعركة التعريب والبناء لا تقل أهمية عن معركة التحرير والاستقلال، وإذا أردنا أن نستأصل الداء من جذوره ونعيد طابعنا العربي الأصيل بالاسم والرسم يجب أن يقتزن القول بالفعل.^(١٠٠)

إن بقاء اللغة العربية مبعدة بعد الاستقلال مثل وضعاً غريباً طالب أنصار التعريب بإلغائه لإعطاء الاستقلال معنى شاملاً فقد أكد تركي رايح في مقال له بتاريخ ٣٠-٠٤-١٩٦٤ بأن الجزائر إذا كانت قد حطمت نهائياً سيطرة الاستعمار السياسية والعسكرية التي فرضت عليها بالقوة قرناً وثلاثين عاماً، فإنها لا يمكن أن ترضى ببقاء سيطرة الاستعمار الثقافي عليها.^(١٠١) واستمر تركي رايح يكتب عن موضوع الاستقلال الثقافي حيث اعتبر في مقال له بتاريخ ٢٥-٠٦-١٩٦٤ بأنه ليس من المعقول أن تبقى السيادة للغة الفرنسية في البلاد في عهد الاستقلال كما كانت لها هذه السيادة من قبل في عهد الاحتلال، مع ما يستتبع ذلك من آثار ثقافية وفكرية خطيرة على مستقبل أجيالنا.^(١٠٢) وقد اعتبر محمد الميلي التعريب بُعداً من أبعاد الثورة وخطوة هامة في طريق تحقيق الاستقلال الكامل، حيث كتب في العدد الصادر بتاريخ ١٨-٠٥-١٩٦٣ بأن القضاء على الاستعمار المباشر كان خطوة هامة في تحقيق التعريب، وأضاف بأن الدعوة إلى التعريب ليست دعوة عنصرية، وليست دعوة رجعية، إنها دعوة تقدمية

للتقاليد القومية والدينية.^(٩٠) وفي مقال صادر بتاريخ ٠١-٠٤-١٩٦٤ اقترح محمد عبد الرحيم توجيه الطفل الذي يدخل المدرسة توجيهاً عربياً خالصاً قبل أن تبلور نفسيته، وتأخذ صبغتها الأخيرة.^(٩١) وفي المقال نفسه راح الكاتب لأبعد من ذلك وقال أن الحل لمشكلة ازدواجية هو إلغاء التعليم الفرنسي- لكل صف جديد يدخل المدرسة حديثاً طيلة المرحلة الابتدائية، لأننا إذا منعنا التدريس الفرنسي- في كل صف جديد نضمن تعريب الابتدائي بعد ست سنوات، ويكون الطالب حافظاً حفاظاً كلياً على شخصيته العربية، وتبلورت نفسه تبلوراً عربياً، وانطلق لسانه منطقاً عربياً وسلم من عملية الازدواجية الخطرة، وإن كانت المشكلة من قلة المعلمين بالعربية فالواقع أن المعلم مستعار إن كان فرنسياً أو عربياً من البلدان الشقيقة العربية، فأفضل شيء أن يكون مستعاراً من الدول العربية.^(٩٢) فإفراد اللغة العربية في التعليم وجعلها لغة التخاطب والإدارة يوحد المجتمع فكرياً ويخلق انسجاماً في تطوره، عكس الازدواجية التي غالباً ما تؤدي دور التقسيم بين أفراد المجتمع، وقد عبر تركي رايح عن هذا في مقال له بتاريخ ٢٥-٠٦-١٩٦٤ بقوله: «أن التعريب يؤدي إلى خلق جيل متكامل في كل مواهبه الفكرية والعقلية والعاطفية والوجدانية، وهذا عندما يصبح التعليم وتصبح الثقافة وكل وسائل الفكر في البلاد باللغة العربية وحدها».^(٩٣)

٤/٤- التعريب تعبير عن السيادة

إن التعريب في الجزائر يرمي إلى إزالة آثار الاغتصاب اللغوي الذي قام به الاستعمار من خلال إعطائه مكانة متفوقة للغة الفرنسية مقابل إبعاد اللغة العربية، لذلك كان التعريب الوجه الثقافي للاستقلال والمكمل له، لأن بقاء الفرنسية يعتبر من مخلفات الاستعمار، فالسيادة تتطلب الاهتمام باللغة الوطنية من خلال تعميم استخدامها في شتى نواحي الحياة وحمايتها من التشويه الذي ينجم عن إهمالها أو غزو كلمات دخيلة عليها. فجميع الدول تحرص على سيادتها اللغوية التي تجسد كرامتها، وقد ضرب لنا سليمان بورنان مثلاً عن السيادة اللغوية من خلال ما كتبه في ٠٣-١٠-١٩٦٤ بأن الفرنسية عانت من غزو المفردات الأجنبية الإنجليزية حتى أصبحت تنازعها السيادة في فرنسا ذاتها، الأمر الذي جعل أحد أساتذة اللغات المقارنة في جامعة باريس يقترح اعتبار تسلل الكلمات الإنجليزية إلى اللغة الفرنسية جريمة وخيانة يعاقب مرتكبوها والمشجعون عليها كما يعاقب المجرمون والخونة^(٩٤)، فهذا موقف يدل أن اللغة القومية رمز من رموز السيادة ومزاحمتها بلغة أخرى يعتبر انتقاصاً للكرامة وإهانة للأمة، ولهذا فأنصار اللغة العربية يعتبرونها من مقتضيات السيادة التامة التي تبقى ناقصة في ظل استمرار الفرنسية بعد الاستقلال، وفي هذا الصدد نقلت الجريدة مقالاً بدون توقيع صادر يوم ٠٨-٠١-١٩٦٤ اعتبر أن الأمة لا تكون كاملة السيادة إلا إذا كانت مستقلة ثقافياً، سياسياً واقتصادياً.^(٩٥) وقد نقلت الجريدة مواقف أعطت الاهتمام باللغة القومية منزلة الحرص على الشرف، منها مقال بتاريخ ٠٣-١٠-١٩٦٤ الذي جاء فيه: «ونحن الآن تحت ظل الحرية والاستقلال، واجب علينا

الهوامش:

- (١) أول جريدة يومية ناطقة باللغة العربية بعد الاستقلال، صدر العدد الأول منها يوم الثلاثاء ١١ ديسمبر ١٩٦٢ الموافق لـ ١٤ رجب ١٣٨٢ هـ أسستها نخبة متخرجة من المشرق العربي وأول رئيس تحرير لها هو محمد الميلي، لا تزال تصدر لغاية اليوم.
- (٢) الأخضر بن عمر: «المسؤولية على الشعب ثم على الحكومة»، الشعب، ٤١، ع، (١٩٦٣-٠١-٢٦)، ص ٣.
- (٣) توكي رابح: «لكي تنجح معركة التعريب»، الشعب، ع، ١٤٦، (١٩٦٣-٠١-٠٦)، ص ٦.
- (٤) محمد عبد الرحيم: «مشكلة اللغة العربية في الجزائر»، الشعب، ع، ٤٠٩، (١٩٦٤-٠٤-٠١)، ص ٥.
- (٥) توكي رابح: «المعركة من أجل التعريب»، الشعب، ع، ٤٥٧، (١٩٦٤-٠٥-٢٨)، ص ٣.
- (٦) المقال نفسه.
- (٧) الشعب: «رد على مقال وجهة نظر في التعريب»، ع، ٧٩٩، (١٩٦٥-٠٣-٠٦)، ص ٤.
- (٨) الشعب: «العرب والعروبة والاستعمار»، ع، ١٥، (١٩٦٢-١٢-٢٧)، ص ٤.
- (٩) يحي بوعزيز: «مأساة تاريخ الجزائر وطرق علاجها»، الشعب، ع، ٤١، (١٩٦٣-٠١-٢٦)، ص ٣.
- (١٠) علي بدور: «القومية والثورية في الفكر العربي»، الشعب، ع، ٣٧٠، (١٩٦٤-٠٢-١٤)، ص ٤.
- (١١) مؤتمر المعلمين العرب يضم المعلمين العرب من جميع أنحاء الوطن العربي لدراسة أوضاع التعليم العربي، وقد انعقد أول مؤتمر للمعلمين العرب في شهر أوت ١٩٥٦ بمصر وقد شاركت في الجزائر الثورية بوفد من خمسة أعضاء من جبهة التحرير الوطني بالقاهرة وتطرق لوضعية التعليم في الجزائر وسياسة الإدارة الاستعمارية وقدم الضمانات للجزائريين الراغبين في الدراسة بأي قطر عربي وأوصى بالتعريف بالثورة الجزائرية لدى أبناء الأمة العربية، وانعقد المؤتمر الثاني ببلنات سنة ١٩٦١. (الشعب، ع، ٢٠١، (١٩٦٣-٠٨-٠٥)، ص ٦.
- (١٢) الشعب: «توصيات المؤتمر الثالث للمعلمين العرب»، ع، ٢٠٨، (١٩٦٣-٠٨-١٣)، ص ٣.
- (١٣) المقال نفسه.
- (١٤) ابن العربي: «مشكلة اللغة العربية في الجزائر»، الشعب، ع، ١١، (١٩٦٢-١٢-٢٢)، ص ٤.
- (١٥) الشعب: «تقرير من مكتب الجامعة العربية الدائم للتعريب»، ع، ٢٦٢، (١٩٦٣-١٠-١٢)، ص ٦.
- (١٦) انبثق عن مؤتمر التعريب الذي عقدته جامعة الدول العربية في الرباط في الفترة ما بين (٠٣ و ٠٧ أبريل ١٩٦١) للنظر في تنسيق جهود التعريب في العالم العربي، وتوحيد المصطلحات المعربة في الأقطار العربية وتطهير اللغة العربية الفصحى من الكلمات الدخيلة، وتقرر أن يكون مقر المكتب بالرباط. (الشعب: نبذة عن مكتب التعريب بالرباط، ع، ٢١٣، ١٩٦٣-٠٨-٠٦)، ص ٦.
- (١٧) المقال نفسه.
- (١٨) الأمين عبد العزيز: «لنخلق مظهرا عربيا في بلادنا»، الشعب، ع، ٣٧٣، (١٩٦٤-٠٢-١٩)، ص ٤.
- (١٩) توكي رابح: «من معاركنا العاجلة: معركة التعريب. محو الأمية.. وخلق ثقافة عربية ثورية»، الشعب، ع، ٤٣٤، (١٩٦٤-٠٤-٣٠)، ص ٣.

يجب أن تتجند من أجلها الطليعة الثورية الجزائرية سواء كانت مثقفة بالعربية أو بالفرنسية.^(١٠٣)

ونقلت الجريدة في نفس العدد مقالاً نشر- في مجلة "النقد الحديث" باللغة الفرنسية في شهر مارس ١٩٦٢ حول دور اللغة القومية في تعزيز الاستقلال من خلال التجربة الفيتنامية التي نجحت في جعل اللغة الفيتنامية لغة التعليم وكل الميادين العلمية والاجتماعية بعد ما كانت اللغة الفرنسية هي اللغة الرسمية في البلاد، وهذا كحجة على السنة الذين يقاومون التعريب في الجزائر.^(١٠٤) إن استمرار اللغة الفرنسية في الجزائر المستقلة ينقص من مفهوم السيادة، فالاستعمار فرض الفرنسية علينا بالقوة على حساب العربية، فكيف بنا إذا أزلنا هذا الاستعمار أبقينا على أحد أوجهه الخطيرة على مستقبل أجيالنا وهي لغته.^(١٠٥) ونجد أن جريدة المجاهد الأسبوعي ساندت جريدة الشعب في موقفها من بقاء اللغة الفرنسية في الجزائر بعد الاستقلال فكتبت بتاريخ ٢١-٠٣-١٩٦٣: «ما دامت اللغة الفرنسية باقية كأداة التعبير والتخاطب بالجزائر فإن استقلالنا سيبقى ناقصاً، إن معركة أخطر من المعارك المسلحة تنتظر النخبة الجزائرية المخلصة وأجهزة الثقافة في جميع أجزاء الوطن العربي من أجل تطهير الجزائر من ظاهرة الحضور الفرنسي-الثقافي»^(١٠٦)، فالتعريب هو تأكيد للسيادة الكاملة في حرية الاختيارات وتثبيت اللسان العربي في بلد عربي، كما تأكيد لانتصارنا على الاستعمار في كل مظهره.

خاتمة

من خلال هذه الدراسة نلمس حراكاً فكرياً في مسألة الهوية نشطته النخبة المعربة المتخرجة من المشرق العربي، لمحاولة ترميم مكونات الشخصية الجزائرية وإعادة بنائها بعناصرها الرئيسية خاصة اللغة العربية لدمجها في محيطها العربي بحكم زوال الاستعمار، فجاءت مقالاتها في جريدة الشعب دفاعاً عن التعريب كضرورة حتمية للاستقلال ورداً على التيار الفرانكفوني المتخارج من المدارس الفرنسية الذي يسيطر على الإدارة الجزائرية ودافع عن اللغة الفرنسية وأيد استمرارها كوسيلة ثقافة وعلم، ومن هنا يظهر التأثير الذي خلفه الاستعمار الفرنسي في الجزائر ثقافياً من خلال تكوينه لفئة تدافع عن امتداده اللغوي وما يرتبط به من مصالح اقتصادية واستراتيجية، والملاحظ أن الصراع اللغوي في الجزائر لم ينته خلال الفترة المحددة في هذا البحث بل استمر لأكثر من عقد ونصف على صفحات جريدة الشعب وما يزال إلى اليوم من خلال وصول فئة كبيرة من الفرانكفونيين إلى دواليب السلطة في الجزائر خاصة قطاع التربية أين تتم عملية محاربة اللغة العربية وتهميشها رغم أنها اللغة الرسمية في البلاد.

١٩٥٧ وسجن ببربروس وحكم عليه بالمؤبد ثم الإعدام وبقي خمس سنوات متنقلاً بين سجون سركاجي، الحراش، البرواقية وسجون فرنسا، أطلق سراحه في أبريل ١٩٦٢ من سجن ببربروس، عُيّن نائباً بالمجلس التأسيسي الجزائري وعضو قيادي في اتحادية الجزائر لجهة التحرير الوطني، وزير التربية والتعليم (١٩٦٢-١٩٦٣) أسس للمدرسة الجزائرية، ثم عُيّن مدير عام لمؤسسة مواد البناء، توفي سنة ٢٠١٠.

(٤٠) الشعب: «ابن حميدة يضبط حدود المعركة الثقافية التي تخوضها الجزائر»، ع، ١٤١، (١٩٦٣-٠٥-٢٧)، ص٤.

(٤١) تركي رابح: الشعب، ع، ٤٣٤، (١٩٦٤-٠٤-٣٠)، ص٣.

(٤٢) أحمد أحمد: «مكانة العربية بين اللغات»، الشعب، ع، ٧٩٤، (٠٦-٠١-١٩٦٥)، ص٤.

(٤٣) سليمان بورنان: «الثقافة العربية وأزمة الجيل الحاضر»، الشعب، ع، ٣٢٨، (١٩٦٣-١٢-٢٧)، ص٤.

(٤٤) (١٩٣٧-١٨٨١) كاتب عربي مصري من أصل لبناني، متعلق بالتراث القديم من كتبه: تاريخ أدب العرب، إعجاز القرآن والبلغة النبوية، حديث القمر، المساكين، أوراق الورد. (منير البعلبكي: معجم أعلام المورد، ط١، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٩٢، ص٢٠٣).

(٤٥) أبو علي الحسين (٢٧٠-٤٢٨ هـ/ ٩٨٠-١٠٣٧ م) فيلسوف وطبيب عربي، يسمى بالشيخ الرئيس، اعتبر منظم الفلسفة والعلم في الإسلام كما كان أرسطو في اليونان، تجاوزت مصنفاته المائة، أشهرها كتاب القانون في الطب الذي نقل إلى اللاتينية، وظل يدرس في معاهد الطب الأوروبية حتى القرن السابع عشر، اشتمل على قسم خاص يبحث في نحو سبعمائة وستين من العقاقير والأدوية، كما برع في الشعر وله قصيدة مشهورة في النفس. (منير البعلبكي: معجم أعلام المورد، ط١، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٩٢، ص٢٧).

(٤٦) عبد المالك مرتاض: الشعب، ع، ٤٧٦، (١٩٦٤-٠٦-١٩)، ص٤.

(٤٧) مستشرق ألمانية وزوجة المستشرق شولتز، كتابها "شمس العرب تسطع على الغرب" ثمرة جهود سنين من البحث والدراسة، صدرت طبعته الأولى عام ١٩٦٤ وطبعته العاشرة ٢٠٠٢ عن دار آفاق جديدة، بيروت، لبنان.

(٤٨) (١٤٢٣-١٤٨٣) ملك فرنسا من ١٤٦١ إلى ١٤٨٣، من أسرة les valois عمل على تقوية فرنسا وتوحيدها بعد حرب الأعوام الممثلة، كسر شوكة النبلاء وأرسى دعائم الملكية المطلقة. (منير البعلبكي: معجم أعلام المورد، ط١، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٩٢، ص٣٩٤).

(٤٩) (٢٥٠-٣٢١ هـ/ ٨٦٠-٩٢٣ م) أبو بكر محمد بن زكريا الرازي من علماء القرن الثالث الهجري، ولد بمدينة الري جنوب طهران، أعظم أطباء العرب، صاحب كتاب الحاوي وهو موسوعة اشتملت على معارف العرب الطبية، وله رسالة في الحصبة والجدرى وهي أقدم رسالة في موضوعها، وله الحصى في الكلى والمثانة، دفع مضار الأغذية، برء ساعة، الفائق في الطب، ترجمت كتبه إلى اللاتينية فكانت مرجعاً للمشتغلين بالطب في أوروبا خلال القرون الوسطى. (منير البعلبكي: معجم أعلام المورد، ط١، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٩٢، ص٢٠١-٢٠٢).

(٥٠) عبد المالك مرتاض: المقال السابق.

(٥١) أبو جعفر ابن هارون الترجالي (توفي نحو ٥٧٥ هـ/ ١١٨٩ م) ولد بترجالة بالأندلس وتوفي بإشبيلية، طبيب محقق للعلوم الحكيمة، متميز في صناعة الطب، عالماً بصناعة الكحل، كان من طلبة الفقيه أبي بكر بن العربي واشتغل عليه بعلم الحديث، ترجمه ابن أبي صبيحة في (عيون الأنباء في طبقات الأطباء).

(٥٢) أبو القاسم الزهراوي (توفي بعد عام ٤٠٤ هـ/ ١٠١٣ م) طبيب عربي أندلسي، يُعَدُّ من أعظم الجراحين العرب على الإطلاق، ابتكر آلات

(٢٠) منها: الأعداد ٥١٤ (١٩٦٤-٠٨-٠٨)، ٥٢٠ (١٩٦٤-٠٨-١٥)، ٥٢٦ (١٩٦٤-٠٨-٢٢)، ٥٢٢ (١٩٦٤-٠٨-٢٢).

(٢١) تركي رابح: «المعركة من أجل التعريب، لماذا ندعو إلى تعريب التعليم والثقافة»، الشعب، ع، ٤٥٧، (١٩٦٤-٠٥-٢٨)، ص٣.

(٢٢) ابن العربي: «مشكلة اللغة العربية في الجزائر»، الشعب، ع، ١١، (١٩٦٢-١٢-٢٢)، ص٤.

(٢٣) تركي رابح: «المعركة من أجل التعريب»، الشعب، ع، ٤٨١، (٢٥-٠٦-١٩٦٤)، ص٣.

(٢٤) المقال نفسه.

(٢٥) المجاهد الأسبوعي: «كاتب ياسين وعروبة الجزائر»، ع، ١٥٣، (١٤-٠٣-١٩٦٣)، ص١٢.

(٢٦) فاطمة عبد الله: «العربية لغتنا»، الشعب، ع، ٣٠٦، (١٩٦٣-١٢-٠٢)، ص٤.

(٢٧) أحمد علي الغزالي: «حول مؤتمر المعلمين العرب، التعريب مسؤولية عربية شاملة»، الشعب، ع، ٢٠٦، (١٩٦٣-٠٨-١٠)، ص٣.

(٢٨) من مواليد ١٩١٢ بأيت فرح الأربعة ناثرائن بتيزي وزو، ضابط في الجيش الفرنسي، اشتغل أثناء الحرب العالمية الثانية مع مفتي القدس حاج أمين حسيني، عمل مع الاستخبارات الألمانية، سجن في ١٩٤٣ وحرر في ١٩٥٢، ساعد كريم بلقاسم في الولاية الثالثة، ساهم في مؤتمر الصومام، عضواً إضافياً في المجلس الوطني للثورة الجزائرية، خلف كريم بلقاسم على رأس الولاية الثالثة، عين على رأس أركان جيش التحرير في ١٠-١٠-١٩٥٨، وزير دولة في ١٩٦٠، وفي أزمة صائفة ١٩٦٢ التحق بأحمد بن بلة وكان عضو المكتب السياسي لجماعة وجدة، وزيراً لقدماء المجاهدين ١٩٦٢، نائباً ثانياً للرئيس ١٩٦٣، كلف بالتعريب في ٢٤-٠٤-١٩٦٤، غاب عن الساحة السياسية حتى ١٩٨٨ أين ترشح مع الجبهة الإسلامية للإنقاذ في ١٩٩١، توفي في ٠٦-١٢-١٩٩٤.

(Achour cheurfi: dictionnaire encyclopédie d'Algérie, éditon anep, 2007, P. 836).

(٢٩) الشعب: «محمدي السعيد يتحدث عن التعريب»، ع، ٤٦٤، (٠٥-٠٦-١٩٦٤)، ص٣.

(٣٠) الشعب: «التعريب ضروري لأمة عربية»، الشعب، ع، ٣٣٨، (٠٨-٠١-١٩٦٤)، ص٤.

(٣١) الشعب: «في افتتاح مؤتمر السفراء العرب والوفود العربية»، ع، ١٧٦، (٠٦-٠٧-١٩٦٣)، ص٣.

(٣٢) ابن العربي: «قضايا وآراء، مشكلة الثقافة العربية في الجزائر»، الشعب، ع، ٠٤، (١٤-١٢-١٩٦٢)، ص٦.

(٣٣) المقال نفسه.

(٣٤) الشعب: «توصيات المؤتمر الثالث للمعلمين العرب»، ع، ٢٠٨، (١٣-٠٨-١٩٦٣)، ص٣.

(٣٥) المقال نفسه.

(٣٦) المقال نفسه.

(٣٧) المقال نفسه.

(٣٨) الشعب: «تقرير مكتب الجامعة العربية الدائم للتعريب»، ع، ٣٦٢، (١٢-١٠-١٩٦٣)، ص٦.

(٣٩) ولد في ٢١-١٠-١٩٣١ في مدينة دلس، درس بمدرسة الإصلاح بدلس التابعة لجمعية العلماء المسلمين كما درس في المدارس الفرنسية، انخرط في صفوف الكشافة الإسلامية الجزائرية، انضم إلى صفوف جبهة التحرير الوطني في فيفري ١٩٥٥ بالعاصمة وتقلد عدة مسؤوليات سياسية وعسكرية، عضو مؤسس للاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين الذي عقد مؤتمره التأسيسي بباريس في صيف ١٩٥٥، ألقي عليه القبض من قبل السلطات الاستعمارية في أكتوبر

- (٦٧) تركي رابح: «من معاركنا العاجلة، معركة التعريب.. ومحو الأمية.. وخلق ثقافة عربية ثورية»، الشعب، ع، ٤٣٤، (١٩٦٤-٠٤-٣٠)، ص ٣
- (٦٨) سليمان بورنان: المقال السابق.
- (٦٩) أحمد علي الغزالي: «الرواسب الفكرية، التشويه الحضاري»، الشعب، ع، ١٧، (١٩٦٢-١٢-٢٩)، ص ٤
- (٧٠) أحمد علي الغزالي: «اللغة العربية يفرضها الواقع الجزائري»، الشعب، ع، ١٦٤، (١٩٦٣-٠٦-٢٢)، ص ٣
- (٧١) محمد بن الشريف: «شخصية الجزائر العربية»، الشعب، ع، ٣٤٦، (١٩٦٤-٠١-١٧)، ص ٤
- (٧٢) الشعب: «أ تجربة أخرى على حساب العربية»، ع، ١٠٣، (١١-٠٤-١٩٦٣)، ص ٤
- (73) El moudjahid: «les problèmes scolaires», n 117, 02-03-1963, p 7.
- (٧٤) من مواليد دوار أولاد بوزيان بسيدي عيسى بالمسيلة في ٠٧-٠٣-١٩١٧، تلقى تعليمًا مزدوجًا، بعد إنهاء الدراسة الابتدائية واصل دراسته ب ثانوية بن عكنون بالعاصمة ثم الثعالبية إلى غاية ١٩٤٠، ثم انتقل إلى فرنسا وواصل دراسته بجامعة السربون بباريس، التحق بالتعليم في مستغانم ثم ب ثانوية لويس لوقرون بباريس، في ١٩٣٩ انخرط في حزب الشعب الجزائري، كان رفقة أحمد بن بلة أثناء اختطاف طائرة زعماء الثورة في ٢٢-١٠-١٩٥٦، شارك في مؤتمر طرابلس ١٩٦٢، شغل مدير تحرير جريدة المجاهد ١٩٦٢، سفير للجزائر بالأرجنتين ١٩٦٥ وكذلك البيرو والمكسيك، وزير التربية بين ١٩٧٧-١٩٧٩ توفي سنة ٢٠٠٨، له عدة مؤلفات منها:
- chonsons des jeunes filles arabes 1953- l'Algérie: nation et société 1965-écrits didactiques sur la culture, l'histoire et la société en Algérie 88.- Algérie et tiers monde: agression, résistances et solidarité intercontinentales 1989. Achour cheurfi: l'encyclopédie maghrébine, casbah édition, Alger, 2007, P. 267- 268.
- (٧٥) سليمان بورنان: «الثقافة العربية وأزمة الجيل الحائر»، الشعب، ع، ٣٤٠، (١٩٦٤-٠١-١٠)، ص ٤.
- (٧٦) عبد الكريم غلاب: «الأدب والغزو الفكري»، الشعب، ع، ١٠٣، (١٢-١١-١٩٦٥)، ص ٤.
- (٧٧) محمد بن الشريف: الشعب، ع، ٣١٦، (١٩٦٣-١٢-١٣)، ص ٤.
- (٧٨) أبو القاسم قدوري: «بين العامية والفصحى»، الشعب، ع، ٣٥٢، (٢٥-٠١-١٩٦٤)، ص ٤.
- (٧٩) المقال نفسه.
- (٨٠) المقال نفسه.
- (٨١) خروبي شريف عمر: «اللغة القومية والاستعمار»، الشعب، ع، ٩٥١، (١٩٦٥-٠٩-٠١)، ص ٤.
- (٨٢) أحمد علي الغزالي: «بين الفصحى والعامية ما هي الجذور التاريخية للدعوة التي ظهرت في جريدة لاديبش»، الشعب، ع، ٢٠٠، (٠٣-٠٨-١٩٦٣)، ص ٣.
- (٨٣) عبد المالك مرتاض: «دور الثقافة العربية في بناء الحضارة الإنسانية»، الشعب، ع، ٥٠٧، (١٩٦٤-٠٧-٢٤)، ص ٤
- (٨٤) من مواليد السمندو بقسنطينة في ٠٢ أوت ١٩٢٧، درس في المدرسة القرآنية ثم المدرسة الفرنسية ثم ب ثانوية سطيف، شارك في أحداث الثامن ماي ١٩٤٥ واعتقل ثم فصل من الثانوية، في ١٩٤٧ ذهب لباريس و انخرط في الحزب الشيوعي الجزائري عاد للجزائر وعمل صحفياً بين ٤٩ - ١٩٥١ بجريدة Alger républicain ، ثم عمل بالمرافق بالعاصمة ثم استقر بفرنسا إلى غاية ١٩٥٩ حيث غادرها بعد مضايقة مديرية مراقبة الإقليم وعاش متنقلاً بين بلجيكا، ألمانيا،

- جراحية مختلفة وألف كتاب "التصريف لمن عجز عن التأليف"، وهو كتاب جامع لأبواب الطب كلها، ظل طوال خمسمائة سنة عمدة المشتغلين بالجراحة في أوروبا، وقد تكلم الزهراوي فيه عن جراحة العين، الأذن، الأنف، الفتق وعن تفتت الحصى في المثانة، وعن تعقيم الجراح وتشريح الأجسام ميتة وحية، وضمن بعض فصوله رسوماً لآلات جراحية يزيد عددها عن مئتين. (منير البعلبكي: معجم أعلام المورد، ط ١، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٩٢، ص ٢٢٣).
- (٥٣) عبد المالك مرتاض: «دور الثقافة العربية في بناء الحضارة الإنسانية»، الشعب، ع، ٤٨٣، (١٩٦٤-٠٦-٢٦)، ص ٤.
- (٥٤) عبد المالك مرتاض: «دور الثقافة العربية في بناء الحضارة الإنسانية»، الشعب، ع، ٤٨٩، (١٩٦٤-٠٧-٠٣)، ص ٤.
- (٥٥) أحمد علي الغزالي: «العربية ضحيتنا ولسنا نحن ضحاياها»، الشعب، ع، ٢٩، (١٩٦٣-٠١-١٢)، ص ٤.
- (٥٦) عبد المالك مرتاض: «دور الثقافة العربية في بناء الحضارة الإنسانية»، الشعب، ع، ٤٨٩، (١٩٦٤-٠٧-٠٣)، ص ٤.
- (٥٧) عبد المالك مرتاض: «دور الثقافة العربية في بناء الحضارة الإنسانية»، الشعب، ع، ٥٠٧، (١٩٦٤-٠٧-٢٤)، ص ٤.
- (٥٨) أبو علي محمد بن الحسن بن الهيثم ولد بالبصرة في ٣٥٤ هـ/ ٩٦٥ عمل كاتباً لبعض لولاء البصرة، درس العلوم والفلسفة والهندسة، من مؤلفاته: كتاب في تحليل المسائل العددية كتاب في الأشكال الهلالية، كتاب في مسألة التلاقي، كتاب استخراج خط نصف النهار بظل واحد، كتاب صورة الكسوف، وغيرها بالإضافة إلى عديد المقالات والرسائل في الضوء والمرآيا والظلال والحساب والتكريب، كما له تشرية للعين ورسم دقيق لطبقاتها، توفي بمصر في ٤٣٠ هـ/ ١٠٣٩ م. (الشعب: ع، ٣٩٩، (١٩٦٤-١٢-٢٥)، ص ٤).
- (٥٩) الشعب: «اللغة العربية والعلوم الحديثة»، ع، ٢١٢، (١٩٦٣-٠٨-١٧)، ص ٦.
- (٦٠) الشعب: «الشعب راية تحمل أحرقاً عربية»، ع، ٠١، (١٩٦٣-١٢-١١)، ص ٦.
- (٦١) تركي رابح: «المعركة من أجل التعريب»، الشعب، ع، ٤٨١، (٢٥-٠٦-١٩٦٤)، ص ٣
- (٦٢) ولد بقسنطينة في ٠٥-٠٧-١٩٢٧، درس بها الابتدائي والثانوي، سافر إلى فرنسا ودرس القانون بجامعة إيكس، بدأ نشاطه الأدبي بنظم الشعر ثم الرواية، أثرت عليه أحداث الثامن ماي ١٩٤٥ واعتبرها بمائة ألف جريمة، منذ ١٩٦١ توقف عن الكتابة بالفرنسية معتبراً إياها منفاً، تولى إدارة الثقافة بوزارة الأخبار في الستينات، أشرف على الصفحة الأدبية في جريدة النصر الصادرة في قسنطينة بين ١٩٦٨ و ١٩٧٢، توفي بالجزائر في جوان ١٩٧٨، ترك عدة أعمال أدبية ترجمت إلى اللغة العربية منها الروايات: الانطباع الأخير ١٩٥٨، ساهبك غزالة ١٩٥٩، التلميذ والدرس ١٩٦٠، رصيف الأزهار لم يعد يجيب، وله في الشعر: الشقاء في خطر، اسمع أناديك، وله كتاب بعنوان " الحرية ومأساة التعبير لدى كتاب الجزائر ١٩٦٠". (أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي ١٩٦٢-٥٤، ج ١٠، دار البصائر، الجزائر، ٢٠٠٧، ص ١٨٣، ١٨٢)
- (٦٣) سليمان بورنان: «الثقافة العربية وأزمة الجيل الحائر»، الشعب، ع، ٣٢٨، (١٩٦٣-١٢-٢٧)، ص ٤.
- (٦٤) المقال نفسه.
- (٦٥) محمد بن الشريف: الشعب، ع، ٣١٦، (١٩٦٣-١٢-١٣)، ص ٤.
- (٦٦) تركي رابح: «على هامش التعريب...مناقشة...وتوضيح»، الشعب، ع، ٧٧٠، (١٩٦٥-٠١-٣٠)، ص ٤.

(١٠٦) المجاهد الأسبوعي: «كاتب ياسين وعروبة الجزائر»، ع، ١٥٤، (٢١-١٩٦٣)، ص ١٢.

إيطاليا، يوغسلافيا والاتحاد السوفياتي، في سنة ١٩٦٢ عاد للجزائر واستأنف عمله في جريدة Alger républicain ، في ١٩٧٠ بدأ العمل في المسرح الشعبي الملحمي الهجائي باللغة الدارجة، توفي بفرنسا في ٢٨-١٠-١٩٨٩، اشتهر برواية نجمة التي نشرت بفرنسا سنة ١٩٥٦، وله رواية أخرى "المضلع المرصع بالنجوم ١٩٦٦ نشرت بفرنسا أيضا، كما له عدة عروض مسرحية منها: محمد خذ حقيبتك ١٩٧١، صوت النساء ١٩٧٢، حرب الألفي عام ١٩٧٤، ملك الغرب ١٩٧٥، فلسطين المغدورة ١٩٧٧، (الوكالة الجزائرية للإشراق الثقافي: كاتب ياسين، ١٧/١٣ ديسمبر ٢٠٠٩)

(٨٥) الشعب: «الجزائر في نظر كاتب ياسين»، ع، ١١٢، (٢٢-٠٤-١٩٦٣)، ص ٦

(٨٦) محمد عبد الرحيم: «بين العامية والفصحى»، الشعب، ع، ٣٦٥، (٨-٠٢-١٩٦٤)، ص ٤

(٨٧) الشعب: «مؤتمر المعلمين العرب يدرس طرق ووسائل تعريب التعليم»، ع، ٢٠٧، (١٢-٠٨-١٩٦٣)، ص ٣

(٨٨) الشعب: منها الأعداد ٥٠٨ (٢٥-٠٧-١٩٦٤)، ٥١٤ (٠١-٠٨-١٩٦٤)، ٥٢٠ (٠٨-٠٨-١٩٦٤)، ٥٢٦ (١٥-٠٨-١٩٦٤)

(٨٩) تركي رابح: «المعركة من أجل التعريب»، الشعب، ع، ٤٨١، (٢٥-٠٦-١٩٦٤)، ص ٣

(٩٠) الشعب: «التعريب أمر ضروري لأمة عربية»، ع، ٣٣٨، (٠٨-٠١-١٩٦٤)، ص ٤

(٩١) محمد عبد الرحيم: «مشكلة اللغة العربية في الجزائر»، الشعب، ع، ٤٠٩، (٠١-٠٤-١٩٦٤)، ص ٤

(٩٢) المقال نفسه.

(٩٣) تركي رابح: «المعركة من أجل التعريب»، الشعب، ع، ٤٨١، (٢٥-٠٦-١٩٦٤)، ص ٣

(٩٤) سليمان بورنان: «الثقافة العربية وأزمة الجيل الحاضر»، الشعب، ع، ٣٣٤، (٠٣-٠١-١٩٦٤)، ص ٤

(٩٥) الشعب: «التعريب أمر ضروري لأمة عربية»، ع، ٣٣٨، (٠٨-٠١-١٩٦٤)، ص ٤

(٩٦) صالح عجروود: «اهتمامنا باللغة العربية معناه حرص على شرفنا»، الشعب، ع، ٥٦٨، (٠٣-١٠-١٩٦٤)، ص ٤

(٩٧) المقال نفسه

(٩٨) الشعب: ع، ٢٩، (١٢-٠١-١٩٦٣)، ص ٢

(٩٩) الشعب: «التعريب أمر ضروري لأمة عربية»، ع، ٣٣٨، (٠٨-٠١-١٩٦٤)، ص ٤

(١٠٠) محمد عبد الرحيم: المقال السابق.

(١٠١) تركي رابح: «من معاركنا العاجلة، معركة التعريب. ومحو الأمية. وخلق ثقافة عربية ثورية»، الشعب، ع، ٤٣٤، (٣٠-٠٤-١٩٦٤)، ص ٣.

(١٠٢) تركي رابح: «المعركة من أجل التعريب»، الشعب، ع، ٤٨١، (٢٥-٠٦-١٩٦٤)، ص ٣

(١٠٣) محمد الميلي: «المعركة من أجل التعريب جزء من الثورة»، الشعب، ع، ١٣٤، (١٨-٠٥-١٩٦٣)، ص ٦.

(١٠٤) الشعب: «استعمال اللغة القومية سلاح فعال لتعزيز الاستقلال»، ع، ١٣٤، (١٨-٠٥-١٩٦٣)، ص ٦.

(١٠٥) وفي هذا قال المرحوم الدكتور أبو القاسم سعد الله "فالفرنسيون وصفوا لغتهم أثناء الاحتلال بأنها لغة سيادة لغة منتصر، فبأي حق تستمر سيادتها في الجزائر المستقلة ونحن المنتصرون" (أبو القاسم سعد الله: في الجدل الثقافي، ط ٢، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ٢٠٠٥، ص ١٤٢).

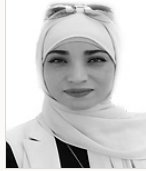
العلاقات الجزائرية – التركية بين الإرث التاريخي والتحديات الراهنة

د. حنان رزايقية

أستاذة مؤقتة - جامعة البليدة (٢)

دكتورة علوم سياسية - جامعة الجزائر (٣)

الجمهورية الجزائرية



ملخص

تتميز العلاقة الجزائرية-التركية بكونها علاقة لها جذور تاريخية عريقة امتدت عبر العصور، لذلك فالباحث يسعى من خلال هذه الورقة البحثية، إلقاء الضوء على طبيعة العلاقة بين البلدين منذ بداية تشكلها، خلال فتراتها المختلفة، بدايةً بارتباطها بالإمبراطورية العثمانية، مروراً بفترة الاستعمار الفرنسي للجزائر، ووصولاً للفترة الراهنة التي عرفت نوعاً من التغيير في هذه العلاقة. إن البحث في العلاقة الجزائرية-التركية، تكشف عن مجموعة من التغيرات التي حكمت هذه العلاقة، حيث انتقلت من علاقة ديناميكية أيام الإمبراطورية العثمانية بمختلف جوانبها الإيجابية والسلبية، إلى علاقة شبه جامدة أو منعدمة إبان الاستعمار الفرنسي، لتعود لها الحيوية أثناء الفترة الراهنة. لقد توصلت هذه الدراسة إلى مجموعة من النتائج التي تؤكد على أن العلاقة الجزائرية-التركية في موروثة التاريخي لم تكن علاقة استعمارية مبنية على السيطرة والهيمنة، حيث مثلت الجزائر بالنسبة لتركيا بمثابة حليف استراتيجي أكثر منها مستعمرة، أما في الوقت الراهن فهي علاقة تصالحية، تهدف لتحقيق تحالف استراتيجي يخدم مصالح الطرفين. تم الاعتماد على المنهج التاريخي باعتباره منهج يتيح للباحث فرصة الحصول على معلومات عن طريق الماضي بقصد فهم وتحليل القضايا الحاضرة، انطلاقاً من اعتبار الحاضر كامتداد للماضي، فمن أجل دراسة العلاقات الجزائرية-التركية وتتبع مسارها كان لابد من تفكيك هذه العلاقة عبر العودة للموروث التاريخي بين البلدين.

كلمات مفتاحية:

التوجه الاستراتيجي، العلاقات، الجزائر، تركيا، إفريقيا، الإمبراطورية العثمانية

بيانات المقال:

تاريخ استلام المقال: ١٢ فبراير ٢٠١٦
تاريخ قبول النشر: ١٧ مايو ٢٠١٦

DOI 10.12816/0052953

معرف الوثيقة الرقمي:

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

حنان رزايقية، "العلاقات الجزائرية – التركية بين الإرث التاريخي والتحديات الراهنة"، دورية كان التاريخية، السنة الحادية عشرة - العدد الأربعون، يونيو ٢٠١٨، ص ١٧٢ - ١٧٩.

مقدمة

الأخرى، إلا أن هذه الرابطة الجزائرية العثمانية تلاشت بمجيء الاستعمار الفرنسي، لتعود هذه العلاقة من جديد في الفترة الراهنة وفقاً لمعطيات وعوامل تحركها مصالح البلدين، بناءً على ما تقدم سيتم معالجة إشكالية رئيسة في هذا الموضوع تم صياغتها في التساؤل المركزي التالي: إلى أي مدى يمكن اعتبار الرابط التاريخي عامل مهم لتوجيه العلاقات الجزائرية التركية في الفترة الراهنة؟

تتمثل أهم الأهداف الكامنة وراء إجراء هذه الدراسة، في سعي الباحث لتوضيح بعض محددات العلاقة الجزائرية-التركية في أبعادها الماضية والحاضرة والمستقبلية، بغية الوقوف عند مختلف مضامين هذه العلاقة في الفترة الراهنة، وهو ما يساعد

مرت الدولة الجزائرية كغيرها من دول العالم، بالعديد من الفترات والمراحل التاريخية الحافلة بالأحداث المثيرة للاهتمام، والتي يعتبر التواجد العثماني فيها من بين أهم هذه المراحل، هذا التواجد الذي لم يكن نتيجة معارك حربية خاضتها القوات المسلحة ضد الأهالي، على غرار ما حدث في الشام أو مصر- أو العراق، ولكن كان بناءً على طلب الدولة والسكان لإنقاذهم من خطر الزحف الصليبي الاستعماري الأوروبي وخاصة بعد الهجوم الإسباني، وبالتالي هذه الوضعية جعلت الوجود العثماني في الجزائر يتميز بطبيعة خاصة، تختلف عن وجودها في بقية الدول

العاصمة لكنه لم يتمكن من طرد الإسبان منها، وقام بقتل حاكمها سالم التوممي الثعالبى ليعلن نفسه سلطانا عليها، واستولى الأخوان فيما بعد على مدن المدية ومليانة وتنس ودلس، وبعد انتصار الأخوين على الإسبان في الجزائر (نوفمبر ١٥١٦)، توجه عروج إلى تلمسان سنة ١٥١٧م فدخلها دون مقاومة، إلا أن القوات الإسبانية عاودت الهجوم على تلمسان واستطاعت حينها قتل عروج وجنوده عام ١٥١٨م^(٧).

ليقوم خير الدين بعدها بالاستعانة بالدولة العثمانية رسميًا، وقد وصلت مساعدة السلطنة قبل وصول القوات الإسبانية إلى السواحل الجزائرية^(٨)، وقد جاء دعم السلطنة لتلبية لطلب خير الدين وسكان الجزائر الذين وجهوا رسالة استغاثة إلى السلطان سليم الأول عام ١٥١٩، لمواجهة الغزو الإسباني بعد استيلاء السلطان سليم على مصر. وذلك في مقابل ضم الجزائر إلى الإمبراطورية العثمانية وإقرار سيادة السلطان عليها^(٩). وبذلك أصبحت الجزائر تحت حكم الدولة العثمانية رسميًا، ودعم السلطان هذا القرار بقرارات تنفيذية، فأرسل إلى الجزائر قوة من سلاح المدفعية، وحوالي ٢٠٠٠ من الجنود الإنكشارية للقضاء على الإسبان، كان هذا الدعم ضروري للقضاء على الإسبان وتحقيق الأمن والاستقرار الداخلي والخارجي في المنطقة، وبذلك كانت الجزائر أول إقليم في شمال إفريقيا يدخل تحت السيادة العثمانية^(١٠).

مراحل الحكم العثماني في الجزائر

(١٥١٨م-١٨٣٠م)

وتتمثل هذه المراحل فيما يلي:

عصر البايات^(١١) "أمير الأمراء" (١٥١٤-١٥٨٧م):

مثلت هذه الفترة أزهى مراحل الحكم العثماني في الجزائر، فقد عرفت البلاد الازدهار والرقى في مختلف الجوانب التعليمية، والاقتصادية، والعمرانية وهذا راجع إلى التعاون بين فئة "الرياس"^(١٢) في القيادة وأبناء المنطقة، كما ساهم مهاجرو الأندلس في تنمية البلاد وازدهارها بفضل خبرتهم ومهارتهم التي وظفوها في ترقية المهن والبناء العمراني، وتقوية الاقتصاد الجزائري. كما تميزت هذه الفترة التي دامت ٧٠ سنة بسيطرة رياس البحر أو جنود البحرية على السلطة، وكان قرار تعيين الحاكم يأتي من طرف السلطان العثماني، كما عرفت الحياة السياسية نوعا من الاستقرار والتحالف ضد العدو الإسباني^(١٣).

حكم الباشوات^(١٤) الثلاثين (١٥٨٦-١٦٥٩م):

جاء هذا الأسلوب في الحكم نتيجة خوف الباب العالي من استقلال الجزائر عن السلطنة العثمانية، لهذا قرر الباب العالي بتركية أن ينصب على الجزائر باشا يعين لمدة ثلاث سنوات، وأول باشا عين على الجزائر هو دالي أحمد سنة ١٥٨٦م، هذا الأخير الذي كثرت في عهده الغزوات البحرية الجزائرية ضد السواحل الأوروبية (إسبانيا، صقلية وكورسيكا، ونابولي)، لقتل أثناء المعركة

الباحثين والمهتمين بجوهر هذه العلاقة، في معرفة مساراتها المستقبلية، والتنبؤ لأهم تحولاتها، خاصة وأن موضوع العلاقات الجزائرية-التركية في الفترة الراهنة لم يحظى بالكثير من الاهتمام، ذلك بسبب انقطاع العلاقة بين الطرفين لمدة طويلة، فترة الاستعمار الفرنسي.

طبيعة التواجد العثماني في الجزائر وموقف

السلطنة من احتلال فرنسا للجزائر

السياق التاريخي للتواجد العثماني في الجزائر وأسبابه

الأوضاع الجزائرية قبيل فترة الحكم العثماني

تميزت الفترة السابقة لوصول العثمانيين للجزائر بقيام الدولة الزيانية (١٢٣٥-١٥٥٤م)، التي تنسب إلى زيان بن ثابت والد يغمراسن^(١)، هذه الدولة التي كانت عاصمتها تلمسان دخلت في صراعات وحروب متواصلة، تارة مع المرينيين، وتارة مع الحفصيين، كما عانت من الصراعات والانشقاقات الداخلية بين القادة الزيانيين أنفسهم من أجل الحصول على السلطة، وكانت نتيجة هذه الأوضاع تحالف بعض القادة المحليين مع الإسبان ضد الدولة الزيانية. في هذا الوقت تمكن الإسبان من الاستيلاء على غرناطة بالأندلس سنة (١٤٩٢م)، وفي نفس الفترة تم تقسيم دول المغرب بين الدول الأوروبية، حيث تمكنت البرتغال من التوسع في المغرب، وإيطاليا في تونس، وإسبانيا في الجزائر^(٢). ففي سنة ١٥٠٥م قامت إسبانيا بإرسال حملة إلى ميناء المرسى الكبير في غرب الجزائر فاستولت عليه في العاشر من سبتمبر ١٥٠٥م، واتسع نطاق الحملة الإسبانية سنة ١٥٠٩م، ليستولوا على بجاية بعد سقوط وهران، وهكذا مع بداية القرن السادس عشر- بدأ الصراع المغربي مع الدولة الإسبانية^(٣)، هذا ما دفع بسكان شمال إفريقيا عامة وسكان الجزائر خاصة، للالتجاء إلى السلطان العثماني "السلطان سليم الأول" برسالة استنجاد. فاستجابت الدولة لاستغاثاتهم. ولذلك لم يكن دخول العثمانيين إلى شمالي إفريقيا نتيجة معارك حربية خاضتها القوات المسلحة العثمانية ضد أهالي البلاد، أو تدخل مباشر من الحكومة العثمانية على غرار ما حدث في الشام أو مصر أو العراق^(٤).

التواجد العثماني في الجزائر (قدوم الأخوين عروج وخير الدين بربروس)

استنجد الجزائريون بالإخوة الأتراك عروج وخير الدين نظرا للروابط الدينية المشتركة، ولكون الأخوين بحارين ماهرين اشتغلا بالقرصنة ضد المسيحيين واكتسبا خبرة كبيرة في هذا الميدان، لهذا استنجد بهم الحاكم الحفصي لبجاية لطرد الإسبان، وقد لبي عروج وأخوه خير الدين النداء والتحقا ببجاية عام ١٥١٢م، و فور وصول الأخوين عملا على طرد الإسبان، وفي عام ١٥١٦م استنجد سكان العاصمة بهما بما في ذلك حاكمها سالم التوممي الثعالبى^(٥)، وفي ذلك الوقت كان عروج متواجد في جيجل التي بويع أميرا عليها عام ١٥١٣م، فتوجه إلى الجزائر

التنظيم السياسي والإداري للجزائر في العهد العثماني

قسمت الجزائر في ظل الحكم العثماني إلى ديوانين: الديوان^(٢٠) الخاص وهو مجلس الدولة، والديوان العام وهو المجلس العمومي، فالديوان الخاص الذي هو المجلس التنفيذي للدولة يترأسه الداى صاحب الحكم المطلق ويساعده في مهامه خمس موظفين سامين من الأتراك بمثابة وزراء (والمتمثلين في: الخزناجي وهو نائب الداى المكلف بالخزينة العمومية، وآغا الصباحية وهو القائد العام للجيش، ووكيل الخرج وهو المسئول عن الوراشات التي تبني فيها السفن وتموين الأسطول بالأسلحة وصيانة الموانئ البحرية والحربية وتحصينها فهو بمثابة وزير البحرية، وخوجة الخيل مكلف بالجباية والمرافق العامة التابعة للدولة، وبيت المالجي الذي يسهر على تسيير بيت المال والعقود والمواريث)، ثم تأتي مرتبة الكتاب المتكونة من أربعة أعضاء يرأسهم الباشكاتب يتولون مهام إدارية متنوعة مثل تحرير الرسائل وغيرها، بالإضافة إلى شيخ الإسلام المكلف بالعدل والشؤون الدينية، ووكيل الخرج المكلف بالمثونة الغذائية للسكان، كذلك هناك رجال الأمن وقائد الفحص المكلف بتحصيل الضرائب، في حين أن الديوان العام الذي يمثل المجلس التشريعي يتكون من الموظفين السامين الأتراك^(٢١).

أما فيما يتعلق بالتنظيم الإداري فقد تم تقسيم الجزائر إلى أربعة مقاطعات إدارية وهي كالتالي^(٢٢):

١- دار السلطان:

توجد هذه المقاطعة الإدارية في الجزائر العاصمة ونواحيها، حيث تمتد من مدينة دلس في الشرق إلى مدينة شرشال غربا، أما في الجنوب فيحدها البايليك التيطري، كما أن مقر نائب السلطان العثماني يقع في هذه المقاطعة.

٢- بايليك الشرق^(٢٣):

وعاصمتها قسنطينة وتمتد هذه المقاطعة من الحدود التونسية شرقاً إلى غاية بلاد القبائل الكبرى في الغرب، أما من الشمال فيحدها البحر الأبيض المتوسط ومن الجنوب الصحراء.

٣- بايليك الغرب:

تمتد هذه المقاطعة الإدارية من الحدود المغربية غربا إلى غاية بايليك التيطري شرقا، أما في الجنوب فتحدها الصحراء ومن الشمال البحر الأبيض المتوسط، كما أن هذه المقاطعة شهدت تغيرا في مقر عاصمتها، فبعد أن كانت مازونا هي العاصمة إلى غاية عام ١٧١٠م، انتقلت العاصمة إلى مدينة معسكر، ثم صارت وهران هي العاصمة بعد مغادرة الإسبان منها عام ١٧٩٢م.

٤- بايليك التيطري (الوسط):

وتعتبر أصغر المقاطعات الإدارية، كانت عاصمتها المدينة، تتوسط سهل المتيجة والصحراء من الشمال إلى الجنوب.

التي خاضها جيشه ضد المتمردين الليبيين. فخلفه خضر- باشا الذي قمع ثورة المقراني بسبب هجومه على الثكنات العسكرية التركية، إلا أنه تم سجنه من قبل السلطة العثمانية بسبب وشاية اليولداش (هم القوة برية التركية كان سكان الجزائر يكرهونهم لتصرفهم الغليظ) بنهبه لأموال الخزينة، ليخلفه شعبان باشا ثم مصطفى باشا... إلخ^(٢٤). لقد كان تعيين الباشا لمدة قصيرة مقدرة بثلاث سنوات عامل مهم في تعزيز حلقة البحث عن الثروة والنهب ومحاولة تحقيق أكثر ربح في هذه الفترة، هذا ما جعل من مقومات السلطة تتلاشى لتبقى مجرد مظاهر وشكليات تتمثل في القصر- والحرس الخاص، أما السلطة الحقيقية فقد انتقلت من الباشا إلى الديوان بعدما كان هذا الأخير لا يملك إلا رأياً استشارياً أصبح هو المرجع في تسيير شؤون الدولة^(٢٥).

حكم الأغوات^(٢٦) (١٦٥٩-١٦٧١م):

حظي حكم الباشوات على سخط السكان وغضبهم، هذا ما دفع بالدولة العثمانية إلى تبدليه بحكم الأغوات، فاستغل اليولداش هذه المناسبة لتقلد مناصب الحكم ولم تستطع فرقة الرياس البحرية التصدي لمخططهم بسبب ضعفها الناتج عن هلاك أغلب أسطولهم في معركة البندقية، فقرر قادة اليولداش إعطاء السلطة التنفيذية لأحد أعضائهم، وأطلقوا عليه تسمية الآغا، وكانت مدة حكمه لا تتجاوز ثلاثة أشهر. أما السلطة التشريعية فقد تم إسنادها إلى الديوان، وقد أثبت هذا الحكم فشله منذ البداية كسابقه، حتى أنه يعتبر أسوأ منه حيث كان مآل كل الأغوات القتل بسبب الفتنة التي كانت سائدة، وفي هذه الفترة برز الصراع الفرنسي- الإنجليزي حول السيطرة على شمال إفريقيا^(٢٧).

حكم الدايات (١٦٧١-١٨٣٠م):

في هذا الحكم أصبح الحاكم الذي أطلق عليه تسمية الداى^(٢٨) يعين في منصبه مدى الحياة، على عكس الأنظمة السابقة، حيث يتم تعيينه بناءً على اقتراح من الديوان العالي، وتعيين رسمي من طرف السلطان العثماني. كما أنه في ظل هذا الحكم أصبحت الجزائر أكثر استقلالاً عن الإمبراطورية العثمانية، فالداى ينتخب من طرف الديوان العالي (المجلس) كما سبق الذكر هذا الأخير الذي يعتبر السلطة التشريعية في الجزائر، ليتم تثبيت اختيار الديوان العالي للحاكم عبر إصدار مرسوم "فرمان" من طرف السلطان العثماني ليقضي- بالتعيين الرسمي لهذا المنتخب، ومنه فالدولة العثمانية كانت سلطتها شكلية على الجزائر في هذه الفترة تمثلت في الاعتراف بمراسيم التعيين والتعاون في مجال الحروب كتقديم المساعدة العسكرية للسلطنة في حالة تعرضها لاعتداء خارجي كما حدث بالنسبة لمعركة نافرين سنة ١٨٢٧م^(٢٩).

الحياة الاقتصادية والاجتماعية الجزائرية

في ظل الحكم العثماني

فيما يتعلق بالجانب الاقتصادي فكانت الوضعية لا بأس بها في الجزائر إبان هذه المرحلة، فعلى الرغم من أن الصناعة لم تكن متطورة بالمقارنة مع الدول الأوروبية المجاورة، إلا أنها كانت تعرف معظم الصناعات التي تعرفها أوروبا مثل صناعة النسيج والأحذية والدباغة والسروج ومواد السفن والسلاح والبارود... إلخ، هذا بالإضافة إلى صيد السمك، وأغلب هذه صناعات كانت تسد حاجيات السكان بالإضافة إلى تصدير الفائض، أما المبادلات التجارية مع الخارج فقد كانت تجري مع كل من تونس والمغرب بالإضافة إلى بعض الدول الأوروبية^(٢٤)، وكانت الصناعة المحلية منظمة تنظيمًا دقيقًا بحيث كان الحرفيين منخرطين في نقابات حسب التخصص، كما لعبت الهجرة الأندلسية دورًا مهمًا في تحريك النمو الاقتصادي من خلال إدخال العديد من الحرف المتطورة في مختلف الميادين العمرانية، والفلاحية، والصناعية، أما سكان الريف فيمثلون أغلبية السكان ويشغلون في الفلاحة من تربية المواشي وزراعة الأراضي الخصبة بمختلف المنتجات خاصة القمح والشعير^(٢٥)

أما الحياة الاجتماعية^(٢٦) فقد كان المجتمع الجزائري في العهد العثماني مقسم إلى عدة طبقات وطوائف كل حسب الأصول والجهات التي ينتمي إليها. حيث كان الأتراك يمثلون الطبقة الحاكمة التي تسند إليها أهم المسؤوليات وتتمتع بكل الصلاحيات والامتيازات لممارسة السلطة، والكرادلة (أب تركي وأم جزائرية)، وهناك أهل المخزن من القبائل الحليفة الذين يملكون أراضي خصبة، وهناك القادمون من وادي ميزاب بالإضافة إلى السود المتحررون الذين كانوا يحترفون الموسيقى وفنون البناء... إلخ^(٢٧)

الحياة الثقافية والدينية

تميزت هذه المرحلة بسيادة الإسلام الذي كان رابطًا متينًا محكمًا بين مختلف أصناف السكان، وكان يعمل على صهر السكان ليشعروا بالانتماء إلى أمة واحدة، أما فيما يتعلق بالمحتوى الحضاري لهذه الفترة فقد شهد العديد من الفرنسيين في فترة الاحتلال بأن الأمية كانت منعقدة تقريبًا في الجزائر، فكل السكان كانوا يعرفون القراءة والكتابة، وباعتبار الأتراك لم يكونوا يعتنون بالثقافة مثل الحرب فإن هذا يدل على أن هذا الرقي والازدهار نابع من الجزائريون أنفسهم^(٢٨). إلا أن مكانة الجزائر تراجعت فيما بعد لتقع تحت وطأة الاستعمار وينتهي بذلك التواجد العثماني.

العلاقات الجزائرية في الفترة العثمانية

● **على المستوى المغاربي:** كانت العلاقات المغاربية متوترة، فكانت الجزائر تعتبر تونس إقليمًا تابعًا لها، أما تونس فتتفرض ذلك، في مقابل ذلك فإن تونس كانت لها أطماع في قسنطينة، أما المغرب فكان لها هي الأخرى أطماع قديمة في تلمسان، وهو ما دفعها لإقامة مؤامرات وتحالفات كثيرة بين البلدان المغاربية من أبرزها زحف تونس وليبيا من تونس إلى قسنطينة عام ١٧٠٢م، وكذا زحف المغرب نحو تلمسان، وكانت أحيانًا تلجأ لتحالف مع الدول الأوروبية ضد الجزائر.

● **على المستوى الأوروبي:** كانت الجزائر لاسيما في عهد البايبربايات تتمتع بمكانة مرموقة، إذ أن الدول الأوروبية كانت تقدم لها الهدايا وتدفع لها الضرائب في أوقات الضعف وتبادر بحملاتها العسكرية في أوقات القوة، أما الأسباب فقد كانت العلاقة معها متوترة بسبب هجوماتها وحملاتها الصليبية التي كان يقوم بها على السواحل الجزائرية، والتي منيت أغلبها بالهزيمة، أم فيما يتعلق بعلاقة الجزائر بفرنسا في هذه الفترة فقد كانت جيدة حيث منحتها امتيازات تجارية هامة، وسمحت لها بإنشاء مؤسسات في عناية والقالة والقل لصيد المرجان وتصدير الحبوب إلى أوروبا مقابل دفع ضريبة للحكومة الجزائرية، كما أن الجزائر اعترفت بالجمهورية الفرنسية بعدما قامت الثورة الفرنسية سنة ١٧٨٩م، وكانت تفرض فرنسا أموالاً طائلة ولم يبدأ التوتر بين البلدين إلا بمجيء نابليون بونابرت للحكم وبداية الأطماع الاستعمارية^(٢٩).

أما فيما يتعلق بعلاقة الجزائر بالولايات المتحدة الأمريكية فالجزائر أول دولة اعترفت بالولايات المتحدة الأمريكية كدولة مستقلة كاملة السيادة والحقوق، وقد طبعت العلاقة معها بنوع من التعاون تارة، والتوتر تارة أخرى، وذلك بسبب مشكلة مرور السفن الأمريكية عبر البحر الأبيض المتوسط.

الاحتلال الفرنسي للجزائر

أ. انهيار الأسطول الجزائري:

لقد مارست الجزائر هيمنتها على البحر الأبيض المتوسط بفضل أسطولها البحري الذي ساعدها في فرض الضرائب على السفن التي كانت تعبر البحر الأبيض المتوسط مقابل تقديم الحماية لها، هذه الوضعية التي دفعت الدول الأوروبية لتفكير في وضع حد لهذه السيطرة فتحالفت ضدها، ففي عام ١٨١٦ نجحت إنجلترا بضرب الأسطول الجزائري وحطمت جزء منه^(٣٠)، وبعد هذه الضربة الموجهة للأسطول الجزائري، قام السلطان العثماني "محمود الثاني" سنة ١٨٢٠م بطلب المساعدة من الأسطول الجزائري لمواجهة الثوار اليونانيون وحلفائهم الأوروبيين، فلبت الجزائر النداء، وفي سنة ١٨٢٧ عاودت الدولة العثمانية طلب المساعدة من الأسطول الجزائري لتعزيز أسطولها

لهم دين على بوشناق وباكري، وقد اتضحت للداي المؤامرة وعرف أن طرفها القنصل ديفال^(٣٥)، وفي ٠٣ أفريل ١٨٢٧م حظر القنصل الفرنسي - ديفال لتهنئة الداى بعيد الفطر في القلعة الداخلية بمحضر جميع أعضاء الديوان، فكان استقبال الداى له غير بشوش وبعد الحفل، سأل الداى القنصل الفرنسي عن سبب عدم رد الحكومة الفرنسية عن رسائله العديدة بخصوص الدين، فرد عليه القنصل بسوء أدب واستهزاء، فقال له: "إن حكومتى لا تتنازل لإجابة رجل مثلكم".^(٣٦)

هذا الرد أغضب الداى ودفع به لضرب دوفال بهروخته، فانسحب على الفور من المجلس مهددا بتبليغ حكومته بكل شيء، استحسن فرنسا تصرف ديفال، وكلفته بتحذير الجزائر و طلبت من الداى تقديم الاعتذار ودفع التعويضات لها عن هذه الإهانة في مدة أقصاها ٢٤ ساعة، انتهت مدة الإنذار ولم يستجيب الداى لهذه الشروط، وأمام هذا الرفض أعلنت فرنسا الحرب على الجزائر، ففرضت عليها حصار طويل دام ثلاث سنوات عانت منه فرنسا والجزائر على حد سواء^(٣٧)، وفي جوان عام ١٨٣٠م نزلت القوات الفرنسية المكونة من ٣٧٠٠٠ جندي في سواحل سيدي فرج (الذي كان يبعد ٢٣ كيلومتر غربي الجزائر)، وقد كانت المقاومة عنيفة حيث فقدت فرنسا إثر هذه المعركة ٤٠٠ شخص، في حين استشهد ١٠ آلاف من الجيش الجزائري (الأتراك) ليتم بعد ذلك توقيع وثيقة الاستسلام مع الداى حسين^(٣٨).

ويرجع سبب سقوط الجزائر بهذه السهولة في أيدي الفرنسيين يوم ٠٥ جويلية ١٨٣٠م إلى إنفراد الداى بالحكم واعتماده على جيش صغير متكون من جنود أتراك، في حين تم استبعاد أبناء الجزائر من السلطة وكل ما يتعلق بها من مسؤولية الجيش والدفاع عن الوطن^(٣٩)، وقد غادر الأتراك الجزائر نهائيا بناء على طلب فرنسا، حيث كانت البداية بمغادرة الداى حسين الأراضي الجزائرية إلى نبولي بناءً على اختياره الشخصي، بعد ذلك جاء دور الأتراك الآخرين الذين تم ترحيلهم يوم ١١ جويلية ١٨٣٠م، عبر السفن الفرنسية التي قامت بحمل الأتراك إلى أسيا الصغرى (أنطوليا)^(٤٠).

موقف الإمبراطورية العثمانية

من الاحتلال الفرنسي للجزائر

(المشكلة الجزائرية في السياسة الخارجية العثمانية)

لقد عملت الدولة العثمانية على الضغط على عاملها الداى حسين في الجزائر من أجل التساهل مع فرنسا وتلبية شروطها فيما يتعلق بتقديم الاعتذار والتعويضات المطلوبة، فأرسلت الدولة العثمانية مندوبا إلى الجزائر يطلب منه قبول الشروط الفرنسية وتسوية الخلاف القائم بين الدولتين، غير أن مهمة هذا المندوب لم تكتمل بسبب خطف السفن الفرنسية للمركب التي كان هذا المندوب على متنها ولم تطلق سراحها إلا بعد إتمام

لمواجهة التحالف المسيحي (إنجلترا، روسيا، وفرنسا) في معركة نفايرين البحرية ٢٠ أكتوبر ١٨٢٧م التي أسفرت عن تحطيم معظم قوات الأسطول العثماني الذي نجت منه حوالي ثلاثين باخرة من بينها عشر بواخر جزائرية، وبهذا خسرت كلا الدولتين أسطولهما في هذه المعركة^(٣١).

ب. وقائع الاحتلال الفرنسي للجزائر:

كانت فرنسا تسعى لاحتلال الجزائر منذ خروج إسبانيا نهائيا من وهران ١٧٩٢م، وقد تجسدت هذه المطامع أكثر مع تولي نابليون بونابرت الحكم الذي كان يتوعد بخوض الحرب ضد الجزائر إثر احتجاج الجزائر سفينتين فرنسيتين، وكذا من أجل تحرير الأسرى الإيطاليون والكورسكيين المعتقلين من طرف الحكومة الجزائرية، فبعث بجواسيس ومن بينهم الضابط بوتان boutin سنة ١٨٠٨م من أجل تحقيق مخططاتها الاستعمارية، إلا أن انشغال نابليون في مواجهة الثورة الإسبانية وخوض حملته ضد روسيا حالت دون تنفيذ مخططة في الجزائر^(٣٢)، كما طرحت مسألة الجزائر في مناقشات مؤتمر فيينا الذي عقد سنة ١٨١٤-١٨١٥م بعد مرحلة الحروب الثورة الفرنسية، والذي تم فيه طرح مسألة تأسيس الرابطة البحرية من طرف بريطانيا تكون مهمتها إعطاء الأوامر للقناصل المعتمدين في الجزائر، إلا أن المشروع لم يلقى رضا الحاضرين نظراً لتناقض المصالح الأوروبية، لكن بريطانيا ورغم فشلها في تمرير مشروعها فإنها أرسلت حملة عسكرية بقيادة اللورد اكسموث لضرب الجزائر العاصمة في ٢٧ أوت ١٨١٦م، ثم جاء مؤتمر اكس لاشبيل ١٨١٩م الذي اتفقت فيه الأمم المسيحية على ضرورة إبعاد القوة العسكرية الجزائرية ووضع حد لسيطرتها على البحر الأبيض المتوسط، حيث وافقت ٣٠ دولة أوروبية على فكرة القضاء على الجزائر وأسندت المهمة إلى فرنسا وإنجلترا^(٣٣).

وفي عام ١٨٣٠م نفذت فرنسا نواياها تجاه الجزائر بدعوى منع تعدي قراصنة البحر المسلمين على مراكبها التجارية لكن في حقيقة الأمر كانت تبحث عن مركز حربي لها بشمال إفريقيا حتى لا تكون إنكلترا صاحبة السيادة بمفردها على البحر الأبيض المتوسط، فكانت حادثة المروحة ذريعة مناسبة لها، هذه الحادثة التي تعود وقائعها إلى الخلاف الواقع بين الحكومة الفرنسية والباي حسين بسبب بعض الديون الجزائرية على الحكومة الفرنسية^(٣٤)، وتتلخص قضية هذا الدين (ثمان القمح) في المؤامرة التي كان طرفيها التاجرين اليهوديين في الجزائر بوخريس (المدعو بكري) وبوشناق من جهة والوزير الفرنسي - تاليران والقنصل الفرنسي في الجزائر ديفال من جهة ثانية، حيث تعهد بوخريس وبوشناق بإعطاء نصيبا من الديون إلى الوزير والقنصل في حال نجاحا في إقناع الحكومة الفرنسية على تسديدتها، وبالفعل استطاع كل من تاليران وديفال في إقناع الحكومة الفرنسية التي دفعت عدة أقساط إلى شركة بوشناق وبوخريس دون أن تدفع شيئا إلى الخزينة الجزائرية، وأبقت جزءاً من هذه الديون تحت الرهن في حالة ما إذا كان هناك أشخاص أو شركات

إن العلاقات الجزائرية التركية تحكمها الروابط والمصالح الاقتصادية فقط، في ظل تراجع الرابطة السياسية والتي تسعى أغلب الدول الأوروبية وخاصة فرنسا إلى منعها لضمان مصالحها في المنطقة، لذلك يعمل البلدين على تعزيز علاقتهما السياسية وهو ما أكدته زيارة الوزير الأول التركي رجب طيب أردوغان جوان ٢٠١٣ للجزائر التي كانت زيارة ذات طابع اقتصادي وأبعاد سياسية^(٤٥)، فتركيا تعمل على تكثيف التعاون البيني وخلق أسواق مشتركة تحفز قوى الإنتاج، كما أنها تعمل على حل المشكلات الأمنية التي تعيق ازدهار المنطقة، فهي تبحث عن السلام في المنطقة من أجل التوسع التجاري وكذا للعب دور الفاعل الإقليمي في المنطقة حيث تستثمر بسخاء، ومن ثم تأتي أهمية الزيارات المتتالية بين قادة البلدين من ذلك زيارة الوزير الأول التركي كما سبق الذكر^(٤٦)، فمن الناحية الاقتصادية تعتبر تركيا ثالث أكبر شريك تجاري للجزائر خارج أوروبا، في حين أن الجزائر هي الشريك الإفريقي الأول بالنسبة لتركيا، حيث يبلغ حجم التبادل التجاري بين الجزائر وتركيا، حاليا ٥ مليار دولار، كما يبلغ حجم الاستثمارات التركية في الجزائر ٧ مليار دولار، فأكثر من ٢٠٠ شركة تنشط في الجزائر لاسيما في قطاعات التجارة والبناء و"الصناعة"، وقد بلغت صادرات تركيا إلى الجزائر ٢ مليار دولار في عام ٢٠١٣ و٢٠١٤ وتسعى تركيا في هذا الإطار لإقامة منطقة تبادل حر مع الجزائر من أجل دفع العلاقات التجارية الثنائية بين الطرفين، في حين أن الصادرات الجزائرية لتركيا تقدر ب ٣ مليار دولار، وتتشكل على وجه الخصوص من المحروقات وتستورد تركيا نحو ٤ ملايين متر مكعب من الغاز المسال سنوياً من الجزائر منذ عام ١٩٨٨) والمواد الكيميائية والمواد الأولية لقطاع النسيج^(٤٧).

وفي الشق السياسي فالعلاقات بين البلدين تربطهما التوازنات الجيو-استراتيجية المبنية على المصالح المشتركة فهي علاقات يغذيها الاقتصاد وتربطها شرايين الاتفاقيات^(٤٨)، فتركيا تنظر إلى الجزائر كبوابة جديدة لإفريقيا لاعتبارين الأول هو تنامي دور الدبلوماسية الجزائرية التي تكاد تنهي الأزمة في مالي وتعمل على تقريب بين الخصوم في ليبيا، كما أنها تعي بأن الجزائر تتمسك على الدوام بمبادئها القائمة على عدم التدخل في الشأن الداخلي للدول فيما تحاول تركيا التطلع إلى أداء سياسي جديد تمليه مرحلة ما بعد موجة الحراك في العالم العربي يبقى أن تركيا والجزائر تحاولان تحقيق مصالح متقاطعة منها دعم تركيا لمساعي الجزائر إلى الانضمام إلى منظمة التجارة العالمية والاستفادة من الطفرة الاقتصادية في تركيا، فالطرفان يدركان لأهمية تعزيز العلاقات السياسية والاقتصادية مستقبلا انطلاقاً من الروابط التاريخية، لاسيما في ظل التحديات التي يواجهها البلدان وفق رؤية مشتركة^(٤٩).

فرنسا لمهمتها باحتلال الجزائر^(٤١)، وهذا يدل على النوايا الفرنسية بعدم الموافقة على التسوية السلمية وأن شروطها ما هي إلا حجة مكملية لحادثة المروحة لإضفاء الشرعية على حملتها ضد الجزائر، فبرفض الداي للتسوية تكون قد كسبت تأييداً داخليا وخارجيا لمشروعها الاستعماري.

حاولت الدولة العثمانية استرجاع الجزائر بالطرق الدبلوماسية، وبذلت مساع مكثفة لدى بريطانيا والنمسا وروسيا وفرنسا مؤكدة حقها في بقاء هذا الإقليم تحت سيطرتها انطلاقاً من أن السيادة العثمانية عليه معترف بها من قبل المجموعة الدولية، وأن الجزائريين هم رعايا السلطان، كما حاولت استخدام القوة بعد فشل اتصالاتها الدبلوماسية لاسترجاع الجزائر إلا أنها تراجعت عن ذلك بسبب عدم تمكنها من شن حرب على فرنسا لضعف أسطولها وجيشها^(٤٢). لقد كانت الدولة العثمانية تعتبر الجزائر مقاطعة مستقلة لحد أنها كانت ترفض التدخل في شؤونها وكأنها ليست تابعة لها حتى مع علمها بالحملة الفرنسية، ولكن بعد استيلاء فرنسا على الجزائر، أدركت تركيا خطأها بتخليها عن حقها السياسي دون مقابل، وبدأت في إرسال السفراء والبعثات الدبلوماسية^(٤٣) لفرنسا ودول أوروبا من أجل استرجاع المنطقة، وقد تم تكليف مصطفى رشيد باشا (سفير تركيا لدى فرنسا) لبدء المفاوضات مع الحكومة الفرنسية من أجل سحب قواتها من الجزائر^(٤٤).

واقع العلاقات الجزائرية التركية في الفترة الراهنة وفرص تطورها في المستقبل

تتسم العلاقات التركية-الجزائرية في الفترة الراهنة، بالتعاون في مختلف المجالات خاصة المجال الاقتصادي، حيث أن تركيا تسعى لاسترجاع دورها في القارة الإفريقية كما كان في الماضي، بعد انفصال طويل عن العالم العربي والإسلامي خلال الفترة الاستعمارية التي اجتاحت هذه المنطقة، وحتى بعد الاستقلال، وذلك بسبب السياسة الخارجية التركية في تلك الفترة المعادية للقضايا العربية والإسلامية، حيث كانت تعتبر نفسها دولة أوروبية ساعياً منها لقبول الاتحاد الأوروبي لعضويتها، ولكن برفض هذا الأخير لهذا المطلب، وكذا حدوث الكثير من التحولات في المنطقة العربية والإسلامية، تتيح لتركيا لعب دوراً استراتيجياً، لذلك عملت تركيا على استرجاع رابقتها التاريخية مع هذه المنطقة فالمصلحة التركية تحتم عليها التوجه نحو أفريقيا عامة والجزائر على وجه الخصوص باعتبارها بوابة إفريقيا، وبذلك أصبح الطرفين يعملان على تعزيز علاقتهما الاقتصادية والسياسية لتحقيق مصالح مشتركة، فالجزائر تبحث من خلال تعزيز علاقتها مع تركيا لتعزيز موقعها الاقتصادي في الساحة الدولية، أما تركيا فهي تسعى للسيطرة على السوق في شمال إفريقيا واسترجاع مكانتها في المنطقة، فتركيا تهدف في المقام الأول من هذه العلاقة إلى الاستفادة من الثروات التي تتمتع بها الجزائر والتي يأتي النفط في مقدمتها.

خاتمة

عموماً لقد تم التوصل من خلال هذه الدراسة إلى مجموعة من الاستنتاجات التي تلخص طبيعة العلاقات التركية-الجزائرية من جانبها التاريخي في مختلف تفاصيله والتي تم صياغتها في النقاط التالية:

• لم تكن علاقة الدولة العثمانية بالدولة الجزائرية علاقة السيد بالعبد أي علاقة استعمارية مبنية على سيطرة وهيمنة، وهذا بسبب الظروف التي أوجدت الدولة العثمانية في الجزائر بدرجة كبيرة، فالاهتمام العثماني لم يكن منصب على ضم هذه المناطق البعيدة عنها بقدر ما كان تركيزها على منطقة الشرق الأوسط التي كانت تعتبرها منطقة نفوذ مهمة بالنسبة لها فخاضت الحروب مع هذه الدول لضمها لها كما حدث مع سوريا والعراق، في حين اختلف الأمر مع الجزائر التي كانت بالنسبة للدولة العثمانية حليف استراتيجي أكثر منها مستعمرة أو مقاطعة تابعة لها.

• طبع التواجد العثماني بالجزائر بمميزات إيجابية وأخرى سلبية، فالإيجابية تتمثل في إكسابها أسطول قوي مكنها من بسط سيطرتها على البحر الأبيض المتوسط والاستفادة من مختلف الغنائم المتأتية من الغزوات والضرائب المفروضة على السفن في مقابل توفير الحماية لها، كما أنها أكسبتها هبة دولية خاصة بعد القضاء على الإسبان مما جعل الدول الأوروبية تتخوف من مهاجمتها إلى غاية ضعفها الذي فتح المجال أمام الأطماع الفرنسية، أما فيما يتعلق بالجوانب السلبية فتتمثل في تركيز الأتراك على القوة العسكرية وإهمال الجوانب الأخرى، وهو ما انعكس بالسلب على مختلف المجالات الأخرى خاصة المجال الاجتماعي وما تعلق بتحقيق الانسجام والوحدة المعنوية مثلما حققت الوحدة الترابية، هذا بالإضافة إلى عدم قدرة العثمانيين على الاندماج في المجتمع الجزائري بسبب التوجس والخوف من استقلال الدولة الجزائرية عن الدولة العثمانية، كذلك عمل الأتراك في ظل تواجدهم في الجزائر على احتكار السلطة ومختلف المناصب الإدارية والسياسية فيما بينهم وعدم السماح لأبناء الوطن من الوصول إلى هذه المناصب، ونفس الشيء ينطبق على التوظيف في المناصب العسكرية التي كانت حكراً على الأتراك الأمر الذي حال دون تكوين جيش كبير وقوي، خاصة القوة البرية، فالقوة العسكرية كانت مقتصرة على القوة البحرية على حساب القوة البرية.

• اقتصر القوة الجزائرية العسكرية على القوة البحرية المتكونة من الجنود الأتراك سهل من مهمة الاحتلال الفرنسي للجزائر، هذا الأخير الذي لم يجد مقاومة حقيقية تذكر لعدم وجود جيش برية منظم يقف في وجه هذا العدوان.

• يتضح مما سبق تردد الدولة العثمانية فيما يتعلق بقضية الاحتلال الفرنسي للجزائر، فهي لم تتخذ موقف واضح وصريح بشأنه، كما أنها لم تعر التهديدات الفرنسية بغزو الجزائر أهمية، و لم تقدم مساعدة فعلية لهذه الأخيرة بعد وقوع العدوان، وعلى الرغم من جهودها الدبلوماسية لحل الأزمة فهي لم تكن مثمرة لعدة أسباب: أهمها زمن هذه

المفاوضات والتي جاءت في وقت متأخر (بعد الاحتلال وليس أثناء حدوث الاضطراب بين الدولتين والتجهيز الفرنسي للحملة ضد الجزائر)، كما أنها لم تستطع الضغط بشكل فعلي على الحكومة الفرنسية لخوفها من الإضرار بعلاقتها مع الدولة فرنسية خاصة أنها كانت تهدد بمساندة الحاكم المصري.

• العلاقات الجزائرية التركية الراهنة تحكمها مصالح البلدين، فتركيا حالياً تسعى لتتصالح مع ذاتها الحضارية الإسلامية، فهي تعتز بماضيها العثماني متعدد الثقافات والأعراق، وبالتالي تعمل على إقامة علاقات متوازنة مع الشرق الإسلامي، ومنه تحقيق التوازن الحضاري بين إرث الماضي ومعطيات الحاضر، الذي يستدعي من تركيا تحقيق مصالح تاريخية مع محيطها العربي والإسلامي والأفريقي وإقامة شراكة استراتيجية مع دول شمال إفريقيا وبخاصة الجزائر، هذه الأخيرة التي أصبحت تربطها بها في الوقت الراهن علاقات اقتصادية هامة ذات أبعاد سياسية.

• تشهد العلاقات التركية الجزائرية تطوراً إيجابياً يخدم مصالح الطرفين، وهو الأمر الذي يجعل من مستقبل هذه العلاقة سوف يشهد مزيداً من الترابط، وهو أمر لا تسعى خلفه تركيا فحسب، وإنما الجزائر أيضاً لأن في هذه العلاقة مصلحة مشتركة لطرفين في مختلف المجالات

الهوامش:

- (١) يغمراس هو أول ملك للدولة الزيانية سنة (١٢٣٥م).
- (٢) عمار بوحوش، التاريخ السياسي للجزائر: من البداية ولغاية ١٩٦٢، الطبعة الأولى، (بيروت: دار العرب الإسلامي، ١٩٩٧)، ص ٤٧.
- (٣) محمد مورو، بعد ٥٠٠ عام من سقوط الأندلس ١٤٩٢م-١٩٩٢م الجزائر تعود لمحمد صلى الله عليه وسلم، (القاهرة: المختار الإسلامي للطبع والنشر والتوزيع، ١٩٩٢)، ص ١٧.
- (٤) إسماعيل أحمد ياغي، الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي الحديث، الطبعة الثانية، (الرياض: مكتبة العبيكان، ١٩٩٨)، ص ٢٣٨.
- (٥) لقد دبر سالم التومي رفقة بعض الأعيان مؤامرة ضد الأتراك بسبب سوء معاملة الجنود الأتراك للجزائريين، فتفطن لها عروج وقضى على هذه المؤامرة بقتل التومي بيده في حمام منزله وأعلن نفسه سلطاناً على مدينة الجزائر.
- (٦) عمورة عمار، موجز في تاريخ الجزائر، الطبعة الأولى، (الجزائر: دار ربحانة للنشر والتوزيع، ٢٠٠٢)، ص ٩٠.
- (٧) مبارك بن محمد الهلالي الميل، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، الجزء الثالث، (الجزائر: مكتبة النهضة الجزائرية، ١٩٦٤)، ص ٥١.
- (٨) أحمد عبد الرحيم مصطفى، في أصول التاريخ العثماني، الطبعة الثانية، (القاهرة: دار الشروق، ١٩٩٣)، ص ٩٣.
- (٩) علي محمد الصلابي، الدولة العثمانية: عوامل النهوض وأسباب السقوط، الطبعة الأولى، (دار التوزيع والنشر الإسلامية، ٢٠٠١)، ص ٣٥٤-٣٥٧.
- (١٠) الباي هو بمثابة نائب الرئيس، فهو يقوم بأعماله في الإقليم الذي يشرف عليه نيابة عن الداى الذي هو رئيس الدولة، وهو يعتبر من كبار موظفي الدولة.

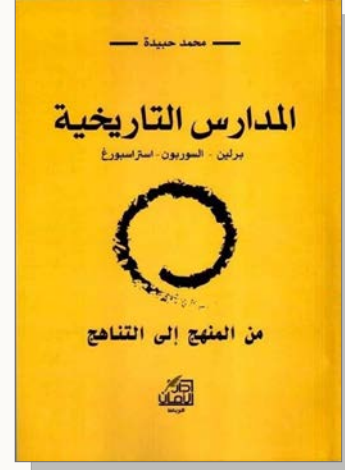
- (١١) طبقة الرياس: هم رجال البحر، أي قادة السفن البحرية.
- (١٢) عمار بوحوش، مرجع سابق، ص ٥٧-٥٨.
- (١٣) الباشا: أصلها في التركية مأخوذة من كلمة "باش" والتي تعني رأس أو طرف أو قمة أو زعيم، البداية، المبدأ... إلخ. وتوضع قبل الصنعة أو الوظيفة مثل باشكاتب، والباشا هو لقب فخري رسمي تقتضيه مكانة الشخص في المجتمع يرتبط بالمندوبين والعسكريين على حد سواء. أنظر مصطفى بركات، المرجع السابق، ص ٨٠.
- (١٤) عمورة عمار، المرجع السابق، ص ٩٧.
- (١٥) مبارك بن محمد الهلالي الميلي، مرجع سابق، ص ١٣٨-١٣٩.
- (١٦) الأغا: في اللغة التركية مأخوذة من المصدر "أغمر" ومعناه الكبر وتقدم السن، وتطلق تسمية الأغا في التركية على الرئيس والقائد وشيخ القبيلة، ورئيس العسكر، وعلى الخادم الخصي الذي يؤذن له بدخول غرف النساء. لمزيد من التفصيل أنظر: مصطفى بركات، الألقاب والوظائف العثمانية: دراسة في تطور الألقاب والوظائف لمصر حتى إلغاء الخلافة العثمانية (من خلال الآثار والوثائق والمخطوطات) ١٥١٧-١٩٢٤م، القاهرة: دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، (٢٠٠٠)، ص ١٧٣.
- (١٧) عمورة عمار، المرجع السابق، ص ٩٩.
- (١٨) الداوي: هو رئيس الدولة (الحاكم الأعلى) وهو القائد العام للجيش في البلاد، وهو المسؤول الأول عن سياسة الدولة.
- (١٩) عمار بوحوش، مرجع سابق، ص ٦٠.
- (٢٠) الديوان: كلمة فارسية استعملت في العهد العثماني وتعني سجل أو دفتر، وهو بمثابة مجلس الوزراء في يومنا هذا ويضم شخصيات المقربة للرئيس، فهو بمثابة الساعد الأيمن لرئيس الدولة.
- (٢١) المرجع نفسه، ص ١٠٤.
- (٢٢) عمار بوحوش، مرجع سابق، ص ٦٣.
- (٢٣) مقاطعة، عمالة.
- (٢٤) المرجع نفسه، ص ٣١٤.
- (٢٥) عمورة عمار، مرجع سابق، ص ١٠٦.
- (٢٦) لقد احتفظت الجزائر في العهد العثماني، بالتقسيم الاجتماعي ذاته الذي كان سائداً خلال الفترات التاريخية التي سبقت هذا العهد، فالأتراك اكتفوا بوضع تقسيمًا إداريًا مرئيًا، حقق الوحدة الترابية للجزائر (الحدود التي وجدتها فرنسا هي نفسها التي كانت إبان العهد العثماني) دون تحقيق الوحدة المعنوية، هذا ما دفع بالمؤرخين الغربيين للقول بأنه لم يكن هناك وجود للأمة الجزائرية في العهد التركي بسبب عدم الانسجام الاجتماعي ووجود أصناف اجتماعية مختلفة من عروش وقبائل، هذه الأمة حسب رأيهم لم تظهر إلا بعد الاحتلال الفرنسي.
- (٢٧) مبارك بن محمد الهلالي الميلي، مرجع سابق، ص ٣١٦.
- (٢٨) المرجع نفسه، ص ٣١٧-٣١٨.
- (٢٩) عمورة عمار، المرجع السابق، ص ١١٣.
- (٣٠) نينل ألكسندر وفنا دولينا، الإمبراطورية العثمانية وعلاقاتها الدولية: في ثلاثينيات وأربعينيات القرن التاسع عشر، ترجمة: أنور محمد إبراهيم، (الإسكندرية: المجلس الأعلى للثقافة، ١٩٩٩)، ص ٣٩.
- (٣١) مبارك بن محمد الهلالي الميلي، مرجع سابق، ص ٣٢٠.
- (٣٢) عمورة عمار، مرجع سابق، ص ١١٢.
- (٣٣) بن قايد عمر، محاضرات في تاريخ الجزائر، تم تصفح الموقع على الساعة ٢٠:٠٠ يوم ٢٠١٥/٣/٥ على الرابط: elearn.univ-ouargla.dz/2013.../document.php?
- (٣٤) محمد فريد بك المحامي، تاريخ الدولة العلية العثمانية، الطبعة الأولى، (بيروت: دار النفائس، ١٩٨١)، ص ٤٤٧.
- (٣٥) مبارك بن محمد الهلالي الميلي، مرجع سابق، ص ٢٧١.
- (٣٦) حمدان بن عثمان خوجة، المراجعة، ترجمة: محمد العربي الزيري، (الجزائر: المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، ١٩٧٥)، ص ١٤٢.
- (٣٧) عزيز سامح التري، الأتراك العثمانيون في إفريقيا الشمالية، الطبعة الأولى، ترجمة: محمود علي عامر، (بيروت: دار النهضة العربية، ١٩٨٩)، ص ٦٣١-٦٣٢.
- (٣٨) فائقة محمد حمزة عبد الصمد بحري، "أثر الدولة العثمانية في نشر الإسلام في أوروبا" (رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير في التاريخ الإسلامي الحديث، جامعة أم القرى السعودية، ١٩٨٩م)، ص ١١٥.
- (٣٩) عمار بوحوش، مرجع سابق، ص ٩٠.
- (٤٠) أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية ١٨٣٠-١٩٠٠، الجزء الأول، الطبعة الأولى، (بيروت: دار الغرب الإسلامي، ١٩٩٢م)، ص ٢٠.
- (٤١) محمد فريد بك المحامي، مرجع سابق، ص ٤٤٧.
- (٤٢) إسماعيل أحمد ياغي، مرجع سابق، ص ٢٤٢.
- (٤٣) ولابد من الإشارة إلى أنه من العوامل التي دفعت بالدولة العثمانية استئناف المفاوضات مع فرنسا بخصوص القضية الجزائرية عام ١٨٣٤م هو العريضة التي رفعها حمدان أفندي -السكرتير السابق لباي الجزائر- للسلطان محمد الثاني في ١٨ يوليو سنة ١٨٣٣م، يشكو فيها ما يعانيه الشعب الجزائري من الاحتلال ويطلب مساعدته، فبدأ مصطفى رشيد رسميًا مفاوضاته مع الحكومة الفرنسية في ديسمبر عام ١٨٣٤م بناءً على أمر السلطان، فدارت المفاوضات مع وزير الخارجية الفرنسي الأدميرال دي ريني. وقدم له السفير التركي مذكرة حكومته بشأن القضية لكنه رفضها بسبب عزم فرنسا على عدم ترك الجزائر، وبعد جهود كثيرة لهذا السفير سواء مع فرنسا أو بريطانيا والنمسا وروسيا وغيرها من الدول التي عقد عليها الأمل في حل هذه المشكلة إلا أن جهوده باءت بالفشل في نهاية المطاف.
- (٤٤) نينل ألكسندر وفنا دولينا، مرجع سابق، ص ٣٩-١٤٠.
- (٤٥) سليم قلال، "مصلحة الجزائر اليوم تكمن في تقوية علاقتها مع تركيا"، جريد المقام، تم تصفح الموقع يوم ٢٠١٥/٣/٢٨ على الساعة ١٤:٣٠ على الرابط التالي: <http://www.elmakam.com/?p=2076>
- (٤٦) العلاقات الجزائرية التركية... التاريخ والجغرافيا، تم تصفح الموقع يوم ٢٠١٥/٣/٢٨ على الساعة ١٦:٢٠ على الرابط التالي: <http://elraaed.com/ara/sahebrai/>
- (٤٧) باحثون جزائريون يرشحون العلاقات الجزائرية التركية للتطور مستقبلاً، تم تصفح الموقع يوم ٢٠١٥/٣/٢٨ على الساعة ٢٢:٠٠ على الرابط التالي: <http://almagharibia.tv/>
- (٤٨) معاهدات واتفاقيات الصداقة والتعاون والتشاور المبرمة سنتي ٢٠٠٦ و٢٠٠٨ التي تهدف لإعادة صياغة أرضية جديدة للانطلاق نحو أداءات سياسية أكثر تطابقًا.
- (٤٩) زيارة أردوغان للجزائر-الإذاعة الجزائرية، تم تصفح الموقع يوم ٢٠١٥/٣/٢٩ على الساعة ٢١:٠٠ على الرابط التالي: www.radioalgerie.dz/news/ar/article/.../20059.html



المدارس التاريخية: برلين، السوربون، استراسبورغ من المنهج إلى التناهج

محمد أبرهموش

أستاذ التعليم الثانوي - وزارة التربية الوطنية
باحث في التاريخ الاجتماعي - كلية الآداب
القنيطرة - المملكة المغربية



بيانات الكتاب

دار الأمان
الرباط، الطبعة الأولى ٢٠١٨
٢١٦ صفحة

محمد حبيدة
المدارس التاريخية: برلين، السوربون، استراسبورغ.
من المنهج إلى التناهج

DOI 10.12816/0052966

معرف الوثيقة الرقمي:

كلمات مفتاحية:

المدارس التاريخية، أوروبا، المنهج، التناهج، الكتابة التاريخية

وانفتاحها على مناهج العلوم الاجتماعية الأخرى، أي التشوف إلى تحقيق التناهج، قبل أن يخوض في أزمتها الإستمولوجية أو منعطف "التاريخ المفتت"، بتعبير أطروحة فرنسوا دوس^(١). إضافة إلى مقدمة عامة، تجود على القارئ بالمفاتيح الأولية لمتابعة الإنتاج الإسطوغرافي في الغرب. ثم خاتمة نقدية تركيبية، تنتصر لأهمية الكتابة في إنتاج المعرفة التاريخية.

ومن خلال العنوان، يبدو أن هذه الدراسة تنصهر في بوتقة اهتمامات مؤلفها، ذات الصلة بالمناهج والترجمة والأنثروبولوجيا التاريخية والتاريخ الاجتماعي. إن الكتاب في الأصل، عبارة عن محاضرات ودروس وسيمينارات، راكمها الأستاذ محمد حبيدة منذ ثلاثين سنة مضت، أي المدة التي مارس فيها تدريس المناهج التاريخية، قبل أن يعمل على تحويلها إلى بحث أكاديمي موجه للباحثين والطلاب، يبرز فيه مدارات الخطاب التاريخي. من المدرسة الوضعانية، إلى المنهجية، إلى الحوليات. من برلين، إلى السوربون، إلى استراسبورغ. من تأسيس المنهج، إلى ممارسته، إلى البحث عن التناهج. هو ما يعبر عنه العنوان الفرعي للكتاب: "من المنهج إلى التناهج". إنه مسار التجديد والابتكار والتأثير، والتأثر، تظهر فيه الكتابة التاريخية كأنها دائرة مفتوحة،

مقدمة

قطع البحث التاريخي أشواطًا مهمة في القرون الماضية الأخيرة، سواء على المستوى النظري أو المنهجي أو العملي، مما ولد نماذج إسطوغرافية، لا يمكن للمهتمين بالمناهج وبالكتابة التاريخية تغافلها. فهذه المدة الزمنية، لم تخل من تحولات متواصلة، فففعت النظريات والمناهج والنتائج، إذ من بناء المنهج التاريخي إلى البحث عن التناهج، شهدت المعارف الإنسانية تدافعات إستمولوجية، ساهمت في ولادة مدارس تاريخية رائدة. من برلين إلى السوربون ثم استراسبورغ. من الوضعانيين إلى المنهجيين وصولاً إلى الحولياتيين. في هذا المبحث، الذي تفوح منه قضايا عميقة وسياقات غزيرة، ينخرط محمد حبيدة بكتابه: "المدارس التاريخية"، الصادر عن دار الأمان هذه السنة (٢٠١٨).

يتكون متن الكتاب من ٢١٦ صفحة، يتتبع فيها المؤلف بحس نقدي، إشكالية المنهج والتناهج في الإسطوغرافيا الأوروبية والغربية. وينتظم هندسياً في قسمين: قسم أول، يقارب طور مدرستي برلين والسوربون: الوضعانية والمنهجية/الوثائقية. وقسم ثان، يتوقف فيه أكثر عند تجربة الحوليات الفرنسية وآثارها، ليس على مستوى نمط الكتابة التاريخية فحسب، بل كذلك على مستوى تلاحقاتها

متواصلة، متجددة باستمرار^(٢)، كما ترمز لها واجهة غلاف الكتاب.

والجدير بالذكر، أن المؤلف ذيل مصنفه بملحق يضم باقة من النصوص، بلغ عددها ٤٠ نصًا مترجمًا، وتشغل حوالي ٦٠ صفحة من حجم الكتاب، تغوص في إبستمولوجيا وقضايا البحث الإسطوغرافي. وهي من إنجاز باحثين في تخصصات العلوم الاجتماعية والإنسانية. من أمثال: إميل دوركايم، وشارل سنيوبوس، ومارك بلوك، ولوسيان فيفر، وفيرناند بروديل، وكلود ليفي ستراوس، وجاك لوجوف، وميشال دوسيرتو، وبول ريكور، وغيرهم. إن هذه الشبكة من النصوص، التي لمها الكاتب وخبرها أثناء تدريسه للمناهج التاريخية، لمدة تزيد عن ربع قرن، قد مكنته من التوصل إلى تقنية بيداغوجية تساعد الطلاب على تعرّف واستيعاب أساسيات المدارس التاريخية، انطلاقًا من نصوص أو فقرات مرجعية من مختلف خطابات المنهج والتناهي^(٣).

في سياقات المنهج التاريخي:

من الوضعانيين إلى الوثائقيين

حاول المؤرخ محمد حبيدة، في القسم الأول أن يجول بالفارئ، المتخصص وغير المتخصص، في فضاء تقدم الدراسات التاريخية، بالتركيز على العوامل الممهدة لوضعية القرن التاسع عشر، عصر التخصص، حين غلب التجريب على التجريد، مما أتاح إمكانيات لبناء قواعد المنهج العلمي على الملاحظة والتجربة. هذا ما تحقق أولاً في مجال علوم الطبيعة، قبل أن تتأثر بها علوم الإنسان ثانياً، في إطار بناء قواعد موضوعها ومنهجها.

على مستوى التاريخ، يبرز المؤلف أن مخاض ظهور التاريخ كعلم قائم بذاته، كان عسيرًا، فقد استلزم ذلك المرور من مرحلتين: التحرر من التصور الديني من جهة، حيث صارت الكتابة التاريخية نمطًا علميًا، وواقعيًا، وعلمانيًا. ثم الابتعاد ما أمكن عن الفلسفة والنظريات من جهة ثانية، بحيث لم يعد المؤرخ يهدف إلى سبر منطق تطور الحضارات والشعوب، بل أصبح عمله ينحصر في ملاحقة سير التاريخ وتفاصيلها الدقيقة. ضمن هذه اللقطات الابستمولوجية المثيرة، يرى صاحب الكتاب، أن القرن الثامن عشر، عصر الفلسفة، حرّر التاريخ من اللاهوت، بينما القرن التاسع عشر، قرن العلم بامتياز، خلّص البحث التاريخي من السجالات الفلسفية بفضل توجهات الوضعانيين بألمانيا. ذلك أن المؤرخ توشع بزي جديد، "زي العلماني والعالم، زي المحلل والناقد"^(٤).

يقارب محمد حبيدة في هذا العمل، وفي أعمال أخرى إبستمولوجيا المنهج وعمل المؤرخ، قصد تقديم إضاءات تكشف عن مجاري المعرفة التاريخية في أوروبا قبل القرن التاسع عشر. من عصر الفلسفة إلى عصر العلم والتاريخ الوضعاني، وصولاً إلى القرن العشرين، قرن التاريخ الحوليائي، قبل أن ينتقل إلى استحضار نماذج واعدة في الكتابة

التاريخية، من قبيل "التاريخ من أسفل"، والتاريخ المجهري أو "الميكروستوريا". متسلحًا في ذلك بالمؤلفات الأصلية، التي اعتنت بقضايا المنهج والإسطوغرافيا، الفرنسية منها والإنجليزية والمترجمة من الألمانية إلى الإنجليزية. إضافة إلى اطلاعه على دراسات باللغة العربية تهتم بقواعد منهج التاريخ في أوروبا. ومن نافلة القول، أن الباحث نشر قبل سنوات نصوصا مختارة، عن توجهات إسطوغرافية متنوعة، نقلها إلى العربية في صيغة كتاب، بعنوان: "من أجل تاريخ إشكالي"، يتناهي مع العلوم الاجتماعية الأخرى، ويستحضر ورثي الذاكرة والعقليات^(٥). إنه هم معرفي يهدف إلى تحديث المعرفة التاريخية في الأوساط المغاربية والعربية، تصورا، ومنهجًا، وكتابة.

يُعَدّ القرن التاسع عشر، حسب المؤلف، مرحلة مفصلية في محطات مهنة المؤرخ، خصوصًا بين أروقة جامعي برلين والسوربون الرحبة، بقيادة مؤسسي التاريخ الوضعاني، كالمؤرخ الألماني ليوبولد فون رانكه، أبو التاريخ المنهجي، وأنصاره بفرنسا، أمثال: إرنست لافيس، وشارل سنيوبوس، وشارل لونغلو، وغابرييل مونو، وكاميل جوليان. مع هؤلاء انتعش التاريخ الوضعاني ووصل أوجّه، ذلك بفضل تضافر الحس الأرشيبي الوطني والمنهج التاريخي المتبع في ألمانيا. وهو ما عبرت عنه بفرنسا تجربتا، "المجلة التاريخية" وكتاب "مدخل للدراسات التاريخية"، اللتان ركزتا على كتابة التاريخ، كتابة موضوعية علميا وصارمة منهجية، تقوم على الوثائق، ولا شيء غير الوثائق المكتوبة الأرشييفية، كما أقر واضعو التاريخ المنهجي^(٦)، مما أفضى إلى بروز صنف من الإسطوغرافيا، متفوق على نفسه في رحاب الثانويات والجامعات، لا يتجاوز المكاتب المكيفة بتعبير لوسيان فيفر^(٧). بيد أنه رغم قصور هذا المنهج، وقوقعة إنتاجه في التاريخ الحديث السياسي والعسكري والدبلوماسي، سواء في النموذج الألماني أو الفرنسي. فإليه يعود الفضل في تأطير عمل المؤرخ وابتكار قواعد علم التاريخ^(٨)، بل وضعه أيضا، الحجر الأساس لكتابة "تاريخ توليفي يلم شتات ما تفرق في السابق من التأليف والدراسات، على نحو وصفي، حديث، تحقيقي"^(٩).

فكك صاحب الدراسة تحدي آخر، اعترض البحث التاريخي في نهاية القرن التاسع عشر، تمثل في السوسيولوجيا الدوركايمة، التي شت أنصارها نقدا لاذعا على المؤرخين والدراسات التاريخية. فقد عمل فرانسوا سيمياند على تحطيم المعبودات الثلاثة للمؤرخين: السياسي، الفردي، التسلسل التاريخي، مع إبداء رغبته في تاريخ إشكالي، تفسيري، اجتماعي، يهتم بالظواهر الاجتماعية والجماعات والمؤسسات^(١٠). إن هذا النقد يتقاطع بشكل كبير مع ما عدّه دوركايم من عيوب يتسم بها نهج الإسطوغرافيا الوضعانية، خاصة غياب المقارنة والتفسير. لقد دفع علم الاجتماع المؤرخين، إلى "إعادة صياغة تصوراتهم واستشكال موضوعاتهم وتنويع مصادر معطياتهم"^(١١).

محطة ميلاد الحوليات وأفق التناهج

أمام كل التحديات التي أثارها السوسيولوجيون أمام المؤرخين، عمل مارك بلوك على تخصيص مقارنته التاريخية للأزمته الوسيطية، بمفاهيم ومناهج ومقولات سوسيولوجية، كي "يستطيع الانتقال من المستوى الأفقي، مستوى الكتابة الإخبارية إلى مستوى عمودي، مستوى الكتابة المفاهيمية"^(١٢)، لإنتاج نصوص توليفية تعالج الماضي من زاوية البنيات والعقلية بدل الأحداث والتفاصيل، اعتمادا على شبكة منهجية ثلاثية: السؤال والتركيب والمقارنة من أجل التفسير والتأويل. ف"السؤال لاستنطاق الوثائق والتركيب لتجاوز التفاصيل وتوليد الأفكار والمقارنة لتجاوز التوصيف وبلوغ درجة التفسير"^(١٣). إن هذه الرؤية النظرية من شأنها أن تحرر التاريخ من سجون الوثيقة المكتوبة والمنهج الوضعاني والتاريخ الحداثي. هو ما التزم به مارك بلوك في دراساته وأبحاثه الغنية، كأول مؤرخ يكتب التاريخ الاجتماعي المقارن: مقارنة أفقية مجاليا، ومقارنة عمودية زمنيا. هذا الواقع، يقول محمد حبيدة: هو الذي "أهل أرباب الحوليات الأوائل لزراع روح مفاهيمية حية في تخصص راكم قاعدة منهجية كانت قد شاخت من فرط التدقيق في السنوات والتفاصيل"^(١٤).

في هذا الكتاب، المتسلسل زمنيا، والمتداخل موضوعاتيا وسياقيا، يشرع الكاتب نافذتين على روافد مجلة الحوليات قبل نشوئها. متوقفا عند أفكار كل من المؤرخ جول ميشلي والفيلسوف هنري بير، اللذان لقحا الكتابة التاريخية بفيض نابض بالحياة وبروح مشبعة بالتركيب. فقد لامس الأول، تاريخ المجتمع والأحاسيس في كتاباته وأعماله المنفردة إبان عصره، التي تعج بوجود وعقلية الهامشيين في السرديات التاريخية المصدرة والمرجعية.

أما الثاني: هنري بير، فقد هيج انتباه رواد الحوليات قبل نشوئها، إلى أهمية التركيب في التاريخ. إلى أهمية الاعتناق من التفاصيل وتوليد الأفكار لتفسير الماضي. إن هذا الرجل، يقر فيرناند بروديل، "هو إلى حد ما الحوليات قبل نشوئها منذ سنة ١٩٠٠، وربما منذ عام ١٨٩٠"^(١٥). لقد أقبل على تأسيس "مجلة التركيب التاريخي"، جامعا حوله باحثين من مختلف التخصصات، شغفا في تعميق النقاش وإنتاج أفكار توليفية، تجسر العلاقات بين العلوم الاجتماعية، وتجمع بين التحليل والمقارنة والتركيب. لكن رغم استجابة بعض المؤرخين لنداءات هنري بير، فقد اتجهت رؤاهم التناهجية، لا سيما مارك بلوك ولوسيان فيفر، نحو السوسيولوجيا والجغرافيا وعلم النفس الاجتماعي.

أفرد المؤلف القسم الثاني من دراسته لمدرسة استراسبورغ، ولا غرابة في ذلك. فقد شكل ظهور مجلة الحوليات الفرنسية سنة ١٩٢٩، منعطفا مفصليا في توجهات الدراسات التاريخية. لحظة بارزة في انتقال الإسطوغرافيا من الهوس بالمنهج إلى الرغبة في التناهج، بفضل أعمال الثنائي: لوسيان فيفر، المتخصص في التاريخ

الحديث، ومارك بلوك المهتم بالقرون الوسطى، إذ بهدف تحقيق تقدم المعرفة التاريخية ومواجهة تحديات العلوم الأخرى، بلور الرجلان في فضاء جامعة استراسبورغ مشروع الحوليات، الذي يقوم على تخصيص المقاربة التاريخية بنتائج أبحاث علوم الاقتصاد والاجتماع والجغرافيا والنفس، لاستعارة المفاهيم وتمديد الإشكاليات وبسط الأسئلة. لقد نقل هذان المؤرخان التاريخ من البحث في الأحداث إلى البحث في البنيات"^(١٦)، مما استدعى توظيف شواهد تاريخية متنوعة، ليس الوثيقة المكتوبة الأرشيفية فحسب، بل كل ما خلفه الإنسان من آثار مادية وغير مادية، أي "كل ما قاله الإنسان، وما كتبه أو ما صنعه"^(١٧).

وبصفة عامة، يُنبه محمد حبيدة إلى أن المتقضي لحصيلة إنتاجات مارك بلوك ولوسيان فيفر، لا شك أنه يتحسس انشغالهم الكبير بقضايا المنهج التاريخي. آلف الأول بحثا منهجيا "دفاعا عن التاريخ"^(١٨)، أما الثاني فقد نسج مقالات منهجية أدمجت بين دفتي كتابه: "معارك من أجل التاريخ"^(١٩)، بيد أنه رغم اقبالهم المشترك على شق طريق الحوليات بالعديد من المباحث والإشكاليات التاريخية، فقد اختلفا في وجهة الانفتاح والاقتباس. ففي الوقت الذي استحضر بلوك الخلفية السوسيولوجية الدوركيمية، اقترب فيفر من الجغرافيا الفيدالية الإمكانية في البداية، قبل أن يستقر اختياره على السيكولوجيا الاجتماعية، لفض بكرة تاريخ الأنساق الثقافية والتمثلات والحساسيات الجماعية الممهشة.

لقد حذق هذان المؤرخان، رفقة مؤرخين شباب ومخضرمين، في تشييد ونشر ملامح تيار إسطوغرافي مجدد، خلف العديد من الإنتاجات والانتصارات في معاركه المفتوحة من أجل التاريخ والتناهج بين علوم الإنسان، خاصة حين خفت أصوات علم الاجتماع والجغرافيا، بعد وفاة السوسيولوجي إيميل دوركايم والجغرافي فيدال دولابلاش.

عاشت الحوليات منذ تأسيسها سنة ١٩٢٩ تغيرات كثيرة في العناوين الفرعية لمجلتها"^(٢٠). هو ما يفصح حسب أحد الباحثين، "عن التحولات النظرية والمنهجية الأساسية في حياة هذا الاتجاه التاريخي. ويكفي لإدراك ذلك التمعن في دلالة هذه العناوين وتطورها"^(٢١). نعم لا شك في ذلك، فعناوينها الفرعية تعبر عن معارك معرفية خاضها الخطاب الحولياتي عبر تاريخه الفكري الطويل، وانتصر فيها مرارا بفضل تعاقب أجيال من المؤرخين على إدارة المجلة، واصلوا التناهج على جبهات علمية مختلفة، ما مكنهم من التكيف مع التحديات المعرفية والمستجدات النظرية"^(٢٢). هو ما لعب كذلك، دورا كبيرا في سعة الحوليات وانتشارها خارج فرنسا، حتى أصبح لها ممثلون ومنتمون في كل أنحاء العالم"^(٢٣).

إذا كان جيل ثنائي استراسبورغ، تعاطى لأوراش التاريخ الاجتماعي والثقافي، فقد ركزت أعمال الجيل الثاني من الحوليات على التاريخ الاقتصادي والثقافة المادية بقيادة

أزمة التفتت والمنعطف الجديد

معلوم أن الخطاب الحوليّ وصل إبان الثمانينيات من القرن العشرين، إلى منعطف إستيمولوجي جديد، تطبّع بأزمة وتفتت التاريخ وضياح موضوعه، بفعل استعارته المفرطة لأزياء الأنثروبولوجيين^(٢٨). فانحرف التاريخ عن الشمولية والتركيب. لكن جاك لوغوف، زعيم "التاريخ الجديد" له رأي آخر، حيث اعتبر أن "كل شكل من أشكال التاريخ الجديد هو محاولة لإنشاء تاريخ كلي"^(٢٩). ومع ذلك، فإنها أزمة لم تمس فقط الخطاب التاريخي، بل ابتلت معظم العلوم والمعارف، في سياق "المنعطف اللساني النقدي"، وموضحة تحليل أنساق الخطاب لسبر الواقع الاجتماعي^(٣٠).

يشير المؤرخ محمد حبيدة إلى أن الجيل الرابع من الحوليات، جيل برنار لوبوتي ومجموعته، بلور منعطفًا نقديًا مغايرًا همّ سياسات التناهج، كي تلتئم شقوق الكتابة التاريخية، ويسترجع التاريخ مكانته، من خلال حمايته من التفتت، والانحباس، والانصهار الكلي في خطابات العلوم الاجتماعية الأخرى. ثم الاعتناء بحقول الفرد والسياسة والزمن القصير، في مقابل الأوراش الرمزية والثقافية والزمن الطويل. إن عودة المؤرخين إلى البيوغرافيا، إلى الفرد، إلى السياسة، بعثت التاريخ السياسي من جديد، من رماد التاريخ الاقتصادي والاجتماعي والثقافي، بعدما صارت الشبكة الزمنية للمؤرخين تستهدف التاريخ المعاصر وقضايا الراهن، عكس ما كان عليه الوضع في الأجيال السابقة، حيث كانت الهموم المعرفية تتجه أكثر نحو أزمنة ما قبل الحداثة. وعودة التاريخ السياسي هذه، لم تتم بالزي الوضعاني، بل برغبة جديدة تنير الأضواء في بنيات الثقافة السياسية والأشكال الثقافية للسلطة^(٣١). وبصيغة أخرى، "الإحالة على السلطة" بتعبير جاك لوغوف^(٣٢).

لقد انتعش خطاب مجلة الحوليات، بفعل قدرتها على نشر أفكارها وتصوراتها، اعتمادًا على خطة الهيمنة كما يعلن صاحب الكتاب. لا تقوم هذه الاستراتيجية على التحكم في دور النشر، لإيصال كتب التاريخ إلى المؤرخين والسوسيولوجيين، بل أيضًا على تعميم المعرفة التاريخية، عن طريق وسائل الإعلام المرئية والمسموعة والمكتوبة، مع البحث الدائم والمستمر عن الدعم الأكاديمي من مؤسسات جامعية رائدة.

عمومًا، ما منح خطاب الحوليات قوة وأهمية أكثر بين علوم الإنسان، قدرته على المراجعة الدائمة، على إعادة الصياغة، على الابتكار المستمر، نظريًا، ومنهجيًا، ومعرفيًا، من خلال تعاقب أجياله. هذا ما جعل "مجلة البحث والكتابة لا تتوقف، وآلة النشر لا تعطل"^(٣٣).

في هذه الفسحة الإستيمولوجية، المفعمة بروح الوثائق، والمنهج، والنقد، والكتابة، ينتصر المؤلف لقضية الكتابة والسرد في التاريخ، على غرار رواد مشروع تحديث العلوم الاجتماعية، أمثال: بول فين وبول ريكور وميشال دوسيرتو وهابدين وايت. فالرهان يقتضي -يضيف محمد حبيدة- في

فيرناند بروديل، الذي عمل على توسيع مساحة التناهج والحوار بين العلوم الاجتماعية. كما ابتكر تصورًا ثلاثيًا للزمن التاريخي: الزمن الجغرافي أو الأمد الطويل، الزمن الاجتماعي أو الأمد الدوري، الزمن الفردي أو الأمد القصير. أي من البنات إلى الأحداث مرورًا بالظرفيات^(٢٤). يشير هذا التقطيع الزمني إلى تعدد وجهات التناهج والاقتباس من علوم مجاورة، كالجغرافيا وعلم الاقتصاد والسوسيولوجيا والأنثروبولوجيا.

منح بروديل أهمية كبيرة للزمن الطويل، بغرض مواجهة بريق التحليل البنوي مع الأنثروبولوجي كلود ليفي ستراوس. هذا على الأقل ما تعبر عنه أطروحته: "الحوض المتوسط والعالم المتوسطي في عهد فيليبي الثاني"، التي ناقشها سنة ١٩٤٧ تحت إشراف أستاذه لوسيان فيفر. إضافة إلى كتابه: "الحضارة المادية والاقتصاد والرأسمالية" سنة ١٩٦٧. يقول حبيدة: "تبقى دراسة البنات المادية هي الخيط الناظم بين الكتابين، وذلك بفضل الاحتكاك الكبير والمثمر مع الماركسية والبنوية"^(٢٥). إن الأمد الطويل يتصل بمفهوم البنية. فهو تاريخ بنات مادية وذهنية شبه ثابتة، بطيئة، ومتكررة. إنه تاريخ شمولي انعكس كثيرًا على كتابات ثلة عريضة من المؤرخين في فرنسا وأوروبا، بل ذاع صيته في العالم، وألهم العديد من الباحثين والجامعات. فأنشئت عدة مراكز علمية للبحث في التاريخ الاقتصادي والحضارات في أوروبا وخارجها. هنا إذن، "كان اللقاء مع كيو وهي ملهمة تأخذ شكل شبح يخيم على عقول عالما الحديث"^(٢٦).

بين محمد حبيدة أنه مع الجيل الثالث من الحوليات، في السبعينيات من القرن العشرين، غير مؤرخو الحوليات عدسة التناهج، من التاريخ الشمولي نحو التاريخ الأنثروبولوجي أو الأنثروبولوجيا التاريخية، في إطار مشروع "التاريخ الجديد"، الذي تزعمه جاك لوغوف باهتمامات تُشرّح حقول الذهنيات والمخيال والرموز، مما دفعه إلى تبني الحس الأنثروبولوجي، للغوص في ثنايا الطقوس والسلوكيات والتمثلات في القرون الوسطى.

لقد وصلت رغبة التناهج حد التخمّة في هذه المحطة، بفعل الاقتباس المفرط لمفاهيم العلوم الاجتماعية، خاصة الأنثروبولوجيا. فأمست الأبحاث التاريخية مولعة بتاريخ العقليات أو الذهنيات. عبارة عن خليط من الفكر الإثنولوجي والفلسفي وعلم النفس الاجتماعي. من أجل ذلك وظف الحولياتيون قوائم بيبليوغرافية، تزاوج بين المصادر المادية وغير المادية، بين الوثائق المكتوبة والشفهية، مع الانتقال من البحث في أطوار البنات المادية إلى مستويات الإشارات والرموز، من التاريخ الديمغرافيا التاريخية إلى تاريخ الطقوس والتمثلات، من تاريخ الأفعال إلى تاريخ الطقوس والرموز^(٢٧). يكفي الاطلاع على أبحاث مؤرخين مرموقين، من قبيل ميشيل فوفيل وفليب أرياس وبيير شوني، رفقة جاك لوغوف، لاستقصاء ما خلفه هذا الجيل من روائع، تهم تاريخ الموت والحياة والجنس والعائلة والتغذية وغيرها من المباحث، التي تندرج ضمن أوراش التاريخ الاجتماعي والثقافي بشكل عام.

- (١) فرنسوا دوس، التاريخ المفتت. من الحوليات إلى التاريخ الجديد، ترجمة محمد الطاهر المنصوري، بيروت، المنظمة العربية للترجمة، ٢٠٠٩.
- (٢) محمد حبيدة، المدارس التاريخية، م س، ص ١٥.
- (٣) نفسه، ص ١٧.
- (٤) نفسه، ص ٢٧-٢٨.
- (٥) عبارة عن مجموعة من النصوص تهتم بالتوجهات المعاصرة للمعرفة التاريخية، انتقاها محمد حبيدة من كتب ودوريات رائدة وترجمها إلى العربية. فعمل على إصدارها سنة ٢٠٠٤ تحت عنوان: "من أجل تاريخ إشكالي"، قبل أن يتوجه بطبعة ثانية سنة ٢٠١٥ في حلة منقحة سماها "الكتابة التاريخية". انظر: محمد حبيدة، من أجل تاريخ إشكالي. ترجمات مختارة، القنيطرة، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ٢٠٠٤. محمد حبيدة، الكتابة التاريخية: التاريخ والعلوم الاجتماعية، التاريخ والذاكرة، تاريخ العقليات، الدار البيضاء، أفريقيا الشرق، ٢٠١٥. أنجزت قراءة في هذا المنجز، بعنوان: "أوراش الكتابة التاريخية"، نشرت بتاريخ ٨ يونيو ٢٠١٥. يمكن الاطلاع عليها في موقع أرنتروپوس: www.aranthropos.com
- (6) Charles LANGLOIS et Charles SEINGBOS, Introduction aux études historiques, Paris, Armand colin, 1992, p.13.
- (7) Lucien FEBVRE, Combats pour l'histoire, in: Lucien Febvre, Vivre l'histoire, édition établie par Brigitte Mazon, Paris, Robert Laffont, 2009.
- (٨) محمد حبيدة، المدارس التاريخية، م س، ص ٥١.
- (٩) محمد حبيدة، "مؤرخون في خدمة الدولة: أحمد الناصري وإرنست لافيس، مقارنة مقارنة"، أسطور، ع ٧، ٢٠١٨، ص ١٧٨.
- (١٠) محمد حبيدة، المدارس التاريخية، م س، ص ٥٥. فرنسوا دوس، م س، ص ٤٩.
- (١١) محمد حبيدة، المدارس التاريخية، م س، ص ٥٨.
- (١٢) نفسه، ص ٦٠.
- (١٣) نفسه، ص ٨١.
- (١٤) نفسه، ص ٦٢.
- (١٥) محمد حبيدة، الكتابة التاريخية، م س، ص ٥٢.
- (١٦) محمد حبيدة، المدارس التاريخية، م س، ص ٧٦.
- (17) Marc BLOCH, Apologie pour l'histoire ou Métier d'historien, Paris, Armand colin, 1949, p. 42.
- (18) Ibid.
- (19) Lucien FEBVRE, Ibid.
- (٢٠) تغير اسم مجلة الحوليات طيلة القرن العشرين. فمن "حوليات التاريخ الاقتصادي والاجتماعي" سنة ١٩٢٩، إلى "الحوليات: التاريخ والعلوم الاجتماعية" عام ١٩٩٤، مروراً باسم "حوليات التاريخ الاجتماعي" سنة ١٩٣٩، و"مزيج التاريخ الاجتماعي" سنة ١٩٤٢، و"حوليات التاريخ الاجتماعي" سنة ١٩٤٦، و"الحوليات: اقتصاديات، مجتمعات، حضارات" عام ١٩٤٦. انظر: محمد حبيدة، المدارس التاريخية، م س، ص ٧٧.
- (٢١) محمد العياضي، دراسات في المجتمع والتاريخ والدين، الدار البيضاء، منشورات مؤسسة الملك عبد العزيز آل سعود، ٢٠١٤، ص ٥٦-٥٧.
- (٢٢) خالد طحطح، عودة الحدث التاريخي، الدار البيضاء، دار توبقال، ٢٠١٤، ص ٢٨.
- (٢٣) عبد الله العروي، مفهوم التاريخ، جزآن، الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي، الطبعة الرابعة ٢٠٠٥، ص ١٨٩. يمكن العودة كذلك إلى مقدمة المؤرخ التونسي محمد الطاهر المنصوري في

زمن الإجماع الإستمولوجي بدل زمن المدرسة الفكرية، في زمن المنعطف اللساني، والدراسات الثقافية، والتأويل، وما بعد الحداثة، ابتكار أنماط حديثة من الكتابة التاريخية، تستحضر مناهج العلوم الإنسانية، وتبدع أفكارها في قوالب ونصوص أدبية، تتسم بالروح العلمية والنفس الإبداعية، بالصرامة الأكاديمية والصياغة الأدبية السلسلة^(٣٤).

وما دامت الكتابة حلقة رئيسة في توليد الأفكار والمعاني^(٣٥). فقد أنهى الكاتب دراسته، بمقتطفات من كتاب نقدي معبر، يحمل عنوان: "التاريخ أدب معاصر"، للمؤرخ الفرنسي الشاب إيفان جابلونكه. نقرأ منه ما يلي: "في خريطة الكتابة، توجد قارتان: القصة الروائية واللائنص الأكاديمي. وهما معا ظهرا في القرن التاسع عشر (...). ولذلك، أقترح أن نخرج من القرن التاسع عشر هذا. فثمة قارة ثالثة تنفتح أمامنا، هي قارة الإبداع في العلوم الاجتماعية: بحث متعدد الاختصاصات، تلاقح، نص بحثي، أدب حقيقي، مغامرة فكرية مثيرة"^(٣٦).

صفوة القول، إن كتاب "المدارس التاريخية" بمثابة دليل بيداغوجي للطلاب والمهتمين بالمناهج في المعرفة الإسطوغرافية. فمعلوم أن هذه الزاوية من البحث، هامشية في الإنتاج التاريخي المغربي والعربي، رغم أنها لبنة أساسية لتحديث العملية التاريخية، إذ تساعد على إعادة التفكير في الإشكاليات والمناهج والمباحث. إن الملاحظ في أبحاث تاريخية حديثة الإصدار، "غياب المنهج، ورؤية الزمن، وبناء الموضوع"^(٣٧)، وكفي الاطلاع على بعضها لاكتشاف مكامن الخلل والضعف والقصور. فليس سويًا أن يخوض باحث في ورش تاريخي مستحدث دون أن يحيل إلى مؤسسيه. إلى أهم الإشكاليات والمفاهيم والمناهج التي اعتمدها أو بلورها في دراساتهم. فما أوجنا إلى ثقافة الانفتاح على المنجز الإنساني والاعتراف به كذلك!

ترجمته لكتاب "التاريخ الجديد". يشخص فيها أثر هذا الأخير على المؤرخين المغاربة والعرب. راجع: جاك لوغوف، ن م، ص ١٩-٢٧.

(٢٤) محمد حبيدة، "النص رقم ٢٢: التاريخ المفاهيمي. الأزمّة الثلاثة"، ضمن: **المدارس التاريخية، م س**، ص ١٧٤. هذا المقال هو في الأصل مقتطفات من تقديم أطروحة بروديل المشهورة حول المتوسط. للمزيد من التفاصيل، راجع:

Fernand BRAUDEL, **La Méditerranée et le monde méditerranéen à l'époque de Philippe II (1558-1598)**, Paris, Armand Colin, 1949, Tome I, pp. 16-19.

- (٢٥) محمد حبيدة، **المدارس التاريخية، م س**، ص ٩٧.
- (٢٦) فرنسوا دوس، ن م، ص ٥٢.
- (٢٧) محمد حبيدة، **المدارس التاريخية، م س**، ص ١٠٥.
- (٢٨) فرنسوا دوس، ن م، ص ٥٣.
- (٢٩) جاك لوغوف، ن م، ص ٧٩.
- (٣٠) محمد حبيدة، **المدارس التاريخية، م س**، ص ١١٣.
- (٣١) نفسه، ص ١٥.
- (٣٢) روني ريمون، "عودة السياسي"، ترجمة محمد العفاس، **مجلة أمل**، ع ٥٠، ٢٠١٨، ص ١١١.
- (٣٣) نفسه، ص ١٢٠.
- (٣٤) نفسه، ص ١٣٤.
- (٣٥) محمد حبيدة، **كتابة التاريخ. قراءات وتأويلات**، الرباط، دار أبي رقرق، ٢٠١٣، ص ١٠.
- (٣٦) نفسه، ص ١٣٠.
- (٣٧) محمد حبيدة، **بؤس التاريخ. مراجعات ومقاربات**، الرباط، دار الأمان، ٢٠١٥، ص ٧.



سياسة المغرب الإفريقية

حصيلة التاريخ المشترك وإكراهات التدخل الإسباني

خلال القرن الخامس عشر الميلادي

د. العربي بنرمضان

باحث في التاريخ الوسيط والحديث
دكتوراه من كلية الآداب والعلوم الإنسانية
فاس - المملكة المغربية



بيانات الأطروحة

أطروحة دكتوراه تاريخ وسيط وحديث
كلية الآداب والعلوم الإنسانية، سايس، فاس
جامعة سيدي محمد بن عبد الله

الباحث: العربي بنرمضان
إشراف: أ.د. ماجدة كريمي
٢٨٢ صفحة - المغرب ٢٠١٣

DOI 10.12816/0052964

معرف الوثيقة الرقمي:

كلمات مفتاحية:

العصر الوسيط، بلاد السودان الغربي، المجال الصحراوي، الدراسات الإفريقية، الاستعمار الإسباني

ملخص

تعالج الأطروحة الموسومة بـ "سياسة المغرب الإفريقية: حصيلة التاريخ المشترك وإكراهات التدخل الإسباني خلال ق١٥م" والتي يصل عدد صفحاتها ٢٨٢ صفحة، العلاقات المغربية الإفريقية ومدى تطورها عبر الزمن خاصة خلال العصرين الوسيط والحديث، حيث لعب المغرب دور الوسيط التجاري بين ضفتي البحر الأبيض المتوسط، ومن ثم نشطت باقي أوجه العلاقات بين المغرب وعمقه الإفريقي. كما تعالج هذه المساهمة البحثية في إبراز الاهتمام الكبير للأسر التي تعاقبت على حكم المغرب برعاية وتنمية التجارة الصحراوية في ظل ظروف سياسية جد متميزة مع دول إفريقيا جنوب الصحراء، بل وحرص المغرب طيلة فتراته التاريخية على الحضور الفاعل والمتميز بالمجال الجنوب الإفريقي، وأضحى مصدر كل التطورات التي تعرفها إفريقيا جنوب الصحراء، فمنه وعبره كان يتم نقل كل المقومات الحضارية نحو هذه الأخيرة.

كما ركزت هذه الأطروحة من حيث الزمن على الفترة الوسيطة باعتبارها الوعاء الزمني الذي ترجم بامتياز الحضور الفاعل للمغرب في إفريقيا جنوب الصحراء، والفترة الحديثة التي تزامنت مع حكم الأسرة السعدية التي ضمت بلاد السنغالي سنة ١٥٩١م على عهد أحمد المنصور السعدي، والتي شكلت انعكاسا

لمجموعة من المتغيرات الدولية بالبحر الأبيض المتوسط بظهور قوى سياسية جديدة في الشمال كإسبانيا والبرتغال والإمبراطورية العثمانية المتوثبة بالشرق، وبرغبة دفينة للأسرة السعدية لإعادة أمجاد بعض دول المغرب الوسيط التي امتدت حتى حدود نهر السنغال. كما لفتت هذه الأطروحة الانتباه إلى أن التراكم التاريخي الذي راكمه المغرب في علاقته بإفريقيا جنوب الصحراء، عرف انكماشاً خطيراً بعد اكتشاف السواحل الغربية الإفريقية من طرف بعض القوى الأوربية التي تمكنت من الوصول عبر السواحل الأطلسية وتجاوز الوساطة المغربية، فتضررت العلاقات التجارية وتراجع الحضور السياسي المغربي بإفريقيا جنوب الصحراء. ومن ثم أصبحت الحاجة ملحة لإحياء الدور المغربي في إفريقيا بإحياء إرثه التاريخي داخل القارة السمراء، وبإمالة اللثام عن مدى قوة حضور إفريقيا جنوب الصحراء في علاقاته الدولية، خاصة ونحن في ظل عالم متغير يفرض اتخاذ قرارات استراتيجية تملئها النزعة الدولية نحو التكتلات الإقليمية والجهوية.

مقدمة

إن المتتبع للعلاقات المغربية الإفريقية يلمس الازدهار والتطور الكبيرين الذين شهدتهما هذه العلاقات لفترات تاريخية طويلة، فقد لعب المغرب دور الوسيط التجاري بين ضفتي البحر الأبيض المتوسط، ومن ثم نشطت باقي أوجه

العلاقات بين المغرب وعمقه الإفريقي. فعلاً لقد اهتمت الدول التي تعاقبت على حكم المغرب بشكل كبير برعاية وتنمية التجارة الصحراوية في ظل ظروف سياسية جد متميزة مع دول إفريقيا جنوب الصحراء، بل وحرص المغرب طيلة فتراته التاريخية على الحضور الفاعل والتميز بالمجال الجنوب الإفريقي، وأضحى مصدر كل التطورات التي تعرفها إفريقيا جنوب الصحراء، فمنه وعبره كان يتم نقل كل المقومات الحضارية نحو هذه الأخيرة.

وإذا كان العصر الوسيط الوعاء الزمني الذي ترجم بامتياز الحضور المغربي الفاعل بإفريقيا جنوب الصحراء، فقد توج ذلك على يد الدولة السعدية التي ضمت دولة السنغالي سنة ١٥٩١م على عهد أحمد المنصور السعدي لدواعي مختلفة، يدخل ضمنها رد فعل الدولة السعدية اتجاه المتغيرات الدولية بالبحر الأبيض المتوسط المرتبطة بظهور قوى سياسية جديدة في الشمال والشرق من جهة، ومن جهة ثانية في إطار رغبة الأسرة السعدية في إعادة أمجاد بعض دول المغرب الوسيط التي امتدت إلى حدود نهر السنغال. غير أن هذا التراكم التاريخي عرف انكماشاً خطيراً بعد اكتشاف السواحل الغربية الإفريقية من طرف بعض القوى الأوربية التي تمكنت من الوصول عبر السواحل الأطلسية وتجاوز الوساطة المغربية، فتضررت العلاقات التجارية وتراجع الحضور السياسي المغربي بإفريقيا جنوب الصحراء. واليوم أكثر من أي وقت مضى تبدو الحاجة ملحة لإحياء الدور المغربي في إفريقيا بإحياء إرثه التاريخي داخل القارة السمراء، وبإماطة اللثام عن مدى قوة حضور إفريقيا جنوب الصحراء في علاقاته الدولية، خاصة ونحن في ظل عالم متغير يفرض اتخاذ قرارات استراتيجية تملئها النزعة الدولية نحو التكتلات الإقليمية والجهوية.

وعليه فاختيارنا البحث في موضوع: "سياسة المغرب الإفريقية: حصيلة التاريخ المشترك وإكراهات التدخل الإسباني خلال القرن الخامس عشر الميلادي" يندرج ضمن الدراسات الإفريقية التي تشكل إحدى الحقول المعرفية الهامة. والحق أن هذا الحقل المعرفي حضي باهتمام متزايد من طرف العديد من الباحثين من مختلف الأجناس والمشارب، فجاءت الكتابات التاريخية متنوعة ومتباينة فيما بينها تبعا لاختلاف الرؤى والمناهج، الأمر الذي يدفعنا لطرح تساؤلات تبتغي تثمين بعض ما ورد بها وتطمح إلى تعميق النقاش بخصوصها، فنقول:

- ما نسبة حضور تاريخ المغرب بشكل عام وتاريخ العلاقات المغربية الإفريقية ضمن هذه الدراسات؟
- ماهي الخطابات التاريخية التي تقاسمت هذا المنتج المعرفي؟
- ما هي خصوصيات ومنطلقات ومواضيع كل خطاب من هذه الخطابات؟

نسلم جميعاً بأن تاريخ المغرب في علاقته بإفريقيا جنوب الصحراء تجاذبته العديد من الخطابات، وذلك بمختلف الحقب التاريخية سواء منها الحقبة القديمة أو الوسيطة أو الحديثة أو المعاصرة، مع الإشارة إلى أن التاريخ القديم لهذه العلاقات لم يحض بنفس الاهتمام الذي حضي به التاريخ الحديث والمعاصر. ونظرا لاختلاف المناهج والمنطلقات يمكن القول، أن هذه الخطابات قد أخذت منها الكتابات الأجنبية: أمريكية - فرنسية - إسبانية حصة هامة وانقسمت إلى شطرين: أولهما تعرض لانتقادات كثيرة، إلا أنه لا يمكن إغفال الدور الكبير الذي لعبته هذه الكتابات في التعريف بهذه العلاقات نظرا للتراكم المعرفي الذي حصل لأصحابها حول تاريخ الغرب الإفريقي، وشرط ثاني تناول تاريخ هذه العلاقات بموضوعية علمية رصينة فباتت مرجعاً أساسياً لا يمكن تجاوزه من طرف الباحثين المحدثين^(١).

ونستحضر هنا البعض منها وفق الفترات التاريخية المدروسة فهذا: كورنفان (cornevin) الذي كتب "تاريخ إفريقيا من الجذور إلى الحرب العالمية الثانية"، وداقدسون (Davidson) "إفريقيا القديمة"، ودولاشبيل (De lachapelle) "لمحة تاريخية حول الصحراء الغربية"^(٢). أما في العصور الوسطى فيمكن القول أن هذا النوع من الكتابات أصبح أكثر غزارة نذكر منها كتابات: جوزيف كيوك (Joseph Cuq) "تاريخ أسلمة إفريقيا الغربية من الجذور إلى نهاية ق ١٦م"^(٣)، ورايموند موني (Rymond Mauny) "اللوح الجغرافية للغرب الإفريقي في العصر الوسيط"^(٤)، وفانسون مونتاي (Vincent Monteil) "الإسلام الأسود كدين لغزو إفريقيا"^(٥)، وجاك مونيي (Jaques Meunié) "المغرب الصحراوي من الجذور إلى سنة ١٦٧٠م"^(٦).

والشيء نفسه ينسحب على الكتابات الأجنبية حول العلاقات المغربية الإفريقية في العصر الحديث، ولا نجد أفضل مما كتب حول هذه الفترة ما قدمه ميشيل أبيتبول (Michel Abitbol) في كتابه المشهور عن العلاقات المغربية الإفريقية خلال العصر الحديث والمعنون بـ: "تومبوكتو ومجتمع الرامة من الغزو المغربي للسودان سنة ١٥٩١م إلى إمبراطورية ماسينا سنة ١٨٣٣م"^(٧). يضم هذا الكتاب الذي طبع ببباريس سنة ١٩٧٩م ٢٩٥ صفحة من الحجم المتوسط و ٥٠ صفحة للهوامش مقسم إلى أربعة أقسام أساسية، الباب الأول يعالج غزو السودان من طرف السلطة السعدية أسبابه ونتائجه العامة، كما يعالج تطور مؤسسة الباشوية إلى أواسط القرن السابع عشر الميلادي في الباب الثاني، أما الباب الثالث فتطرق فيه للحياة الاجتماعية والاقتصادية للباشوية في حين خصص الباب الرابع لانهيار الباشوية منذ وفاة المولى إسماعيل. تكمن أهمية هذا الكتاب في كونه يكشف النقاب عن التاريخ القديم لشعوب البول والتكرور

حيث ساهم في إعادة الاعتبار للهوية الجماعية لشعوب النيجر الأعلى التي فقدتها خلال السيطرة الاستعمارية، كما تكمن أهميته في اعتماده دراسات عديدة ومتنوعة خاصة مصادر التاريخ السوداني والمصادر المغربية مثل "مناهل الصفا" للفشتالي و"نزهة الحادي" للوفرائي و"الترجمان المغرب" للزياني و"الإستقصا" للناصرى وكذا مراجع حديثة مثل "رسائل سعدية" لعبد الله كنون وما كتبه المختار السوسي في "خلال جزولة" و"إيليج قديماً وحديثاً" ومراجع أخرى أوربية.

أما بخصوص الخطاب التاريخي الجنوب إفريقي: ويتعلق الأمر هنا بكتابات تاريخية وطنية خرجت إلى الوجود بعد موجة الاستقلالات التي عرفتها القارة السمراء خلال مرحلة الستينيات من ق ٢٠م، ونسجل أنها قد حاولت أن تجعل لنفسها موطئ قدم لها بين الكتابات الأجنبية وأن تنتزع الاعتراف من جديد بالتاريخ الأصلي والحقيقي للقارة الإفريقية، وإن ظلت حبيسة التوجهات التي حكمت بعض الكتابات الأجنبية. هي كتابات لا بأس بها على المستوى الكمي، نذكر على سبيل الإستئناس لا الحصر: زكاري دراماني ايسيفو (Zakari Dramani Issifou) "إفريقيا السوداء في العلاقات الدولية خلال ق ١٦م، تحليل للأزمة بين المغرب والسنغالي" ^(٨)، وآدم با كوناري (Adam Ba Konaré) "العلاقات السياسية والثقافية بين المغرب ومالي عبر العصور" ^(٩)، وكى زيربو (Ki-Zerbo) "تاريخ إفريقيا السمراء" ^(١٠)، وسكينى مودي سيسكو (S.M.Cissoko) "تاريخ إفريقيا الغربية" ^(١١)....

لكن على المستوى النوعي، يعتبر ما كتبه دراماني ايسيفو من أهم ما كتب حول هذه العلاقات خلال الفترة الحديثة، فقد تطرق إلى الدوافع الأساسية لاحتلال السنغالي من طرف الدولة السعدية في مقدمتها مسألة البيعة التي ارتبطت بشكل أساسي بمسألة الخلافة والتي تدخل في إطار الصراع السياسي المغربي العثماني بمنطقة شمال إفريقيا. هذا وقد أوضح أنه كان للأزمة المالية التي عرفها المغرب في عهد الدولة السعدية دوراً كبيراً في الحملة العسكرية على بلاد السنغالي إلى جانب الحلول الإجرائية الأخرى التي لجأ إليها أحمد المنصور، كما تعرضت هذه الدراسة إلى دور المالح في تأزم العلاقات المغربية السنغالية.

إضافة إلى هذه الدراسة الهامة هناك دراسات أخرى تناولت العلاقات بين ضفتي الصحراء، ونقصد هنا دراسة فليكس إيروكو (Félix Iroko) المعنونة بـ "السياسة المغربية ببلاد السودان خلال القرنين ١٦ و ١٧م"، والتي أشار فيها إلى التلاقح الحضاري الهام الذي تم بين ضفتي الصحراء والمتمثل في انتقال العديد من العادات والتقاليد إلى بلاد السودان الغربي، ناهيك عما شكلته بلاد السودان كمجال مزود للمغرب بمواد إنتاجية مختلفة كالذهب والملح والرقيق الذي شكل أحد العناصر الأساسية للمكونة للقوة العسكرية للدولة العلوية خلال القرن السابع عشر الميلادي ^(١٢).

أما باقي الكتابات فتميزت بالإجحاف الكبير في حق المغرب، حيث ذهب أصحابها إلى أن الحملة السعدية على السودان هي المسؤولة على جميع ويلات هذه المنطقة إذ دمرت الحضارة المزدهرة بها، كما أوقفت نهضة كبيرة خلال حكم آل أسكيا، لذا اعتبرت المد المغربي على السودان بمثابة الصدمة التي أذهلت هذا البلد كله، وجرت عليه كل الأزمات التي هزت كيانه وحالت دون إقلاعه، ومنعته من مساهمة تحولات عصره. فإذا كانت في نظر سيسوكو كارثة عظيمة حلت ببلاد السودان فقد وصفها كى زيربو بالوحشية والنهب والسلب وإتلاف الثروات، الشيء الذي تسبب في سقوط البلاد في سلسلة من الأزمات الاقتصادية أعقبتها أوبئة ومجاعات دمرت البلاد.

وأخيراً نصل إلى الخطاب التاريخي المغربي: ونقصد به الكم المعرفي الذي كتب حول تاريخ علاقات المغرب بإفريقيا جنوب الصحراء بأقلام مغربية والتي انصب اهتمامها على تتبع مسار هذه العلاقات عبر العصور، وإن لم تحض الفترة القديمة منها باهتمام كبير، إذ لم نعثر على دراسة متخصصة في هذا المجال مقارنة مع العصرين الوسيط والحديث اللذين حظيا بالنصيب الأوفر من هذه الدراسات، حيث تطرقت لمختلف الروابط الاقتصادية والاجتماعية والثقافية بين الطرفين، وذلك إما على شكل أطروحات أو رسائل أو مقالات ^(١٣). وهنا نسجل أنه لم تقف هذه المحاولات الجادة عند دراسة العلاقات بين المغرب وإفريقيا جنوب الصحراء بل تعدتها إلى التطرق لتاريخ السودان الغربي نفسه والتي همت جوانب مختلفة كالمجتمع والسياسة والثقافة ^(١٤).

وفي هذا الباب لا تفوتنا الإشارة إلى أنه على المستوى الرسمي شكلت فترة الثمانينيات من القرن العشرين منعطفا هاما في تاريخ البحث في هذه العلاقات، ويظهر ذلك من خلال إحداث مؤسسة مهمة للدراسات الإفريقية، إضافة إلى إدراج تخصصات في مجال البحث التاريخي حول جوانب التواصل بين المغرب وإفريقيا جنوب الصحراء ببعض المؤسسات الجامعية ^(١٥). كل هذه الجهودات سواء على المستوى المؤسسي أو الجامعي، كان الهدف منها تطوير البحث العلمي في هذا المجال والاهتمام بالتراث المغربي-الإفريقي المشترك. وفي هذا الإطار لا بأس من ذكر بعض الإنتاجات العلمية حول هذا التاريخ المشترك والتي جاءت متنوعة إما على شكل دراسات أو تحقيقات لبعض المخطوطات ^(١٦)، أو على شكل دراسات تحليلية أو مونوغرافية عالجت بعض الجوانب من تاريخ المغرب في علاقته بإفريقيا جنوب الصحراء ^(١٧).

وعلى الرغم من هذه المحاولات الجادة يجوز القول، أن الخطاب المغربي المهتم بهذه العلاقات لازال لم يحصل بعد على التحرر من التبعية للكتابات الأجنبية التي كانت سبابة لهذه المواضيع والتي أطرتها حسب تصوراتها ومنطلقاتها. خلاصة القول إذن، أنه على الرغم من التنوع الكبير للكتابات التي

تحديد الموضوع:

(الحقبة المدروسة والإشكالية)

يبدو أن اختيار موضوع البحث من الأمور الهامة والحاسمة في الكتابة التاريخية، لذلك يتطلب تحديده بدقة مع كثير من التريث والتبصر، وبمجرد الاستقرار على موضوع معين يكون الباحث قد خطا خطوة هامة في بحثه التاريخي.

واختياري البحث في إشكالية "المغرب وإفريقيا: حصيلة التاريخ المشترك وإكراهات الاستعمار الإسباني" فرض عليّ المزيد من التحديد، لأنه من خلال هذه الإشكالية الكبرى يظهر تداخل العنصر الاقتصادي والجغرافي والاجتماعي ضمن بوتقة واسعة ألا وهي الإطار السياسي، ذلك أن هذا الإطار هو العنصر الرابط بين كل هذه المجالات، بل فرض عليّ تحديد الإطار الزمني الذي ستسلط أطروحتي عليه الضوء والتي تتناول بالبحث الاستعمار الإسباني للمجال الصحراوي. فإذا كانت جل الكتابات تعتبر سنة ١٨٤٤م الانطلاقة الأولى لذلك فاللبنات الأولى لهذه النزعة الاستعمارية إنما تعود إلى قرون سابقة يكون القرن الخامس عشر الميلادي وعواؤها، وعليه فقد وجهت بحثي إلى هذه المحطة الزمنية مركزاً على إيضاح ملامح هذا التاريخ المشترك خلال العصر الوسيط الذي يمثل العصر الذهبي له.

وعلى هذا الأساس تتمحور الإشكالية الكبرى لهذه الدراسة حول تساؤل كبير يهم معرفة تموجات العلاقات السياسية بين دول المغرب وممالك السودان الغربي خلال العصرين الوسيط والحديث وأهم العوامل المتحركة فيها تتفرع عنها مجموعة من الأسئلة:

- ماهي الامتدادات الجغرافية لدول المغرب الوسيط خاصة في اتجاه الجنوب؟
- كيف شكل المجال الصحراوي الخيط الرابط بين دول المغرب الوسيط وممالك السودان الغربي؟
- لماذا اهتمت إسبانيا باكراً بالجنوب المغربي في إطار التنافس على المجال الإفريقي؟
- ما هي الآليات التي لجأت إليها لتوظيف الحزام الجنوبي المغربي في هذا المخطط التوسعي؟
- ما السر في تحول المجال الصحراوي من عنصر ربط هام بين المغرب وممالك السودان الغربي إلى عنصر توتر في هذه العلاقات ما بعد فترة الاستقلالات؟

منهجية البحث

لقد فرضت علينا إشكالية الدراسة وإطارها الزمني أن يكون موردنا العلمي الأساسي هو المصادر الوسيطية بمختلف تشعباتها التاريخية منها والجغرافية والفقهية علماً أن المعلومات متناثرة بها، الأمر الذي يتطلب الكثير من الجهد

تناولت مجالات التواصل المختلفة بين المغرب وإفريقيا جنوب الصحراء عبر العصور، فإنه لازالت العديد من جوانب هذا التواصل لم تحض بالاهتمام الكافي من طرف الباحثين حتى تعطى لهذه العلاقات المكانة اللائقة بها والمعبرة على مدى عراقتها وكثافتها.

دواعي اختيار الموضوع

إذا كانت دواعي البحث الخاصة بعملتي السابق الذي تقدمت به للحصول على (د.د.ع.م) بوحدة التكوين والبحث "المغرب والعلاقات الدولية شمال-جنوب" والذي انكب أساساً على تفكيك "ميثاق منظمة الوحدة الإفريقية" تستوجب بالأساس المقاربة التاريخية، إذ عملت على عرض الإطار التاريخي لوضعية القارة السمراء نتيجة الاستعمار الأوربي وما ترتب عن ذلك من اتخاذ رؤساء الدول الإفريقية من قرارات حاسمة ومصرية أخرجت للنور ميثاق منظمة الوحدة الإفريقية، فإن الرغبة في تعميق معرفتي بكل ما يتعلق بالعلاقات المغربية الإفريقية سياسياً حفزني على اختيار البحث في موضوع: "سياسة المغرب الإفريقية: حصيلة التاريخ المشترك وإكراهات الاستعمار الإسباني خلال القرن الخامس عشر الميلادي".

وعليه جاء اختياري لهذا الموضوع للاعتبارات التالية:

١. أن موضوع: "ميثاق منظمة الوحدة الإفريقية بين التنظير والتطبيق: دراسة تاريخية" الذي اشتغلت عليه للحصول على (د.د.ع.م)، فتح لي مجالاً أكاديمياً خصباً يتناول أكبر القضايا الإفريقية التي طرحت على هذه المنظمة خاصة منها قضية الوحدة الترابية للمغرب ومما زاد من شحذ فضولي العلمي حدث انسحاب المغرب من المؤتمر الإفريقي سنة ١٩٨٤، رغم البعد الإفريقي القوي في السياسة المغربية والمتربة عن تاريخ مشترك ومن ثم بات تأصيل هذا البعد يستأثر بكل اهتمامي.
٢. أن استحضاري للإرث التاريخي المشترك بين المغرب والقارة السمراء بشكل قوي منذ العصر الوسيط (غرب إفريقيا) شحذ حماسي لتأكيد هذا الأمر بالاعتماد على وقائع تؤكد الجغرافيا ويثمنها التاريخ.
٣. أن المغرب الذي ارتبط عبر الصحراء ببلدان إفريقيا السمراء مدعو الآن إلى إعادة التفكير الجدي في إعادة استغلال طرق قوافله التجارية بأشكال مختلفة، مستحضراً اعتبارات الوسائل التقنية العصرية والظرفيات السوسيو-اقتصادية والسياسية الجديدة بالقارة السمراء وباقي جهات العالم.

لتحليل وتركيب هذه المعطيات للخروج بأجوبة كافية لتفسير العوامل المتحركة في قضايا هذه الإشكالية المطروحة. كما فرض علينا تناول الموضوع في تسلسله الزمني الوقوف على كل مرحلة من مراحل العصر الوسيط، حتى نتمكن من استجلاء خصائص ومواصفات كل مرحلة على حدة وإبراز العوامل المتحركة فيها والخروج باستنتاجات توضح لنا الأسئلة الفرعية للإشكالية المحورية. هذا وقد فرضت علينا طبيعة الموضوع انتقاء نصوص تاريخية أو جغرافية لتدعيم معلوماتنا واجتهاداتنا في ظل غياب معطيات تاريخية تهم عقد اتفاقيات أو تبادل سفارات أو رسائل توضح لنا أسماء وتواريخ ومضامين هذه الاتفاقيات أو الرسائل.

وبناءً على ذلك، فإن معالجة الموضوع استوجبت منا: قراءة النصوص المختلفة ومحاولة استنباط كل ما يعرف بالعلاقات السياسية بين المغرب وإفريقيا جنوب الصحراء. والمقارنة بين هذه النصوص المختلفة والخروج باستنتاجات تخدم طبيعة الموضوع الذي نحن بصدد دراسته. والوقوف على مختلف العوامل التاريخية الداخلية والخارجية لتفسير العلاقات السياسية خلال هذه الفترة. والوقوف عند المتغيرات الدولية للحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط وبوادر ظهور الإمبريالية الغربية مع مطلع القرن الخامس عشر الميلادي.

المادة المصدرية والمرجعية

بما أن الإطار الزمني للإشكالية المدروسة كان الموجه الرئيس لاعتماد مادة مصدرية ومرجعية تعود بالخصوص إلى العصر الوسيط مع انفتاح على فترات قريبة أو بعيدة عن الفترة المدروسة، كان همنا الأول هو رصد الإطار المصدري لدراسة هذا الجانب (تاريخ العلاقات السياسية بين المغرب الأقصى وبلاد السودان الغربي خلال العصر الوسيط)، ثم الإكراهات التي خلفها الاستعمار الإسباني والبرتغالي والتشويش على هذه العلاقات، علماً أن الفترة الوسيطة تتميز بغنى المادة المصدرية التي يمكن حصرها في أعمال المؤلفين المرتبين زمنياً على الشكل الآتي:

- القرن الثاني والثالث الهجريين / الثامن والتاسع الميلاديين، فلا محيد عما كتبه كل من ابن عبد الحكم وابن خرداذبة واليعقوبي والبلاذري.
- القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي، نجد كل من ابن الصغير والإصطخري وابن حوقل
- القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي، نجد البكري.
- القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي، نجد كل من الشريف الإدريسي وأبي حامد الغرناطي.

- القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي، نجد كل من كتاب الاستبصار لمؤلف مجهول وابن عذاري المراكشي وياقوت الحموي.
- أما القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي، فيبدو أن المادة المصدرية أكثر غزارة مقارنة مع باقي الفترات المتقدمة من العصر الوسيط، حيث نجد كل من ابن أبي زرع الفاسي وأبي الفدا والعمرى وابن بطوطة وابن الخطيب وابن خلدون والقلقشندي والحميري، ليأتي الوزان في القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي.

أما المصادر الغربية والأبحاث الحديثة فتبدو كثيرة ومتنوعة تكاد لا تحصى تتناول مواضيع مختلفة ذكرنا بعضها سابقاً مثل (Jaque Meunié) جاك مونني، و (Joseph Cuoq) جوزيف كيوك، وروزينبرجي (Resenberger)، ورايموند موني (Raymond Mauny)، وبازيل دافيدسن (Basil Davidson)، والتي شكلت قيمة مضافة للأبحاث التاريخية والجغرافية المهتمة ببلاد المغرب وإفريقيا جنوب الصحراء. فقد ساهمت في إغناء وتفسير العديد من المعطيات التاريخية المصدرية كما ساهمت بشكل أو بآخر في تتبع تاريخ العلاقات السياسية بين المغرب وبلاد السودان الغربي، ناهيك عن مساهمتها في التعريف بالعديد من المجالات الجغرافية والمواقع الأركيولوجية ببلاد المغرب والسودان الغربي.

الصعوبات

من البديهي أن تعترض أي باحث في أي موضوع كان نوعه أو طبيعته صعوبات معينة قد تتعلق بطبيعة الموضوع نفسه أو بأدوات التناول، ومن جملة الصعوبات التي واجهت عملنا نذكر: - أن المعطيات التاريخية المرتبطة بموضوع العلاقات السياسية خلال العصر الوسيط غير واضحة في المصادر التي اعتمدنا عليها مما فرض علينا البحث عنها بين ثنايا المعلومات المقدمة، ثم تحليلها وتفسيرها وتركيبها في قالب قابل للدراسة والفهم. - الاختلاف والتناقض في الكثير من المعطيات التاريخية المتعلقة بالسنوات أو أسماء الأماكن أو الأشخاص مما فرض علينا بدل جهد كبير من أجل التوفيق بينها وترجيح الصحيح من الخطأ. - تركيز الدراسات الحديثة التي تناولت موضوع العلاقات بين الطرفين على جوانب مختلفة اقتصادية، اجتماعية، ثقافية ودينية دون تركيزها على العلاقات السياسية باستثناء بعض الدراسات التي أشارت بشكل عابر إلى هذه العلاقات (أحمد الشكري، آدام باكوناري ...).

- تركيز جل الدراسات الحديثة على العلاقات السياسية بين الطرفين في الفترة الحديثة والمعاصرة.

- شح إن لم نقل انعدام المعلومات المتعلقة بظروف وحيثيات وصول الإسبانين إلى الجنوب المغربي، والآثار المترتبة عن ذلك.

- إشارة بعض الدراسات الحديثة للوصول الإسباني إلى السواحل الجنوبية الغربية من المغرب منذ القرن الخامس عشر الميلادي دون الإشارة إلى مصدر المعلومة.

كل هذه الصعوبات وغيرها لم تثن من عزمنا لسبر أغوار هذا الموضوع حتى نتمكن من ربط ماضي إفريقيا بحاضرنا واستشراف مستقبل علاقات بلادنا بمجاله الإفريقي، ولم يتأت لنا ذلك إلا بفضل الجهود الكبيرة المبذولة من طرف أستاذتنا المشرفة الدكتورة: ماجدة كريمة، التي لم تبخل علينا بتوجيهاتها السديدة وبنظرتها العلمية الدقيقة، ومن أجل ذلك اعتمدنا تقسيم الموضوع إلى ثلاث محاور كبرى أساسية.

تصميم الموضوع

لقد أسفر العمل المتواصل في البحث إلى تقسيم الموضوع إلى ثلاث أقسام كبرى تندرج تحتها فصول ومباحث، إضافة إلى مدخل تمهيدي وخاتمة عامة.

الباب الأول: الوقوف عند مفاهيم تشكل مفاتيح القضية الإشكالية (سياسة المغرب الإفريقية)، وقد ركزت فيه على إبراز ملامح المجالات الجغرافية المؤسسة للعلاقات السياسية:

- المفهوم السياسي والجغرافي للمغرب وبلاد السودان الغربي خلال العصرين الوسيط والحديث حتى نتمكن من ضبط المجال وامتداداته ورفع الالتباس حول الامتداد الجغرافي للمغرب خاصة في اتجاه الجنوب.
- التعريف بالمجال الصحراوي سياسيًا وبشريًا باعتباره صلة الوصل بين الكيانين، والذي يحتضن كنه إن لم نقل سر هذا التوجه المغربي صوب إفريقيا الغربية، كما يشكل الخيط الرفيع لفهم سياسة المغرب الإفريقية في الماضي بل وفي الحاضر خاصة بعد استئثار الاستعمار الإسباني بهذه البقاع، وعليه فقد شكل هذا المجال الطبيعي جزءًا هامًا من بحث الأطروحة.

- مفهوم السياسة الخارجية حتى نتمكن من الوقوف على العوامل المختلفة سواء منها الداخلية أو الخارجية التي تحكمته بشكل مباشر أو غير مباشر في العلاقات السياسية بين الطرفين خلال العصر الوسيط والحديث.

الباب الثاني: الوقوف على أحداث تاريخية تؤصل للحضور المغربي بإفريقيا الغربية على المستوى السياسي، وذلك منذ الفتح العربي الإسلامي للغرب الإسلامي ودور المغرب في نشر الديانة الإسلامية بالسودان الغربي ابتداء من الأدارسة ومرورًا بالمراطين ثم الموحيدين فالمرينيين في قالب تبادلي تجاري وكذا علاقات ثقافية وسياسية ليستمر الأمر حتى على عهد المنصور السعدي.

الباب الثالث: وقد خصصناه لأوضاع المغرب الداخلية ومساهماتها في تطلع الإمبريالية الغربية للسيطرة على السواحل الغربية الجنوبية، لدوافع سياسية واقتصادية ارتبطت بشكل

رئيس بالتحويلات التي عرفتها أوروبا مع بداية القرن الخامس عشر الميلادي، والتي دشنتها بحركة الاكتشافات الجغرافية والوصول إلى أقصى الجنوب الإفريقي وبالتالي التأثير على مسار العلاقات السياسية بين المغرب الأقصى وبلاد السودان الغربي عند نهاية العصر الوسيط.

الخلاصات

من بين أبرز الخلاصات التي توصلنا إليها من خلال هذا العمل هي:

- إن تطور وازدهار العلاقات المغربية على الساحة الإفريقية خاصة خلال العصر الوسيط باعتباره العصر الذهبي لعلاقات المغرب مع عمقه الإفريقي، والفترة الحديثة باعتبارها مرحلة الأزمة السياسية، تحكمت بشكل كبير في النهج السياسي للمغرب اتجاه إفريقيا بعد تخلصها من نير الاستعمار.

- إن تاريخ المغرب فرع من فروع تاريخ القارة الإفريقية العتيق، بل الفرع الأكثر فعالية في أحداثها خلال الفترة المدروسة، فنظرًا للسبق التاريخي للمغرب أصبح مصدرًا ومعبرًا للعديد من المقومات الحضارية نحو الجنوب. فعبر المغرب تسرب الإسلام وانتشر انتشارًا واسعًا بالسودان الغربي عن طريق التجارة والتجار والعلماء والفقهاء والهجرة البشرية، وهو المشروع الذي بدأ مع الفتح الإسلامي للشمال الإفريقي وأتمته كل من دولتي الأدارسة والمراطين حتى أضحت الإسلام الدين الرسمي لعدد كبير من الفئات الاجتماعية بمختلف مستوياتها داخل السودان الغربي، كما أصبح المذهب السني المالكي أكثر المذاهب شيوعًا بين شعوب السودان الغربي. ولم ينحصر مستوى التأثير على العنصر البشري والروحي فحسب، بل مست هذه التأثيرات مختلف أوجه الحياة المادية والفكرية من لغة عربية وطرق للتدريس وأشكال التعامل والزي والجانب المعماري والعديد من عادات وتقاليده شعوب السودان الغربي.

- إن التأثير الكبير للمغرب وفرض حضوره السياسي والاقتصادي والاجتماعي والثقافي في السودان الغربي، لم يتأت إلا من خلال امتداده الجغرافي الكبير في الجنوب، فمن خلال استعراضنا لمفهوم المغرب الجغرافي والسياسي خلصنا إلى أن التأثير المغربي نابع من امتداده السياسي والجغرافي الكبيرين في الضفة الجنوبية للصحراء، واستغلاله أحد العناصر الأساسية الفاعلة في التاريخ البشري، وهو العنصر الطبيعي المتمثل في الصحراء بمكوناتها الطبيعية والبشرية، أسهم بشكل كبير في إخصاب العلاقات بين الشمال والجنوب على جميع المستويات.

- إن الخيط الناظم بين جل الكيانات السياسية بالمغرب خلال العصرين الوسيط والحديث، ارتكانها إلى مبدأ أساسي في علاقاتها الدولية، وهو استكمال مشروع الفتح الإسلامي، أي تمديد رقعة الإسلام بالقارة السمراء خاصة بالغرب الإفريقي. وقد اختلف هذا الهدف من حيث الأولوية بالنسبة للدول المغربية، فهناك من الدول من رفعت شعار "راية الجهاد" أولاً،

ثم بعد ذلك القيام بعملية التوحيد ثانيًا، والعكس بالنسبة لبعض الدول الأخرى التي ركزت على عملية التوحيد أولاً ثم بعد ذلك القيام بعملية الجهاد.

وقد انتهت هذه الدراسة بطرح بعض التساؤلات ستظل مفتوحة إلى حين الإجابة عليها مستقبلاً: ألا يمكن للمغرب أن يستغل هذا الإرث التاريخي لتطوير علاقاته مع دول إفريقيا جنوب الصحراء؟ ألا يتوفر المغرب على إمكانيات اقتصادية واجتماعية وثقافية يمكن استغلالها للرفع من مستوى الشراكة والتعاون مع الدول الإفريقية؟ أما حان الوقت للمغرب أن يسخر كل هذا وذاك لربح قضايا الوطن في مقدمتها قضية الوحدة الترابية؟

الهوامش:

- (١) جرمان عياش، دراسات في تاريخ المغرب، ط١، الشركة المغربية للناشرين المتحدين، ١٩٨٦، ص: ١١-٣٢.
- (2) Cornevin (Robert et Marianne), Histoire de L'Afrique des origines à la 2ème guerre mondiale, Payot, Paris, 1964. / B.DAVIDSON, L'Afrique ancienne I, Maspero, Paris-V1973. / De Lachapelle (F), Esquisse d'une histoire du Sahara occidental, Hespéris, tome XI, Librairie Larose, Paris1930.
- (3) Joseph Cuq, Histoire de L'islamisation de l'Afrique de l'ouest des origines à la fin du XVIe siècle, Paris, 1984.
- (4) Raymond Mauny, Tableau géographique de l'ouest Africain au moyen âge, Dakar 1961.
- (5) Vincent Monteil, L'islam noir une religion à la conquête de l'Afrique, collection Esprit/Seuil.
- (6) Jaque Meunié, Le Maroc Saharien des origines à 1670, Paris 1982.
- (7) Michel ABitbol, Tombouctou et les arma de la conquête marocaine du SOUDAN en 1591 à l'hégémonie de l'empire PEULH du MACINA en 1833.
- (8) Zakari Dramani Issifou, L'Afrique noire dans les relations internationales au XVIe siècle, analyse de la crise entre le Maroc et le Sonrhaï. éditions Karthala, Paris1982.
- (9) Adam Ba Konaré, Les relations politiques et culturelles entre le Maroc et le Mali à travers les âges, publications de l'institut des études africaines-Rabat, 1991.

(10) Ki-Zerbo, Histoire de L'Afrique noire, Hatier, Paris, 1970.

(11) S.M.Cissoco, Histoire de L'Afrique Occidentale, Paris, Présence Africaine, 1966.

(12) Félix Iroko, La politique marocaine au soudan XVI-XVII S, Sorbonne, Paris I, 1971.

(١٣) ونشير هنا إلى بعض الدراسات: -أحمد التوفيق، العلاقات بين المغرب وإفريقيا من خلال كتاب تاريخ الفتاش وتاريخ السودان، م.ج.م. كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، منشورات عكاظ، الرباط ١٩٨٧. -ماجدة كريمي، العلاقات التجارية بين المغرب والسودان في العصر المريني، د.د.ع.م، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط ١٩٨٨-١٩٨٩. -ماجدة كريمي، آثار التجارة الصحراوية على المغرب: سياسيًا واقتصاديًا واجتماعيًا من ١١/٥٥م إلى أواخر ١٤/٥٨م. دكتوراه الدولة، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، وجدة ١٩٩٥.

*- Abdelaziz El Alaoui: Le Maghreb et le commerce transsaharien (milieu du XIème-milieu du XIVème s).contribution à l'histoire économique sociale et politique du Maroc Médiéval. Thèse eu vue du doctorat de 3ème cycle, Bordeaux, 1983, p : 251.

(١٤) دراسة خالد أوشن حول "النشاط الاقتصادي في النيجر الأعلى، ٩٩٩-٦٢٨هـ/١٥٩١-١٢٣٠م"، الرباط ٢٠٠١. خالد الشكراوي، "الدين والسلطة في إفريقيا الغربية مساهمة في دراسة بعض البنيات السياسية بالسودان الغربي ٦٢٨-١٠٠٠هـ/١٢٣٠-١٥٩١م"، الرباط ١٩٩١. سالم المعلول، مملكة كانم-برنو، الدار البيضاء ٢٠٠٠.

(١٥) ونقصد بذلك معهد الدراسات الإفريقية الذي تم تأسيسه سنة ١٩٨٦ بالرباط، إضافة إلى مواد تخص الدراسات الإفريقية الذي تم إحداثه بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط سنة ١٩٨٦/١٩٨٧، وكذلك بكلية الآداب ظهر المهرز بفاس تدرس ببعض الشعب على رأسها شعبة التاريخ وكذلك شعبة الآداب، أدب عربي / فرنسي / إنجليزي.

(١٦) نشير هنا إلى الدراسات الهامة لكل من: الطالب أبو عيد الله، فتح الشكور في معرفة أعيان التكور، تحقيق محمد إبراهيم الكتاني ومحمد حجي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨١. -فاطمة الحراق، معراج الصعود أجوبة أحمد بابا حول الاسترقاق، منشورات معهد الدراسات الإفريقية، الرباط ٢٠٠٠. -بهيجة الشاذلي، إنفاق الميسور لمحمد بيلو/ تحقيق بهيجة الشاذلي، منشورات معهد الدراسات الإفريقية، الرباط ١٩٩٦. بهيجة الشاذلي، الفكر السياسي عند عثمان بن فودي، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، عين الشق الدار البيضاء ٢٠٠٠. ٢٠٠١.

(١٧) ونشير هنا إلى دراسة كل من الحسين العماري، المغرب والتجارة العابرة للصحراء من ق١٥م إلى ق١٨م، إسهام في دراسة تاريخ المغرب وعلاقته مع السودان الغربي في العصر الحديث، كلية الآداب والعلوم الإنسانية الرباط ٢٠٠٣. -أحمد الشكري، الإسلام والمجتمع السوداني، إمبراطورية مالي ٦٢٨-٨٣٤هـ / ١٢٣٠-١٤٣٠م. ك. أ. ع. إ. الرباط ١٩٩٠ - ١٩٩١. -محمد الغربي، بداية الحكم المغربي في السودان الغربي، الجمهورية العراقية، وزارة الثقافة والإعلام، دار الرشيد للنشر، بغداد ١٩٨٢، ص: ١٤.

تدنيس المقدس في بلاد الشام عصر الحروب الصليبية الدين والجنس

د. أشرف صالح محمد سيد

أستاذ مساعد تاريخ وراث العصور الوسطى
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
جامعة ابن رشد - هولندا



أ.د. إمام الشافعي محمد حمودي

أستاذ التاريخ والحضارة الإسلامية
رئيس قسم التاريخ - كلية اللغة العربية
جامعة الأزهر - جمهورية مصر العربية



ملخص

كان الواقع في القرن الحادي عشر الميلادي مهيباً تماماً للحركة العسكرية الاستعمارية الخطيرة التي عُرفت باسم "الحروب الصليبية"، فالشرق ممزق ضعيف، والغرب ممزق ضعيف، وفي خضم هذه الأمواج المتلاطمة شرقاً وغرباً، وانهيار نُظم الحكم، وضياع الأراضي المقدسة، ونفوذ رجال الدين، و قدسية البابا في الغرب، وخليقة المسلمين في الشرق، تأتي رسالة البابا أوربان الثاني لتوحد صفوف الغرب وتدعو إلى فرصة بدت سانحة لاستعادة المناطق المسيحية التي استولى عليها العرب. وعلى مدى ما يقارب قرنين من الزمان، بين الدعوة إلى الحملة الأولى على الشرق (١٠٩٥م/ ٤٨٨هـ)، وطرده للصليبيين من عكا آخر معاقليهم في بلاد الشام (١٢٩١م/ ٦٩٠هـ)، لم تخل سنة واحدة من سيل المسلحين المتدفق إلى الشرق. وتكشف لنا الدراسة المتفحصّة عن التاريخ الواقعي للصليبيين، وليس كما حرصت كتب الحوليات المبكرة على تصويرهم أنهم أطهار وجند المسيح، ولا تحركهم سوى الزاوية الدينية، فهم عملياً كانوا أشخاص عاديين التصقت بهم روح الميوعة والانحلال الخلقي منذ بداية قدومهم إلى بلاد الشام، فانغمسوا في كثير من الانحرافات التي اعتادوا عليها في مجتمعاتهم الأوروبية، حيث سادت حياة الفساد والمجون طبقات المجتمع الصليبي المختلفة. وتتناول هذه الدراسة الدين والخطيئة الجنسية خلال هذه الفترة في بلاد الشام والفساد الجنسي بين رجال الدين، ودور الكنيسة في الحد من هذا الفساد، والآثار الدينية لتلك الخطيئة، بهدف إبراز صورة وتطور أخلاقيات الغزاة، فلم يكن لديهم ما يمكن وصفه بقضية صليبية حقيقية.

كلمات مفتاحية:

الخطيئة الجنسية، رجال الدين، الحملات الصليبية، العصور الوسطى، الكنيسة

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث: ٢٨ فبراير ٢٠١٨
تاريخ قبول النشر: ٠٩ مايو ٢٠١٨

DOI 10.12816/0052957

معرّف الوثيقة الرقمي:

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

إمام الشافعي محمد حمودي، أشرف صالح محمد سيد، "تدنيس المقدس في بلاد الشام عصر الحروب الصليبية: الدين والجنس"، دورية كان التاريخية، السنة الحادية عشرة - العدد الأربعون: يونيو ٢٠١٨، ص ١٩٣ - ٢٠٢.

مقدّمه

بنو إسرائيل^(٣) حيث لعبت النساء دوراً هاماً في البغاء المُقدّس^(٤) وهو الذي كان يمارس في ظل المعابد الكنعانية، بل وصل حتى إلى هيكل أورشليم (بيت المقدس)، وكان البغاء يمارس في شعب إسرائيل كما في البلدان المجاورة، وهو لا يشجب على المستوي الأخلاقي، بل على مستوى المصلحة الشخصية.^(٥) وقد ورد في العهد القديم فقرات لا تحرم البغاء في حد ذاته، وإنما تحرم على العبرانيين أن يدعو بناتهم يعملن بهذه المهنة، وهناك فقرات تحرم على الكهنة الزواج من عاهرات وهو تحريم ليس عام أو مطلق، وإنما مقصور على أفراد معينين وتحت ظروف معينة، ويحرم التلمود البغاء بين اليهود تماماً، وهناك أجزاء كثيرة من التلمود تنعت البغاء بكل الصفات السلبية، وتبين عقوبة من يعمل بهذه المهنة البغيضة.^(٦)

يقبل الفكر العبراني الجنس كجزء طبيعي في الحياة، ويحث على الزواج بشدة^(١) وفي العهد القديم (التوراة) شُجِبَ الزنى في الوصايا العشر واعتبر عملاً يسيئ إلى حق القريب، وقد جعل الزنى من بين المحرمات التي تجعل الإنسان دنساً بحسب الشريعة، فاعتبر الزنى خطيئة يعاقب الله الإنسان بسببها، وفي الشرق القديم كله صار الزنى خطيئة ذات بُعد ديني.^(٢) على الرغم من كل هذه التعاليم الواردة في التوراة بتحريم الزنى، فإن (Astarte) عشتاروت إلهة النبات والخصب، رديفة عشتار البابلية انتشرت عبادتها الفاسقة (البغاء المُقدّس) في الشرق كله، ولا سيما في فلسطين، حيث كان لها تأثير خطير في

إخضاع المرأة، فقد نظر رجال الدين إلى المرأة على أنها شرًا وإغواء، وكارثة، وخطرًا، وفتنة، ولكنها أيضًا عنصرًا مرغوبًا.^(١٣)

في المرحلة المبكرة من العصور الوسطى تكونت نظريات تنادي بأن "المرأة بوابة الشيطان، وطريق الشر، ولدغة الحية، وفي كلمة موجزة المرأة موضوع خطير"،^(١٤) بل إن آباء الكنيسة استكثروا أن تكون للمرأة روح علوية، فبحثوا في ذلك وأوشكوا أن يلحقوها بزمرة الحيوان الذي لا روح له بعد فناء جسده.^(١٥)

وإذا كانت المرأة هي حواء التي خسر بسببها الجنس البشري جنات عدن، وأنها أداة الشيطان التي تقود الرجال إلى الجحيم، فقد أصبحت في نظر البعض في منزلة أقل من منزلة "رفيق الأرض"،^(١٦) وساد الاعتقاد في العصور الوسطى أن المرأة تخضع للرجل بحكم ضعفها الجسدي والعقلي، ورغم ذلك نادى القانون الكنسي بوجوب حماية الرجل للمرأة، وكما أن الله مبدأ كل شيء ومنتهاه، فإن الرجل مبدأ المرأة.^(١٧)

كان السادة الإقطاعيون في العصور الوسطى الأوروبية ينظرون للنساء باعتبارهن أدوات للمتعة الجسدية وإنجاب الأطفال لا غير،^(١٨) وفي الوقت نفسه ظهرت في أوروبا بعض الأفكار الدينية المتطرفة الخاصة بالجنس وعلاقة الرجل بالمرأة، فقد كان المذهب الكاثاري (الألبيجيني- Albigenses) يمنع من أكل أية لحوم أو حتى البيض، الذي نتج عن اللقاء الجنسي، وكانت المرأة الحامل بالنسبة لهم شخصًا منبوذًا، وفي الوقت نفسه كانوا يتمتعون بحرية واسعة في أسلوب حياتهم لاسيما في شؤون الجنس.^(١٩)

كان أحد الملامح الأصلية لاتجاهات الناس الجنسية قبل اندلاع الحروب الصليبية، يتمثل في أنهم محكومون بردود الأفعال تجاه الخطيئة وتقديرهم لعواقبها، ولم يكن أي جانب من السلوك الإنساني والتفاعل الاجتماعي محصنًا ضد وصمة الوقوع في برائن الرذيلة، وأولئك الذين كانت حياتهم موجهة عمدًا في بيئة اجتماعية وأنظمة بشكل صارم - مثل القساوسة العُزَّاب والرُّهَّاد والرهبان والراهبات - هم فقط الذين كان يمكنهم أن يأمنوا في تجنب بعض السقطات التي لا تحصى في الوجود اليومي.^(٢٠)

لقد أجمع مَنْ كتبوا حول الموضوعات الأخلاقية في العصور الوسطى على أن ممارسة الجنس شيء نجس، عمل آثم يندس الجسد والروح معًا،^(٢١) وهكذا كان من الصعب أن يكون الجنس بأي شكل على وفاق مع المثل العليا المسيحية، وحتى في الزواج، كان الجماع يشوبه دائمًا نحو من خطية الشهوة الجنسية. ولكنه في الوقت نفسه كان لازمًا على الزوجين إقامة علاقات جنسية عند الحاجة. مع الامتناع عن الجماع لفترات قصيرة برضاء الطرفين اتباعًا لتعاليم القديس بول، فضلًا عن ذلك فقد تضاربت الأقوال في كتب الغفران إبان بداية العصور الوسطى حول إلزام المتزوجين بالابتعاد عن الجماع خلال فترات هامة من العام الكنسي. أما الأشخاص الذين يؤدون كفارة مثل الحجاج على سبيل المثال، فهؤلاء كان يجب عليهم الامتناع التام عن الجنس.^(٢٢)

الواقع أن العصور الوسطى كانت بوجه عام أكثر تسامحًا في مسائل الحياة الجنسية عن كثير من العصور التي سبقتها أو التي

أما عن آراء آباء الكنيسة عن الجنس، فما تزال هذه الآراء محل جدل كبير حتى اليوم، فيتفق جميع آباء الكنيسة على أن للاتصال الجنسي غرض واحد فقط، هو إنجاب الأطفال، وهم يؤمنون إيمانًا قاطعًا بأن إشباع الرغبة الجنسية بحد ذاتها خطيئة، كما أنها نتيجة الانحلال الخلقي لدى الإنسان، ويعبر القديس جريجوري عن هذا المبدأ بقوله: "حين لا يكون حب إنجاب الذرية، بل حب المتعة هو الذي يحكم عملية الاتصال الجنسي، فإن الأزواج يرتكبون أمرًا يجعلهم يبكون ويحزنون بسببه"، إن الدين المسيحي أباح لهم ذلك، ولكنه حذرهم من أن يكون الاتصال الجنسي بقصد المتعة، وفي رأي كثير من العلماء البروتستانت لا يمكن أن نجد في الإنجيل تحقير للحب الجنسي- والزواج الذي نادى به آباء الكنيسة.^(٧)

وقسك آباء الكنيسة بأن الطهر والنقاء هما الحالة المثلى للرجال والنساء، وأن السيدة مريم أم المسيح - عليهما السلام - كانت عذراء، وأن الكنيسة هي عروس المسيح العذراء، ومن ثم فإن الحالة المثلى هي الإحجام عن الاتصال الجنسي، بل وحتى عن الزواج، لذا يقول القديس أمبروز: "إن أولئك الذين لا يتزوجون كالملائكة في السماء"،^(٨) وهو ما يُعرف بالإمساك الجنسي (Continence) وهو إمساك اختياري مؤقت، أو إمساك دائم عن العلاقات الجنسية.^(٩)

جاء على لسان القديس بولس نفسه ما يفيد منه إباحة الزواج لرجال الدين، فالمسيحية لم تحرم الزواج على رجال الدين، ولكنها فضلت لهم حياة العزوبة، فقد حرصت الكنيسة على مبدأ عزوبة رجال الدين في تشريعاتها وطلبت من جميع القساوسة أن يترددوا من منازلهم مَنْ يحللن لهن من النساء، مع السماح لأولئك الذين كانوا قد تزوجوا قبل ترسيمهم قساوسة بالاحتفاظ بزواجهم بشرط أن يعاملهن كأخوات ولا يعاشرنهن كزوجات، والواقع أن البابوية لقيت في ذلك العصر - معارضة شديدة عند تطبيقها هذا المبدأ من رجال الدين، ومن بعض بعيدي النظر الذين خشوا عاقبة انتشار الزنا، والزواج العرفي بين رجال الدين.^(١٠)

إن موضوع عزوبة رجال الكنيسة أدى إلى كثير من الرذائل لأنه مخالف في الواقع للطبيعة البشرية، فكان لرجال الدين مغامرات جنسية غير مشروعة تفوق بكثير مفاصد غيرهم من غير رجال الدين.^(١١) وقد وضعت الكنيسة العديد من التشريعات التي تعمل على الحد من انتشار الانحراف الجنسي- خاصة في المجتمع الأوروبي، فقد وجدت الكنيسة بعد القرن (الثاني عشر- الميلادي/ السادس الهجري)، ضرورة مصادقتها على الزواج حتى يصبح شرعيًا، وفرضت حضور أحد القسوس حفل الزواج، أما السن المألوفة للزواج فهو سن البلوغ، فقد كان الثانية عشر- للبنات والرابعة عشر- للولد، وهناك بعض الحالات الاستثنائية خاصة إذا وجدت حقوق ملكية.^(١٢)

رفعت مبادئ المسيحية من مكانة المرأة، كما قدستها المسيحية على أساس أنها السيدة مريم العذراء والدة السيد المسيح - عليهما السلام - ولكن نظريات الكنيسة كانت بوجه عام معادية للمرأة باعتبارها حواء التي أخرجت آدم - عليه السلام - من الجنة، ولذلك غالت بعض قوانين الكنيسة في

لقد دأبت خيال التابع الإقطاعي الشاب والعازب أحلام عن أعاجيب الشرق والثراء والقصور وجمال الحريم.^(٢٧) وفي سنة (١٠٩٦م/ ٤٩٠هـ)، رحل البابا أوربان الثاني عن فرنسا عائداً إلى إيطاليا حيث تابع خطبه في إلهاب حمية الجماهير، محرّضاً إياها للاشتراك في الحرب ضد المسلمين، وقد رافقت دعوة البابا هذه دعايات شفهية وكتابية مزورة ومختلقة قام بها بعض المتعصبين، وكانت غايتهم منها تحريض فرسان أوروبا الغربية لشن الحرب على المسلمين، والاستيلاء على خيرات بلادهم التي تدرّ لبناً وعسلًا، وعلى نساء آسيا الصغرى الجميلات، وسوى ذلك من مباحج الحياة في الشرق.^(٢٨)

تفشّت جريمة الزنا بين الصليبيين في زحفهم نحو بلاد الساحل الشامي، حيث اعتبر كثير من المشاركين أن القلم قد رُفِع عنهم بمشاركتهم في الزحف نحو الأرض المقدسة، وأن كافة جرائمهم مُعفى عنها بموجب الوعد البابوي، وعلى ذلك شاع في المدونات التاريخية الصليبية عن الحملة الصليبية الأولى أخبار كثير من حالات الزنا، حتى بين الرهبان والراهبات.^(٢٩) فاعتقد الصليبيون أن مجرد المشاركة في الجهد الصليبي من شأنه أن يغفر لهم خطاياهم، ويخلصهم من الكفارة المستحقة على ذنوبهم،^(٣٠) فانغمسوا في كثير من الانحرافات التي اعتادوا عليها، ومنها الخطايا الجنسية، كارتكاب فاحشة الزنا واللواط (السُدومية).^(٣١)

بل كان البعض يعتقد أن صلاته يوم الأحد في كنيسة البلدة تكفر عما اقترفه من إثم خلال أيام الأسبوع.^(٣٢) وكان فرسان الغرب الأوروبي على الجملة، لا يفهمون من الدين سوى أنه حياة الذخائر المقدسة،^(٣٣) أو الهبات التي كانوا يقدّمونها بسخاء على الأديرة والكنائس تكفيراً عن ذنوبهم، إذ كان التكفير عن الذنوب أيسر لهم من الالتزام بالفضيلة.^(٣٤)

ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد، بل كانت بعض العاهرات الأوروبيات تعتبر أن ممارسة الدعارة مع العُزّاب من الأوروبيين في الأراضي المقدسة قربة دينية لا يساويها أي ثواب. فقد ذكر أنقاً وصول مركب بها ثلاثمائة امرأة فرنجية مستحسنة اجتمعن من الجزائر - جزر البحر المتوسط - وقصدن من خروجهن تسبيل أنفسهن للأشقياء، وأنهن لا يمتنعن من العزباء، ورأين أنهن لا يتقرن بأفضل من هذا القربان، وزعن أن هذه قربة ما فوقها قربة، لاسيما فيمن اجتمعت فيه عُرْبة وغُرْبة.^(٣٥)

إلى جانب استغلال الدين كدافع للانحراف الجنسي، كان لضعف الوازع الديني في نفوس الصليبيين أثر كبير في نشر رذيلة الزنا والدعارة داخل المجتمع الصليبي،^(٣٦) يقول ألبرت فون آخن عن وصول الصليبيين إلى مدينة صيدا في الحملة الصليبية الأولى: "في ضواحي صيدا فقد الكثير من الحجاج أرواحهم بفعل لدغ الثعابين لهم، وتعرف الحجاج على دواء وهو أن الرجل الملدوغ يجب عليه فوراً أن يعاشر امرأة فيُشفى ويتحرر من الورم"،^(٣٧) فقد أدى عدم تأصيل الشعور الديني إلى تيسير الأمر لمرتكبي الجرائم الجنسية.

ومن الأسباب الدنية للانحراف الجنسي، فساد الهيئة الكنسية التي كان من المتوقع أن تقوم بدور الرقيب الأخلاقي في المجتمع الصليبي، فنجدتها تحرف وتتحول عن غرضها الأساسي

جاءت بعدها، فلم يكن هناك أحد من أهل تلك العصور - مع استثناء القساوسة والرهبان والراهبات - يرغب في كبت نزعاته الجنسية، إنما كان ينفث عن هذه النزاعات بشكل مستور فيه الكثير من الرياء والمواربة، فإذا ما أفلح الشخص في ذلك أمكنه الاستمتاع بهذه اللذائذ الجسدية كما يرغب ويريد، في حين كان رجال الدين يريدون القضاء على هذه النزعات ويعتبرونها رجس من عمل الشيطان.^(٣٨)

لقد طرأ على الحياة في العصور الوسطى الكثير من التغيرات والتطورات البعيدة الأثر، وإذا أردنا أن نصف تلك العصور وصفاً دقيقاً متميزاً فلا نجد أحسن وأدق من قولنا إنها كانت في جوهرها عصر التملق والرياء والمظاهر الكاذبة، وهذا ينطبق على العلاقات السياسية كما ينطبق بشكل أدق على العلاقات الجنسية. فقد كان كل شيء في ظاهر المر يتركز حول مبدأ الولاء والإخلاص، فنظام الإقطاع كان يعتمد كل الاعتماد على ولاء وإخلاص التابع أو رفيق الأرض لسيده صاحب الأرض، وإن كان يحمل في قرارة نفسه ضغناً مريراً لصاحب الأرض، والحياة الزوجية بدورها تعتمد على الإخلاص الزوجي ذلك الإخلاص الذي لم يترك موضعاً لأية علاقة جنسية أخرى غير شرعية، وإن كان كل من الزوجين يهفو إلى رفيق آخر، وإن لم يفصح عن ذلك جهراً وعلانية.^(٣٩)

غير أن هذا التسامي بعقيدة الولاء والإخلاص كان له رد فعل آخر يتصف هو أيضاً بالتسامي، ولكنه سمو من نوع آخر عجيب، أي سمو بالخيانة الزوجية والارتفاع بها إلى مستوى رفيع، فهي ليست عاراً، ولكنها فن جميل، مادام الشخص الذي يمارسها يراعي تقاليد المجتمع المتأدب وعنده الاستعداد لانتضاء السيف بل والموت في سبيل مَنْ يحب إذا اقتضى الأمر ذلك. ومن عجب أن الألفاظ المستعملة في قانون الأدب والأخلاق الفاضلة مثل الشرف والظهر والفضيلة قد استخدمت بعينها في ميدان الفسق والفجور والخيانة الزوجية، إذ كانت هذه الألفاظ وأمثالها تدور على ألسنة الأبطال الذين غدروا بزوجات الرجال الآخرين واتخذوا منهن عشيقات ومحظيات.

لقد كان من النادر أن يتزوج فارس من فرسان العصور الوسطى قبل أن تكون له غزوات ومعارك مشهودة في ميدان الفسق والفجور وتمرس في فن إغراء الزوجات، وأن يكون قد خرج من تلك المعارك العديدة التي خضاها بتذكارات تشهد بانتصاراته في هذا الميدان العجيب، ميدان الجنس، وإلا عُدَّ من الفرسان الخاملين الذين لا يستأهلون ولا حتى مهماز الجواد الذي يمتطونه، لقد كان الفسق والفجور والزنا عبارة عن تسلية اجتماعية بين أهل الطبقة العليا.^(٤٠)

الدين والخطيئة الجنسية

على الرغم من أن الدين كان يجب أن يكون وازعاً للصليبيين في الامتناع عن الأعمال الجنسية المخالفة لتعاليم المسيحية، إلا أن تم استغلال الدين في حث الأوروبيين على ارتكاب الفاحشة على الأقل مع أعداء المسيحيين كالمسلمين والمسيحيين الشرقيين على أقل تقدير.^(٤١)

جميلة مرموقة جدًا في إحدى الحدائق القريبة من أبواب المدينة، بين الشجيرات النامية بالقرب من أنطاكية، قُتل الأتراك خفية من الباب، وهاجموه ونصبوا له كمينًا وقتلوه.^(٤٦) وعندما أعلن (بطرس بارثليميو) حلم الحربة المقدسة التي أثرت كثيرًا في فك الحصار عن مدينة أنطاكية المحاصرة من قبل المسلمين، كانت حجة المندوب البابوي (أدهيمار دي مونتييل) في إنكار حلم الحربة المقدسة الذي ادعاه (بطرس بارثليميو) أنه رجل لم يؤثر عنه شيء من التقوى، بل كان أقرب ما يكون إلى الميل للأخذ بشهوات الدنيا، والإقبال على متاعها دون رعاية لنواهي الدين والعرف والأخلاق،^(٤٧) فكان أدهيمار دي مونتييل يعلم بأن بطرس بارثليميو سيء السمعة ولا يمكن الاعتماد عليه.^(٤٨)

يقول وليم الصوري عن أحوال رجال الدين المسيحي في الشرق اللاتيني بعد وفاة المندوب البابوي أدهيمار دي مونتييل:^(٤٩) "لقد هوى الدين القيم وكل معاني الشرف إلى الحضيض عند رجال الدين، فاستشرى الفساد في كل ناحية، وسار في مسيرات مُحَرمة منذ أن غادر ديانا النائب الرسولي الطاهر الذيل والسيرة أدهمار أسقف بُوي".

فقد كان (ديمبرات) رئيس أساقفة (بيزا) يقف إلى جانب البابا أوربان الثاني في مشروعه الصليبي الكبير لاسترداد الأراضي المقدسة في الشرق، الأمر الذي جعل البابا أوربان الثاني يُعيّنه مندوبًا بابويًا في الأراضي المقدسة بدلًا من أدهيمار دي مونتييل الذي توفي في مدينة أنطاكية، وذلك على الرغم مما أحاط بديمبرات من شائعات عن عدم استقامته وانحراف سلوكه.^(٥٠)

ومن رجال الدين الذين أقاض وليم الصوري في الحديث عن انحرافهم الجنسي (أرنولف)، الذي كان من رجال الدين، إلا أنه مذموم السيرة مغموزها، ثم إنه فوق ذلك ابن أحد القساوسة، وكانت الألسن تلوك طول الرحلة سيرته بالسوء وتتغامز عليه، كما أن سفلة المهرجين كانوا يجعلون منه أضحوكة أغانيهم الجنسية.^(٥١) بل كان وليم الصوري يطلق عليه لقب (الفاجر أرنولف).^(٥٢)

إن (أرنولف) هذا لم يتورع حتى وهو في كرسي البطريركية - بطريركية بيت المقدس - عن ممارسة حياة الدنس، حتى صار عاره أمرًا معروفًا للجميع غير خاف على أحد، ولم يحاول هو كتمان هذه الحقيقة.^(٥٣) وقد وصلت انحرافات (أرنولف) الجنسية إلى مسامع البابا في روما، فوفد الأسقف (ورنج المجل) نائبًا عن البابا لتقصي الحقائق فيما بلغه من مسلك البطريرك أرنولف الرذيل، وما تلوكه الألسنة عن حياته الخليعة التي يحيى فيها. وتم خلع أرنولف من وظيفته الكهنوتية، ولكنه مضى إلى كنيسة روما واستطاع بكلماته الناعمة وإسرافه في تقديم الهدايا أن يتغلب على شكوك البابا ورجال الكنيسة فيعود إلى مستقره ورّد إلى كرسي البطريركية في بيت المقدس، فرجع إلى حياة التبذل التي كانت سببًا في خلعه.^(٥٤) وفي ١٨ إبريل سنة (١١١٨م/٥١٢هـ)، توفي أرنولف بطريرك بيت المقدس، وكان رجلاً يكثر من اختلاق المتاعب، ولا يكثر من مراعاة مهام وظيفته المقدسة.^(٥٥)

غير أن أهم الانحرافات الجنسية في طبقة رجال الدين كانت خاصة بالبطريرك (Heracles) هرقل (١١٨٠ - ١١٩١م/٥٧٩ -

إلى جمع المال بشتى الطرق حتى تأجير المنازل التابعة لهم لمحتفي الدعارة، مما ساعد على انتشار تلك الحرفة على نطاق واسع في المدن الصليبية.^(٣٨) وكان من رجال الدين من يقوم بتسهيل الانحراف الجنسي - ومخالفة تعاليم الكنيسة لبعض القادة الصليبيين، فقد قام البطريرك أرنولف بطريرك بيت المقدس بإغراء الملك بلدوين الأول ملك بيت المقدس، بالزواج من امرأة أخرى في الوقت الذي كانت زوجته لا تزال حية.^(٣٩) إضافة إلى ما سبق من أسباب دينية للانحراف الجنسي عصر الحروب الصليبية، أن جريمة الزنا لم يكن لها جزاء رادع، فحتى لو ثبتت على امرأة فلم تكن عقوبتها سوى النفي بدلاً من الموت، فما بالناس بالمحترفات اللاتي ليس لهن أزواج يطالبون بحقوقهم في عفاف زوجاتهم.^(٤٠) يقول الرحالة بورشارد عن رجال الدين في مملكة الأرمن والجورجانيين: "عندما يموت الكاهن يجب على زوجته أن تكون عفيفة، وإذا تزوجت مرة ثانية، فإنها سوف تُحرق حية، وإذا أصبحت مومس، فلا يصيبها أي أذى"،^(٤١) أي أن ضعف القوانين أو عدم فعاليتها في إنزال العقوبة بهرتكبي تلك الجريمة، كل ذلك منح النساء قدرًا كبيرًا من الحرية لممارسة تلك الجرائم الجنسية البشعة.^(٤٢)

الفساد الجنسي بين رجال الدين

امتد الانحراف الجنسي في عصر الحروب الصليبية إلى طبقة مهمة من طبقات صفوة المجتمع هي طبقة رجال الدين، والتي كان من الأولى أن تقوم بدورها في حث الناس على الابتعاد عن هذه الموبقات، ولكن من المؤسف أن كثيرًا من أبناء هذه الطبقة قد انغمس في هذا الانحراف الجنسي، بكل المستويات بداية من البطارقة وحتى أصغر رتبة دينية كنسية آنذاك.^(٤٣) كان بعض هؤلاء الأساقفة من المقربين للملك الصليبي، وقد وصل هؤلاء الأساقفة إلى أعلى المراتب الدينية باختيار الملك الصليبي، وربما كان الأساقفة الآخرون من المتدينين، وتعلم البعض، وربما البعض الآخر لم يتلق تعليمًا، وفي أفضل الحالات، كان هؤلاء الأساقفة من الرجال متوسطي القدرات والمواهب ومن الرجال متواضعي القدرات. وكانوا نمطًا من رجال الدين المستوطنين، فالرجال الذين جاءوا إلى الأراضي المقدسة ارتقوا إلى مراكز عالية ومكانة مرموقة بفضل ظروفهم الاجتماعية الخاصة وشهرة مزاراتهم المقدسة، هذا الوضع وتلك المكانة التي لم يكن باستطاعتهم الوصول إليها من خلال كفاءتهم.^(٤٤)

انضم عدد من الرهبان إلى الحملة الصليبية الأولى دون الحصول على إذن من رؤسائهم، وكان أحدهم من دير كلوني (Cluny) وقد شارك في الحملة ليس بدافع الورع، وإنما من منطلق الطيش، فقد ضبطه مع امرأة، وضربه بالسياط علنًا أمام الجميع.^(٤٥)

لقد لازم الانحراف الأخلاقي بعض رجال الدين منذ اللحظة الأولى التي وضعوا فيها أقدامهم في بلاد الشام، من ذلك أن (Adelbero of Luxembourg) أدلبرو اللوكسمبورجي) قريب الإمبراطور هنري الثالث، كان شابًا أرستقراطيًا وشغل منصب رئيس شمامسة (متز Metz)، وأثناء حصار الصليبيين لمدينة أنطاكية في الحملة الصليبية الأولى، كان يلعب النرد مع امرأة

يقول المؤرخ بيير دوبوا عن ذلك الأمر: ^(٦٠) "غالبًا ما يمارس الرهبان في هذه الأديرة حياة كلها رفاهية ومجون واحتساء للخمر، مع حياة أخرى من حياة الفجور". وفي سنة (١١٠٢م/٤٩٦هـ)، عقد (أنسلم) رئيس أسقفية كانتربري مجمعًا في لندن في كنيسة القديس بولس، وجرى في هذا المجمع الحرمان كنسيًا للكهنة الذين لديهم خليلات، ما لم ينفصلوا عنهن على الفور. ^(٦١)

ومما يؤكد على انتشار الفساد الأخلاقي بين رجال الدين في الأديرة، أن (وليم) راعي دير (وستمنستر) اتهم من قبل رهبانه، بتبديد النفقات، وبعدم القدرة على كبح نفسه جنسيًا. ^(٦٢) في سنة (١١٢٥م/٥١٩هـ)، جاء إلى إنجلترا (جون أوف كريما Crema) كاردينال الحضرة البابوية - نائبًا عن البابا - بترخيص من الملك، وزار الأسقفيات والأديرة، وعقد مجمعًا مهيبًا في لندن تحدث فيه بحدة ضد اتخاذ الخليلات، ولكن حدث في تلك الليلة بالذات، أن فوجئ برفقة عاهرة كان يجامعها، وكانت الحقيقة واضحة بحيث لا يمكن انكارها، وهكذا تحولت مكانته السامية إلى خزي عظيم، ^(٦٣) وهذا خير مثال على الانحراف الجنسي- عند كبار رجال الدين في هذا العصر.

وإذا كانت الجماعات الدينية العسكرية مثل فرسان المعبد، وجماعة التوتون، والاستبارين، قد كانت أكثر التزامًا بالدين، وقامت بدور كبير في مد أمد الوجود الصليبي في بلاد الشام، إلا أنها لم تخل أيضًا من الانحرافات الجنسية على الرغم من قوانينها الصارمة حيال ذلك.

إن وجود قوانين تعاقب حالات الزنا داخل الهيئات الدينية الحربية الصليبية الاستبارية (Hospitallers)، ^(٦٤) يؤكد بما لا يدع مجالًا للشك على أن الفساد تطرق إلى تلك المؤسسات التي صورتها المصادر التاريخية الصليبية الباكورة على أنها عناصر من الأتقياء والأطهار وجند المسيح (Militia Christi). ^(٦٥) فبعد تدفق الثروات في يد الداوية - مثلاً - اتهم عامة الناس في أوروبا الداوية بسوء الأخلاق، فوجهت عدة اتهامات ضد الهيئة منها تهمة تعاطي الخمر، حتى أصبحت كلمة (الداوي) تطلق على الشخص الذي يتعاطى الخمر بكثرة (Boire comme un templar)، كما أصبحت كلمة (Temple House) صفة لكل بيت سيء السمعة. ^(٦٦) كما أن اللواط - على سبيل المثال - لم يُسجل سوى مرة واحدة في تاريخ جماعة فرسان الهيكل - الداوية - الذي امتد لمائتي سنة. ^(٦٧)

أما الدعارة التي كانت مهنة شائعة في كل مدن العصور الوسطى وأكثر شيوعًا في الموانئ، فقد كانت مكلّفة للغاية في مدينة ساحلية مثل مدينة عكا. ^(٦٨) فقد تفشت حرفة الدعارة في عكا تفشيًا كبيرًا، حتى لم يتورع رجال الدين عن تأجير منازلهم لمحترفي تلك الحرفة المشينة، وصار الأمر متفشياً مما جعل البابا (أنوسنت الرابع) يرسل في منتصف القرن (الثالث عشر الميلادي/ السابع الهجري)، خطابًا إلى رجال الدين الكاثوليك في مدينة عكا ينتقدهم بسبب تأجير أملاك الكنيسة للفسادين أخلاقياً. ^(٦٩) فكان البابا يحذر رجال الدين من مغبة تأجير المنازل للمومسات في عكا. ^(٧٠)

هذا، ويمكن القول بأن الانحراف الجنسي- عصر- الحروب الصليبية قد امتد إلى سمعة البابا ذاته، فقد عقد الإمبراطور

٥٨٧هـ) ففي سنة ١١٨٠م، مات بطرك بيت المقدس (أموري) فحلّ محله هرقل أسقف مدينة قيسارية، وهو رجل أمي تقريبًا غير أنه جميل المنظر إلى حد مُلفت، ولم تكن سمعته طيبة، ويرجع اختياره إلى حد كبير إلى نفوذ أم الملك. ^(٥٦)

كان (هرقل) منذ بدايته رجلًا عديم الحياء وليس له من العلم إلا النزر اليسير، وكان رجلًا ضخّم الجثة، كما كان في الوقت ذاته مُنحل الأخلاق أشد الانحلال، منكبًا على لذاته، عبدًا لشهواته، وكانت (أجنس) أم الملك الأبرص شديدة الولع به والعشق له، فدفعها ميلها المفرط إليه أن تجعله رئيس شمامسة بيت المقدس، ثم رئيس أساقفة قيسارية، ثم انتهى بها الأمر أخيرًا أن جعلته البطرك، فلما صار هو البطرك اتخذ خليله له امرأة اسمها (باسك دي ريفري Pasque de Riveri)، وكانت هذه المرأة زوجة تاجر أقمشة وثياب في نابلس التي كانت تبعد عن القدس أربعة وعشرين ميلًا، لكنه اعتاد أن يأتي بها إلى القدس فتقيم معه خمسة عشر يومًا، وقد تزيد هذه الفترة من الزمان، وكان هو يغدق عليها وعلى زوجها المال الكثير حتى صارت هي وبعلاها من الأثرياء والأغنياء، ومن أجل هذا اعتاد زوجها أن يغمض عينيه ويتغافل عنها فيفعل البطرك معها ما شاء. ثم مات زوجها تاجر الأقمشة فحمل البطرك أرملته وجعلها تعيش معه على الدوام في داره ولا تغادره، ثم اشترى لها دارًا وأغدق عليها المجوهرات الثمينة والأحجار الغالية، حتى صارت أغنى امرأة شاهدها القدس، وما من غريب رآها إلا ظنها (كونتييسة) أو حسبها (بارونة) لكثرة ما تتحلى به من الأحجار الكريمة وما ترتديه من الثياب الغالية الموشاة بالذهب، وما تتحلى به من غالي الأحجار. أما الخلق الذين يعرفونها فإنهم كانوا يقولون إن مرت بهم: "انظروا ها هي البطريكة". ^(٥٧)

حدث في إحدى المرات أن كان الملك وبارونات المملكة في جلسة داخل قصر- البطرك يتناقشون في بعض الأمور الهامة، ويستعرضون في هذه الجلسة احتياجات البلد ويتدبرونها. فجاء خادم إلى القصر حيث كان هؤلاء السادة الكبار مجتمعين، وصاح بالبطرك: "سيدي البطرك، لقد جئتك بنبأ طيب سار!! فإن كافأنتي مكافأة طيبة سخية أفضيت به إليك" ظن البطرك والملك وبقية المجتمعين أنه سوف يذكر خبرًا فيه نصر للمسيحية، فقد جرت عادة هذا الخادم أنه إذا جاءت إلى القدس أخبار طيبة أسرع إلى البطرك فقصّها عليه، ومن ثمّ قال له البطرك: "هات ما عندك أيها التعيس!! هات ما عندك على أن يكون سارًا" فقال له الخادم: "لقد وضعت السيدة باسك دي ريفري الساعة ابنة لك"، فرد عليه البطرك قائلاً: "اخرس أيها الأحمق ولا تزدد"، ولما كان رئيس أساقفة مدينة صور (وليم الصوري المؤرخ المشهور) يعرف عن حياة البطرك (هرقل) هذه الأمور وكثيرًا مثلها، فإنه التمس من كبار القوّامين على القبر المقدس ما ذكر آنفا، لكنهم أصموا آذانهم وكان بها وقرأ، ورفضوا أن يفعلوا ما التمس منهم وليم الصوري، بل فعلوا عكس ما طالبهم به. ^(٥٨)

هذا، وقد استلمح عدد من الرهبان والراهبات هذه الانحرافات الجنسية، فغادروا صوامعهم ونزلوا إلى بيوت الدعارة حتى ينهلوا من معينها الآثم، ومن ثرواتها المدنسة، ^(٥٩) ليس هذا فقط بل كانت الانحرافات الجنسية تمارس داخل الأديرة ذاتها،

من الطرائق التي اتخذتها الكنيسة للحد من الانحراف الجنسي في أوساط المجتمع الصليبي، قرارات وعظات رجال الدين لطبقات المجتمع المختلفة وحثهم على الالتزام بالفضيلة، والعمل على الحد من اختلاط الرجال بالنساء كأحد الأسباب المباشرة لهذا الانحراف.

وكان رجال الدين يعملون على بناء بعض الأديرة الخاصة بالراهبات والنساء غير الراهبات، للحد من عدم الاختلاط بين الجنسين، وما يمكن أن يترتب على ذلك من مفاصد جنسية. يقول يعقوب الفيتري عن مستشفى ودير القديس (يوحنا) في القدس الشريف: ^(٨٠) "مع اعتقاد الكهنة بأنه من غير اللائق إسكان النساء من الحجاج داخل الدير، قام هؤلاء بمرور الزمن ببناء دير آخر خارج أسوار الكنيسة كمقر للراهبات، حيث تقوم بعض النساء المتدينات بخدمة النساء من الحجاج اللاتين، والترفيه عنهن في ذلك المكان".

ومن القرارات الدينية التي ساعدت على التقليل من الانحراف الجنسي في صفوف الصليبيين، قرارات وقوانين الهيئات الدينية العسكرية.

وجاء في نظام قانون (ريموند دوبري) قائد جماعة الإسبتارية، إذا حدث واقتراف أحد من الرهبان ما ينبغي عدم حدوثه، أي اقتراف الزنا، فإذا أذنب بشكل سري عليه أن يفرض على نفسه توبة مناسبة، وإذا ما بات هذا معروفاً، عليه بالتعري أمام الجميع ويُجلد من قبل رئيسه الديني، هذا إذا كان راهباً دينياً، أما إن كان راهباً مدنياً، فينبغي جلده بشدة متناهية بواسطة أسواط أو عصي من قبل رجال الدين. ^(٨١) "وإذا حدث بعد أن يتم تطبيق تلك العقوبة عليه، وهده الله وأراد التوبة، والعودة مرة أخرى إلى جماعته، فإن على الجماعة أن تقبله مرة أخرى كعضو ضمن بقية الأعضاء، وتقوم الجماعة في تلك الحالة بفرض عقوبة عليه مناسبة لحجم الجريمة، ويعامله أعضاء المجموعة بمثابة عضو غريب عنهم، وذلك لمدة عام كامل، ويتم وضعه تحت المراقبة من قبل رجال الدين الآخرين، حيث يتم تقديم تقرير واف عن سلوكه وتصرفاته خلال تلك الفترة، ثم بعد ذلك يتم التشاور فيما بينهم بخصوص ذلك المذنب، ومدى منفعة الجماعة". ^(٨٢)

وبلاحظ من خلال ذلك القانون عدم المساواة في تطبيق العقوبة بين أفراد الجماعة، بل اختلفت العقوبة حسب مكانة كل واحد، والطبقة الاجتماعية التي قدم منها، مما يدل على عدم النزاهة في تطبيق القوانين بين أفراد الهيئة الواحدة، مما كان يؤدي بالضرورة إلى زيادة معدل الجريمة بين أفراد الهيئة من ناحية، وزيادة وانتشار الفساد بين أفراد الهيئة من جهة أخرى، ومن ناحية ثالثة أصبحت الجماعة قدوة لأفراد المجتمع الصليبي في التعصب ورفض الآخر. ^(٨٣)

وقد وضع ريموند دي بوي قانوناً آخر في حالة "إذا قام أحد الرهبان باتهام زميل له بتهمة الزنا دون دليل واضح على ذلك، ففي تلك الحالة يتم تطبيق عقوبة الزاني عليه، والتي كان من المفترض أن يتم تطبيقها على زميله المذنب". ^(٨٤) وعلى الرغم من ذلك؛ تم تطبيق عقوبة أخرى على الفارس الذي يتم ضبطته متهمًا بممارسة الزنا، فإنه كان يختار بين أن تأخذ المرأة العاهرة

هنري الرابع ^(٧١) مجممًا دينيًا أيده فيه القساوسة الألمان الذين أزعجتهم سياسة البابا جريجوري الرابع، وأرسلوا إليه رسالة حادة الكلمات تقول: "قررنا بالإجماع أنه لن يكون بمقدورك أن تتولى رئاسة الكرسي الرسولي بعد الآن، وبأنك راهب مُزيف تُعاشر امرأة في الحرام، وأن الكنيسة كلها تحكمها هذه المرأة". ^(٧٢) ربما كانت هناك بعض الشواهد التاريخية قبل عصر- الحركة الصليبية التي تؤكد ذلك. فقد كان يوحنا الثاني عشر- (٩٦٤-٩٩٥م/٣٥٣-٣٨٥هـ) ذلك الولد الفاسد في الثامنة عشرة من عمره عندما اعتلى العرش البابوي، وقد مات بسبب إفراطه الجنسي أثناء نموه مع إحدى عشيقاته، وهذا مثلاً واضحاً على فساد البابوية والكنيسة الكاثوليكية عامة في ذلك العصر. ^(٧٣) وخلال الفترة (١٣٠٩ - ١٤٣٩م)، التي تمثل نهاية الحركة الصليبية ونهاية العصور الوسطى، تدهور المستوى الأخلاقي بين رجال الكهنوت، فقد كان الالتزام بالعفة، وعدم الزواج، لا يتفق لا مع الغرائز الطبيعية للإنسان ولا مع التعاليم الكتابية التي تشجع على الزواج، فانغمس العديد من رجال الكهنوت في علاقات غرامية مع نساء من كنائسهم، بل واتخذوا لأنفسهم عشيقات ثابتات، بل إن بعضهم انشغل عن واجباته الرعوية بانشغاله بالعناية بالأطفال غير الشرعيين الذين ولدوا نتيجة لهذه العلاقات، وكانوا يمثلون مشكلة حقيقية في ذلك الوقت. ^(٧٤)

دور الكنيسة في الحد من الانحراف الجنسي

أمام هذا السيل الجارف من الانحرافات الجنسية التي عمت كل طبقات المجتمع في عصر- الحروب الصليبية، كان لابد للكنيسة الغربية أن تقوم بدور مهم للحد من هذا الانحطاط الأخلاقي الذي وصل إليه أبناء الغرب الأوروبي سواء في أوروبا ذاتها، أو في المدن الصليبية في بلاد الشام. وقد اتخذت الكنيسة عدة إجراءات للحد من ذلك الانحراف متسلحة في ذلك بسلطتها الدينية على طبقات المجتمع المختلفة، وتمثلت أهم هذه الإجراءات في عقد المجمع الدينية. ^(٧٥)

والمجمع عبارة عن مجلس يُدعى إليه جميع الأساقفة، ويرأسه أسقف - بابا - روما بنفسه أو على يد مفوضين، للبحث في القضايا الكبرى، أو للقيام ببعض الأعمال ذات الطابع الرسمي الخاص. ^(٧٦) منذ سنة ١٠٥٤م، أصبحت المجمع الدينية التي تُعقد في الغرب الأوروبي لا تختص إلا بشئون الكنيسة الغربية. ^(٧٧) في سنة (١١٣٩م/٥٢٤هـ)، عُقد في روما مجمّعاً أيضاً، اتخذت البابوية فيه خطوة أخيرة بالنسبة لزواج رجال الدين، حيث قررت أنه لا يجوز لأحد من رجال الكنيسة أن يعاشر امرأة، وأن زواج أي واحد منهم يعتبر غير شرعي، وبناءً على ذلك تُصبح ذرية رجال الكنيسة أبناء سفاح. ^(٧٨)

توالت المجمع الدينية بعد ذلك للحد من الانحراف الجنسي- خاصة بين رجال الدين، فبعد أن اعتلى البابا (أنوسنت الثالث) العرش البابوي سنة (١١٩٨م/٥٩٥هـ)، عقد مجمع (اللاتيران الرابع) في روما سنة (١٢١٥م/٦١٢هـ)، واتخذ عدة قرارات للإصلاح الكنسي منها: المراسيم التي أدانت السكر وإدمان الخمر بين رجال الكنيسة، وشجبت احتفالاتهم، وخروجهم للصيد بالصقور، وحفلات الرقص، وحياتهم مع المحظيات. ^(٧٩)

معبراً عن ذلك في مؤمر كليرمونت: "أنتم يا مَنْ تتهرون الأطفال، وتتهبون النساء الأرامل، وأنتم يا مَنْ غرقتم في خطيئة الزنا، يا مَنْ تسرقون حقوق الآخرين، إذا كنتم حقاً تريدون أن تحرصوا على أرواحكم، فاندفعوا بأقصى سرعة ممكنة للدفاع عن الكنيسة الشرقية".^(٩١)

اعتبر رجال الدين أن جريمة الزنا سبباً لكل المصائب التي تعرضت لها مملكة بيت المقدس،^(٩٢) يقول المؤرخ المجهول عن سبب نكبة الصليبيين في معركة حطين: "زاد غضب الرب على المسيحيين بسبب آثامهم التي زادت زيادة جمّة أسفرت عن سرعة قضاء صلاح الدين عليهم، حتى صارت الغلبة له عليهم في تلك الساحة - حطين - بأكملها، وذلك بين الضحى والعصر". فكان من أهم الآثار الدينية للانحراف الجنسي، تفسير الهزائم والنكبات التي تعرض لها الصليبيين في بلاد الشام تفسيراً دينياً، وكانت هذه الانحرافات هي الأساس الذي بُني عليه هذا التفسير.

وكان من أهم الآثار الدينية التي ترتبت على الانحرافات الجنسية لرجال الدين أنفسهم، أن تلاشت مكاتبتهم الدينية في نفوس عامة الصليبيين. يقول متى باريس: "إن الكهنة إذا انشغلوا بزواجهم، أو كانت لهم علاقة غير شرعية بالنساء، فإن المحصلة ستكون دمار الأرواح".

من الشواهد التاريخية على أثر انحراف رجال الدين جنسياً في انحطاط مكاتبتهم بين عامة الصليبيين. أنه في أول أغسطس سنة (١٠٩٩م/٤٩٣هـ)، تم انتخاب أرنولف كيطيريك لبيت المقدس، وهو كاهن كونت نورماندي، وذلك خلافاً لرغبة رجال الدين الطيبين، الذين اعترضوا لأنه لم يكن مساعد شماس وكان من أصل كهنوتي، والأهم من ذلك كله، أنه اتهم بأنه كان يداعب النساء أثناء الرحلة - الحملة الأولى - حتى إنه كان موضوعاً لقصص فاحشة، وقد حطّ مولده المشين وانعدام ضميره من شأن رجال الدين الطيبين.^(٩٥)

وقد صورَ وليم الصوري الفساد الأخلاقي الذي دبّ في صفوف رجال الدين وما تبع ذلك من آثار على الدين، بعد وفاة المندوب البابوي للحملة الصليبية الأولى أدهيمار دي مونتيل، فقال عن ذلك: "لقد هوي الدين القيم وكل معاني الشرف إلى الحضيض عند رجال الدين، فاستشري الفساد في كل ناحية، وسار في مسيرات مُحرمة، منذ أن غادر دنيانا النائب الرسولي الطاهر الذيل والسيرة أدهمار أسقف بوي".

ومن الآثار الدينية للانحرافات الجنسية للقادة الصليبيين، أنها رفعت من الحماسة الدينية لدى الأوروبيين وكانت سبباً في خروج حملات صليبية جديدة نحو الشرق العربي. فقد أثبتت الأحداث أن الباطرة والملوك وكبار الإقطاعيين والجيوش الهائلة قد فشلت في تخليص الأراضي المقدسة، وذلك بسبب كبريائهم ورذائلهم، فقد سقطت القدس برذائل العُظماء.^(٩٧) فخرجت على إثر ذلك حملة الأطفال الصليبيين (Children's crusade) سنة (١٢١٢م/٦٠٩هـ)، والتي كانت من الأحداث المؤسفة في تاريخ الحملات الصليبية، فقد زحف أطفال فرنسا وألمانيا بقيادة ولدين لم يبلغا سن المراهقة، زحفاً عبر أوروبا الجنوبية نحو إيطاليا، على

بمقوده في المعسكر وهو في قميصه، وتقوم بشده بحبل تجريحاً له، وبين أن يتخلى عن حصانه وسلاحه ويطرد من الجيش، أو أن يتم تجريد الاثنين من ملابسهما ويجبران على المشي أمام الجيش وهما مقيدا اليدين خلف ظهريهما، ويقوم جلادان بجلدهما بالعصى بشدة، وكان الهدف من ذلك هو تخويف الآخرين.^(٩٥)

أما عقوبة الزنا عند هيئة فرسان التيتون، فكانت بالتوبة لمدة عام كامل، هذا إذا كانت جريمته فعلها بشكل سري، أما إذا تم كشفها أمام العلن وكانت فعلته فاضحة، يطلق على بيته أسوء الأسماء، ويقوم بالخدمة مع العبيد، ويخدم بدون ارتداء الصليب، ويأكل مع الأجراء جالساً على الأرض، ويصوم ثلاثة أيام من كل أسبوع على الخبز والماء.^(٩٦) وبذلك تكون العقوبات التي عرفت عند هيئات الفرسان مقسمة حسب نوع المخالفة التي يرتكبها العضو، وذلك لوجود عقوبات ثانوية وعقوبات بسيطة وأخرى جسيمة، فالمخالفات الثانوية كانت تتراوح ما بين سبعة أيام وأربعين يوماً.^(٩٧)

ومن الملاحظ التفريق في تطبيق عقوبة الزنا، فلم يكن هناك مساواة في تطبيق العقوبة بين كافة الرعية، سواء أكان رجل من العامة أو من عناصر الهيئات الدينية، وكان ذلك العامل أحد أهم أسباب الانهيار الداخلي للمجتمع الصليبي في بلاد الشام. وبصفة عامة، فإن وجود قوانين تعاقب حالات الزنا داخل الهيئات الدينية الحربية الصليبية، يؤكد بما لا يدع مجالاً للشك على أن الفساد تطرق إلى تلك المؤسسات التي صورتها المصادر التاريخية الصليبية الباكّة على أنها عناصر من التقياء والأطهار جند المسيح.^(٩٨)

وتجدر الإشارة أخيراً إلى؛ أن الكنيسة لجأت أحياناً إلى رسم بعض الصور التخويفية التي تهدف إلى تهديد أصحاب الرذائل باللعنة الأبدية، ما لم يمتنعوا عن الانحراف الجنسي. ففي لوحة "عواقب الخطيئة" صور في الجانب الشمالي منها ملاك يحبس المذنبين، بما فيهم الملوك والقساوسة في الجحيم، وغري الملعونين مؤشراً على أن السلوك الجنسي الذي كانت الكنيسة تحاول الحد منه، كان يُنظر إليه باعتباره أحد الطرق الرئيسة للخطيئة، وعن طريق التناقض - في الوجه الآخر من الصورة -، كان هناك اعتقاد بأن السماء بعد يوم الحساب ستكون ممتلئة بأناس ممن تحرروا من الشرور الجنسية.^(٩٩)

الآثار الدينية للخطيئة الجنسية

من بين الآثار التي ترتبت على الانحراف الجنسي في عصر الحروب الصليبية، العديد من الآثار الدينية التي تمثلت في تعطيل الطقوس الكنسية في بعض البلدان بقرار من السلطة الكنسية كرد فعل منها ضد هذه الانحرافات، كذلك ضعف المكانة الدينية لرجال الدين في نفوس العامة، نظراً لبعض الانحرافات الجنسية التي قام بها بعض رجال الدين أنفسهم.^(٩٠) قبل اندلاع الحروب الصليبية استطاعت البابوية أن تستغل حالة التردّي الأخلاقي في المجتمع الأوروبي، فدفعتهم إلى الانخراط في الحركة الصليبية من باب الحصول على الغفران وتكفير الذنوب، فكان هذا من الآثار الدينية الإيجابية التي استفادت منها الكنيسة الغربية أحسن استفادة. يقول البابا أوربان الثاني

خاتمة

إن محاولة البابوية إظهار الحملات الصليبية، التي تم تغليفها بإطار ديني، بصورة مقدسة لم تمنع الصليبيين من إظهار سلوكهم البربري، والقيام بأعمال تنطوي على الفسق والفجور، فالعناصر الأوروبية التي شاركت في أعمال هذه الحملات إنما أتت إلى الشرق بما جلبت عليه من أخلاق وطبائع بعيدة كل البعد عن الإطار الديني، فقد فشلت البابوية في إظهار الحركة الصليبية كعمل من أعمال الرب، فغلبت طبائع الفرنج على سلوكياتهم وعلاقاتهم ببعضهم البعض، وظهر حب النفس والأنانية والخضوع للشهوات الجسدية، فمشاعر التقوى والورع لم تنجح في إخفاء التناقض الأخلاقي لفرنج هذه الحملات.

كان لضعف الوازع الديني في نفوس الصليبيين أثر كبير في نشر رذيلة الزنا والدعارة داخل المجتمع الصليبي، ولم يخجل رجال الدين من الإنجاب من الزانيات والمحظيات، بل وتأجير أماكن العبادة لممارسة الرذيلة مقابل رشوة مادية، فكانت حالات الزنا جماعية ومنتشرة في مختلف الأديرة والكنائس. والحق أن الانحراف الجنسي انتشر على نطاق واسع بين مختلف طبقات المجتمع الصليبي في بلاد الشام وبلا استثناء على مدى القرنين الثاني والثالث عشر الميلاديين، السادس والسابع الهجريين.

الهوامش:

- (١) نورمان. ف. كانتور (١٩٨١)، التاريخ الوسيط / ترجمة: قاسم عبده قاسم. - القاهرة: دار المعارف. (ج ١ / ص ١٦٢).
- (٢) الخوري بولس الفغالي (٢٠٠٩)، المحيط الجامع في الكتاب المقدس والشرق القديم. - بيروت: المكتبة البولسية. (ص ٦٢٣).
- (٣) صبحي حموي اليسوعي (١٩٩٨)، معجم الإيمان المسيحي. - بيروت: دار المشرق. (ص ٣٢٧).
- (٤) إبراهيم الحيدري (٢٠١١)، النظام الأبوي وإشكالية الجنس عند العرب. بيروت: دار الساقى.
- (٥) الخوري الفغالي (٢٠٠٩)، ص ٣٦٧.
- (٦) عبد الوهاب المسيري (١٩٩٩)، موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية. - بيروت: دار الشروق. (ج ٢ / ص ٢٩٨).
- (٧) نورمان. ف. كانتور (١٩٨١)، ج ١ / ص ١٦١-١٦٣.
- (٨) نورمان. ف. كانتور (١٩٨١)، ج ١ / ص ١٦٢.
- (٩) صبحي اليسوعي (١٩٩٨)، ص ٦٥.
- (١٠) سعيد عبد الله عاشور (١٩٥٩)، أوروبا العصور الوسطى. - القاهرة: مكتبة النهضة المصرية. (ج ٢ / ص ١٥-١٧).
- (١١) أحمد الشنتناوي (١٩٦٩)، تطور العلاقات الجنسية. - القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية. (ص ١٣٩).
- (١٢) محمود سعيد عمران (١٩٩٨)، حضارة أوروبا في العصور الوسطى. - الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية. (ص ٢٨٦-٢٨٧).

افتراض أن براءتهم وطهر حياتهم ستضمن لهم النجاح فيما فشل فيه آباؤهم بسبب خطاياهم.^(٩٨)

ومن الآثار الدينية الإيجابية للانحرافات الجنسية، اتجاه بعض النساء إلى الدين وحياة الزهد والرهبة كرد فعل للخانات الزوجية المتكررة من أزواجهن. ومن الشواهد التاريخية لهذا الأثر، أن وليم التاسع دوق أكويتن في فرنسا كانت له عشيقة دائمة هي دانجروسا كما ذكر أنفًا، فلم يكن أمام زوجته (فيليبا) سوى اللجوء للكنيسة، وإقناع المبعوث البابوي (جيرارد Girard) للتأثير على زوجها، بيد أن وليم التاسع رد بسخرية على المبعوث البابوي الذي كان أصلعًا تمامًا بقوله: "سوف تنمو خصلات الشعر على رأسك قبل أن أفارق الكونتيسة"، وتحدى التهديد بعقوبة الحرمان الكنسي برسم صورة دانجروسا على درعه قائلاً: "سوف أحملها إلى القتال مثلما حملتها من الفراش"، فما كان من زوجته فيليبيا إلا أن اتجهت إلى الدين بشكل متزايد علها تجد السلوى والعزاء، وانجذبت مثل غيرها من النساء لآراء وشخصية أحد النساك الجوالين من بريتاني يدعي (Robert de Arbrissel) روبرت دي أربريسيل الذي أسس في سنة (١١٠٠م/٤٩٤هـ)، في أقصى شمال بواتو قرب الحدود الأنجوية ديرًا فريدًا من نوعه أراد له مؤسسه أن يكون مختلطًا، تحت إشراف رئيسة الدير يخضع لها الجميع رهبانًا وراهبات، بدافع من إيمانه أن النساء هن الجنس الأفضل والأقدر الذي يعرف كيف يدير أسرة ضخمة، وأنهن أكثر نجاحًا من الرجال في إدارة الممتلكات، بسبب خبراتهن التنظيمية التي اكتسبها من تكوين وإدارة الأسرة. وهذا رأي يعكس اعتناقًا بالتفوق النسائي، الذي كان جديرًا بأن يجذب فيليبيا التعيسة، التي كانت قد أقنعت زوجها أن يمنحه بعض الأراضي شمال بواتو، بهدف تأسيس جماعة دينية تكريماً لمريم العذراء، وأمسى - هذا الدير مقصدًا للنساء الأرستقراطيات، والزوجات المقهورات.^(٩٩)

وأدت بعض الانحرافات الجنسية أيضًا إلى تعطيل الحياة الدينية في بعض الإمارات الصليبية، وزيادة العداء بين السلطة الدينية والسلطة المدنية. فعندما استمر بوهيموند الثالث أمير أنطاكية في ممارسة الخطيئة مع (سيبيللا) صدر قرار الحرمان ضده، فلم يكتف بذلك، بل أسرف في ممارسة حياته النجسة وعامل البطريرك والأساقفة وغيرهم من كبار الشخصيات الكنسية في تلك الإمارة كما لو كانوا أعداء له، وأفحش في إيذائهم، فذهب ما تحويه الكنائس والأديرة من الأشياء المقدسة، وحاصر البطريرك ومنّ لأذوا به من رجال الدين والكهنوت، مما ألجأهم إلى قلعة تابعة للكنيسة فرائًا من بطشه واتقاء لشره، ثم شنّ عليهم بضع هجمات ضارية، كما لو كانت قلعة من قلاع العدو.^(١٠٠) فقام بطريرك أنطاكية بحرمان بوهيموند الثالث وحرّم القسيس الذي عقد زواجه على تلك الزانية، وحرّم المدينة كلها لأجله، فأبطل قرع النواقيس، وأوقف تناول القرابين^(١٠١) والصلوات على الأموات قبل دفنهم، فقام بوهيموند الثالث بنهب كنائس الإفرنج والأديرة، وبعد مدة اجتمع القضاة وجملة من النبلاء برئاسة بطريرك بيت المقدس، حيث توسطوا مع بطريركهم، فأعاد بوهيموند الثالث كل ما خطفه، وثبتوا له تلك المرأة واصطلحوا.^(١٠٢)

- (٢٤) إمام الشافعي محمد، أشرف صالح محمد (٢٠١٨، ص ٢٣).
- (٢٥) أحمد الشنتناوي (١٩٦٩، ص ١٤٢).
- (٢٦) إمام الشافعي محمد، أشرف صالح محمد (٢٠١٨، ص ٦٨).
- (٢٧) يوشع براور (١٩٨١)، **عالم الصليبيين** / ترجمة: قاسم عبده قاسم. - القاهرة: دار المعارف. (ص ٤٢).
- (٢٨) سعيد أحمد برجواي (١٩٨٤)، **الحروب الصليبية في المشرق**. - بيروت: دار الآفاق الجديدة. (ص ٩١).
- (٢٩) محمد فوزي رحيل (٢٠٠٩)، **نهاية الصليبيين**. - القاهرة: دار عين للدراسات. (ص ٢١٨).
- (30) See: Paul Rousset (1945). Les origines et les caractères de la première croisade, Neuchâtel: Éd. de la Baconnière. (Pp.134 - 137). James A. Brundage (1969). Medieval canon law and the crusader, University of Wisconsin Press, Madison. (Pp.10 - 18).
- (٣١) حسين عطية (٢٠٠١)، "مجلس نابلس وأحوال مملكة بيت المقدس الصليبية". - حولية التاريخ الإسلامي والوسطى، مج ١، ج ١، القاهرة. (ص ٤٦). أحمد عبد الله أحمد (٢٠١٦)، **الجرائم والعقوبات في المجتمع الصليبي في بلاد الشام**. - القاهرة: دار الآفاق العربية. (ص ١٠٧).
- (٣٢) محمود سعيد عمران (١٩٩٨، ص ٢٨٦). محمد حمزة حسين، لبنى رياض عبد المجيد (٢٠١٥) **تاريخ أوروبا في العصور الوسطى**. - عمان: دار غيداء للنشر والتوزيع. (ص ٣٧٤).
- (٣٣) هي رفات القديسين، وملابسهم، وأدواتهم الشخصية، وما إلى ذلك. قاسم عبده قاسم (١٩٩٠)، **ماهية الحروب الصليبية**. - الكويت: المجلس الوطني للثقافة، سلسلة عالم المعرفة. (ص ١٨).
- (٣٤) قاسم عبده قاسم (١٩٩٩)، **الخلفية الأيديولوجية للحروب الصليبية**. - القاهرة: دار عين للدراسات. (ص ٨٥).
- (٣٥) أبو شامة (١٩٩٧): عبد الرحمن بن إسماعيل (ت. ٦٦٥هـ)، **الروستين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية** / تحقيق: إبراهيم الزبيقي. - بيروت: مؤسسة الرسالة. (ج ٤ / ص ١٠٥).
- (٣٦) دندل جبر (١٩٨٧)، **الزنا**. - الزرقاء: مكتبة المنار. (ص ٧٢). أحمد عبد الله (٢٠١٦، ص ١١١).
- (٣٧) ألبرت فون آخن (٢٠٠٧)، **تاريخ الحملة الصليبية الأولى** / ترجمة: سهيل زكار، الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية. - دمشق: دار الفكر. (ص ١٢٧).
- (٣٨) محمد رحيل (٢٠٠٩، ص ٢١٧).
- (٣٩) وليم الصوري (١٩٩٤)، **الحروب الصليبية** / ترجمة: حسن حبشي. - القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب. (ج ٢ / ص ٢٩٤).
- (٤٠) محمد رحيل (٢٠٠٩، ص ٢١٧).
- (٤١) بورشارد من دير جبل صهيون (١٩٩٥)، **وصف الأرض المقدسة** / ترجمة: سعيد البيشاوي. - عمان: دار الشروق. (ص ١٧٨).
- (٤٢) أحمد عبد الله (٢٠١٦، ص ١٠٩).
- (٤٣) إمام الشافعي محمد، أشرف صالح محمد (٢٠١٨، ص ٩٩).
- (٤٤) يوشع براور (٢٠٠١)، **الاستيطان الصليبي في فلسطين** / ترجمة: عبد الحافظ البنا. - القاهرة: دار عين للدراسات. (ص ٢٢٨).
- (٤٥) جوناثان ريلي سميث (١٩٩٩)، **الحملة الصليبية الأولى وفكرة الحروب الصليبية** / ترجمة: محمد فتحي الشاعر. - القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب. (ص ١٥٢).
- (٤٦) ألبرت فون آخن (٢٠٠٧، ص ٦٢). جوناثان سميث (١٩٩٩، ص ١٥٢).
- (٤٧) حسن حبشي (١٩٥٨)، **الحرب الصليبية الأولى**. - القاهرة: دار الفكر العربي. (ص ١٤٠).
- (48) Kenneth. M. Setton (1969). A history of the crusades. London: The University of Wisconsin press. (vol.1, P.321).
- (١٣) إمام الشافعي محمد حمودي، أشرف صالح محمد سيد (٢٠١٨)، **الانحراف الجنسي في عصر الحروب الصليبية (١٠٩٥ - ١٢٩١م) صورة الآخر الفرنجي**. - القاهرة: دار البشير. (ص ١٩٩).
- (١٤) راجع: اسمت غنيم (١٩٨٣)، **المرأة في الغرب الأوربي في العصور الوسطى**. - القاهرة: دار المعارف. (ص ١٥ - ١٦).
- (١٥) Friedrich Heer (1962, Pp. 264 - 265).
- (١٦) الفلاح أو القن في العصور الوسطى كان يتبع الأرض أينما ذهبت، فإذا بيعت مساحة من الأرض من أمير إلى قرينه، بيعت مَنَ عليها من الفلاحين، ومن هنا جاءت تسميتهم برفيق الأرض. انظر: أشرف صالح محمد، عمرو عبد العزيز منير (٢٠١٨)، **التاريخ الأوربي في العصر الوسيط: قراءة جديدة**. - الإسكندرية: دار التعليم الجامعي.
- (١٧) محمود سعيد عمران (١٩٩٨، ص ٢٨٩).
- (١٨) زينب عبد المجيد عبد القوي (٢٠٠٩)، **الإنجليز والحروب الصليبية**. - القاهرة: دار عين للدراسات. (ص ٢٤).
- (١٩) موريس كين (٢٠٠٧)، **حضارة أوروبا العصور الوسطى** / ترجمة: قاسم عبده قاسم. - القاهرة: دار عين للدراسات. (ص ١٢٨). اكتسب الألبجنسيون لقبهم من تكاثر عددهم في المنطقة المحيطة ببلدة (ألبى) في جنوب فرنسا، وكان هؤلاء يستخدمون العهد الجديد (الإنجيل) كأساس لأفكارهم، إلا أن تلك الأفكار كانت منحرفة. إيرل كيرنز (١٩٩٢)، **المسيحية عبر العصور** / ترجمة: عاطف سامي برنابا. - القاهرة: دار نوبار. (ص ٢٦٠). وللمزيد عن المذهب الكاثاري، راجع: Weber, N. (1907). Albigenses. In The Catholic Encyclopedia. New York: Robert Appleton Company. Retrieved September 15, 2017 from New Advent: <http://www.newadvent.org/cathen/01267e.htm>. Costen, Michael D. (1997). The Cathars and the Albigensian Crusade. Manchester and New York: Manchester University Press. (pp.59 - 78). Nicholson, Helen J. (2004). The Crusades. Westport, Connecticut: Greenwood Press. (Pp.56-57, 164-166). Cross, Frank Leslie; Livingstone, Elizabeth A. (2005). Oxford Dictionary of the Catholic Church. Oxford, UK: Oxford University Press. (p.303). Lock, Peter (2006). The Routledge Companion to the Crusades. New York, NY: Routledge. (pp.162-164). Barber, Malcolm (2014). The Cathars: Christian Dualists in the middle Ages. New York, NY: Routledge. (p.78).
- (٢٠) جوناثان ريلي سميث (٢٠٠٩)، **تاريخ الحروب الصليبية** / ترجمة: قاسم عبده قاسم. - القاهرة: المركز القومي للترجمة. (ج ١ / ص ٥٧).
- (21) Mary Douglas (1966). Purity and Danger: An Analysis of Concepts of Pollution and Taboo. New York: Frederick A. Praeger. (p.3, 130, 132). Pierre J. Payer (1980). "Early medieval regulations concerning marital sexual relations". In: Journal of Medieval History vol. 6. (353-376). vol. 6, Pp.370-371. Jean-Louis Flandrin (1982). La vie sexuelle des gens mariés dans l'ancienne société: de la doctrine de l'Eglise. à la réalité des comportements.in Communications: Sexualités occidentales, 35. Paris: Seuil, (Pp. 102-15).
- (٢٢) حسن عبد الوهاب حسين (١٩٩٧)، **مقالات وبحوث في التاريخ الاجتماعي للحروب الصليبية**. - الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية. (ص ١٧١).
- James A. Brundage (1985). "Prostitution, Miscegenation and Sexual Purity in the First Crusade" in Peter Edbury ed. Crusade and Settlement University College Cardiff Press; Cardiff. (p.57).
- (٢٣) أحمد الشنتناوي (١٩٦٩، ص ١٤١).

- (٨١) أ. ج. كينغ (١٩٩٨)، **الإستبارية في الأرض المقدسة** / ترجمة: سهيل زكار، الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية - دمشق: دار الفكر. (ج ٣٣ / ص ٢٨٥ - ٢٨٦).
- (٨٢) ريموند دوبري (١٩٩٨)، **قانون ريموند دوبري** / ت. سهيل زكار، الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية، دمشق. (ج ٣٣ / ص ٢٨٣ - ٢٨٤).
- (٨٣) أحمد عبد الله (٢٠١٦، ص ١٩٥).
- (٨٤) ريموند دوبري (١٩٩٨، ج ٣٣ / ص ٢٨٩).
- (٨٥) جان دي جوانفيل (١٩٦٨)، **القديس لويس حياته وحملاته على مصر - والشام** / ترجمة: حسن حبشي - القاهرة: دار المعارف. (ص ٢٢٤).
- جوناثان ريلي سميث (١٩٩٩، ص ١٦٤). محمود محمد الحوييري (١٩٧٩)، **الأوضاع الحضارية في بلاد الشام في القرنين الثاني عشر - والثالث عشر من الميلاد** - القاهرة: دار المعارف. (ص ٧٨). حسن عبد الوهاب (٢٠٠٠)، **دراسات في تاريخ الحضارة الأوربية في العصور الوسطى** - الإسكندرية. (ص ١١). أحمد عبد الله (٢٠١٦، ص ١٩٥).
- (٨٦) Indrikis Sterns (1982). "Crime and Punishment among the Teutonic Knights", Speculum 57, no.1 (Jan): P.91.
- (٨٧) علي السيد علي (١٩٨٠)، **المجتمع المسيحي في بلاد الشام في عصر - الحروب الصليبية** - (د. م): دار السويدي للنشر والتوزيع. (ص ١٥٦ - ١٥٧).
- (٨٨) أحمد عبد الله (٢٠١٦، ص ١٩٦).
- (٨٩) جوناثان سميث (٢٠٠٩، ج ١ / ص ٦٢).
- (٩٠) إمام الشافعي محمد، أشرف صالح محمد (٢٠١٨، ص ١٨٥).
- (٩١) قاسم عبده قاسم (٢٠١٠)، **الحملة الصليبية الأولى نصوص ووثائق تاريخية** - القاهرة: دار عين للدراسات. (ص ٨٧).
- (٩٢) محمد رحيل (٢٠٠٩، ص ٢١٨).
- (٩٣) مجهول (٢٠٠٢، ص ٨٨).
- (٩٤) باريس (٢٠٠١): متي باريس (ت. ١٢٧٣م)، **التاريخ الكبير** / ترجمة: سهيل زكار، الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية - دمشق: دار الفكر. (ج ٤٠ / ص ٩٤).
- (٩٥) ريمونداجيل (١٩٩٠)، **تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس** / ترجمة: حسين محمد عطية - الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية. (ص ٢٥٨ - ٢٥٩).
- (٩٦) وليم الصوري (١٩٩٤، ج ٢ / ص ١٤٥).
- (٩٧) عبد الغني محمود عبد العاطي (١٩٨٣)، **"صليبية الأطفال" ندوة التاريخ الإسلامي والوسيط**. (ص ١٥٩).
- (٩٨) إيرل كيرنز (١٩٩٢، ص ٢٥٦). عن صليبية الأطفال، راجع: Munro, Dana C. (1914). The Children's Crusade is an article from The American Historical Review, Volume (19). (Pp.516 - 524). Wolff, R. L.; Hazard, H. W. (ed.) (1969). The later Crusades, (1189-1311).- University of Wisconsin Press. (Pp.325 - 342).
- (٩٩) زينب عبد القوي (٢٠٠٩، ص ٢٨).
- (١٠٠) وليم الصوري (١٩٩٤، ج ٤ / ص ٢٦٣ - ٢٦٤).
- (١٠١) القربان (Blessed Sacrament): هو الخبز والخمر اللذان تمّ تقدّسهما وحفظا ليُمنحا للمرضى والمحتضرين، ويراد به تعزيز إيمان جميع المؤمنين ومحبتهم في المسيح. صبحي اليسوعي (١٩٩٨، ص ٣٧٧).
- (١٠٢) ميخائيل السوري الكبير (١٩٩٥)، **روايات المؤرخ ميخائيل السوري الكبير** / ترجمة: سهيل زكار، الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية - دمشق: دار الفكر. (ج ٥ / ص ٢٨٥).

- (٤٩) وليم الصوري (١٩٩٤، ج ٢ / ص ١٤٥).
- (٥٠) سعيد عبد الله عاشور (١٩٨٢)، **الحركة الصليبية** - القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية. (ج ١ / ص ٢٧٣ - ٢٧٤).
- (٥١) وليم الصوري (١٩٩٤، ج ٢ / ص ١٤٥).
- (٥٢) وليم الصوري (١٩٩٤، ج ٢ / ص ٢٤١).
- (٥٣) وليم الصوري (١٩٩٤، ج ٢ / ص ٢٩٤).
- (٥٤) وليم الصوري (١٩٩٤، ج ٢ / ص ٣١٦).
- (٥٥) وليم الصوري (١٩٩٤، ج ٢ / ص ٣٤٤).
- (٥٦) ستيفن هوارث (٢٠١٣)، **فرسان الهيكل** / ترجمة: إبراهيم محمد إبراهيم - القاهرة: المركز القومي للترجمة. (ص ١٥٩).
- (٥٧) مجهول (٢٠٠٢)، **ذيل وليم الصوري** / ترجمة: حسن حبشي - القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب. (ص ٨١).
- (٥٨) مجهول (٢٠٠٢، ص ٨٢ - ٨٣).
- (٥٩) محمد رحيل (٢٠٠٩، ص ٢٢٢).
- (٦٠) بيير دوبوا (١٩٩٩)، **استرداد الأرض المقدسة** / ترجمة: سهيل زكار، الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية - دمشق: دار الفكر. (ج ٣٦ / ص ١١٨).
- (٦١) ويندوفر (٢٠٠٠): روجر أوف ويندوفر (ت. ١٢٣٧م)، **ورود التاريخ** / ترجمة: سهيل زكار، الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية - دمشق: دار الفكر. (ج ٣٩ / القسم الأول / ص ١٠٧).
- (٦٢) روجر أوف ويندوفر (٢٠٠٠، ج ٣٩ / القسم الأول / ص ٦٢١).
- (٦٣) روجر أوف ويندوفر (٢٠٠٠، ج ٣٩ / القسم الأول / ص ١٣٥).
- (64) See: Frederick Charles (1879). The military religious orders of the middle Ages: the Hospitallers, the Templars, the Teutonic knights, and others. London: Society for Promoting Christian Knowledge. (P.23). Edgar Erskine Hume (1940). Medical Work of the Knights Hospitallers of St. John of Jerusalem.- Baltimore: The Johns Hopkins University Press. (p.3).
- (٦٥) أحمد عبد الله (٢٠١٦، ص ١٩٦).
- (٦٦) نبيلة إبراهيم مقامي (١٩٩٤)، **فرق الرهبان الفرسان في بلاد الشام في القرنين الثاني عشر والثالث عشر** - القاهرة: مطبعة جامعة القاهرة. (ص ١٩٨).
- (٦٧) ستيفن هوارث (٢٠١٣، ص ١٤٤).
- (٦٨) يوشع براور (١٩٨١، ص ١٥٣).
- (٦٩) محمد رحيل (٢٠٠٩، ص ٢٢١).
- (٧٠) يوشع براور (١٩٨١، ص ١٥٣).
- (٧١) هنري الرابع (Henry IV): ولد الإمبراطور هنري الرابع في ١١ نوفمبر سنة (١٠٥٠م / ٤٤٤٢هـ)، وتولى عرش ألمانيا سنة (١٠٥٤م / ٤٤٤٦هـ)، وتوفي في أغسطس سنة (١١٠٦م / ٥٠٠هـ).
- See: Encyclopedia Britannica (1991, Henry IV).
- (٧٢) قاسم عبده قاسم (١٩٩٠، ص ٨١).
- (٧٣) قاسم عبده قاسم (١٩٩٠، ص ٧٨).
- (٧٤) إيرل كيرنز (١٩٩٢)، **المسيحية عبر العصور** / ترجمة: عاطف سامي برنابا - القاهرة: دار نوبار. (ص ٢٨٣).
- (٧٥) إمام الشافعي محمد، أشرف صالح محمد (٢٠١٨، ص ١٤٨).
- (٧٦) صبحي اليسوعي (١٩٩٨، ص ٤٣٦ - ٤٣٨).
- (٧٧) سعيد عاشور (١٩٥٩، ج ٢ / ص ١١).
- (٧٨) سعيد عاشور (١٩٥٩، ج ٢ / ص ١٨).
- (٧٩) موريس كين (٢٠٠٧، ص ١٣٢).
- (٨٠) يعقوب الفيتري (١٩٩٨)، **تاريخ بيت المقدس** / ترجمة: سعيد البيشاوي - عمان: دار الشروق. (ص ٨٧).

Silenced historical sources and the Qur'anic narrative on the history of Palestine and Jerusalem



Dr. Badi' Al-'Abed

Professor of Architecture
Former Dean – Faculty of Engineering
Consultant Architect, Amman, Jordan

ABSTRACT

This paper introduces the historical sources: ancient Egyptian, Assyrian, Babylonian, Persian, Greek, and Roman that deal with the history of Palestine and Jerusalem. These sources have been overlooked and silenced, since they contest, refute and invalidate the occurrence of the events of the Jewish narrative and expose the fallacy and fabrication inherent in it. This paper also demonstrates the technicality of putting these silenced sources into use. In order to achieve this objective, it reviews the narrative of the written Jewish sources and the silenced historical ones and demonstrates how the latter contradict the former and invalidate them, and how the silenced historical ones are totally devoid of any of the false claims related to the historical events as mentioned in the written Jewish narrative. This paper juxtaposes both the written Jewish and the Qur'anic narratives. The latter, for the most part, registers ultra-historic religious miracles, and not real human historical events. The paper exposes the exaggerations and fabrications in the written Jewish narrative that transforms the 'religious miracle' into a 'lived human historical event', in an effort to incorporate the Jews into the history of Palestine and the Arab region.

Keywords:

ancient historical narratives on Palestine and Jerusalem; Islamic narrative on the Exodus; Tanakhian distortion on the holy land

DOI: 10.12816/0052955

Article info:

Received: 11 May 2018

Accepted: 27 May 2018

Citation:

Badi' Al-'Abed, "Silenced historical sources and the Qur'anic narrative on the history of Palestine and Jerusalem". - Historical kan Periodical. - Vol. (11) Issue (40); June 2018. Pp. 203 – 221.

Introduction

Except for some rare exceptions for researchers who dare to contradict the Tanakhian (Old Testament) narrative (Torah narrative and the written Jewish sources); it is the one imposed on researchers dealing with the history of Palestine and Jerusalem. As for other historical sources that include ancient Egyptian, Assyrian, Babylonian, Persian, Greek, Roman and Qur'anic narratives, they are either relegated to silence or forgotten. They are deliberately silenced by Jewish and Western researchers because such sources contradict, and even negate, the narrative of written Jewish sources and the Jewish presence in

history. This in turn, may lead to the negation of the written Jewish narrative altogether. As for Arab researchers, both old and contemporary, the majority adopt the narrative of the written Jewish sources. This is manifested in their reliance on Jewish and Western sources when writing about the history of Palestine and Jerusalem. The reasons as to why Arab researchers refrain from making use of the historical sources that contradict the written Jewish narrative may be because they either do not know of their existence, or their inability to make use of them, or both.

Strangely enough, most Muslim historians and interpreters (*mufasireen*) of the Qur'an, have adopted the Jewish narrative to explain the verses (*ayat*) that speak about Jews.¹ Some have even claimed that al-Aqsa mosque was built by the prophets David and Solomon. Ibn Katheer, the Damascene, (d.775 H.) took notice of this fact, when he cited a hadith narrated by Al-Bukhari in his *Sahih*, which says, (Ibn Katheer 1985: 6-7):

"Relate my sayings, even if one verse, and speak about the children of Israel and there's nothing wrong with that. Narrate my sayings but do not lie. He, who deliberately lies about my sayings, let him take his seat in Hell."

Ibn Katheer described this hadith as: *"belonging to the Israelites that are silenced in our heritage. We have nothing to support them and nothing to confute them. Therefore, they might be narrated just as a warning. And this is what we do in this book [Al-Bidaya wa Nihaya - the Beginning and the End]. Whichever of them proved false by our religion, is rejected and should not be narrated except by way of denial and revocation. Since God, Glory be to Him, has made us dispense with all other religions by our prophet Muhammad (peace be upon him), and dispense with all holy books by our Qur'an; we should not, then, rush to their texts, with all their contents of random talk and confusion, lies and fabrication, distortion and alternation, and added to all that, repealing and changing."*

The above clearly demonstrates that Ibn Katheer knew well that the narrative of the written Jewish sources was not authentic. Therefore, he resorted to the Qur'anic narrative to evaluate it. Had Ibn Katheer had access to the contemporary historical and archaeological data that negate the written Jewish narrative, he would not have hesitated to negate it altogether. Hence, he recommended that its use be restricted to a warning. In my opinion, the Qur'anic material that conforms with the narrative of the written Jewish sources, limited as it was, in the most part, served to introduce miracles that functioned as examples and warnings, a motivation for contemplation and meditation, preaching and reproaching, and

was not to be understood as lived historical events. Since miracles are divine and metaphysical acts, they are, therefore, ultra-historic. They are un-lived, immediate and instantaneous events, even if they did occur at a specific moment in time. While, in contrast, historical events are lived human experiences.

Narrative of the written Jewish sources

The narrative of the written Jewish sources, related to the history of Palestine and Jerusalem, on the one hand, is founded on silencing Palestinian history altogether and on denying the Palestinian human presence. On the other, its focus is on inserting the Jews into the history of the Arab region by transforming the religious miracle into a lived human historical event. Thus, the said narrative became an undisputable lived reality in the Jewish and Western Christian collective conscience, and regrettably to a great extent, in the Arab-Islamic collective conscience. This is in spite of the fact that the written Jewish narrative acknowledges the Canaanite presence in Palestine², and that the ancient Egyptian, Assyrian, Babylonian, Greek and Persian historical sources do not contain any allusion to the Jewish narrative.

In the 1970s, the aforementioned facts encouraged the appearance of some exceptional cases that contradicted the written Jewish narrative, although they could not refute it completely. Nevertheless, the said narrative was undermined. But regrettably, Arabs did not make proper use of the aforesaid cases, and therefore, the presence of the narrative of written Jewish sources remained prominent in the Arab historical and religious sources, in spite of the irrational exaggerations in the narrative, and of its putting the religious miracle to use as a human historical event.

Among the exceptional cases, mention should be made of some contemporary Jewish and Western historical trends that contradicted the written Jewish sources and demonstrated their falsity and their prejudice against Palestinian history, in an effort to obliterate this history and to obscure its human presence. All this is to support the false claims of the Jews' right to Palestine. In his *The Invention of the Jewish People* (2010), the contemporary Jewish historian, Shlomo Sand, professor at Tel Aviv University, at the town of Sheikh Mu'anis, occupied Palestine, denies the false claims in the written Jewish narrative of the diaspora

and the exile of the Jewish “people” by the Romans.

We can also cite Western historians, such as the American Thomas Thompson, author of *The Mythic Past, The Bible in History* (2000), who also raised doubts about the written Jewish narrative and concluded that it is a mere fable and not suitable for constructing historical events.

Furthermore, the British historian Keith Whitelam, in his book, *Invention of Ancient Israel: The Silencing of Palestinian History* (2000) raises doubts about the Biblical narrative altogether. In his displaying the history of the Israelites, he considers it a device for suppressing the Palestinian history for the benefit of the Jews. Whitelam condemns scholars who exploit the written Jewish narrative for suppressing Palestinian history to uphold Zionist claims.

Arabs and Muslims researchers should honor such tendencies and make proper use of them. They should also refute, and even negate, the written Jewish narrative altogether. In addition to the aforementioned tendencies, use should be made of the Qur’anic narrative that demonstrates that the religious miracle is but an instantaneous, immediate and ultra-historic act of God, and not a lived human historical event, as claimed by the exaggerations and detail of the written Jewish narrative. The latter is demonstrated below.

Silenced historical sources

Ancient Egyptian sources

These sources have been completely silenced. In the ancient Egyptian sources (the papyri) there is no mention of the story of the exodus. In the Qur’an, the story of the exodus - clear as it is - does not specify that its location was in Egypt (Misr) as we know it today, as stated in the Jewish narrative. The following verse (aya):

“And (remember) when you said, O Musa (Moses)! We cannot endure one kind of food. So invoke your Lord for us to bring forth for us of what the earth grows, its herbs, its cucumbers, its Fum [wheat or garlic], its lentils and its onions. He said, Would you exchange that which is better for that which is lower? Go you down to [Misran] any town and you shall find what you want! ...”³

Describes a situation that existed after and not before the exodus. According to linguists and experts of the Qur’anic text, the inflection (*at-tanween* - “*ī*” - “*an*”) in the word (Misran - مصرًا), does not imply a specification, but rather a generalization. The word ‘Misr’ in Arabic means a city, and not the Egypt of today. (Ar-Razi 1985, vol.3: 105-110) The content of the verse does not support the narrative of the written Jewish sources, neither in time, since it refers to a situation existing after the Jewish exodus, nor in place, since according to the rules of Arabic grammar the inflection (*at-tanween*) in the word ‘Misran’ negates a specified place.

As for the description and recording of the actual life of the Jews prior to the exodus, the location of their residence is not specified anywhere in the Qur’anic chapters of “Al-Baqarah”, “Al-A`r`af”, “Al-Ma`idha”, “Yunus”, “Ta-Ha”, “Ash-Shu`ara`” and “Al-Qasas”, as well as in other chapters. Most probably, they may have been living in Egypt. They may also have been living in another place, as stated in the above-mentioned verse. The destination of their exodus is not named or specified in the Qur’an either; that is, there is no explicit mention of Palestine. The Qur’an says:

“O my people! Enter the holy land which Allah assigned to you and turn not back [in flight]; for then you will be returned as losers.”⁴

This contradicts what is stated in the *Book of Exodus* (Torah) - the first five books in the Tanakh (Old Testament) and one of the written Jewish sources - which says positively that the Jews were in Egypt; they then headed for the land of the Canaanites i.e. Palestine.⁵

But we do not find a confirmation of this fact in the ancient Egyptian sources (papyri). According to Immanuel Velikovsky, (1995:23-64) in his book, *Ages in Chaos*, the papyri have, so far, not been found to contain any allusion to the Jewish exodus from Egypt. This fact, however, does not contradict the description of the Jews actual life in accordance with the Qur’anic verses, as the Qur’anic method of recording the historical events does not specify the time and the geographical locus of the events. This provides an opportunity for all kinds of opinions. The aim of mentioning and recording the historical events in the Qur’an is to give examples and warnings, and to provide

a motive for contemplation and meditation on the fate of bygone peoples and civilizations, in an effort to preach and warn against disobedience of God or against polytheism.

This might be considered a kind of consolidation of the historical philosophy in Islam that rests on: *at-tawasul at-tharikhiy* (**historical continuity**), *at-tafaker wa-at-t'amol* (**thinking and speculation**), *ad-duroose waal-'iber* (**lessons and eruditions**), and *at-tanaw' dakhil al-wihda* (**variety within unity**). This is in contrast to the Torah and the written Jewish sources fallacy that specifies the date and the geographical locus of the historical events, thus facilitating the process of refuting and negating the relevant event. Therefore, the Qur'anic style of narrating and recording the event of the exodus, and the absence of the said event from the Egyptian papyri, refute the Jewish narrative of the exodus and negate the details of the event related in the book of *Exodus* in the Torah.

This, in turn, leads to two probabilities. The first is that Jews were not, in fact, in Egypt, and hence, the exodus did not start there. Thus, we can explain the absence of the event in the old Egyptian sources, irrespective of the exaggerations of the written Jewish narrative. And the Qur'anic narrative of the exodus can, thereby, be confirmed as well, which assures that the said event did indeed take place and started from some place where an insignificant number of Jews had existed. In this regard, the Qur'an states:

*"And We revealed to Musa (Moses), saying: 'Depart by night with my slaves verily, you will be pursued.' The Fir'aun (pharaoh) sent callers to [all] cities. [Saying]: 'Verily, these indeed are but a small band.'"*⁶

The second probability is that the Jews did exist in Egypt, somewhere on the peripheries. But due to the insignificance of their number, their exodus was not an important historical event; hence, the absence of the event in the ancient Egyptian sources. The Qur'anic narrative, however, made use of it in the frame of the miracle of Moses for providing examples and for preaching, reproaching and as a motive to draw conclusions. Since miracles are by definition metaphysical events, they do not leave any trace to indicate their occurrence.

It would be appropriate to add at this point that even if it is more likely that the Jews did exist in Egypt or on its periphery, the fact that their exodus is not referred to the ancient Egyptian sources indicates that this was an insignificant event in the ancient history of Egypt. This is likely to be for the reason that this occurrence did not happen in the amplified way it is described in the Torah, either in manner or in number. The Torah, in the *Book of Exodus* mentions that the number of men who accompanied Moses was 600,000⁷. Hence, and according to the estimations in the interpretations of the Bible (Arabic Life Application Bible - LAB) (٢٠٠٢), the total number of Israelites, men, women and children who accompanied Moses in the exodus, is 2 million. This contradicts logic and confirms the Qur'anic narrative that they were but a few persons. In his 'Introduction' Ibn Khaldun (No history of Publication: 10-11) asserts and proves their number as small.

What is implied here is that the small number of Jews may be the reason why the story or the event of the exodus is overlooked in the old Egyptian sources. This in turn refutes the exaggerations of the written Jewish narrative but does not contradict the Qur'anic one, because the latter is concerned with giving examples, with warnings, as providing a motive for contemplation and meditation and for preaching and reproaching. All this is realized through narrating the punishment that had befallen the Jews and the ancient Egyptians because they were polytheists and had disobeyed God. The Qur'anic narrative is not concerned with chronicling the event of the exodus perse.

Generally, the only available ancient Egyptian source relating to the history of Jerusalem is one of the Tell el-Amarna letters that go back to 15th century BCE. The letter is a grievance submitted by Abdi-Hepat, King of Orsalem (Jerusalem), to the Pharaoh, wherein he complains about the Bedouin raids on the city. But this does not confirm the narrative of the written Jewish sources; neither does the Egyptian invasion of Palestine confirm it. Therefore, exploiting this absolute absence of the Jews from the old Egyptian sources by Arab and Muslim scholars engaged in studying the history of Palestine and Jerusalem – places that are geographically adjacent to Egypt and historically attached to it with regards to history and security - might help to refute, and

even invalidate, the exaggerations of the Jewish narrative concerning the exodus altogether.

As for Velikovsky's attempt (1995: 23-125) to insert the Jews into the history of ancient Egypt by using the contents of the Epoire papyrus (later known as the Leiden papyrus) and the Hermitage papyrus to make predictions about future events and catastrophes, even he himself admits that the contents of the papyrus are mere prophecies. They do not describe a historical event that took place in the past, or an event that took place during the time of the predictor or the writer of the papyrus. In other words, they are not a record of a lived event. He also admits that there is no document or inscription dating back to the history of ancient Egypt that directly points to the episode of the exodus.

The same might be said about Velikovsky's (1995:129-172) attempt to compress the history of ancient Egypt into 600 years, so as to synchronize the journey of the Egyptian queen Hatshepsut (1508-1458 BCE) to Punt (Ethiopia or Somalia) with the Queen of Sheba's (Balqis) visit to the Prophet Solomon (957-917 BCE). He was at pains to substantiate that Punt is Palestine and that Hatshepsut is the queen who visited the Prophet Solomon. In his effort, Velikovsky sometimes adopted a methodology of proximity (nearness) and comparison; at other times he resorted to twisting and altering the facts, or to guesswork and probability. It was far less convincing and ineffectual than his previous above mentioned attempt. All the gifts brought by Hatshepsut in her journey, back to Egypt from Punt which included ivory, ebony, incense, myrrh, sandal wood and animals (lions, elephants) do not exist in Palestine.

The design of the Deir el-Bahri temple of (Hatshepsut), which Velikovsky claimed had been inspired by the design of the alleged Temple of Solomon, is completely different with regard to the structure and the building materials used for the alleged Temple of Solomon. Added to that, the Deir el-Bahri Temple is 600 years older than the alleged Temple of Solomon. The latter is not a Jewish structure, but a Phoenician one constructed by the engineer Hiram al-Suri (of Tyre), as claimed by the written Jewish narrative. As for Deir el-Bahri, it is a genuine Egyptian structure that embodies all techniques, elements, ornaments, features and characteristics of ancient Egyptian architecture.

From the viewpoint of archaeology, the episode of Balqis and Prophet Sulaiman (Solomon), as related in the written Jewish narrative, is but a myth. There is not a single piece of physical evidence to substantiate the authenticity of the written Jewish narrative.

The Qur'anic narrative concerning the meeting of the Prophet Sulaiman (Solomon) with the woman who ruled Saba' (Sheba), with all the concurrent details and considerations, runs as follows:

*"He inspected the birds, and said: What is the matter that I see not the hoopoe? Or he is among the absntees? I will surely punish him with a severe torment, or slaughter him, unless he brings me a clear reason. But the hoopoe? Stayed not long: he (came up and) said: I have grasped (the knowledge of a thing) which you have not grasped and I have come to you from Saba' with the true news."*⁸

*"... A 'Ifrit (strong one) from jinn said: I will bring it to you before you rise from your place (council). And verily, I am indeed strong, and trustworthy for such work. One with whome was knowledge of the Scripture I will bring it to you within the twinkling of an eye! Then when Sulaiman (Solomon) saw it placed before him he said: This is by the Grace of my Lord – to test me wheter I am greatful or ungreatful! And whoever is grateful, truly, his gratitude is for (the good of) his ownself; and whoever is ungrateful (he is ungrateful only for the loss of his ownself). Certainly, my Lord is Rich [Free of all needs], Bountiful."*⁹

The woman mentioned in the above-cited Qur'anic verses was called Balquis by Muslim historians and interpreters of the Qur'an. As the act was effectuated by the Jinn, whom God had subjugated to assist Prophet Solomon, and not by human beings, it might be classified as a miracle that aims to give examples and to warn, to preach and to reproach, (Ar-Razi 1985, vol.24:188-201). Miracles record a phenomenon or an instantaneous, immediate and transient event, even if they took place in a certain moment of time. That means miracles do not leave indicative signs, because they are

not historical man-made events, but an ultra-historical event effectuated by God. In most cases, a miracle records an unfamiliar event, an incomprehensible one, because it infringes the laws of nature. Such an event aims at demonstrating the Creator's ability to daze and to impress the contemporaries who witness the miraculous act; thereby preaching and reproach reach their full impact and the miracle brings about its desired objective, as in the following verses:

*"Thamud and 'Ad people denied the Qari'ah (the striking Hour of Judgement)! As for Thamud, they were destroyed by the awful cry! And as for 'Ad, they were destroyed by a furious violent wind! Which Allah imposed on them for seven nights and eight days in succession, so that you could see men lying overthrown (destroyed) as if they were hollow trunks of date-palms! Do you see any remnants of them! And Fir'aun [pharaoh] and those before him, and the cities overthrown [the towns of the people of (Lot)] committed sin. And they disobeyed their Lord's Messenger, so He seized them with a strong punishment."*¹⁰

Hence, the 'miracle' should not be recorded, or understood as an ordinary historical event, because it is instantaneous and immediate, even if it takes place at a certain moment in time. This might explain why ancient historical Egyptian and Yemeni sources did not record such events as lived historical realities. It could also explain why the aforesaid events are not recorded and documented archeologically. There is no archaeological evidence of their occurrence because they infringe the laws of nature, and are, therefore, beyond human history.

The Qur'anic narrative records an instantaneous, immediate and transient event, in the form of a miracle that infringes the laws of nature, in an effort to realize its religious objectives of preaching, reproaching, giving lessons and examples and prompting contemplation and meditation. It does not record a historical man-made event that involves actual facts. No doubt this contradicts the written Jewish narrative that transformed into lived historical events the meeting between Prophet Solomon with the woman who ruled Saba' (Sheba); as well as other

transient events in Judaism and in the Jews' relations with God. This also contradicts the reason behind the occurrence of those events. All this constitutes an effort made by Jews to insert themselves into history, as equals to ancient Egyptians, Assyrians, Babylonians, Canaanites, and other peoples. The histories of these people do not mention Jews since they represented, for the latter-mentioned peoples, a community that lived on the edge of their history. They - the Jews - therefore tried to insert themselves into history by transforming the transient events in their religious life into lived historical events. But while doing so, they forgot, or they pretended to forget, that geography (place) is the most important element in historical events, and that geography is the very element that they lacked in the past and still lack in the present. The 'no-place' complex is inseparable from the incidents of their life. Their Torah was revealed in the wilderness, that is, in no-place. Their endless wandering and diaspora reinforced their 'no-place complex'. Geography is their primary enemy; it has ousted them from history in the past, and is still doing so in the present.

As for the existence of some Jews in Palestine, it is a transitory existence, regardless of how long it may last, because it is nothing more than extortion and occupation. Extortion never provides a geographical welcoming environment for the extorting party. Because the resulting events, no matter how important, are listed as criminal deeds that do not make history; they are only recorded in the margin of history. Therefore, Jews were, are still and will always occupy a marginal place in history, since they lack the principal element for making history, i.e. geography.

As I have already demonstrated, all the past attempts by Jews aimed at transforming the religious event into a historical one in order to provide themselves with the element of geography, which they presently lack, and which would enable them to make an entrance into history and to participate in making historical events, are simply desperate and futile.

Assyrian, Babylonian (Mesopotamian civilizations) sources

The written Jewish narrative is the only source that spoke about the two incidents of enslavement, (the minor and major) and about

the destruction of the alleged temple. The first enslavement, according to the written Jewish narrative, was done by the Assyrian emperor,¹¹ Sargon II, in 721 BCE; the second was done by the Babylonian emperor, Nebuchadnezzar, in 586 BCE.¹²

These two incidents are not mentioned in the Assyrian and Babylonian sources. Assyrian and Babylonian archaeology never contributed convincingly in recording the presence of the written Jewish narrative in the aforesaid sources. The books dealing with ancient Levantine history, founded on archaeology, also never recorded a convincing presence of the Jewish narrative. This fact negates the occurrence of the two aforesaid incidents.

Strangely enough, the Western historical sources remain silent about the absence of the Jewish narrative from the Assyrian and Babylonian sources. This silence has bestowed a kind of historical credibility upon the said narrative. And this, in turn, has prompted the Arab scholars engaged in the ancient history of the Levant - Palestine and Jerusalem in particular - to adopt the Jewish narrative, instead of refuting it as based on the fact that it is absent from Assyrian and Babylonian sources. The reason for this is that by refuting the occurrence of the two enslavement incidences - the major enslavement attributed to Nebuchadnezzar in particular - leads in turn to invalidating the claims related to the existence of the alleged temple and of its destruction by Nebuchadnezzar. Our intention here is not negation *per se*, notwithstanding its scientific credibility and historical importance, but that negation should be put to use to refute the Jews' claims about their alleged temple.

Negation does not contradict the Qur'anic narrative related in the chapter *surah al-Isra'* ("The Night Journey"), where God's punishment of Jews is said to have taken place during two main periods and other subsequent periods, dependent on their behaviour. This is stated in the following verses from *surah al-Isra'*:

Glorified [and Exalted] is He (Allah) [above all that evil they associate with Him] Who took His slave (Muhammad) for a journey by night from Al-Masjid-al-Haram (at Makkah) to Al-Masjid-al-Aqsa (in Jerusalem), the neighbourhood whereof We have blessed, in order that We might show him (Muhammad) of Our Ayat (proofs, evidences, lessons,

*signs, etc.). Verily, He is the All-Hearer, the All-Seer. And We gave Musa (Moses) the Scripture and made it a guidance for the Children of Israel (saying): Take none other than Me as (your) Wakil (protector, Lord or Disposer of your affairs). O offspring of those whom We carried (in the ship) with Nuh (Noah)! Verily, he was a grateful slave. And We decreed for the Children of Israel in the Scripture: indeed you would do mischief in the land twice and you will become tyrants and extremely arrogant! So, when the promise came for the first of the two, We sent against you slaves of Ours given to terrible warfare. They entered the very innermost parts of your homes. And it was a promise (completely) fulfilled. Then We gave you a return of victory over them. And We helped you with wealth and children and made you more numerous in manpower. (And we said): If you do good, you do good for yourselves, and if you do evil (you do it) against yourselves. Then, when the second promise came to pass, (We permitted your enemies) to disgrace your faces and to enter the mosque (of Jerusalem) as they had entered it before, and to destroy with utter destruction all that fell in their hands. [And We said in the Taurat-(Torah)]: It may be that your Lord may show mercy to you, but if you return (to sins), We shall return (to Our Punishment). And We have made Hell a prison for disbelievers."*¹³

Before displaying the said periods, an attempt will be made to highlight the true details relating to the building of al-Aqsa mosque.

Al-Aqsa mosque

Firstly, it should be mentioned that at the time of the Prophet Muhammad, al-Aqsa mosque had not yet been built. It was built during the reign of the Caliph Abdul Malek ibn Marwan (65-85H/685-705 CE) and his son, Caliph al-Waleed (85-96 H/705-715 CE). The content of the Qur'anic verses refers to what would be a mosque later on. That is, the Prophet Muhammad was carried in the night journey to the location of the where the future mosque would be located. This was God's way

of specifying the two sites of worship in Makkah and Jerusalem, due to their religious value as the two successive Qiblas [the direction to which Muslims turn in prayer]. The Construction of al-Ka`bah was passed through three distinct stages:

- 1- The inhabitation of Makkah by the settling of Ibrahim (Abraham), his wife Hajar and his son Isma`il in the vicinity of the sacred House, and specifying the religious function of the city, as in the verses:

*"O our Lord! I have made some of my offspring to dwell in an uncultivable valley by your Sacred House (the Ka`bah at Makkah) in order, O our Lord, that they may perform As-Salat (Iqamat-as-Salah). So fill some hearts among men with love towards them, and (O Allah) provide them with fruits so that they may give thanks."*¹⁴

God had already specified the site of al-Ka`bah. Therefore, Ibrahim was instructed to accommodate his offspring in the vicinity of the location specified by God for constructing al-Ka`bah and the sacred Mosque. And God demonstrated to Ibrahim the purpose of inhabitation is worship as expressed by prayers.

- 2- Specifying the location of al-Ka`bah that had been known only to God, as in the verses:

*"And (remember) when We showed Ibrahim (Abraham) the site of the (sacred) House (the Ka`bah at Makkah) (saying): Associate not anything (in worship) with Me, [La ilaha illallah (none has the right to be worshipped but Allah) – Islamic Monotheism], and sanctify My House for those who circumambulate it, and those who bow (submit themselves with humility and obedience to Allah), and make prostration (in prayer)."*¹⁵

That is, God had specified to Ibrahim the site allocated for constructing the sacred mosque and indicated the conditions for its use; i.e. worship as expressed by believing in God and

avoiding polytheism, as well as by keeping it clean and pure.

- 3- Constructing al-Ka`bah after specifying its location, as in the verse:

*"And remember when Ibrahim (Abraham) and (his son) Isma`il (Ishmael) were raising the foundations of the House (the Ka`bah at Makkah), (saying), Our Lord! Accept (this service) from us. Verily, You are the All-Hearer, the All-Knower."*¹⁶

Here the process of locating the site ended in constructing the building, thus settling the question of the holiness of the site and its dedication to worship. The same stages apply to al-Aqsa mosque, that is:

- a) The destination of the 'night journey' was the site already chosen and designated by God to be the location of a mosque - al-Aqsa. It is not the mosque claimed to be constructed by prophets David and Solomon in some Islamic sources that had resorted to the allegations of the Jewish narrative. Neither is it the alleged temple promoted by the Tanakh and the written Jewish sources. If the location of al-Aqsa mosque was the same location of the alleged temple, then why would God abstain from referring to this fact? He did that with al-Ka`bah constructed by Ibrahim, where the rites of the tolerant Hanifism (the religion of Ibrahim) had been performed. After that, polytheists started to perform their worshipping rites inside al-Ka`bah and erected their idols in its vicinity, known as the sacred mosque. Ultimately, God dedicated al-Ka`bah for Islam, after the Prophet Muhammad removed the idols from it. All this proves that the site of al-Aqsa mosque was a location specified for constructing a mosque for Muslims which God had designated for al-Aqsa mosque.
- b) The Caliph Umar ibn al-Khattab (13-24 H/634-645 CE) came upon the site of al-Aqsa mosque in 15H/636 CE, after liberating Jerusalem, by concluding a peaceful agreement with Patriarch Sophronius, and after cleaning the site he, Umar, dedicating it for praying.

c) The Umayyad Caliph Abdul Malek ibn Marwan (66-86H/685-705CE), constructed the mosque of the Dome of the Rock in 72 H/692 CE, in side al-Masjid al-Aqsa (al-Haram). He then began to construct al-Qibliy mosque (also known as al-Aqsa mosque), because it is located in the Qibla (sought) side of al-Masjid al-Aqsa (al-Haram). His son, Calliph al-Waleed (86-97/86-97CE), completed the construction of al-Qibliy mosque in 96 H/715 CE. [the al-Aqsa mosque refer to al- Qibliy mosque, and to the whole area (144,000 m²) that contain: the mosque of the Dome of the Rock, al-Qibliy mosque (or al-Aqsa mosque), and more than 40 schools in the western and northern sides of it, the women's mosque and the museum in the south, al-Masjid al-Marwaniy together with the old al-Aqsa mosque in the basement, and all the other buildings inside the area of al-Aqsa mosque, known also as al-Haram al-Qudssiy or al-Haram ash-Sharief].

Remarkably enough, the site of al-Aqsa mosque was completely vacant during the time of the 'night journey'. Also remarkable is the fact that specifying the two sites of worship by God was confined to Islam. There is no such specification of worship buildings either in Judaism or in Christianity. The Tabernacle, mentioned in the *Book of Exodus*, in the Torah, was founded in the wilderness; that is in no-place. It was not located in a specific place but was folded and carried from one place to another during the 40 years of the *at-Teeh* (wanderings of the Jews), and even later. In addition, the site of the alleged temple was never specified. We have only claims about its existence and its location in more than one place. There is no written or physical archaeological evidence of its existence. Jews suffer a 'place' complex. And that is why they claim that the site of al-Aqsa mosque is the site of the alleged temple.

So much for al-Aqsa mosque and its site. As for the absence of any allusion to the two enslavement incidents in the Assyrian, Babylonian sources, the following section will examine and analyze the Qur'anic verses that revealed to the Israelites their future and their fate, as a result of their corruption and disobedience. These verses spoke about the transgressions committed by the Jews, and threatened them if they did not refrain from

their corruption. I will analyze the stages of their punishment in the Qur'anic narrative.

Stages of the Jews' punishment in the Qur'anic narrative

The written Jewish narrative specifies dates and geographical sites; it also defines adversaries. In order to magnify a certain event, it resorts to excessive detail and exaggeration. All this facilitates attempts to refute, even invalidate, the narrative, since such a level of detail and bias are solely mentioned in the Jewish narrative and are not supported in the historical sources of the civilizations that were directly concerned with the event described. Just as the exodus episode is neglected in the old Egyptian sources because it was a transient event, the episode of the two enslavement incidents is also absent from the historical Assyrian and Babylonian sources. Such sources are supposed to be concerned with the invasion and destruction of Jerusalem, with the burning down of the alleged temple and with the enslavement of the Jews, as the written Jewish narrative claims. The aforesaid events are historical, and had they been committed by the two civilisations, the Assyrian and Babylonian sources would not have neglected recording and documenting them, regardless of their magnitude. This means that the written Jewish narrative is incorrect because the sources concerned with the events of this narrative have not recorded them; or it might also mean that the events in the Jewish narrative are exaggerated, as in the case of the exodus.

Now we turn to the Qur'anic narrative that seems to conform superficially to the written Jewish narration, as related in the verse, "*And We decreed for the Children of Israel in the Scripture: indeed you would do mischief in the land twice [...]*", and thematically to the silence of the historical Assyrian and Babylonian sources. The latter verse matches the written Jewish narrative that speaks of two events - the minor and major enslavements. As for the theme, the details and exaggeration in the written Jewish narrative, the Qur'anic narrative conforms with the silence of the Assyrian and Babylonian sources, since it does not specify who will fight the Jews, nor does it specify the country, the geographical site, the place where the Jews live or where war takes place. The verse says: "... *They entered the very innermost parts of your homes (lands)*...". The Qur'anic

narrative does not specify the land or mention what befell the Jews after the war, such as the "destruction of the alleged temple, looting its vessels and enslaving the Jews", as the written Jewish narrative claims.¹⁷ Note that the written Jewish narrative settled for making mention of the minor enslavement (Assyrian), while it focused on the major enslavement (Babylonian), aggrandized it and tended to exaggerate its details and its link with Persian history.

Remarkably, many Moslem jurists and interpreters of the Qur'an worked hard to explain the aforesaid verses. Some upheld the written Jewish narrative as related in the Tanakh, such as At-Tabari (1980, vol.15:17-35) in his Tafsir, but with a difference with regard to names. The Tanakh says that the minor enslavement was carried out by Assyrian Sargon II, while At-Tabari says it was Sennacherib (704-681 BCE) also an Assyrian king. Other jurists and interpreters never transcended the Qur'anic narrative but without contradicting the written Jewish narrative, such as ar-Razi in his Tafsir (ar-Razi 1985, vol.20:156-159). He claimed that Nebuchadnezzar carried out the minor enslavement, Goliath carried out the major enslavement, and that Talut (David) represented the phase of "*then we granted you victory over them ...*". Here we find support for the written Jewish narrative, with some differences in interpretation. Goliath remains outside the written Jewish narrative that attributes its events only to Sargon II and the Babylonian Nebuchadnezzar. This means that, according to the Jewish narrative, Sargon II carried out the minor enslavement, and not the Babylonian king Nebuchadnezzar, who carried out the major enslavement. In addition, the minor enslavement took place three centuries after the reign of the Prophet David, and the major enslavement took place five centuries later, as claimed by the Tanakh. Therefore the interpretation of ar-Razi is invalid.

Other Islamic jurists and interpreters mentioned the written Jewish narrative as a citation from at-Tabari, but disagreed with and approved of it, such as the Damascene jurist, historian and Qur'anic interpreter, Ibn Katheer (1991, vol. 3:29-30) in his interpretation. He says, "If we had found something correct, or not far from being correct [in the Jewish narrative], it would have been admissible to write it and to narrate it. God knows better than us".

The Qur'anic narrative, therefore, did not confirm the written Jewish narrative of the enslavement in its viewpoints and detail, but it confirmed it as regards the number of times the Qur'anic narrative specifies as twice. It left open the issue of the Jews' accountability and punishment for their corruption and disobedience, and for a third and may be fourth, fifth, sixth revenge and more. In other words, an open revenge, dependent on their behaviour, as in the holy verse, "*If you shall return (to sins), We shall return (to our punishment)...*"¹⁸ This was what happened to them in their wars as recorded in the *Tanakh*. The last of which was the war waged by the military commander Titus (later emperor 79–81 CE), who led a military campaign during the reign of his father, Vespasian (69 -79 CE), and invaded Jerusalem in 70 CE.

Could the two incidents mentioned in the written Jewish narrative have happened during the period between their entering Palestine and their defeat by Titus in 70 CE? Or could they be the episodes of their punishment, after the year 70 CE, up to this date, such as happened at the beginning of Islam, when Prophet Muhammad expelled them from al-Medina and its surroundings? Could the event related in the Qur'anic narrative be a third revenge? And how can we explain the persecution and expulsion that befell them much later in France, from where they were expelled four times during 1182–1322 CE? How can we explain what befell them in Britain in 1290 CE, in Austria, in 1421CE, and in Spain in 1492 CE? And how can we understand the way they were treated in Germany before and during the Second World War (1933–1945 CE)? During all the previously-mentioned events in Europe, the Jews did not belong to a specific land. They have not been in Palestine; they did not build the alleged temple. Could we consider this as a revenge and punishment for the fourth, fifth, sixth, and more times?

How then can we explain the revenge and punishment awaiting them in Palestine that they can expect at every minute and which they spare no effort to evade? It might even be said that the achievements of the Islamic Lebanese Resistance (Hezbollah) in 2006 CE, and those of Palestinian Resistance in the Gaza Strip in 2014 CE, were part of the awaited revenge. The latter could immobilize the civil aviation sector in occupied Palestine. The two resisting movements were able to force approximately 2

million Jews to live in bomb-shelters during the period of the two wars. They were also able to cripple the economy of the Zionist-Jewish entity during the same period.

At this point, we cannot be positive about the conformity of the Qur'anic narrative with the written Jewish narrative. The first is open to all probabilities, while the latter is confined to two historical events that are not supported by the Assyrian and Babylonian historical sources concerned with the two events. Hence, the term "twice", in the Qur'anic narrative does not necessarily refer to the minor and major enslavements. Nor can we be positive that the Jews have twice become transgressors in the past in order to align the Qur'anic and the written Jewish narratives. Given that the Jews, at present, are in a state of transgression that is unprecedented in their history, supposing they actually did have a history. How can the present transgression be described? Is it the first or the second or a third? That justifies the phrase: *"If you shall return (to sins), we shall return (to our punishment)..."*.

Conformity between the two narratives is difficult to acknowledge. The Qur'anic narrative is absolute in time and unlimited in place. It is open for all past, present and future events. It is not concerned with history as events and facts. It is concerned with the philosophy of history, serving as lessons and example, for contemplating and considering the affairs of non-Muslims, so that Muslims can draw conclusions. Therefore, the Qur'anic narrative does not comprise dates, human temporal experience and specific place names. It leaves the historical events open for all interpretations.

As for the written Jewish narrative, it is limited in time and place and is linked to the Jews as a human community. It records alleged facts and events, human temporal experience, and specific place names that cannot be found in any other source. They lack historical support and geographical presence. I have demonstrated this as applied to the silenced ancient Egyptian and Assyrian, Babylonian sources that do not support the written Jewish narrative. In addition, archaeological physical evidence has not bestowed any credibility to the written Jewish narrative. Therefore, it cannot be drawn upon as a historical narrative. This, in turn, invalidates all the events the narrative relates: The destruction of Jerusalem, the destruction of the alleged temple and the

enslavement and dispersion of Jews. Based on some of sources indicated at the beginning of this paper, Arabs and Muslims, in carrying out their research, need to discard this narrative from their collective conscience, their history books and the interpretation of the Qur'anic verses that speak about Jews, so as to avoid and even invalidate the religious, historical and political repercussions of the aforesaid narrative. The non-conformity between the narratives will now be clarified in the review of the Persian and classical Greek and Latin source.

Persian sources

The written Jewish narrative of the Babylonian enslavement involves the Persian civilisation that destroyed the Babylon state. The narrative claims that the Persian King Cyrus (560-529 BCE), who defeated Babylon in 539 BCE, gave permission to Jews to return to Jerusalem in 535 BCE. It also claims that Cyrus permitted them to build their alleged temple (The Temple of Zerubbabel, or the Second temple).¹⁹ The narrative claims as well that disputes arose among the Jews and they sent a letter of complaint to the Persian King Artaxerex, which is the Jewish name given to King Cambyses, son of Cyrus (529-522 BCE), who responded to the complaint and issued a written decree to stop the construction of the alleged temple,²⁰ as claimed in the written Jewish narrative. So, although Cambyses was busy fighting Egypt all throughout his reign, he invaded that country and installed himself as pharaoh there.

During the reign of Darius (522-486 BCE), the Jews - both those opposing the building of the temple and those supporting it - kept sending complaints to the king. Eventually, Darius issued orders to resume the building of the alleged temple.²¹ The written Jewish narrative claimed that it was completed by Zerubbabel in 516 BCE.

Strangely enough, the alleged letters exchanged between Jews (those opposing the building of the temple and those supporting it) and the Persians, through the reigns of the above-mentioned kings, have never been mentioned in the Persian sources. They have only been mentioned in the written Jewish narrative; the Western and Jewish sources have never cited a Persian source to support this narrative. The Persian sources do not relate anything whatsoever that supports such allegations. Hence, this invalidates the said

allegations altogether, and therefore, also invalidates the question of building the so-called temple of Zerubbabel or the second temple. Furthermore, it completely negates the episode of the Babylonian enslavement.

The silence in the Western historical sources that adopt the allegations of the written Jewish narratives (with some exceptions that have already been mentioned) about the absence of the said narrative from the Persian sources, should not deter Arab scholars engaged in studying the history of Jerusalem from taking advantage of this absence. Exploiting their complete absence from the Persian sources should be an objective and the methodological approach used by all Arab scholars engaged in the history of Jerusalem. Such absence confirms the unconformity with the Qur'anic narrative and, hence, negates the building of the alleged second temple. Having juxtaposed the written Jewish narrative with the Qur'anic narrative, the idea of the construction of the alleged first temple is invalidated in the section of the Assyrian, and Babylonian sources. The same notion becomes null on the basis of evidence presented on the logic of engineering, and religion in my book, *The Architectural Identity of Jerusalem*(2010). The silence of the Persian sources on the Jewish narration of the Babylonian is equally confirmed in the classical Greek sources which will be displayed in the following discussions.

Classical Greek and Latin sources

The classical Greek and Latin sources are perhaps the only sources in the history of the ancient world that are written and documented in books. Harvard University has had all these books translated into English. I reviewed all the books and did not find a single allusion to the written Jewish narrative. The most important book among them- Herodotus,(5th BCE) *The History of Herodotus* (2001) does not even mention the Jews. Remarkably, Herodotus chronicled the Persian Empire and the wars of Cyrus, Cambyses and Darius, who reigned during the period (560-465BCE). A period is very close to that chronicled by Herodotus, (450-420 BCE). The time span is 66 years between the date when Darius gave the Jews permission to build their alleged temple in 516 BCE, as the Jewish narrative claims, and the date when Herodotus began his history (516-450 BCE). If the written Jewish narrative about the Babylonian enslavement were true, it would have been mentioned by Herodotus who

spoke about the destruction of Babylon by Cyrus in 539 BCE. Moreover, Herodotus described Babylon and the traditions of its inhabitants in great detail. Had the Jews been living in Babylon during that or the previous period, he would undoubtedly have mentioned them. Hence, it may be concluded that the written Jewish narrative is incorrect, and that the Qur'anic narrative does not conform to it, as has been demonstrated above in the Assyrian and Babylonian sources. Therefore, the claims of the Jew concerning the destruction of Jerusalem, their enslavement and the existence of an alleged temple that was destroyed and then rebuilt, are all false. These claims have been shown to be mere fallacy by all the above-mentioned sources, as well as by the Qur'anic narrative. A complete review of the Qur'anic narrative will be sought after displaying the Roman sources.

Roman sources

The relationship between the Jews and the Romans has been documented in two main sources. The first is the history of Josephus Flavius, a Jew who accompanied the commander Titus after the latter had invaded Jerusalem and defeated the Jews in 70 CE. This was during the reign of Titus' father Vespasian (69-79 CE). Josephus wrote two books of interest here: *Wars of the Jews* (75CE) and *Traces of Jews* (94CE). In these, he claims that Titus had destroyed Jerusalem, torn down the alleged temple and looted the vessels inside it. Juxtaposing his narrative about the alleged temple with other narratives demonstrates how they contradict each other. I have negated the existence of the alleged temple in my book, *The Architectural Identity of Jerusalem* (2010).

The second source is the Arch of Triumph (Arch of Titus), erected by Emperor Domitian (Titus' brother) in Rome 82CE, whereupon Titus' military feats in the Judean wars were recorded. There is no mention of any temple; only depictions of vessels used for offerings, as cited by some Western sources. It is well known that it was Emperor Hadrian (117-138 CE) who planned the city of Jerusalem and named it Aelia Capitolina. He built a temple to Jupiter on the current site of al-Aqsa mosque and forbade Jews from entering the city.

During the reign of Constantine, (306-337CE), the Romans of the Eastern Roman Empire (Byzantines) embraced Christianity. The Byzantine period continued until the Muslims liberated Palestine and Jerusalem in

(15 H/636 CE). The Patriarch of Jerusalem, Sophronius, surrendered the city peacefully to Caliph Umar ibn al-Khattab by virtue of *The Treaty of Umar/Custody of Umar* that put an end to the existence of the Jews in the city and prevented them from entering it, at the request of Patriarch Sophronius as stated in the said Treaty.

Strikingly, the history of Josephus conforms to the written Jewish narrative that pivots around the alleged temple, but which is negated by the Roman sources.

According to the above-mentioned, it is clear that only the written Jewish narrative records historical, social and religious incidents and events that do not appear in the historical sources concerned with them; these include the ancient Egyptian, Assyrian, Babylonian, Persian, Greek and Roman sources. The said incidents and events are contradicted, some are even negated by the Qur'anic narrative, as I have already demonstrated and shall further demonstrate in the following discussions.

The Qur'anic narrative

In the following review and analysis, I will demonstrate how the Qur'anic narrative of the Jewish history confirms the distortion of the Torah and worship, and nullifies the racial superiority of the Jews, as claimed by the written Jewish sources.

The Qur'anic narrative is distinguished not only for its credibility, but also because it was known to the Jewish scholars, as in the holy verses:

*"And truly, this (the Qur'an) is a revelation from the Lord of 'Alamin (mankind, jinn and all that exists). Which trustworthy Ruh [Jibril] (Gabriel) has brought down, upon your heart (O Muhammad) that you may be (one) of the warners, in the plain Arabic language. And verily, it (the Qur'an, and its revelation to prophet Muhammad is (announced) in the Scriptures [i.e. the Taurat (Torah) and the Injeel (Gospel)] of former people. Is it not a sign to them that the learned scholars of the children of Israel knew it (as true)?"*²²

Therefore, whatever appears to be inconsistent with the Qur'anic narrative which is known to the Jewish scholars is considered mere distortion. This, in turn, leads to the distortion of the Torah.

Distorting the Torah

The Qur'an speaks directly and indisputably about the distortion of the Torah. As in the verse:

*"Then woe to those who write the Book with their own hands and then say, this is from Allah, to purchase with it a little price! Woe to them for what their hands have written and woe to them for that they earn (thereby)."*²³

As well as in the verse:

*"Veril This Qur'an narrates to the children of Israel most of that in which they differ".*²⁴

Also in the verse:

*"O People of the Scripture (Jews and Christians)! Now has come to you our Messenger Muhammad explaining to you of that which you used to hide from Scripture and pass over (i.e. leaving out without explaining) much. Indeed, there has come to you from Allah a light (Prophet Muhammad) and a plain Book (this Qur'an)."*²⁵

Hence, the distortion of the Torah is not a recent Western discovery by some Jewish theology specialists, but an Islamic Qur'anic one that goes back more than 14 centuries. (ar-Razi 1958, vol. 1:193-194/vol. 3:148-151) This fact should oblige and even compel Arabs and Muslims engaged in research on all Jewish affairs, and not only on the history of Palestine and Jerusalem, to put the Qur'anic narrative to use, and to distance themselves from the written Jewish narrative. Regrettably, the majority of Arab and Muslim scholars are not aware of this fact, and despite its usefulness, have not exploited it.

If the Torah is distorted, then so are all its allegations about the history of Palestine and Jerusalem. The unmistakable significance of the Qur'anic narrative in refuting the allegations of the written Jewish narrative should be given prominence by Arab and Muslim scholars who need to put the Qur'anic narrative to use in their research, since it is the most efficient factor in refuting the allegations of the written Jewish narrative.

At the beginning of this paper I examined the viewpoint of Ibn Katheer, who asked that the Qur'anic narrative be exploited for research and that the written Jewish narrative should be ignored. He considers the latter as being associated with the Israelites silence surrounding Islamic heritage, and that the

Jewish narrative is merely a bunch of random and confused lies and fabrications, distortion and the twisting of fact. This point of view will be upheld in the following discussions.

Distortion concerning rites of worship

The Qur'anic narrative reveals that in Judaism the worshipping rites practised by the Jews are their own invention; they were not divine revelations. Here again, the Qur'anic narrative does not mention a temple. In the Qur'anic narrative, Jewish worship rites indicate praying and the paying of zakat (alms-tax), and not donating offerings and collecting poll tax, amounting to half a shekel for every Jew from 20 years old and above,²⁶ as practised by the priests in the tabernacle and in the alleged temple later on. In addition, the said rites do not have to be practised inside a temple. This clearly appears in the verses where God addresses the Jews:

*"And perform As-Salat (Iqamat-as-Salat), and give Zakat, and bow down (or submit yourselves with obedience to Allah) along with Ar-Raki'un."*²⁷

This means that worship in Judaism did not include donating offerings as was practised by Jewish priests since the time of Moses up to 70 CE, when Titus invaded Jerusalem. (where rabbis plotted with him against the priests and changed the worship practices in Judaism from donating offerings to reciting Psalms, and from complying with the tampered version of the Torah (the false revelation)- to comply with the Talmud as written by the rabbis); Rather worship, in the Islamic sense, involves praying and paying zakat (alms-tax), kneeling, prostrating, supplication. It does not involve dealings with ill-gotten money and collecting taxes as worship in Judaism. In the following verses, God addresses Jews stressing that worship is prayer:

*"And seek help in patience and as-Salat (the prayers) and truly it is extremely heavy and hard except for Al-Khashi'un [i.e. the true believers in Allah - and those who obey Allah with full submission, fear much from His punishment, and believe in His Promise (Paradise) and his Warnings (Hell)]."*²⁸

God also says:

"And (remember) when we took covenant from the children of Israel,

*(saying): Worship none but Allah (Alon) and be dutiful and good to parents, and to kindred, and to orphans and to Al-Masakin (the needy), and speak good to people (i.e. enjoin righteousness and forbid evil, and say the truth about Muhammad), and perform As-Salat (Iqamat-as-Salat) and give Zakat. Then you slid back, except a few of you, while you are backsliders."*²⁹

The evidence that the worship rite of donating offerings in Judaism was not a divine revelation, but one invented by the Jews is clear in the following verses:

*"Then why did those whom they had taken for alhah (gods) besides Allah, as a way of approach (to Allah) not help them? Nay, but they vanished completely from them (when there came the torment). And that was their lie, and their inventions which they had been inventing (before their destruction)."*³⁰

There is further evidence of this as stated clearly in the following verses:

*"Those Jews who said: Verily Allah has taken our promise not to believe in any Messenger unless he brings us an offering which the fire (from heaven) shall devour. Say: verily, there came to you Messenger before me, with clear signs and even with that you speak of; why then did you kill them, if you are truthful?"*³¹

God re-asserts, in the following verses, that worship in Judaism involves praying and paying zakat (alms-tax):

*"Indeed, Allah took the covenant from the children of Israel (Jews), and we appointed twelve leaders among them. And Allah said: I am with you if you perform As-Salat (Iqamat-as-Salat) and give Zakat and believe in My Messengers; honour and assist them, and lend a good loan to Allah, verily, I will expiate your sins and admit you to Gardens under which rivers flow (in Paradise). But if any of you after this, disbelieved, he has indeed gone astray from the Straight Path."*³²

Again, this means that worship in Judaism does not require a temple for donating offerings. Hence, this rite of worship is distorted.

The alleged precedence

As for the alleged precedence, promoted by the written Jewish narrative as an absolute racial precedence, it is a mere temporal. It means that Jews were chosen to be charged with a specific task, that is, the mission of Judaism. It is not racial, but selective, temporally restricted by the mission. The holy verse says:

*"O Children of Israel, remember My Favour which I bestowed upon you and that I preferred you to 'Alamine (Mankind)."*³³

Interpretation of the verse demonstrates clearly that the precedence in this context is restricted. (ar-Razi 1985, vol.3:55-57) It is not absolute, as claimed by Jews, that God had given them precedence. They were selected only for undertaking the mission of Judaism. But they monopolized the faith and considered the precedence to be absolute, racial and innate, and not selective and temporal, and restricted only to the specific mission of Judaism. This is clear in the following verse of the Qur'an:

*"And indeed we gave knowledge to Dawud (David) and Sulaiman (Solomon), and they both said: All praise and thanks are Allah's who has preferred us to many of His believing slaves!"*³⁴

Precedence here is based on knowledge, that is, Jews were selected from among God's believers to undertake the mission of Judaism. This asserts that precedence is not racial bounds as they claimed. This idea is clear, in the following verse of the Qur'an:

*"... And they were covered with humiliation and misery, and they drew on themselves the Wrath of Allah. That was because they used to disbelieve the Ayat (proofs, evidences, verses, lessons, signs, revelation, etc.) of Allah and killed the Prophets wrongfully. That was because they disobeyed and used to transgress the bounds (in their disobedience to Allah, i.e. commit crimes and sins)."*³⁵

This begs the question why those servile people who had gone astray and incurred the wrath of God became God's chosen people, enjoying innate and racial precedence over

other nations? The Qur'anic narrative invalides the racial precedence in the written Jewish narrative altogether, and restricts it to the Jews being charged with the mission of Judaism alone.

The yellow (red) cow

*"And (remember) when Musa (Moses) said to his people: Verily Allah commands you that you slaughter a cow. They said, Do you make fun of us? He said, I take Allah's refuge from being Among Al-Jahlilun (the ignorant or the foolish). They said, Call upon your Lord for us that He make plain to us what it is! He said, He says Verily, it is a cow neither too old nor too young, but (it is) between the two conditions', so do what you are commanded. They said, call upon your Lord for us to make plain to us its colour. He said, He says, It is a yellow cow, bright in its colour, pleasing the beholders. They said, Call upon your Lord for us to make plain to us what it is. Verily to us all cows are alike. And surely, if Allah wills, we will be guided. He [Musa (Moses)] said, He says, it is a cow neither trained to till the soil nor water the fields, sound, having no other colour except bright yellow. They said, Now you have brought the truth. So they slaughtered it though they were near to not doing it. And [remember] when you killed a man and fell into dispute among yourselves as to the crime. But Allah brought forth that which you were hiding. So we said: Strike him (the dead man) with a piece of it (the cow). Thus Allah brings the dead to live and shows you His Ayat (proofs, evidences, verses, lessons, signs, revelations, etc.) so that you may understand."*³⁶

As stated in the verse of the Qur'an cited above, the aim of slaughtering the yellow cow was to reveal the murderer by hitting the body of the murdered victim with it, so as to revive him from death. It was not meant to be an offering, i.e., a worshipping rite, as in the rite of the red cow, which the Jews offer on Yom Kippur (the day of repentance). The latter was a religious rite adopted from the ancient Egyptian religion. Here, the Qur'an asserts that worship was not about donating offerings, as the Jews practised it, in imitating ancient

Egyptian and Canaanite religions. The Qur'an also asserts with regard to the Jews distortion of religious obligations that God says:

*"And indeed Musa (Moses) came to you with clear proofs, yet you worshipped the calf after he left, and you were Zalumun (polytheists and wrong-doers). And (remember) when we took your covenant and we raised above you the mount (saying), Hold firmly to what we have given you and hear (our word). They said, we have heard and disobeyed. And their hearts absorbed (the worship of) the calf because of their disbelief. Say: Worst indeed is that which your faith enjoins on you if you are believers."*³⁷

The Jews' disobedience, then, was not out of ignorance. They knew the truth perfectly well about their religion, which required worshipping God, and had nothing to do with worshipping the calf. It required praying and paying alms-tax; and not donating offerings, as already demonstrated. Thus, the Qur'anic narrative reveals the truth about Judaism as a divine religion founded upon worshipping God through prayer and paying alms-tax. The Qur'anic narrative also reveals the Jewish distortion of their own religion. It demonstrates that they did not need the alleged temple and refutes their historical claims that they were God's chosen people.

The Qur'anic narrative not only contradicts the written Jewish narrative, but also invalidates most of its detail and exaggeration. Moreover, all the ancient Egyptian, Assyrian, Babylonian, Persian, Greek and Roman historical sources disregarded the written Jewish narrative. This invalidates the Jewish presence in geography, and, hence, in history. That being so, they therefore, tried to distort archaeological findings in an attempt to support their fabricated narrative.

Archaeology

Archaeology has never provided any physical or written documented evidence that supports the allegations of the written Jewish narrative. That is in spite of all the attempts made by Western and Jewish historians - with the few exceptions already mentioned - to twist the archaeological findings when attempting to make them conform to the said narrative. Velikovsky is one such historian whose desperate efforts in his book, (1950), *Ages in Chaos*, to come up with a match between

archaeology and the written Jewish narrative, failed completely to provide any evidence of such a match. Moreover, the excavations carried out by Western and Jewish archaeologists in Jerusalem failed to provide a single piece of physical evidence to support the written Jewish narrative. So much so, that this prompted the Jewish archaeologist, Meir Ben Dov- to declare the excavations terminated in the surroundings of the al-Aqsa mosque and to admit that the alleged temple could not be found in Jerusalem. Armed with these facts, the scholars engaged in the history of Jerusalem should also put archaeology to use for refuting the written Jewish narrative, in order to invalidate its claims that the alleged temple really ever existed; and that the Jews have an alleged historical right in Palestine and in Jerusalem.

Ottoman archives

The Ottoman archives are among the richest modern sources on the history of Palestine and Jerusalem. They are well documented and preserved in Istanbul and they cover the period 1517-1917CE, i.e., four centuries. But, except for a few, very limited, and superficial examples, few attempts have been made, so far, to put these archives to use by Arab and Muslim scholars engaged in the general history and political history of Palestine. In contrast, Western and Jewish researchers have exploited the said archives and examined them thoroughly. By adding their own distorted interpretation of some of the documents, Western and Jewish researchers have managed to insert the Jewish presence into Palestine, and specifically into Jerusalem. Hence, their research has become a reference for all Arab scholars and researchers engaged in the history of that region. That being the case, the Arab League and Arab universities should facilitate access to the Ottoman archives, and oblige researchers to benefit from them directly and not by citation from Western and Jewish researches. Arab researchers need to be directed and encouraged to liberate themselves from the authority of the said research in the process of shaping their own awareness, and from any attempts by those researchers to dictate their perspective. In this context, the powerful presence of the Western and Jewish researchers is the main impediment hindering the shaping of an independent Arab historical and political consciousness. To be freed from such an impediment can only occur through

sheer willpower and by the direct and thorough study of and referral to the authentic sources, and the Ottoman archives, and independently of the Western and Jewish perspectives that regrettably continue to shape the consciousness of Arab scholars and researchers engaged in the history of Palestine and Jerusalem. This cannot be done superficially and is an issue now addressed.

The superficial dealing of historical documents

The superficiality of the papers and researches submitted at seminars, meetings and publications that address the issue of Jerusalem is clearly visible to any participant at such events. The limited historical and cultural background of most participants is evident. This was clearly manifested in the 2009 CE conferences held, in Amman, Jordan on the occasion of choosing Jerusalem as the capital of Arab culture. The papers suffered from lack of academic sincerity, epistemological depth and methodological seriousness, and a failure to put historical facts to use to the advantage of the Arab cause of Jerusalem; hence, an inability to come up with a purely Arab viewpoint on Jerusalem.

Regrettably, some organizations, forums and bodies concerned with Jerusalem, behave like sheikhdoms and less as organizations whose main concern is serving the Arab cause of Jerusalem. They keep qualified persons away and instead bring their own cronies in as participants. They still insist on inviting foreign - and not Arab - researchers to participate in the conferences dedicated to Jerusalem. This indicates the extent of the cultural and historical hollowness of those in charge of the organizations; it also indicates their lack of self-esteem and inferiority complex with regard to foreigners.

Historical errors and fallacies are numerous. One history professor who participated in the conference on Jerusalem – the capital of Arab culture- even denied that the Treaty of Umar was drawn up by Umar ibn al-Khattab and claimed that it was written after him. Had that professor had any historical sense, he would not have made such a claim and would have adhered to the commonly-agreed narrative that the treaty was concluded during Umar's reign. By adhering to that particular historical source, he failed to uphold the fact that the treaty had been concluded by a Muslim and in an Islamic spirit, whether it be Umar ibn el-Khattab or

another, and that it characterized Islam's respect for the freedom of worship and safety of the lives and property of non-Muslims.

Another participant iterated the Jewish narrative that claims that Sultan Salim I (1512-1520) gave permission to the Jews to gather and pray at al-Buraq Wall (Wailing Wall). Such a claim has no basis. The Ottoman archives do not contain anything to support it. I have refuted this claim in my *The Traditional Center of the City of Jerusalem Between Continuity and Demolition* (2008).

Among other frequent examples of faulty reasoning is the use of Jewish terms and designations for certain places instead of Arab ones, such as using the 'Wailing Wall' instead of al-Buraq Wall; 'The Jewish quarter' instead of 'The Islamic southern quarter or al-Magharbah quarter', and the 'Arc of Wilson' instead of 'The Umayyad bridge' on the Western wall of al-Aqsa mosque that connects the Umayyad palaces with the mosque. These are but a few examples. This serves to enhance the presence of the Jewish allegations in the Arab and Islamic collective consciousness, and must be avoided.

We also feel the superficiality of some Arab participants at the conferences shared with Jews. In "The Future of Jerusalem", conference, held in Jerusalem in 1993CE, the Jews sent their best experts in international law, while the Palestinian participants did not have a single expert on international law expert among their delegation. The Jews were well-prepared for the conference, while the Palestinians participated without preparation in a spirit of instantaneous mobilization. The Palestinians even left it up to the Jews to edit the conference proceedings. Typically, the Jews who edited the proceedings falsely ascribed to the Palestinian participants that the Jerusalem the Palestinian delegation was negotiating was located east of Wadi Jahannam (Valley of Hell), or Abu Dees (east of the eastern wall of the old city), and not east Jerusalem (the Old City inside the Wall and its suburbs) which was occupied in 1967CE. (Gershon p.1-5).

The same occurred at the conference, held in two rounds, dedicated to the planning of Jerusalem. The first round was held in Jerusalem in 1997CE, the second in Bellagio, Italy in 1999 CE. A book - *The Next Jerusalem* edited by Sorkin, (2002) - was compiled after the conference and held that some Palestinian participants had adopted the Jewish planning projects. Remarkably, here again the Jewish

editor of the book resorted to further distortion. He falsely ascribed to the Arab participants that they had spoken of Jerusalem as located east of Wadi Jahannam (Valley of Hell), or Abu Dees (east of the eastern wall of the old city), and not east Jerusalem (the Old City inside the Wall and its suburbs) that was occupied in 1967CE. I have reviewed this book in my book (al-'Abed, 2010: 113-131) and pointed out the danger that such projects represent for Jerusalem.

Some publications about Jerusalem abound in historical fallacies. One such publication, entitled *Jerusalem in the Conscience* (2012) contains a map entitled "Jerusalem is the Centre of the World" drawn by the German Heinrich Bunting in 1581CE. It is illustrated as being the Madaba Mosaic map that goes back to the sixth century! Strikingly, the Madaba Mosaic map is still existed in the city of Madaba, south of Amman, Jordan!

The truth is that the superficiality with which the history of Palestine and Jerusalem, in particular, is treated is too formidable to be revealed in its entirety here. Regrettably, it is an apparent characteristic in the research that deals with Palestine and Jerusalem. We hope it will be soon be overcome.

In conclusion, Arab and Muslim historians, scholars, politicians, intellectuals, and free thinkers all over the world must dissociate themselves from the distorted Jewish written narrative and adopt a mere scientific and comprehensive – particularly the Qur'anic narrative - approach in rewriting the history of Palestine and Jerusalem, in order to free it from the lies and distortion of the Jewish written narrative.

Disclosure statement

No potential conflict of interest was reported by the author.

Notes

- 1 For the translation of the verses of The Noble QUR'AN in the English Language I used the translation approved by The Islamic University at al-Madinah al-Munawwarah. Al-Hilali, M. T., & Khan, M. M. 2006. *Translation of the Meanings of THE NOBLE QUR'AN IN THE ENGLISH LANGUAGE*. Madinah:, King Fahed Complex For The Printing Of The Holy Qur'an.
- 2 *Tanakh*, Exodus, 3:17 and 13:5–6
- 3 Al-Qur'an, surah *al-Baqarah*, *aya* (verse): 61.
- 4 Al-Qur'an, surah, *al-Ma'idah*, *aya*: 21.
- 5 *Tanakh*, Exodus, 3:8–13, 17:5–6, 33:1–3 and 34:11–12
- 6 Al-Qur'an, surah *ash-Shu'ara'*, *ayat* (verses): 52–54.
- 7 *Tanakh*, Exodus, 12:37–39.
- 8 Al-Qur'an, surah *an-Naml*, *ayat*: 20–22.
- 9 Al-Qur'an, surah *an-Naml*, *ayat*: 39–40.
- 10 Al-Qur'an, surah *al-Haqqah*, *ayat*: 4–10.
- 11 *Tanakh*, Ezra, 4:1–4.
- 12 *Tanakh*, Chronicles 2, 36:5–8.
- 13 Al-Qur'an, surah *al-Isra'*, *ayat*: 1–8.
- 14 Al-Qur'an, surah *Ibrahim*, *aya*: 37.
- 15 Al-Qur'an, surah *al-Hajj*, *aya*: 26.
- 16 Al-Qur'an, surah *al-Baqarah*, *aya*: 12
- 17 *Tanakh*, Chronicles 2:22, 36:5–8; and Ezra, chs 4 and 10.
- 18 Al-Qur'an, surah *al-Isra'*, *aya*: 8.
- 19 *Tanakh*, Ezra, chs 1–3.
- 20 *Tanakh*, Ezra, 4:6–24.
- 21 *Tanakh*, Ezra, ch. 5 and 6:1–17.
- 22 Al-Qur'an, surah *ash-Shu'ara'*, *ayat*: 192–197.
- 23 Al-Qur'an, surah *al-Baqarah*, *aya*: 79.
- 24 Al-Qur'an, surah *an-Naml*, *aya*: 76.
- 25 Al-Qur'an, surah *al-Ma'idah*, *aya*: 15.
- 26 *Tanakh*, Exodus, 3:13–17.
- 27 Al-Qur'an, surah *al-Baqarah*, *aya*: 43.
- 28 Al-Qur'an, surah *al-Baqarah*, *aya*: 45.
- 29 Al-Qur'an, surah *al-Baqarah*, *aya*: 83.
- 30 Al-Qur'an, surah *al-Ahqaf*, *aya*: 28.
- 31 Al-Qur'an, surah *'al-'Imran*, *aya*: 183
- 32 Al-Qur'an, surah *al-Ma'idah*, *aya*: 12.
- 33 Al-Qur'an, surah *al-Baqarah*, *aya*: 47.
- 34 Al-Qur'an, surah *an-Naml*, *aya*: 15.
- 35 Al-Qur'an, surah *al-Baqarah*, *aya*: 61.
- 36 Al-Qur'an, surah *al-Baqarah*, *ayat*: 67–73
- 37 Al-Qur'an, surah *al-Baqarah*, *ayat*: 92–93.

References

Al-'Abed, Badi'. 2008. *The Traditional Center of the City of Jerusalem between Continuity and Demolition*. Amman: Amman City Cultural Directorate.

Al-'Abed, Badi'. 2010. *The Architectural Identity of Jerusalem*. Amman: Ministry of Culture.

Al-Hilali, M. T., and M. M. Khan. 2006. *Translation of the Meanings of the Noble Qur'an in the English Language*. Madinah: King Fahed Complex for the Printing of the Holy Qur'an.

Arabic Life Application Bible (LAB), (2002). New Arabic Version (NAV) "Book Life", International Bible Society, first print, Tyndal House Publisher, Inc. Great Britain.

At-Tabari, Abu Ja'far Muhammad ibn Jarir. 1980. *Jami' Al-Bayan Fi Tafsir Al-Qur'an: Tafsir Al-Tabari* [The Statement on the Interpretation of the Qur'an: Interpretation of Al-Tabari], Vol. 30, 4th edn (1400 H., vol. 15: 17-35). Beirut: Dar Al-Ma'rafa.

Forum of Arab Thought. 2012. *Jerusalem in the Conscience*. Amman: Forum of Arab Thought.

Gershon, B. & Twite, R. 1993. (Editors), the Future of Jerusalem. Jerusalem: Israel Palestinian Centre for Research and Information (IPCRI)

Herodotus. 2001. *The History of Herodotus*. Translated by Abdul-Ilah Al-Mallah. Abu Dhabi: Al-Mujamma' Al-Thaqafi - The Cultural Assembly.

Ibn Khaldun, Abu Zeid bin Abdul Rahman bin Muhammad. (Without history of publication). *The Introduction*. Beirut: Al-A'jami Institute.

Ibn Katheer, Abu al-fida' Isma'il ibn Umar. 1985. *Al-Bidaya wa Nihaya, the Beginning and the End*, Vol. 1. (1406 H., 14 vols). Beirut: Al-Ma'arf Library.

Ar-Razi, Abu Baker Muhammad. 1985. *at-Tafsir al-Kabir (Mafateeh al-Ghayb)* [Interpretation of Ar-Razi (Keys to the Unknown or the Great Interpretation)] (1405 H., third edn). Beirut: Dar Al-Fikr.

Sand, Shlomo. 2010. *The Invention of the Jewish People*. Translated by Sa'id Ayash Amman: Al-Ahlia.

Sorkin, M., ed. 2002. *The Next Jerusalem*. New York: Monacelli.

Thompson, Thomas. 2000. *The Mythic Past, the Bible in History*. Translated by Adnan Hasan. Damascus: Cadmus House.

Velikovsky, Immanuel. 1995. *Ages in Chaos: From the Exodus to King Akhnaton*. Translated by Rif'at Al-Sayed. Cairo: Sina'.

Whitelam, Keith. 2000. *Invention of Ancient Israel: The Silencing of Palestinian History*. Translated by Mamdouh Udwan. Damascus: Cadmus House.

المصادر التاريخية والرواية القرآنية المغيبة في تاريخ فلسطين والقدس

الأستاذ الدكتور بديع العابد

عميد سابق لكلية الهندسة - جامعة الإسراء - الأردن

ملخص

هناك مصدر يفرض حضوره على الباحثين في تاريخ فلسطين والقدس وهو الرواية التناخية (التوراتية-المصادر الكتابية اليهودية) مع بعض الاستثناءات المحدودة التي تعارضها. أما المصادر التاريخية الأخرى فهي مغيبة ومنسية، وهي: المصرية القديمة، والسامية، واليونانية، والفارسية، والرومانية، والرواية القرآنية. التي يُتعمد تغييبها من قبل الباحثين اليهود والغربيين لمعارضتها، بل لنفيها، لرواية المصادر الكتابية اليهودية، وللحضور اليهودي في التاريخ. الأمر الذي يترتب عليه نفي الرواية الكتابية اليهودية شكلاً وموضوعاً. أما الباحثون العرب، قديمهم وحديثهم، فالغالبية الساحقة منهم، تتبنى رواية المصادر الكتابية اليهودية، من خلال اعتمادها على المراجع اليهودية والغربية في كتابة تاريخ فلسطين والقدس. وربما يعود السبب في عدم توظيف الباحثين العرب للمصادر التاريخية التي تعارض الرواية الكتابية اليهودية، إما لعدم معرفتهم بها، أو لعدم قدرتهم على توظيفها، أو للسببين معاً. واللافت أن معظم المؤرخين والمفسرين المسلمين تبنا الرواية اليهودية في تفسير آيات القرآن الكريم الخاصة باليهود. كما زعم بعضهم أن المسجد الأقصى من بناء النبيين داود وسليمان. يهدف هذا البحث للتعريف بالمصادر التاريخية المغيبة (المصرية القديمة، السامية، اليونانية، الفارسية، الرومانية) في تاريخ فلسطين والقدس، ويبين آلية توظيفها. ولتحقيق ذلك سيعرض البحث لرواية المصادر الكتابية اليهودية، ثم للمصادر التاريخية المغيبة، ويبين معارضة ونفي الثانية للأولى، وخلو الثانية بالمطلق من مزاعم الأحداث التاريخية التي سجلتها الرواية الكتابية اليهودية، الأمر الذي ينفي حدوثها ويكشف زيفها وكذبها. ثم يقابل البحث الرواية الكتابية اليهودية بالرواية القرآنية التي تسجل، في الأعم الأغلب، معجزات دينية، فوق تاريخية، وليس أحداث تاريخية بشرية معاشة. ثم يبين البحث مبالغات وزيف الرواية الكتابية اليهودية، التي عمدت إلى تحويل المعجزة الدينية إلى حدث تاريخي بشري معاش في محاولة لإقحام اليهود في تاريخ فلسطين والمنطقة العربية.

2008 - 2018

كان التاريخي

www.kanhistorique.org

Historical Kan Periodical

ISSN: 2090 – 0449 (Online).

Peer-reviewed, open-access journal,
indexed and abstracted in several
international databases.

info@kanhistorique.org